كتاب المفهم

لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم

لأبي العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي

دفين الأسكندرية عام 656هـ - 1258م

عن نسخة نادرة

بخط الرحالة المغربي ابن بطوطة

بالمدرسة العزيزية بدمشق عام 727هـ - 1327م

تقديم وتحقيق

د. عبد الهادي التازي

عضو أكاديمية المملكة المغربية

والمجامع العربية

الجزء الرابع

1425هـ - 2004م

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية

كتاب المفهم

لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم

كتاب المفهم

لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم

لأبي العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي

دفين الأسكندرية عام 656 هـ - 1258 م

عن نسخة نادرة

بخط الرحالة المغربي ابن بطوطة

بالمدرسة العزيزية بدمشق عام 727 هـ - 1327 م

تقديم وتحقيق

د. عبد الهادي التازي

عضو أكاديمية المملكة المغربية

والمجامع العربية

الجزء الرابع

1425 هـ - 2004 م

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية



الـكـتـاب : **كتاب المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم**

الـمـؤلـف : أبو العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي

تقديم وتحقيـق : د. عبد الهادي التازي

الـحـقـوق : جميع الحقوق محفوظة للوزارة

الـنـاشـر : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الطبعـة الأولى : 1426هـ/2005م

الـمطبـعـة : مطبعة الكرامة – الرباط – المغرب

الهاتف: 037.20.87.52 – فاكس: 037.20.87.53

الإيداع القانوني : 2004/1439

ردمـك : 9954-0-3778-0

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما

كتـــاب البـــر والصـــلة

باب في برّ الوالدين، وما للأمِّ من البر

عن أبي هريرة، قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: مَنْ أحقُّ النَّاس بحسن صحابتي؟ قال: "أمُّك". قال: ثم مَنْ؟ قال: "أمُّك". قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: "أمُّك". قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: "أبوك".

وفي رواية: "ثُمَّ أدْنَاكَ أدناك".

كتاب البِرِّ والصِّلة

ومن باب: برّ الوالدين

(قوله: مَن أحقُّ الناس بِحُسْن صَحابتي) أحقُّ: أولى وأوكد، والصَّحابة: الصُّحبة، يقال: صحبه يصحبه صحبة وصحابة.

و(قوله: "أمُّك" ثلاث مرات، وفي الرابعة: "أبوك") يدلُّ على صحَّة قول من قال: إنَّ للأم ثلاثة أرباع البر، وللأب رُبُعه، ومعنى ذلك: أن حقَّهما — وإن كان واجباً — فالأم تستحقُّ الحظَّ الأوفر من ذلك، وفائدةُ ذلك المبالغةُ في القيام بحقِّ الأم، وأن حقَّها مُقدَّمٌ عند تزاحم حقِّها وحقِّه.

و(قوله: "ثم أدناك أدناك") يعني: أنك إذا قمت ببرِّ الأبوين تعيَّن عليك القيامُ بصلة رَحمك، تبدأ منهم بالأقرب إليك نسباً فالأقرب، وهذا كلُّه عند تزاحم الحقوق، وأما عند التمكُّن من القيام بحقوق الجميع، فيتعيَّن القيامُ بجميع ذلك.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، وابن ماجه.

وعن عبد الله بن عمر، قال: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ يستأذنُهُ في الجِهاد. فقال: "أحَيٌّ وَلِداكَ؟" قال: نعم. قال: "ففيهما فجاهد".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ، والنسائي.

و(قوله: "أما وأبيك لتنبأنَّه" قد تقدَّم الكلامُ في الأيمان على القسم بالأب عند قوله: "أفلح وأبيه ! إن صدق". ولتنبأنَّ: لتخبرنَّ بذلك، والهاء للسَّكت، ويُحتمل: أن تكون ضمير المصدر الذي دلَّ عليه لتنبأنَّ.

و(قوله: جاء رجل يستأذنه في الجهاد فقال: "ألك أبوان؟" قال: نعم) فيه ما يدلُّ على أن المفتي إذا خاف على السَّائل الغلط، أو عَدَم الفهم تعيَّن عليه الاستفصال، وعلى أنَّ الفروضَ والمندوبات مهما اجتمعت قُدِّم الأهمُّ منها، وأنَّ القائمَ على الأبوين يكونُ له أجرُ مجاهدٍ وزيادة.

و(قوله: "ففيهما فجاهد") أي: جاهدْ نفسك في برِّهما وطاعتهما، فهو الأولى بك؛ لأنَّ الجهادَ فرضُ كفاية، وبرُّ الوالدين فرضُ عين، فلو تعيَّن الجهادُ وكان والداه في كفاية، ولم يمنعاه، أو أحدهما من ذلك، بدأ بالجهاد. فلو لم يكونا في كفاية تعيَّن عليه القيامُ بهما، فبدأ به، فلو كانا في كفاية ومنعاه لم يلتفتْ إلى منعهما؛ لأنهما عاصيان بذلك المنع، وإنما الطاعةُ في المعروف، كما لو مَنَعاه من صلاة الفرض. فأما الحجُّ فله أن يؤخِّره السنة والسنتين ابتغاءَ رضاهما، قاله مالك. هذا وإن قلنا: إنه واجبٌ على الفور مراعاةً لقول من يقولُ: إنه على التّراخي. وقد تقدَّم القولُ على دلك في الحج.

وعنه؛ قال: أقبل رجلٌ إلى النبيّ ﷺ فقال: أُبايعُكَ على الهجرة، والجهاد، أبتغي الأجرَ من الله. قال:"فهل من والديك أحدٌ حيٌّ؟" قال: نعم؛ كلاهما. قال: "فَتبغي الأجرَ من الله؟" قال: نعم. قال: "فارْجِعْ إلى والديكَ فأحسنْ صُحَبَتَهُما".

رواه أحمد، ومسلم.

و(قوله الأعرابي: أبايُعك على الهجرة) أي: على أنْ أهجر دار قومي، وأهاجرَ إليك، فأقيم معك في المدينة، وهذا كان في زمن وُجُوب الهجرة.

و(قوله: "فارجع إلى والديك فأحسنْ صُحبتهما") قد قدَّمنا ذِكْرَ الخلاف في وجوب الهجرة، هل كان على أهل مكَّة خاصَّة، أو كان على كلِّ مَن أسلم؟ وعلى القولين فقد أسقط عنه الهجرة، لأنَّ حقَّ الوالدين أولى؛ لأنه إن كانت الهجرةُ عليه واجبة، فقد عارضها ما هو أوجبُ منها، وهو حقُّ الوالدين، فقُدِّم، وإن لم تكن واجبةٌ عليه، فالواجبُ أولى على كلِّ حال، لكنه إنما يصحُّ هذا ممن يَسْلَمُ له في موضعه دينُه، فأما لو خاف الفتنةَ على دينه لوجبَ عليه الفرارُ بدينه، وتَرْكُ آبائه وأولاده، كما فَعَل المهاجريون الذين هم صَفْوة الله من عباده. وبرُّ الوالدين واجبٌ على الجملة بالكتاب، والسُّنَّة، وإجماع الأمَّة، وكذلك صلةُ الأرحام، وأما تفصيلُ ما يكون برّا وصلة، وما لا يكون، فلذلك يستدعي تفصيلاً ليس هذا موضعه.

باب ما يتَّقى من دعاء الأمِّ

عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: "لم يتكلمْ في المهْد إلاّ ثلاثةٌ: عيسى ابنُ مريمَ، وصاحبُ جُرَيْج، وكان جريجٌ رجلاً عابداً، فاتخذ صومعةً، فكان فيها، فأتَتْه أُمُّه وهو يُصلِّ، فقالتْ: يا جريجُ! فقال: يا ربِّ! أمِّي وصلاتي! فأقبَل على صلاته، فانْصرَفَتْ، فلما كانَ من الغد أتته وهو يصلِّي، فقالتْ: يا جريجُ! فقال: يا رب! أمي وصلاتي! فأقبل على صلاته، فانصرفتْ. فلما كان من الغد أتته، فقالت: يا جريج!

ومن باب: ما يتَّقى من دعاء الأم

(قوله: "لم يتكلَّم في المهد إلا ثلاثة") المهد: أصله مصدر مَهَّدت الشيء أمَهِّده: إذا سوَّيته وعدَّلته. فمهدُ الصبيِّ: كلُّ محل يُسوَّى له ويُوطَّأ، وقد يكون سريره، وقد يكون حجر أمِّه، كما قال قتادة: في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كانَ في المَهْد صَبيًّا﴾[1] أي: في حجر أمه. وظاهر هذا الحصر يقتضي أن لا يُوجد صغير تَكلَّم في المهد إلا هؤلاء الثلاثة، وهم: عيسى، وصبيُّ جريح، والصبيُّ المتعوِّذ من الجبَّار. وقد جاء في من حديث صهيب المذكور في تفسير سورة البروج في قصة الأخدود: أن امرأة جيء بها لتُلقى في النار على إيمانها ومعها صبيٌّ لها في – غير كتاب مسلم: يرضعُ – فتقاعست أن تقعَ فيها، فقال لها الغلامُ: يا أمَّه! اصبري، فإنك على الحق. وقال ابن عباس – رضي الله عنهما –: إنَّ شاهدَ يوسف كان صبيّا في المهد، وقال الضحّاك: تكلَّم في المهد ستة: شاهد يوسف، وصبيُّ ماشطة امرأة فرعون،و عيسى، ويحيى، وصاحب جريج، وصاحب الأُخدود.

---

[1]– سورة مريم، الآية 29.

فقال: أي ربِّ ! أمِّي وصلاتي ! فأقبل على صلاته. فقالتْ: اللهم لا تُمتْه حتى ينظرَ إلى وجوه المُومسَات، فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادتَه، وكانت امرأة بَغيٌّ يُتمثَّلُ بحُسْنها، فقالتْ: إنْ شئْتُم لأَفْتنَنَّه لكم. قال: فتعرضتْ له فلم يلتفتْ إليها، فأتتْ راعياً كان يأوي إلى صومعته فأمكَنَته من نفسها، فوقع عليها، فحملت، فلما ولدت قالت: هو من جريْج. فأتوه،

قال الشيخ رحمه الله: فأسقطَ الضحَّاك صبيَّ الجبَّار، وذكرَ مكانَه يحيى، وعلى هذا فيكون المتكلِّمون في المهد سبعة، فبطلَ الحصرُ بالثلاثة المذكورين في الحديث.

قال الشيخ رحمه الله: ويُجاب عن ذلك: بأن الثلاثة المذكورين في الحديث هم الذين صحَّ أنهم تكلَّموا في المهد، ولم يختلف فيهم فيما علمت، واختُلف فيمن عداهم، فقيل: إنهم كانوا كباراً بحيث يتكلَّمون ويعقلون، وليس فيهم أصحُّ من حديث صاحب الأُخدود، ولم تَسْلَم صحة الجميع، فيرتفعُ الإشكال بأن النبيَّ أخبرَ بما كان في علمه مما أثوحي عليه في تلك الحال، ثم بعد هذا أعلمَه الله تعالى بأشياء من ذلك، فأخبرنا بذلك على ما في علمه.

و(قوله: "يا ربِّ أُمِّي وصلاتي") قول يدلُّ على: أن جُريجاً — رضي الله عنه — كان عابداً، ولم يكن عالماً؛ إذ بأدنى فكرة يُدْركُ أن صلاتَه كانت ندباً، وإجابة أمِّه كانت عليه واجبةٌ، فلا تعارضَ يُوجبُ إشكالاً، فكان يجب عليه تخفيفَ صلاته، أو قطعها، وإجابةَ أُمِّه، لا سيما وقد تكرَّر مجيئها إليه، وتشوُّقُها واحتياجُها لمكالمته. وهذا كلُّه يدلُّ على تعيُّن إجابته إياها، ألا ترى أنه أغضبها بإعراضه عنها، وإقباله على صلاته؟ ويبعدُ اختلاف الشرائع في وجوب برِّ الوالدين. وعند ذلكَ دعتْ عليه، فأجابَ الله دعاءَها تأديباً له، وإظهاراً لكرامتها، والظاهر من هذا الدعاء أن

فاستنزلُوه، وهدموا صَوْمعته، وجعلوا يَضْربونَه. فقال: ما شأنُكم؟ قالوا: زَنَيْتَ بهذه البَغيِّ، فولدتْ منك ! فقال: أين الصَّبيُّ؟ فجاؤوا به، فقال: دعوني حتى أُصَلِّيَ، فصلىَّ، فلمّا انصرفَ أتى الصبيَّ، فطَعَنَ في بَطْنه، فقال: يا غلام ! من أبوك؟ قال: فلانٌ الرّاعي ! قال: فأَقْبلُوا على جُرَيج يُقبِّلونَه ويتَمَسَّحون به. وقالوا: نَبْني لكَ صومعَتَك من ذَهَب. قال: لا. أَعيدُوها من

هذه المرأة كانت فاضلة عالمةٌ، ألا ترى كيف تحرَّزت في دعائها فقالت: اللهم ! لا تُمتْه حتى ينظرَ إلى وجوه المومسات، فقالت: حتى ينظرَ، ولم تقل غيرَ ذلك، وقد جاءَ في بعض الطرق هذا الحديث:ولو دعت عليه أن يُفتن لفُتنَ. وهي أيضاً: لو كظمتْ غيظَها وصبرت لكان ذلك الأولى بها، لكنْ ما علمَ الله تعالى صدق حالهما لطفَ بهما، وأظهرَ مكانتهما عنده بما أظهرَ من كرامتهما.

وفائدته: تأكُّدُ سعي الولد في إرضاء الأم، واجتناب ما يُغيِّر قلبها، واغتنامُ صالح دعوتها، ولذلك قال ﷺ: "الجنة تحت أقدام الأمهات" أي: من انتهى من التواضع لأمِّه بحيث لا يشقُّ عليه أن يضعَ قدمها على خدِّه استوجبَ بذلك الجنة، والأولى في هذا الحديث أن يقال: أه خرجَ مخرج المثل الذي يُقصد به الإغباء في المبرَّة والإكرام، وهو نحو من قوله ﷺ:" الجنَّة تحت ظلال السيوف".

والمومسات: جمع مُومسة، وهي الزانية.

و(قوله: "يا غلامُ من أبوكَ. قال: فلان الراعي") يتمسك به من قال: إن الزِّنى يُحرّم كما يُحرِّم الوطء الحلال، فلا تحلُّ أمُّ المزني بها، ولا بناتها للزاني، ولا تحلُّ المزني بها لآباء الزاني، ولا لأولاده. وهي رواية ابن القاسم عن مالك في المدونة، وفي الموطأ: أن الزِّنى لا يُحرِّم حلالا. ويُستدل به أيضاً: أن المخلوقةَ من ماء الزاني لا تحلُّ للزاني بأُمها، وهو المشهور، وقد قال

طين كما كانَتْ، ففَعَلُوا. وبيَنا صَبيّ يرضعُ من أُمِّه. فمرّ رجلٌ راكبٌ على دابَّةٍ فارهة، وشارة حَسَنة. فقالتْ أُمُّه: اللهُمّ ! اجْعَلْ ابني مثل هذا ! فترك الثَّدْيَ وأقبَل إليْه، فنظر إليه، فقال: اللهم لا تَجْعَلْني مثْله ! ثم أقبل على ثَدْيه فجعل يرتضع، فكأنّي أنظرُ رسول الله ﷺ وهُو يَحْكي ارْتضاعَه بإصْبعه السَّبَّابة في فمه، فجعَلَ يَمُصُّها. قال: ومرُّوا بجارية وهم يضربُونَها ويقولون: زَنَيْتِ ! سَرَقْت ! وهي تقول: حَسْبِيَ الله ونعمَ الوكيلُ، فقالت

عبد الملك ابن الماجشون: أنها تحلُّ، ووجه التَّمسُّك على تينك المسألتين: أن النبيَّ ﷺ قد حكي عن جُريج أنه نسبَ ابن ابن الزاني، وصدَّقَ الله نسبته بما خرقَ له من العادة في نُطق الصبيِّ بالشهادة له بذلك، فقد صدَّق الله جُريجاً في تلك النسبة وأخبر بها النبيَّ ﷺ عن جُريج في معرض المدح لجريج وإظهار كرامته، فكانت تلك النسبة صحيحةً بتصديق الله وبإخرار النبيّ ﷺ عن ذلك فثبتت البنوَّة وأحكامها. لا يُقال: فيلزم على هذا أن تجري بسببهما أحكام النبوَّة والأبوة من التوارث، والولايات، وغير ذلك، وقد اتفق المسلمون على: أنه لا توارثَ بينهما، فلم تصحَّ تلك النسبة؛ لأنا نُجيب عن ذلك بان ذلك موجب ما ذكرناه، وقد ظهر ذلك في الأم من الزنى؛ فإن أحكام النبوَّة والأمومة جارية عليهما، فما انعقدَ الإجماع عليه من الأحكام: أنه لا يجري بينهما استثنيناه، وبقيَ الباقي على أصل ذلك الدليل. وفيها مباحث تُستوفى في غير هذا الموضع — إن شاء الله تعالى-.

و(قوله: "نبني صومعتك من ذهب. قال: لا ! إلا من طين كما كانت") يدلُّ على أن: من تعدَّى على جدار أو دار وجب عليه أنْ يُعيدَه على حالته، إذا انضبطت صفتُه، وتمكنت مماثلته، ولا تلزم قيمة ما تعدَّى عليه، وقد بوَّب البخاريُّ على حديث جُريج هذا: من هدم حائطاً بنى مثلَه، وهو تصريح بما ذكرناه، وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فاعْتَدُوا عليْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ﴾ ، فإن تعذَّرت المماثلة فالمرجع إلى

أمُّه: اللَّهُم لا تَجعل ابني مثْلَها. فترك الرَّضاعَ، ونظر إليها، فقال: اللهم اجْعَلني مثْلَها ! فهناك تراجَعا الحديث. قالت: حَلْقَى ! مرَّ رجلٌ حسنُ الهيئة فقلتُ: اللهم ! اجْعَل ابني مثْلَه. فقلتَ: اللهم لا تجعلني مثله ! ومروا بهذه الأمَة وهم يضْربونها ويقولون: زَنَيْت، سَرَقْت. فقلتُ: اللهم ! لا تجعل ابني مثْلَها، فقلت: اللهم اجعلني مثلَها ! قال: إنَّ ذاكَ الرجلَ. كان جبَّاراً، فقلتُ: اللهم لا تجْعَلني مثله ! وإنَّ هذه يقولون لها: زَنَيْت، ولم تزنِ ! سرقت، ولم تسرقْ ! قلتُ: اللهم ! اجعلني مثْلَها !.

وفي رواية: فوصف أبو هريرة صفة رسول الله ﷺ أمَّ جريج حين دَعَتْهُ؛ كيف جعلتْ كفَّها فوقَ حاجبِها، ثم رفعتْ رأسَها إليه تدْعوا؛ فقالتْ:

القيمة، وهو مذهبُ الكوفيين والشافعي، وأبي ثورٍ ي الحائط، وفي العتبية عن مالك مثله، ومذهل أهل الظاهر في كلِّ متلفٍ هذا. ومشهورُ مذهب مالك وأصحابه، وجماعة من العلماء: أن فيه وفي سائر المُتلفات المضمونات القيمة؛ إلا ما يرجعُ إلى الكيْل والوزن؛ بناءً على أنه: لا تتحقق المماثلة إلا فيهما.

والدَّابَّة الفارهة: الحسنة النجيبة، والشَّارة: الهيئة المزيَّنة التي يُشار إليها من حسنها. وحلقى — غير مصروف -؛ لأن ألفه للتأنيث كسَكْرى، وهي كلمة جرت في كلامهم مجرى المثل، وأصلُها فيمن أصيبَ حلقها بوجع، وقد تقدَّم: أن عقرى وحلقى: من الكلمات التي جرت على ألسنتهم في معرض الدعاء غير المقصود.

وأمُّ هذا الصبيِّ الرضيع نظرت إلى الصُّورة الظاهرة فاستحسنتْ صورة الرجل وهيأتَه، فدعت لابنها بمثل هذا، واستقبحت صورة الأمة وحالتَها، فدعت ألا يجعلَ ابنَها في مثل حالتها، فأرادَ الله تعالى بلطفه تنبيهها بأنْ انطلقَ لها بنَها الرضيع بما تجبُ مراعاته من الأحوال الباطنة،

"يا جريجُ ! أنا أُمُّك، كَلِّمْني، فصادفته يُصَلِّ. فقال: اللهمَّ أمّي وصلاتي ! فاختار صلاتَه. فقالتْ في الثالثة: اللّهمّ ! إنَّ جُريجٌ، وهو ابني، وإني كلَّمْتُه فأبى أنْ يُكَلِّمَني، اللّهم ! فَلا تُمتْه حتى تُريَه وجه المُومسات ! قال: "ولَو دعتْ عليه أن يُفْتَتن لَفُتِنَ". وذكَر نحو قصة جريج لا غير.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم.

والصِّفات القلبيّة. وهذا كما قال النبيُّ ﷺ: "إن الله لا ينظر إلى صُوركم واموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"، وكما قال بعض حكماء الشعراء:

لَـيْـسَ الجَمـالُ بمئـزَرٍ فاعْلَـمْ وإؤْ رُدِّيـتَ بُـردا
إنَّ الجَـمَـالَ مَـعَـادنٌ وَمَناقِـبٌ أَوْرَثْـنَ مَجْـدا

وهذا الصبي ظاهرُه أنَّ الله تعالى خلقَ فيه عقلاً وإدراكاً كما يخلقُه في الكبار عادةً, ففهم كما يفهمون، ويكون خرقُ العادة في كونه خُلقَ له ذلك قبل أوانه، ويحتمل أن يكون أجرى الله ذلك الكلامَ على لسانه وهو لا يعقله، كما خلقَ في جمادته، كلُّ ذلك ممكن، والقدرة صالحة، والله تعالى أعلم بالواقع منهما.

فأما عيسى- عليه السلام — فخلقَ الله له في مهده ما خلقَ للعقلاء والأنبياء، في حال كمالهم من العقل الكامل، والفهم الثاقب، كما شهدَ له بذلك القرآن. وفي هذا الحديث ما يدلّ على صحة وقوع كرامات الأولياء، وهذا قول جمهور أهل السُّنَّة والعلماء، وقد نُسبَ لبعض العلماء إنكارها، والظنُّ بهم: أنهم ما أنكروا أصلَها، لتجويز العَقل لها، ولما وقع في الكتاب والسنة وأخبار صالحي هذه الأمَّة مما يدلّ على وقوعها، وإنما محل الإنكار ادعاء وقوعها ممن ليس موصوفاً بشروطها، ولا هو أهلٌ لها، وادعاء كثرة وقوع ذلك دائما متكرِّرا حتى يلزمَ عليه أن يرجع خرقُ العادة عادةً, وذلك إبطال لسنّة الله، وحسم السبل الموصلة إلى معرفة نبوة أنبياء الله تعالى.

باب المبالغة في بر الوالدين
عند الكبر وبر أهل ودهما

عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: "رَغِمَ أَنْفُهُ ! ثم رغم أنفه ! ثم رغم أنفه !. قيل: من يا رسول الله؟ ! قال: "مَنْ أَدْرَكَ والدَيه عند الكبرِ أحَدَهُما، أو كليهما، ثم لَمْ يدخل الجنَّة".

ومن باب: المبالغة في برّ الوالدين

قوله: "رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه") يقال: بكسر الغين وفتحها، لغتان. رغم: بفتح الراء وكسرها وضمّها، ومعناه: لصق بالرَّغام – بفتح الراء –: وهو التُّراب، وأرغم الله أنفَه، أي: ألصقه به، وهذا من النبيّ ﷺ دعاءٌ مؤكّد على مَن قصَّر في برّ أبويه، ويحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون معناه: صرعه الله لأنفه فأهلكه، وهذا إنما يكون في حقِّ مَن لم يقمْ بما يجبُ عليه من برِّهما.

وثانيهما: أن يكون معناه: أذلَّه الله؛ لأنَّ من ألصق أنفه – الذي هو أشرفُ أعضاء الوجه – بالتراب– الذي هو موطئ الأقدام وأخسّ الأشياء – فقد انتهى من الذلِّ إلى الغاية القصوى، وهذا يصلحُ أن يُدعى به على من فرَّط في متأكدات المندوبيات، ويصلح لمن فرّط في الواجبات، وهو الظاهرُ، وتخصيصه عند الكبر بالذِّكر – وإن كان برُّهما واجباً على كلِّ حال – إنما كان ذلك لشدَّة حاجتهما إليه، ولضَعْفهما عن القيام بكثيرٍ من مصالحهما، وليبادرَ الولدَ اغتنامَ فرصة برِّهما؛ لئلا تفوتَه بموتهما، فيندمَ على ذلك.

رواه مسلم، والترمذيُّ.

و(قوله: "أحدَهُما أو كليهما") كذا الرواياتُ الصَّحيحة بنصب أحدهما وكليهما؛ لأنه بدلٌ من والديه المنصوب بأدرك، وقد وقع في بعض النسخ: أحدُهما أو كلاهما مرفوعين على الابتداء، ويُتكلَّف لهما إضمارُ الخبر، والأول أولى.

و(قوله: "ثم لم يدخل الجنَّة") معناه: دخل النارَ لانحصار منزلتي الناس في الآخرة بين جنة ونار، كما قال: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[1]. فمن قيل فيه: لم يدخل النار منهم؛ إنه في الجنة، وبالعكس، وأو المَذكورة هنا للتقسيم، ومعناه: أنَّ المبالغة في برِّ أَحَد الأبوين — عند عدم الآخر — يُدْخل الولد الجنة، كالمبالغة في برِّهما معاً، ويعني بهذه المبالغة: المبرَّة التي تتعيَّنُ لهما في حياتهما، وقد يتعيَّنُ لهما أنواعٌ من البر بعد موتهما، كما قد فَعَل عبدُ الله بنُ عمر مع الأعرابي الذي وَصَلَه بالعمامة والحمار، ثم ذكر ما سمعه من النبيِّ ﷺ في ذلك، وكما روى أبو داودَ عن أبي أُسَيْد قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجلٌ من بني سلمة فقال: يا رسولَ الله ! هل بقي من برِّ أبويَّ شيءٌ أبرُّهما به بعد موتهما؟ قال: "نعم ! الصَّلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عَهْدهما من بعدهما، وصِلة الرَّحِم التي لا تُوصَلُ إلاَّ بهما، وإكرام صديقهما".

ولا خلاف في أنَّ عقوقَ الوالدين محرَّمٌ، وكبيرةٌ من الكبائر، وقد دلَّ على ذلك الكتابُ في غير موضع وصحيحُ السُّنَّة، كما روى النَّسائي والبزار من حديث ابن عمر عن النبيِّ ﷺ قال: "ثلاثةٌ لا ينظرُ الله إليهم يوم القيامة: العاقُ لوالديه، والدَّيوث، والمرأةُ المرجِّلة تشبُّه بالرجال. وثلاثة لا يدخلون الجنة: العاقُ لوالديه، والمنَّان عطاءه، ومُدْمِن الخمر".

---

[1]— سورة الشورى، الآية 7.

وعن عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر: أنَّه كان إذا خرج إلى مكَّة كان له حمارٌ يَتَرَوَّحُ عليه إذا ملّ رُكُوبَ الراحلة، وعمامةٌ يشدُّ بها رأسَه، فبيْنا هو يَوْماً على ذلك الحمار؛ إذْ مرَّ به أعرابيٌّ؛ فقال: أَلسْتَ ابن فلان ابنِ فلان؟ قال: بلى ! فأعطاه الحمار، وقال: اركبْ هذا، والعمامةَ فاشددْ بها رأسَك. فقال له بعضُ أصحابه: غفر الله لك ! أعطيتَ هذا الأعرابيَّ حماراً كنتَ تروَّحُ عليه، وعمامةً كنتَ تشُدُّ بها رأسك ! فقال: إنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: "إنَّ من أبرِّ صِلَةِ الرَّجُلِ أهلَ أبيه بعد أي يُولِّيَ". وإنّ أباه كان صديقاً لعمر.

رواه مسلم.

وعقوق الوالدين: مخالفتهما في أغراضهما الجائزة لهما، كما أنَّ برَّهما: موافقتهما على أغراضهما الجائزة لهما، وعلى هذا إذا أمرا أو أحدهما ولدهما بأمر وجبت طاعتهما فيه إذا لم يكن ذلك الأمرُ معصية، وإن كان ذلك المأمورُ به من قبيل المباحات في أصله، وكذلك إذا كان من قبيل المندوبات، وقد ذهب بعضُ الناس إلى أنَّ أمرهما بالمباح يصيِّره في حقِّ الولد مندوباً إليه، وأمرهما بالمندوب يزيده تأكيدا في ندبيته، والصحيح الأول؛ لأن الله تعالى قد قرن طاعتهما، والإحسانَ إليهما بعبادته وتوحيده فقال: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ ألاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ وبالوَالدَين إحْسَاناً﴾[1]، وقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بوَالدَيْه حُسناً﴾[2] في غير ما موضع، وكذلك جائت في السُّنَّة أحاديثُ كثيرة تقتضي لزومَ طاعتهما فيما أمَرا به، فمنها ما رواه الترمذي عن ابن عمر — رضي الله عنهما — قال: كان تحتي امرأةٌ أحبُّها، وكان أبي يكرهها، فأمرني أم أُطلِّقها، فأبيتُ،

---

(1)— سورة الإسراء، الآية 23.

(2)— سورة العنكبوت، الآية 8.

باب في البر والإثم

عن النَّواس بن سَمْعانَ الأنصاريِّ، قال: أقمتُ مع رسولِ الله ﷺ بالمدينة سنةً؛ ما يَمْنَعُني من الهجرة إلا المسألةُ؛ كان أحدُنا إذا هاجرَ لم يسألْ رسولَ الله ﷺ عن شيءٍ. قال: فسألته عن البرِّ والإثْمِ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: "البرُّ حُسْنُ الخُلُقِ، والإثْمُ ما حاك في نَفْسِك وكَرِهْتَ أن يَطَّلِعَ عَليه الناسُ".

فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ فقال: "يا عبد الله بن عمر !طلِّق امرأتك". قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسن صحيح. فإن قيل: فكيف يرتفعُ حُكْمُ الله الأصلي بحكم غيره الطارئ؟ فالجواب: أنه لم يرتفعْ حكمُ الله بحكم غيره بل بحكمه، وذلك أنه لما أوجب علينا طاعتهما، والإحسانَ إليهما، وكان من ذلك امتثالُ أمرهما؛ وَجَبَ ذلك الامتثالُ؛ لأنه لا يحصلُ ما أمرنا الله به إلا بذلك الامتثال؛ ولأنهما إن خولفا في أمرهما حَصَل العقوقُ الذي حرَّمه الله تعالى، فوَجَب أمرهما على كلِّ حال بإيجاب الله تعالى.

ومن باب: البرِّ والإثم

ذكر مسلمٌ في هذا الباب النَّوَّاس بنَ سَمْعان، ونسبه إلى الأنصار، فقال: الأنصاريّ، والمشهور في نَسَبه أنه كلابي، إلاَّ أن يكونَ حليفاً للأنصار، وهو: النَّوَّاسُ بنُ سمعان بن خالد بن عمرو بن قُرْط بن كلاب، هكذا نسبه الغلاَّبي ويحيى بن معين.

قال الشيخ رحمه الله: هذا كلُّه حكايةُ أبي عبد الله المازري، والذي ذكره أبو عمر في نسبه أنه قال: النواس بن سمعان بن خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن ربيعة الكلابي. وبين النسبين زيادة في الأجداد، وتغييرٌ في الأسماء، فتأمله.

و(قوله: أقمتُ مع رسول الله ﷺ بالمدينة سَنَة ما يمنعني من الهجرة إلا المسألة) يعني: أنه أقام بالمدينة في صورة العازم على الرجوع إلى الوطن

رواه أحمد، ومسلم، والترمذيُّ.

الذي جاء منه، لا أنه التزم أحكامَ الهجرة من الاستيطان بها، والكون فيها ساكناً بها مع رسول الله ﷺ. وهذا يدلُّ على أنَّ الهجرةَ ما كانت واجبةً على كلِّ مَن أسلم، وقد تقدم الخلافُ في ذلك، وقد بيَّن عذره في كونه لم يلتزمْ سُكْنى المدينة، وهو قولُه: ما يمنعني من الهجرة إلا المسألة، أي: الأسولة التي كان يُسأل رسولُ الله ﷺ عنها، وإنما كان ذلك من المهاجرين والقاطنين بالمدينة كانوا يكلفونه المسائل؛ لأنهم ما كانوا يسألون رسول الله ﷺ عن شيءٍ، ولذلك قال: كان أحدُنا إذا هاجر لم يسأل رسولَ الله ﷺ عن شيءٍ. وقد تمَّم هذا المعنى أنس ابن مالك حيث قال: نُهينا أن نسألَ رسولَ اللهِ ﷺ في القرآن عن شيءٍ، فكان يُعجبنا أن يجيءَ الرجلُ العاقلُ من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع. وقد تقدَّم القولُ في ذلك.

و(قوله: فسألته عن البر والإثم) أي: عما برّ فاعله بالأبرار، وهم المطيعون لله تعالى. وعمَّا يأثم فعلُه، فيلحق بالآثمين، فأجابه النبيُّ ﷺ بجواب جُمْليٍّ أغناه به عن التَّفصيل، فقال له: "البرُّ حُسْنُ الخُلُق" يعني: أنَّ حُسْنَ الخُلُق المعاملة، والرِّفق في المجادلة، والعدل في الأحكام، والبذل، والإحسان.

و(قوله: "والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطَّلعَ عليه الناس") أي: الشيء الذي يؤثر نفرة وحزازة في القلب. يقال: حاك الشيء في قلبي: إذا رسخ فيه وثبت، ولا يحيك هذا في قلبي، أي: لا يثبتُ يه، ولا يستقرّ. قال شمرٌ: الكلامُ الحائك: هو الراسخُ في القلب، وإنما أحاله النبيّ ﷺ على هذا الإدراك القلبيِّ، لما علم من جودة فهمه، وحسن قريحته، وتنوير قلبه، وأنه يدركُ ذلك من نفسه. وهذا كما قال في الحديث الآخر: "الإثم حزَّازُ القلوب" يعني به القلوبَ المنشرحة للإسلام، المنوَّرة بالعلم الذي قال فيه مالك: العلمُ نورٌ يقذفُه الله تعالى في القلب، وهذا الجوابُ لا يصلح لغليظ القلب قليل الفهم، فإذا سأل عن ذلك من قلَّ فهمه فصّلت له الأوامر والنواهي الشّرعية. وقد قالت عائشة — رضي الله عنها-: أمرنا رسولُ الله ﷺ أن نترلَ الناسَ منازلهم.

باب في وجوب صلة الرحم وثوابها

عن أبي هريرة، قال رسولُ الله ﷺ: "إنَّ الله خلَقَ الخَلْقَ حتى إذا فرَغَ منهم قامت الرَّحِمُ فقالتْ: هذا مقامُ العائذ بك من القطيعة. قال: نعم. أما تَرْضَيْن أن أصِلَ من وَصلَك، وأَقْطَعَ من قطعكِ؟ قالتْ: بلى. قال: فذاك لك".

ومن باب: وجوب صلة الرحم

(قوله: "إنَّ الله خلق الخَلْق حتى إذا فَرَغَ منهم") خلق هنا: بمعنى اخترع، وأصله: التقدير، كما تقدَّم. والخلق هنا: بمعنى المخلوق، وأصله مصدر، يقال: خَلَق يخلقُ خَلْقاً: إذا قدَّر، وإذا اخترع. قال زهير:

ولأنتَ تَفْري مَا خَلَقْتَ وَبَعْـــ ـــضُ القَومِ يَخْلُقُ ثُمَّ لا يَفْرِي

أي: تقطعُ ما قدَّرت. وقال الله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ﴾[1] أي: مخلوقُه. ومعنى فرغ منهم: أي كمل خلقهم، لا أنه اشتغل بهم، ثم فرغ من شُغْله بهم، إذ ليس فعْلُه بمباشرة، ولا بمناولة، ولا خَلْقه بآلة، ولا محاولة، تعالى عما يتوهّمه المتوهِّمون، وسُبحانه إذا أراد شيئاً، فإنما يقول له: كُن فيكون.

و(قوله: "قامت الرحمُ فقالت: هذا مقامُ العائذ بك من القطيعة") هذا الكلامُ من المجاز المستعمل، والاتِّساع المشهور؛ إذ الرَّحِمُ عبارةٌ عن قرابات الرجل من جهة طرفي آبائه وإن علوا، وأبنائه وإن نزلوا، وما يتصل بالطرفين من الأعمام والعمَّات، والأخوال والخالات، والإخوة والأخوات، ومن يتصل بهم من أولادهم برحم جامعة. والقرابة إذا نسبة من النَّسب، كالأبوة، والأخوة، والعمومة، وما كان كذلك استحال حقيقة القيام والكلام، فيحمل هذا الكلامُ على التوسُّع، ويمكن حَمْلُه على أحد وجهين:

---

[1]- سورة لقمان، الآية 11.

ثم قال رسولُ الله ﷺ: "اقرؤوا إنْ شئتُم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقطعُوا أَرْحَامَكُمْ ۞ أُوْلَئك الَّذينَ لَعَنَهُمُ الله فأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَرَهُم ۞ أفلاَ يَتدَبَّرُونَ القُرْءَانَ أمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ .

رواه البخاريُّ، ومسلم.

أحدهما: أن يكون الله تعالى أقام من يتكلم عن الرحم من الملائكة، فيقول ذلك، وكأنه وكل بهذه العبادة من يناضلُ عنها، ويكتب ثوابَ من وَصَلها، ووِزْر مَن قَطَعها، كما قد وكَّل الله بسائر الأعمال كِراماً كاتبين، وبمشاهدة أوقات الصَّلوات ملائكةٌ متعاقبين.

وثانيهما: أن ذلك على وجه التقدير والتَّمثيل المفهم للإغياء، وشدَّة الاعتناء، فكأنه قال: لو كانت الرحمُ ممن يعقلُ ويتكلَّم لقالتْ هذا الكلام، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلنَا هذا القُرْءانَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشعاً مُتَصدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ الله﴾ ثم قال: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا للنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

وعلى التقديرين فمقصودُ هذا الكلام: الإخبارُ بتأكُّد أمْر صلَة الرحم؛ وأنه تعالى قد نزَّلها منزلةَ من قد استجار به فأجاره، وأدخله في ذمَّته وخفارته، وإذا كان كذلك فجارُ الله تعالى غيرُ مخذول، وعهدُه غيرُ منقوض؛ ولذلك قال مخاطباً للرَّحم: "أما تَرْضَيْنَ أن أَصِل من وَصَلك، وأقطعَ مَن قَطَعك؟ !" وهذا كما قال ﷺ: "من صلى الصبح فهو في ذمة الله، فلا يطلبنكم الله من ذمَّته بشيء، فإنه من يطلبُه من ذمته بشيءٍ يدركه، ثم يكبُّه على وجهه في النار".

---

[1]- سورة الحشر، الآية 21.

وعن عائشة، قالت: قال رسولُ الله ﷺ: "الرّحمُ مُعَلَّقةٌ بالعَرْش تقولُ: مَنْ وَصَلَني وَصَلَه الله ! ومَن قَطَعَني قطعه الله !".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم.

و(قوله ﷺ: "اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[1] عسى: من أفعال المقاربة، ويكون رجاءً وتحقيقاً، قال الجوهري: عسى من الله واجبةٌ في جميع القرآن إلا قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أن يُبْدِلَهُ أَزْوَجاً خَيْراً مِنكُنَّ﴾ وإذا اتصل بعسى ضمير فاعل كان فيها لغتان، فتح السين وكسرها، وقرئ بهما، وظاهر الآية: أنه خطابٌ لجميع الكفار. قال قتادة: معنى الآية: فلعلكم — أو يُخاف عليكم — إن أعرضتم عن الإيمان أن تعودوا إلى الفساد في الأرض بسفك الدماء.

قال الشيخ رحمه الله: وعلى هذا فتكون الرحمُ المذكورة هنا رحم دِيْن الإسلام والإيمان التي قد سمَّاها الله إخوة بقوله: ﴿إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2]، وقال الفراء: نزلتْ هذه الآية في بني هاشم وبني أمية. وعلى هذا فتكون رَحِم القرابة. وعلى هذا فالرَّحمُ المحرَّمُ قطعها، المأمورُ بصلتها على وجهين؛ عامة وخاصة.

فالعامة: رحم الدين، وتجب مواصلتُها بملازمة الإيمان، والمحبة لأهله ونصرتهم، والنصيحة لهم، وترك مضارَّتهم، والعدل بينهم، والنَّصفة في معاملتهم، والقيام بحقوقهم الواجبة كتمريض المرضى، وحقوق الموتى، من غسلهم، والصلاة عليهم، ودفنهم، وغير ذلك من الحقوق المترتبة لهم.

---

[1]— سورة محمد، الآية 22.

[2]— سورة الحجرات، الآية 10.

وعن جُبَيْر بن مُطْعِم، عن النبيّ ﷺ قال: "لا يدخلُ الجنة قاطعٌ". قال سفيان: يعني: قاطع الرحم.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، وأبو داود، الترمذيُّ.

و(قوله: "لا يدخل الجنة قاطع") قال سفيان يعني: قاطع رحم. هذا التفسيرُ صحيحٌ لكثرة مجيء لفظ قاطع في الشرع مُضافاً إلى الرَّحم، فإذا ورد عُرْياً عن الإضافة حمل على ذلك الغالب. والكلام في كون القاطع لا يدخل الجنة قد تقدَّم في الإيمان؛ وأنه يصحُّ أن يُحمل على المستحل لقطع الرحم، فيكون القاطعُ كافراً، أو يخاف أن يفسدَ قلبُه بسبب تلك المعصية فيختم عليه بالكفر، فلا يدخل الجنة، أو لا يدخل الجنة في الوقت الذي يدخلُها الواصلُ لرحمه؛ لأنَّ القاطعَ يُحبَسُ في النار بمعصيته، ثم بعد ذلك يخلصُ منها بتوحيده، كلُّ ذلك محتملٌ، والله ورسولُه أعلمُ بعين المقصود.

وهذا الحديث يدلُّ دلالة واضحة على وجوب صلة الرحم على الجملة، وعلى تحريم قطعها، وأنه كبيرة. ولا خلافَ فيه. لكن الصلة درجات بعضها أرفعُ من بعض، فأدناها تركُ المهاجرة، وأدنى صلتها بالسلام. كما قال ﷺ: "صِلُوا أرحامَكم ولم بالسَّلام" وهذا بحسب القدرة عليها، والحاجة إليها، فمنها ما يتعيَّن ويلزم، ومنها ما يُستحبُّ ويُرَغَّب فيه، وليس من يبلغ أقصى الصِّلات يُسمَّى قاطعاً، ولا من قصَّر عما ينبغي له، ويقدر عليه يُسمَّى واصلاً. قال القاضي: وقد اختلف في حدِّ الرَّحم التي تجبُ صلتها، فقال بعضُ أهل العلم: هي كلُّ رحم مَحْرَم، وعلى هذا فلا تجبُ في بني الأعمام وبني الأخوال، وقيل: بل هذا في كلِّ رحم ممن ينطلقُ عليه ذلك من ذوي الأرحام في المواريث مَحْرَماً كان، أو غير مَحْرَم.

عن أنس بن مالك: أنَّ رسول الله ﷺ قال: "منْ سرَّه أن يُبْسطَ له في رِزْقِه، ويُنْسَأ له في أثَرِه، فليَصِلْ رَحِمه".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، وأبو داود.

وعن أبي هريرة، أنَّ رجلاً قال: يا رسولَ الله ! إنَّ لي قرابةً، أصلُهُم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويُسيؤون إليّ، وأَحْلُمُ عنهم؛ وهم يَجْهَلونَ عليّ !

قال الشيخ: فيخرج من هذا: أنَّ رحمَ الأمّ التي لا يُتوارث لها لا تجبُ صلتُهم، ولا يحرمُ قطعُهم، وهذا ليس بصحيح، والصَّواب ما ذكرناه قبل هذا من التعميم والتقسيم.

و(قوله: "من سرَّه أن يُبسطَ له في رزقه، ويُنَسأَ له في أثره فليصلْ رحمَه") بسط الرزق: سعته وتكثيره وبالبركة فيه. والنَّسء: التأخير، والأثر: الأجل، سُمّي بذلك؛ لأنه تابع الحياة. ومعنى التأخير هنا في الأجل – وإن كانت الآجال مُقدَّرة في علم الله لا يُزاد فيها ولا ينقص -: أه يبقى بعدَه ثناءٌ جميلٌ، وذكرٌ حميدٌ، وأجرٌ متكرّرٌ، فكأنَّه لم يمت، وقيل معناه: يُؤَخّر أجلُه المكتوبُ في اللوح المحفوظ، والذي في علم الله ثابت لا تبديلَ له، كما قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ ويُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَب﴾[1] أي: أصل المكتوب في اللوح المحفوظ، هو علم الله تعالى الذي لا يقبل المحوَ ولا التغيير، حُكي معناه عن عمر – رضي الله عنه – في الآية.

و(قوله: إن لي قرابةً أصلُهم ويقطعوني، وأُحْسِنُ إليهم ويُسيئون إليَّ، وأحْلُمُ عنهم ويجْهَلُونَ عليَّ) أحلُم – بضم اللام -: أصفح. ويجهلون: يقولون قول الجهَّال من السبِّ والتقبيح.

---

[1]– سورة الرعد، الآية 39.

فقال: "لَئنْ كنت كما قلتَ؛ فكأنما تُسِفُّهُمُ المَلَّ. ولا يزال معك من الله ظهير عليهم، ما دُمتَ على ذلك".

رواه أحمد، ومسلم.

وعن أبي أيوب: أنَّ أعَرابياً عرض لرسول الله ﷺ وهو في سَفَر، فأخذ بخطام ناقته — أو بزمامها — ثم قال: يا رسول الله ! — أو يا محمد ! أَخْبِرني بما يُقَرِّبُني من الجنَّة وما يباعدني من النار ! قال: فكفّ النبيّ ﷺ، ثم

و(قوله: "لئن كنتَ كما قلتَ فكأنما تُسفُّهمُ المَلَّ") الرواية: بضم تاء تُسفُّهم، وكسر السين، وضم الفاء، أي: تجعلُهم يَسفُّونه من السّفِّ، وهو شربُ كلِّ دواء يؤخذ غير ملتوت، تقول: سففتُ الدواء وغيرَه مما يُؤخذ غير معجون، وأسففته غيري، أي: جعلتُه يَسفُّه. والملُّ: الرَّمادُ الحارُّ. يقال: أطعَمَنا خبزَ ملّة، ومعنى ذلك: أن إحسانك إليهم مع إساءتهم لك، يتنزل في قلوبهم منزلةَ النار المحرقة، لما يَجدون من ألم الخزي، والفضيحة، العار الناشئ في قلب من قابلَ الإحسان بالإساءة.

و(قوله: "ولا يزالُ معك من الله ظهيرٌ ما دمت على ذلك") الظهير: المعين، ومعناه: أنَّ الله تعالى يُؤيِّدُك بالصبر على جفائهم، وحسن الخُلق معهم، ويُعليك عليهم في الدُّنيا والآخرة مدَّةَ دوامك على معاملتك لهم بما ذكرتَ.

و(قوله: إن أعرابياً عرضَ لرسول الله ﷺ في سفر أخذَ بخطام ناقته، أو بزمامها) هذا يدلُّ على تواضع النبيِّ ﷺ، وأنه كان لا يُصْرَف الناسُ بين يديْه، ولا يُمنَعُ أحدٌ منه، والخطَام، والزِّمام، والمقود كلُّها بمعنى واحد — وإن كانت في أصول اشتقاقها مختلفةً — فسمِّيَ خطاماً من حيث أنه يُجعل على الخَطْم، وهو الأنف، ويُسمَّى: زِماماً؛ لأنه يُزمُّ به، ومِقوداً؛ لأنه يُقاد به، وهذا شكٌّ من الراوي في أي اللفظين قال.

نظر في أصحابه، ثم قال: "لقد وفق – أو لقد هُدي–" قال: "كيف قلتَ؟" قال: فأعادَ. فقال النبيّ ﷺ: "تَعْبُدُ الله لا تشركُ به شيئاً، وتُقيمُ الصَّلاةَ، وتُؤْتي الزكاةَ، وتَصِلُ الرحمَ، دع الناقة !".

وفي رواية: "وتصلُ رحمك" فما أَدْبَرَ، قالَ رسول الله ﷺ: "إنْ تَمَسَّكَ بما أُمِرَ به دَخَلَ الجَنَّةَ".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والنسائيُّ.

و(قوله: فكفَّ ثم نظر في أصحابه ثم قال: لقد وُفِّقَ، أو لقد هُديَ) يعني: أنه كفَّ الناقة عن سيرها، ونظرَ إلى أصحابه مُستحسناً لهذا السؤال، ومُستحضراً لأفهام أصحابه، ومُنوِّهاً بالسائل، ثم شهدَ له بالتوفيق والهداية لما ينبغي أن يسألَ عنه؛ لأن مثل هذا السؤال لا يصدُرُ إلا عن قلب منوَّر بالعلم بالله تعالى، وبما يقربُ إليه، عازمٌ على العمل بما يُفْنى به، فأجابَه النبيُّ ﷺ بما يتعيَّن عليه في تلك الحال، فقال: تعبد الله لا تُشركُ به شيئاً، أي: تُوَحِّدُه في إلهيته، وتُخلصُ له في عبادته. وتقيمُ الصَّلاة، أي تفعلها على أوقاتها وباحكامها. وتُؤتي الزكاة: أي تُعطيها من استحقَّها على شروطها. وتصلُ رَحِمَكَ، أي: تفعلُ في حقِّهم ما يكون صِلةً لهم، وتجتنبُ ما يكون قطعاً لهم على ما بيّناه. ولم يذكرْ له النبيُّ ﷺ الصَّوْمَ ولا الحجَّ ولا الجهادَ؛ لأنه لم يكن تعيَّن عليه في تلك الحال شيءٌ سوى ما ذكرَ له، أو لأن بعض تلك العبادات لم تكن فُرضت بعد. والله تعالى أعلم.

و(قوله: "إن تمسَّكَ بما أمرتُه دخلَ الجنّة") يدلُّ على: أن دخولَ الجنَّة لا بُدَّ فيه من الأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الجَنَّةُ التي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1] ومع هذا فلولا فضلُ الله بالهداية للطُرق المَوصلة إليها والمعونة على الأخذ فيها، وبأن جعلَ أعمالَنا التي لا قيمةَ لها ولا خطرَ لها، ولا منفعةَ له فيها سبباً لنيل الجنَّة؛ لما كنَّا نصل إلى شيءٍ من ذلك، ولا نستحقُّ ذرَّةً مما هنالك.

---

[1]– سورة الزخرف، الآية 72.

باب النهي عن التحاسد والتدابر
والتباغض وإلى كم تجوز الهجرة؟

عن أنسِ بن مالك: أنَّ رسول الله ﷺ قال: "لا تَباغَضُوا، ولا تحاسَدُوا، ولا تَدابَرُوا، وكُونوا عِبادَ الله إخْواناً، ولا يحلُّ لِمُسلِم أنْ يَهْجُرَ أخَاه فَوْقَ ثلاثٍ".

ومن باب: النهي عن التحاسد والتدابر

(قوله: لا تباغضوا، أي: لا تتعاطوا أسبابَ البغض؛ لأن الحبَّ والبغض معانٍ قلبية لا قدرةَ للإنسان على اكتسابها، ولا يملك التصرُّفَ فيها، كما قالَ ﷺ: "اللهم! هذا قَسْمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تلمك ولا أملك" يعني: الحب والبغض.

و(قوله: "لا تدابروا") أي: لا تفعلوا فعْل المتباغِضَيْن اللذين يُدْبِرُ كلٌّ واحد منهما عن الآخر، أي: يولِّه دبره فِعْلَ المعرض.

و(قوله: "ولا تقاطعوا") أي: لا تقاطعْه فلا تكلّمه، ولا تعاملْه، وهو معنى: لا تهاجَرُوا، وهي روايةُ ابن ماهانَ، وهي: من الهجران، وعن الجلودي: "ولا تهجروا". وعن أبي بحر: "تهجِروا" بكسر التاء والهاء والجيم. قال القاضي: معنى الكلمة: لا تهتجروا، وتكون: تفتعلون: يعني تهاجروا، أو من هجْر الكلام: وهو الفحشُ فيه، أي: لا تتسابُّوا وتتفاحشوا.

قال الشيخ رحمه الله: والرواية الأولى أوضحُ وأولى.

و(قوله: "ولا تحاسدوا") أي: لا يحسد بعضكم بعضاً، والحسد في اللغة: أن تتمنى زوالَ نعمة المحسود وعودها إليك. يقال: حسده يحسده

وفي روايةٍ: "ولا تَقاطَعُوا" بدل: "ولا تدابروا" وزاد: "كما أركم الله".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، وأبو داود، والترمذيُّ.

حسوداً. قال الأخفش: وبعضهم يقول: يحسِد – بالخفض – والمصدر حَسَداً بالتحريك، وحسادة، وحسدتك على الشيء، وحسدتك الشيء: بمعنى واحد. فأما الغِبطةُ فهي أن تتمنى مثل حال المغبوط من غير أن تريدَ زوالها عنه. تقول منه: غبطته بما نال غبطاً وغبطة. وقد يوضع الحسدُ موضعَ الغِبْطة لتقاربهما، كما قال ﷺ: "لا حسد إلا في اثنتين" أي: لا غبطةَ أعظمُ ولا أحقُّ من الغِبطة بهاتين الخصلتين.

و(قوله: "وكونوا عبادَ الله إخواناً") أي: كونوا كإخوان النسب في الشفقة، والرحمة، والمودَّة، والمواساة، والمعاونة، والنصيحة.

و(قوله: "كما أمركم الله") يحتمل أن يريدَ به هذا الأمرَ الذي هو قوله: "كونوا إخواناً"؛ لأنَّ أمْرَهُ ﷺ هو أمرُ الله، وهو مبلِّغ له، ويحتمل: أن يريدَ بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1] فإنه خبرٌ عن المشروعية التي ينبغي للمؤمنين أن يكونوا عليها، ففيها معنى الأمر.

و(قوله: "لا يحلُّ لمسلم أن يهجرَ أخاه فوق ثلاث") دليلُ خطابه: أنَّ الهجرةَ دون الثلاث معفوٌّ عنها، وسَبَبُهُ: أنَّ البشرَ لا بدَّ له غالباً من سوء خُلُق وغضب، فسامحه الشرعُ في هذه المدَّة؛ لأنَّ الغضبَ فيها لا يكاد الإنسان ينفك عنه؛ ولأنه يمكنه ردُّ الغضب في تلك الحالة غالباً، وبعد ذلك يضعفُ فيمكن ردُّه، بل: قد يُمحى أثره.

---

[1]– سورة الحجرات، الآية 10.

وعن أبي أيوبَ الأنصاريَّ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: "لا يحلُّ لمسلمٍ أنْ يهجرَ أخاه فوق ثلاث ليالٍ؛ يلتقيان؛ فيُعْرِضُ هذا، ويعرضُ هذا، وخيرهُما الذي يبدأ بالسَّلام".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ.

وعن أبي هريرة، أنَّ رسول الله ﷺ قال: "لا هِجْرةَ بَعْدَ ثلاثٍ".

رواه مسلم.

وظاهر هذا الحديث تحريمُ الهجرة فوق ثلاث، وقد أكّد هذا المعنى قولُه: "لا هجرةَ بعد ثلاث"، وكون المتهاجرَيْن لا يُغفر لهما حتى يَصْطَلحا.

و(قوله ﷺ: "خيرُهما الذي يبدأُ صاحبَهُ بالسَّلام")، يدلُّ على أنَّ مُجرَّدَ السلم يُخْرجُ عن الهجرة وإن لم يكلِّمه، وهو قولُ مالك وغيره. وقال أحمد وابن القاسم: إن كان يؤذيه فلا يقطع السلامُ هجرتَه. وعندنا: أنه إن اعتزل كلامَه لم تُقبل شهادتُه عليه، ومعناه: أن الذي يبادر بقطع الهجرة فيسبق صاحبه بالسَّلام أحسنُ خلقاً وأعظمُ أجراً. وما ذكرناه من جواز الهجران في الثلاث هو مذهبُ الجمهور، والمعتبرُ ثلاث ليال، فإن بدأ بالهجرة في بعض يوم فله أن يلغي ذلك البعض، ويعتبر ليلة ذلك اليوم، فيكون أول الزمان الذي أبيحت فيه الهجرة، ثمَّ بانفصال الليلة الثالثة تحرم على ما قدَّمناه. وهذا الهجرانُ الذي ذكرناه هو الذي يزمن عن غَضَب لأمرٍ جائزٍ لا تعلُّق له بالدّين، فأمَّا الهجرانُ لأجل المعاصي والبِدعة فواجبٌ استصحابُه إلى أن يتوب من ذلك ولا يختلف في هذا.

باب النَّهي عن التَّجسُّس والتَّنافس والظَّنِّ السَّيِّئ وما يحرم على المسلم من المسلم

عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: "إيَّاكم والظنَّ؛ فإنَّ الظنَّ أكذَبُ الحديث، ولا تَحَسَّسُوا، ولا تَجَسَّسُوا، ولا تنافَسُوا، ولا تحاسَدُوا، ولا تَباغَضُوا، ولا تدابروا، وكونوا عِبادَ الله إخواناً".

ومن باب: النَّهي عن التجسُّس

(قوله: "إيَّأكم والظنَّ؛ فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث") الظنُّ هنا هو التُّهمة، ومحلُّ التحذير والنَّهي إنَّما هو تهمةٌ لا سببَ لها يوجبها، كمن يتَّهم بالفاحشة، أو بشرب الخمر ولم يظهرْ عليه ما يقتضي ذلك. ودليلُ كون الظنّ هنا بمعنى التُّهمة قوله بعد هذا: "ولا تجسَّسُوا، ولا تحسَّسوا"؛ وذلك: أنَّه قد يقعُ له خاطرُ التُّهمة ابتداءً فيريدُ أن يتجسَّسَ خبرَ ذلك، ويبحثَ عنه، ويتبصَّر، ويستمعَ ليحقِّق ما وقعَ له من تلك النعمة، فنهلا النبيُّ ﷺ عن ذلك. وقد جاء في بعض الحديث: "إذا ظننتَ فلا تحقيق"، وقال الله تعالى: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وكُنتُمْ قَوْماً بُوراً﴾[1] وذلك: أنَّ المنافقين تطيَّروا برسول الله ﷺ وبأصحابه حين انصرفوا إلى الحُديبية فقالوا: إن محمَّداً وأصحابه أكلةُ رأسٍ، ولن يرجعوا إليكم أبداً. فذلك ظنُّهم السيِّئُ الذي وبَّخهم الله تعالى عليه، وهو من نوع ما نهى الشَّرعُ عنه، إلا أنَّه أقبحُ النَّوع.

فأمَّا الظنُّ الشَّرعيُّ؛ الذي هو تغليبُ أحد المجوّزين، أو بمعنى اليقين فغيرُ مراد من الحديث، ولا من الآية يقيناً، فلا يلتفتُ لمن استدلَّ بذلك على إنكار الظنِّ الشَّرعيِّ، كما قرَّرناه في الأصول.

---

[1]- سورة الفتح، الآية 12.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، وأبو داود.

وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يَبِعْ بعضكم على بيع بعضٍ، وكونوا عباد الله

وقد اختلف في التجسُّس والتحسُّس؛ هل هما بمعنى واحد، أو بمعنيين؟ والثاني أشهر. فقيل: هو بالجيم: البحث عن بواطن الأمور، وأكثرُ ما يكون في الشَّرِّ، ومنه: الجاسوس، وهو صاحبُ سرِّ الشَّرِّ. وبالحاء: البحث عمَّا يُدرك بالحسِّ؛ بالعين أو بالأذن. وقيل بالجيم: طلبُ الشيء لغيرك، وبالحاء: طلبه لنفسك. قاله ثعلب. والأول أعرف.

و(قوله: "ولا تنافسوا") أي: لا تتباروا في الحرص على الدنيا وأسبابها. وأمَّا التنافس في الخير فمأمورٌ به، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[1] أي: في الجنَّة وثوابها، وكأنَّ المنافسةَ هي الغِبطة. وقد أبعد مَن فسَّرها بالحسد، لا سيّما في هذا الحديث، فإنَّه قد قَرَن بينها وبين الحسد في مَساقٍ واحدٍ، فدلَّ على أنَّهما أمران متغايران.

و(قوله: "ولا تناجشوا") قيل فيه: إنَّه من باب النَّجش في البيع الذي تقدَّم ذكرُه في البيوع. وفيه بُعْدٌ؛ لأنَّ صيغة (تفاعل) أصلها لا تكون إلا من اثنين، فـ (تناجش) لا يكون من واحد، و(النجش) يكون من واحد، فافترقا وإن كان أصلُهما واحداً؛ لأنَّ أصلَ النَّجش: الاستخراجُ والإثارة. تقول: نجشت الصَّيد، أنجشه، نَجْشاً: إذا استثرتُه من مكانه. وقيل: "لا تناجشوا": لا ينافر بعضكم بعضاً. أي: لا يُعامله منَ القول بما يُنفِّره، كما يُنَفِّر الصَّيد، بل يُسَكِّنه ويُؤَنِّسه، كما قال: "سكِّنا، ولا تنفِّرا" وهذا أحسنُ من الأوَّل، وأولى بمساق الحديث. والله تعالى أعلم.

---

[1]- سورة المطففين، الآية 26.

إخواناً، المسلمُ أخو المسلم، لا يظلمُه، ولا يَخْذُله، ولا يحْقره، التقوى هاهنا — ويشير إلى صدره ثلاث مرار — بحسْب امرئ من الشَّرِّ أن يَحْقِرَ أخاهُ المسلمَ، كُلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ، دمُهُ ومالُهُ وعِرْضُهُ".

رواه مسلم.

و(قوله: "المسلم أخو المسلم، لا يظلمَه، ولا يخذله، ولا يحقره"). يظلمه): ينقصه حقَّه، أو يمنعُه إيَّاه. و(يخذله): يتركه لمن يظلمه، ولا ينصره. وقد قال ﷺ: "انصرْ أخاك ظالماً أو مظلوماً" فقال: كيف أنصره ظالماً؟ قال": "تكفُّه عن الظلم؛ فذلك نَصْرُه". و(يحقره): ينظره بعين الاستصغار والقلَّة. وهذا إنَّما يصدرُ في الغالب عمَّن غلب عليه الكِبْرُ والجهل، وذلك: أنَّه لا يصحُّ له استصغارُ غيره حتَّى ينظرَ إلى نفسه بعين: أنَّه أكبرُ منه واعظم، وذلك جَهْلٌ بنفسه، وبحال المحتقَر، فقد يكون فيه ما يقتضي عكسَ ما وقع للمتكبِّر.

و(قوله: "التقوى هاهنا — ويشيرُ بيده إلى صدره —") وقد تقدَّم: أنَّ التَّقوت مصدر (اتقى): تقاةٌ، وتقوى. وأنَّ التَّاء فيه بدلٌ من الواو؛ لأنَّه من الوقاية. والمتَّقي: هو الذي يجعلُ بينه وبين ما يخافُه من المكروه وقايةً تَقيه منه، ولذلك يقال: اتَّقى الطعنة بدَرَقته وبترسه. ومنه قوله ﷺ: "اتَّقوا النَّار ولو بشقِّ تمرة، ولو بكلمة طيبة" أي: اجعلوا هذه الأمورَ وقايةً بينكم وبين النَّار. وعلى هذا: فالمتَّقي شرعاً هو الذي يخافُ الله تعالى، ويجعل بينه وبين عذابه وقايةً من طاعته، وحاجزاً عن مخالفته. فإذاً: أصلُ التقوى: الخوف، والخوف إنَّما ينشأ عن المعرفة بجلال الله، وعظمته، وعظيم سلطانه، وعقابه. والخوفُ والمعرفةُ محلُّهما القلب، محلُّه الصدر، فلذلك أشار ﷺ إلى صدره وقال: "التَّقوى هاهنا" والله تعالى أعلم.

والتقوى خصلةٌ عظيمةٌ، وحالةٌ شريفةٌ آخذةٌ بمجامع علوم الشَّريعة وأعمالها، موصلةٌ إلى خير الدُّنيا والآخرة. والكلامُ في التَّقوى وتفاصيلها،

عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: "إنّ الله لا ينظرُ إلى صُورِكم، وأموَالِكُم، ولكنْ ينظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ وأعمالِكُمْ".

وأحكامها، وبيان ما يترتَّبُ عليها يستدعي تطويلاً، قد ذكره أربابُ القلوب في كتبهم المطوَّلة: كـ "الرعاية"، والإحياء" و"سفينة النجاة"، وغيرها.

و(قوله: "بحسب امرئ من الشَّرِّ أن يَحْقِرَ أخاه المسلم") الباء في (بحسْب) زائدةٌ. وهو بإسكان السِّين، لا بفتحها، وهو خبر ابتداء مقدَّم، والمبتدأ: (أن يحقر) تقديره: حسْب امرئ من الشرِّ احتقارُه أخاه. أي: كافيه من الشرِّ ذلك؛ فإنَّه النَّصيبُ الأكبر، والحظُّ الأوفى. ويفيدُ: أنَّ احتقارَ المسلم حرامٌ.

و(قوله: "إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظرُ إلى قلوبكم وأعمالكم") نظرُ الله تعالى الذي هو رؤيتُه للموجودات، وأطِّلاعه عليها لا يخصُّ موجودا دونَ موجود، بل يعمُّ جميعَ الأشياء؛ إذ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السَّماء. ثمَّ قد جاء في الشَّرع نظر الله تعالى بمعنى: رحمته للمنظور إليه، وبمعنى: قبول أعماله، ومجازاته عليها. وهذا هو النَّفرُ الذي يُخَصُّ به بعض الأشياء، ويُنفي عن بعضها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَمَةِ﴾[1] وقد تقدَّم ذلك في كتاب الإيمان. فقوله هنا: "أن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم" أي: لا يُثيبكم عليها، ولا يُقرِّبكم منه، ذلك كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى[2]﴾ ثم قال: ﴿إِلاَّ مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَلِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الغُرُفَتِ ءَامِنُونَ﴾[3].

---

(1)– سورة آل عمران، الآية 77.
(2)– سورة سبأ، الآية 37.
(3)– سورة سبأ، الآية 37.

رواه أحمد، ومسلم.

ويُستفاد من هذا الحديث فوائد:

إحداها: صَرْف الهمَّة إلى الاعتناء بأحوال القلب وصفاته، بتحقيق علومه، وتصحيح مقاصده وعزومه، وتطهيره عن مذموم الصِّفات، واتصافه بمحمودها؛ فإنَّه لما كان القلبُ هو محلُّ نظر الله تعالى فحقّ العالم بقدر اطّلاع الله تعالى على قلبه أن يفتش عن صفات قلبه وأحواله؛ لإمكان أن يكونَ في قلبه وصفٌ مذموم بمقته الله بسببه.

الثانية: أنَّ الاعتناءَ بإصلاح القلب وبصفاته مُقَدَّمٌ على الأعمال بالجوارح؛ بتخصيص القلب بالذكر مُقدَّماً على الأعمال، وإنما كان ذلك لأنَّ أعمالَ القلوب هي المصحِّحةُ للأعمال؛ إذ لا يصحُّ عملٌ شرعيٌّ إلا من مؤمنٍ عالمٍ بمن كلَّفه، مخلصٍ له فيما يعمله، ثمَّ لا يكمِّلُ ذلك إلا بمراقبة الحقِّ فيه، وهو الذي عبَّر عنه الإحسان، حيث قال: "أن تعبدَ الله كأنك تراه". وقد تقدَّم قوله ﷺ: "إنَّ في الجسد مضغةْ إذا صلحتْ صلح الجسدُ كلُّه، وإذا فسدتْ فسد الجسدُ كلُّه، ألاَ وهي القلب".

الثالثة: أنَّه لَمَّا كانت القلوب هي المصحِّحة للأعمال الظاهرة، وأعمال القلب غيبٌ عنَّا، فلا يقطعُ بمغيب أحد؛ لما يرى عليه من صور أعمال الطَّاعة أو المخالفة، فلعلَّ مَن يحافظُ على الأعمال، ولعلَّ مَن رأينا عليه تفريطاً أو معصيةٌ يعلمُ الله من قلبه وَصْفاً محموداً يغفرُ له بسببه، فالأعمالُ أماراتٌ ظنيَّة لا أدلَّةٌ قطعية، ويترتب عليها عدم الغلوِّ في تعظيم مَن رأينا عليه أفعالاً سيِّئة، بل تحتقرُ وتذمُّ تلك الحالة السَّيِّئة، لا تلك الذات المسيئة. فتدبَّر هذا؛ فإنَّه نظرٌ دقيق.

باب لا يغفَر للمتشاحنين حتى يَصْطلحا

عن أبي هريرة، أنَّ رسول الله ﷺ قال: "تُفتحُ أبوابُ الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيُغْفرُ لكُلِّ عبد لا يُشركُ بالله شيئاً؛ إلا رجلاً كانتْ بينَه وبين أخيه شحناءُ، فيقالُ: أَنْظِرُوا هذَين حتى يَصْطَلِحا ! أنظِرُوا هذينِ حتى يصطلحا ! أنظِروا هذين حتى يصطلحا !.

ومن باب: لا يغفر للمتشاحنين حتَّى يَصْطلحا

المتشاحنان: المتباغضان، من الشَّحناء، وهي: البغضاء، وقد خصَّ الله تعالى هذين اليومين بفتح أبواب الجنَّة فيهما، وبمغفرة الله تعالى لعباده، وبأنهما تُعرض فيهما الأعمالُ على الله تعالى، كما جاء في الحديث الآخر وهذه الذُّنوبُ التي تُغفر في هذين اليومين هي الصَّغائر. والله تعالى أعلم. كما تقدم ذلك في قوله ﷺ: "الصَّلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان على رمضان مُكفِّراتٌ ما بينهنَّ إذا اجتنبت الكبائر"، ومع ذلك فرحمةُ الله وسعتْ كلَّ شيء، وفضلُه يعمُّ كلَّ ميِّتٍ وحيٍّ. ومقصودُ هذا الحديث التحذيرُ من الإصرار على بُغْض المسلم مقاطعته، وتحريم استدامة هجرته ومُشاحنته، والأمر بمواصلته، ومكارمته.

و(انظروا) معناه: أخّروا، وكذلك: (ارْكوا)، قال ابنُ الأعرابي: يقال: ركاه، يركوه: إذا أخَّره.

وفَتْحُ أبواب الجنَّة في هذين اليومَين محمولٌ على ظاهره، ولا ضرورة تحوجُ إلى تأويله، ويكونُ فَتْحها تأهُّلاً، وانتظاراً من الخزنة لروح من

وفي رواية: "فَيغفرُ لكلِّ عَبدٍ مُؤْمنٍ إلاّ عَبداً بينه وبين أخيه شحناءُ، فيقالُ: اترُكُوا، أوِ ارْكُوا، هذين حتى يفيئا".

رواه مسلم، وأبو داود، والترمذيُّ.

يموتُ في ذينك اليومين ممَّن غُفرَتْ ذنوبُه، أو يكون فَتْحُها علامةً للملائكة على أنَّ الله تعالى غَفَرَ في ذينك اليومين للموحِّدين، والله تعالى أعلم. وهو حُجَّةٌ لأهل السُّنَّة على قولهم: إنَّ الجنَّة والنَّار قد خُلقَتا ووُجدَتا، خلافاً للمبتدعة؛ الذين قالوا: إنَّهما لم تُخْلَقا بَعْدُ، وستُخْلَقان. وعَرْضُ الأعمال المذكورة إنَّما هو – والله تعالى أعلم – لتنقلَ من صُحُف الكرام الكاتبين إلى محلٍّ آخر، ولعلَّه اللوحُ المحفوظ. كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] قال الحسن: غنَّ الحزنةَ تستنسخُ الحفظة من صحائف الأعمال. وقد يكون هذا العرضُ في هذين اليومَيْن للأعمال الصَّالحة مُباهاةٌ بصالح أعمال بني آدم على الملائكة، كما يُباهي الله الملائكة بأهل عَرَفة، وقد يكون هذا العرضُ لتعلمَ الملائكةُ المقبولَ من الأعمال من المردود، كما جاء الحديثُ الآخر: "إنَّ الملائكةَ تصعدَ بصحائف الأعمال، فتعرضها على الله، فيقولُ الله تعالى: ضعُوا هذا واقْبَلُوا هذا، فتقولُ الملائكةُ: وعزَّتك يا ربَّنا ما رأينا إلا خيراً ! فيقول الله تعالى: إنَّ هذا كان لغيري، ولا أقبلُ منَ العمل إلا ما ابْتُغي به وجهي" والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك.

---

[1]– سورة الجاثية، الآية 29.

باب التحابّ والتّزوار في الله عزَّ وجلَّ

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "إنَّ الله تعالى يقولُ يوم القيامة: أين المتحابُّونَ بجلالي؟ اليومَ أظِلُّهم في ظلِّي، يوم لا ظِلَّ إلا ظِلِّي".

رواه أحمد، ومسلم.

ومن باب: ثواب التَّحابب والتزاور في الله تعالى

(قوله: "أين المتحابُّون بجلالي") هذا نداءُ تنويهٍ وإكرام، ويجوزُ أن يَخْرُجَ هذا الكلامُ مخرجَ الأمر لمن يحضرهم مكرمين مَنوهاً بهم. و(لجلالي) روي باللام وبالباء، ومعناهما مُتقاربٌ، لأنَّ المقصودَ بهما هنا: السَّببيَّة؛ أي: لعظيم حقي وحرمة طاعتي، لا لغرض من أغراض الدنيا.

و(قوله: "اليوم أظلُّهم في ظلِّي يوم لا ظلَّ إلا ظلِّي") قيل: هذه الإضافةُ إضافةُ تشريفٍ وإكرامٍ؛ إذ الظلالُ كلُّها ملكه وخَلْقه.

قال الشيخ رحمه الله: وأولى من هذا التأويل: أنَّه يعني به: ظلَّ العرش؛ كما قد جاء في رواية أخرى. فيعني — والله تعالى أعلم -: أنَّ في القيامة ظلالاً بحسب الأعمال الصَّالحة تقي صاحبَها من وهج الشمس ولفح النَّار، وأنفاس الخَلْق، كما قال ﷺ: "الرَّجلُ في ظلِّ صدقته حتى يُقضى بين الناس"، ولكنَّ ظلَّ العرش أعظمُ الظلال وأشرفها، فيخص الله به مَن يشاءُ من صالح عباده، ومن جملتهم المتحابُّون لجلال الله. فإن قيل: كيف يقال: في القيامة ظلالٌ بحسب الأعمال؛ وقد قال ﷺ: "سبعةٌ يظلُّه الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه"، وهو ظلُّ العرش المذكور في الحديث؟ قلنا: يمكنُ أن يقال: كلُّ ظلٍّ في القيامة إنَّما هو له؛ لأنَّه بخَلْقه واختراعه بحسب ما يريده تعالى من إكرام من يخصُّه به؛ فعلى هذا يكونُ كلُّ واحدٍ من هؤلاء السَّبعة في ظلٍّ يخصُّه، وكلُّها ظلُّ الله، لا ظلَّ غيره؛ إذ ليس لغيره هنالك ظلٌّ، ولا يقدره له على سَبَب. ويحتملُ أن يُقال: إنَّه ليس هنالك

وعنه؛ عن النبيِّ ﷺ: "أنَّ رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله على مَدْرَجَته مَلَكاً، فلمّا أتى عليه قال: أينَ تريدُ؟ قال: أريدُ أخاً لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعْمة تَرُبُّها؟ قال: لا، غير أني أحْبَبْتُه في الله ! قال: فإنِّي رسُول الله إليكَ، بأَنَّ الله قد أحبّكَ كما أحببتَه فيه".

رواه أحمد، ومسلم.

هنالك إلاَّ ظلٌّ واحدٌ، وبه يَسْتَظلُّ المؤمنون، لكن لَمَّا كان الاستظلالُ بذلك الظلِّ لا يُنالُ إلا بالأعمال الصَّالحات نُسبَ لكلِّ عملٍ ظلٌّ؛ لأنَّه به وَصَل إليه. والله تعالى أعلم. وهذا كلُّه بناءٌ على أنَّ الظِّلالَ حقيقةٌ لا مَجَاز، وهو قولُ جمهور العلماء. وقال عيسى بن دينار: إنَّ معناه: يكنّهم من المكاره، ويجعلهم في كنفه وستره، كما يقول: أنا في ظلِّك. أي: في ذراك وسترك.

و(قوله: "فأرصدَ الله على مَدْرَجته") أي: جعل الله ملكاً على طريقه يَرْصُده، أي: يرتقبه، وينتظره ليبشِّره. والمرصد: مَوضِعُ الرَّصد. و(المَدْرَجة) بفتح الميم: موضعُ الدَّرج، وهو المشي.

و(قوله: "هل لكَ عليه من نعمة تربُّها؟") أي: تقومُ بها وتصلحُها، فتتعاهده بسببها؟ (فقال: لا، غير أنِّي أحببتُه في الله) أي: لم أزُرْهُ لغرض من أغراض الدُّنيا، ثمَّ أخبر بأنَّه إنَّما زاره من أجل أنَّه أحبَّه في الله تعالى. فبشَّره الملكُ بأنَّ الله تعالى قد أحبَّه بسبب ذلك. وقد تقدَّم القولُ في محبة الله تعالى للعبد، وأنَّ ذلك راجعُ إلى إكرامه إيَّاه، وبرِّه به. ومحبة الله للطَاعة: قبولُها وثوابُه عليها.

وفي هذه الأحاديث ما يدلُّ: على أنَّ الحبَّ في الله والتَّزاور فيه من أفضل الأعمال، وأعظم القُرَب إذا تجرَّد ذلك عن أغراض الدُّنيا وأهواء النُّفوس، وقد قال ﷺ: "مَن أحبَّ لله، وأبغضَ لله، وأعطى لله، ومنع لله قد استكمل الإيمانَ".

باب في ثواب المرضى وذوي الآفات إذا صبورا

عن عبد الله، قال: دخلتُ على رسول الله ﷺ وهو يُوعَكُ، فَمسستُهُ بيَدي، فقلتُ: يا رسول الله ! إنَّك لتُوعَكُ وَعْكاً شديداً ! فقال رسولُ الله ﷺ: "أجلْ، إنِّي أُوعَكُ كما يوعَكُ رجلان منكم !"، قال: فقلتُ: ذلك أنّ لك أجرين؟ فقال رسولُ الله ﷺ: "أجَلِ"، ثم قال رسولُ الله ﷺ: "ما من مسلمٍ يُصيبُه أذىً من مَرَضٍ فما سواه إلاّ حَطَّ الله به سيئاته؛ كما تَحُطُّ الشجرةُ ورقَها".

وفي رواية: قال: (نعم، والذي نفسي بيدِه ! ما على الأرض مُسْلِمٌ يصيبه..." وذكره.

ومن باب: ثواب المَرَضى وذوي الآفات إذا صبروا

الوَعْكُ: تمريغ الحمَّى، وهو ساكن العين. يُقال: وَعَكَتْهُ الحمَّى، تعكُه، وَعْكاً، فهو موعوكٌ، وأوعكت الكلابُ الصيدَ، فهو مُوعَك: إذا مرَّغَتْه في التراب. والوعكة: السقطة الشديدة في الجري. والوعكة أيضاً: معركة الأبطال في الحروب. و(أجل) بمعنى: نعم.

ومضاعفة المرض على النَّبيِّ ليُضاعفَ له الأجرُ في الآخرة هو كما قال ﷺ في الحديث الآخر: "أشدُّ النَّاس بلاءً الأنبياءُ، ثم الأولياءُ، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرَّجل على حَسَب دينه". وفي الحديث الآخر: "نحن معاشر الأنبياء يشتدُّ علينا البلاء، ويعظم لنا الأجر". و(الوصب): المرض. يقال منه: وصب الرجل، يوصب، فهو وصيب، وأوصبَه الله، فهو موصبٌ. و(النَّصب): التَّعب والمشقَّة. يقال منه: نَصبَ الرجل – بالكسر – ينصَب – بالفتح – وأنصبَه غيرُه: إذا أتعبَه، فهو مَنصبٌ، وهمٌّ ناصبٌ) أي" ذو نصب. و(السَّقَم): المرض الشديد. يقال منه: سَقِم، يَسْقَم، فهو سقيم. و(الهَمُّ): الحزن، والجميع: الهموم، وأهمَّني الأمر: إذا أقلقني وحزنني، والمهمُّ: الأمر الشديد وهمني المرض: أذابني.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم.

وعن عائشة، قالت: ما رأيت رجلاً أشدَّ عليه الوجَعُ من رسول الله ﷺ.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ، وابن ماجة.

وعن الأسود، قال: دخل شابٌّ من قريش على عائشة وهي بمنًى؛ وهُمْ يَضْحَكُونَ، فقالتْ: ما يُضْحِكُكُمْ؟ ! قالوا: فلانٌ خرَّ على طُنُب فُسْطاط فكادت عُنُقُه – أو عَيْنُهُ – أنْ تَذْهَبَ ! فقالت: لا تضحكُوا ! فإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ قال: "ما من مسلمٍ يشاكُ شوكةً فما فوقَها، إلا كُتِبَتْ له بها درجة، ومُحِيَتْ بها عنه خطيئةٌ".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ.

وعن أبي سعيد وأبي هريرةَ، أنَّهما سمعا رسولَ الله ﷺ يقول: "ما يصيبُ المؤمنَ من وَصَب، ولا نَصَب، ولا سَقَمٍ، ولا حَزَنٍ، حتى الهمِّ يُهَمُّه إلا كَفَّر الله به من سيئاته".

قال الشيخ: هذا نقل أهل اللغة، وقد سوَّوا فيه بين الحزن والهمِّ، وعلى هذا فيكون الحزن والهمُّ المذكوران في الحديث مترادفين، ومقصود الحديث ليس كذلك، بل مقصودُه: التسوية بين الحزن الشديد، الذي يكونُ عن فقد محبوب، والهمّ الذي يُقلق الإنسانَ ويشتغل به فكره من شيء يخافُه أو يكرهُه في أنَّ كلَّ واحد منهما يُكفَّر به. كما قد جمع في هذا الحديث نفسه بين الوَصَب، وهو المرض، وبين السّقم، لكن أطلق الوَصَبَ على الخفيف منه، والسَّقم على الشديد، ويرتفع الترادف بهذا القدر. ومقصودُ هذه الأحاديث: أن الأمراضَ والأحزان – وإن دقَّت – والمصائب – وإن قلَّت – أجر المؤمنُ على جميعها، وكفَّرت عنه بذلك

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ.

وعن أبي هريرة، قال: لمّا نزلتْ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ به﴾ بلغت منَ المسلمين مَبْلَغاً شديداً. فقال رسول الله ﷺ: "قاربوا، وسدِّدُوا، ففي كلِّ ما يصابُ به المسلم كفارةٌ؛ حتى النَّكْبَة يُنْكَبُها، أو الشوكة يُشاكُها".

رواه أحمد، ومسلم، والترمذيُّ.

خطاياه حتى يمشيَ على الأرض وليست له خطيئة، كما جاء في الحديث الآخر، ولكن هذا كلُّه إذا صبرَ المُصابُ واحتسبَ، وقال ما أمرَ الله تعالى به في قوله: ﴿الَّذينَ إذَا أَصَبَتْهُم مُّصيبَةٌ قَالُوا إنَّا لله وإنَّا إليْه رَجعُونَ﴾[1] فمن كان كذلك وصلَ إلى ما وعدَ الله به ورسولُه من ذلك.

و(قوله: لما نزلت: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ به﴾[2] بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً" هذا يدلّ على: أنهم كانوا يتمسكون بالعمومات في العلميات، كما كانوا يتمسَّكون بها في العمليات. وفيه ردٌّ على من توقف في ألفاظ العموم، وأن "مَنْ" منْ ألفاظه، وكذلك النكرة في سياق الشرط، فإنهم فهموا عمومَ الأشخاص منْ "مَنْ" وعموم الأفعال السَّيِّئة من "سوء" المذكور في سياق الشرط، وقد أوضحنا ذلك في الأصول، وإنما عظم موقعِ هذه الآية عليهم؛ لأن ظاهرها: أن ما منْ مكلَّف يصدرُ عنه شرٌّ كائناً ما كان إلا جُوزي عليه، يومَ الجزاء، وأنَ ذلك لا يُغفر، وهذا أمر عظيم، فلما رأى النبيُّ ﷺ شدَّةَ ذلك عليهم سكَّنهم وأرشدَهم وبشَّرهم، فقال: "قاربوا وسَدِّدوا" أي: قاربوا في أفهامكم وسدّدوا في أعمالكم، ولا تُقلِّوا، ولا تُشدِّدوا على انفسكم، بل بشروا واستبشروا بأن الله تعالى بلطفه قد جعلَ المصائب التي لا ينفكُّ عنها أحدٌ في هذه الدار سبباً لكفَّارة

---

[1]– سورة البقرة، الآية 156.

[2]– سورة النساء، الآية 123.

وعن جابر بن عبد الله: أنَّ رسولَ الله ﷺ دخل على أمِّ السائب — أو أمِّ المُسَيَّب — فقال: "ما لَكِ يا أُمّ السائبِ ! — أو يا أم المسيَّب — تُزَفْزِفِينَ؟"

الخطايا والأوزار، حتى يرد عليه المؤمنُ يومَ القيامة وقد خلَّصه من تلك الأكدار، وطهَّره من أذى تلك الأقذار، فضلاً من الله ونعمة، ولطفاً ورحمة.

و(قوله: "حتى الهمِّ يُهَمُّه") يجوز في الهمِّ الخفض على العطف على لفظ ما قبله، والرفع على موضعه؛ فإن "من" زائدة، ويجوز رفعه على الابتداء وما بعدَه خبره.

فأما (قوله: "حتى النكبة يُنْكَبُها، والشَّوكة يُشاكها") فيجوز فيه الوجهان، كذلك قيَّدهما المحققون، غير أن رفع الشوكة لا يجوز إلا على الابتداء خاصة؛ لأن ما قبلها لا موضعَ رفع له فتأمَّلْه، وقيَّده القاضي: يُهَمُّه بضم الياء وفتح الهاء على ما لم يُسمَّ فاعله، وكذا وجدته مُقيَّداً بخط شيخي أبي الصبر أيوب، والذي أذكرُ أني قرأتُ به على من أثقُ به؛ بفتح يَهُمُّه — بفتح الياء وضم الهاء مبنياً للفاعل —، ووجهه واضحٌ إذ معناه: حتى الهم يُصيبه، أو يطرأُ عليه. والنَّكْبَة بالباء: العثرة والسَّقطة، ويُنْكَبُها — بضم الياء وفتح الكاف —: مبنياً للمفعول.

و(قوله: "مالك يا أُمّ السائب ! تُزَفْزِفِيْنَ") جميع رواة مسلم روى هذه الكلمة بالزاي والفاء فيهما، ويُقال بضم التاء وفتحها من الزَّفزفة، وهي صوتُ حفيف الريح. يُقال: زفزفت الريحُ الحشيشَ: أي حَرَّكتْه، وزفزفَ النَّعام في طيرانه: أي: حرَّك جناحَيْه، وقد رواه بعض الرواة بالقاف والراء، قال أبو مروان بن سرَّاج: يقال: بالقاف وبالفاء بمعنى واحد، بمعنى تَرْعُدِيْنَ.

قال الشيخ رحمه الله: ورواية الفاء أعرفُ رواية، وأصحُّ معنى، وذلك أنَّ الحمَّى تكون معها حركة ضعيفة، وحسٌّ صوت يُشبه الزَّفزَفة التي هي حركة الريح وصوتها في الشجر. وقالوا: ريحٌ زَفْزافة وزَفْزَفٌ. وأما الرقرقة بالراء والقاف: فهي التلألؤ واللَّمعان. ومنه: رَقْراق السَّراب، ورقراق الماء:

قالتْ: الحمَّى ! لا بارك الله فيها ! فقال: "لا تَسُبِّي الحُمَّى؛ فإنَّها تُذْهِبُ خطايا بني آدَمَ؛ كما يُذْهِبُ الكيرُ خَبَثَ الحديدِ".

رواه مسلم.

وعن عطاء بن أبي رباح، قال: لي ابنُ عباس: ألا أُريكَ امرأةً من أهل الجنَّة؟ قلتُ: بلى ! قال: هذه المرأة السَّوداءُ؛ أتت النبيَّ ﷺ فقالت: إنِّي أُصْرَعُ، وإنِّي أتكشَّفُ، فادعُ الله لي. قال: "إنْ شئت صبرت ولك الجنَّةُ، وإن شئت دعوتُ الله أن يُعافيَك". قالتْ: أَصْبِرُ ! قالتْ: فإنِّي أتكشَّفُ، فادعُ الله أن لا أتكشفَ فدعَا لَها.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم.

حَسُن أن يُقال: مكان الرقراقة، لكن تُفارق الزفزفة الرقرقة بأن الزفزفة معها صوت، وليس ذلك مع الرقرقة، فانفصلا.

و(قوله: "لا تَسُبِّ الحمَّى") مع أنها لم تُصرِّح بسبِّ الحمَّى، وإنما دعت عليها بألا يُبارَك فيها، غير أم مثل هذا الدُّعاء تضمَّن تنقيصَ المدعو عليه وذمَّه، فصارَ ذلك كالتصريح بالذم والسَّب، ففيه ما يدلُّ على أن التعريضَ والتضمينَ كالتصريح في الدلالة، فيُحدُّ كلٌّ من يُفهم عنه القذفُ من لفظه؛ وإن لم يُصرِّح به، وهو مذهب مالك كما تقدَّم.

و(قوله: "فإنها تُذهب خطايا بني آدم") هذا تعليل لمنع سبِّ الحُمَّى لما يكون عنها من الثواب، فيتعدَّى ذلك لكلِّ مشقَّة، أو شدَّة يُرتجى عليها ثواب، فلا ينبغي أن يُذمَّ شيءٌ من ذلك، ولا يُسبَّ. وحكمة ذلك: أنَّ سبَّ ذلك إنما يصدرُ في الغالب عن الضجر، وضعف الصبر، أو عدمه، وربما يُفضي بصاحبه إلى السخط المحرَّم، مع أنه لا يُفيد ذلك فائدةٌ، ولا يُخفف ألماً.

و(قوله للمرأة التي كانت تُصْرَعُ: "إنْ شئت صبرت ولك الجنَّة") يشهدُ لما قلناه من أن الأجورَ على الأمراض، والمصَائبِ لاَ تحصلُ إلا لمن صبرَ واحتسبَ.

باب الترغيب في عيادة المرضى وفعل الخير

عن ثوبان – مولى رسول الله ﷺ – عن النبيِّ ﷺ قال: "من عادَ مريضاً لم يزل في خُرْفَةِ الجنَّة"، قيل: يا رسول الله ! وما خُرْفَةُ الجنَّة؟ قال: "جَناها".

وفي رواية: "مَخْرَفَة" بدل: "خُرْفَة".

رواه أحمد، ومسلم، والترمذيُّ.

عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: "إنّ الله يقول يوم القيامة:

ومن باب: الترغيب في عيادة المرضى

(قوله: "لم يزلْ في خُرفة الجنَّة" هو بضم الخاء المعجمة وسكون الراء، وقد فسَّرها النَّبيُّ ﷺ بما هو المعروفُ في اللغة فقال: هو جَناها، أي: ما يُجتنى منها. وفي الصحاح: الخُرفة – بالضم –: ما يُجتنى من الفواكه، ويقال: التمر خرفةُ الصائم. وأما رؤية مَن رواها مَخْرَفة بفتح الميم وسكون الخاء، وفتح الراء: فهو البستان. والمخرفة والمخرف: الطريق، ومنه قول عمر – رضي الله عنه –: تركتم على مخرفة النعم. أما المِخرف والمِخرفة – بكسر الميم –: فهو الوعاءُ الذي يُجتنى فيه التمر. ومعنى هذا الحديث، أنَّ عائدَ المريض بما ينالُه من أجر العيادة وثوابها الموصل إلى الجنة كأنه يجتني ثمرات الجنة، أو كأنه في مخرفة الجنة، أي: في طريقها الموصل إلى الاحتراف. وسُمي الخريفُ بذلك؛ لأنه فَصْلٌ تُخترف فيه الثمار.

يا بنَ آدمَ ! مرضتُ فلم تَعُدْني ! قال: يا ربِّ ! كيف أعودُك وأنت ربُّ العالمين؟ ! قال: أما علمتَ أنَّ عبدي فلاناً مَرِضَ فلم تَعُدْه؟ ! أمَا علمتَ أنَّك لو عُدْتَه لوجدْتَني عنده؟ يا بنَ آدم ! استطعمتُك فلم تُطْعمني ! قال: يا ربِّ ! وكيف أطعمكَ وأنتَ ربُّ العالمين؟ ! قال: ما علمتَ أنَّه استطعَمكَ عبدي فلانٌ فلَم تُطْعِمْه؟ أما علمتَ أنك لو أطعمتَهُ لوجدت ذلك عندي؟ يا بن آدم ! استقيتُك فلم تَسْقِني ! قال: يا ربِّ ! كيف أسْقيك وأنتَ ربُّ العالمينَ؟ ! قال: استسقاكَ عبدي فلانٌ فلم تسْقِه، أمَا إنَّكَ لو سقيتَه وجدتَ ذلك عندي".

رواه مسلم.

وعيادةُ المريض من أعمال الطَّاعات الكثيرة الثواب، العظيمة الأجر، كما دلت عليه هذه الأحاديث وغيرها. وهي من فروض الكفايات، إذا منع المرض من التصرُّف؛ لأن المريضَ لو لم يُعَدْ جملةٌ لضاع وهلك، ولا سيما إن كان غريباً أو ضعيفاً. وأما مَن كان له أهلٌ فيجب تمريضه على من تجب عليه نفقتُ، فأما مَن لا يجبُ ذلك عليه؛ فمن قام به منهم سقط عن الباقين. والعيادةُ: مصدرُ عاد يعود عَوْداً، وعِيادةٌ، وعياداً، غير أنه قد خُصَّت العيادةُ بالرجوع إلى المرضى والتكرار إليهم.

و(قوله تعالى: "يا بن آدم مرضت فلم تعدني، واستطعمتك فلم تطعمني، واستسقيتك فلم تسقني"): تنزُّلٌ في الخطاب، ولطفٌ في العتاب، ومقتضاه التعريفُ بعظيم فَضْل ذي الجلال، وبمقادير ثواب هذه الأعمال. ويُستفادُ منه أنَّ الإحسانَ للعبيد إحسانٌ للسادة، فينبغي لهم أن يعرفوا ذلك، وأن يقوموا بحقِّه.

باب تحريم الظلم والتحذير منه وأخذ الظالم

عن أبي ذرٍّ، عن النبيِّ ﷺ فيما روَى عن الله تبارك وتعالى": أنَّه قال: "يا عبادي ! إنِّي حرمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم مُحَرَّماً، فلا تظالَمُوا ! يا عبادي ! كُلكُم ضَالٌّ إلا من هديتُه، فَاسْتَهْدُوني أهْدِكم. يا عبادي !

ومن باب: تحريم الظلم

(قوله تعالى: "إنِّي حرمتُ الظلمَ على نفسي") أي: لا ينبغي لي، ولا يجوز عليَّ، كما قال سُبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ [1]. وقد اتفق العقلاءُ على أنَّ الظلمَ على الله تعالى مُحال، وإنما اختلفوا في الطريق، فالقائلون بالتَّقبيح والتَّحسين عقلاً يقولون: يستحيلُ عليه لقبحه، ومن لا يقول بذلك يقولون: يستحيلُ عليه لاستحالة شرطه في حقه تعالى، وذلك: أن الظلم إنما يُتصوَّر في حقِّ من حُدَّتْ له حدود، ورسمَتْ له مراسم، فمن تعداها كان ظالماً، والله تعالى هو الذي حدَّ الحدودَ ورسمَ الرُّسوم؛ إذ لا حاكمَ فوقه، ولا حاجرَ عليه، فلا يجبُ عليه حُكْم، ولا يترتَّب عليه حقٌّ، فلا يُتصوَّر الظلمُ في حقِّه. واستيفاءُ المباحث في علم الكلام.

و(قوله: "وجعلته بينكم محرماً") أي: حكمتُ بتحريمه عليكم، وألزمته إياكم.

و(قوله: "فلا تظالموا") أي: يا يظلم بعضكُم بعضاً، وأصلُه: تتظالموا، فحذفتْ إحدى التاءين تخفيفاً.

و(قوله: "يا عبادي كلُّكم ضالَ إلا من هديتُه") قيل في معناه قولان:

---

[1]- سورة مريم، الآية 92.

.....

أحدهما: أنهم لو تُركوا مع العادات، وما تقتضيه الطباعُ من الميل إلى الرَّاحات، وإهمال النَّظر المؤدي إلى المعرفة لغلبتْ عليهم العادات والطباعُ فضلُّوا عن الحق، فهذا هو الضلالُ المعنيُّ، لكن من أراد الله تعالى ألهمه إلى إعمال الفِكْر المؤدي إلى معرفة الله تعالى، ومعرفة الرسول ﷺ وأعانَهُ على الوصول إلى ذلك، وعلى العمل بمقتضاه، وهذا هو الهُدى الذي أمرنا الله بسؤاله.

وثانيهما: أن الضلالَ هاهنا يعني به: الحال التي كانوا عليها قبل إرسال الرُّسل من: الشرك, والكفر، والجهالات، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ أي: على حالة واحدة من الضلال والجهل، فأرسل الله الرسلَ ليزيلوا عنهم ما كانوا عليه من الضلال، ويبيّن لهم مرادَ الحقِّ منهم في حالهم، ومآل أمرهم، فمن نبَّهه الحقُّ سُبحانه وتعالى، وبصَّره، وأعانه فهو المهتدي، ومن لم يفعل الله به ذلك بقي على ذلك الضلال.

وعلى كلِّ واحد من التأويلين فلا معارضة بين قوله تعالى: "كلُّكم ضالٌّ إلا من هديته". وبين قوله: "كلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفطرة"؛ لأنَّ هذا الضلالَ المقصودَ في هذا الحديث هو الطارئ على الفطرة الأولى المغيِّر لها، والذي بيَّنه النبيُّ ﷺ بالتمثيل في بقية الخبر حيث قال: "كما تُنْتجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء". وبقوله: "خلق الله الخلقَ على معرفته فاجتالتهم الشَّياطين". وهذا الحديثُ حُجَّةٌ لأهل الحقِّ على قولهم: إنَّ الهدى والضلال خَلْقه وفِعْله يختصُّ بما شاء منهما مَنْ شاء من خلقه، وأنَّ ذلك لا يقدرُ عليه إلاَّ

كُلُّكُم جائع إلا من أطعمتُه، فاستطعمُوني أُطْعِمْكُمْ. يا عبادي ! كلُّكم عارٍ إلا مَنْ كسوتُه، فاستكسُوني أَكْسُكم. ياعبادي ! إنكم تُخْطئُونَ باللَّيل والنَّهار، وأنا أغفرُ الذنوبَ جميعا، فاستغفروني أَغْفِرْ لَكُم. يا عبادي ! إنكم لَنْ تبلغوا ضَرِّي فَتَضُرُّني. ولن تبلُغُوا نَفْعي فَتَنْفَعُني. يا عبادي ! لو أنَّ أوَّلكم، وآخرَكم، وإنْسَكُم، وجنَّكُم كانوا على أتْقَى قَلْب رَجُل واحد منكم؛ ما زاد ذلك في مُلكي شيئاً. يا عبادي ! لو أنَّ أوّلكَم، وأخرَكُم، وَإنْسَكُم، وجنَّكُم، كانوا على أفْجَر قلب رجل واحد؛ ما نقص ذلكَ مِنْ مُلْكِي شيئاً. يا عبادي ! لو أنَّ أوّلكُم، وآخركم، وإنْسَكُم،

هو، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَن يشَاءُ وَيَهْدي مَن يَشاءُ﴾[1]، وكما قال: ﴿وَمَا كُنَّا لنَهْتَدِيَ لَوْلَا أنْ هَدَنَا اللهُ﴾[2]، وكما قال: ﴿ومَا تَشَاءُونَ إلاَّ أن يَشاءَ اللهُ﴾[3]. وقد نطق الكتابُ بما لا يبقى معه ريبٌ لذي فَهْم سليم بقوله: ﴿واللهُ يَدْعُوَا إلَى دَارِ السَّلَمِ وَيَهدِي مَن يَشَاءُ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقيمٍ﴾[4]، فعمَّ الدعوة، وخصَّ بالهداية من سبقتْ له العناية. واستيفاءُ الكلام في علم الكلام.

وحاصلُ قوله: "كُلُّكم ضالٌّ إلا ممن هديتُه، وكلُّكم جائع، وكلُّكم عارٍ" التنبيهُ على فَقْرنا وعجزنا عن جَلْب منافعنا، ودَفْع مضارِّنا بأنفسنا؛ إلا أن يُيَسِّر ذلك لنا؛ بأن يخلقَ ذلك لنا، ويُعيننا عليه، ويصرف عنا ما يضرُّنا. وهو تنبيهٌ على معنى قوله: "لا حول ولا قوَّة إلا بالله العلي العظيم" ومع ذلك فقال في آخر الحديث: "يا عبادي ! إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم، فمين وَجَدَ خيراً فليحمد الله، ومَن وَجَد غير ذلك فلا

---

(1)– سورة المدثر، الآية 31.
(2)– سورة الإعراف، الآية 43.
(3)– سورة الإنسان، الآية 30.
(4)– سورة يونس، الآية 25.

وجنّكم قاموا في صَعيد واحد، فسألُوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسان مَسْأَلَتَه ما نقص ذلك ممَّا عندي إلا كما يَنْقُصُ المخْيَطُ إذا أُدخلَ البَحْرَ. يا عبادي ! إنما هي أعمالُكُم أحصيها عليكم، ثم أُوَفِّيكُمْ إيَّاها، فمَنْ وَجَدَ خيراً فليحمد الله، ومن وجد ذلك فلا يلومنّ إلا نَفْسَه".

يلومنَّ إلا نفسه" تنبيهاً على أنَّ عَدَم الاستقلال بإيجاد الأعمال لا يناقضُ خطابَ التكليف بها، إقداماً عليها، وإحجاماً عنها، فنحن — وإن كنَّا نعلمُ أنّا لا نستقل بأفعالنا — نحس بوجدان الفَرْق بين الحركة الضَّرورية والاختيارية، وتلك التفرقة راجعةٌ إلى تمكُّن محسوس، وتأتٍّ مُعْتاد يُوجَدُ مع الاختيارية، ويُفْقَدُ مع الضرورية، وذلك هو المعبَّرُ عنه بالكسب، وهو موردُ التكليف، فلا تناقضَ ولا تعنيف.

و(قوله: "ما نقص ذلك ممَّا عندي إلا كما ينقص المخْيَطُ إذا أُدخل البحر") المخيط: الإبرة. والخياط[1]: الخيط. ومنه قوله: "أدُّوا الخياط والمخْيَط". وهذا مثلٌ قصد به التَّقريب للأفهام بما تشاهده؛ فإنَّ ماءَ البحر من أعظم المرئيات وأكبرها، وغمس الإبرة فيه لا يؤثر فيه، فضرب ذلك مثلاً لخزائن رحمة الله تعالى وفَضْله؛ فإنها لا تنحصرُ ولا تتناهى، أنَّ ما أعْطي منها من أول خلق المخلوقات، وما يُعطي منها إلى يوم القيامة لا ينقصُ منها شيئاً، وهذا نحو قوله ﷺ في الحديث الآخر: "يمينُ الله ملأى سحَّاءُ الليلَ والنهارَ، لا يغيضُها شيءٌ، أرأيتم ما أنفق منذ خلقَ السموات والأرض، لم يَغضْ ما في يمينه" وسرُّ ذلك أنَّ قدرته صالحةٌ للإيجاد دائما، لا يجوز عليها العجزُ والقصور، والممكنات لا تنحصر، ولا تتناهى، فما وجد منها لا ينقصُ شيئاً منها، وبَسْطُ الكلام على هذه الأصول في علْم الكلام.

---

[1]— في جميع نسخ المفهم: الخائط، والصواب ما أثبتناه بعد الرجوع إلى نصّ الحديث ومصادر اللغة.

وعن ابن عمر؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: "المسلمُ أخو المسلم، لا يَظْلمُهُ ولا يُسلمُه. مَنْ كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومن فرّجَ عن مُسْلِمٍ كُرْبَةٌ، فرّجَ الله عنه بها كُرْبَةٌ من كُربِ يوم القيامة".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، وأبو داود، والترمذيُّ.

وعن جابر بن عبد الله، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: "اتَّقُوا الظلمَ؛ فإنّ الظُّلمَ ظلماتٌ يوم القيامة. واتقوا الشُّحَّ؛ فإنَّ الشحَّ أهْلَكَ مَنْ قَبْلَكُم؛ حَمَلهم على أنْ سَفَكُوا دماءَهم واستحلُّوا محارِمهم".

رواه مسلم.

و(قوله. "اتقوا الظلم؛ فإنَّ الظلمَ ظلماتٌ يوم القيامة") ظاهرُه: أنَّ الظالم يُعاقَبَ يوم القيامة؛ بأن يكون في ظلمات متوالية يوم يزمن المؤمنون في نور يسعى بين أيديهم، وبأيمانهم حين: ﴿يَقُولُ الْمُنَفِقُونَ وَالْمُنَفِقَتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْبَسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ فيقال لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً﴾[1]. وقيل: إنَّ معنى الظلمات هنا: الشدائد والأهوال التي يكونون فيها، كما فُسِّر بذلك قولُه: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِن ظُلُمَتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[2] أي: من شدائدهما، وآفاتهما. والأول أظهر.

و(قوله: "واتَّقُوا الشُّحَّ؛ فإنَّ الشحَّ أهلكَ مَن كان قبلكم") الشحُّ: الحرصُ على تحصيل ما ليس عندك، والبخلُ: الامتناعُ من إخراج ما حَصَل عندك. وقيل: إن الشحَّ هو البخلُ مع حرص. يقال منه: شَحِحْتُ بالكسر يشحُّ، - بالضم - ورجل شحيح، وقوم شِحاح وأشحّاء.

---

(1)- سورة الحديد، الآية 13.

(2)- سورة الأنعام، الآية 63.

وعن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: "إنّ الله يُملي للظّالم؛ فإذا أخذه لم يُفْلته". ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرى وهيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

رواه البخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ، وابن ماجه.

و(قوله: "حمَلَهم على أن سَفَكُوا دماءهم، واستحلُّوا محارمهم") هذا هو الهلاكُ الذي حُملَ عليه الشحُّ؛ لأنهم لَمَّا فعلوا ذلك أتْلَفُوا دنياهم وأخراهم، وهذا كما قال في الحديث الآخر: "إياكم والشح؛ فإنه أهلك مَن كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا") أي: حملهم على ذلك.

و(قوله: "إن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلتْهُ") يملي: يطيلُ في مدَّته، ويصحُّ، ويكثر ماله وولده ليكثر ظُلمُه، كما قال تعالى: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذينَ إِنَّمَا نُمْلي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً﴾[1] وهذا كما فَعَل الله بالظَّلمة من الأمم السَّالفة، والقرون الخالية، حتى إذا عمَّ ظُلْمُهم وتكامَلَ جُرْمُهم أخذهم الله أخذةً رابية، فلا ترى لهم من باقية، وذلك سنَّة الله في كلِّ جبَّار عنيد، ولذلك قال: ﴿وكذلكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[2].

و(قوله: "مَن سَتَر مُسلماً ستره الله يومَ القيامة") هذا حضٌّ على ستر من ستر نفسه، ولم تَدْعُ الحاجةُ الدينية إلى كَشْفه، فأما من اشتهر بالمعاصي، ولم يبال بفعلها، ولم ينته عمَّا نُهي عنه، فواجبٌ رَفْعُه للإمام، وتنكيله، وإشهارُه للأنام ليرتدعَ بذلك أمثالُه، وكذلك مَن تدعو الحاجةُ على كشف حالهم من الشهود والمجرَّحين، فيجب أن يكشفَ منهم ما يقتضي تجريحهم، ويحرمُ سترهم مخافةَ تغيير الشرع، وإبطال الحقوق.

---

(1)– سورة آل عمران، الآية 178.

(2)– سورة هود، الآية 102.

باب الأخذ على يد الظَّالم ونصر المظلوم

عن جابر، قال: اقْتَتَل غُلامان: غلامٌ من المهاجرينَ، وغلامٌ من الأنصار، فنادى المهاجرُ — أو المهاجرونَ -: يا للمهاجرين ! فنادى الأنصاريُّ: يا للأنصار ! فخرجَ رسولُ الله ﷺ فقال: "ما هذا؟ ! دعوى أهل الجاهلية !" قالوا: لا، يا رسول الله ! إلا أنَّ غلامين اقْتَتَلا، فكَسَعَ أحدُهما الآخَرَ، قال: "فلا بأسَ ولينصُر الرجلُ أخاه ظالماً أو مظلوماً؛ إنْ كان ظالماً فلْيَنْهَهُ، فإنَّه له نصرٌ، وإنْ كانَ مظلوماً فلْيَنْصُرْهُ".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ، والنسائيُّ في الكبرى.

ومن باب: الأخذ على يد الظالم ونصر المظلوم

(قوله: كسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار) في الصحاح: الكسع: أن تضربَ دُبُرَ الإنسان بيدك، أو بصدر قدمك، يقال: اتَّبَع فلانٌ أدبارهم يكسعهم بالسيف، مثل: يَكْسَؤُهُم، أي: يطردهم، ومنه قول الشاعر[1]:

كَسَعَ الشِّتَاءُ بسبعة غُبْرٍ[2] .....

ووردت الخيلُ يكسعُ بعضُها بعضاً.

و(قوله: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" هذا من الكلام البليغ الوجيز الذي قلَّ من ينسجُ على منواله، أو يأتي بمثاله، وأو فيه للتنويع والتقسيم، وإنما سُمِّي ردُّ الظالم نصراً؛ لأنَّ النصرَ هو العونُ. ومنه قالوا: أرضٌ منصورةٌ، أي: معانةٌ بالمطر، ومَنْعُ الظالم من الظلم عونٌ له على مصلحة نفسه، وعلى الرُّجوع إلى الحق، فكان أولى بأن يُسمَّى نَصْراً.

---

(1)— هو أبو شبل الأعرابي.

(2)— هذا صدر بيتٍ، وعجزه: أيَّام شَهْلَتِنا من الشَّهْرِ.

باب من استطال حقوقَ الناس
اقتُصَّ من حسناته يوم القيامة

عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: "أَتَدْرُونَ ما المفلسُ؟" قالوا: المفلسُ فِيْنا مَنْ لا درْهَمَ له ولا متاعَ ! فقال: "إنَّ المفلسَ من أمَّتي يأتي يومَ القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي وقد شَتَم هذا وقَذَف هذا، وأَكَلَ ما هذا، وسفك دَمَ هذا، وضرَبَ هذا، فيُعْطى هذا مِنْ حسناته، وهذا مِنْ حسناته، فإنْ فَنِيَتْ حسناتُه، قبلَ أن يُقضَى ما عليه، أُخِذَ مِنْ خطايَاهُم فطُرِحَتْ عليه، ثمَّ طُرِحَ في النَّار".

رواه أحمد، ومسلم، والترمذيُّ.

وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: "لَتُؤدُّنَ الحقوقَ إلى أهلِها يومَ القيامة حتى يُقادَ للشَّاةِ الجَلْحَاءِ من الشَّاةِ القَرناء".

رواه أحمد، ومسلم، والترمذيُّ.

ودعوى الجاهلية: تَنَادِيْهم عند الغضب، والاستنجاد: يا آل فلان ! يا بني فلان ! وهي التي عنى بقوله: "دعوها فإنها منتنة" أي: مستخبثة، قبيحة؛ لأنها تثيرُ التَّعَصُّبَ على غير الحقّ، والتقاتل على الباطل، ثم إنها تجرُّ إلى النار، كما قال: "مَن دعا بدعوى الجاهلية فليس منا، وليتبوَّأ مقعده من النار". وقد أبدل الله من دعوى الجاهلية دعوى المسلمين، فينادى: يا للمسلمين! كما قال ﷺ: "فادعُوا بدعوى الله الذي سمَّاكم المسلمين", وكما نادى عمرُ بن الخطاب - رضي الله عنه — حين طُعِن: يا لله ! يا لَلْمُسْلِمين !. فإذا دعا بها المسلمُ وحبتْ إجابتُه، والكشف عن أمره على

باب النهي عن دعوة الجاهلية

عن جابر، قال: كُنَّا مع النَّبيِّ ﷺ في غَزَاة؛ فكَسَعَ رجُلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاريُّ: يا للأَنْصار! وقال المهاجريُّ: يا لَلْمهاجرين! فقالَ رسولُ الله ﷺ: "ما بالُ دعوى الجاهلية؟" قال: قالوا: يا رسولَ الله! كَسَعَ رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال: "دعُوها فإنَّها مُنْتَنَة!". فسَمعَها عبدُ الله بنُ أُبيٍّ، فقال: قد فعلُوها! والله! لئن رَجَعْنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذَلَّ! قال عمر: دَعْني أضربْ عُنُقَ هذا المنافق. فقال: "دَعْهُ، لا يتحدَّثُ النّاسُ أنَّ محمداً يقتُلُ أصحابَه".

كلٌّ مَن سمعه؛ فإن ظهر أنه مظلومٌ نُصر بكلِّ وجه ممكنٍ شرعيٍّ؛ لأنه إنما دعا للمسلمين لينصروه على الحقّ. وإن كان ظالماً كُفَّ عن الظلم بالملاطفة والرفق، فإن نفع ذلك، وإلا أُخذَ على يده، وكفَّ عن ظُلْمه؛ فإن الناسَ إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه: أوشكَ أن يَعُمَّهم اللهُ بعقاب من عنده، ثم يدعونه فلا يُستجابُ لهم.

و(قوله ﷺ لعمرَ حين قال: دعني أضربْ عنقَ هذا المنافق: "لا يتحدَّث النَّاس أنَّ محمداً يقتلُ أصحابَه") دليل على: أن المنافقين الذين عُلم نفاقُهم في عهد رسول الله ﷺ كانوا مستحقين للقتل، لكن امتنعَ النبيُّ من ذلك؛ لئلا يكونَ قتلُهم منفِّراً لغيرهم عن الدخول في الإسلام؛ لأن العربَ كانوا أهلَ أَنَفَة وكبر بحيث لو قتلَ النبيُّ ﷺ هؤلاء المنافقين لنفرَ من بَعُد عنهم، فيمتنع من الدخول في الدّين، وهو نقيض المقصود، فعفا النبيُّ ﷺ عنهم، ورَفق بهم، وصبرَ على جفائهم وأذاهم، وأحسن إليهم حتى انشرحَ صدر من أرادَ الله هدايتَه، فرسخَ في قلبه الإيمان، وتبيَّن له الحق اليقين. وهلكَ عن بيِّنة من أراد الله هلاكه، وكان من الخاسرين. ثم أقام النبيُّ ﷺ

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ، والنسائيّ في الكبرى.

مُستصحباً لذلك إلى أن توفَّاه الله تعالى، فذهبَ النفاق وحكمه؛ لأنه ارتفعَ مسمَّاه واسمه. ولذلك قال مالك: النِّفاق في عهد رسول الله ﷺ هو الزندقة عندنا اليوم، ويظهر من مذهبه: أن ذلك الحكم منسوخ بقوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾[1]، وبقوله: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾[2] فقد سوَّى بينهما في الأمر بالجهاد، وجهاد الكفار: قتالهم وقتلهم، فليكن جهاد المنافقين كذلك. وفي الآيتين مباحث ليس هذا موضعها، وقد ذهبَ غير واحد من أئمتنا على أن المنافقين يُعفى عنهم ما لم يُظهروا نفاقَهم؛ فإن أظهروه قُتلوا، وهذا أيضاً يُخالف ما جرى في عهد النبيِّ ﷺ فإنَّ منهم من أظهرَ نفاقَه، واشتهرَ عنه حتى عُرف به، والله أعلم بنفقه، ومع ذل لم يُقتلوا لما ذكرناه، والله تعالى أعلم.

وقد وضح من هذا الحديث إبطال قول من قال: إن النبيَّ ﷺ لم يقتل المنافقين؛ لنه لم تقمْ بيِّنة مُعتبرةٌ بنفاقهم؛ إذ قد نصَّ فيه على المانع من ذلك، وهو غير ما قالوه. وفيه ما يدلُّ على أنَّ أهونَ الشرَّيْن يجوز العملُ على مقتضاه إذا اندفع به الشر الأعظم. وفيه دليل: على القول بصحة الذرائع، وعلى تعليل نفي الأحكام في بعض الصور بمناسبٍ لذلك النفي.

(قوله: "أتدرون ما المفلس؟") كذا صحت الرواية به، (ما) فقد وقعت هنا على من يعقل، وأصلُها لما لا يعقل. والمفلس: اسم فالس من أفلس إذا صار مُفْلساً، أي: افتقرَ، وكأنَّه صارت دراهمُه فلوساً، كما يقال: أجبنَ الرجلُ: إذا صار أصحابُه جبناء، وأقطف: إذا صارت دابته

---

(1)- سورة الأحزاب، الآية 60-61.

(2)- سورة التوبة، الآية 73.

.....

قَطُوفاً[1]، ويجوز أن يُراد به: إنه صار الرجل يقال فيه: ليس معه فلس، كمن قال: أقهرَ الرجلُ: إذا صار إلى حال يُقهر عليها، وأذَلَّ الرجل: إذا صار إلى حال يُذَلُّ فيها، وقد فلَّسه القاضي تفليساً: نادى عليه: أنه أفلس.

و(قوله: "المفلس هو الذي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة... الحديث". أي: هذا أحقُّ باسم المفلس؛ إذ تُؤخذ منه أعماله التي تعبَ في تصحيحها بشروطها حتى قُبلت منه، فلما كان وقتُ فقره إليها أُخذت منه، ثم طُرِح في النار. فلا إفلاسَ أعظمُ من هذا، ولا أخسرَ صفقةٌ ممن هذه حالُه، ففيه ما يدلُّ على وجوب السعي في التخلُّص من حقوق الناس في الدنيا بكل ممكن، والاجتهاد في ذلك، فإن لم يجد إلى ذلك سبيلاً، فالإكثارُ من الأعمال الصالحة، فلعلَّه بعدَ أخْذ ما عليه تبقى له بقيَّةٌ راجحة، والمرجو من كرم الكريم لمن صحَّت في الأداء نيَّتُه، وعَجَزَتْ عن ذلك قدرتُه أن يُرضي الله عنه خصومَه فيغفرُ للمطالب والمطلوب، ويوصلُهم إلى أفضل محبوب، وقد تقدَّم ذكر من قال: إن الصَّومَ لا يخذ مما عليه من الحقوق، وبيَّنا ما يرد عليه وبماذا ينفصل عنه.

و(قوله: "لتؤدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلها يومَ القيامة") هذا جواب قسم محذوف، كأنه قال: والله لتؤدُّنَّ. والحقوق: جمع حق، وهو ما يحقُّ على الإنسان أن يؤدِّيَه، وهو يعمُّ حقوقَ الأبدان، والأموال،و الأعراض، وصغيرَ ذلك وكبيرَه. كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةٌ إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾[2]، وكما قال: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِبِينَ﴾[3].

---

(1)– أي بطيئة.

(2)– سورة الكهف، الآية 49.

(3)– سورة الأنبياء، الآية 47.

.....

و(قوله: "حتى يقادَ للشاة الجلْحاء من الشاة القَرْناء") والجلحاء: هي التي لا قرون لها. وكبشٌ أجلح، وشاة جلحاء – ويُقاد: من القَوَد: من القَوَد، أي: القصاص. وقد حُكي: أن أبا هريرة – رضي الله عنه – حمل هذا الحديث على ظاهره، فقال: يُؤتى بالبهائم فيُقال لها: كوني تُراباً، وذلك بعد ما يُقاد الجلْحاء من القرناء، وحينئذ ﴿وَيَقُولُ الكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً﴾[1]. وقد قيل في معنى الحديث: إن المقصودَ منه التمثيلُ على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص، والإغياء فيه حتى يُفهم منه: أنه لا بُدَّ لكل أحد منه، وأنَّه لا محيصَ له عنه، ويتأيَّد هذا بما جاء في هذا الحديث عن بعضٍ رواته من الزيادة، فقال: "حتى يُقادَ للشاة الجلحاء من القرناء، ولحجر لم ركبَ على الحجر؟ وعلى العُود: خدشَ العودَ؟" فظهرَ من هذا: أن المقصودَ منه التمثيل المفيد للإغياء والتهويل؛ لأن الجمادات لا يُعقل خطابُها، ولا ثوابُها، ولا عقابُها، ولم يصرْ إليه أحدٌ من العقلاء، ومتخيِّلُه من جملة المعتوهين الأغبياء، ونظيرُ هذا التمثيل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَاناً سُيِّرتْ به الجِبَالُ...﴾ [2]، وقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا القُرءَانَ على جَبَلٍ...﴾ [3] الآية، فتدبَّر وجهَ التنظير، والله بحقائق الأمور عليم خبير.

---

[1]– سورة النبأ، الآية 40.

[2]– سورة الرعد، الآية 31.

[3]– سورة الحشر، الآية 21.

باب مثل المؤمنين

عن أبي موسى، قال: قال رسولُ الله ﷺ: "المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنيانِ يشدُّ بَعْضُه بعْضاً".

رواه البخاريُّ، ومسلم، وأبو داود، والنسائيُّ.

وعن النُّعمان بن بشير، قال: قال رسولُ الله ﷺ: "مثلُ المؤمنين في توادِّهم؛ وتراحُمهم؛ وتعاطُفِهم؛ مثلُ الجسد؛ إذا اشتكَى منه عُضْوٌ تداعى له سائرُ الجسدِ بالسَّهَرِ، والحَمَّى".

وفي رواية: "المسلمون كرجلٍ واحدٍ. إنْ اشْتكى عَيْنُه اشتكى كلُّه، وإن اشتكَى رأسُه اشتكى كلُّه".

ومن باب: مثلُ المؤمنين

(قوله ﷺ: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً") تمثيلٌ يفيدُ الحضَّ على معونة المؤمن للمؤمن ونصرته، وأنَّ ذلك أمرٌ متأكدٌ لا بدَّ منه، فإن البناءَ لا يتمُّ أمره، ولا تحصلُ فائدته إلا بأن يكون بعضُه يمسك بعضاً، ويقوِّيه، فإن لم يكن كذلك انحلَّتْ أجزاؤه، وخَرِبَ بناؤه. وكذلك المؤمنُ لا يستقلُّ بأمور دنياه ودينه إلا بمعونة أخيه، ومعاضدته، ومناصرته، فإن لم يكن ذلك عجز عن القيام بكلِّ مصالحه، وعن مقاومة مضادّة، فحينئذٍ لا يتمُّ له نظامُ دنيا ولا دين، ويلتحقُ بالهالكين.

و(قوله: "مثل المؤمنين في توادّهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد..." الحديث) هكذا صحيحُ الرواية في توادِّهم، ومعناه واضح، وقد وقع في رواية: توادهم بغير (في) ويصحُّ ذلك، ويكون محفوظاً على أنه بدلُ الاشتمال من المؤمنين. والتوادُّ مصدر تواددَ يتوادد توادّاً إذا أدغمت، ومقصودُ هذا التمثيل: الحضُّ على ما يتعيَّن من محبة المؤمن، ونصيحته، والتهمم بأمره.

باب تحريم السّباب والغِيْبة ومن تجوز غيبته

عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: "المُسْتَبَّان ما قالا؛ فعلى البادئ ما لم يعتدِ المظلوم".

ومن باب: تحريم السِّباب والغِيبة

و(قوله: "المستبَّان ما قالا، فعلى الأول ما لم يعتد المظلوم") المستبَّان: تثنية مُستبّ من السَّبِّ؛ وهو الشتم والذمُّ، وهما مرفوعان بالابتداء، و(ما) موصولة، وهي في موضع رفع بالابتداء أيضاً، وصلتها قالا، والعائد محذوف تقديره: قالاه، و(على الأول) خبر ما، ودخلت الفاء على الخبر لما تضمَّنه الاسم الموصول من معنى الشرط، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِن نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾[1]، وما وخبرها: بر المبتدأ الأول الذي هو المستبَّان. ومعنى الكلام: أن المبتدئ من غير سببٍ ولا استحقاق، والثاني منتصر فلا إثمَ عليه، ولا جُناحَ، لقوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِه فأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِنْ سَبِيلٍ﴾[2]، لكنَّ السبَّ المنتصر به — وإن كان مُبَاحاً للمنتصر — فعليه إثمٌ من حيث هو سبٌّ، لكنه عائد إلى الجاني الأول؛ لأنه هو الذي أحوجَ المنتصرَ إليه وتسبَّب فيه، فيرجع إثمه عليه، ويسلمُ المنتصر من الإثم؛ لأنَّ الشرعَ قد رفعَ عنه الإثمَ والمؤاخذة، لكن ما لم يكن من المنتصر عدوان إلى ما لا يجوز له، كما قال: "ما لم يعتد المظلوم" أي: ما لم يُجاوز ما سُبَّ به إلى غيره؛ إما بزيادة سَبٍّ آخرَ أو بتكرار مثل ذلك السّبِّ،وذلك أنَّ المباحَ في الانتصار: أن يردَّ مثل ما قال الجاني، أو يُقاربه؛ لأنه قصاص، فلو قال له: يا كلبُ — مثلاً — فالانتصار أن يردَّ عليه بقوله:

---

[1]— سورة النحل، الآية 53.

[2]— سورة الشورى، الآية 41.

بل هو الكلبُ، فلو كرَّر هذا اللفظ مرتين أو ثلاثاً لكان مُتعدِّياً، بالزائد على الواحدة، فله الأولى، وعليه إثم الثانية، وكذلك لو ردَّ عليه بأفحشَ من الأولى، فيقول له: خنزير — مثلاً — كان كلٌّ واحد منهما مأثوماً؛ لن كلاً منهما جاز على الآخر، وهذا كلُّه مقتضى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فاعْتَدُوا عَلَيْه بمثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[1]، وقوله: ﴿وَجَزَؤُا سَيِّئَة سَيِّئَةٌ مثْلُهَا﴾[2]، وكلُّ ما ذكرناه من جواز الانتصار: إنما هو فيما إذا لم يكن القول كذباً، أو بُهتاناً، فلا يجوز أن يتكلَّم بذلك لا ابتداءٌ ولا قصاصاً، وكذلك لو كان قذفاً؛ فلو ردَّه كان كلٌّ واحد منهما قاذفاً للآخر، وكذلك لو سبَّ المبتدئ أبا المسبوب، أو جدَّه لم يَجزْ له أن يردَّ ذلك؛ لأنه سبٌّ لمن لم يجنِ عليه فيكونُ الردُّ عدواناً لا قصاصاً. قال بعضُ علمائنا: إنما يجوز الانتصار فيما إذا كان السبُّ مما يجوز سبُّ المرء به عند التأديب كالأحمق، والجاهل، والظالم؛ لأنَّ أحداً لا ينفكُّ عن بعض هذه الصفات إلا الأنبياء والأولياء، فهذا إذا كافاه بسبِّه فلا حرجَ عله، ولا إثمَ، وبقي الإثم على الأول بابتدائه وتعرُّضه لذلك.

تنبيه: ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلمَنِ انتَصرَ بَعْدَ ظُلْمه فَأُوْلَئكَ مَا عَلَيْهم منْ سَبيلٍ﴾[3]: أن الانتصارَ مباح، وعلى ذلك يدلُّ الحديث المذكور، لكنَّ قوله تعالى: ﴿وَالَّذينَ إذَا أَصَابَهُمُ البَغْيُ هُمْ يَنْتَصرُونَ﴾[4] مدح من الله تعالى للمنتصر، والمباح: لا يُمدح عليه، فاختلفَ العلماء في ذلك، فقال السُّدِّي: إنما مدح الله من انتصر ممن بُغي عليه من غير زيادة على مقدار

---

(1)— سورة البقرة، الآية 194.
(2)— سورة الشورى، الآية 40.
(3)— سورة الشورى، الآية 41.
(4)— سورة الشورى، الآية 29.

.....

ما فُعل به، يعني: أنه إنما مُدحَ من حيث إنه اتَّقى في انتصاره؛ إذا أوقعَه على الوجه المشروع، ولم يفعلْ ما كانت الجاهلية تفعلُ من الزيادة على الجناية. وقال غيره: إنما مَدَحَ الله من انتصر من الظالم الباغي المعلن بظلمه الذي يعمُّ ضررُه، فالانتقام منه أفضل، والانتصار عليه أولى. قال معناه إبراهيم النَّخَعيّ، ولا خفاء في أن العفو عن الجناة وإسقاطَ المطالبة عنهم بالحقوق مندوب إليه، مرغَّب فيه على الجملة، لقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[1]، ولقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾[2]، وقوله: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3]، وقوله: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[4]، ولقوله ﷺ: "ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزًّا" وقوله: "تعفو عمن ظلمك، وتُعطي من حرمك، وتصل من قطعك" ونحوه كثير، ومع ذلك فاختلف العلماء في المحاللة من الحقوق، فقال سعيدُ بن المسيّب: لا أحلِّل أحداً. وظاهره: أنه كان لا يُجيز أن يعفوَ عن حقٍّ وجبَ له، ولا يسقطه، ولم يفرق بين الظالم ولا غيره، وهذا هو الذي فهمَه مالك عنه. وذهبَ غيره إلى أنه تجوزُ المحاللة من جميع الحقوق وإسقاطها، وإليه ذهبَ محمد بن سيرين. والقاسم بن محمد كان يُحلِّل من ظلمَه، ويكره لنفسه الخصوم. وفرَّق آخرون بين الظالم، فلم يُحلِّلوه، وبين غيره فحلَّلوه، وإليه ذهب إبيراهيم النَّخَعي، وهو ظاهر قول مالك، وقد سُئل فقيل له: أرأيت الرجل يموتُ، ولك عليه دينٌ، ولا وفاء له به؟ قال: أفضلُ عندي أن أحلِّلَه، وأما الرجلُ يظلم الرجلَ فلا أرى ذلك. قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ

---

(1)– سورة الشورى، الآية 43.
(2)– سورة الشورى، الآية 40.
(3)– سورة النور، الآية 22.
(4)– سورة البقرة، الآية 237.

وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: "أتدرُونَ ما الغِيبة؟" قالوا: الله ورسوله

يَضْلِمُونَ النَّاسَ﴾، فظاهر هذا: أن الظالم لا يجوزُ أن يُحلِّل، ولم يفرِّقْ بين الحقوق، فيكون مذهبُه كمذهب النَّخَعيِّ المتقدِّم، غير أنَّه قد روي قول مالك هذا بلفظ آخر، فقال: أما الرجل يغتابُ الرجلَ، وينتقصُه، فلا أرى ذلك، ففهم بعض أصحابنا من هذا: أن تركَ المُحالَلة إنما منعَه في الأعراض خاصة، وأما في سائر الحقوق فيجوز، وسبب هذا الخلاف: هل تلك الأدلة مبقاة على ظواهرها من التعميم، أو هي مُخصَّصة فيخرج منها الظالم؟ لأنَّ تحليلَه من المظالخ يُجرِّئه على الإكثار منها وهو ممنوع بالإجماع، ثم ذلك عون له على الإثم والعدوان، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والعُدْوَانِ﴾[1].

وأما الفرق بين الأعراض وغيرها فمبالغة في سدّ ذريعة الأعراض ليسارتها وتساهل الناس في أمرها، فاقتضى ذلك المبالغة في الردع عنها؛ ولا يُخرج منها، امتنعَ من الوقوع فيها.

قال الشيخ رحمه الله: ويردُّ على هذه التخصيصات سؤالات يطول الكلام بإيرادها والانفصال عنها، والتمسُّك بالعموم هو الأصل المعلوم، لا سيما مع قوله ﷺ: "أيعجزُ أحدُكم أن يكون كأبي ضمضمَ كان إذا أصبحَ يقولُ: اللهم إني تصدَّقتُ بعرضي على عبادك" ومع الأصل الكلِّيِّ في حقوق بني آدمَ من جواز تصرُّفهم فيها بالإعطاء والمنع، والأخذ والإسقاط، والله تعالى أعلم.

تفريع: القائلون بجواز التحلُّل وإسقاط الحقوق اختلفوا: هل تسقط عن الظالم مطالبة الآدميّ فقط، ولا تسقط عنه مطالبة الله عز وجل؟ أو يسقط عنه الجميع؟ لأهل العلم فيه قولان.

---

[1]– سورة المائدة، الآية 2.

أعلمُ. قال: "ذكرك أخاك بما يكرَهُ". قيلَ: أفرأيتَ إنْ كان في أخي ما أقول. قال: "إنْ كَانَ فيه ما تقولُ فقد اغْتَبْتَهُ، وإنْ لَمْ يكُن فيه فقدْ بَهَتَّه".

و(قوله: "أتدرون ما الغيبة؟" كأن هذا السؤال صدرَ عنه بعد أن جرى ذكر الغيبة، ولا يبعد أن يكون ذلك بعد نزول قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً﴾[1]، ففسَّر النبيُّ ﷺ هذه الغيبة المنهي عنها. ووزنها فعْلة، وهي مأخوذة من الغَيبة، - بفتح الغين — مصدر غاب؛ لأنها ذكر الرجل في حال غيبته بما يكرهه لو سمعه. يقال من ذلك المعنى: اغتابَ فلان فلاناً، يغتابه اغتياباً، واسم ذلك المعنى: الغيبة، ولا شك في أنه محرَّمة، وكبيرة من الكبائر بالكتاب والسنَّة، فالكتاب: قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً...﴾ الآية وأما السنة فكثيرة من أنصِّها: ما خرَّجه أبو داود عن أبي هريرة قال: قال: قال رسول الله ﷺ: "إنَّ من الكبائر استطالةُ المرء في عرْض رجلٍ مسلم"، وفي كتابه من حديث أنس عنه ﷺ قال: "مررتُ ليلة أُسري بي بقوم لهم أظافرٌ من نحاسٍ يَخمْشُون وجوهَهم وصدورَهم، فقلتُ: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعونَ في أعراضهم".

وإذا تقررت حقيقةُ الغيبة وأنَّ أصلَها على التحريم فالعلم أنها قد تخرج عن ذلك الأصل صورٌ، فتجوز الغيبة في بضعها، وتجب في بعضها، ويُندب إليها في بعضها: فالأولى كغيبة المعلن بالفسق المعروف به، فيجوزُ ذكره بفسقه لا بغيره، مما يكون مشهوراً به، لقوله: "بئس أخو العشيرة" كما يأتي، وقوله ﷺ: "لا غيبة في فاسق"، ولقوله: "لَيُّ الواجد يُحلُّ عرضه، وعقوبته". والثاني: جرح شاهد عند خوف إمضاء الحكم بشهادته، وجرح المحدِّث الذي يُخاف أن يُعمل بحديثه، أو يُروى عنه،

---

[1]— سورة الحجرات، الآية 12.

رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذيُّ.

وهذه أمور ضرورية في الدّين معمول بها، مجمع من السلف الصالح عليها، ونحو ذلك: ذكرُ عَيْب من استُنصحت في مصاهرته، أو معاملته، فهذا يجبُ عليك الإعلام بما تعلم من هناته عند الحاجة إلى ذلك على جهة الإخبار، كما قال النبيُّ ﷺ: "أما معاويةُ فصُعلوكٌ لا مالَ له، وأما أبو جَهْمٍ فلا يضعُ عصاه عن عاتقه". وقد يكون من هذين النوعين ما لا يجبُ بل يُندب إليه، كفعل المحدِّثين حين يُعرِّفون بالضعفاء مخافة الاغترار بحديثهم، وكتحريز من لم يَسْأل مخافةَ معاملة من حاله تُجهل، وحيث حكمنا بوجوب النص على الغَيْب، فإنما ذلك إذا لم نجد بُدّاً من التصريح والتنصيص، فأما لو أغنى التعريض، والتلويح لَحَرُمَ التنصيص والتصريح؛ فإن ذلك أمرٌ ضروريٌّ، والضروريُّ يُقدَّر بقدْر الحاجة، والله تعالى أعلم.

و(قوله: "وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتَّه") هو بتخفيف الهاء وتشديد التاء؛ لإدغام تاء المخاطب في التاء التي هي لام الفعل، وكذلك رويته، ويجوز أن تكون مخفَّفة على إسقاط تاء الخطاب، يقال: بهتّه بَهَتاً وبَهْتاً وبهتاناً، أي: قال عليه ما لم يَقل، وهو بَهَّات المقول مبهوت، ويُقال: بَهِتَ الرجلُ – بالكسر – إذا دَهش وتحيَّر، وبَهُت – بالضم – مثله، وأفصحُ منها: بُهت، كما قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾[1]؛ لأنه يقال: رجل مبهوت، ولا يُقال: باهت، ولا بهيت. قاله الكسائي.

ذمٌّ لهذا الرجل في حال غيبته لما علمَ النبيُّ ﷺ من حاله، وأنه ممن لا غيبةَ فيه، وهو عُيينة بن حصن بن حذيفة بن مالك الفَزاري، أسلمَ بعد الفتح، وقيل: قبلَه، وهو من المؤلَّفة قلوبُهم، وكان من الأعراب الجفاة. روى أبو عمر بن عبد البر عن إبراهيم النَّخَعي: أن عيينةَ دخل على النبيِّ ﷺ

---

[1]– سورة البقرة، الآية 258.

وعن عائشة: أنَّ رجلاً استأذنَ على النبيِّ ﷺ فقال: ائذَنُوا له، فلبئْسَ ابنُ العَشيرَةِ — أو بئسَ رجلُ العَشيرة —". فلمّا دخل عليه ألان له القولَ !

بغير إذن، فقال النبيُّ ﷺ: "وأينَ الإذنُ؟" فقال: ما استأذنتُ على أحد من مضرَ، وكانت عائشةُ — رضي الله عنها — مع النبيّ ﷺ فقال: من هذه الحميراء؟ فقال: "أمّ المؤمنين". فقال: ألا أنزل لك عن أجملَ منها. فقالت عائشة — رضي الله عنها —: من هذا يا رسول الله؟ قلا: "هذا أحمقُ مُطاع، وهو على ما تَرَينَّ سيِّدُ قومه". وقال الزهري: كان لعيينة ابن أخ من جلساء عمر — رضي الله عنه — يقال له: الجدُّ بن قيس، فقال عُيينة لابن أخيه: ألا تدخلْني على هذا؟ فقال: أخاف أن تتكلَّم بما لا ينبغي، فقال: لا أفعل، فأدخله على عمر — رضي الله عنه — فقال: يا بنَ الخطاب ! والله ما تقسمُ بالعدل، ولا تُعطي الجزلَ، فغضب عمر — رضي الله عنه — غضباً شديداً حتى همَّ أن يُوقعَ به، فقال ابن أخيه: يا أميرَ المؤمنين ! إن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجَهِلِينَ﴾[1]، وإن هذا من الجاهلين. قال: فخلّى عنه عمر، وكان عمر — رضي الله عنه — وقّافاً عند كتاب الله تعالى. قال

و(قوله ﷺ: "بئس ابنُ العشيرة، أو رجلُ العشيرة") هذا من رسول الله ﷺ القاضي عياض: وقد كان من عيينة في حياة النبيِّ ﷺ، وبعد موته ما يدلُّ على ضعف إيمانه، بل: فيه علمٌ من إعلام النبيِّ ﷺ أنه بئس ابن العشيرة، وقد طهرَ ذلك منه، إذ هو ممن ارتدَّ وجيء به أسيراً إلى أبي بكر — رضي الله عنه — والله أعلم بما ختم له.

قال الشيخ رحمه الله: ويظهرُ من قول النبيِّ ﷺ فيه: "إن شرَّ الناس منزلة عند الله يوم القيامة من ودَعه الناس اتقاءَ فحشه" أن عُيينة خُتم له

---

[1]— سورة الأعراف، الآية 199.

قالت عائشة: فقلتُ: يا رسول الله ! قلتَ له الذي قلتَ، ثم ألنتَ له القولَ؟ قال: "يا عائشة ! إنّ شرَّ الناس مَنْزِلَةً عند الله يوم القيامة؛ مَنْ وَدَعَه – أو: تَرَكَهُ – الناسُ اتِّقاءَ فُحْشِه".

رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذيُّ.

بخاتمة سوء؛ لأنه ممن اتَّقى النبيُّ ﷺ فحشَه وشرَّه، والنَّاسُ. فهو إذاً: شرُّ الناس منزلةٌ عند الله يومَ القيامة. ولا يكون كذلك حتى يختم الله تعالى له بالكفر، والله تعالى أعلم.

ففي حديثه من الفقه: جواز غِيبة: المعلن بفسقه ونفاقه، والأمير الجائر والكافر، وصاحب البدعة، وجواز مداراتهم اتِّقاءَ شرهم، لكن ما لم يُؤدِّ ذلك إلى المداهنة في دين الله تعالى. والفرق بين المدارة والمداهنة، أ المدارة: بذل الدنيا لصلاح الدُّنيا أو الدِّين، وهي مباحة ومستحسنة في بعض الأحوال، والمداهنة المذمومة المحرَّمة: هي بذل الدين لصالح الدنيا، والنبيُّ ﷺ إنما بذلَ له من دنياه حسن عشرته، والرِّفق في مكالمته، وكلاقة وجهه، ولم يمدحْه بقول، ولا روعي في ذلك في حديث. فعلى هذا فلا يناقض قوله ﷺ في هذا الرجل فعله معه؛ لأن قوله ذلك إخبار بحقِّ، ومداراته له حسن عشرة مع الخلق، فلا مدفعَ لأهل الزيغ والضلال؛ إذ لا يبقى على ما أوضحناه إشكال.

و(قوله: "من ودَعه، أو تركه النَّاسُ اتِّقاءَ فحشه") هذا شك من بعض الرواة في أي اللفظين قال النبيُّ ﷺ؛ فإن كان الصحيح ودَعه فقد تكلَّم النبيُّ ﷺ بالأصل المرفوض، كما قد تكلَّم به الشاعر الذي هو أنس بن زنيم في قوله:

سَلْ أمِـــيرِي مَا الذي غَيـــَّرَه ... عَنْ وِصَالي اليَوْمَ حَتَّى وَدَعَـــه؟

باب الترغيب في العفو والسَّتر على المسلم

عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: "ما نَقصَتْ صدقةٌ من مالٍ، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عِزّاً، وما تواضَعَ أحدٌ لله إلا رَفَعَهُ الله".

وقد حكي عن بعض السلف: أنه قرأ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلى﴾[1] بتخفيف الدال، وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه تكلمَّ بمصدر ذلك المرفوض حيث قال: "لينتهينَّ أقوام عن وَدْعِهُمُ الجُمعات، أو ليختمنَّ الله على قلوبهم"، وهذا كلُّه يردُّ عل من قال من النحويين: إن العربَ قد أماتت ماضيَ هذا الفعل ومصدَره، ولا يُتكلَّم به استغناءٌ عن ذلك بتركه، فإن أراد به هذا القائل أنه لا يُوجد في كلامهم، فقد كذَّبه النقلُ الصحيح، وإن أرادَ أن ذلك يقعُ، ولكنَّه قليل، وشاذٌّ في الاستعمال، فهو الصحيح.

ومن باب: التَّرغيب في العفو والستر والرفق

(قوله: "ما نقصت صدقةٌ من مال") فيه وجهان:

أحدهما: أنه بقدر ما ينقص منه يزيدُ الله فيه، وينمِّيه، ويُكثره.

والثاني: أنه وإن نقص في نفسه ففي الأجر والثواب ما يجبرُ ذلك النقص بأضعافه.

و(قوله: "ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزّاً") فيه أيضا وجهان:

أحدهما: ظاهره، فإن من عُرف بالصَّفح والعفو ساد وعظم في القلوب.

والثاني: أن يكون أجرُه وثوابه وجاهُه وعزُّه في الآخرة أكثر.

---

[1]– سورة الضحى، الآية 3.

رواه أحمد، ومسلم، والترمذيُّ.

وعنه؛ عن النبيِّ ﷺ قال: "لا يستُرُ عبدٌ عبداً في الدُّنيا؛ إلا ستَره الله يومَ القيامة".

وفي رواية: "لا يستر الله على عبدٍ في الدُّنيا إلا ستر يوم القيامة".

و(قوله: "وما تواضع أحدٌ لله إلاَّ رفعه الله") التواضع: الانكسار، والتذلُّل، ونقيضُه التكبُّر والترفع. والتواضعُ يقتضي متواضعاً له؛ فإن كان المتواضعُ له هو الله تعالى، أو مَن أمر الله بالتَّواضع له كالرسول، والإمام، والحاكم، والوالد، والعالم، فهو التواضعُ الواجبُ المحمودُ؛ الذي يرفع الله تعالى به صاحبَه في الدنيا والآخرة، وأما التواضعُ لسائر الخلق فالأصل فيه: أنه محمودٌ، ومندوبٌ إليه، ومُرَغَّبٌ فيه ذا قُصْدَ به وَجْهُ الله، ومَن كان كذلك رفع الله تعالى قدره في القلوب، وطيَّب ذكْرَهُ في الأفواه، ورفَع درجته في الآخرة، وأما التواضعُ لأهل الدنيا، ولأهل الظلم، فذلك هو الذّلُّ الذي لا عزَّ معه، والخسَّةُ التي لا رفعةَ معها، بل: يترتب عليها ذلّ الآخرة. وكلُّ صَفقةٌ خاسرة نعوذ بالله من ذلك -. وقد تقدم الكلامُ عل العفو والسّتر.

و(قوله: "إن الله رفيقٌ يحبُّ الرفق") قد تقرَّر في غير موضع: أنَّ العلماءَ اختلفوا في أسماء الله تعالى، هل الأصلُ فيها التوقيفُ. فلا يُسمَّى إلا بما سمَّى به نفسَه في كتابه، أو على لسان رسوله، أو بجمع الأمّة عليه؟ أو: الأصل جوازُ تسميته تعالى بكلِّ اسمٍ حَسَن إلا أن يمنعَ منه مانعٌ شرعيٌّ؟ الأول: لأبي حسن[1]. والثاني: للقاضي أبي بكر[2]. ومثال الخلاف: هل الألفُ واللامُ في قوله تعالى: ﴿ولله الأسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾[3] للجنس، أو للعهد؟ ثم إذا تنزَّلنا على رأي الشيخ أبي الحسن، هل

---

(1)- هو أبو الحسن الأشعري، المتوفى سنة (324 هـ).

(2)- هو أبو بكر بن العربي دفين فاس بالمغرب سنة 543 هـ.

(3)- سورة الأعراف، الآية 180.

باب الحث على الرفق ومن حُرِمَه حرم الخير

عن عائشة، زوج النَّبيِّ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: "يا عائشةُ ! إنَّ الله رفيقٌ يُحبُّ الرِّفْقَ، ويعطي عليه ما لا يعطي على العُنفِ، وما لا يُعْطي على ما سِواه".

رواه مسلم.

نقتبسُ أسماءه تعالى من أخبار الآحاد، أو لا؟ اختلف المتأخرون من الأشعرية، في ذلك على قولي، والصحيح قبولُ أخبار الآحاد في ذلك؛ لأنَّ إطلاقَ الأسماء على الله تعالى حُكْمٌ شرعي عمليٌّ فيُكتفى فيه بخبر الواحد والظواهر؛ كسائر الأحكام العملية، فأمَّا معنى الاسم فإن شهد باتصاف الحقِّ به قاطعٌ عقليٌّ، أو سمعيٌّ وَجَب قبولُه وعلمُه، وإلا لم يجبْ. ثم هل يُكتفى فيكون الكلمة اسماً من أسماء الله تعالى بوجودها في كلام الشارع من غير تكرار، ولا كثرة، أم لا بُدَّ منهما؟ فيه رأيان، وقد سبق القولُ في ذلك. والرفيقُ: هو الكثيرُ الرفق، وهو اللِّينُ، والتَّسهيل، وضده العنف، والتشديدُ والتَّصعيب، وقد يجيء الرفقُ بمعنى الإرفاق، وهو: إعطاء ما يرتفقُ به، قال أبو زيد: يقال: رفقتُ به، وأرفقتُه بمعنى: نفعتُه، وكلاهما صحيحٌ في حقِّ الله تعالى؛ إذ هو الميسِّر والمسهِّل لأسباب الخير والمنافع كلِّها، والمعطي لها، فلا تيسيرَ إلا بتيسيره، ولا منفعةٌ إلا بإعطائه وتقديره. وقد يجيءُ الرفقُ أيضاً بمعنى: التمهُّل في الأمر، والتأنِّي فيه، يقالُ منه: رفقت الدابة أرفقها رفقاً: إذا شددت عضدها بحبل لتبطئ في مَشْيِها، وعلى هذا فيكون الرفيقُ في حقِّ الله تعالى بمعنى: الحليم؛ فإنه لا يعجِّل بعقوبة العصاة، بل: يمهلُ ليتوبَ مَن سبقتْ له السعادة، ويزدادُ إثماً من سبقت له الشّقاوة، وهذا المعنى أليقُ بالحديث؛ فإنه السببُ الذي أخرجه. وذلك أنَّ اليهودَ سلَّموا على النبيِّ ﷺ فقالوا: السَّام عليك، ففهمتهم عائشةُ — رضي الله عنها — فقالت: بل عليكم السَّامُ واللعنة. فقال لها النبيُّ ﷺ هذا الحديث.

وعنها؛ عن النبيِّ ﷺ قال: "إنَّ الرفقَ لا يكونُ في شيءٍ إلا زَانَهُ، ولا يُترعُ من شيء إلا شَانَه".

زاد في رواية: أنَّ عائشة رَكِبَتْ بعيرا، فكانَتْ فيه صُعُوبةٌ، جعلتْ تُرَدِّدُه، فقال لها رسولُ الله ﷺ: "عَلَيْكَ بالرِّفْق... فإنَّ الرفق..." على نحو ما تقدم. الدابة أرفقها رفقاً: إذا شددت عضَدها بحَبل لتبطئ في مَشْيِها، وعلى هذا

رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود.

وعن جرير بن عبد الله، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "مَنْ يُحْرَم الرفقَ يُحْرَمِ الخَيْرَ".

رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه، وقد جاء في الأصول: عن جابر (بدل): عن جرير.

و(قوله: "إنَّ الله رفيق يحبُّ الرِّفق") أي: يأمر به، ويحضُّ عليه، وقد تقدّم: أنّ حُبَّ الله للطَّاعة شرعُه لها، وترغيبُه فيها. وحبُّ الله لمن أحبَّه من عباده: إكراهه له.

و(قول: ويُعطي عليه ما لا يعطي على العنف") ويقال: بفتح العين وضمِّها، معناه: إن الله تعالى يُعطي عليه في الدُّنيا من الثَّناء الجميل، وفي الآخرة من الثَّواب الجزيل ما لا يُعْطي على العنف الجائز. وبيانُ هذا بأن يكون أمرٌ ما من الأمور سوّغ الشرعُ أن يُتَوَصَّلَ إليه بالرفق وبالعنف، فسلوكُ طريق الرِّفق أولى لما يحصل عليه من الثَّناء على فاعله بحُسْن الخُلُق، ولما يترتَّبُ عليه من حُسْن الأعمال، وكمال منفعتها، ولهذا أشار ﷺ بقوله: "ما كان الرفقُ في شيءٍ إلا زانه". وضدُّه الخُرْق الاستعجال، وهو مُفْسدٌ للأعمال، وموجبٌ لسوء الأحدوثة، وهو المعبَّر عنه بقوله: "ولا نُزع من شيء إلا شانَهُ". أي: عَابَهُ، وكان له شئناً. وأما الخُرْق والعنف: فمُفوّتان مصالح الدنيا، وقد يفضيان إلى تفويت ثواب الآخرة؛ ولذلك قال ﷺ: "من يُحرمِ الرفقَ يُحرم الخير". أي: يفضي ذلك به إلى أن يُحرَم خيْرَ الدُّنيا والآخرة.

باب لا ينبغي للمؤمن أن يكون لَعاناً
والتغليظ على من لعن بهيمة

عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: "لا يَنبغي لِصدِّيقٍ أنْ يكونَ لَعَّاناً".

رواه مسلم.

ومن باب قوله: لا ينبغي للمؤمن أن يكون لعاناً

قد تقدَّم: أن أصلَ اللَّعْن والطرد والبعد، وهو في الشرع: البعد عن رحمة الله تعالى وثوابه إلى نار الله وعقابه، وأنَّ لعنَ المؤمن كبيرةٌ من الكبائر؛ إذ قد قال ﷺ: "لعن المؤمن كقتله".

و(قوله: "لا ينبغي لصدِّيق أن يكون لَعَّاناً") صدِّيق: فعِّيل: وهو الكثير الصدق والتصديق، كما قد تقرَّر في صفة أبي بكر – رضي الله عنه – واللَّعَّان: الكثير اللَّعن. ومعنى هذا الحديث: أن من كان صادقاً في أقواله وأفعاله مُصدِّقا بمعنى اللعنة الشعرية، لم تكن كثرة اللعن من خُلُقه، لنه إذا لعنَ من لا يستحقُّ اللعنة الشرعية، فقد دعا عليه بأن يُبعدَ من رحمة الله وجنَّته، ويدخلَ في ناره وسخطه. والإكثار من هذا يُناقضُ أوصافَ الصِّدِّقين؛ فإن من أعظم صفاتهم الشفقة، والرحمة للحيوان مطلقاً، وخصوصا بني آدم، وخصوصا المؤمن؛ فإن المؤمنين كالجسد الواحد، وكالبنيان لما تقدَّم، فكيف يليقُ أن يُدعى عليهم باللعنة التي معناها الهلاك

وعن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ:"لا يكون اللعانون شفعاءَ، ولا شهداء يوْمَ القيامة".

رواه مسلم، وأبو داود.

وعن عمرانَ بن حصين، قال: بينما رسولُ الله ﷺ في بعض أسفاره وامرأةٌ من الأنصار على ناقة، فضَجرتْ، فلعنَتْها، فسمع ذلك رسولُ الله ﷺ فقال: "خذوا مَا عَلَيْها ودَعوها، فإنَّها مَلْعُونَةٌ". قال عمران: فكأنِّي أراها الآن ناقةٌ ورقاءَ تمشي في النّاس، ما يَعْرض لها أحدٌ".

رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود.

والخلود في نار الآخرة. فمن كثر منه اللَّعن فقد سُلب منصبَ الصدِّيقيَّة، ومن سُلبَه فقد سُلبَ منصبَ الشفاعة، والشهادة الأخرويّة، كما قال: "لا يكونُ اللَّعَّانُون شفعاءَ، ولا شهداءَ يوم القيامة". وإنما خصَّ اللّعان بالذكر ولم يقل: اللاعن، لأن الصِّدِّيق قد يلعنُ مَن أمره الشرعُ بلعنه، وقد يقعُ منه اللَّعْن فلتةٌ ونُدرة، ثم يُراجع، وذلك لا يخرجُه عن الصدِّيقيَّة، ولا يُفهم من نسبتنا الصِّدِّيقيَّة لغير أبي بكر مساواة غير أبي بكر – رضي الله عنه – أفضلُ الناس بعد رسول الله ﷺ على ما تقدَّم؛ لكنْ: المؤمنون الذين ليسوا بلعّانين لهم حظٌّ من تلك الصدِّيقيَّة، ثم هم متفاوتون فيها على حسب ما قسم لهم منها، والله تعالى أعلم.

و(قوله ﷺ في الناقة المدعو عليها باللَّعنة: "خذوا ما عليها فإنها ملعونة") حملَه بعض النَّاس على ظاهره، فقال: أطلع الله تعالى نبيَّه ﷺ على أن هذه الناقة قد لعنَها الله تعالى، وقد استجيب لصاحبتها فيها؛ فإن أرادَ هذا القائل: أنَّ الله تعالى لعنَ هذه الناقة كما يلعن من استحقَّ اللَّعنة من

وعن أبي برزة الأسلميِّ، قال: بينما جاريةٌ على ناقةٍ عليها بعضُ متاع القوم، إذْ بَصُرَتْ بالنَّبيِّ ﷺ، وتضايَقَ بهمُ الجبلُ، فقالت: حَلْ! اللَّهم العنها! قال: فقال النبيُّ ﷺ: "لا تُصاحِبُها ناقةٌ عليها لعنةٌ".

وفي رواية: "لا، آيم الله، لا تصاحبنا!".

رواه أحمد، ومسلم.

المكلَّفين كلّ ذلك باطلاً إذ الناقه ليست بمكلَّفة، وأيضاً فإن الناقة لم يصدر منها ما يُوجب لَعْنَها، وإن أراد أن هذه اللَّعنة: إنَّما هي عبارة عن إبعاد هذه الناقة عن مالكتها، وعن استخدامها إياها فتلك اللعنة إنما ترع لصاحبتها؛ إذ قد حيل بينها وبين مَالِها، ومنعت الانتفاع به، لا للناقة، لأنها قد استراحت من ثقل الحمل وكدِّ السير، فإن قيل: فلعل معنى لعنة الله الناقة أن تُتركَ ألاَّ يتعرَّض لها أحد، فالجواب: أن معنى ترك الناس لها إنما هو أنهم لم يُؤوها إلى رحالهم، ولا استعملوها في حمل أثقالهم، فأمل أن يتركوها في غير مرعى، ومن غير علفٍ حتى تهلكَ فليس في الحديث ما يدلُّ عليه. ثم هو مخالف لقاعدة الشرع في الأمر بالرِّفق بالبهائم، والنهي عن تعذيبها، وإنما كان هذا منه ﷺ تأديباً لصاحبتها، وعقوبة لها فيما دعت عليها بما دعت به. ويُستفاد منه: جواز العقوبة في المال لمن جنى فيه بما يُناسب ذلك، والله تعالى أعلم. والورقاء: التي يُخالط بياضَها سوادٌ، والذَّكَرُ أورق.

و(قوله: فقالت: حلْ) هي كلمةٌ تُزجر بها الإبل، يُقال: حَلْ! بسكون اللام ويُقال: حلٍ! حَلِ! بكسر اللام فيهما منوَّنة، وغير منوَّنة.

باب لم يبعث النبي ﷺ لعَّاناً وإنما بُعثَ رحمةٌ، وما جاء من أنَّ دعاءه على المسلم أو سبَّه له طهور وزكاة ورحمة

عن أبي هريرة، قال: قيل لرسول الله ﷺ: ادعُ على المشركين، قال: "إنِّي لم أُبْعَثْ لَعَّاناً، وإنَّما بُعِثْتُ رَحْمَةً !".

رواه مسلم.

(قوله ﷺ: "إني لم أُبعث لعاناً، وإنما بُعِثْتُ رحمة") كان هذا منه ﷺ بعد دعائه على رعلٍ، وذكوان، وعصية الذين قتلوا أصحابَه ببئر معونة، فأقام النبيُّ ﷺ شهراً يدعو عليهم، ويلعنهم في آخر كلِّ صلاةٍ من الصلوات الخمس يقنتُ بذلك حتى نزل عليه جبريلُ فقال: "إن الله تعالى لم يبعثك لعاناً ولا سَباباً، وإنما بعثك رحمةً، ولم يبعثْك عذاباً" ثم أنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَلِمُونَ﴾[1] على ما خرَّجه أبو داود في مراسيله من حديث خالد بن أبي عمران، وفي الصحيحين ما يؤيِّدُ ذلك، ويشهدُ بصحته.

و(قوله: "إنما بُعِثْتُ رحمة" هذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَلَمِينَ﴾[2]، أي: بالرسالة العامة، والإرشاد للهداية، والاجتهاد في التبليغ، والمبالغة في النصح، والحرص على إيمان الجميع، وبالصبر على جفائهم، وترك الدُّعاء عليهم؛ إذ لو دعا عليهم لهلكوا. وهذه الرحمةُ يشتركُ فيها المؤمنُ والكافر، أما رحمتُه الخاصَّةُ فلمن هداه الله تعالى، ونوَّر قلبَه بالإيمان وزيَّن جوارحَه بالطاعة، كما قال تعالى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ

---

(1)– سورة آل عمران، الآية 128.

(2)– سورة الأنبياء، الآية 107.

وعن عائشة، قالت: دخل على رسول الله ﷺ رجلان، فكلمَّاهُ بشيء لا أدري ما هُوَ ! وأغضباه، فلعنهما، وسبَّهما، فلمَّا خرَجا قُلتُ: يا رسول الله ! لَمَنْ أصابَ من الخير شيئاً ما أصابَه هذان ! قال: "وما ذاك؟" قالتْ: لَعَنْتَهُما، وسَبَبْتَهُما ! قَال: "أَوَما عَلمت ما شارَطْتُ عليه رَبِّي؟ ! قلتُ: اللَّهم ! إنَّما أنا بَشَرٌ، فأيُّ المسلمين لعنتُه، أو سببتُه فاجْعلْه له زكاةً وأجراً".

رواه مسلم.

رَّحيمُ﴾[1]، فهذا هو المغمورُ برحمة الله، المعدود في زمرة الكائنين معه في مستقر كرامته، جَعلَنا الله منهم، ولا حال بيننا وبينهم.

و(قوله: لَمَنْ أصاب من الخير شيئاً ما أصابه هذان) هذا الكلامُ من السَّهل الممتنع، وذلك أنَّ معناه أنَّ هذين الرَّجلين ما أصاب منكَ خيراً، وإن كان غيرُهما قد أصابه، لكن تنزيل هذا المعنى على أفراد ذلك الكلام: فيه صعوبةٌ، ووجهُ التَّنزيل يتبيَّنُ بالإعراب، وهو أنَّ اللامَ في لَمَنْ. هي:لام الابتداء، وصلتها: أصاب، وعائدها: المضمر في أصاب، وما بعدها متعلق به، وخبره محذوف تقديره: والله لرجل أصاب منك خيراً: فائز أو ناج. ثم نفى عن هذين الرَّجلين إصابةٌ ذلك الخير بقوله: ما أصابه هذان، ولا يصح أن يكون ما أصابه خبراً لـــ (مَنْ) المبتدأ لخلوها عن عائد يعود على نفس المبتدأ، وأما الضمير في أصابه فهو للخير، لا لمن، فتأمله يصحَّ لك ما قلناه، والله تعالى أعلم.

و(قوله: "اللهم ! إني بشرٌ أغضبُ كما يغضبُ البشر، فأي المسلمين لعنتُه، أو سببتُه، أو جَلَدْتُه، فاجعل ذلك له كفَّارةٌ ورحمة") ظاهرُ هذا: أنه خاف أن يصدرَ عنه في حال غضبه شيءٌ من تلك الأمر فيتعلَّق به حقُّ

---

[1]ـ سورة التوبة، الآية 128.

وعن أبي هريرة: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: "اللهم ! إنِّي أتّخذُ عندكَ عهداً لَنْ تُخْلفَنيه، فإنَّما أنا بشرٌ، فأيُّ المؤمنين آذيْتُه، شتمتُه، لعنتُهُ، جَلَدْتُه، فاجعلهَا لَه صلاةً وزكاةً".

مسلم، فدعا الله تعالى، ورغب إليه في أنه: إن وقع منه شيءٌ من ذلك لغير مستحقّ في ألاّ يفعل بالمدعو عليه مقتضى ظاهر ذلك الدعاء، وأن يُعوِّضه من ذلك مغفرةٌ لذنوبه، ورفعة في درجاته، فأجاب الله تعالى طَلبةَ نبيِّه ﷺ وَوَعَدَهُ بذلك، فلزم ذلك بوعده الصدق، وقوله الحق، وعن هذا عبَّر النبيُّ ﷺ بقوله: "شارطت ربِّي"، و"شرط، ولا يجبُ عليه لأحد حقّ، بل: ذلك كلُّه بمقتضى فَضْله، وكَرَمه على حسب ما سبق على علمه. فإن قيل: فكيف يجوز أن يَصدرَ من النبيِّ ﷺ لعنٌ، أو سبٌّ، أو جلدٌ لغير مستحقه، وهو معصومٌ من مثل ذلك في الغضب، والرضَّا؛ لأن كل ذلك محرَّم وكبيرة، والأنبياء معصومون عن الكبائر، إما بدليل العقل، أو بدليل الإجماع كما تقدَّم؟

قال الشيخ رحمه الله: قد أشكل هذا على العلماء، وراموا التخلُّصَ من ذلك بأوجه مُتعدِّدة، أوضحها وجهٌ واحد، وهو: أنَّ النبيَّ ﷺ إنما يغضبُ لما يرى من المغضوب عليه من مخالفة الشرع، فغضبُه لله تعالى لا لنفسه؛ فإنه ما كان يغضبُ لنفسه، ولا ينتقمُ لها، وقد قرَّرنا في الأصول: أن الظاهر من غضبه تحريمُ الفعل المغضوب من أجله. وعلى هذا فيجوزُ له: أن يُؤدِّبَ المخالفَ له باللعن والسَّبِّ والجَلْد والدُّعاء عليه بالمكروه، وذلك بحسب مخالفة المخالف، غير أنَّ ذلك المخالفَ قد يكون ما صَدَر منه فلتة أوجبتها غفلة، أو غلبة نفس، أو شيطان، وله فيما بينه وبين الله تعالى عملٌ خالص، وحالٌ صادق يدفع اللهُ عنه بسبب ذلك أثر ما صدر عن النَّبيِّ له من ذلك القول، أو الفعل. وعن هذا عبَّر النبيُّ ﷺ بقوله: "فأيما أحدٍ دعوتُ عليه مِن أمتي بدعوةٍ ليس لها بأهلٍ أن تجعلها له طهوراً،

وفي رواية: "ورحمةٌ، وقربةٌ تقربه بها إليك يوم القيامة".

وفي رواية: "اللَّهم ! إنَّما محمدٌ بَشَرٌ، يغضبُ كما يغضبُ البشرُ"، وفيها: "فاجعلها لَهُ كفارةٌ، وقربة تقرِّبه بها". وذكره. قال أبو الزناد: جَلدُه لغة أبي هريرة.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم.

وعن أنس بن مالك، قال: كانت عند أمِّ سُلَيْمٍ يتيمةٌ – وهي أمُّ أنسٍ – فرأى رسولُ الله ﷺ اليتيمة فقال: "آنت هيَهْ؟ لقدْ كبرت لا كبر سِنُّكِ". فرجعت اليتيمةُ إلى أمِّ سُليمٍ تبكي ! فقالتَ أَم سليم: ما لكَ يا بُنيَّةَ؟

وزكاةٌ، وقُبرة تقرِّبه بها يوم القيامة" أي: عوّضه من تلك الدعوة بذلك، والله تعالى أعلم.

قال الشيخ رحمه الله:" وقد يدخلُ في قوله: أنّما أحد من أمتي دعوتُ عليه: الدعوات الجارية على اللسان من غير قَصْدٍ للوقوعً، كقوله: "تربت يمينك" و"عَقْرى حَلْقى". ومن هذا النوع قولهً للبتيمة: "لا كبر سنّك"؛ فإنَّ هذه لم تكن عن غضب، وهذه عادةٌ غالبةٌ في العرب يصلُون كلامَهم بهذه الدعوات، ويجعلوها دعاماً لكلامهم من غير قصد منهم لمعانيها، وقد قدَّمنا في كتاب الطهارة في هذا كلاماً للبديع، وهو من القول البديع. وبما ذكرناه يرتفعُ الإشكال، ويحصل الانفصال.

ووجهُ لغة أبي هريرة في: جَلَدُه: أنه قَلَب التاء دالاً لقرب مخرجها، ثم أدغمِ التاءَ في الدَّال، وهي على عكس اللغة المشهورة. فإنهم فيها قَلَبُ,ا الدالَ تاءٌ، وأدغموا الدال في التاء، وهو الأولى.

و(قوله ﷺ ليتيمة أمِّ سليم: "آنت هيَهْ، لقد كبرت، لا كَبرَ سنُّك!!") الهاء في هيَهْ لا,قف، فإذا وصلت حذفتها، وهذا الاستفهامُ على جهة التعجُّب،

قالت الجارية: دَعا عليّ رسول الله ﷺ أن لا يَكْبَرَ سنِّي ! فالآن لا يَكْبَرُ سنِّي أبداً – أو قالت: قرني – فخرجت أمُّ سليم مستعجلةً تَلُوثُ خمارها، حتى لقيتْ رسول الله ﷺ، فقال لها رسول الله ﷺ: "ما لك يا أمَّ سُلَيْم؟" قالت: زعمتْ أنَّك دعوت ألا يَكْبَرَ سنُّها، ولا يَكْبَر قرنُها ! قَال: فضحك

وكأنه ﷺ كان قد رآها صغيرة، ثم غابتْ عنه مدَّة فرآها قد طالت وعَبُلت[1]، فتعجَّب من سرعة ذلك فقال لها ذلك القولَ متعجباً، فوصل كلامَه بقوله: "لا كبر سنُّك" على ما قلناه من إطلاق ذلك القول من غير إرادة معناه. وهذا واضحٌ هنا، ويحتملُ أن يقال: إنما دعا عليها بأن لا يكبر سنُّها كبراً تعود به إلى أرذل العمر، كما كان النبيُّ ﷺ يتعوذ من أن يردَّ إلى أرذل العمر. والمعنى الأول أظهر من مساق بقية الحديث في اعتذاره ﷺ عن ذلك.

و(قول اليتيمة: لا يكبر سني، أو قالت: قَرْني) هو بفتح القاف، وتعني به: السن، وهو شكٌّ عَرَض لبعض الرُّواة، وأصله: أنَّ مَن ساوى آخرَ في سنِّه كان قرن رأسه محاذياً لقرنه، وقرنُ الرأس: جانبه الأعلى، وهذا يدلُّ على: أنَّ إجابة دعوات رسول الله ﷺ كانت معلومةً بالمشاهدة عند كبارهم وصغارهم لكثرة ما كانوا يشاهدون من ذلك، ولعلمهم بمكانته ﷺ. وتلوثُ خمارَها: تُديرُه على رأسها وعُنُقها. والطَّهور – هنا –: هي الطهارةُ من الذُّنوب، وقد سمَّاها في الرواية الأخرى: كفَّارة. والصلاة من الله تعالى: الرحمة، كما قد عبّر عنها في الرواية الأخرى. والزكاة: الزِّيادة في الآجر كما قد عَبَّر عنها في الرواية الأخرى بالأجر. والقربة: ما يُقرِّب إلى الله تعالى وإلى رضوانه. وفيه ما يدلُّ على تأكُّد الشفقة على اليتيم، والذَّبِّ عنه، والحُنُوِّ عليه.

---

[1]– "عَبُلت": ضخمت وابيضَّت، فهي عَبْلة. والعَبْلة من النساء: التامَّةُ الخَلْق.

رسول الله ﷺ، ثم قال: "يا أمَّ سليم ! أما تعلمين شرطي على ربِّي: أنِّي اشترطت على ربي فقلت: إنَّما أنا بشرٌ أرضى كما يرضى البشر، وأغضبُ كما يغضبُ البشر، فأيُّما أحد دعوتُ عليه من أمَّتي بدعوة ليس لها بأهلٍ أن تجعلها له طهوراً، وزكاةٌ، وقربةٌ تقربه بها منه يوم القيامة".

وفي رواية: يُتَيِّمَةٌ – بالتَّصغير – في المواضع الثلاثة.

رواه مسلم.

عن ابن عبَّاس، قال: كنتُ ألعب مع الصِّبيان فجاء رسولُ الله ﷺ فتواريتُ خلف باب، قال: فجاء فَحَطَأَني حَطْأةً، وقال: "اذهب ادع لي معاوية"، قال: فجئتُ، فقلت: هو يأكل. فقال: "لا أشْبَعَ الله بَطْنَه".

و(قول ابن عباس – رضي الله عنهما -: كنتُ ألعبُ مع الصّبيان) دليلٌ على جواز تخلية الصَّغير للَّعب لتنشطَ نفسُه، وتتقوَّى أعضاؤه، وتتوقَّح رجلاه، أي: تتصلَّب.

و(قوله: فجاء رسولُ الله ﷺ فتواريتُ خَلْفَ باب) أي: اختفيتُ الباب، وكأنه استحى من النبيِّ ﷺ وهابه.

و(قوله: فَحَطأني حَطْأَةً) فسَّره أمية بن خالد بقفدني قفدة، وكلاهما يحتاجُ إلى تفسير، فأما حَطَأني: فهو بالحاء المهملة، وبالهمزة على قول شَمِر، وهو المحكيُّ في الصِّحاح، وهكذا قيَّده أهلُ الإتقان والضَّبط، وهو أن تضربَ بيدك مبسوطةٌ في القفا، أو بين الكتفين، وجاء به الهرويُّ غير مهموز في باب الحاء، والطاء، والواو، وقال ابنُ الأعرابي: الحطو: تحريك الشيء متزعزعاً. وأما القفد – بتقديم القاف على الفاء – فالمعروف عند اللغويين أنه: المشيُ على صدور القدمين من قبل الأصابع، ولا تبلغ عقباه الأرض. يقال: رجل أقفد، وامرأة فقداء، وهو القَفَد – بفتح القاف والفاء-.

قال ابن المثنى: قلت لأُميَّة: ما حَطَأَني؟ قال: قَفدَي قَفْدَةٌ".

رواه أحمد، ومسلم.

قال الشيخ رحمه الله: ولم أجدْ قفدني بمعنى خَطَأني إلا في تفسير أمية هذا. وهذا الضربُ من النبيِّ ﷺ لابن عباس تأديبٌ له، ولعله: لأجل اختفائه منه إذ كان حقُّه أن يجيءَ إليه، ولا يفرَّ منه. ويحتمل أن يكون هذا الضرب بعد أن أمره أن يدعوَ له معاوية، فلم يؤكِّدْ على معاوية الدعوةَ، وتراخى في ذلك، ألاَ ترى قولَه في المرتين: هو يأكل، ولم يزدْ على ذلك، وكان حقُّه في المرة الثانية ألاَّ يفارقَه حتى يأتي به، والله تعالى أعلم. ففيه تأديب الصغار بالضرب الخفيف الذي يليق بهم، وبحسب ما يصدر عنه.

و(قوله: "ادع لي معاوية") فيه استعمال الصغير فيما يليق بهم من الأعمال.

و(قوله: "لا أشبع الله بطنه") يحتملُ أن يكونَ من نوع: "لا كَبُر سنُّك" كما قلناه، على تقدير: أن يكون معاويةُ من الأكل في أمر كان معذوراً به من شدَّة الجوع، أو مخافة فساد الطعام، أو غير ذلك، وهذا المعنى تأوَّلُ من أدخل هذا الحديث في مناقب معاوية، فكأنه كنَّى به عن أنه دعا عليه بسبب أمرٍ كان معذوراً به، فحصل له من دُعاء النبيِّ ﷺ الكفَّارةُ والرحمة والقربةً إلى الله تعالى التي دعا بها النبيُّ ﷺ كما ذكرناه. ويحتمل: أن يكونَ هذا الدعاءُ من النبيِّ ﷺ. وإجابة دعوته ﷺ وإجابة دعوته ﷺ واجبةٌ على الفور، بدليل حديث أُبيٍّ الذي أنكر عله في ترك إجابته، وكان أبيٌّ في الصلاة.

باب ما ذكر في ذي الوجهين وفي النميمة

عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: "إنَّ من شرِّ النَّاسِ ذا الوجهين؛ الذي يأتي هؤلاء بوجهٍ وهؤلاء بوجهٍ".

وفي رواية: "تجدونَ من شرِّ النَّاس ذا الوجهين" نحوه.

رواه مسلم في البر والصلة.

وعن عبد الله بن مسعود، قال: إنَّ محمداً ﷺ: قال: "ألا أنبئكم ما العضْهُ؟ هي النميمة، القالة بين الناس". وإنَّ محمَّدا ﷺ قال: "إن الرجل يصْدُق حتى يُكتَبَ صدِّيقا، ويكذبُ حتى يُكْتَب كذَّباً".

رواه مسلم.

ومن باب: ما ذُكر في ذي الوجهين وفي النميمة والتَّحذير من الكذب

(قوله: "إنَّ من شرِّ الناس ذي الوجهين") يعني به الذي يدخلُ بين الناس بالشَّرِّ والفساد، ويواجه كلَّ طائفة بما يتوجَّه به عندها هما يُرْضيها من الشَّرِّ، فإن رَفع حديث أحدهما إلى الآخر على جهة الشّرِّ: فهو ذو الوجهين النَّمَّام، وأما من كان ذا وَجْهين في الإصلاح بين الناس، فيواجه كلِّ طائفة بوجه خير، وقال لكلِّ واحدة منهما من الخير خلافَ ما يقول للأخرى، فهو الذي يُسمَّى: بالمصلح، وفِعْله ذلك يُسمَّى: الإصلاح؛ وإن كان كاذباً؛ لقوله ﷺ: "ليس الكذابُ الَّذي يصلحُ بين الناس فيقول خيراً، وينمي خيراً".

و(قوله: "ألا أنبِّئكم ما العَضْه؟") هكذا أذكر أني قرأتُه بفتح العين، وإسكان الضاد والهاء، وهذا عند الجيَّاني، وهو مصدر عضهه يعضهه عضهاً: إذا رماه يكذب وبهتان، وقد رواه أكثرُ الشيوخ ما العِضة – بكسر

باب الأمر بالصِّدق والتحذير عن الكذِب وما يباحُ منه

عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: "عليكم بالصِّدق، فإنْ الصِّدق يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنَّة، وما يزال الرَّجل يصدُق ويتحرَّى الصِّدقَ حتى يكتبَ عند الله صدِّيقاً وإيَّاكم والكذب؛ فإنَّ

الغين وفتح الضاد والتاء المنقلبة في الوقف هاءٌ – وهي أصوب؛ لأنَّ العضَةَ اسم، والنميمةُ: اسم، فصحَّ تفسيرُ الاسم بالاسم، والعضه مصدره، ولا يحسنُ تفسيرُ المصدر بالاسم. فالروايةُ الثانية أولى، والذي يُبيِّن لك أن العضه اسم ما قاله الكسائي: قال: العضه: الكذب والبهتان، وجمعها عضون مثل: عزه وعزين، وقد بيَّنا أن العضة: المصجر، فصح ما قلناه، وقد تقدَّم القولُ في حُكم ذي الوجهين والنَّمَّام، وقد فسَّر النبيُّ ﷺ العضة بالنَّميمة؛ لأنَّ النميمة لا تنفكُّ عن الكذب والبهتان غالباً.

و(قوله: "عليكم بالصِّدق؛ فإنَّ الصدقَ يهدي إلى البرِّ؛ وإن البرَّ يهدي إلى الجنة، وإيَّاكم والكذب..." الحديث) يهدي: يرشد ويوصل، والبرّ: العمل الصالح أو الجنة كما قدَّمناه. والفجورُ: الأعمالُ السَّيِّئة. وعليكم من ألفاظ الإغراء المصرَّحة بالإلزام، فحقٌّ على كل مَن فهم عن الله تعالى أن يلازمَ الصِّدْقَ في الأقوال، والإخلاص في الأعمال، والصفاء في الأحوال، فمن كان كذلك لحق بالأبرار، ووصل إلى رضا الغفّار. وقد أرشد الله تعالى إلى ذلك كلِّه بقوله عند ذكر أحوال الثلاثة التائبين[1] فقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّدقينَ﴾[2]. والقولُ في الكذب المحذِّر عنه على الضدِّ من القول في الصدق، وقد تقدَّم القول في البر والفجور والهدى.

---

(1)– هم كعب بن مالك ومرارة بن ربيعة وهلال بن أمية الواقفي. وكلُّهم من الأنصار.

(2)– سورة التوبة، الآية 119.

الكذبَ يهدي إلى الفُجور، وإنَّ الفجور يهدي إلى النَّار، وما يزال الرَّجلُ يكذبُ ويتحرَّى الكذِبَ حتى يُكتبَ عند الله كذَّاباً".

رواه أحمد ، والبخاري، ومسلم، والترمذيُّ، وابن ماجه.

وعن أمِّ كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيْط – وكانت من المهاجرات الأُوَل اللاتي بايعْنَ رسول الله ﷺ – أنَّها سمعت رسول الله ﷺ- وهو يقول: "ليس الكذَّابُ الذي يُصْلِح بين النَّاس خيراً، ويقول خيراً، ويَنْمِي خيراً".

و(قوله أم كلثوم: ولم أسمعه يرخّص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث) تعني بذلك: أنه لم يُرخِّص في شيء مما يكذب الناس فيه إلا في هذه الثلاث، وقد لفظ الكذب نصّاً في كتاب الترمذيّ. من حديث أسماء بنت يزيد، قالت: قال رسول الله ﷺ: "لا يحلُّ الكذبُ إلا في ثلاث: يُحدِّث الرجل امرأتَه ليرضيَها، والكذب في الحرب، والكذبُ ليُصلحَ بين الناس". فهذه الأحاديث قد أفادت: أن الكذبَ كلَّه محرّمٌ لا يحل منه شيءٌ إلا هذه الثلاثة؛ فإنه رخَّص فيها لما يحصل بذلك من المصالح، ويندفعُ به من المفاسد، والأوْلى: إلا يكذب في هذه الثلاثة؛ إذا وجدَ عنه مندوحة؛ فإن لم تُوجد المندوحة أُعملت الرُّخصة. وقد يجبُ ذلك بحسب الحاجة إلى تلك المصلحة، والضرورة إلى دفع تلك المفسدة، وما ذكرته هو – إن شاء الله – مذهب أكثر العلماء، وقد ذهبَ الطبريُّ إلى أنه لا يجوز الكذب الصريح بشيء من الأشياء لا في هذه الثلاثة، ولا في غيرها مُتمسِّكاً بالقاعدة الكليَّة في تحريمه، وتأوَّل هذه الأحاديث على التورية والتعريض، وهو تأويل لا يعضدُه دليل، ولا تعارضَ بين العموم والخصوص كما هو عن العلماء منصوصٌ. وأما كذبةٌ تنجي ميِّتاً، أولياً، أو أمماً، أو مظلوماً ممن يُريد ظلمه، فذلك لا تختلف في وجوبه أمة من الأمم، لا العرب، ولا العجم.

وفي رواية: قالت: ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقولُ النَّاس كذبٌ إلا في ثلاث؛ "الحربُ، والإصلاح بين الناس، وحديث الرَّجل امْرأَتَهُن وحديث المرأة زوجها".

وقد روى مسلم هذا من كلام ابن شهاب.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، وأبو داود، والترمذيُّ.

و(قوله: "إن الرجلَ لا يزالُ يصدق، ويتحرَّى الصِّدْقَ حتى يُكتبَ عند الله صدِّيقاً") يتحرى الصدق يقصدُ إليه ويتوخّاه، ويجتنب نقيضَه الذي هو الكذب، حتى يكون الصِّدْق غالبَ حاله، فيكتب من جملة الصدِّيقين، ويثبتُ في ديوانهم، وكذلك القول في الكذب. وأصل الكَتْب: الضم والجمع، ومنه: كتبتُ البغلةَ: إذا جمعتَ بين شُفْرَيْها بحَلْقة.

و(قوله: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾[1] جمعَه وتبَّته، و:﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيَ﴾[2] أي: حكمَ وأوجب، فكأنه جمع ما حكم به في المحكوم عليه، وكتبتُ الكتابَ: جمعت فيه المكتوبَ وثبَّتُّهُ، وقد تقدَّم القولُ في الصِّدِّيق. وخرَّج أبو مسعود الدمشقي حديثَ عبد الله بن مسعود هذا وزاد فيه: "وإن شرَّ الروايا روايا الكذب، وإن الكذبَ لا يصلحُ فيه جدٌّ ولا هزل، ولا يَعِدُّ الرجل صاحبَه فيُخلفه". وذكر أبو مسعود: أن مُسلماً خرَّج هذه الزيادة، ولم تقع لنا هذه الزيادة، ولا لأحد من أشياخنا فيما علمناه، وقال أبو عبد الله الحميدي: وليست عندنا. والروايا: جمع رواية، يعني به: حامل الكذب وراويه، والهاء فيه للمبالغة، كعلاَّمة ونسَّابة، أو يكون استعارة، شبَّه حاملَ الكذب لحمله إياه بالرواية الحاملة للماء. وفيه حجَّة للطبري في تحريمه الكذبَ مطلقاً وعموماً. وفيه ما يدلُّ على وجوب الوفاء بالوعد، ولو كان بالشيء الحقير مع الصبيِّ الصغير.

---

[1]– سورة المجادلة، الآية 22.

[2]– سورة المجادلة، الآية 21.

باب ما يقال عند الغضب
ومدح من يملك نفسه عنده

عن سليمانَ بن صُرَد، قال: استبَّ رجلان عند النبيِّ ﷺ؛ فجعل أحدُهما يغضبُ، ويحمرُّ وجهُه، وتنتفخ أوداجُه، فنظر إليه النَّبيُّ ﷺ فقال: "إنيِّ لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". فقام إلى الرَّجلِ رجلٌ سمع النبي ﷺ؛ فقال: أتدري ما قال رسول الله ﷺ آنفا؟

ومن باب: ما يقال عند الغضب والنهي عن ضرب الوجه

(قوله ﷺ للغضبان: "إني لأعرفُ كلمة لو قالها لذهبَ ذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم") يدلُّ: على أن الشيطانَ له تأثير في تهييج الغضب، وزيادته حتى يحملَه على البطش بالمغضوب عليه، أو إتلافه، أو إتلاف نفسه، أو شرٍّ يفعلُه يستحقُّ به العقوبة في الدنيا والآخرة، فإذ تعوَّذ الغضبانُ بالله من الشيطان الرجيم، وصحَّ قصدُه لذلك فقد التجأ إلى الله تعالى، وقصدَه، واستجارَ به، والله تعالى أكرمُ من أن يخذلَ من استجارَ به، ولما جعلَ ذلك الرجل ذلك المعنى، وظنَّ أن الذي يحتاجُ إلى التَّعوُّذ إنما هو المجنون، فقال: أمجنوناً تراني؟ مُنكراً على من نبَّهه على ما يُصلحه، ورادّاً لما ينفعُه، وهذا من أقبح الجنون، وكأنَّ هذا الرجلَ كان من جُفاة الأعراب الذين في قلوبُهم من الفقه والفهم خراب.

و(قوله: "أتدرون ما تعدُّون الرَّقُوب فيكم" قال: قلنا: الذي لا يُولد له) الرقوب: فعول، وهو الكثير المراقبة، كضروب، وقتول، لكنه صار في عرف استعمالهم عبارة عن المرأة التي لا يعيشُ لها ولدٌ، كما قال عَبيد بن الأبرص:

قال: "إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". فقال له الرجل: أمجنوناً تراني؟ !.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، وأبو داود.

..... كَـأَنَّهـا شَيْخَـةٌ رَقُـوبُ[1]

قال الشيخ: هذا نقل أهل اللغة، ولم يذكروا أن الرَّقوب يُقال على من لا يولد له، مع أنه قد كان معروفاً عند الصحابة – رضي الله عنهم–، ولذلك أجابوا به رسولَ الله ﷺ. والقياسُ يقتضيه؛ لأن الذي لا يُولد له ارتقابه للولد، وانتظاره له، ويطمع فيه إذا كان ممن يرتجى ذلك، كما يُقال على المرأة التي ترقب موت زوجها: رقوب. وللناقة التي ترقب الحوضَ فتنفر منه، ولا تقربُه: رقوب.

قال الشيخ رحمه الله: ويحتمل أن يُحمل قولهم في الرقوب: إنه الذي لا يُولد له بعد فقد أولاده لوصوله من الكبر إلى حال لا يُولد له، فتجتمع عليه مصيبة الفقد ومصيبة اليأس، وهذا هو الأليق بمساق الحديث. ألا ترى قوله: "ليس ذلك الرقوب، ولكنَّه الرجل الذي لا يُقدِّم من ولده شيئاً" أي: هو أحقُّ باسم الرَّقوب من ذلك، لأن هذا الذي أُصيب بفقد أولاده في الدنيا ينجبر في الآخرة بما يُعوَّض على ذلك من الثواب، وأما من لم يمت له ولدٌ فيفقد في الآخرة ثوابَ فقد الولد. فهو أحقُّ باسم الرَّقوب من الأول، وقد صدرَ هذا الأسلوبُ من النبي ﷺ كثيراً، كقوله: "ليس المسكين بالطَّوَّاف عليكم" و"ليس الشديدُ بالصُّرَعة" و"ليس الواصلُ بالمكافئ" ومثله كثير. ولم يُرد بهذا السَّلْب سَلْبَ الأصل. لكن سَلْبَ الأوْلى والأحقُّ، والصُّرعة: بفتح الراء هو الذي يصرعُ الناس كثيراً،

---

[1]– هذا عجز بيت، وصدره: بانَتْ إرَم عذوباً.

وعن أنس، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: "لَّما صوَّر الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليسُ يُطيفُ به، ينظر ما هو ! فلما رآه أجوف؛ عَرَفَ أنَّه خُلِقَ خلقاً لا يتمالك".

رواه أحمد، ومسلم.

وعن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: "ما تَعُدُّونَ الرَّقُوبَ فيكم؟" قال: قلنا: الذي لا يُولد له. قال:"ليس ذاك بالرَّقوب، ولكنَّه الرَّجل الذي لم يُقدِّم من ولده شيئاً". قال: "ما تَعُدُّون الصُّرعةَ فيكم؟" قال: قلنا: الذي لا يَصْرَعُه الرِّجال. قال: "ليس بذلك، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب".

رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود.

وعن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: "ليس الشَّديدُ بالصُّرَعَةِ إنَّما الشَّديدُ الذي يملك نفسَهُ عند الغضب".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم.

وبالسكون هو الذي يصرعُه الناس، وكذلك: هُزَأة وهُزْءَة، وسُخَرَة وسُخْرة، وقد تقدَّم.

و(قوله: "لما صوَّر الله تعالى آدم في الجنة تركَه ما شاء الله أن يتركَه") يعني: أن الله تعالى لما صوَّر طينة آدم، وشكَّلها بشكله على ما سبقَ في علمه فلما رآها إبليسُ أطافَ بها، أي: دارَ حولها، جعلَ ينظر في كيفيَّتها وأمرها، فلما رآها ذاتَ جَوف وقعَ له أنها مفتقرة إلى ما يسدُّ جوفَها، وأنها لا تتمالك عن تحصيل ما تحتاج إليه من أغراضها، وشهواتها، فكان الأمرُ على ما وقع.

باب النَّهي عن ضرب الوجه
وفي وعيد الذين يُعذِّبون النَّاس

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا قاتل أحدُكم أخاه فلا يَلْطِمَنَّ الوجْهَ".

وفي رواية: "إذا قاتل أحدُكم أخاه فليجْتَنِب الوجْهَ؛ فإنَّ الله خلق آدمَ على صورته".

رواه أحمد، والبخاري، ومسلم.

ومن باب: إذا قاتل أحدُكم أخاه
فلا يلطم الوجه

(قوله: إذا قاتل أحدُكم أخاه، فلا يلطمنَّ الوجه". وفي الآخرى: "فليجتنب الوجهَ، فإن الله تعالى خلقَ آدمَ على صورته") معنى قاتل: ضرب، وقد جاء كذلك في بعض رواياته، وقد قلنا: إن أصل المقاتلة المدافعة، ويعني بالأخوَّة هنا — والله أعلم - أخوّة الآدميّة؛ فإن الناسَ كلَّهم بنو آدمَ، ودلّ على ذلك قوله ﷺ: "فإن الله خلقَ آدم على صورته" أي: على صورة وجه المضروب، فكأن اللاَّطم في وجه أحد ولد آدم لطم وجه أبيه آدم. وعلى هذا فيحرم لطم الوجه من المسلم والكافر، ولو أراد الأخوَّة الدينية لما كان لتعليل بخلق آدم على صورته معنىً. لا يُقال: فكافر مأمور بقتله وضربه في أي عضو كان؛ إذ المقصودُ إتلافه، والمبالغة في الانتقام منه، ولا شكَّ أن ضربَ الوجع أبلغُ من الانتقام والعقوبة، فلا يُمنع. وإنما مقصود الحديث: إكرام وجه المؤمن لحرمته؛ لنا نقول: مُسلَّمٌ أنَّا مأمورونَ بقتل الكافر، والمبالغة في الانتقام منه لكن إذا تمكَّنا من اجتناب

وعن هشام بن حكيم بن حزام: مرَّ على أُناس من الأنباط بالشام قد أقيموا في الشمس.

وفي رواية: وصُبَّ على رؤوسهم الزَّيتُ. فقال ما شأنهم؟ قال:

وجهه اجتناباه لشرفيَّة هذا العضو؛ ولأن الشرعَ قد نزَّل هذا الوجهَ منزلة وجه أبينا. وتقبيح لطم الرجل وجهاً يُشبه وجه أبي الأَطم، وليس كذلك سائر الأعضاء؛ لأنها كلَّها تابعةٌ للوجه، وهذا الذي ذكرناه: هو ظاهرُ الحديث، ولا يكون في الحديث إشكال يُوهم في حقِّ الله تعالى تشبيهاً، وإنما أشكلَ ذلك على من أعادَ الضمير في صورته على الله تعالى، وذلك ينبغي ألا يصار إليه شرعاً، ولا عقلاً، أما العقل فيحيل الصورة الجسمية على الله تعالى، وأما الشرع فلم يَنُصَّ على ذلك نصاً قاطعاً، ومحال أن يكون ذلك، فإن النصَّ القاطع صادق، والصادق لا يقول المحال، فيتعيَّن عود الضمير على المضروب؛ لأنه هو الذي سبق الكلام لبيان حكمه. وقد أعادت المشبَّهة هذا الضمير على الله تعالى، فالتزموا القولَ بالتجسيم، وذلك نتيجة العقل السقيم، والجهل الصميم، وقد بيَّنا جهلَهم، وحقَّقنا كفرهم فيما تقدَّم، ولو سلَّمنا: أن الضمير عائد على الله تعالى، فللتأويل فيه وجه صحيح، وهو أن الصُّورة قد تُطلق بمعنى الصِّفة، كما يُقال: صورة هذه المسألة كذا، أي: صفتها، وصوَّر لي فلان كذا فتصوَّرته، أي: وصفه لي ففهمته، وضبطتُ وصفه في نفسي، وعلى هذا فيكون معنى قوله:" "إن الله خلق آدم على صورته" أي: خلقه موصوفاً بالعلم الذي فصلَ به بينه وبين جميع أصناف الحيوانات، وخصَّه منه بما لم يخصَّ به أحداً من ملائكة الأرضين والسَّموات، وقد قلنا فيما تقدَّم: إن للتسليم في المتشابهات أسلم، والله ورسوله أعلم. والأنباط: جمع نَبط، وهم قوم يتزلون بالبطائح بين العراقين، سمُّوا بذلك لأنهم ينبطون الماء، أي: يَحفرون عليه حتى يخرجَ على وجه الأرض. يقال: نبطَ الماء يَنْبُط وينْبِط: إذا نبعَ،

يحبسون في الجزية. قال هشام: أشهدُ لَسَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: "إنَّ الله يُعَذِّبُ اللذين يُعَذِّبُون النّاس في الدنيا".

وفي رواية: وأميرهم يومئذٍ عُمَيْرُ بنُ سعدٍ على فلسطين، فدخل عليه، فحدَّثه، فأمر بهم فَخُلُّوا.

رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود.

وأنبطَ الحَفَّار الماءَ إذا بلغ إليه، والاستنباط: استخراج العلوم، ويُقال على النَّبط: تبيط أيضاً، وكانوا إذ ذاك أهلَ ذمَّةٍ، ولذلك عُذِّبوا بالشمس، وصُبَّ الزيت على رؤوسهم لحل الجزية، وكأنهم امتنعوا من الجزية مع التمكُّن، فعوقبوا لذلك، فأما مع تبيُّن عجزهم، فلا تحلُّ عقوبتهم بذلك، ولا بغيره؛ لأن من عجزَ عن الجزية سقطت عنه.

و(قوله: "إن الله يُعذِّب الذين يُعذِّبون الناسَ في الدنيا") يعني: إذا عذَّبوهم ظالمين، إما في أصل التعذيب فيعذبونهم في موضع لا يجوز فيه التعذيب، أو بزيادة على المشروع في التعذيب: إما في المقدار، وإما في الصِّفة، كما بيَّناه في الحدود.

و(قوله: وأميرُهم يومئذ عُمير بن سعد) كذا صحَّت الرواية عند أكثر الشيوخ، وفي أكثر النسخ، وهو الصواب؛ لأنه عُمير بن سعد بن عمر القارئ الأنصاريّ من بني عمرو بن عوف، يُكنى أبوه أبا زيد، وهو أحدُ من جمعَ القرآن، الذي تقدَّم ذكره في حديث أنس، الذي قال فيه أنس: أبو زيد أحدُ عمومتي، واختلف في اسم أبي زيد هذا، فقيل: سعد — كما تقدم — وهو الأعرف، وقيل: سَعيد، وكان عمر — رضي الله عنه —

وعن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنْ طالتْ بكَ مُدَّةٌ أوشكْتَ أن ترى قوماً يَغْدُون في سَخَطِ الله، ويروحون في لعنته، في أيديهم مِثْلُ أذنابِ البقر".

رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها.

باب النهي أن يُشير الرجلُ بالسِّلاح على أخيه والأمر بإمساك السِّلاح بنصولها

عن أبي هريرة، قال: قال أبو القاسم ﷺ: "من أشار إلى أخيه بحديدةٍ فإنَّ الملائكة تلعنُه، حتَّى وإنْ كان أخاه لأبيه وأمه".

ولَّى عُميراً حمصَ وكان يُقال له: نسيجَ وحده ووقع في كتاب القاضي أبي عليٍّ الصَّدفيِّ: عمر بن سعيد. قال أهل النقل: وهو وهم، وأما عمرو بن سعيد فمعدود في الصحابة، وهو عمرو بن سعيد ربيب الجلاَّس ويتيمه. حكاه القاضي أبو الفضل.

وأوشكَتَ: أسرعت، ومعناه: أنك ترى عن قرب ما يُخبرك به. وقد تقدَّم القول في يوشك، وأنه من أفعال المقاربة، وفي القوم الذين بأيديهم سياط كأذناب البقر.

ومن باب: النهي عن الإشارة بالسلاح[1] وفضل تنحية الأذى عن الطريق

(قوله: "من أشار إلى أخيه بحديدة، فإنَّ الملائكةَ تلعنُه حتى") كذا صحَّت الروايةُ بالاقتصار على حتَّى، ولم يذكر المجرور بها استغناءً عنه لدلالة الكلام عليه، تقديره: حتى يترك، أو يدع، وما أشبهه، ووقع عند بعض

---

(1)– أحسب أن هذا من باب النهي عن إرهاب الناس وإزعاجهم.

رواه أحمد، ومسلم، والترمذي.

وعنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يُشر أحدكم إلى أخيه بالسِّلاحَ؛ فإنَّه لا يدري أحدُكم لعلَّ الشيطانَ يَنْزعُ في يده، فيقع في حفرة من النار".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم.

وعن جابر، قال: مرَّ رجلٌ في المسجد بسهام، فقال له رسول الله ﷺ: "أمْسِك بنصالها".

الرواة بعد حتى: "وإن كان لأخيه وأمِّه". وعليه فيكون ما بعده ليس من كلام النبي ﷺ. وسقطت لبعضهم يعني: فيكون ما بعده من قول النبيِّ ﷺ بحكم أنَّ مساقَ الكلام واحدٌ. ولَعْن النبيِّ ﷺ للمشير بالسلاح: دليلٌ على تحريم ذلك مطلقاً، جدّاً كان أو هزلاً، ولا يخفى وَجْهُ لعن من تعمَّد ذلك؛ لأنه يريدُ قتلَ المسلم أو جَرْحه، وكلاهما كبيرة. وأما إن كان هازلاً؛ فلأنه ترويعُ مسلم، ولا يحل ترويعُه؛ ولأنه دريعةٌ إلى القتل والجرح المحرَّمين. وقد نصَّ في الرواية الأخرى على صحَّة مراعاة الذَّريعة حيث قال: "فإنه لا يدري لعلَّ الشيطانَ يترعُ في يده فيقع في حفرةٍ من النار".

و(قوله: "وإن كان أخاه لأبيه وأمه") يعني: أن لك محرَّم، وإنْ وقع من أشْفق النَّاس عليه، وأقربهم رحماً، وهو يشعرُ بمنع الهزل بذلك. ونصال: جمع نصل، وهي – هنا –: حديدةُ السهم، وتكراره: "فليأخذْ بنصالها" ثلاث مرات على جهة التأكيد والمبالغة في سدّ الذريعة، وهو من جُملة ما استدلَّ به مالك – رحمه الله – على أصْله في سدّ الذرائع.

وفي رواية: أنَّ رجلاً مرَّ بأسهم في المسجد قد أبدى نُصُولَها، فأُمِر أنْ يأخذ بنُصُولها كي لا يَخْدِشَ مسلماً.

وفي أخرى: أنَّه كان يتصدق بالنَّبل في المسجد.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والنسائيُّ، وابن ماجة.

وعن أبي موسى، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: "إذا مرَّ أحدكم في مجلس أو سوقٍ، وبيده نَبْلٌ؛ فليأخذْ بنِصَالها، ثمَّ لْيأخذْ بنصالها، ثم لْيأخذْ بنصالها".

وفي رواية: "أن يُصيب أحداً من المسلمين منها بشيء".

قال أبو موسى: والله ما مُتْنا حتى سدَّدناها، بعضُنا في وجوه بعضٍ,

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه.

و(قوله: "كيلا يَخْدِشَ مسلماً") فيه ما يدلُّ على صحة القول بالقياس، وتعليل الأحكام الشَّرعية.

و(قول أبي موسى – رضي الله عنه –: والله ! ما مُتْنا حتى سدَّدناها، بعضُها في وجوه بعض) يعني: ما مات معظمُ الصحابة – رضي الله عنهم – حتى وقعتْ بينهم الفتنُ والمحنُ، فرمى بعضُهم بعضاً بالسِّهام، وقاتل بعضُهم بعضاً. وذكر هذا في معرض التأسُّف على تغيُّر الأحوال وحصول الخلاف لمقاصد الشرع من: التعاطف والتواصل على قرب العهد، وكمال الجدّ.

و(قوله: "فشكر الله له فغفر له") أي: أظهر لملائكته، أو لمن شاء من خَلْقه الثناءَ عليه بما فَعَل من الإحسان لعبيده. وقد تقدَّم: أنَّ أصلَ الشُّكر: الظُّهور، أو يكون جازاه جزاءَ الشاكر، فسمَّى الجزاءَ شُكراً، وعبَّر عنه بشَكَر. كما قال في الرواية الأخرى: "فأدخل الجنة" وكلُّ ذلك إنما حصل لذلك الرجل بحُسْن نيَّته في تنحيته الأذى، ألاَ ترى قوله: "والله لأنحينَّ هذا عن المسلمين لا يُؤْذيهم؟".

باب ثواب من نحّى الأذى عن طريق المسلمين

عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: "بينما رجلٌ يمشي بطريقٍ؛ وجد غُصْنَ شوكٍ على الطريق، فأخَّرَهُ، فشكر الله له، فغفر له".

وفي رواية: "فقال لأُنَدِّيَنَّ هذا عن المسلمين لا يؤذيهم فأُدخِلَ الجنَّة".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ، وابن ماجة.

وعنه؛ عن النبي ﷺ قال: "لقد رأيتُ رجلاً يتقلبُ في الجنَّة في شجرة قطعها عن ظهر الطريق، كانت تؤذي الناس".

رواه مسلم في البر والصلة.

وعن أبي برزة، قال: قلتُ لرسولِ الله ﷺ: يا رسول الله ! إنِّي لا أدري أن تمضيَ وأبقى بعدك، فزودني شيئاً ينفعني الله به ! فقال رسول الله ﷺ: "افعل كذا، افعل كذا، وأمرَّ الأذى عن الطريق".

وفي رواية: قال: قلتُ: يا نبي الله ! أعلمني شيئاً أنتفع به ! قال: "اعزل الأذى عن طريق المسلمين".

رواه مسلم، وان ماجه.

و(قوله: "لقد رأيتُ رجلاً يتقلَّب في الجنة في شجرة قطعها") أي: يتقلَّبُ في نعيم الجنة، وملابسها، وقصورها، وسائر ما أعدَّ الله فيها.

و(قوله: "وأمرَّ الأذى عن طريق المسلمين") هكذا روايتي، ورواية عامَّة الشيوخ: براء مشدَّدة، من المرور، بمعنى: نحِّ. وعند الطبري: وأمِزْ — بزاي معجمة — من المَيْز، أي: أَزِلْهُ من الطريق، ومَيِّزْهُ عنه. وعند ابن ماهان: أخِّره، وكلُّها بمعنى واحد.

باب عُذِّبت امرأة في هرَّة

عن عبد الله بن عمر، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: "عُذِّبَت امرأةٌ في هِرَّةٍ سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النَّار، لا هي أطعمتها وسقتها؛ إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض".

رواه البخاريُّ، ومسلم في البر والصلة.

وفي رواية: "دخلت امرأةٌ النَّار من جَرَّاء هِرَّة لها – أو: هرّ – ربطتها، فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تَرَمَّمُ من خشَاش الأرض؛ حتى ماتت هَزْلاً".

رواه أحمد، ومسلم، وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

و(قوله: "دخلت امرأةٌ النارَ من جرّاء هرَّة لها") أي: من أجل، وفيه لغتان المدّ والقصر، وظاهرُ هذا أن الهرَّ يُمْلَك؛ لأنه ﷺ أضاف الهرّ للمرأة باللام التي هي ظاهرة في الملك، وقد تقدَّم الخلافُ في ذلك.

وفيه ما يدلُّ على أنَّ الواجبَ على مالك الهرِّ أحد الأمرين: إما أن يُطعمه، أو يتركه يأكلُ ممَّا يجده من الخشاش، وهي: حشرات الأرض، وأحناشها. وقد يُقال على صغار الطير، وهو بالخاء المعجمة، ويقال بفتح الخاء وكسرها. وحكى أبو علي القاليّ فيها الضم، فأما الخِشاش بالكسر لا غير: فهو الذي يُدْخَل في أنف البعير من خشب، والخَزَامة من شعر، فأما الخَشاش بالفتح: فهو الماضي من الرجال. قال الجوهري: وقد يُضم. وترمَّم: بفتح التاء والميم المشدَّدة للعذريِّ والسحري، وهي الصحيحة. وعند بعضهم: تُرمِّم بضم التاء وكسر الميم الأولى. والثلاثي هو المعروف، ومعناه: يأكلُ، مأخوذٌ من المرمة، وهي: الشفة من كلِّ ذات ظلف.

باب عذاب المتكبِّر والمتألِّي على الله، وإثم من قال: هلك النَّاس، ومدح المتواضع الخامل

عن أبي سعيد، وأبي هريرةَ، قالا: قال رسول الله ﷺ: "العزُّ إزاره، والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته".

ومن باب: عذاب المتكبر والمتألِّي

(قوله: "العزُّ إزاره، والكبرياءُ رداؤه، فمن ينازعُني عذَّبْتُه") كذ جاء هذا اللفظُ في كتاب مسلم مُفتحا بخطاب الغَيبة، ثم خرج إلى الحضور، وهذا على نحو قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُم فِي الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾[1] فخرج من خطاب الحضور إلى الغيبة، وهي طريقةٌ عربيةٌ معروفةٌ. وقد جاء هذا الحديثُ في غير كتاب مسلم: "الكبرياءُ ردائي، والعظمةُ إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قصمته، ثم ألقيتُه في النار. وأصلُ الإزار: الثوبُ الذي يُشَدُّ على الوسط. والرداء: ما يجعل على الكتفين، ولما كان هذان الثوبان يخصَّان اللابس بحيث لا يستغني عنهما، ولا يقبلان المشاركة عبَّر الله تعالى عن العز بالإزار، وعن الكبرياء بالرداء على جهة الاستعارة المستعملة عند العرب، كما قال: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾[2] فاستعار للتقوى لباساً، وكما قال ﷺ: "من أسرَّ سريرة ألبسه الله رداءها". وكما قال: "البسوا قناعَ المخافة، وادَّرعوا لباسَ الخشية". وهم يقولون: فلان شعارها الزهد والورع، ودثاره التقوى، وهو كثير. ومقصودُ هذه الاستعارة الحسنة: أنَّ العز، والعظمة، والكبرياء من أوصاف الله تعالى الخاصَّة به التي لا ينبغي لغيره. فمن تعاطى شيئاً منها أذلَّه الله تعالى

---

[1]– سورة يونس، الآية 22.

[2]– سورة الأعراف، الآية 26.

وعن جُنْدَب، أنَّ رسولَ الله ﷺ حدَّث: "أنَّ رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان !وإنَّ الله قال: من ذا الذي يَتَأَلَّى عليَّ: ألاَّ أغْفِرَ لفُلانٍ؟ ! فإنّي قد غفرتُ لفلانٍ، وأحبطتُ عملك !" أو كما قال.

وصغَّره، وحقَّره، وأهلكه، كما قد أظهر الله تعالى من سُنَّته في المتكبرين السَّابقين واللاحقين.

و(قوله المتألي: والله لا يغفر الله لفلان) ظاهرٌ في أنه قَطْعٌ بأن الله تعالى لا يغفرُ لذلك الرجل، وكأنَّه حكم على الله، وحجر عليه. وهذه نتيجةُ الجهل بأحكام الإلهية، والإدلال على الله تعالى بما اعتقد أن له عنده من الكرامة، والحظِّ، والمكانة. وكذلك المذنب من الخسَّة والإهانة؛ فإن كان هذا المتألي مُستحلاً لهذه الأمور فهو كافر، فيكون إحباطُ عمله لأجل الكفر، كما يحبطُ عمل الكفار، وأما إن لم يكن مُستحلاً لذلك، وإنما غلب عليه الخوف، فحَكَم فإنفاذ الوعيد فليس بكافر، ولكن مرتكبُ كبيرة، فإنه قانطٌ من رحمة الله، فيكونُ إحباطُ عمله بمعنى: أن ما أوجبت له هذه الكبيرة من الإثم يُربي على أجر أعماله الصالحة؛ فكأنه لم يَبْقَ له عملٌ صالح.

و(قوله: "مَن ذا الذي يتألَّى عليَّ ألا أغفر لفلان") استفهامٌ على جهة الإنكارِ والوعيد، ويُستفاد منه: تحريمُ الإدلال على الله تعالى، ووجوب التأدُّب معه في الأقوال، والأحوال، وأنَّ حقَّ العبد أن يُعامل نفسَه بأحكام العبوديَّة، ومولاه بما يجبُ له من أحكام الإلهية والرُّبوبية.

و(قوله: "فإني قد غفرتُ لفلان، وأحبطتُ عملك") دليلٌ على صحَّة مذهب أهل السُّنَّة: أنه لا يكفَّر أحدٌ من أهل القبلة بذنب، وهو مُوجِبُ

وعن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: "إذا قال الرجل: هلك الناس؛ فهو أهلكُهُم".

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[1] وأنَّ لله تعالى أن يفعلَ في عبيده ما يريدُ من المغفرة والإحباط؛ إذ هو الفعَّال لما يريد، القادرُ على ما يشاء. وقد بيَّنا الإحباطَ المذكورَ في هذا الحديث.

وقوله: "إذا قال الرجلُ: هلك الناسُ فهو أهلكُهم") قال أبو إسحاق: لا أدري: أهلكهم بالنصب أو بالرفع. أبو إسحاق هذا: هو إبراهيم بن سفيان الراوي عن مسلم، شكَّ في ضبط هذا الحرف، وقد قيَّده الناسُ بعده بالوجهين، وكلاهما له وجه، فإذا كان بالرفع: فمعناه أن القاتلَ كذلك القول هو أحقُّ الناس بالهلاك، أو أشدُّهم هلاكاً، ومَحْمَلُه على ما إذا قال ذلك مُحقِّراً للناس، وزارياً عليهم، مُعْجَباً بنفسه وعَمَله، ومَن كان كذلك فهو الأحقُّ بالهلاك منهم، فأما لو قال ذلك على جهة الشَّفقة على أهل عَصْره، وأنَّهم بالنسبة إلى مَن تقدَّمهم من أسلافهم كالهالكين، فلا يتناوله هذا الذَّم، فإنها عادةٌ جاريةٌ في أهل العلْم والفضْل، يُعظِّمون أسلافهم، ويُفضِّلونهم على مَن بعدهم، ويقصرون بمن خلفهم، وقد يكون هذا على جهة الوَعْظ والتَّذكير ليقتديَ اللاحقُ بالسَّابق، فيجتهد المقصِّر، ويتدارك المفرِّط، كما قال الحسنُ – رحمه الله –: لقد أدركُ أقواماً لو أدركتموهم لقلتُم: مرضى، ولو أدركوكم لقالوا: هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب.

وأمَّا من قيَّده بالنصب فيكون معناه: أنَّ الذي قال لهم ذلك مُقنطاً لهم: هو الذي أهلكهم بهذا القول، فإنَّ الذي يسمعه قد ييأس من رحمة الله فيهلك، وقد يغلبُ على القاتل رأيُ الخوارج فيهلك الناس بالخروج

---

[1]– سورة النساء، الآية 48.

وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: "رُبَّ أَشْعَثَ مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبرَّه".

عليهم، ويشقُّ عصاهم بالقتال، وغير ذلك كما فعلت الخوارج، فيكون قد أهلكهم حقيقةً وحساً، وقيل معناه: إنَّ الذي قال فيهم ذلك، لا الله تعالى؛ فكأنه قال: هو الذي ظنَّ من غير تحقيق ولا دليل من جهة الله تعالى. والله تعالى أعلم.

و(قوله: "رُبَّ أشعثَ مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرَّه") الأشعث: المتلبِّد الشَّعر احتقاراً له، ويصحُّ أن يكون معناه: يُدفع بسدِّ الأبواب في وجهه كلما أراد دخولَ بابٍ من الأبواب، أو قضاء حاجة من الحوائج.

و(قوله: "لو أقسم على الله لأبرَّه") أي: لو وقع منه قسمٌ على الله في شيءٍ لأجابه الله تعالى فيما سأله إكراماً له، ولُطفاً به، وهذا كما تقدَّم من قول أنس بن النَّضر: لا والله لا تُكسر ثنيَّة الربيع أبداً. فأبرَّ الله قَسَمَه؛ بأن جَعَل في قلوب الطالبين للقصاص الرِّضا بالدية، بعد أن أبوا قبولها، وكنحو ما اتفق للبراء لما التقى بالكفار فاقتتلوا، فطالَ القتال، وعظم النزال، فقال البراءُ: أقسمتُ عليك يا رب! أو عزمتُ عليك، لتمنحنا أكتافهم، ولتلحقني بنبيِّك، فأبرَّ الله قسمه، فكان كذلك. ولقد أَبْعَدَ من قال: إنَّ القسمَ – هنا – هو الدُّعاء من جهة اللَّفظ والمعنى.

باب الوصية بالجار وتعاهده بالإحسان

عن عائشة، قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: "ما زالَ جبريلُ يوصيني بالجار، حتى ظننتُ أنَّه لَيُوَرِّثُه".

ونحوه؛ عن ابن عمر، وقال: "حتى ظننت أنَّه لَيورِّثَنَّه".

وعن أبي ذرٍّ، قال رسول الله ﷺ: "يا أبا ذر! إذا طبختَ مَرَقةً فأكْثِرْ ماءها، وتعاهدْ جيْرانك".

ومن باب: الوصية بالجار
وفضل السعي على الأرملة واليتيم

(قوله: "ما زال جبريلُ يوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه لَيُورِّثُه") قد تقدَّم أن الجار يُقال على المجاور في الدار، وعلى الدَّاخل في الجوار، وكلٌّ واحد منهما له حقٌّ، ولابُدَّ من الوفاء به، وقد تقدَّم قولُه ﷺ: "لا يدخل الجنة من لا يأمن جارُه بوائقه"، وقوله: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره". ولمَّا أكَّد جبريلُ على النبيِّ ﷺ حقَّ الجوار، وكثَّر علي من ذلك غلبَ على ظنِّ النبيِّ ﷺ: أن الله سيحكمُ بالميراث بين الجارين. وهذا يدلُّ على: أنَّ هذا الجارَ هنا هو جارُ الجار؛ لأن الجارَ بالعهد قد كان من أوَّل الإسلام يرث ثم نُسِخ ذلك، كما تقدَّم، فأن كان هذا القولُ صَدَر من النَّبيِّ ﷺ في أوَّل الأمر، فقد كان بعد ذلك فرفعُ ذلك الحكم ونَسْخه مُحقِّ، فكيف تُظنُّ مشروعية؟! فتعيَّن: أنَّ المرادَ بالجوار في هذا الحديث هو جوارُ الدار، والله تعالى أعلم.

و(قوله: "إذا طبختَ مَرَقة فأكثر مَاءَها وتعاهدْ جيرانك") هذا الأمرُ على جهة الندب، والحضّ على مكارم الأخلاق، وإرشاد إلى محاسنها لما يترتَّبُ عليه من المحبَّة، وحسن العِشْرة، والأُلفة، ولما يحصلُ به من المنفعة،

وفي أخرى: "ثمَّ انظر أهلَ بيتٍ من جيرانكَ فأصِبْهُم منها بمعروفٍ".

وعنه؛ قال: قال لي رسول الله ﷺ: "لا تَحْقِرَنَّ من المعروفِ شيئاً؛ ولو أنْ تلقى أخاك بوجهٍ طَلْقٍ".

ودفع الحاجة والمفسدة، فقد يتأذَّى الجارُ ببُخار قدر جاره، وعيالُه، وصغارُ ولده، ولا يقدر على التوصُّل إلى ذلك فتهيجُ من ضعفائهم الشهوة، ويعظُم على القائم عليهم الألم والكُلْفة، وربما يكون يتيماً، أو أرملةٌ ضعيفة، فتعظم المشقة، ويشتدُّ منهم الألم والحسرة، وكل ذلك يندفع بتشريكهم في شيء من الطبيخ يُدفع إليهم، فلا أقبح من منع هذا النذر اليسير الذي يترتَّبُ عليه هذا الضرر الكبير.

و(قوله: "فأكثرْ ماءَها") تنبيهٌ لطيفٌ على تيسير الأمر على البخيل؛ إذ الزيادة المأمور بها إنما هي فيما ليس له ثمن، وهو الماء. ولذلك لم يقل إذا طبختَ مرقةً فأكثرْ لحمَها، أو طبيخها إذ لا يسهلُ على كلِّ أحدٍ.

و(قوله: "فأصبْهم منها بمعروف") أي: بشيءٍ يُهدى مثله عرفاً، تحرُّزاً من القليل المحتقر فإنه — وإن كان مما يُهدى — فقد لا يقعُ ذلك الموقع، فلو لم يتيسَّر إلا القليل المحتقر فليُهده ولا يحتقره، كما جاء في الحديث الآخر: "لا يحقرنَّ من المعروف شيئاً" ويكون المهدي له مأموراً بقبول ذلك المُحتقَر، والمكافأة عليه، ولو بالشكر؛ لأنه وإن كان قدرُه محتقراً، دليل على تعلُّق قلب المُهدي بجاره.

و(قوله: "ولو أنْ تَلْقى أخاكَ بوجهٍ طليق") يُروى بكسر اللام، وياء بعدها. وطَلْق الوجه بتسكين اللام بغير ياء، وهما لغتان، يقال: رجل طَلْقُ الوجه، وطليقُ الوجه، وهو المنبسطُ الوجه السَّمحة. يُقال: طَلُقَ وجهُه: بضم اللام يَطْلُقُ طلاقةً.

باب فضل السعي على الأرملة وكفالة اليتيم

عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: "الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله". وأحسبه قال: "وكالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر".

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: "كافلُ اليتيم له أو لغيره، أنا وهو كهاتين في الجنة" وأشار مالك بالسبابة والوَسطى.

ومن باب فضل السعي على الأرملة وكفالة اليتيم

قال الجوهريُّ: الأرمل: الرجل الذي لا امرأة له، والأرملةُ: المرأة التي لا زوجَ لها، وقد أرملت المرأة إذا مات عنها زوجها. قال ابن السِّكيت: الأرامل: المساكين من رِجال أو نساء. قال: ويُقال لهم، وإن لم يكن فيهم نساء، ويُقال: قد جاءت أرملة من نساء محتاجين، وإنما شبَّه السَّاعي على الأرملة بالمجاهد؛ لأن القيامَ على المرأة بما يُصلحُها وما يحفظها، ويصونُها، ولا يُتصوَّر الدوام عليه إلا مع الصبر العظيم، ومجاهدة النفس والشيطان، فإنهما يُكسِّلان عن ذلك، ويُثقلانه، ويُفسدان النِّيات في ذلك، وربما يدعوان بسبب ذلك إلى السُّوء ويسوِّلانه، ولذلك قلَّ من يدوم على ذلك العمل، وأقل من ذلك من يسلم منه، فإذا حصل ذلك العمل حصلت منه فوائد كشف كرَب الضعفاء، وإبقاء رَمَقهم، وسدِّ خَلَّتهم[1]، وصون حرمتهم.

و(قوله. "كافلُ اليتيم له أو لغيره أنا وهو في الجنة كهاتين") قد تقدَّم: أن اليتيمَ في الناس من قبل فقد الأب، وفي البهائم: من قبل فقد الأم، ومعنى قوله: "له أو لغيره" — أي: سواء كان اليتيم قريباً للكافل أو لم يكن — في حصول ذلك الجزاء الموعود على كفالته. ومعنى قوله:" "أنا وهو في الجنة كهاتين" أي: هو معه في الجنة، وبحضرته، غير أن كلَّ واحد منهما على درجة فيها إذ لا يبلغ درجة الأنبياء غيرُهم، ولا يبلغ درجةً نبينا ﷺ أحدٌ من الأنبياء على ما تقدَّم. وإلى هذا المعنى الإشارة بقرانه بين إصبعيه السَّبابة والوسطى، فيفهم من الجمع بينهما: المعيَّة والحضور، ومن تفاوت ما بينهما: اختصاص كل واحد منهما بمنزلته ودرجته. وقد نصَّ على هذا المعنى النبيُّ ﷺ في قوله: "المرء مع مَنْ أحبَّ، وله ما اكتسبَ" وقد تقدم نحو هذا.

---

[1]— "الخلَّة": الخَصْلة، والفقر والحاجة، جمع خِلال.

باب التحذير من الرياء والسمعة
ومن كثرة الكلام ومن الإجهار

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشُّركاءِ عن الشِّركِ. مَنْ عَمِلَ عملاً أشركَ فيه معي غيري تركتُه وشرِيْكَهُ".

ومن باب: التحذير من الرِّياء والسُّمعة

(قوله تعالى: "أنا أغنى الشُّركاء عن الشِّرك") أصلُ الشِّرك المحرَّم: اعتقادُ شريكٍ لله تعالى في إلهيته، وهو الشركُ الأعظم، وهو شركُ الجاهلية، ويليه في الرتبة اعتقادُ شريكِ الله تعالى في الفعل، وهو قولُ من قال: إنَّ موجوداً ما غير الله تعالى يستقلُّ بإحداث فعلٍ وإيجاده، وإن لم يعتقدْ كونه إلهاً، ويلي هذا في الرتبة الإشراكُ في العبادة، وهو الرياء. وهو أن يفعلَ شيئاً من العبادات التي أمر الله تعالى بفعلها له لغير الله، وهذا هو الذي سيق الحديثُ لبيان تحريمه، وأنه مبطلٌ للأعمال. لهذا أشار بقوله: "من عمل عملاً أشركَ معي فيه غيري تركتُه وشريكه" وهذا هو المسمَّى بالرياء، وهو على الجملة مُبطِلٌ للأعمال، وضدُّه الإخلاص، وهو من شرط صحَّة العبادات، والقُرَب. وقد نبَّهنا على معاقدهما. واستيفاء ما يتعلَّقُ بهما مذكورٌ في الرقائق.

و(قوله: "من سمَّع الله به") أي" مَن يحدَّث بعمله رياءً ليسمِّع الناسَ فضحه الله يومَ القيامة، وشهره على رؤوس الأشهاد، كما جاء في غير كتاب مسلم: "يُسمِّع الله به سامعَ خلقه يوم القيامة" أي: كلّ من يسمع. وقيل: إنَّ معنى ذلك أن من أذاع على مسلم عيباً، وشنعه عليه، أظهر الله عيوبه يوم القيامة.

وعن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ سمَّع سمَّع الله به، ومَنْ راءى راءى الله به".

وعن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: "إنَّ العبدَ ليتكلَّمُ بالكلمة ما يتبيَّنُ ما فيها يهوي بها في النَّار أبعدَ ما بين المَشْرِق والمغرب".

وقوله: "ومَن راءى راءى الله به") أي: من راءى بعمله فعملِ شيئاً من القُرَب لغير الله قابله الله يوم القيامة بعقوبة ذلك. فسمَّى العقوبة رياءً على جهة المقابلة، كما قال: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ﴾.

و(قوله: "إن العبدَ ليتكلم بالكلمة ما يتبَّن ما فيها") أي: من الإثم والعقاب، وذلك لجهله بذلك، أو لترك التثبُّت، أو للتَّساهل. وفي غيرِ كتاب مسلم: "إن الرجلَ ليتكلمُ بالكلمة من سخط الله ما يُلقي لها بالاً يهوي بها في النار سبعين خريفاً". وفيه من الفقه: وجوب التثبُّت عند الأقوال والأفعال، وتحريم التَّساهل في شيء من الصَّغائر، وملازمة الخوف، والحذر عند كلِّ قول وفعل، والبحث عمَّا مضى من الأقوال والأفعال، واستحضار ما مضى من ذلك وتذكُّره من أول زمان تكليفه؛ لإمكان أن يكونَ صَدَرَ من المكلَّف شيءٌ لم يتثبَّتْه يستحقُّ به هذا الوعيد الشديد، فإذا تذكَّر واسعانَ بالله، فإن ذكر شيئاً من ذلك تاب منه، واستغفر، وإن لم يتذكَّر وَدَب عليه أن ينوبَ جملةً بجملة عمَّا علم وعما لم يعلم، كما قال النبيُّ ﷺ: "أستغفرُك عمَّا تعلم ولا أعلم". فمن فعل ذلك وصدقتْ نيَّته قُبلت بفضل الله تعالى توبتُه.

و"قوله: "من سخط الله" أي: ممَّا يُسْخط الله، وذلك بأن يكون كذبة، أو غيبة، أو نميمة، أو بُهتاناً، أو بَخْساً، أو باطلاً يضحكُ به الناس، كما قد جاء عن النبيِّ ﷺ أنه قال: "ويلٌ للذي يتكلَّمُ بالكلمة من الكذب ليضحكَ الناس، ويلٌ له، ويلٌ له".

و(قوله: "كل أمتي مُعافى إلا المجاهرين") كذا روايةُ أكثر الرواة بتقديم الجيم على الهاء منصوباً على الاستثناء، وهو جمعُ مجاهر، اسمُ فاعل مِن

وعنه؛ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "كلُّ أمَّتي مُعافى إلاَّ المجاهرين، وإنَّ منَ الجهارِ أن يعمل العبدُ عملاً بالليل، ثم يُصبح وقد ستره ربُّه فيقول: يا فلانُ! عَملتُ البارحةَ كذا، وقد بات يسترُه ربُّه، ويصبحُ يكشفُ سِتْرَ الله عنه!".

جاهره بالقول وبالعداوة؛ إذ ناداه، وفاجأه بذلك. ووقع في نسخة شيخنا أبي الصّبر: "إلا المجاهرون" بالواو رفعاً، وهو جائزٌ، على أن تُحمل (إلا) على (غير) كما قد أنشده النحويون:

وكلُّ أخٍ مُفَارقُهُ أَخُوهُ لَعَمْرُ أَبيكَ إلا الفَرقَدان

أي: غير الفرقدين، وهو قليلٌ، والوجهُ الأوَّل: الكثير الفصيح.

و(قوله: "وإنَّ من الجهار") هذه روايةُ زهير، وهي روايةٌ حسنة؛ لأنه مصدرُ: جاهر، الذي اسمُ الفاعل منه مجاهر، فيتناسب صَدْرُ الكلام وعجزه. ورواه أكثرُ رواة مسلم:"وإنَّ من الإجهار" فيكون مصدر: أجهر، أي: أعلن. قال الجوَهريُّ: إجهارُ الرجل: إعلانه، وعند الفارسيِّ: وإنَّ من الإهجار، بتقديم الهاء على الجيم، وهو الإفحاشُ في القول. قاله الجوهريُّ.

قال الشيخ: وهذه الروايات؛ وإن اختلفتِ ألفاظُها، هي راجعةٌ إلى معنى واحد قد فسَّره في الحديث، وهو أن يعملَ الرجل معصيةً في خفية، وخَلوة، ثمَّ يخرجُ يتحدَّث بها مع الناس، ويجهرُ بها ويعلنها، وهذا من أكبر الكبائر، وأفحش الفواحش. وذلك: أن هذا لا يصدرُ إلا من جاهلٍ بقدر المعصية، أو مُستهين مستهزئ بها، مُصرٍّ عليها، غير تائب منها، مُظهر للمنكر. والواحدُ من هذه الأمور كبيرة، فكيف إذا اجتمعت؟! فلذلك كان فاعلُ هذه الأشياء أشدَّ الناس بلاءً في الدنيا، وعقوبة في الآخرة؛ لأنه تجتمعُ عليه عقوبة تلك الأمور كلها، وسائر الناس ممن ليس على مثل حاله؛ وإن كان مرتكبَ كبيرة فأمرُه أخفُّ، وعقوبته — إن عُوقبَ — أهون. ورجوعُه عنها أقرب من الأول؛ لأنَّ ذلك المجاهرَ قلَّ أن يتوبَ، أو يرجع عما اعتاده من المعصية، وسَهُل عليه منها. فيكون كل العصاة بالنسبة إليه إمَّا مُعافى مُطلقاً إن تاب، وإما مُعافى بالنسبة إليه إن عُوقب، والله تعالى أعلم.

باب تغليظ عقوبة من أمر بمعروفٍ ولم يأته ونهى عن المنكر وأتاه

عن أسامةَ بن زيد، قال: قيل له: ألا تدخلُ على عثمانَ فتكلِّمَه؟ فقال: أترون أنِّي لا أكلِّمه إلا سَمْعَكُم ! والله ! لقد كلَّمتُه فيما بيني وبينه؛ ما دون أن افتتح أمراً لا أحبُّ أن أكونَ أولَ مَنْ فتحَهُ، ولا أقول لأحدٍ

ومن باب: تغليظ عقاب من أمر بمعروف ولم يأته، ونهى عن المنكر وأتاه

(قوْل القائل لأسامة: ألا تدخلُ على عثمان فتكلِّمه) يعني: في تلك الأمور التي تُفْتَرى عليه، وكانت أموراً بعضُها كذبٌ عليه، وبعضها كان له فيها عُذرٌ، وعنها جوابٌ لو سُمع منه، لكنَّ العوام لا ينفعُ معهم اعتذارٌ ولا ملام، ولم يكن شيءٌ من هذه الأمور يُوجب خَلْعَه، ولا قَتْله قطعاً، ولكن جرتِ الأقدارُ بأن قُتِل مظلوماً شهيد الدار.

و(قوله: أترون أني لا أكلِّمه إلا سَمْعَكُم) يعني: أنه كان يجتنبُ كلامه بحضرة الناس، ويكلِّمه إذا خلا به، وهكذا يجبُ أن يعاتبَ الكبراء والرُّؤساء، يُعظَّمون في الملأ إبقاءً لحرمتهم، ويُنصحون في الخلاء أداءً لما يجبُ من نُصْحهم. وسَمْعَكم: منصوبٌ على الظرف. ويُروى: بسمعكم، بالباء، أي: يحضره سَمْعُكم. ويروى: أُسْمِعُكم على أنه فعلٌ مضارع.

و(قوله: والله لقد كلَّمتُه فيما بيني وبينه ما دون أن أفتح أمراً، لا أحبُّ أن أكون أوَّلَ مَن فتحه) يعني: أنه كلَّمه مشافهةً، كلامَ لطف لأنه اتَّقى ما يكونُ عن المجاهرة بالإنكار والقيام على الأئمة؛ لعظيم ما يَطرأ

يكون عليَّ أميراً: إنَّه خيرُ النَّاس بعدما سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "يُؤْتى يوم القيامة بالرَّجل، فيُلْقى في النَّار فتندلقُ أقتابُ بطنه، فيدورُ بها كما يدورُ الحمار بالرَّحى، فيجتمعُ إليه أهلُ النَّار. فيقولون: يا فلان ! ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى ! قد كنت آمر بالمعروف ولا أتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه !".

بسبب ذلك من الفتن والمفاسد، وخصوصاً على مثل عثمان — رضي الله عنه — ففيه التلطُّفُ في الإنكار إذا ارتجى نفعُه.

و(قوله: ولا أقول لأحد يكن عليَّ أميراً أنه خيرُ الناس) أي: لا أُطيره بذلك، ولا أُداهنه؛ لكونه أميراً عليَّ، بل: أقولُ له الحقَّ، وأصفُه بحاله التي هو عليها من غير تصنُّع، ولا مَلَق. وهذه كانت سيرةُ القوم، لا يخافون في الله لومة لائم، ولا يُبالون في القيام بالحقِّ، وإنْ أدَّى إلى العظائم، وهذا هو أعظمُ الأسباب التي أوجبت الاختلافَ بينهم، حتى أدَّى إلى العظائم، وهذا هو أعظمُ الأسباب التي أوجبت الاختلافَ بينهم، حتى أدَّى ذلك إلى الحروب العظيمة، والخطوب الجسيمة؛ فإنَّ كلَّ طائفة كانت ترى: أنها المصيبةُ المحقَّة، ومخالفتُها المخطئة؛ فإنها كانتْ أموراً اجتهادية، ولم يكنْ فيها نصوصٌ قطعيّة، ويُستثنى من ذلك قتلةُ عثمان، فإنه لم يرتكبْ ما يُوجبُ خَلْعَهُ، ولا قَتْلَه، والخوارجُ على عليّ والمسلمين فإنهم حكموا بكفر الجميع، فهاتان الطَّائفتان مُخْطئتان قطعاً، ومَن عدا هؤلاء فإما مصيبٌ في اجتهاده فله أجران، ومن قصَّر في اجتهاده مذمومٌ على التقصير.

.....

و(قوله: "فتندلق أقتابُ بطنه") أي: تخرجُ بسرعة. واندلاق السَّيف: خروجُه من غمده، والأقتاب: الأمعاء، واحدها قتب. وقال الأصمعيُّ. واحدُها قتبة، ويقال لها أيضا: الأقصاب، واحدها قصب، قاله أبو عبيد. وقال أبو عبيدة: القتب: ما تحوّى من البطن يعني: استدار، وهي الحوايا، وإنما اشتدَّ عذابُ هذا؛ لأنه كان عالماً بالمعروف وبالمنكر، وبوجوب القيام عليه بوظيفة كلِّ واحدٍ منهما، ومع ذلك فلم يعملْ بشيء من ذلك، فصار كأنه مستهينٌ بحرمات الله تعالى، ومستخفٌّ بأحكامه، ثم إنه لم يتبْ عن شيء من ذلك، وهذا من جملة من لم ينتفع بعلمه، الذين قال فيهم النبيُّ ﷺ: "أشدُّ الناسِ عذاباً يوم القيامة: عالمٌ لم ينفعْه الله بعلمه". وإنما ذكر أسامةُ هذا الحديثَ مُستدلاً به على منْع إطراء الأمير؛ بأن يقال له: أنت خير الناس؛ لأنه يمكنُ أن يكونَ ذلك الأميرُ ممَّن يأمرُ بالمعرف، ولا يفعلُه، وينهى عن المنكر ويفعلُه فيستحقُّ هذا العقاب الشديد، فكيف يقال له: أنت خيرُ الناس؟ ! ويشهدُ لهذا مساقُ قوله؛ فتأمَّلْه، والله أعلم، وقد تقدَّم القول في وجوب تغيير المنكر.

باب في تشميت العاطس إذا حمد الله تعالى

عن أنس بن مالك، قال: عَطَس عند النبيِّ ﷺ رجلان، فشمَّتَ أحَدَهُما لم يُشَمِّت الآخر ! فقال الذي لم يُشَمِّتْهُ: عطس فلان فشمَّتَه، وعَطَسْتُ أنا فلم تُشَمِّتْني؟ ! قال: "إن هذا حَمِدَ الله وإنَّك لم تَحْمد الله".

وعن أبي موسى، قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: "إذا عَطَس أحدُكم فحَمِدَ الله فشمِّتُوه، وإذا لم يَحْمَد الله فلا تُشَمِّتُوهُ".

ومن باب: تشميت العاطس وكظم التثاؤب

(قوله: "إذا عَطَس أحدُكم فحمد الله فشمِّتوه") تشميتُ العاطس: هو الدُّعاءُ له بالخير، يال: شَمَّت العاطسَ وسَمَّته بالشين والسين: إذا دعا له بالخير. والشين: أعلى اللغتين. قاله أبو عبيد. وقال ثعلب: معنى التشميت بالشين: أبعدَ الله عنك الشَّماتة. وأصلُ السين من السّمت، وهو القصدُ والهُدى. وقال ابنُ الأنباري: كلُّ داعٍ بالخير مُسمِّتٌ. وقد اختلف في تشميت العاطس الحامد لله؛ فأوجبه أهلُ الظاهر على كُلِّ مَن سمعه، للأمر المتقدِّم، ولقوله ﷺ: "إذا عَطَس أحدُكم فحمد الله كان حقّاً على كلِّ مسلم يسمعُه أن يقول: يرحمك الله". أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة — رضي الله عنه -. والمشهور من مذهب مالك، ومن أتَّبعه في جماعة العلماء: أنه فَرْضٌ على الكفاية، فيجزئ فيه دعاءُ بعض عن بعض. وذهبت فرقةٌ: إلى أنه على النَّدب، وإليه ذهب القاضي أبو محمد ابن نصر، وتأوَّلوا قولَه ﷺ: "حقٌّ على كلِّ مسلم سمعه أن يشمته": أن ذلك حقٌّ في حكم الأدب، ومكارم الأخلاق، كقوله: "حقُّ الإبل أن تُحلب على الماء".

وعن سلمةَ بنِ الأكوع، أنَّه سمع النبيَّ ﷺ عَطَس عنده رجلٌ فقال له: "يَرْحَمُكَ الله" ثم عطس أخرى فقال رسول الله ﷺ: "الرَّجل مزكومٌ".

ثم اختلف العلماءُ في كيفية الحمد والردِّ لاختلاف الآثار. فقيل: يقول: الحمد لله. وقيل: الحمد لله ربِّ العالمين. وقيل: الحمد لله على كل حال، وخيَّره الطبريُّ فيما شاء من ذلك، ولا خلافَ أنه مأمورٌ بالحمد. وأما المشمِّت فيقول: الله، ويصلح بالكم. وقيل يقول: يغفر الله لنا ولكم. وقيل: يرحمنا الله وإياكم، ويغفر لنا ولكم. وقال مالك والشافعي: إن شاء قال: يغفر الله لنا ولكم، وإن شاء قال: يهديكم الله ويصلح بالكم.

و(قوله: "وإن لم يحمَد الله فلا تشمته") هذا نهيٌ عن تشميت مَن لم يحمد الله بعد عطاسه، وأقلُّ درجاته: أن يكون الدعاء له مكروهاً عقوبة له على غفلته عن نعمة الله عليه في العطاس؛ إذ خَرَج منه ما احتقن في الدِّماغ من البخار قاله بعضُ شيوخنا، ولا خلافَ أعلمه أنَّ مَن لم يحمد الله لا يشمَّت، وقد ترك النبيُّ ﷺ تشمتَ العاطس الذي لم يحمد الله، ونصَّ على أنَّ تَرْكَ الحمدِ هو المانعُ مِن ذلك.

و(قوله في حديث البخاري: "كان حقاً على كلِّ مَن سمعه أن يُشمِّته") يدلُّ على: أنَّ العاطسَ ينبغي له أن يُسمِعَ صوتَه لحاضريه، وينبغي لكلِّ مَن سمعه أن يُشمِّتَ العاطسَ إذا حصل له أنَّ ذلك تشمٌ له.

والأظهر من الأحاديث المتقدِّمة وجوبُ التَّشميت على كلِّ من سمعه إذا حَمِد الله، وهو مذهبُ أهل الظَّاهر، وهي روايةٌ عن مالك.

و(قول سلمة بن الأكوع: أنَّ النبي ﷺ عَطَس عنده رجلٌ فقال له: "يرحمُك الله" ثم عَطَس أخرى، فقال رسولُ الله ﷺ: "الرجلُ مزكوم")

باب في التثاؤب وكظمه

عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: "التثاؤبُ من الشَّيطانِ ! فإن تَثاءَبَ أحدُكم فيكظِم ما استطاع".

هكذا وقع هذا الحديثُ في كتاب مسلم: أنه ﷺ قال للرجل: "إنك مزكوم". وهو الصَّحيحُ في الثانية، وقد خرَّجه الترمذيُّ، وقال في الثالثة: "أنت مزكوم". والصَّحيحُ في الرواية، وقد جاء في كتاب أبي داود وغيره الأمرُ بذلك مُبيِّناً: "شمِّت أخاك ثلاثاً، فما زاد فهو مزكومٌ"؛ وبذلك قال مالك، وإن كان قد روى في موطئه الشك في الثالثة، أو الرابعة.

تنبيه: ينبغي للعاطس تغطيةُ وجهه في حال عطاسه، وأن يخفضَ صوتَه به؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ كذلك كان يفعلُ؛ ولأنَّ تغطيةَ الوجه ستر لما يُغيِّرُ العطاسُ من الوجه والهيئة؛ ولأن إعلاءَ الصَّوت عندها مباعدٌ للأدب والوقار.

و(قوله: "التثاؤب من الشَّيطان") التثاؤبُ: مصدر تثاءب مهموزاً، ممدوداً، ولا يُقال بالواو، ومُضارعه: يتثاءب، الاسم: الثُّؤَباء، كلُّ ذلك بالهمز. قال ابنُ دريد: أصلُه من: ثاب الرجل، فهو مثوّب؛ إذا استرخى وكسل، ونسبته للشَّيطان؛ لأنه يصدرُ عن تكسيله، فإنه قلَّ أن يصدَرَ ذلك مع النشاط. وقيل: نُسِب إليه؛ لأنه يرتضيه.

وفي البخاري عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: "إنَّ الله يحبُّ العطاس، ويكره التثاؤب، فإذا عَطَسَ أحدكم..." الحديث، كما تقدم. قال: "وأما التثاؤبُ فإنَّما هو من الشَّيطان، فإذا تثاءب أحدُكم فليردَّه ما استطاع، فإنَّ أحدَكم إذا تثاءب ضحكَ الشيطانُ منه". وهذا يُشعِرُ بصحَّة

وعن أبي سعيد الخدريِّ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: "إذا تثاءب أحدُكم فليُمْسِك بيده على فيْهِ فإنَّ الشيطان يدخل".

وفي رواية: "إذا تثاءب أحدُكم في الصَّلاة فَلْيَكْظِمْ ما استطاع فإنَّ الشيطان يدخل".

بصحَّة التأويل الثاني؛ فإن ضحك الشيطان منه سخريةٌ به؛ لأنه صَدَر عن التثاؤب الذي يكون عن الكَسَل، وذلك كلُّه يُرضيه؛ لأنه يجدُ به طريقاً إلى التكسيل عن الخيرات والعبادات، ولذلك جاء في بعض طرق هذا الحديث: "التثاؤبُ في الصَّلاة من الشيطان"؛ لأنَّ ذلك يدلُّ على كَسَله فهيا، وعَدم نشاطه، فتثقلُ عليه، فيملّها، فيستعجلُ فيها، أو يُخِلُّ بها.

و(قوله: "فليكظمْ ما استطاع") هذا خطابٌ لمن غلبه ذلك؛ فإنه يكسرُه بسدِّ فاه ما أمكن، أو بوضع يده على فمه. وأما من أحسَّ بمباديه فهو المخاطبُ في حديث البخاري بقوله: "فليردَّه"، ويُحتمل أن يكون اللفظان بمعنى واحد.

و(قوله: "فإنَّ الشيطانَ يدخل") يعني في الفم إذا لم يكظم. ويحصل من هذه الرواية، ومن حديث البخاري: أنَّ مَن لم يكظم تثاؤبه ضحك الشيطانُ منه، ودَخَل في فمه، وقيل: إنه يتقيَّأ في فمه. قال القاضي: ولهذا أُمر المتثاءبُ بالتفل ليطرحَ ما ألقى الشيطانُ في فمه. وكلُّ هذا يُشْعِر بكراهة التثاؤب، وكراهة حالة المتثائب إذا لم يكظم، وأوامرُ هذا الباب من باب الإرشاد إلى محاسن الأحوال، ومكارم الآداب.

باب كراهية المدح وفي حثو التراب في وجوه المدَّاحين

عن أبي بكر، عن النبيِّ ﷺ: أنَّه ذُكر عنده رجلٌ، فقال رجلٌ: يا رسول الله ! ما من رجل بعد رسول الله ﷺ أفضلَ منْهُ في كذا وكذا ! فقال النبيُّ ﷺ: "ويحك ! قطعت عنق صاحبك" — مراراً يقول ذلك — ثم قال رسول الله ﷺ: "إنْ كانَ أحدُكم مادحاً أخاه لا محالة؛ فَلْيَقُلْ: أحسب فلاناً إنْ كان يُرى أنَّه كذلك، ولا أزكّي على الله أحدا".

ومن باب: كراهة المدح

(قوله: "ويحك ! قطعتَ عُنُقَ صاحبك")، وفي حديث أبي موسى: "قطعتم ظهر الرَّجل") كلٌّ ذلك بمعنى أهلكتموه. وقد جاء عنه ﷺ أنَّه قال: "إياكم والمدحَ؛ فإنه الذَّبْحُ". ويعني بذلك كلِّه: أن الممدوحَ إذا أكثر عليه من ذلك يُخاف عليه منه العجبُ بنفسه، والكبر على غيره، فيهلك دينه بهاتين الكبيرتين، فإذاً المدحُ مظنَّةُ الهلاك الديني، فيحرم، لكن هذه المظنة لا تتحقَّقُ إلا عند الإكثار منه، والإطراء به، وأما مع الندرة والقلَّة؛ فلا يكون مظنَّة، فيجوزُ ذلك إذا كان حقّاً في نفسه، ولم يقصدْ به الإطراء، وأُمن على الممدوح الاغترارُ به. وعلى هذا يُحمل ما وقع للصحابة — رضي الله عنهم — من مَدْح بعضهم لبعض مشافهة ومكاتبة. وقد مُدِحَ النبيُّ ﷺ مشافهةً نظماً ونثراً، ومَدَح هو أيضاً جماعةً من أعيان أصحابه مشافهة، لكنَّ ذلك كلَّه إنما جاز لَمَّا صحَّت المقاصد، وأُمنت الآفاتُ المذكورة.

و(قوله: "إن كان أحدُكم مادحاً أخاه لا محالة، فليقلْ: أحسبُ فلاناً؛ إن كان يرى أنه كذلك") ظاهرُ هذا: أنه لا ينبغي للإنسان أن يمدحَ أحداً ما وَجَد من ذلك مندوحة، فإن لم يجدْ بُدّاً مَدَح لما يعلمه من

وعن أبي موسى، قال: سمع النبيُّ ﷺ رجلاً يُثني على رجل، ويطريه في المِدحة، فقال: "لقد أهلكتُم – أو قطعتم – ظهر الرجل".

وعن هَمَّام بن الحارث: أنَّ رجلاً جعل يمدح عثمان، فعمد المقداد فجثا على ركبتيه – وكان رجلا ضخماً – فجعل يحثو في وجهه الحصباء، فقال له عثمان: ما شأنك؟ فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: "إذا رأيتم المدَّاحين فاحثوا في وجوههم التُّراب".

أوصافه، وبما يظنُّه، ويتحرَّزُ من الجزم والقَطْع بشيء من ذلك، بل: يتحرَّزُ بأن يقول: فيما أحسبُ أو أظنُّ، ويزيدُ على ذلكَ: ولا أزكِّي على الله أحداً، أي: لا أقطعُ بأنه كذلك عند الله؛ فإنَّ الله تعالى هو المطَّلعُ على السَّرائر، العالمُ بعواقب الأمور.

و(قوله همَّام: إنَّ رجلاً جَعَلَ يمدحُ عثمانَ، فجعل المقدادُ يحثو في وجهه الحصباء) كأن هذا الرجل أكثر من المدح حتى صَدَق عليه انه مدَّاح، ولذلك عمل المقدادُ بظاهر ذلك الحديث، فحثا في وجهه التراب، ولعلَّ هذا الرجلَ كان ممَّن اتخذ المدحَ عادة وحرفة، فصدقَ عليه: مدَّاح، وإلا فلا يصدقُ ذلك على من مَدَح مرَّة أو مرَّتين، أو شيئاً أو شيئين. وقد بيَّن الصحابيُّ بفعله: أنَّ مراد النبيِّ من هذا الحديث: حَمْلُه على ظاهره، فعاقب المدَّاح برمي التراب في وجهه، وهو أقعدُ بالحال، وأعلمُ بالمقال. وقد تأوَّله غيرُ ذلك الصحابيِّ تأويلات؛ لأنه رأى: أنَّ ظاهرَه جفاء، والنبي ﷺ لا يأمر بالجفاء. فقيل: إنَّ معناه: خيِّبوهم، ولا تعطوهم شيئاً؛ لأن من أعْطي التراب لم يُعْطَ شيئاً، كما قد جاء في الحديث الآخر: "إذا جاء صاحب الكلب يطلبُ ثمنه فاملأ كفَّه تراباً". أي: خيبةٌ، ولا تعطه شيئاً. وقيل: إن معناه: أعطه ولا تبخل عليه؛ فإن مآلَ كلِّ ما يعطي إلى التّراب. كما قال[1]:

---

[1]– القائل هو: أبو فراس الحمداني.

باب ما جاء أنَّ أمر المسلم كلّه
له خير ولا يلدغ من جحر مرتين

عن صهيب، قال: قال رسول الله ﷺ: "عجباً لأمر المؤمن، إنَّ أمرَه كلَّه له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إنْ أصابته سرَّاء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاء صبر، وكان خيراً له".

..... وكُلُّ الذي فوق التراب ترابُ[1]

وقيل: معناه: التَّنبيه للممدوح على أن يتذكَّر أنَّ المَبدأ والمنتهى التراب فليعرضه على نفسه لئلا يعجب بالمدح، وعلى المدَّاح، لئلا يُفرط ويطري بالمدح، وأشبهُ المحامل بعد المحمل الظَّاهر الوجهُ الأول، وما بعده ليس عليه مُعَوَّل.

(قوله: "عجباً لأمْر المؤمن، إنَّ أمْرَه كلَّه له خيرٌ") المؤمن هنا: هو العالِمُ بالله، الرَّاضي بأحكامه، العامل على تصديق موعوده، وذلك: أن المؤمن المذكورَ إما أن يُبتلى بما يضرُّه، أو بما يسرُّه؛ فإن كان الأول صبر واحتسب ورضي، فحصل على خير الدنيا والآخرة وراحتهما، وإن كان الثاني عرف نعمة الله عليه، ومِنَّته فيها فشكرها، وعمل بها، فحصل على نعيم الدنيا ونعيم الآخرة.

و(قوله: "وليس ذلك إلا للمؤمن") أي: المؤمن الموصوف بما ذكرتُه؛ لأنه إن لم يكن كذلك لم يصبرْ على المصيبة ولم يحتسبها، بل: يضجَّر وتسخَّط، فينضافُ إلى مصيبته الدنيوية مصيبتُه في دينه، وكذلك لا يعرف النعمة، ولا يقومُ بحقِّها، ولا يشكرها، فتنقلب النعمة نقمة، والحسنة سيئةٌ – نعوذ بالله من ذلك –.

---

[1]– هذا عجز بيت، وصدره: إذا صحَّ منك الودُّ فالكلُّ هيّنٌ.

وعن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: "لا يُلْدَغُ المؤمنُ من جُحْرٍ واحدٍ مَرَّتين".

و(قوله ﷺ: "لا يُلدَغُ المؤمنُ من جُحْر واحد مرتين") هذا مَثَلٌ صحيح، وقولٌ بليغ ابتكره النبيُّ ﷺ من فوره، ولم يُسْمَعْ من غيره، وذلك أن السبب الذي أصدره عنه هو: أنَّ أبا عزيز بن عمير الشاعر أخا مصعب بن عمير: كان يهجو النبيَّ ﷺ ويؤذيه، ويؤذي المسلمين. فأمكن الله تعالى منه يومَ بدر. فأُخذَ أسيراً، وجيء به إلى النبي ﷺ فسأله أن يُمنَّ عليه، ولا يعود لشيء مما كان يفعله، فمنَّ النبيُّ ﷺ عليه فأطلقه. فرجعَ إلى مكّة، وعاد إلى أشدِّ مما كان عليه، فلما كان يوم أحد، أمكن الله منه، فأُسر فأُحضر بين يدي النبي ﷺ فسأله أن يمنَّ عليه، فقال له النبيُّ ﷺ: "لا يُلْدَغُ المؤمن من جُحْرٍ واحد مرتين، والله لا تسمح عارضيك بمكة أبداً". فأمر بقتله. وأصل هذا المثل: أن الذي يلدغ من جحر لا يعيدُ يده إليه أبداً، إذا كان فَطناً حذراً، بل: ولا لما يشبهه، فكذلك المؤمن لكياسته، وفَطَانته، وحَذَره إذا وقع في شيء مما يضرُّه في دينه أو دنياه لا يعودُ إليه. والروايةُ المعروفة: "لا يُلدغ" بضم الغين، وكذلك قرأته على الخبر، وهو الذي يشهدُ له سببُ الخبر ومساقه، وقد قيَّده بعضُهم بسكون الغين على النهي، وفيه بُعْدٌ.

باب اشفعوا تؤجروا ومثل الجليس الصالح والسيّئ

عن أبي موسى، قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتاه طالبُ حاجة أقبل على جلسائه فقال: "اشفعوا تُؤجروا ولْيَقْض الله على لسان نبيّه ما أحبَّ".

ومن باب: اشفعوا إليَّ تُؤْجَروا

(قوله: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه طالبُ حاجة أقبل على جلسائه فقال: "اشفعوا تؤجروا") كذا وقع هذا اللفظ "تُؤْجَرُواً" بغير فاء ولا لام، وهو مجزومٌ على جواب الأمر المضمَّن معنى الشرط، ومعناه واضح لا إشكالَ فيه، وقد رُوي "فلتؤجروا" بفاء ولام، وهكذا وجدتُه في أصل شيخنا أبي الصبر أيوب، وينبغي أن تكونَ هذه اللامُ مكسورة؛ لها لام كي، وتكون الفاءُ زائدةٌ، كما زيدتْ في قوله ﷺ: "قومُوا فلأصلِّي لكم" في بعض رواياته، وقد تقدَّم قولُ من قال: إنّ الفاء قد تأتي زائدة، ويكون معنى الحديث: اشفعوا لكي تُؤْجروا، ويُحتمل أن يقال: إنها لام الأمر، ويكون المأمورُ به التعرُّض للأجر بالاستشفاع؛ فكأنه قال: استشفعوا وتعرَّضوا بذلك للأجر، وعلى هذا فيجزُ كسرُ هذه اللام على أصل لام الأمر، ويجوزُ تخفيفُها بالسكون لأجل حركة الحرف الذي قبلها.

و(قوله: "ولْيَقْض الله على لسان نبيِّه ما أحبَّ") هكذا صحت الروايةُ هنا ولْيَقضِ باللام، وجزم الفعل بها، ولا يصحُّ أن تكون لام كي كذلك، ولا يصحُّ أيضاً أن تكون لام الأمر؛ لأنَّ الله تعالى لا يُؤمر. وكأن هذه الصِّيغة وقعتْ موقعَ الخبر كما قد جاء في بعض نسخ مسلم، ويقضي الله: على الخبر بالفعل المضارع، ومعناه واضع، وهذه الشفاعةُ المذكورةُ

وعنه؛ عن النبيِّ ﷺ قال: "إنَّما مثلُ الجليسِ الصَّالح وجليس السُّوء كحامل المسك، ونافخ الكير، فحاملُ المسك إمَّا أنْ يُحْذِيَكَ، وإمّا أن تبتاع

في الحديث هي في الحوائج والرَّغبات للسُّلطان، وذوي الأمر الجاه، كما شهد به صدرُ الحديث ومساقه، ولا يخفى ما فيها من الأجر والثواب؛ لأنها من باب صنائع المعروف، وكشف الكرب، ومعونة الضعيف؛ إذ ليس كلُّ أحد يقدر على الوصول إلى السلطان، وذوي الأمر، ولذلك كان النبيُّ ﷺ يقول – مع تواضعه وقربه من الصغير إذ كان لا يحتجب، ولا يحجب –: "أبلغوني حاجةَ من لا يستطيعُ إبلاغها" وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصيبٌ مِّنْها﴾[1] قال القاضي: ويدخل في عموم الحديث الشفاعة للمذنبين، فيما لا حدَّ فيه عند السلطان وغيره، وله قبولُ الشفاعة فيه، والعفو عنه إذا رأى ذلك كله كما له العفو عن ذلك ابتداءً. وهذا فيمن كانت منه الزَّلَّة والفلتة، وفي أهل الستر والعفاف. وأما المصرُّون على فسادهم، المستهترون في باطلهم، فلا تجزُ الشفاعةُ لأمثالهم، ولا ترك السلطان عقوبتهم ليزدجروا عن ذلك وليرتدعَ غيرُهم بما يُفْعَلُ بهم. وقد جاء الوعيدُ بالشفاعة في الحدود.

و(قوله: "إنما مثلُ جليس الصَّالح وجليس السوء") كذا وقع في بعض النسخ، وهو من باب: إضافة الشيء إلى صفته، ووقع في بعضها: "الجليس الصّالح والجليس السوءِ وهو الأفصحُ والأحسن، ثم قال بَعْدَ هذا: "كحامل المسك ونافخ الكير" هذا نحو مما يسميه أهلُ الأدب لف الخبرين، وهو نحو قول امرئ القيس:

---

[1]– سورة النساء، الآية 85.

منه، وإما أنْ تجدَ منه ريحاً طيبةً، ونافخُ الكِير، إمَّا أنْ يُحرِقَ ثيابك، وإما أنْ تجدَ ريحاً خبيثةً".

كأَنَّ قُلوبَ الطَّيرِ رَطْباً ويَابساً لدَى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البَالي

فكأنه قال: قلوب الطَير رطباً العناب، ويابساً الحشف. ومقصود هذا التمثيل: الحضُّ على صحبة العلماء، والفضلاء، وأهل الدين، وهو الذي يزيدُك نطقه علماً، وفِعْله أدباً، ونظره خشبة. والزَّجر عن مخالطة مَن هو على نقيض ذلك.

و(قوله: "فحامل المسك إما أن يحذيَك، وإما أن تبتاعَ منه") تطابقت الأخبار، واستفاضتْ على أنَّ المسكَ يجتمعُ في غدّة حيوان هو الغزال أو يشبهه فيتعفَّن في تل كالغدة حتَّى تيبس وتسقط، فتؤخذ تلك الغدة كالجليدات المحشوَّة، وتلك الجلدة هي المسماة: بفأرة المسك. والجمهور من علماء الخلف والسَّلف على طهارة المسك، وفأرته، وعلى ذلك يدلُّ استعمالُ النبيِّ ﷺ له، وثناؤه عليه، وإجازة بيعه، كما دلَّ عليه هذا الحديث. ومن المعلوم بالعادة المستمرة بين العرب والعجم استعماله، واستطابة ريحه، واستحسانه في الجاهلية والإسلام، لا يستقذره أحدٌ من العقلاء، ولا ينهى عن استعماله أحدٌ من العلماء، حتى قال القاضي أبو الفضل: نقل بعضُ أئمتنا الإجماعَ على طهارته، غير أنه قد ذكر عن العمرين كراهيته. ولا يصحُّ ذلك، فإن عمر – رضي الله عنه – قد قسم ما غنم منه بالمدينة. وقال أبو عبد الله المازري: وقال قومٌ بنجاسته، ولم يعينهم. والصحيح: القول بطهارته، وإن لم يكن مُجمعاً عليه للأحاديث الصحيحة، الدَّالة على ذلك؛ إذ قد كان النبيُّ ﷺ كثيراً ما يسمعملُه، حتى إنه كان يخرج، ووبيص المسك في مفرقه، كما قالت عائشة – رضي الله

.....

عنها - . وقد تقدم قوله: "أطيب الطيب المسك"، وغير ذلك. وقد قلنا: إنَّ أهلَ الأعصار الكريمة مُطْبِقُون على استطابته واستعمال؛ فإنْ قيل: كيف لا يكون نجساً وقد قلتم: إنَّه دم، والدمُ نجسٌ في أصله بالإجماع، وإنما يُعفَى عن اليسير منه لتعذُّر التحرِّز منه على ما هو مُفَصَّل في الفقه؟ فالجواب: إنَّا؛ وإن سلمنا أن أصلَ المسك الدم، فلا نُسلِّمُ أنه بقي عللا أصل الدموية، فإن الدَّم إذا تعفَّن تغيَّر لونُه ورائحتُه إلى ما يُسْتَقْذَر ويُسْتَخْبَث، فاستحال إلى فساد، وليس كذلك امسك؛ فإنه قذ استحال إلى صلاح يُستطاب ويُستحسن، ويُفَضَّل على أنواع كلِّ الطيب، وهذا كاستحالة الدم لبناً وبيضاً، وإن شئت حررتُ فيه قياساً فقهياً فقلت: مائع له مقرٌّ يستحيلُ فيه إلى صلاح، ويكون طاهراً كاللبن والبيض. وتكيلُ هذا القياس في مسائل الخلاف.

و(قوله: "إما أن يُحْذيَك") هو بضم الياء رباعياً من أحذيته: إذا أعطيته، وفي الصحاح: أحذيته نعلاً: إذا أعطيته نعلا، تقول منه: استحذيته فأحذاني، وأحذيته من الغنيمة: إذا أعطيته منها، والاسم: الحذيا. والكير: منفخ الحداد. والكور: المبنى الذي يُنْفَخُ فيه على النار والحديد. ويجوز أن يُعبَّر بالكير عن الكور.

باب ثواب من ابتلي بشيء من البنات وأحسن إليهن

عن عائشة، قالت: جاءتني امرأةٌ ومعها ابنتان لها، فسألتني، فلم تَجدْ عندي شيئاً غير تمرة واحدة، فأعطيتُها إيّاها، فأخَذَتْها، فَقَسَمَتْها بين ابنتيها، و لم تأكلْ منها شيئاً، ثم قامتْ فخرجتْ وابنتاها، فدخل عليَّ النَّبيُّ ﷺ، فحدَّثْتُه حديثَها، فقال النَّبيُّ ﷺ: "مَن ابتُلي مِنَ البنات بشيءٍ فأحسن إليهنَّ كُنَّ له سِتْراً من النار".

ومن باب: ثواب القيام على البنات والإحسان إليهن

(قوله: "من ابتلي بشيء من البنات فأحسن – إليهن كنَّ له سترا من النار") ابتلي: امتحن واختبر. وأحسن إليهن: صانهنَّ، وقام بما يصلحهن، ونظر في أصلح الأحوال لهن، فمن فعل ذلك، وقصد به وَجْهَ الله تعالى، عافاه الله تعالى من النَّار، وباعده منها، وهو المعبَّر عنه بالستر من النار. ولا شكَّ في أنَّ مَن لم يدخل النارُ دخل الجنَّة، وقد دلَّ على ذلك قولُه في الرواية الأخرى في المرأة التي قسمت التمرة بين بنتيها: إنَّ الله قد أوجب لها الجنة، وأعاذها من النار.

و(قوله: "بشيء من البنات") يفيدُ بحكم عمومه: أنَّ الستر من النار يحصلُ بالإحسان إلى واحدةٍ من البنات، فأما إذا عال زيادةٌ على الواحدة فيحصلُ له زيادة على الستر من النار السَّبقُ مع رسول الله ﷺ إلى الجنة، كما جاء في الحديث الآخر، وهو قوله: "من عالَ جارتين حتى تبلغا": قام عليهما بما يصلحهما ويحفظهما. يقال منه: عال الرجل عياله، يعولُهم،

وفي رواية: فأطعمتُهما ثلاثَ تَمَرات، فأعْطَتْ كلَّ واحدة منهما تمرةً، ورفعتْ إلى فيها تمرةً لتأكُلَها، فاستَطعَمَتْها ابنتاها، فشقَّت التَّمرةَ التي كانت تريدُ أن تأكلَها بينهما، فأعجبني شأنُها، فذكرتُ الذي صَنَعَتْ لرسولِ الله ﷺ فقال: "إنَّ الله قد أوجب لها بها الجنَّة"، أو: "أعتقها بها من النَّار".

وعن أنسٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: "مَنْ عال جاريتين حتى تَبْلُغا جاء يوم القيامة أنا وهو – وضَمَّ أصابِعَهُ –".

عولاً وعيالة، ويقال: علته شهراً؛ إذا كفيته معاشه. ويعني ببلوغهما وصولهما إلى حال يستقلاَّن بأنفسهما، وذلك إنما يكون في النساء، إلى أن يدخلَ بهن أزواجُهُنَّ، ولا يعني ببلوغها إلى أن تحيض وتكلّف، إذ قد تتزوَّجُ قبل ذلك فتستغني بالزوج عن قيام الكافل، وقد تحيضُ وهي غيرُ مُستقلَّة بشيءٍ من مصالحها، ولم تُركت لضاعت، وفسدتْ أحوالُها. بل: هي في هذه الحال أحقُّ بالصيانة، والقيام عليها لتكمل صيانتُها فيُرغب في تزويجها، ولهذا المعنى قال علماؤنا: لا تسقط النفقةُ عن والد الصَّبيَّة بنفس بلوغها، بل: بدخول الزَّوج بها.

باب من يموت له شيء من الولد فيحتَسِبُهم

عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: "لا يموتُ لأحدٍ من المسلمين ثلاثةٌ مِنَ الولد فَتَمَسَّه النَّارُ إلا تَحِلَّةَ القَسَم".

(قوله: "لا يموتُ لأحد من المسلمين ثلاثةٌ من الولد فتمسَّه النار...")

الولد: يقال على الذكر والأنثى بخلاف الابن، فإنه يقالُ على الذكر: ابن، وعلى الأنثى: ابنة، وقد تقيَّد مطلقُ هذه الرواية، بقوله في الرواية الأخرى: "لم يبلغوا الحنث" كما تقيَّد مطلقُ حديث أبي هريرة بحديث أبي النضر السُّلَميِّ؛ فإنه قال فيه: "لا يموتُ لأحدٍ من المسلمين ثلاثةٌ من الولد فيحتسبهم". فقوله: "لم يبلغوا الحنث" أي: التكليف. والحنث: الإثم. وإنما خصَّه بهذا الحد؛ لأنَّ الصَّغير حبُّه أشدّ، والشفقة عليه أعظم، وقيَّده بالاحتساب لما قررناه غير مرَّة: أنَّ الأجورَ على المصائب لا تحصلُ إلا بالصَّبر والاحتساب، وإنما خصَّ الولدَ بثلاثة؛ لأنَّ الثلاثة أوَّلُ مراتب الكثرة، فتعظم المصائب، فتكثر الأجور؛ فأما إذا زاد على الثلاثة فقد يخفُّ أمرُ المصيبة الزَّائدة، لأنها: كأنَّها صارت عادةً ودَيْدَناً، كما قال المتنبي:

أنْكَرْتُ طَارِقَةَ الحَوَادِثِ مَرَّةً ثُمَّ اعْتَرَفْتُ بِهَا فَصَارَتْ دَيْدَنا

وقال آخر:

رُوِّعَتُ بالبَيْنِ حَتَّى مَا أُراعَ لَهُ وبالمصائبِ في أَهلي وَجيراني

ويُحتمل أن يقال: إنما لم يذكرْ ما بعد الثلاثة؛ لأنه من باب الأحرى والأولى؛ إذْ من المعلوم: أنَّ من كثرتْ مصائبُه كثرُ ثوابُه، فاكتفي بذلك عن ذكْره، والله تعالى أعلم. وقد استشكل بعضُ الناس قوله ﷺ: "لا يموت لإحداكنَّ ثلاثةٌ من الولد إلا كانوا لها حجاباً من النار". ثم لما سئل عن اثنين، قال: "واثنين". ووجهه: أنه إذا كان حُكْم الاثنين حكم الثلاثة،

وفي رواية: "لم يبلغوا الحِنْثَ إلا تَحِلَّة القَسَم".

فلا فائدةَ لذكْر الثلاثة أوَّلاً، وهذا إنما يصدُرُ عمن يعتقدُ أنَّ دلالةَ المفهوم نصٌّ كدلالة المنظم، وليس الأمرُ كذلك، بل: هي عند القائلين بها من أضعف جهات دلالات الألفاظ، وسائر وجوه الدَّلالات مُرجَّحةٌ عليها كما بيَّنَّاه في الأصول، هذا إنْ قلنا: إنَّ أسماءَ الأعداد لها مَفْهُوم؛ فإن قد اختلفَ في ذلك القائلون بالمفهوم، وألحقوا هذا النوعَ باللَّقَب الذي لا مفهومَ له باتفاق المحقِّين، ثم إنَّ الرَّافع لهذا الإشكال أن يُقالَ: إنَّ الثوابَ على الأعمال إنما يُعْلَمُ بالوحي، فيكون الله تعالى قد أوحى إلى نبيِّه بذلك في الثلاثة، ثم إنه لما سُئل عن الاثنين أوحى الله تعالى قد أوحى الله إليه الاثنين بمثل ما أوحى إليه بالثلاثة، ولو سُئل عن الواحد لأجاب بمثل ذلك كما قد دلَّت عليه الأحاديثُ المذكورةُ في ذلك، ويُحتمل أن يقال: إنَّ ذلك بحسب شدَّة وَجْد الوالدَة، قوَّة صَبرها، فقد لا يبعدُ أن تكونَ مَنْ فقدتْ واحداً أو اثنين أشدَّ ممن فقدتْ ثلاثةٌ أو مساويةٌ لها، فتلحقُ بها في درجتها، والله تعالى أعلم.

و(قوله "إلاَّ تحلّة القسم") أي: ما يُحلَّل به القسم، وهو اليمين. وقد اختلف في هذا القسم، هل هو قسم معيَّن، أم لا؟ فالجمهورُ على أنه قسمٌ بعينه، فمنهم من قال: هو قولُه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ والشَّيَطِينَ﴾[1] وقيل: هو قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا[2]﴾. وقيل: هو قوله": ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّا﴾[3] أي: قسماً واجباً؛ كذلك فسَّره ابنُ مسعود والحسن. وأما من قالَ: لم يُعينْهُ قسمٌ بعينه، فهو ابنُ قتيبة.

---

(1)– سورة مريم، الآية 68.
(2)– سورة مريم، الآية 71.
(3)– سورة مريم، الآية 71.

وعن أبي سعيد الخدريِّ، قال: جاءت امرأةٌ إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله ! ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه، تُعَلِّمنا ممَّا علمك الله. قال: "اجْتَمِعْنَ يوم كذا وكذا" فاجْتَمَعْنَ، فأتاهُنَّ رسولُ الله ﷺ فعَلَّمَهُنَّ مما علَّمَهُ الله، ثم قال: "ما منْكُنَّ من امرأة تُقدِّمُ بين يديها من وَلَدها ثلاثةٌ إلا كانوا لها حجاباً من النَّار". فقالت امرأة منهُنَّ: واثنين،و اثنين، واثنين؟ فقال رسول الله ﷺ: "واثنين، واثنين، واثنين !".

وعن أبي حَسَّان، قال: قُلْتُ لأبي هريرة: قد مات لي ابنان فما أنت مُحَدِّثي عن رسول الله ﷺ بحديثٍ تُطَيِّبُ أنفُسنا عن موتانا؟ قال نعم !

قال معناه: التقليل لأمر ورودها. وتحلَّة القسم: تُستَعْمَلُ في هذا كلام العرب، وقيل معناه: لا تمسه النار قليلاً، ولا تلحة القسم، كما قيل في قوله:

وَكُلُّ أخٍ مُفَارقُهُ أَخُوه لَعَمْرُ أَبِيكَ إلاّ الفَرْقَدان

أي: والفرقدان، على أحد الأقوال فيه.

قال الشيخ رحمه الله: والأشبهُ: قول أبي عبيد ولبيان وجه ذلك موضعٌ آخر.

و(قوله ﷺ للنساء: "اجتمعْنَ في يوم كذا") يدلُّ على أن الإمامَ ينبغي له أن يعلِّمَ النساءَ ما يحتجن إليه من أمر أدْيانهنَّ، وأن يخصَّهنَّ بيوم مخصوصٍ لذلك، لكن في المسجد أو فيما كان في معناه حتى تؤمن الخلوة بهنَّ، فإن تمكَّن الإمامُ من ذلك بنفسه فعل، وإلا استنهض الإمامُ شيخاً يُوثَقُ بعلمه ودِيْنه لذلك حتى يقوم بهذه الوظيفة، وفي هذا الحديث ما يدلُّ على فضل نساء ذلك الوقت، وما كانوا عليه من الحرص على العلم، والحديث عن

"صغَارُهم دَعَاميصُ الجنَّة، فيلْقَى أحدُكم أباه، أو قال: أبويه، فيأخذ بثوبه. أو قال: بيده، كما آخذُ أنا بصَنَفَة ثوبك هذا، فلا يتناهى، أو قال: فلا ينتهي حتى يُدْخِلَه الله وأبويه الجنَّة".

رسول الله ﷺ، وكما قالت عائشةُ – رضي الله عنها –: نعم النساءُ نساءُ الأنصار، لم يكن يمنعهنَّ الحياءُ أن يتفقَّهن في الدِّين.

وقوله: "صغارُهم دعاميصُ الجنة") هي جمع دعموص، وهو دُويبةٌ تغوصُ في الماء، والجمع دعاميص، ودعامص. قال الأعشى:

فَما ذَنْبُنا إنْ جَاشَ بَحْرُ ابنِ عَمّكُم وبَحرُكَ سَاجٍ لاَ يُوَاري الدَّعامصا؟

ودعيميص الرمل: اسمُ رجل كان داهياً، يُضْرَب به المَثل. يقال: هو دعيميص هذا الأمر: أي: عالمٌ به.

قال الشيخ رحمه الله: هذا الذي وجدتُه في كتب اللغة، وأصحاب الغريب: أنَّ الدعموصَ دويبةٌ تغوصُ في الماء، ولا يليقُ هذا المعنى بالدعاميص المذكورين في هذا الحديث؛ إلا على معنى تشبيه صغار الجنة بتلك الدُّوبية في صغرها، أو في غوصهم في نعيم الجنة،وكلٌّ ذلك فيه بعدٌ. وقد سمعت من بعض مَن لقيتُه: أن الجعموصَ يُرادُ به الآذن على الملك، والمتصرِّف بين يديه. وأنشد لأمية بن أبي الصلت:

دُعْمُوصِ أبوابِ الملـــو ـــك وجائبٍ للْخَرْق فَاتِحْ

قال الشيخ رحمه الله: وهذا يناسبُ ما ذكره في هذا الحديث.

و(قوله: كما آخذ أنا بصَنَفَة ثوبك) هو بكسر النون. قال الجوهري: صنفة الإزار – بكسر النون –: طُرَّتُه، وهو جانبه الذي لا هدبَ له، ويقال: هي حاشيةُ الثوب أيّ جانبٍ كان، وقال غيره: صنفة الثوب وصنيفته: طرفه.

وعن أبي هريرة، قال: أتَتْ امرأةٌ النبي ﷺ بصبيٍّ لها، فقالت: يا نبي الله ! ادع الله له، فلقد دفنت ثلاثةً ! قال: "دفنتِ ثلاثةً ! قال" "دفنتِ ثلاثةً؟ !" قالت: نعم. قال: "لقد احْتَظَرْتِ بحظارٍ شديدٍ من النَّار".

و(قوله: فلا يتناهى، أو قال ينتهي حتى يدخله الله وأبيويه الجنة) أي: ما يترك ذلك. يقال: انتهى وتناهى وأنهى بمعنى ترك، وهكذا الرواية المشهورة: "أبويه" بالتثنية. وعند ابن ماهان: "أباه" بالباء بواحدة. وعند عبد الغافر: "وإياه" بالياء من تحتها، وكلٌ له وجهٌ واضح. وفي هذا الحديث ما يدلُّ على أن صغارَ أولاد المؤمنين في الجنة،و هو قول أكثر أهل العلم، وهو الذي تدلُّ عليه أخبارٌ صحيحة كثيرة، وظاهرُ قوله تعالى: ﴿والَّذينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُم ذُرِيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَتَهُمْ﴾[1]. وقد أنكر بعضُ العلماء الخلافَ فيهم، وهذا فيما عدا أولاد الأنبياء، فإنه قد تقرَّر الإجماعُ على أنهم في الجنة، حكاه أبو عبد الله المازري، وإنما الخلافُ في أولاد المشركين على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

و(قوله: "لقد احتظرت بحظارٍ ضديد من النَّار") أي: امتنعت، وأصلُ الحظر: المنع. والحِظار: ما يُدار بالبستان من عيدان وقصب، سُمِّي بذلك لأنه يمنعُ مَن يريدُ الدُّخول. والخظيرة والمحظور منه، والحظار هنا: هو الحجابُ المذكور في الحديث الآخر.

---

[1]– سورة الطور، الآية 21.

باب إذا أحبَّ الله عبداً حبَّبه إلى عباده والأرواحُ أجنادٌ...

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "إنَّ الله إذا أحبَّ عبداً دعا جبْريلَ فقال: إنّي أحبُّ فلاناً فأحبَّه ! قالَ: فيُحبَّه جبريلُ، ثمَّ ينادي في السَّماء فيقول: إنَّ اللَه يحبُّ فلاناً فأحبّوه ! فيُحبَّه أهلُ السَّماء. قال ثم يوضع له القبُولُ في الأرض. وإذا أبغض عبداً دعا جبْريلَ فيقولُ: إنّي أُبغِضُ

ومن باب: إذا أحبَّ الله عبداً حبَّبه إلى عباده، والأرواح أجناد مجندة، والمرء مع من احبَّ

قد تقدَّم: أنَّ معنى محبَّة الله لعبد: إرادة إكرامه، وإثابته.ولأعمال العباد: إثابتهم عليها، وأنَّ محبَّة الله تعالى متزَّهةٌ عن أن تكون ميلاً للمحبوب، أو شهوة؛ إذ كلُّ ذلك من صفاتنا، هي دليلٌ حدوثنا، والله تعالى مُتزَّهٌ عن كلِّ ذلك.

وأما محبة المَلَك فلا بُعْدَ في أن تكون على حقيقتها المعقولة في حقوقنا، ولا إحالة في شيءٍ من ذلك.

وإعلامُ الله تعالى جبريل، وإعلامُ جبريل الملائكة بمحبة العبد المذكور تنويهٌ به، وتشريفٌ له في ذلك الملأ الكريم، وليحصل من المترلة المنيفة على الحظِّ العظيم، وهذا من نحو قوله ﷺ حكايةٌ عن الله تعالى حيث قال: "أنا مع عبدي إذا ذكرني؛ إن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملأ خيرٍ منهم". ويجوز أن يرادَ بمحبة الملائكة: ثناؤهم عليه، واستغفارهم له، وإكرامهم له عند لقائه إياهم.

فلاناً فأبْغضْه ! قال: فيُبْغضُه جبريلُ، ثمَّ ينادي في أهل السَّماء: إنَّ الله يُبْغِضُ فلاناً فأبْغِضُوه ! قالَ: فَيُبْغِضُونَه، ثمَّ يوضع له البغضاءُ في الأرض".

وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: "الأرواحُ أجنادٌ مجنَّدةٌ؛ فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اخْتَلَف".

و(قوله: "ثم يوضع له القبولُ في الأرض") يعني بالقبول: محبة قلوب أهل الدِّين والخير له، والرِّضا به، والسُّرور بلقائه، واستطابة ذكره في حال غيبته، كما أجرى الله تعالى عادته بذلك في حقِّ الصَّالحين من سَلف هذه الأمَّة ومشاهير الأئمة. والقولُ في البغض على النقيض من القول في الحبِّ.

و(قوله: "الأرواح أجناد مجندةٌ"). قد تقدَّم القولُ في الرُّوح والنفس في كتاب الطَّهارة. معنى 'أجناد مجنَّدةٌ): أصناف مصنفة. وقيل: أجناس مختلفة. ويعني بذلك: أنَّ الأرواحَ وإن اتفقتْ في كونها أرواحاً؛ فإنَّها تتباين بأمورٍ وأحوالٍ مختلفة تتنوَّع بها فتتشاكل أشخاصُ النَّوع الواحد، وتتناسبُ بسبب ما اجتمعتْ فيه من المعنى الخاصّ لذلك النوع للمناسبة، ولذلك نشاهد أشخاص كلِّ نوعٍ تألف نوعها، وتنفر من مخالفها، ثم إنَّا نجد بعضَ أشخاص النوع الواحدِ تتآلف، وبعضها تتنافر، وذلك بحسب أمورٍ تتشاكل فيها، وأمور تتباعد فيها، كالأرواح المجبولة على الخير، والرَّحمة، والشَّفقة، والعدل، فتجد مَن جُبل على الرَّحمة يميلُ بطبعه لكلِّ من كان فيه ذلك المعنى، ويألفه، ويسكن إليه، وينفرُ ممَّن اتَّصفَ بنقيضه، وهكذا في الجفاء والقسوة، ولذلك قد شاع في كلام النَّاس: المناسبة تؤلِّف بين الأشخاص، والشكل يألف شكله، والمثل يجذب مثله. وهذا المعنى هو أحدُ ما حُمل عليه قوله ﷺ: "فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف" وعلى هذا فيكون معنى تعارف: تناسب. وقيل: إنَّ معنى ذلك هو ما تعرَّف الله به إليه من صفاته، ودلَّها عليه من لطفه وأفعاله، فكلُّ روحٍ عُرف من الآخر أنَّه تعرَّف إلى الله بمثل ما تعرَّف هو به إليه. وقال الخطَّابيُّ: هو ما خلقها الله تعالى عليه من السَّعادة والشَّقاوة في المبدأ الأول.

وفي رواية: "النَّاس معادنُ كمعادن الذَّهب والفضَّة؛ خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فَقُهُوا. والأرواح جنود..." وذكره.

باب المرء مع من أحب وفي الثناء على الرجل الصالح

عن أنس بن مالك، قال: بَيْنا أنا ورسولُ الله ﷺ خارجان من المسجد فلَقيْنا رجلاً عند سُدَّةْ المسجد، فقال: يا رسول الله ! متى الساعةُ؟ قال رسولَ الله ﷺ: "ما أعددتَ لها؟"، قال: وكأنَّ الرجل استكن، ثمَّ قال:

قال الشيخ رحمه الله: وهذان القولان راجعان إلى القول الأوَّل، فتدبَّرْهما.

ويُستفاد من هذا الحديث: أن الإنسان إذا وَجَد من نفسه نفرةٌ ممَّن له فضيلةٌ أو صلاح فتَّش على الموجب لتلك النفرة، وبحث عنه بنور العلم؛ فإنه ينكشفُ له، فيتعيَّن عليه أن يسعى في إزالة ذلك، أو في تضعيفه بالرياضة السياسية، والمجاهرة الشرعية حتى يتخلَّص من ذلك الوصف المذموم، فيميلُ لأهل الفضائل والعلوم، وكذلك القول فيما إذا وَجد ميلاً لمن فيه شرٌّ، أو وصفٌ مذموم.

وقد تقدَّم القولُ على قوله: "الناس معادن" في كتاب المناقب.

(قوله: فلقينا رجلاً عند سدّة المسجد) يعني: عند باب المسجد، والسدّة تقال على ما يسدَّ به الباب،و على المسدود الذي هو الباب.

و(قوله: فكأن الرجلَ استكان) أي: سكن تذلُّلاً.

و(قوله: ما أعددتُ لها كبيرَ صلاة، ولا صدقة) يعني بذلك: النوافل من الصلاة، والصَّدقة،و الصوم؛ لأن الفرائضَ لابُدَّ له ولغيره من

يا رسول الله ! ما أعددتُ لها كبير صلاة، ولا صيام، ولا صدقة، ولكني أحبُّ الله ورسولَه ! قال: "فأنت مع مَنْ أحببتَ".

وفي رواية: قال: "ما أعددتَ للسَّاعة؟" قال: حبَّ الله ورسوله! قال: "فإنك مع من أحببتَ". قال أنس: فما فَرِحْنا بعد الإسلام فَرَحاً أشدَّ من قول النبيِّ ﷺ: "فإنَّك مع مَنْ أحببت". قال أنس: فأنا أُحبُّ الله، ورسولَه، وأبا بكرٍ، وعمر، فأرجو أن أكونَ معهم وإن لم أعمل بأعمالهم.

فعلها، فيكون معناه أنه لم يأت منها بالكثير الذي يُعتمد عليه، ويُرتجى دخول الجنة بسببه، وهذا ظاهرُه، ويُحتمل أن يكون أراد أنَّ الذي فعله من تلك الأمور — وإن كان كثيراً — فإنه محتقرٌ بالنسبة إلى ما عنده من محبة الله تعالى ورسوله، فكأنه ظهر له: أنَّ محبةَ الله ورسوله أفضلُ الأعمال، وأعظمُ القُرَب، فجعلها عُمدته، واتخذها عُدَّته، والله تعالى أعلم.

و(قوله: "فأنت مع من أحببت") قد تكلَّمنا عليه في غير موضع.

و(قوله: ما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشدّ من قول النبيِّ ﷺ) هكذا وقع هذا اللفظ في الأصول، وفيه حذفٌ وتوسُّعٌ، تقديره: فما فرحنا فرحاً أشدَّ مِنْ فَرَحنا بقول النبيِّ ﷺ ذلك القول، وسُكت عن ذلك المحذوف للعلم به. وإنما كان فرحُهم بذلك أشدّ؛ لأنهم لم يسمعوا أن في أعمال البرِّ ما يحصلُ به ذلك المعنى من القُرب من النبيِّ ﷺ والكون معه؛ إلا حبَّ الله ورسوله، فأعظمْ بأمرٍ يُلْحقُ المقصِّرَ بالمشمِّر، والمتأخِّرَ بالمتقدم. ولما فهم أنس: أنَّ هذا اللفظَ محمولٌ على عمومه علَّق رجاءه، وحقَّق فيه ظنَّه، فقال: أنا أحبُّ الله، ورسوله، وأبا بكر، وعمر، فأرجو أن أكونَ معهم، وإن لم أعملْ بأعمالهم. الوجهُ الذي تمسَّك به أنس يشملُ من الملمين

وعن عبد الله – هو ابن مسعود – قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ! كيف ترى رجلاً أحبَّ قوماً ولَّما يلحقْ بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: "المرءُ مَعَ مَنْ أحبَّ".

وعن أبي ذرٍّ، قيل لرسول الله ﷺ: أرأيتَ الرَّجلَ يعملُ العمل من الخير ويَحمَدُه النَّاسُ عليه؟ قال: "تلك عاجلُ بشرى المؤمن".

وفي رواية: ويحبَّه الناس عليه، (بدل): يحمده.

المحبِّين كلِّ ذي نفس، فلذلك تعلَّقت أطماعُنا بذلك؛ وإن كنَّا مقصرين، ورجونا رحمةً الرحمن، وإن كنَّا غير مستأهلين.

و(قوله: أرأيتَ الرجل يعملُ العملَ من الخير ويَحْمَدُه النّاسُ عليه) يعني: الرجل الذي يعملُ العملَ الصَّالح خالصاً، ولا يريدُ إظهاره للناس؛ لأنه لو عمله ليحمدَه الناس أو يبرُّوه لكان مرائياً، ويكون ذلك العملُ باطلاً فاسداً، وإنما الله تعالى بلطفه، ورحمته، وكرمه يُعامِل المخلصين في الأعمال، الصَّادقين في الأقوال والأحوال بأنواع من اللُّطف، فيقذفُ في القلوب محبَّتهم، ويُطْلِقُ الألسنةَ بالثَّناء عليهم، لينوِّه لذكرهم في الملأ الأعلى؛ ليستغفروا لهم، وينشر طيبَ ذكرهم في الدنيا ليُقْتَدَى بهم، فيعظم أجرهم، وترتفع منازلهم، وليجعل ذلك علامة على استقامة أحوالهم، وبشرى بحسن مآلهم، وكثير ثوابهم، ولذلك قال: "تلك عاجلُ بشرى المؤمن". والله تعالى أعلم.

كتاب القدر

باب في كيفية خلق ابن آدم

عن عبد الله بن مسعودٍ، قال: حدَّثنا رسولُ الله ﷺ — وهو الصادق

كتاب القدر

وقد تقدم في كتاب الإيمان القولُ في لفظ القدر، ومعناه، واختلاف الناس فيه.

و(قوله: "إنَّ أحدَكم يُجمع خَلْقُه في بطن أمِّه أربعين يوماً") يعني — والله تعالى أعلم —: أنَّ المنيَّ يقعُ في الرحم حين انزعاجه بالقوة الشهوانية الدَّافعة مبثوثاً متفرقاً، فيجمعه الله تعالى في محلِّ الولادة من الرَّحم في هذه المدَّة. وقد جاء في بعض الحديث عن ابن مسعود — رضي الله عنه — تفسير: "يجمع في بطن أمه": أن النطفةَ إذا وقعتْ في الرحم، فأراد الله تعالى أن يخلقَ منها بشراً طارتْ في بشر المرأة تحت كلِّ ظفر وشعر، ثم تمكث أربعين ليلة، ثم تصير دماً في الرحم، فذلك جمعها، وهذا وقتُ كونها علقة، والعلق: الدم[1].

و(قوله: "ثم يكون في ذلك علقةً مثل ذلك") و"ذلك" الأول إشارة إلى المحلِّ الذي اجتمعتْ فيه النطفة، وصارتْ علقةً، و"ذلك" الثاني إشارة إلى الزَّمان الذي هو الأربعون، وكذلك القولُ في قوله: "ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك" والمضغة: قدر ما يمضغه الماضغُ من لحم أو غيره.

---

[1]— يقول الأربعة كلّ ما قيل تفسيراً لحديث رسول الله ﷺ هو من الاجتهادات الشخصية في وقتٍ لم يكن العلم قد قال الكلمة الفصل في هذا الموضوع.

المصدوق -: "إنَّ أحدَكُم يُجْمَعُ خَلْقُه في بطن أمِّه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك عَلَقَةٌ مثْلَ ذلك، ثم يكون في ذلك مُضْغَةٌ مثل ذلك، ثم يُرسِلُ الله المَلَك فينفخُ فيه الرُّوحَ، ويُؤْمَرُ بأربع كلماتٍ: بكَتْبِ رزقِه، وأجلِه، وعمله،

و(قوله: "ثم يرسل الله الملكَ فينفخُ فيه الروح") يعني: الملك الموكَّل بالرَّحم، كما قال في حديث أنس – رضي الله عنه -: "إن الله قد وكَّل بالرحم ملكاً". وظاهرُ هذا السياق: أن المَلَك عند مجيئه ينفخُ الروحَ في المضغة، وليس الأمرُ كذلك؛ بل: إنما ينفخُ الروحَ فيها بعد أن تتشكَّل تلك المضغةُ بشكل ابن آدم، وتتصوَّر بصورته، كما قال تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَمَ لَحْماً﴾[1]، وكما قال في الآية الأخرى: ﴿مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾[2]. فالمخلَّقة: المصوَّرة، غير المخلَّقة: السقط. قالَ أبو العالية وغيره: وهذا التخليقُ والتصويرُ يكون في مدة أربعين يوماً، وحينئذ يُنفخ فيه الرُّوح، وهو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً ءَاخَرَ﴾[3] في قول الحسن والكبيِّ من المفسِّرين. قال القاضي: ولم يُختلف: أن نَفْخَ الروح فيه بَعْدَ مئة وعشرين يوماً، وذلك تمام أربعة أشهر، ودخوله في الخامس، وهذا موجودٌ بالمشاهدة، وعليه يُعوَّلَ فيما يحتاجُ إليه من الأحكام في الاستلحاق عند التنازع، وفي وجوب النفقات على حَمْل المطلّقات، وذلك لتيقّنه بحركة الجنين في الجوف. وقد قيل: إنّه الحكمة في عدَّة المرأة من الوفاة بأربعة أشهر وعشر. وهذا الدخولُ في الخامسة يُحقِّق براءةَ الرحم ببلوغ هذه المدَّة إذا لم يظهَرْ حَمْلٌ. ونَفْخُ المَلَك في الصورة سببٌ يخلقُ الله عنده بها الروحَ والحياة؛ لأن النفخَ المتعارفَ إنَّما هو إخراجُ ريح من النَّافخ يتَّصل بالمنفوخ فيه، ولا يلزم منه

---

(1)– سورة المومنون، الآية 14.

(2)– سورة الحج، الآية 5.

(3)– سورة المؤمنون، الآية 14.

وشقيٌّ أو سعيدٌ، فوالذي لا إله غيره إنَّ أحدَكُم ليعملُ بعمل أهل الجنَّة حتى

عقلاً، ولا عادة في حقنا تأثير في المنفوخ فيه؛ فإن قُدِّر حدوثُ شيء عند ذلك النَّفخ، فذلك بإحداث الله تعالى لا بالنفخ، وغايةُ النفخ: أن يكونَ معدّا عاديا لا موجباً عقلياً، كذلك القولُ في سائر الأسباب المعتادة، فتأمَّل هذا الأصلَ، وتمسَّكْ به، فبه النجاةُ من مذاهب أهلِ الضلال من أهل الطَّبائع وغيرهم.

و(قوله: "ويُؤمر بأربع كلمات: بكَتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٍ أو سعيد") ظاهرُ هذا اللفظ: أنَّ الملكَ يُؤْمَر بكتب هذه الأربعة ابتداء، وليس كذلك بل: إنما يُؤمر بذلك بعد أن يَسْأَلَ عن ذلك فيقول: يا رب ! ما الرزق؟ ما الأجل؟ ما العمل؟ وهل شقيٌّ أو سعيدٌ؟ كما تضمَّنته الأحاديثُ الآتية بعْدُ، بل: قد روى يحي بن زكريا بن أبي زائدة قال: حدثنا داود، عن عامر، عن علقمة، عن ابن مسعود، وعن ابن عمر: "إن النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها ملكٌ بكفِّه، وقال: أي ربّ ! أذكرٌ أم أنثى؟ شقيٌّ أم سعيد؟ ما الأجلُ؟ ما الأثر؟ بأيِّ أرض تموت؟ فيقال له": انطلق إلى أمِّ الكتاب؛ فإنك تجدْ قصَّة هذه النطفة، فينطلق فيجد قصَّتها في أمّ الكتاب؛ فتلحق؛ فتأكل رزقها، وتطأ أثرها، فإذا جاء أجلُها قُبِضَتْ فدفنت في المكان الذي قُدِّر لها". وزاد في بعض روايات حديث ابن مسعود: "إن الملك يقول: يا رب ! مخلَّقة أو غير مخلقة؟ فإن كانت غير مخلَّقة قذفتها الأرحامُ دماً، وإن قيل: مخلَّقة قال: أي رب ! ذكر أم أنثى؟" وذكر نحو ما تقدَّم. فقوله: "إن النطفةَ إذا استقرتْ في الرحم" يعني بهذا الاستقرار: صيرورةَ النطفة علقة، ومضغة؛ لأن النطفةَ قبل ذلك غير مجتمعةٍ كما تقدَّم، فإذا اجتمعتْ، وصارتْ ماءً واحداً علقة

ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراعٌ فيَسْبق عليه الكتابُ فيعملُ بعملِ أهل النَّار فَيَدْخُلُها، وإنَّ أحَدَكُم ليعملُ بعملِ أهل النَّار حتى ما يكونُ بينه وبينها إلاّ ذراعٌ؛ فيسبق عليه الكتابُ فيعملُ بعمل أهل الجنَّة فيدخلُها".

أو مضغة باسم مبدئها، الله تعالى أعلم. ويُستفادُ من جملة ما ذكرناه أنَّ المرأة إذا ألقتْ نطفةً لم يتعلقْ بها حكمٌ، إذ لم تجتمعْ في الرحم، فتبيَّن أنها كانت حاملاً، إذ الرحم قد يدفع النطفةَ قبل استقرارها فيه، فإذا طرحته علقةً تحقَّقنا أن النطفةَ قد استقرَّتْ واجتمعتْ استحالتْ إلى أول أحوال ما يتحقَّق به أنه ولد. وعلى هذا: فيكون وضعُ العلقة فما فوقها من المضغة وَضْعَ حملٍ يبرأُ به الرحم، وتنقضي به العدَّة، ويثبتُ لها به حكمُ أم الولد، وهذتا مذهبُ مالك وأصحابه. وقال الشافعيُّ: لا اعتبارَ بإسقاط العلقة، وإنما الاعتبارُ بظهور الصُّورة والتخطيط؛ فإنْ خفي التخطيط, وكان لحماً فقولان: بالنقل والتخريج، وعمدة أصحابنا: التمسُّك بالحديث المتقدِّم، وبأنَّ مُسْقطَةَ العلقة، أو المضغة يصدقُ على المرأة إذا ألقتها أنها كانت حاملاً وضعتْ ما استقر في رحمها، فشملها قولُه تعالى: ﴿وَأُوْلَتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[1] ويصدقُ عليها قولُه ﷺ لسُبيعة الأسلمية: "قد وضعت فانكحي من شئت" ولأنها وضعت مبدأ الولد عن نطفة متجسداً كالمخطَط. واستيفاءُ ما يتعلَّقُ به سؤالاً وجواباً في الخلاف.

و(قوله: "إنَّ أحدكم ليعملُ بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبقُ عليه الكتابُ، فيعملُ بعمل أهلِ النار فيدخلها... الحديث إلى آخره") ظاهرُ هذا الحديث: أنَّ هذا العاملَ كان عملُه صحيحاً؛ وأنه قرُبَ من الجنة بسبب عمله حتى أشرفَ على دخولها، وإنّما مَنَعَهُ من دخولها سابقُ القدر الذي يظهر عند الخاتمة، وعلى هذا

---

[1]- سورة الطلاق، الآية 4.

باب السعيد في بطن أمِّه
والشقي شقيٌّ في بطن أمِّه

عن عامر بن واثلة: أنّه سمع عبد الله بن مسعود يقول: الشَّقيُّ من شقيَ في بطن أمِّه، والسعيد من وُعظ بغيره؛ فأتى رجلاً من أصحاب

فالخوف – على التحقيق – إنما هو ممَّا سبق؛ إذ لا تبديل له ولا تغيير، فإذاً: الأعمال بالسوابق، لكن لما كانت السَّوابقُ مستورةً عنا، والخاتمة ظاهرة لنا، قال ﷺ: "إنما الأعمالُ بالخواتيم" أي: عندنا، وبالنسبة إلى اطلاعنا في بعض الأشخاص، وفي بعض الأحوال. وأما العاملُ المذكور في حديث سهل المتقدِّم في الإيمان؛ فإنه لم يكنْ عملُه صحيحاً في نفسه، وإنما كان رياءً وسُمعةً، ولذلك قال ﷺ: "إن الرجل ليعملُ عملَ أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار" فيستفاد من هذا الحديث: الاجتهادُ في إخلاص الأعمال لله تعالى: والتحرك من الرِّياء. ويُستفاد من حديث ابن مسعود: ترك العُجْب بالأعمال، وترك الالتفات والركون إليها، والتعويل على كرم الله تعالى ورحمته، والاعتراف بمنَّته، كما قال ﷺ: "لن ينجيَ أحداً منكم عملُه... الحديث".

(قوله: "الشقيُّ شقي في بطن أمِّه) يعني: أنَّ أولَ مبدأ الإنسان في بطن أمه يظهرُ من حاله للملائكة، أو لمن شاء الله من خلقه ما سبق في علم الله تعالى من سعادته، ومن شقوته، ورزْقه، وأَجَله، وعمله. إذ قد سبق كَتْبُ ذلك في اللوح المَحفوظ، كما دلَّ عليه الكتاب، والأخبار الكثيرة الصَّحيحة، وكلُّ ذلك قد سبق به العلمُ الأزليُّ، والقضاءُ الإلهيُّ الذي لا يقبلُ التغيير، ولا التَّبديل، المحيطُ بكل الأمور على التعيُّن والتفصيل. ألاَ ترى الملائكةَ كيف تستخرجُ ما عند الله من علم حال النطفة، فتقول: يا رب ! ما الرزقُ؟ ما الأجل؟ فيقضي ربُّك ما شاء، أي: يُظْهرُ من قضائه وحكمه للملائكة ما سبق به عِلْمُه، وتعلَّقتْ به إرادتُه.

رسول الله ﷺ يقال له: حُذَيْفَةُ بن أَسيد الغفَاريُّ، فحدَّثَهُ بذلك من قول ابن مسعود، فقال: وكيف يشقى الرجلَ بغير عمل؟ فقال له الرجل: أتعجب من ذلك؟ فإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: "إذا مرَّ بالنُّطفة ثنتان وأربعون ليلةً بعث الله إليها ملكاً، فصوَّرها، وخلق سمعها، وبصرها، وجلدها، ولحمها، وعظامها، ثم قال: يا رب ! أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربُّك ما شاء؛ ويكتب الملك، ثُمَّ يقول: يا رب ! أجله؟ فيقضي ربُّك ما شاء، ويكتبُ الملكُ، ثم يقول: يا رب ! رزقه؟ فيقضي ربُّك ما شاء، ويكتب الملكُ، ثم يخرج المَلَك بالصحيفة في يده فلا يزيد على ما أُمِرَ به ولا ينقُص".

وفي رواية، قال: "يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلةً فيقول: يا رب ! أشقيٌّ أم سعيد؟ فيكتبان".

و(قوله: "ويكتب المَلَك") يعني من اللوح المحفوظ، كما تقدَّم في حديث يحيى بن أبي زائدة، ولذلك عطفَ هذه الجملةَ على ما تقدَّم بالواو؛ لأنها لا تقتضي رتبةً، ثم يخرجُ الملكُ بالصحيفة، أي: يخرج من حال الغيبة عن هذا العالم إلى حال مشاهدته، فيطْلِعُ الله تعالى بسبب تلك الصحيفة من شاء من الملائكة المؤكَّلين بأحواله على ذلك ليقوم كلٌّ بما عليه من وظيفته حسب ما سطّر في صحيفته.

و(قوله: "إذا مرّ بالنطفة ثنتان وأربعون، أو ثلاثة وأربعون، أو خمسة وأربعون") هذا كلُّه شكٌّ من الرواة، وحاصله: أنَّ بَعْثَ الملك المذكور في هذا الحديث إنما هو في الأربعين الرابعة التي هي مُدَّةُ التصوير، كما دلَّ على ذلك ما قدَّمناه قبل ذلك. وسمَّى المضغة نطفة بمبدئها، ألا ترى قوله: "بعث الله إليها ملكاً وصورها وخلق سمعها وبصرها، وجلْدَها, وعظامها" فعطف بالفاء المرتَّبة، وهذا لا يكون حتى تصلَ النطفةُ إلى حال نهاية المضغة، كما دلَّ عليه ما تقدَّم. وبهذا تتفقُ الرواياتُ، ويزولُ الاضطراب المتوهَّم فيها — والله أعلم -.

وفي أخرى: "إنَّ ملكاً موكلاً بالرَّحم إذا أراد الله أن يخلق شيئاً أذن الله لبضعٍ وأربعين ليلة" ثم ذكر ما تقدَّم.

رواه أحمد، ومسلم.

وعن أنس بن مالك – ورفع الحديث –: أنَّه قال: "إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد وكَّل بالرحم ملكاً فيقول: أي رب! نطفةٌ؟ أي رب! علقةٌ؟ أي رب! مضغةٌ؟ فإذا أراد الله أن يقضي خلقا قال؛ قال الملك: أي رب! ذكرٌ أم أنثى؟ شقيٌّ أو سعيدٌ؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه".

ونسبةُ الخلق والتصوير للمَلَك نسبة مجازية لا حقيقية، وإنما صَدَرَ عنه فعلُ ما في المضغة – كأنَّ عنه التصويرُ والتشكيلُ – بقدرة الله تعالى، وخَلْقه، واختراعه. ألا ترى أن الله تعالى قد أضاف إليه الخلقةَ الحقيقية، وقطع عنَّا نسب جميع الخليقة، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَكُمْ﴾[1]، وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَنَ مِن سُلَلَة مِّن طِين ۞ ثُمَّ جَعَلْنَهُ نُطْفَةً فِي قَرار مَّكِين...﴾ [2] الآية. وقال: ﴿يا أَيُّهاَ النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْب مِنَ البَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَكُم مِّن تُرَاب ثُمَّ مِن نُّطفَة...﴾ [3] الآية ، وقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ المَصِيرُ﴾[4] وغَير ذلك من الآيات. هذا مع ما دلَّت عليه قاطعاتُ البراهينَ من أنَّه لا خالقَ لشيءٍ من المخلوقات إلا ربّ العالمين.

تنبيه: هذا الترتيبُ العجيبُ، وإن خفيتْ حكمتُه، فقد لاحتْ لنا حقيقتُه، وهو أنَّه كذلك سَبَق في علْمه، وثَبَتَ في قضائه وحُكْمه، وإلا فمن الممكن أن يوجدَ الإنسان، وأصناف الحيوان، بل وجميع المخلوقات في أسرع من لحظة، وأيسر من النطق بلفظة، كيف لا؟ وقد سمع السامعون قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيءٍ إِذَآ أَرَدْنَهُ أن نَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[5].

---

(1)– سورة الأعراف، الآية 11.
(2)– سورة المؤمنون، الآية 12-13.
(3)– سورة الحج، الآية 5.
(4)– سورة التغابن، الآية 3.
(5)– سورة النحل، الآية 40.

باب كل ميسَّر لما خلق له

عن عليّ – رضي الله عنه – قال: كنَّا في جنازة في بقيع الغرقد فأَتانا رسولُ الله ﷺ، فقعد، وقعدنا حوله، ومعه مِخْصرةٌ، فنَكَّسَ، فجعل يَنْكُتُ بمِخْصَرَته، ثُمَّ قال: "ما مِنْكُم مِنْ أحد، ما مِنْ نفسٍ منفوسة إلا وقد كتبَ اللهُ مكانها من الجنَّة والنَّار، إلا وقد كُتِبَتْ شقيةٌ أو سعيدةٌ"، قال: فقال رجل: يا رسول الله ! أفلا نمكثُ على كتابنا وندع العملَ؟ فقال: "من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، وأمَّا أهل الشَّقاوة فَيُيَسَّرون لعمل أهل الشَّقاوة"، ثم قرأ: ﴿فأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۞ وصَدَّقَ بالحُسْنَى ۞ فسَنُيَسِّرُهُ لليُسْرَى ۞ وَأَمَّا مَن بَخِلَ واسْتَغْنى ۞ وكَذَّبَ بالحُسْنَى ۞ فسنُيَسِّرُهُ للْعُسرَى﴾ .

ومن باب: قوله ﷺ: "كلٌّ ميسَّرٌ لما خُلِقَ له"

بقيع الغرقد: مدفن أهل المدينة، وقد تقدَّم ذكره. والمخصرة: قضيب كان يمسكه بيده في بعض الأحوال على عادة رؤساء العرب؛ فإنهم يُمْسكُونها ويشيرون بها، ويصلون بها كلامه. وجمعها مخاصر، والفعل منها: تخصَّر. حكاه ابن قتيبة. والنَّكْت بها في الأرض: تحريك الأرض بها، وهذا فعلُ المتفكِّر المعتبر.

و(قوله: أفلا نمكث على كتابنا ونَدَعُ العمل؟ وفي الرواية الأخرى: أفلا نتكل على كتابنا؟) حاصلُ هذا السؤال أنه إذا وجبت السعادةُ والشقاوة بالقضاء الأزليِّ، والقَدَر الإلهيِّ، فلا فائدة للتكليف، ولا حاجة بنا إلى العمل فنتركه، وهذه أعظمُ شُبَه النَّافين للقَدَر. وقد أجابهم النَّبيُّ ﷺ بما لا يبقى معه إشكال، فقال: "اعملوا فكلٌّ ميسَّر لما خلق له" ثم قرأ:

وفي رواية: أفلا نتَّكِلُ (مكان) نمكث؟ قال: "اعملوا فكلّ مُيسَّرٌ لما خُلِقَ له"، ثم قرأ الآية.

وعن جابر، قال: جاء سراقة بن مالك بن جُعشم قال: يا رسول الله ! بيِّن لنا ديننا كأنَّا خلقنا الآن؛ فيمَ العمل اليوم؟ أفيما جفَّت به الأقلام، وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل قال: "لا ! بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير". قال: ففيم العمل؟ فقال: "اعملوا فكلٌّ مُيسَّر".

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى ۞ وصَدَّقَ بالحُسْنَى..﴾ [1] الآيات، ووجه الانفصال: أن الله تعالى أمرنا بالعمل، فلا بُدَّ من امتثال أمره، وغيَّب عنا المقاديرَ لقيام حجَّته وزجره. ونصب الأعمال علامةً على ما سبق في مشيئته، وحكمته، وعزّه ﴿لاَ يُسئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لا يبقى معها لقائل مقول، وقهر ﴿وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾[2] يخضع له المتكبرون. وقد بينا فيما تقدَّم أن موردَ التكليف: فعل الاختيار، وأن ذلك ليس مناقضاً لما سبقت به الأقدار.

وقوله: ﴿فأما من أعطى﴾ أي: الفضل من ماله. ابن عباس: حق الله تعالى. الحسن: الصِّدق من قلبه. و﴿اتقى﴾ أي: ربّه. ابن عباس وقتادة: محارمه. مجاهد: البخل. ﴿وصدَّق بالحسنى﴾ أي: الكلمة الحسنى؛ وهي كلمةُ التوحيد. الضحَّاك: بموعود الله. قتادة. بالصلاة والزكاة والصوم. زيد بن أسلم. ﴿فسنيسره﴾ أي: نهوِّن عليه ونُهيِّئه ﴿لليسرى﴾ أي: للحالة اليسرى من العمل الصَّالح والخير الرَّاجح. وقيل: الجنة. ﴿وأما من بخل﴾ أي: بماله: ابن عباس. وقال قتادة: بحقّ الله. و﴿استغنى﴾ بماله: عن الحسن. ابن عباس: عن ربِّه. ﴿وكذب بالحسنى﴾ أي: بالجنة. و﴿العسرى﴾: نقيض ما تقدم في اليسرى. و﴿تردى﴾: هلك بالجهل والكفر، وفي الآخرة بعذاب الله.

---

[1]– سورة الليل، الآية 5-6.

[2]– سورة الأنبياء، الآية 23.

وفي أخرى فقال: "كلٌّ عاملٌ ميسرٌ لعمله".

و(قوله سُراقة: بيِّن لنا ديننا كأنا خُلقنا الآن) أي: بيِّن لنا أصلَ ديننا، أي: ما نعتقده وندينُ به من حال أَعمالنا، هل سبق بها قَدَرٌ أم لا؟ وقوله: كأنا خُلقنا الآن يعني أنهم غير عالمين بهذه المسألة، فكأنهم خُلِقُوا الآن بالنّسبة إلى عملها، وفائدته: استدعاء أوضح البيان.

و(قوله: فيم العمل اليوم؟) أي: فيما جفَّت به الأقلام، هكذا صحيحُ الرواية. فيم الأول: بغير ألف؛ لأنها استفهامية. والثانية: بألف، لأنها خبرية. وقد وقع في بعض النسخ بالعكس، والأول الصَّواب. ومُقتضى هذا السؤال: أن ما يصدر عنَّا من الأعمال، وما يترتَّب عليها من الثواب والعقاب، هل سبق علمُ الله تعالى بوقوعه، فنفذتْ به مشيئتُه؟ أو ليس كذلك؟ وإنما أفعالنا صادرة عنا بقدرتنا ومشيئتنا،و الثوابُ والعقابُ مرتَّبٌ عليها بحسبها؟ وهذا القسم الثاني هو مذهبُ القدرية، وقد أبطل النبيُّ ﷺ هذا القسم بقوله: "لا، بل فيما جفَّتْ به الأقلام، وجرتْ به المقادير". أي: ليس الأمرُ مستأنفاً، بل قد سبق به علمُ الله، ونفذتْ به مشيئتُه، وجفتْ به أقلامُ الكتبة في اللوح المحفوظ، وفي صحف الملائكة المكتوبة في البطن، بل: قد نُصَّ على هذا في حديث عمران بن حصين المذكور بعد هذا. وأنصُّ من هذا كلّه ما خرَّجه الترمذيُّ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص — رضي الله عنهما — قال: خرج علينا رسولُ الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال للَّذي في يده اليمنى: "هذا كتابٌ من ربِّ العالمين. فيه أسماءُ أهل الجنة، وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أُجْمِلَ[1] على آخرهم، فلا يُزاد فيهم، ولا ينقص منهم أبداً". وأسماء آبائهم، وقَبائلهم، ثم أُجْمِلَ على آخرهم، فلا يُزاد فيهم، ولا ينقص

---

[1]— "أجملت الحساب": إذا جمعت آحاده، وكملت أفراده، أي: أحصوا وجمعوا.

وعن عمران بن حصين، قال: قيل لرسول الله: أعُلِمَ أهلِ الجنة من أهل النار. قال: "نعم". فقال: ففيم يعمل العاملون؟ قال: "كلٌ ميسرٌ لما خُلِق له".

باب في قوله تعالى: ﴿ونَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فأَلْهمَهَا فُجُورهَا وتَقْوَهَا﴾

وعن أبي الأسود الدؤلي، قال: قال لي عِمْرانُ بن الحُصَيْن: أرأيتَ ما يعمل النَّاسُ اليوم ويكْدَحُون فيه؛ أشيءٌ قُضِي عليهم، ومضى عليهم من

منهم أبداً". ثم رمى بهما، وقال: "فَرَغ ربُّكم من العباد، فريق في الجنة، وفريق في السعير". قال: هذا حديث حسن صحيح.

والأحاديثُ في هذا الباب كثيرة صحيحةٌ، يفيد مجموعها العلم القطعي واليقين الحقيقي الاضطراري بإبطال مذاهب القدرية، لكنَّهم عابوا في ذلك كله وردُّوه، وتأوَّلوا ذلك تأويلاً فاسداً، وموَّهوه للأصول التي ارتكبوها من التحسين، والتقبيح، والتعديل، والتجويز، والقول بتأثير القدرة الحادثة على جهة الاستقلال، وقد تكلَّم أئمةُ أهل السُّنَّة معهم في هذه الأصول، وبيَّنوا فسادَها في كُتُبهم.

و(قوله: فيم العمل؟) هذا السؤالُ: هو الأوَّل الذي تضمَّنه قوله: أفلا نمكثُ على كتابنا، وندَعُ العمل؟ وقد بيَّناه.

* * *

قوله: (أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه) الكَدْح: السعي في العمل لِدُنيا كان أو لآخرة، وأصله: العمل الشاق، والكسب المتعب.

قَدَر ما سبق؛ أو فيما يُسْتَقْبَلُون به مما أتاهم به نبيُّهم، وثبتت الحجَّةُ عليهم؟ فقُلتُ: بل شيءٌ قُضيَ عليهم، ومضى عليهم. قال: فقال: فلا يكونُ ظلماً؟ ! قال: ففزِعْتُ من ذلك فَزَعاً شديدا.. وقلت: كلُّ شيءٍ خَلْقُ الله، ومِلْكُ يده، فَلا يُسألُ عمَّا يفعلُ، وهم يسألون ! فقال لي: يرحمك الله ! إنّي لم أُردْ بما سألتك غلا لأحْزِرَ عَقْلَكَ ! إنَّ رجلين من مُزَيْنَة أتَيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله ! أرأيت ما يعمل النَّاس اليوم ويكدحُون فيه؛ أشيءٌ قُضِيَ عليهم، ومضى فيهم من قَدَرٍ قد سبق، أو فيما

و(قوله: فلا يكون ظلماً؟) كذا الرواية بغير ألف استفهام، وهي مرادة؛ إذ بالاستفهام حَصَل فزعُ المسؤول، وبه صحَّ أن يكون ما أتى به من قوله: كل شيء خَلْقُ الله ومُلْك يده... إلى آخره. جواباً عما سأله عنه، ولو لم يكن الاستفهام مراداً لكان الكلامُ نفياً للظلم،و هو صحيحٌ وحقٌّ، ولا يفزعُ من ذلك، ولا يستدعي جواباً. وبيانُ ما سأله عنه أنه لما تقرَّر عنده: أن ما يعمل الناسُ فيه شيءٌ قُضي به عليهم، ولابُدَّ لهم منه، فكأنهم يلجؤون إليه، فكيف يُعاقَبُون على ذلك؟ فعقابُهم على ذلك ظلم، وهذه من شُبَه القدرية المبنيَّة على التَّحسين والتَّقبيح، وقد أجاب عن ذلك أبو الأسود، وأحسن في الجواب، ومقتضى الجواب: أن الظلمَ لا يُتصوَّر في حقِّه الظلمُ لاستحالة شرطه، على ما بيَّناه غير مرة، ثم عضد بقوله: لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، ولما سمع عمران هذا الجوابَ تحقَّق: أنه قد وُفِّق للحق، وأصاب عينَ الصواب، فاستحسن ذلك منه، وأخبره أنه إنما امتحنه بذلك السؤال ليختبرَ عقله، وليستخرج عمله ثم أفاده الحديث المذكور،و معناه قد تقدم الكلام عليه. ثم قال: وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[1]، وقوله: ﴿ونفس﴾ هو قسمٌ بنفوس بني آدم، وأفرجها، لأنَّ مُرادَه النوع، وهذا نحو

---

[1]– سورة الشمس، الآية 7-8.

يستقبلون به مما أتاهم به نبيُّهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: "لا، بل شيءٌ قضي عليهم، ومضى فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَهَا﴾ .

قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾[1] أي: كلّ نفس. كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[2]. ألا ترى قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[3] أي: حَمَلها على ما أراد من ذلك، فمنها ما خُلق للخير، وأعانها عليه ويسَّره لها، ومنها ما خُلق للشر ويسَّره لها، وهذا هو الموافقُ للحديث المتقدم، المصدَّق بالآية.

و(قوله: ﴿وما سواها﴾ أي: والذي سواها،وقد قدمنا انَّ ما في أصلها لما لا يعقل، وقد تجيء بمعنى الذي، وهي تقعُ لمن يعقلُ ولما لا يعقل. والتسوية: التعديل. يعني: أنه خلقها مكمَّلة بكل ما تحتاجُ إليه، مؤهَّلة لقبول الخير والشر، غير أنه يجري عليها في حال وجودها وما لها ما سبق لها مما قضي به عليها. وفي حديث عمران هذا من الفقه جوازُ اختبار العالم عقولَ أصحابه الفضلاء بمشكلات المسائل، والثناء عليهم إذا أصابوا، وبيان العذر عن ذلك، والذي قضي عليها: أنها غما من أهل السعادة وبعمل أهل السعادة الذي به تُخل الجنة تعمل، وإما من أهل الشقاوة وبعمل أهل الشقاوة الذي به تُدخل النار تعمل. كما قال تعالى: "هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون، فطوبى لمن قضيتُ له بالخير، ويسَّرته عليه، والويلُ لمن قضيتُ عليه بالشرِّ، ويسَّرته له". وما أحسن قول من قال: قِسَمٌ قُسِمَتْ، ونعوت

---

(1)– سورة الانفطار، الآية 5.
(2)– سورة المدثر، الآية 38.
(3)– سورة الشمس، الآية 8.

باب الأعمال بالخواتيم

عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: "إنَّ الرجل ليَعْمَلُ الزمنَ الطويلَ بعمل أهل الجنَّة، ثم يُختَم له عملُه بعمل أهل النَّار، وإنَّ الرجل ليَعْمَلُ الزَّمنَ الطويل بعمل أهل النار، ثم يُختَمُ له بعمل أهل الجنة".

وقد تقدم حديث سهل بن سعد الساعدي في كتاب الإيمان.

أُجريت، كَيْفَ تُجْتَلَبُ بحَرَكات، أو تُنال بسعايات؟ ! ومع ذلك فغيَّب الله عنَّا المقادير، ومكَّننا من الفعل والتَّرْك رفعاً للمعاذير، وخاطبنا بالأمر والنهي خطابَ المستقلين، ولم يجعل التمسُّك بسابق القدر حجةً للمقصرين، ولا عذراً لمعتذرين، وعلَّق الجزاء على الأعمال، وجعلَها له سبباً، فقال تعالى: ﴿وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بَمَا كَسَبَتْ﴾[1]، وبـ ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾[2]، وقال في أهل الجنة: ﴿جَزَاءً بما كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3]، وقال في أهلِ النار: ﴿جَزَاءَ بمَا كَانُوا بئَايَاتنا يَجْحدُونَ﴾[4]، وقال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذينَ أَسَئُوا بمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذينَ أَحْسَنُوا بالحُسْنَى﴾[5]، وقالَ على لسان نبيِّه ﷺ: "يا عبادي ! إنما هي أعمالكم أَردُّها عليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجدَ الأخرى، فلا يلومنَّ إلا نفسَه؟". وكل ذل من الله ابتلاء وامتحان، فيجب التسليم له والإذعان.

---

(1)– سورة الجاثية، الآية 22.
(2)– سورة النحل، الآية 111.
(3)– سورة السجدة، الآية 17.
(4)– سورة فصلت، الآية 28.
(5)– سورة النجم، الآية 31.

باب ذكر محاجَّة آدم موسى – عليهما السلام –

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "احتجَّ آدمُ وموسى عند ربِّهما، فحجَّ آدمُ موسى. قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسْجَدَ لك ملائكتَه، وأسكنكَ في جنَّته، ثم أَهْبَطْتَ

ومن باب: مُحاجَّة آدم وموسى – عليهما السلام –

(قوله: "احتجَّ آدمُ وموسى عند ربهما") ظاهر هذا اللفظ، وهذه المحاجَّة أنهما التقيا بأشخاصهما، وهذا كما قرَّرناه فيم تقدَّم في الأنبياء من أحيائهم بعد الموت كالشهداء، بل: هو أولى بذلك، ويجوز أن يكون ذلك لقاءَ أرواح، وقد قال بكلٍّ قولٍ منهما طائفة من علمائنا، وهذه العنديَّة عندية اختصاص، وتشريف، لا عنديَّة مكان، فإنَّه تعالى منزَّه عن المكان والزمان، وإنما هي كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[1] أي: في محلِّ التشريف والإكرام والاختصاص. وروى هذا الحديث بعضُهم، وزاد فيه: إن هذا اللقاء كان بعد أن سألَ موسى، فقال: يا ربِّ! أرنا آدمَ الذي أخرجَه ونفسَه من الجنَّة، فأراه الله إيَّاه، فقال: أنتَ آدمَ؟ فقال: نعم. وذكر الحديث.

و(قوله: "فحجَّ آدمُ موسى") أي: غلبَه بالحجَّة. يُقال: حاججت فلاناً فحججتُه، أي: غلبتُه.

و(قوله: "أنت آدم الذي خلقك الله بيده") هو استفهام تقرير، وإضافة الله خلقَ آدم إلى يده إضافةُ تشريف، ويصحُّ أن يُراد باليد هنا: القدرة والنعمة، إذ كلاهما موجود في اللسان مستعملٌ فيه، فأما يد الجارحة فالله منزَّه عن ذلك قطعاً.

---

[1]– سورة القمر، الآية 54-55.

الناس بخطيئتك إلى الأرض؟ فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك برسالته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيانُ كلِّ شيءٍ، وقرَّبك نجيّاً؛ فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاماً. قال آدم: فهل وجدت فيها: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ قال: نعم. قال:

و(قوله: "ونفخ فيك من روحه") يحتمل أن تكون (من) زائدة على المذهب الكوفيِّ. ونفخ: بمعنى خلقَ، أي: خلقَ فيك روحَه، فأضاف الروح إليه على جهة الملك تخصيصاً وتشريفاً، كما قال: بيتي، وعبادي. واستعار لـــ (خلق): نفخ؛ لن الروحَ من نوع الريح، ويحتمل تأويلاً آخر، والله بمراده أعلم، والتسليم للمتشابهات أسلم، هي طريقة السَّلف، وأهل الاقتداء من الخلف.

و(قوله في الأم: "أنت الذي خيبتنا، وأخرجتنا من الجنَّة") أي: كنت سبب ذلك كله، وقال في رواية أخرى: "أنت الذي أغويت الناس" أي: كنت سببَ غواية مَن غوى منهم، والغواية ضد الرشد، كما قال الله تعالى: ﴿قَد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾[1] ، وقد يُراد بها الخطأ،وعليها يُحمل: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[2]، أي: أخطأ صوابَ ما أُمر به، وهذا أحسنُ ما قيل في ذلك — إن شاء الله -.

و(قوله: "وأعطاكَ الألواحَ فيها تبيانُ كل شيء") يعني: الألواح التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[3]، وهي جمع لوح بفتح اللام، وسُمِّي بمصدر لاحَ الشيءُ يلوحُ لَوْحاً: إذا ظهرَ، وسُمِّي بذلك لظهور ما يُكتب فيه. فأمَّا اللُّوح — بضمِّ الام -: فهو ما بين السماء

---

(1)— سورة البقرة، الآية 236.

(2)— سورة طه، الآية 121.

(3)— سورة الأعراف، الآية 145.

أفتلومني على أن عملْتُ عملاً كتبه الله عليَّ أنْ أعملَه قبل أن يخلقني بأربعين سَنَةٌ؟ قال رسول الله ﷺ: "فحجَّ آدمُ موسى".

السماء والأرض. قال مجاهد: كانت الألواح سبعة من زمرُّدة خضراء. وقال ابن جُبير: من ياقوتة حمراء. ومعنى كتبنا: أمرنا من يكتب، أو خلقَ فيها قوماً وخطوطاً مكتوبة مثل الذي يُكتب بالأقلام. وبقوله: ﴿فيها تبيانُ كلِّ شيءٍ﴾ أي: كل شيء قُصِد إلى تبيينه، أو من كلِّ نوعٍ شيئاً، أو من كلِّ أصلٍ فرعاً.

و(قوله: "وقرَّبك نجيّا") أي: للمناجاة وهي: السمارَّة. والتقريب: بالمرتبة، لا بالموضع والمكان.

و(قوله: "أفتلومني على أن عملتُ عملاً كتبَه الله عليَّ قبلَ أن يخلقني بأربعين سنة"). قال: فحجَّ آدَمُ موسى" ظاهر هذا أنَّ آدمَ إنما غلبَ موسى بالحجة؛ لأنه اعتذر بما سبق له من القدر عما صدرَ عنه من المخالفة، وقُبل عذرُه، وقامت بذلك حجَّته؛ فإن صحَّ هذا لزمَ عليه أن يحتجَّ به كلُّ من عصى ويعتذرُ بذلك فيُقبل عذرُه، وتثبت حجته، فحينئذ تكون للعصاة على الله حجَّة، وهو مناقص لقوله تعالى: ﴿فَلِلَّه الحُجَّةُ البَالغَةُ﴾[1] وقد اختلفَ العلماء في تأويل هذا الحديث فقيل: إما غَلبَه آدمُ بالحَجة؛ لأن آدمَ أبو موسى، وموسى ابن، ولا يجوز لوم البن أباه، ولا عتبه.

قال الشيخ رحمه الله: وهذا نأيٌ عن معنى الحديث، وعما سيق له، وقيل: إنما كان ذلك؛ لأن موسى قد كان علم من التوراة: أن الله تعالى قد جعلَ تلك الأكلةَ سببَ إهباطه من الجنَّة، وسكناه الأرض، ونشر نسله فيها ليكلِّفهم، ويمتحنَهم، ويُرتِّب على ذلك ثوابَهم وعقابهم الأخروي.

---

[1]- سورة الأنعام، الآية 149.

باب كَتَب الله المقاديرَ قبل الخلق وكلُّ شيء بقدر

عن عبد الله بنِ عمرو بنِ العاص، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

قال الشيخ رحمه الله: وهذا إبداء حكمة تلك الأكلة، ولا انفصال عن إلزام تلك الحجَّة، والسؤال باقٍ لم ينفصلْ عنه. وقيل: إنما توجهت حجته عليه؛ لأنه قد علم من التوراة ما ذكروا: أنَّ الله تابَ عليه، واجتباه، وأسقط عنه اللَّوْمَ والعتبَ. فلومُ موسى، وعتبُه له — مع علمه بأن الله تعالى قدَّر المعصية، وقضى بالتوبة، وبإسقاط اللَّوْم، والمعاتبة حتى صارت تلك المعصية كأن لم تكن —ر فع في غير محلِّه، وعلى غير مُستحقِّه، وكان هذا من موسى نسبة جفاء في حالة صفاء، كما قال بعض أرباب الإشارات: ذكر الجفاء في حال الصفاء جفاءٌ، وهذا الوجهُ إن شاء الله أشبه ما ذكر، وبه يتبيَّن أن ذلك الإلزام لا يلزم، والله أعلم.

(قوله: "كتب الله مقاديرَ الخلائق قبل أن يخلقَ السموات والأرض بخمسين ألف سنة") أي: أثبتها في اللَّوح المحفوظ، كما قلناه آنفا، أو فيما شاء، فهو توقيتٌ للكتب، لا للمقادير؛ لأنها راجعة إلى علم الله تعالى وإرادته، وذلك قديم لا أوَّل له، ويستحيل عليه تقديره بالزمان؛ إذ الحقُّ سبحانه وتعالى بصفاته موجود، ولا زمانَ ولا مكان، وهذه الخمسون ألف سنة ستونٌ تقديرية؛ إذ قبل خلق السموات لا يتحقَّق وجود الزمان؛ فإن الزمانَ الذي يُعبَّر عنه بالسنين والأيام والليالي؛ إنما هو راجع إلى أعداد حركات الأفلاك، وسير الشمس، والقمر في المنازل والبروج السماوية، فقبلَ السموات لا يُوجد ذلك، وإنما يرجعُ ذلك إلى مدَّة في علم الله تعالى لو كانت السموات موجودة فيها لعدّدت بذلك العدد، وهذا نحو مما قاله

"كتبَ الله مقاديرَ الخلائق قبل أن يَخْلُق السموات والأرضَ بخمسين ألف سنةٍ. قال: وعرشه على الماء".

المفسرون في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[1]، أي: في مقدار ستة أيام، ثم هذه الأيام كل يوم منها مقدار ألف سنة من سني الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[2]، وكقوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[3] هذا قولٌ ابن عباس وغيره من سلف المفسرين على ما رواه الطبريُّ في تاريخه عنهم، ويحتمل أن يكون ذكر الخمسين ألفاً جاء مجيء الإغياء في التكثير،و لم يُرِدْ غينَ ذلك العدد، فكأنه قال: كتبَ الله مقادير الخلائق قبل خلق هذا العالم بآماد كثيرة، وأزمان عديدة، وهذا نحو مما قلناه في قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾[4]، والأول: أظهر وأولى.

و(قوله: "وعرشه على الماء") أي: قبل خلق السموات والأرض. حكي عن كعب الأحبار: أن أوَّلَ ما خلقَ الله تعالى ياقوتة خضراء، فنظرَ إليها بإلهيته فصارتْ ماءً، ثم وضعَ عرشَه على الماء. قال ابنُ عبَّاس في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾[5] أي: فوقَ الماء؛ إذ لم يكن سماء ولا أرض.

قال الشيخ رحمه الله: أقوال المفسرين كثيرة، والمسند المرفوع منها قليل، وكلُّ ذلك ممكن، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك. والذي نعلمُه قطعاً: أن الله تعالى قديم، لا أوَّلَ لوجوده، فكانَ موجوداً وحدَه، ولا موجودَ سواه،

---

(1)– سورة الأعراف، الآية 54.
(2)– سورة الحج، الآية 47.
(3)– سورة السجدة، الآية 8.
(4)– سورة التوبة، الآية 80.
(5)– سورة هود، الآية 7.

وعن طاووس، أنَّه قال: أدركتُ ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كلُّ شيءٍ بقدر. قال: وسمعت عبدَ الله بنَ عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: "كلُّ شيءٍ بقَدَرٍ حتى العَجْزُ والكَيْسُ" أو: "الكيسُ والعَجْزُ".

ثم اخترعَ بقدرته وإرادته ما سبقَ في علمه،و نفذت به مشيئته، كما شاءَ، ومتى شاء، والذي نعلمُ استحالتَه قطعاً: أزليَّة شيءٍ غير الله تعالى من عرشٍ، أو كرسيٍّ، أو ماءٍ، أو هواءٍ، أو أرضٍ، أو سماءٍ؛ إذ كلُّ ذلك ممكنن ف ينفسه، وكلُّ موجود ممكنٍ محدَث؛ ولأن كلذَ ذلك لا يخلو عن الحوادث، وما لا يخلو عن الحوادث حادث على ما تُعرف حقيقته في موضعه؛ ولأنه المعلوم الضروريّ من الشرع، فمن شكَّ فيه، أو جحدَه فهو كافر، ومما يُعلم استحالته: كون العرش حاملاً لله تعال، وأن الله تعالى مستقر عليه كاستقرار الأجسام؛ إذ لو كان محملاً لكان محتاجاً فقيراً لما يحملُه، وذلك يُنافي وصف الإلهية؛ إذ أخصُّ أوصاف الإلاهة الاستغناء المطلق، ولو كان ذلك للزم كونه جسماً مقدَّرا، ويلزمُ كونه حادثاً على ما سبقَ؛ فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى﴾[1]. قيل: له محامل واضحة، وتأويلات صحيحة، غير أن الشرعَ لم يُعيِّن لنا محملاً من تلك المحامل فيتوقف في التعيين ويُسلك مسلك السلف لاصالح في التسليم.

و(قوله: "كلُّ شيءٍ بقدر، حتى العجزُ والكيْسُ") قيَّدناه بكسر الزاي والسين وضمّهما. و(حتى) هي العاطفة، والرفع عطف على كل، والخفض على شيءٍ. والكَيْسُ: - بفتح الكاف – لا يجوزُ غيره، ومعنى هذا الحديث: أن ما من شيءٍ يقعُ في هذا الوجود كائناً كان إلا وقد سبق

---

[1]– سورة طه، الآية 8.

وعن أبي هريرة، قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسولَ الله ﷺ في القَدَر، فنزلَتْ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّار عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۞ إنّا كُلَّ شيءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

به علمُ الله تعالى، ومشيئته؛ سواءٌ كان ممن أفعالنا، أو صفاتنا، أو من غيرها، ولذلك أتى بـ "كل" التي هي للاستغراق، والإحاطة، وعقَّبها بحتى التي للغاية، حتى لا يخرج عن تلك المقدِّمة الكلِّية من الممكنات شيءٌ، ولا يتوهَّم فيها تخصيص، وإنما جُعل العجزُ والكيسُ غايةً لذلك ليبيِّن أنَّ أفعالنا، وإن كانت معلومةً، ومرادةً لنا، فلا تقع منا إلا بمشيئة الله تعالى، وإرادته وقدرته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ﴾[1]، وصار هذا من نحو قول العرب: قدم الحاج حتى المشاة. فيكون معناه: أن كلَّ ما يقعُ في الوجود بقدر الله ومشيئته، حتى ما يقع منكم بمشيئتكم. والعجز: التثاقلُ عن المصالح حتى لا تحصل، أو تحصل لكن على غير الوجه المرضي. والكيس: نقض ذلك، وهو الجِدُّ والتشمير في تحصيل المصالح على وجوهها، والعجزُ في أصله: معنى من المعاني مناقضٌ للقدرة، وكلاهما من الصِّفات المتعلِّقات بالممكنات على ما يُعرف في علم الكلام.

* * *

---

[1]- سورة الانسان، الآية 30.

باب تصريف الله تعالى القلوبَ
وكتب على ابن آدم حظه من الزنى

عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: "إنَّ قلوبَ بني آدم كلَّها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد؛ يُصَرِّفه حيث يشاء"، ثم قال رسول الله ﷺ: اللهم مُصَرِّفَ القلوب صرِّفْ قلوبنا إلى طاعتك".

(قوله: "قلوب بني آدم بين إصْبَعَيْن من أصابع الرحمن كقلب واحد، يُصَرِّفه كيف يشاء") ظاهرُ الإصبع محالٌ على الله تعالى قطعاً لما قلناه آنفاً؛ ولأنه لو كانت له أعضاء وجوارح؛ لكان كلُّ جزء منه مفتقراً للآخر، فتكون جملتُه محتاجة، وذلك يناقضُ الإلهية، وقد تأوَّل بعضُ أئمتنا هذا الحديثَ فقال: هذا استعارةٌ جاريةٌ مجرى قولهم: فلان في كفِّي، وفي قبضتي. يراد به: أنه متمكنٌ من التصرُّف فيه، والتصريف له كيف شاء، وأمكن من ذلك في المعنى، مع إفادة التيسير أن يقالَ: فلان بين إصبعيَّ، أصرفه كيف شئت. يعني: أن التصرُّفَ مُتيسِّرٌ عليه غيرُ متعذِّر. وقال بعضهم: يحتمل أن يريد بالإصبع هنا النعمة. وحُكي أنه يقالُ: لفلان عندي إصبعٌ حسنة، أي: نعمة. كما قيل في اليد. فإن قيل: فلأي شيءٍ ثنَّى الإصبع، ونعمه كثيرة لا تُحصى؟ قلنا: لأن النعمَ، وإن كانتْ كذلك، فهي قسمان: نفع ودفع، فكأنه قال: قلوبُ بني آدم بين أن يَصْرِفَ الله عنها ضرّاً، وبين أن يوصل إليها نفعاً.

قال الشيخ رحمه الله: وهذا لا يتمُّ حتى يقال: إنَّ بني آدم — هنا — يراد بهم الصَّالحون؛ الذين تولى الله حفظَ قلوبهم. وأما الكفار والفسَّاق، فقد أوصل الله تعالى إلى قلوبهم ما شاءه، وبهم من الطبع، والختم، والرّين، وغير ذلك. وحينئذ يخرجُ الحديثُ عن مقصوده، فالتأويلُ الأول أولى، وقد قلنا: إن التسليمَ الطريقُ السليم.

وعن ابن عباس، قال: ما رأيتُ شيئاً أشبهَ باللَّمم ممَّا قال أبو هريرة؛ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: "إنَّ الله كتب على ابن آدم حظَّه من الزنَى أدرك ذلك لا محالة، فزنى العينين النظرُ، وزنى اللسانِ النطقُ، والنَّفس تمنَّى وتشتهي، والفرجُ يصدِّق ذلك أو يكذبه".

و(قوله: "اللهم مصرِّف القلوب صرِّف قلوبَنا إلى طاعتك") هذا الكلام يعضدُ ذلك التأويلَ الأول، وقد وقع هذا الحديثُ في غير كتاب مسلم فقال: "يا مُقلِّب القلوب ثبِّتْ قلوبنا على طاعتك". وهما بمعنى واحد؛ وحاصلُه: أنَّ أحوالَ القلوب منتقلةٌ غير ثابتة ولا دائمة. فحقٌّ العاقلِ أن يحذرَ على قلبه من قلبه، ويفرغ إلى ربّه في حفظه.

و(قوله: ما رأيتُ شيئاً أشبهَ باللمم مما قال أبو هريرة) هذا من ابن عباس تفسيرُ فوله تعالى: ﴿الَّذينَ يجْتَنبُونَ كَبَائرَ الإثْمِ والفَوَاحشِ إلاَّ اللَّمَمَ﴾[1]. وهي ما دون الكبائر. والفواحش: هي الصَّغائر. وقال زيد بن ثابت — رضي الله عنه —: هي ما ألّموا به في الجاهلية؟. وقيل: هي مُقاربةُ المعصية من غير إلمام. وقيل: الذنبُ الذي يقلعُ عنه ولا يصرُّ عليه، وقيل غير هذا. وأشبهُ هذه الأقوال القولُ الأول.؟ وعليه يدلُّ قولُه ﷺ: "الصلواتُ الخمس مكفِّرات لما بينهنَّ إذا اجتنبت الكبائر"، والفواحش: جمع فاحشة،و هي ما يُستَفْحَشُ من الكبائر كالزنى بذوات المحارم، واللواط، ونحو ذلك.

و(قوله: "إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى") أي: قضاه وقدَّره، وهو: نصٌّ في الردّ على القدرية.

و(قوله: "فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرِّجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى") يعني: أن هواه وتمنّيه: هو زناه. وإنما أُطْلِقَ على هذه الأمور كلّها:

---

[1]— سورة النجم، الآية 32.

وعن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: "كتب على ابن آدم نصيبُه من الزِّنى مُدْرِكٌ ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام،و اليد زناها البطش، والرِّجل زناها الخُطَأ، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرجُ ويكذِّبه".

كل مولود يولد على الفطرة
وما جاء في أولاد المشركين وغيرهم،
وفي الغلام الذي قتله الخضر

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "ما مِنْ مولود إلا يولد على الفطرة". — وفي رواية: "على هذه الملَّة — أبواه يهوِّدانه، وينصِّرانه، ويمجِّسانه، كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ هل تُحسُّون فيها من جذعاء؟"، ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إنْ شئْتُم: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخلْقِ اللهِ...﴾ .

كلِّها: كنة؛ لأنها مُقدِّماتها، إذ لا يحصلُ الزنى الحقيقي في الغالب إلا بعد اسعمال هذه الأعضاء في تحصيله. والزنى الحقيقي: هو إيلاجُ الفرج المحرم شرعاً في مثله. ألا ترى قوله: "ويُصَدِّق ذلك الفرجُ ويُكذِّبه" يعني: إن حصل إيلاجُ الفرج الحقيقي، ثمَّ زنى تلك الأعضاء، وثبت إثمه، وإن لم يحصلْ ذلك واجتنب كفّر زنى تلك الأعضاء، كما قال تعالى: ﴿إن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[1].

(قوله: "كلُّ مولود يولدُ على الفطرة") قد تقدَّم: أن أصلَ الفطرة: الخلقةُ المبتدأة، وقد اختلف الناسُ في الفطرة المذكورة في هذا الحديث، وفي الآية، فقيل: هي سابقةُ السعادة والشقاوة، وهذا إنما يليقُ بالفطرة

---

[1]— سورة النساء، الآية 3.

وفي رواية: "حتى تكونوا أنتم تَجْدَعونها". قالوا: يا رسول الله! أفرأيت من يموت صغيراً، قال: "الله أعلم بما كانوا عاملين".

المذكورة في القرآن؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾[1]، وأما في الحديث فلا؛ لأنه قد أخبر في بقية الحديث: بأنها تبدَّل وتغيَّر، وقيل: هي ما أُخذ عليهم من الميثاق، وهم في أصلاب آبائهم. وهذا إنما يليقُ بالرواية التي جاء فيها: "كلُّ مولود يولَدُ على الفطرة" ويبعد في رواية من رواه: "على هذه الملة" وهي إشارةٌ إلى ملَّة الإسلام.

وقال بظاهر هذه الآية طائفة من المتأولين، وهذا القولُ أحسنُ ما قيل في ذلك — إن شاء الله تعالى -؛ لصحَّة هذه الرِّواية، ولأنها مبيِّنةٌ لرواية مَن قال: على الفطرة. ومعنى الحديث: إنَّ الله تعالى خلقَ قلوبَ بني آدم مؤهَّلةً لقبول الحق كما خَلَق أعينهم وأسماعهم قابلةً للمرئيات والمسموعات، فما دامت باقيةً على ذلك القبول، وعلى تلك الأهلية أدركت الحقَّ. ودين الإسلام هو الدِّنُ الحق، وقد جاء ذلك صريحاً في الصَّحيح: "جَبَل الله الخلقَ على معرفته، فاجاتالتهم الشياطين" وقد تقدَّم هذا المعنى، وقد دلَّ على صحة هذا المعنى بقيةُ الخبر حيث قال: "كما تُنتجُ البهيمةُ بهيمةٌ جمعاء، هل تحسَّون فيها من جدعاء؟" يعني: أن البهيمة تلدُ ولدَها كامل الخَلْق، سليماً من الآفات، فلو نزل على أصل تلك الخلْقة لبقي كاملاً بريئاً من العيوب، لكن يُتصرَّف فيه، فتجدعُ أدنه، ويُوسم وجهه، فتطرأ عليه الآفاتُ والنقائص، فيخرج عن الأصل، وكذلك الإنسان، وهو تشبيهٌ واقعٌ، ووَجْهُه واضحٌ. الرواية "تُنْتَجُ" بضم التاء الأولى، وفتح الثانية مبنياً لما لم يُسمَّ فاعلُه. يقال ذلك إذا ولدت، ومصدرها نتاجاً، وقد نتجها أهلُها نَتَجاً بفتح النون والتاء مبنياً للفاعل.

---

[1]— سورة الروم، الآية 30.

وفي أخرى: "ليس مِنْ مولودٍ يولد إلا على هذه الفطرة حتى يعبِّر عنه لسانُه".

وفي أخرى: "كلُّ إنسان تلده أمُّه يَلْكُز الشيطانُ في حِضْنَيْهِ إلا مريمَ وابْنَها".

وهم ناتجوها؛ إذا ولدتْ عندهم، وتولوا نتاجها. وحكى الأخفش فيه: أنه يقال: أنتجت الناقة – رباعياً –. ويقال: أنتجت الفرس والناقة: حان نتاجُهُما. وقال يعقوب: إذا استبان حَمْلُها، فهي نتوج، ولا يقال: نتيج، وأتت الناقةُ على مَنْتَجها – بكسر الجيم –؛ أي: الوقت الذي تنتج فيه. ونصب جمعاء على الحال، وبهيمة منصوبة على التوطئة لتلك الحال. والجذع: القطع. وتحسُّون: تدركون بحِسِّكم وحواسِّكم.

و(قوله: "ما مولود إلا يولد") كذا لكلِّهم غير السَّمرقندي، فعنده تلد بتاء باثنتين من فوقها مضمومة، وبكسر اللام على وزن: وُلِدَ، وضُرِبَ، وتخرَّج على ما ذكر الهَجَري في نواجره. قال: يقال وُلِدَ وتَلِدَ بمعنى، ويكون على إبدال الواو تاءً لانضمامهما.

و(قوله: "كلُّ ابن آدم يلكزُ الشيطانُ في حِضْنَيْهِ") كذا لجميعهم. والحضن: الجنب. وقيل: الخاصرة، غير أنَّ ابنَ ماهان رواه: خصييه، تثنية خصية، وهو وهم وتصحيف بدليل قوله: "إلا مريم وابنها".

و(قوله: أرأيت من يموت صغيراً) هذا السؤالُ إنما كان من أولاد المشركين، كما جاء مفسَّراً من حديث ابن عباس: "فأما أولاد المؤمنين" فقد تقدم الاستدلال على أنَّهم في الجنة، وأما أطفالُ المشركين فاختلف فيهم على ثلاثة أقوال: فقيل: في النار مع آبائهم، وقيل: في الجنة، وقيل:

وعن ابن عباس، قال: سُئِل رسولُ الله ﷺ عن أطفال المشركين. فقال: "الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم".

تُؤَجَّج لهم نار ويُؤمَرُون بدخولها، فمن أطاع منهم دخل الجنة، ومن عصى منهم دخل النار. وذهب قوم — وأحسبهم من غير أهل السنة — فقالوا: يكونون في برزخ. وسبب اختلاف الثلاثة الأقوال: اختلاف الآثار في ذلك، ومخالفة بعضها لظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[1]. والصبيُّ والمجنون لا يفهمون ولا يخاطبون، فهم كالبهائم، فلم يبعثْ إليهم رسول، فلا يعذَّبون. والحاصل من مجموع ذلك — وهو: القول الحقُّ الجاري على أصول أهل الحق -: أن العذابَ المترتّبَ على التكليف لا يعذّبه من لم يكلَّف. ثم لله تعالى أن يعذبَ مَن شاء ابتداءً من غير تكليف من صبيّ أو مجنون، أو غير ذلك بحكم المالكية، وأنه لا حجرَ عليه، ولا حكم، فلا يكون ظالماً بشيءٍ من ذلك إن فعله كما قررناه في الباب قبل هذا. وعلى هذا يدلُّ قولُه ﷺ في حديث عائشة — رضي الله عنها -: "إن الله خَلَقَ للجنة أهلاً، هم في أصلاب آبائهم، وخلَقَ للنار أهلاً، هم في أصالب آبائهم". قد قدَّمنا: أن الأعمالَ معرِّفاتٌ لا موجبات.

و(قوله: "الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خَلَقَهُمْ") معناه: الله أعلم بما جَبَلَهُم عليه، وطَبَعَهُمْ عليه، فمن خلقه الله تعالى على جبلَّة المطيعين كان من أهل الجنَّة، ومَن خلَقه الله على جبلَّة الكفّار من القسوة والمخالفة كان من أهل النار. وهذا كما قال في غلام الخضر: "طُبع يوم طُبع كافراً". وهذا الثوابُ والعقابُ ليس مرتَّباً على تكليفٍ ولا مُرْتَبطاً به، وإنما هو بحكم علمه ومشيئته. وأما مَن قال: إنهم في النار مع آبائهم، فمعتمدُه قوله ﷺ: "هم مِن آبائهم". ولا حُجَّةَ فيه لوجهين.

---

[1]— سورة الاسراء، الآية 15.

وعنه؛ عن أبيِّ بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: "إنَّ الغلام الذي قتله الخضر طُبع يوم طُبعَ كافراً؛ ولو عاش لأرْهق أبويه طغياناً وكفراً".

وعن عائشة، قالت: دُعِيَ رسولُ الله ﷺ إلى جنازة صبيٍّ من الأنصار فقلت: يا رسول الله ! طوبى لهذا؛ عصفور من عصافير الجنة؛ لم يعمل السوء ولم يدركه ! قال: "أو غير ذلك يا عائشة ! إنَّ الله خلق للجنَّة أهلاً لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنَّار أهلاً خلقهم لها وهُمْ في أصلاب آبائهم".

أحدهما: أن المسألة علمية، وهذا خبرٌ واحد، وليس نصّاً في الفرض.

وثانيهما: سلَّمناه، لكنا نقول ذلك في أحكام الدُّنيا، وعنها سُئل، وعليها خُرِّج الحديث، وذلك أنَّهم قالوا: يا رسول الله ! إنا نبيّت أهل الدَّار من المشركين، وفيهم الذَّراري. فقال: "هم من آبائهم"، يعني في جواز القتل في حال التَّبييت، وفي غير ذلك من أحكام آبائهم الدُّنيوية، والله تعالى أعلم.

و(قول عائشة – رضي الله عنها – في الصبي الأنصاري المتوفى: عصفورٌ من عصافير الجنة) إنما قالت هذا عائشة؛ لأنها بَنَت على أنَّ: كلَّ مولود يُولَدُ عل فطرة الإسلام؛ وأن الله تعالى: لا يُعَذِّب حتى يبعث رسولاً، فحكمتْ بذلك، فأجابها النبيُّ ﷺ بما ذكر.

و(قوله: "وهم في أصلاب آبائهم") لا يعارض ما تقدَّم من قوله أنه يُكتب وهو في بطن أمه شقيٌّ أو سعيدٌ؛ لما قدَّمناه من أن قضاءَ الله وقدره راجعٌ إلى علْمه وقُدْرَته، وهما أزليَّان، لا أوَّلَ لهما. ومقصودُ هذه الأحاديث كلِّها: أنَّ قَدَرَ الله سابقٌ على حدوث المخلوقات. وأنَّ الله تعالى يُظْهِر من ذلك ما شاء لمن شاء مَتى شاء قبل وجود الأشياء.

باب الآجال محدودةٌ والأرزاقُ مقسومةٌ

عن عبد الله بن مسعود، قال: قالت أمُّ حبيبةَ: اللهم متعني بزوجي: رسول الله ﷺ، وبأبي: أبي سفيان، وبأخي: معاوية ! فقال رسول الله ﷺ: "إنك سألت الله لآجالٍ مضروبة، وآثار موطوءة؛ وأرزاق مقسومة، لا يُعَجِّل شيئاً منها قبل حَلِّه، ولا يؤخِّرُ منها شيئاً بعد حَلِّه، ولو سألتَ الله أن يعافيَك من عذاب النّار، وعذاب في القبر لكان خيراً لك". قال: فقال رجل: يا رسول الله ! القردة والخنازير هي مما مُسخ؟ فقال النبي ﷺ: "إنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يُهْلِكْ قوماً، أو يعذب قوماً فيجعل لهم نسلاً، وإنّ القردةَ والخنازيرَ كانوا قبلَ ذلك".

وفي رواية: "ولأيام معدودةٍ" بدل: "آثارٍ موطوءةٍ".

(قول أمِّ حبيبة: اللهم متِّعني بزوجي رسول الله ﷺ وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية) أي: أطلْ أعمارهم حتى أتمتَّع بهم زماناً طويلاً.

و(قوله: "لا يعجِّلُ شيئاً منها قبل حَلِّه، ولا يؤخر شيئاً منها قبل حَلِّه") كذا الرواية بفتح الحاء في الموضعين، وهو مصدرُ حلَّ الشيء يحلّ حلاً وحلولاً ومحلاً، والمحلّ أيضاً: الموضعُ الذي يُحَلّ فيه، أي: يُنْزَل.

و(قوله: "لقد سألت الله لآجالٍ مَضْروبة... إلى آخره") ثم قال بعد هذا: "ولو سألت الله أنَ يعافيَك منَ عذاب في القبر، وعذاب في النار، كان خيراً لك". وقد أورد بعضُ علمائنا علىَ هذا سؤالاً، فقالَ: ما معنى صرفه لها عن الدُّعاء بطول الأجل، وحضِّه لها على العياذ من عذاب القبر. وكلُّ ذلك مقدَّرٌ لا يدفعُه أحدٌ ولا يردُّه سبب؟ فالجواب: أنه ﷺ لم ينهها عن الأول، وإنما أرشدها إلى ما هو الأولى والأفضل، كما نصَّ عليه، ووَجْهُه: أنَّ الثاني أوْلى وأفضل؛ أنه قيامٌ بعبادة الاستعاذة من عذاب النار والقبر، فإنه قد تعبَّدنا بها في غير ما حديث، ولم يتعبَّدْنا بشيء من القسم الذي دعتْ هي به، فافترقا. وأيضاً: فإنَّ التعوُّذَ من عذاب القبر والنار تذكيرٌ بهما، فيخافهما المؤمنُ، فيحذرهما، ويتَّقيهما، فيجعل من المتقين الفائزين بخير الدنيا والآخرة.

باب في الأمر بالتقوى والحرص
على ما ينفع وترك التفاخر

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضَّعيف، وفي كلٍّ خيرٌ، احرصْ على ما ينفعُك، واستعن بالله، ولا تَعْجزْ، وإنْ أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أنِّي فعلتُ لكان كذا وكذا؛ ولكنْ قلْ قدَّر الله وما شاء الله فَعَلَ، فإنَّ لو تفتحُ عمل الشَّيطان".

ومن باب: الأمر بالتقوى والحرص على ما ينفع

قوله: "المؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضَّعيف") أي: القويّ البدن والنَّفس، الماضي العزيمة، الذي يصلحُ للقياخ بوظائف العبادات من الصَّوم، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصَّبر على ما يُصيبه في ذلك، وغير ذلك مما يقومُ به الدِّين، وتنهضُ به كلمةُ المسلمين، فهذا هو الأفضلُ، والأكملُ، وأمّا من لم يكنْ كذلك من المؤمنين، ففيه خيرٌ من حيثُ كان مؤمناً، قائما بالصلوات، مكثِّراً لسواد المسلمين، ولذلك قال ﷺ: "وفي كلٍّ خيرٌ" لكنه قد فاته الحظُّ الأكبر، والمقامُ الأفخر.

و(قوله: "احرِص على ما ينفعكَ، واستعن بالله، ولا تعجز") أي: استعمل الحرص، والاجتهاد في تحصيل ما تنتفعُ به في أمر دينك ودنياك التي تستعينُ بها على صيانة دينك، وصيانة عيالك، ومكارم أخلاقك، ولا تفرِّط في طلب ذلك، ولا تتعاجز عنه مُتَّكلاً على القدر، فتُنسَب للتقصير،

رواه أحمد، ومسلم، وابن ماجة.

وتُلام على التفريط شرعاً وعادةً. ومع إنهاء الاجتهاد نهايته، وإبلاغ الحرص غايته، فلابدَّ من الاستعانة بالله، والتوكُّل عليه، والالتجاء في كلِّ الأمور إليه، فمن سلك هذين الطَّريقين حَصَل على خير الدَّارين.

و(قوله: "وإن أصابك شيءٌ فلا تقلْ: لو أنِّي فعلتُ لكان كذا وكذا. قل قدَّر الله، وما شاء فَعَل") إنَّ الذي يتعيَّنُ بعد وقوع المقدور التَّسليمُ لأمر الله، والرِّضا بما قدَّره الله تعالى، والإعراض عن الالتفات لما مضى وفات. فإن افتكر فيما فاته من ذلك وقال: لو أنِّي فعلتُ كذا لكان كذا جاءته وساوسُ الشيطان، ولا تزالُ به حتى تُفْضيَ به إلى الخسران؛ لتعارض توهّم التدبير سابق المقادير، وهذا هو عمَلُ الشيطان الذي نهى عنه النبيُّ ﷺ بقوله: "فلا تقل: لو، فإن لو تفتح عم الشيطان". ولا يُفْهَمُ من هذا: أنَّه لا يجوز النُّطْقُ بـــ (لو) مطلقاً إذ قد نطق بها النبيُّ ﷺ فقال: "لو أني استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ لم أسق الهدي، ولجعلتُها عمرة". و"لو كنت راجعاً أحداً بغير بيِّنة لرجمتُ هذه" وقال أبو بكر – رضي الله عنه –: لو أنَّ أحدهم نظر إلى رجليه لرآنا. ومثله كثير؛ لأن محلَّ النهي عن إطلاقها إنَّما هو فيما إذا أطلقت في معارضة القَدَر، أو مع اعتقاد: أنَّ ذلك المانعَ لو ارتفع لوقع خلافُ المقدور، فأما لو أخبر بالمانع على جهة أن تتعلَّق به فائدةٌ في المستقبل، فلا يختلف في جواز إطلاقه؛ إذ ليس في ذلك فتحٌ لعمل الشَّيطان، ولا شيءٌ يُفْضي إلى ممنوعٍ، ولا حرامٍ، والله تعالى أعلم.

كتاب العلم

باب فضل من تعلَّم وتفقَّه في القرآن

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "من نفَّسَ عن مسلم كُرْبَةٌ من كُرَب الدنيا نَفَّسَ الله عنه كُرْبَةٌ من كُرب يوم القيامة، ومن يسَّر على مُعْسرٍ يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ون سلك طريقا يلتمس فيه علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنَّة"، وما اجتمع قومٌ في بيت

كتاب العلم

من باب: قضائل طلب العلم

(قوله: "من سلكَ طريقاً يلتمسُ فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة") أي: من مشى إلى تحصيل علم شرعيّ قاصداً به وجهَ الله تعالى جازاه الله عليه بأن يُوصلَه إلى الجنَّة مسلماً مكرَّماً. ويلتمسُ: معناه يطلبُ، كما قال: "التمسْ ولو خاتماً من حديد" وهو حضٌّ وترغيب في الرحلة في طلب العلم. الاجتهاد في تحصيله، وقد ذكر أبو داود هذا الحديث من حديث أبي الدرداء وزاد زيادات حسنة، فقال: عن أبي الدرداء — رضي الله عنه — قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "من سلكَ طريقاً يلتمسُ فيه علماً سلكَ الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضعُ أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن العالَم ليستغفرُ له من في السموات، ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماءَ ورثةُ

.....

الأنبياء، وإن الأنبياءَ لم يُورثوا ديناراً ولا درهماً، ورَّثوا العلمَ، فمن أخذَه أخذَ بحظٍّ وافر"وهذا حديث عظيم يدلُّ على أن طلبَ العلم أفضلُ الأعمال، وأنه لا يبلغ أحدٌ رتبة العلماء، وأن رتبتهم ثانيةً عن رتبة الأنبياء.

و(قوله: "إن الملائكة لتضعُ أجنحتها رضا لطالب العلم") قيل: معناه تخضع له وتعظّمه، وقيل: تبسطُها له الدُّعاء؛ لأن جناح الطائر يده.

و(قوله: وإنَّ العالمَ ليستغفرُ له من السموات ومن الأرض)، يعني بـــ "من" هنا: من يعقل، وما لا يعقل، غير أنه غلّب عليه من يعقل، بدليل ان هذا الكلام قد جاء في غير كتاب أبي داود، فقال: "حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في جوف الماء"، وعلى هذا المعنى يدلُّ — من حديث أبي داود هذا — عطف الحيتان بالواو على من في السموات، ومن في الأرض، فإنه يُفيد أن من يعقل، وما لا يعقل يستغرفُ العالم؛ فأما استغفارُ من يعقل فواضح؛ فإنه دعاءٌ له بالمغفرة، وأما استغفارُ ما لا يعقل، فهو — والله أعلم — أنَّ الله يغفرُ له، ويأجرُه بعَدَد كلِّ شيءٍ لحقَه أثرٌ من علم العالم. وبيان ذلك: أن العالم يُبيِّنُ حكمَ الله تعالى في السموات وفي الأرض، وفي كلّ ما فيهما، وما بينهما، فيُغفرُ له ذنبه، ويعظم له أجرُه بحسب ذلك، ويحتمل أن يكونَ ذلك على جهة الإغياء، والأوّل أولى، والله تعالى أعلم.

و(قوله: "وإنَّ فضلَ العالم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب") هذه المفاضلة لا تصحُّ حتى يكونَ كلُّ واحد منهما قائما بما وجبَ عليه من العلم والعمل؛ فإنَّ العابدَ لو تَرَك شيئاً من الواجبات، أو عملها على جهل لم يستحقَّ اسمَ العابد، ولا تصحُّ له عبادةٌ، والعالِم لو تركَ شيئا من الواجبات لكان مذموماً، ولم يستحقَّ اسمَ العالم، فإذاً محلُ التفضيل: إنما هو في النوافل، فالعابدُ يستعملُ أزمانَه في النوافل

النوافل من الصلاة، والصوم، والذكر وغير ذلك، والعالمُ يستعملُ أزمانَ في طلب العلم وحفظه، وتقييده، وتعليمه، فهذا هو الذي شبَّهه بالبدر؛ لأنه قد كَمُلَ في نفسه، واستضاء به كلُّ شيءٍ في العالم من يحث أنَّ علمَه تعدَّى لغيره، وليس كذلك العابد؛ فإن غايتَه أن ينتفعَ في نفسه، ولذلك شبَّهه بالكوكب الذي غايتُه أن يُظهر نفسَه.

و(قوله: "وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء") إنما خصَّ العلماء بالوراثة، وإن كان العُبَّاد – أيضاً – وقد ورثوا عنه العلمَ بما صارُوا به عُبَّاداً؛ لأن العلماء هم الذين نابوا عن النبيِّ ﷺ في حملهم العلمَ عنه، وتبليغهم إيَّاه لأمته، وإرشادهم لهم، وهدايتهم. وبالجملة فالعلماء: هم العالمون بمصالح الأمَّة بعدَه، الذَّابُّون عن سنَّته، الحافظون لشريعته، فهؤلاء الأحقُّ بالوراثة، والأولى بالنيابة والخلافة، وأما العُبَّاد فلم يُطلق عليهم اسمُ الوراثة لقصور نفعهم، ويسير حظّهم.

و(قوله: "إن الأنبياء لم يُورثوا ديناراً ولا درهما") يعني: أنهم صلوات الله عليهم كان الغالبُ عليهم الزهد، فلا يتركون ما يُورث عنهم، ومن تركَ منهم شيئاً، يصحُّ أن يُورثَ عنه تصدَّق قبلَ موته، كما فعل نبيُّنا ﷺ حين قال: "لا نُورث، ما تركنا صدقة".

و(قوله: "ما اجتمعَ قومٌ في بيت من بيوت الله يتلون كتابَ الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة") بيوت الله هي المساجد كما قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾[1]. ففيه ما يدلُّ على جواز تعليمٍ القرآن في المساجد، أما للكبار الذين يتحفظون بالمسجد فلا إشكالَ فيه، ولا يُختلف فيه، وأما الصِّغار، الذين لا يتحفظون

[1]– سورة النور، الآية 36.

منِ بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينةُ وغشيَتْهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطَّأ به عملُه لم يسرعْ به نسبه".

رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذيُّ، وابن ماجه.

وقد تقدَّم من حديث أبي هريرة قوله عليه الصلاة والسلام: "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا مِنْ ثلاثةٍ: صدقة جارية، أو علمٍ ينتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له".

رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذيُّ، والنسائيُّ.

بالمساجد، فلا يجوز؛ لأنه تعريضُ المسجد للقذر والعبث، وقد قال ﷺ: "جنِّبوا مساجدَكم صبْيانكم ومَجانينكم"، وقد تمسَّك بهذا الحديث من يُجيز قراءة الجماعة القرآن على لسان واحد، كما يُفعل عندنا بالمغرب، وقد كره بعض علمائنا ذلك، ورأوا أنَّها بدِّعة إذ لم تكنْ كذلك قراءةُ السلف، وإنما الحديثُ محمول على: أنَّ كلَّ واحدٍ يدرسُ لنفسه، أو مع من يُصلِّح عليه، وليستعينَ به.

و(قوله: "إلا نزلت عليهم السَّكينةُ") قد تقدَّم الكلام على السكينة في كتاب الصلاة، وأنها إما السكون، والوقار، والخشوع، وإمَّا الملائكة الذين يستمعون القرآن، وسُمُّوا بذلك لما هم عليه من السكون والخشوع.

و(قوله: "وغشيتهم الرحمة") أي: تكفير خطيئاتهم، ورفع درجاتهم، وإيصالُهم إلى جُنَّته وكرامته.

و(قوله: "وذكرَهم الله فيمن عنده") يعني: في الملأ الكريم من الملائكة المقرَّبين، كما قال: "إنْ ذكرني في ملأ ذكرتُ في ملأ خير منهم") وهذا الذِّكر يحتملُ أن يكونَ ذكرَ ثناءٍ وتشريفٍ، ويحملُ أنْ يكون ذكرَ مباهاةٍ، كما باهى الملائكةَ بأهل عرفة.

و(قوله: "مَن بطَّأ به عملُه لم يُسرعْ به نسبُه") يعني: أن الآخرة لا ينفعُ فيها إلا تقوى الله تعالى والعمل الصالح، لا الفخر الراجح، ولا النسب الواضح.

باب كراهة الخصومة في الدّين
والغلو في التأويل والتحذير من اتّباع الأهواء

عن عائشة، قالت: قال رسولُ الله ﷺ: "إنَّ أبغضَ الرِّجال إلى الله الأَلَدُّ الخَصِمُ".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ، والنسائيُّ.

ومن باب: كراهة الخصومة في الدين والغلوّ
في التأويل والتحذير من اتّباع الأهواء

(قوله: "إن أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخَصْم") الورايةُ الخَصْم – بسكون الصاد –، وقد قيَّده بعضُهم بكسرها، وكلاهما اسمٌ للمخاصِم، غير أن الذي بالسكون هو مصدرٌ في الأصل، وُضع موضع الاسم؛ ولذلك يكون في المذكر والمؤنث، والتثنية والجمع بلفظ واحد في الأكثر، ومن العرب مَن يثنّيه ويجمعه؛ لأنه يذهب به مذهبَ الاسم، وقد جاءت اللغتان في كتاب الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَكَ نَبَؤُا الخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ﴾[1]، ثم قال: ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾[2]، فأما الذي بالكسر فهو الشديدُ الخصومة، ويُجمع: خُصُمٌ، فيقال: خَصِم، وخصم خصمون، كما قال تعالى: ﴿هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[3]. والألدُّ: هو الشديد الخصومة، مأخوذٌ من اللديدَيْن، وهما جانبا الوادي؛ لأنه كلما أخذ عليه جانبٌ أخذَ في جانب آخر، وقيل: لإعماله لديدَيْه، وهما: صفحتا عنقه عند خصومته. وكان حُكم الألد أن يكون تابعاً للخصم؛ لأن الألدَّ صفة، والخصم اسم، لكن لما كان خصمٌ مصدراً في الأصل،

---

(1)– سورة ص، الآية 21.
(2)– سورة ص، الآية 22.
(3)– سورة الزخرف، الآية 58.

.....

وكان الألدُّ صفةٌ مشهورةٌ عكس الأمر، فجُعل التابع متبوعاً، وهذا على نحو قوله: ﴿وَغَرابيبُ سُودٌ﴾[1]، وإنما يقال: أسود غريب. وهذا الخصم المبغوض عند الله تعالى هو الذي يقصد بخصومته: مدافعةَ الحق، وردّه بالأوجه الفاسدة، والشُّبَه الموهمة، وأشدّ ذلك الخصومة في أصول الدّين، كخصومة أكثر المتكلّمين المعرضين عن الطرق التي أرشد إليها كتابُ الله، وسُنَّةُ نبيّه ﷺ، وسلَف أمته إلى طرق مبتدعة، واصطلاحات مخترعة، وقوانين جَدَلية، وأمور صناعية، مدارُ أكثرها على مباحث سُوفسطائية، أو مناقشات لفظية تردّ بشبهها على الآخذ فيها شبهٌ ربما يعجز عنها، وشكوك يذهب الإيمانُ معها، وأحسنهم انفصالاً عنها أجدلهم، ولا أعلمهم، فكم من عالم بفساد الشبهة لا يقوى على حلها ! وكم من منفصلٍ عنها لا يدركُ حقيقةَ علمها ! ثم غنَّ هؤلاء المتكلمين قد ارتكبوا أنواعاً من المحال لا يرتضيها البُلْه، ولا الأطفال، لما بحثوا عن تحيُّز الجواهر، والأكوان، والأحوال، ثم إنهم أخذوا يبحثون فيما أمسك عن البحث فيه السلف الصَّالح، ولم يوجدْ عنهم فيه بحثٌ واضحٌ، وهو كيفيَّةُ تعلُّقات صفات الله تعالى، وتقديرها، واتّخاذها في أنفسها، وأنها هي الذات، أو غيرها، وأن الكلام، هل هو مُتَّحد، أو منقسم؟ وإذا كان منقسماً فهل ينقسمُ بالأنواع، أو بالأوصاف؟ وكيف تعلَّق في الأزل بالمأمور؟ ثم إذا إنعدم المأمورُ فهل يبقى ذلك المعلَّقُ؟ وهل الأمرُ لزيد بالصلاة مثلاً هو عين الأمر لعمرو بالزكاة؟ إلى غير ذلك من الأبحاث المبتدعة التي لم يأمر الشرعُ بالبحث عنها، وسكت أصحابُ النبيِّ ﷺ ومَن سَلَك سبيلَهم عن الخوض فيها لعلمهم بأنها بحثٌ عن كيفية ما لا تُعْلَم كيفية؛ فإنَّ العقولَ لها حدٌّ تقفُ عنده، وهو العجزُ عن التكييف لا يتعدَّاه، ولا فَرْقَ بين البحث

---

[1]- سورة فاطر، الآية 27.

.....

في كيفية الذات، وكيفية الصِّفات، ولذلك قال العليمُ الخبير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِه شيءٌ وَهَوَ السَّميعُ البَصيرُ﴾[1]، ولا تبادر بالإنكار فِعْل الأغبياء الأغْمَار؛ فإنك قد حُجِبْتَ عن كيفية حقيقة نفسك مع علمكَ بوجودها، وعن كيفيةِ إدراكاتك، مع أنك تدركُ بها. وإذا عجزتَ عن إدراك كيفية ما بين جنبيك، فأنتَ عن إدراك ما ليس كذلك أعجز.

وغايةُ علم العلماء، وإدراك عقول الفضلاء أن الفضلاء أن يقطعوا بوجود فاعل هذه المصنوعات منزَّه عن صفاتها، مقدَّس عن أحوالها، موصوف بصفات الكمال اللائق به.

ثم مهما أخبرنا الصَّادقون عنه بشيءٍ من أوصافه، وأسمائه قبلناه، واقتقدناه، وما لم يتعرَّضوا له سكتنا عنه، وتركنا الخوضَ فيه. هذه طريقةُ السَّلف، وما سواها مهاوٍ وتَلَف، ويكفي في الردع عن الخوض في طرق المتكلمين ما قد وَرَدَ في ذلك عن الأئمة المتقدِّمين، فمن ذلك قول عمر بن عبد العزيز: مَن جَعَل دينَه غرضاً للخصومات أكثرَ الشُّغْلَ، والدِّينُ فرغ منه، ليس بأمرٍ يُؤْتَكَفُ على النظر فيه. وقال مالك: ليس هذا الجدال من الدِّين في شيءٍ، وقال: كان يقال: لا تمكِّنْ زائغَ القلب من أذنك؛ فإنك لا تدري ما يعلقك من ذلك. وقال الشافعي: لأن يُبتلى العبدُ بكلِّ ما نهى الله عنه، ما عدا الشرك، خيرٌ له من أن ينظرَ في علم الكلام. وإذا سمعت من يقول: الاسم هو المسمَّى، أو غير المسمى، فاشهدْ أنه من أهل الكلام، ولا دِيْن له. قلب: وحُكْمي في أهل الكلام أن يُضْرَبُوا بالجريد، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال: هذا جزاءُ مَن ترك الكتابَ والسُّنَّة، وأخذَ في الكلام. وقال الإمامُ أحمد بن حنبل: لا يُفْلِحُ صاحبُ

---

[1]– سورة الشورى، الآية 11.

.....

الكلام أبداً، علماءُ الكلام زنادقة. وقال ابنُ عقيل: قال بعض أصحابنا: أنا أقطع أنَّ الصحابةَ – رضي الله عنهم – ماتوا وما عرفوا الجوهرَ والعرض، فإن رضيتَ أن تكون مثلَهم فُكُنْ. وإن رأيتَ أن طريقةَ المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر فبئسَ ما رأيته. قال: وقد أفضى هذا الكلامُ إلى الشكوك، وبكثير منهم إلى الإلحاد، وأصلُ ذلك: أنهم ما قَنعُوا بما بُعِثَتْ به الشرائع، وطَلَبوا الحقائق، وليس في قوة العقل إدراك ما عند الله من الحِكَم التي انفرد بها، ولو لم يكن في الجدال إلا أن النبيَّ ﷺ قد أخبر أنه الظلال، كما قال فيما خرَّجه الترمذي: "ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل"، وقال: إنه صحيح.

قال الشيخ رحمه الله: وقد رجع كثيرٌ من أئمة المتكلّمين عن الكلام بعد انقضاء أعمار مديدة، وآماد بعيدة لما لطف الله تعالى بهم، وأظهر لهم آياته، وباطن برهانه، فمنهم: إمام المتكلِّمين أبو المعالي[1]، فقد حكى عنه الثقاتُ أنه قال: لقد خلَّيتُ أهلَ الإسلام وعلومهم، وركبتُ البحرَ الأعظم، وغصتُ في الذي نُهُوا عنه، كلُّ ذلك رغبةٌ في طلب الحقِّ، وهرَباً من التقليد، والآن فقد رجعتُ عن الكلِّ إلى كلمة الحقِّ، عليكم بدين العجائز، وأختم عاقبة أمري عند الرحيل بكلمة الإخلاص، والويل لابن الجوينيِّ.

وكان يقول لأصحابه: يا أصحابنا ! لا تشتغلُوا بالكلام، فلو عرفتُ أن الكلامَ يبلغُ بي ما بلغ ما تشاغلتُ به.

---

[1]– هو إمام الحرمين الجويني (ت 4788 هـ).

.....

وقال أحمدُ بن سنان: كان الوليدُ بن أبان الكرابيسي، خالي، فلما حضرتْهُ الوفاةُ قال لبنيه: تعلمون أحداً أعلم مني؟ قالوا: لا، قال: فتتَّهموني؟ قالوا: لا. قال: فإنّي أوصيكم أفَتَقْبَلُون؟ قالوا: نعم. قال: عليكم بما عليه أصحاب الحديث فإنّ رأيت الحقَّ معهم.

وقال أبو الوفا بن عقيل: لقد بالغتُ في الأصول طول عمري، ثم عدتُ القهقري إلى مذهب المكتب.

قال الشيخ رحمه الله: وهذا الشهرستاني صاحب "نهاية الإقدام في علم الكلام" وصف حاله فيما وصل إليه من الكلام وما ناله، فتمثل بما قاله:

لَعَمري لقدْ طفْتُ المعاهدَ كلَّها وصَيَّرْتُ طَرْفي بينَ تلْكَ المَعالِمِ
فلم أرَ إلاَّ وَاضِعاً كَفَّ حائرٍ عَلى ذَقَنٍ أو قَارِعاً سنَّ نَادِمِ

ثم قال: عليكم بدين العجائز؛ فهو أسنى الجوائز.

قال الشيخ رحمه الله: ولو لم يكنْ في الكلام شيءٌ يُذَمُّ به إلا مسألتان هما من مبادئه، لكان حقيقاً بالذَّم، وجديراً بالتَّرك.

إحداهما: قول طائفة منهم: إنَّ أولَ الواجبات الشكُّ في الله تعالى.

والثانية: قول جماعة منهم: إنَّ مَن لم يعرف الله تعالى بالطرق التي طرقوها، والأبحاث التي حرَّروها، فلا يصحُّ إيمانه، وهو كافر.

.....

فيلزمهم على هذا تكفيرُ أكثر المسلمين من السَّلف الماضين، وأئمة المسلمين، وأنَّ مَن يبدأ بتكفيره أباه، وأسلافه، وجيرانه، وقد أورد على بعضهم هذا، فقال: لا يُشَنَّعُ عليَّ بكثرة أهل النار، وكما قال: ثم إن من لم يقلْ بهاتين المسأتين من المتكلّمين ردّوا على مَن قال بهما بطرق النظر والاستدلال بناءً منهم على: أن هاتين المسألتين نظريتان، وهذا خطأٌ فاحش، والكلُّ يخطئون الطائفةَ الأولى بأصل القول بالمسألتين، والثانية بتسليم أنَّ فسادَها ليس بضروري، ومن شكَّ في تكفير من قال: إن الشكَّ في الله تعالى واجلٌ؛ وا، معظمَ الصحابة والمسلمين كُفَّار، فهو كافر شرعاً، أو مختلّ العقل وَضْعاً؛ إذ كلُّ واحدة منهما معلومةُ الفساد بالضرورة الشرعية الحاصلة بالأخبار المتواترة القطعية، وإن لم يكن كذلك فلا ضروريّ يصارُ إليه في الشرعيات ولا العقليات. عصمنا الله من بدع المبتدعين، وسَلَك بنا طرقَ السَّلف الماضين. وإنما طوَّلت في هذه المسألة الأنفاسَ؛ لما قد شاع من هذه البدع في الناس، ولأنه قد اغترَّ كثيرٌ من الجهال بزخرف تلك الأقوال، وقد بذلت ما وَجَ عليَّ من النصيحة، والله تعالى يتولَّى إصلاحَ القلوب الجريحة.

و(قوله: "لتتبعنَّ سَنَنَ الذين من قبلكم، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع") قيَّدناه سَنَن بفتح السين، وهو الطريق وبضمّها، وهو جمع سُنَّة. وهي الطريقةُ المسلوكة. وذِكْر الشبر، والذراع، والحجر أمثالٌ تفيدُ أنَّ هذه الأمة يطرأُ عليها من الابتداع والاختلاف مثل الذي كان وَقَعَ لبني إسرائيل. وقد روى الترمذيُّ هذا المعنى بأوضح من هذا، فقال: "ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل، حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من يأتي أمَّه علانيةً، لكان في أمتي من يصنعُ ذلك، وإنَّ بني إسرائيل

وعن أبي سعيد الخدريِّ، قال: قال رسول الله ﷺ: "لَتَتَّبِعُنَّ سَنَن الذين مِنْ قبلكم شِبْراً بشِبْرٍ وذِراعاً بذراع؛ حتى لو دخلوا في جحر ضبٍّ لاتَّبعتمُوهم". قلنا: يا رسول الله! اليهودُ والنَّصاري؟ قال: "فمن؟".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم هذا الحديث والذي قبله لم يردا في أصول التلْخيص واستدركا من المفهم.

تفرَّقت على ثنتين وسبعين ملَّة، وتفترقُ أمتي على ثلاث وسبعين، كلها في النار إلا واحدة". قالوا: ومن هي يا رسولَ الله؟ قال: "ما أنا عليه وأصحابي". خرّجه من حديث عبد الله بن عمر. وقد رواه أبو داود من حديث معاوية بن أبي سفيان وقال: "ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة، وهي الجماعة". يعني: جماعة أصحابي ومن تابعهم على هَدْيهم، وسَلَك طريقَهم، كما قال في حديث الترمذي.

وقد تبيَّن بهذه الأحاديث: أن هذا الافتراقَ المحذَّر منه؛ إنما هو في أصول الدِّين وقواعده؛ لأنه قد أطلقَ عليها مِللاً، وأخبرا أن التمسُّك بشيءٍ من تلك الملل مُوجبٌ لدخول النار، ومثل هذا لا يقال على الاختلاف في الفروع؛ فإنه لا يوجبُ تعديدَ الملل، ولا عذاب النار، وإنما هو على أحد المذهبين السَّابقين، إما مصيبٌ فله أجراه، وإما مخطئٌ فله أجر على ما ذكرناه في الأصول. والضب: حرذون الصحراء. وجحره خفيٌّ، ولذلك ضرب به المثل.

باب كيفية التفقُّه في كتاب الله
والتحذير من اتِّباع ما تشابه منه وعن المماراة فيه

عن عائشة، قالت: تلا رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ الَّذي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكِتَبَ مِنْهُ ءَايَتٌ مُّحْكَمَتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَبِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَتٌ فأَمَّا الَّذينَ في

ومن باب: كيفية التفقُّه في كتاب الله

(قوله تعالى: ﴿هُوَ الذِّي أَنْزلَ عَلَيْكَ الكتَبَ منهُ ءَايَتٌ تُحْكَمَىٌ...﴾ الآية. اختلف الناسُ في المحكمات والمتشابهات على أقوال كثيرة؛ منها أن المحكمَ هو الناسخ، والمتشابه: هو المنسوخ.

ومنها: أن المحكم هو القرآن كله، والمتشابه: الحروف المقطَّعة في أوائل السُّور.

ومنها: أن المحكمَ آياتُ الأحكام، والمتشابه: آيات الوعيد.

ومنها: أن المحكمَ ما وضح معناه، وانتفى عنه الاشتباه، والمتشابه: نفيضه. وهذا أشبهُ ما قيل في ذلك؛ لأنه جار على وضع اللسان، وذلك أنَّ المحكم اسمُ مفعولٍ من: أحكم. والإحكامُ: الإتقان. ولا شكَّ في أنَّ ما كان واضحَ المعنى لا إشكالَ فيه، ولا تردُّد، وإنما يكون كذلك لوضوح مفرجات كلماته، واتفاق تركيبها، ومتى اختلَّ أحدُ الآمرين جاءَ التشابهُ والإشكال، وإلى نحو ما ذكرناه صار جعفرُ بنُ محمد، ومجاهد، وابن إسحاق.

قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَة وابْتِغَاءَ تَأْوِيله وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ والرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾. قالت: قال رسول الله ﷺ: "إذا رأيتم الذين يتَّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّاهم الله، فاحذروهم!".

و(قوله: ﴿هُنَّ أم الكتاب﴾ أي: أصلُه الذي يرجعُ إليه عند الإشكال والاستدلال ومنه سُمِّيت الفاتحة: أمَّ القرآن؛ لأنها أصلُه؛ إذ هي آخذةٌ بجملة علومه، فكأنه قال: المحكمات: أصولُ ما أشكل من الكتاب، فتعيَّن ردُّ ما أشكل منه إلى ما وضح منه، وهذا أيضاً أحسنُ ما قيل في ذلك.

و(قوله: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغٌ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾) الزيغُ: الميلُ عن الحق، وابتغاءُ الفتنة: طلبُ الفتنة، وهي الضلال. مجاهد: الشك. وتأويله ما آلَ إليه أمرُه، وكُنْه حقيقته، فكأنهم تعمَّقوا في التأويل طلباً لِكُنْه الأمر وحقيقته، فكره لهم التعمُّق.

و(قوله: ﴿وما يعلمُ تأويلَه إلا الله﴾ أي: ما يعلمُ حقيقةَ ما أريد بامتشابه إلا الله. والوقف على (الله) أولى.

و(قوله: ﴿والراسخون في العلم يقولون: آمنا به كل من عند ربنا﴾) جملةٌ ابتدائيةٌ مستأنفة. مقتضاها: أن حالَ الرَّاسخين عند سماع المتشابه الإيمان والتسليم، وتفويض علمه إلى الخير العليم، وهذا قولُ ابنِ مسعود وغيره. وقيل: والراسخون: معطوف على الله تعالى، حُكي عن عليٍّ وابن عباس، والأول أليقُ وأسلم.

و(قوله: "إذا رأيتم الذين يتَّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّاهم الله فاحذروهم") يعني: يتَّبعونه ويجمعونه طَلَباً للتَّشكيك في القرآن،

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، وأبو داود، والترمذيُّ، وابن ماجة.

وعن عبد الله بن عمرو، قال: هجَّرت إلى سول الله ﷺ يوماً، قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يُعْرف في وجهه الغضَبُ فقال: "إنما هلك من كان قبلكُم باختلافهم في الكتاب".

وإضلالاً للعوام، كما فعلته الزَّنادقة، والقرامطة الطاعنون في القرآن، أو طلباً لاعتقاد ظواهر المتشابه كما فعلته المجسّمة؛ الذين جمعوا ما وقع في الكتاب والسُنَّة مما يُوهم ظاهرُه الجسمية، حتى اعتقدوا: أن البارئ تعالى جسمٌ مُجسَّم، وصورةٌ مصوَّرَة ذاتُ وجه، وعين، ويد، وجنب، ورجلٍ، وإصبع، تعالى الله عن ذلك، فحذَّر النبيُّ ﷺ عن سُلوك طريقهم.

فأما القسم الأول، فلاشك في كفرهم، وأن حُكْمَ الله فيهم القتلُ من غير استتابة.

وأما القسم الثاني، فالصحيحُ القولُ بتكفيرهم، إذ لا فرقَ بينهم وبين الأصنام والصُّور، ويُستتابون؛ فإن تابوا وإلا قُتِلُوا، كما يُفعل بمن أرتدَّ.

فأما من يتبع المتشابه، لا على تلك الجهتين، فإن كان ذلك على إبداء تأويلها، وقد عُرف أنَّ مذهبَ السَّلف ترك التعرُّض لتأويلاتها مع قَطْعهم باستحالة ظواهرها, ومذهب غيرهم: إبداء تأويلاتها، وحَمْلها على ما يَصحُّ حَمْلُه في اللسان عليها من غير قَطْع مُتعيِّن محملٍ منها. وأما من يتَّبعُ المتشابه على نحو ما فعل صبيغ فحكمُه حُكْم عمر — رضي الله عنه— فيه الأدب البليغ. والراسخ في العلم: هو الثابت فيه، المتمكن منه.

و(قوله: هجَّرت إلى رسول الله ﷺ يوماً) أي: خرجتُ إليه في الهاجرة، وهي: شدة الحرِّ.

و(قوله: فسمع أصواتَ رجلين اختلفا في آية، فخرج يُعرَفُ في وجهه الغضبُ فقال: "إنما هَلَكَ مَن كان قبلكم باختلافهم في الكتاب") هذا الاختلافُ لم يكن اختلافاً في القراءة؛ لأنه ﷺ قد سوَّغ أن يُقْرَأَ القرآن

رواه مسلم.

وعن جُندب، قال: قال رسول الله ﷺ: "اقرؤوا القرآن ما ائتلفتْ عليه قلوبُكم، فإذا اختلفتُم فيه فقوموا".

على سبعة أحرف كما تقدَّم، لوم يكن أيضا في كونها قرآنا؛ لأن ذلك معلومٌ لهم ضرورة، ومثل هذا لا يختلفُ فيه المسلمون، ولا يُقرُّون عليه؛ فإنه كفرٌ، فلم يَبْقَ إلا أنه كان اختلافاً في المعنى. ثم تلك الآية يحتملُ أن كانت من المحكمات الظاهرة المعنى، فخالف فيها أحدُهما الآخر إما لقصورٍ فَهْم، وإما لاحتمال بعيد، فأنكر النبيُّ ﷺ ذلك؛ إذ قد ترك الظاهرَ الواضح، وعدل إلى ما ليس كذلك، ويحتمل أن كانت من المتشابه، فتعرَّضوا لتأويلها، فأنكر النبيُّ ﷺ ذلك، فيكون فيه حُجَّةٌ لمذهب السَّلف في التسليم للمتشابهات، وتَرْك تأويلها.

و(قوله: "اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبُكم، فإذا اختلفتم فيه فقوموا") يحتملُ هذا الخلافُ أن يُحْمَلَ على ما قلناه آنفا. قال القاضي: وقد يكون أمرُه بالقيام عند الاختلاف في عصره وزَمَنه؛ إذ لا وَجْهَ للخلاف والتَّنازع حينئذ، لا في حروفه، ولا في معانيه، وهو ﷺ حاضرٌ معهم، فيرجعون إليه في مُشْكِله، ويقطعُ تنازعَهم بتبيانه.

قال الشيخ رحمه الله: ويظهر لي: أنَّ مقصودَ هذا الحديث الأمرُ بالاستمرار في قراءة القرآن قاطعٌ وفي تدبُّره، والزَّجْر عن كلِّ شيءٍ يقطعُ عن ذلك. والخلاف فيه في حالة القراءة قاطعٌ عن ذلك في أي شيءٍ كان من حروفه، أو معانيه، والقلبُ إذا وَقَعَ فيه شيءٌ لا يمكن ردُّه على الفور، فأمرهم بالقيام إلى أن تزل تشويشاتُ القلب. ويُستفادُ هذا من قوله:

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم.

"اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم" فإن القراءةَ باللسان، والتدبُّر بالقلب، فأمر باستدامة القراءة مدَّةَ دوام تدبُّر القلب، فإذا وقع الخلافُ في تلك الحال انصرفَ اللِّسانُ عن القراءة، والقلبُ عن التدبُّر. وعلى هذا فمن أراد أن يتلوَ القرآن,، فلا يبحثْ عن معانيه في حال قراءته مع غيره، ويفرد لذلك وقتاً غير وقت القراءة. والله أعلم.

والحاصلُ: أن الباحثين في فَهْم معاني القرآن يجبُ عليهم أن يقصدوا ببحثهم التعاونَ على فهمه، واستخراج أحكامه، قاصدين بذلك وَجْهَ الله تعالى، ملازمين الأدبَ والوقار، فإن اتفقتْ أفهامُهم، فقد كملت نعمةُ الله تعالى عليهم، وإن اختلفت، وظهر لأحدهما خلافُ ما ظهر للآخر، وكان ذلك من مثارات الظُّنون، وموضع الاجتهاد، فحقُّ كلِّ واحد أن يصيرَ إلى ما ظهر له، ولا يثرِّب على الآخر، ولا يلومه، ولا يجادله، وهذه حالةُ الأقوياء والمجتهدين، وأما مَن لم يكن كذلك فحقُّه الرجوعَ إلى قول الأعلم، فإنه عن الغلط أبْعَدُ وأسلم، وأما إن كان ذلك من المسائل العلمية فالصَّائر إلى خلاف القطع فيها محروم، وخلافُه فيها محرَّم مَذمُوم، ثم حُكْمُه على التحقيق إما التَّكفير، وإما التَّفسيق.

و(قوله: "هَلَكَ المتنطِّعون – ثلاثاً –" هم المتعمِّقون في الكلام، الغالون فيه، ويعني بهم: الغالين في التأويل، والعادلين عن ظواهر الشَّرع بغير دليل؛ كالباطنية، وغُلاة الشيعة. وهلاكُهم بأن صُرِفُوا عن الحق في الدنيا، وبأن يُعذَّبوا في الآخرة. والتكرار: تأكيدٌ وتفخيمٌ بعظيم هلاكهم.

باب إثم من طلب العلم لغير الله

عن أبي هريرة، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "إنَّ أول الناس يُقْضَى عليه يومَ القيامة رجلٌ استُشْهِد – وقد تقدم الحديث –، وفيه: ورجلٌ تعلَّم العِلْمَ وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأتي به، فعرَّفه نعمه، فعرفها. قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: تعلَّمْتُ العلم وعلَّمْتُه، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنَّك تعلَّمت العلم ليُقال عالم، وقرأت القرآن ليُقال قارئ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به، فسحب على وجهه حتى أُلقيَ في النَّار".

رواه مسلم.

(قوله: كذبت، ولكنك تعلَّمت العلم ليقال: عالم، وقرأتَ القرآن ليقال: قارئ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به، فسُحِبَ على وجهه حتَّى أُلْقِي في النار") دليلٌ على وجوب الإخلاص في طلب العلم، وقراءة القرآن، وكذلك سائر العبادات، ولقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوَا إلاَّ لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصينَ لَهُ الدينَ﴾[1]. وتعلُّم العِلْم من أعظم العبادات وأهمِّها، فيجبُ فيها النِّيةُ والإخلاص. وقد روى أبو داود من حديث أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال: "مَن تعلَّم علماً ممَّا يُبْتغى به وَجْهُ الله لا يتعلّمه إلا الشرعية؛ سواء كان من العلوم الموصلة إلى ذلك كعلم الأصول واللسان. وهذا وعيدٌ شديدٌ، والتخلُّصُ منه بعيدٌ، إذ الإخلاصُ في طَلَب العلم عَسِيرٌ، والمجاهدُ نفسه عليه قليل، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ بالله العليِّ العظيم.

---

[1]– سور البينة، الآية 5.

باب طرح العالم المسألة على أصحابه
ليختبرهم والتخول بالموعظة والعلم خوف الملل

عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: "إنَّ من الشَّجر شجرةٌ لا يسقطُ ورقها؛ وإنَّها مَثَلُ المسلم، فحدثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البوادي. قال عبد الله: ووقع في نفسي: أنَّه النخلة، فاستحييتُ! ثُمَّ قالوا: حدِّثْنَا ما هي يا رسول الله؟! قال: فقال: "هي النَّخْلَةُ". فذكرتُ ذلك لعمر فقال: لأنْ تكونَ قلتَ: هي النخلة؛ أحبُّ إليَّ مِنْ كذا وكذا.

وفي رواية: قال: كُنَّا عند النبيِّ ﷺ فأتي بجُمَّارٍ... وذكر نحوه.

وفي أخرى: قال ابن عمر: فوقع في نفسي: أنَّه النَّخلةُ، ورأيتُ أبا بكر وعمر لا يتكلمان؛ فكرهت أن أتكلَّمَ أو أقولَ شيئاً.

وعن شقيق — أبي وائل — قال: كان عبدُ الله يذكِّرُنا كلَّ يوم خميس، فقال له رجلٌ: يا أبا عبد الرحمن! إنَّا نُحبُّ حديثَك، ونشتهيه، ولوددنا أنَّك حدَّثتنا كلَّ يوم! فقال: ما يمنعني أنْ أحدِّثكُم إلاَّ كراهية أن أُملَّكُم، إنَّ رسول الله ﷺ كان يتخوَّلُنا بالموعظة في الأيام كراهية السآمة علينا.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ، والنسائيُّ في الكبرى.

ومن باب طرح العالم المسألة على أصحابه ليختبرَهم

(قوله: "إنَّ من الشَّجر شجرةٌ لا يسقطُ ورقُها وإنَّها مثْلُ المسلم") قد تقدَّم أن الشجرَ ما كان على ساق، والنجمَ ما لم يكن علىَ ساق، وتشبيه المسلم بالنخلة صحيح، وهو من حيث إن أصل دينه وإيمانه ثابت، وأنَّ ما يصدرُ عنه من العلم والخير قوتٌ للأرواح مستطاب، وأنه لا يزال مستورا بدينه لا يسقَطُ من دينه شيء، وأنه ينتفعُ بكل ما يصدُر عنه، ولا يُكره منه شيء. وكذلك النخلة. ففيه من الفقه جوازُ ضرب الأمثال واختبار العالم أصحابَه بالسؤال، وإجابة من عجز عن الجواب.

و(قول عمر لابنه: لأن تكونَ قلتَ: هي النخلةُ أحبُّ إليَّ من كذا وكذا) إنما تمنَّى ذلك عمر ليدعوَ النبيُّ ﷺ لأبنه، فتنالُه بركة دعوته، كما نالت عبدَ الله بنَ عبَّاس، وليظهرَ على ابنة فضيلة الفهم من صِغَره، ويسودَ بذلك في كبره. والله تعالى أعلم.

باب النهي عن أن يكتب عن النبي ﷺ شيء غير القرآن ونسخ ذلك

عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: "لا تكتبوا عنِّي ! ومن كتب عني غيرَ القرآنَ فليُمْحُهُ، وحدِّثوا عنِّي ولا حرج، ومن كذب عليَّ – قال: هَمَّام: أحْسِبه قال: متعمداً – فليتبوأ مقعده من النار".

رواه أحمد، ومسلم، والنسائيُّ في الكبرى.

وقد تقدَّم قول النبيِّ ﷺ: "اكتبوا لأبي شاة" لما سأل أن تكتب له خطبة النبيِّ ﷺ من حديث جابر.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، وأبو داود، والترمذيُّ، وابن ماجة كلهم عن أبي هريرة وانظره بتمامه في التلخيص في كتاب الحج

(قوله: "لا تكتبو اعني ومن كتبَ عني غيرَ القرآن فليمحُه") كان هذا النهي مُتقدِّماً، وكان ذلك لئلا يختلط بالقرآن ما ليس منه، ثم لما أُمن من ذلك أُبيحت الكتابة، كما أباحَها النبيُّ ﷺ لأبي شاة في حُجَّة الوداع حين قال: "اكتبوا لأبي شاة"[1] فرأى علماؤنا هذا ناسخاً لذلك.

قال الشيخ رحمه الله: ولا يبعدُ أن يكونَ النبيُّ ﷺ إنما نهاهم عن كتب غير القرآن لئلا يتَّكلُوا على كتابة الأحاديث ولا يحفظونها، فقد يضيع المكتوبُ. ولا يُوجد في وقت الحاجة، ولذلك قال مالك: ما كتبت في هذه الألواح قطُّ. قال: وقلتُ لابن شهاب: أكنتَ تكتبُ الحديثَ؟ قال: لا.

---

[1]– الحديث رواه أبو هريرة كما خرَّجناه في التلخيص، وقول المؤلف القرطبي – رحمه الله– من حديث جابر وهْم.

باب في رفع العلم وظهور الجهل

عن أنس بن مالك، قال: ألا أحدِّثُكُم حديثاً سمعتُه من رسول الله ﷺ لا يحدِّثُكم أحدٌ بعدي سمعه منه: "إنَّ من أشراط السَّاعة أنْ يُرْفَع العلمُ، ويظْهَر الجهلُ، ويفشو الزنى، ويُشْرَب الخمر، ويذهب الرجالُ، وتبقى النِّساء حتى يكون لخمسين امرأةً قيِّمٌ واحدٌ".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ، وابن ماجة.

ومن باب: رفع العلم وظهور الجهل

(قوله أنس – رضي الله عنه –: ألاَ أحدِّثكم حديثاً سمعتُه من رسول الله ﷺ لا يحدثكم أحد بعدي) إنما قال ذلك؛ لأن أصحابَ رسول الله ﷺ قد كانوا انقرضوا في ذلك الوقت، فلم يبقَ منهم غيرُه؛ فإنَّه من آخرهم موتاً، توفي بالبصرة سنة ثلاث وتسعين على ما قاله خليفة بن خياط. وقيل: كان سنُّه يوم مات مئة سنة وعشر سنين، وقيل: أقلَّ من ذلك، والأول أكثر، وكان ذلك ببركة دعاء النبيِّ ﷺ له بذلك.

و(قوله: "إنَّ من أشراط الساعة") أي: من علامات قُرْب يوم القيامة، وقد تقدَّم القولُ في الأشراط، وأنها منقسمةٌ إلى ما تكون من قبيل المعتاد، وإلى ما لا يكون كذلك، بل: خارقاً للعادة على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

و(قوله: "إن يُرْفَعَ العلم، ويظهر الجهل") وقد بيَّن كيفيةَ رفع العلم وظهور الجهل في حديث عبد الله بن عمرو الذي قال فيه: "إنَّ الله لا يقبضُ العلم انتزاعاً من الناس، ولكن يقبضُ العلمَ بقبض العلماء... الحديث". وهو نصٌّ في أن رَفْع العلم لا يكونُ بمحوه من الصُّدور. بل:

وعن أبي موسى وعبد الله بن مسعود، قالا: قال رسول الله ﷺ: "إنَّ بين يَدَي السَّاعة أياماً يُرفع فيها العلم، ويَنْزِل فيها الجهل، ويكثر فيها الهرِج ! والهرج: القتل".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ.

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "يَتَقَارَبُ الزَّمن، ويُقْبَض العلمُ، وتظهر الفِتَنُ، ويُلقى الشُّحُّ، ويكثرُ الهَرْجُ"، قالوا: وما الهرْجُ؟ قال: "القتل".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم في كتاب العلم، وأبو داود، وابن ماجه.

بموت العلماء، وبقاء الجهَّال الذين يتعاطون مناصب العلماء في الفتيا والتعليم، يُفتون بالجهل، ويُعلِّمونه، فينتشر الجهل. ويظهر، وقد ظهر ذلك ووُجد على نحو ما أخبر ﷺ فكان ذلك دليلاً من أدلَّة نبوَّته، وخصوصاً في هذه الأزمان؛ إذ قد ولي المدارس والفتيا كثيرٌ من الجهَّال والصبيان وحُرمها أهلُ ذلك الشأن، غير أنه قد جاء في كتاب الترمذي عن جبير بن نُفير عن أبي الدرداء ما يدلُّ على أنَّ الذي يُرْفَعُ هو العمل. قال أبو الدرداء — رضي الله عنه — كُنَّا مع النّبيِّ ﷺ فشخص ببصره إلى السماء، ثم قال: "هذا أوانٌ يختلسُ فيه العلمُ من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء". فقال زياد بن لبيد الأنصاري: وكيف يُختلسُ منا وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لنقرأنه، ولنقرئنّه نساءَنا وأبناءنا، فقال: "ثكلتك أمك يا زياد ! إن كنتُ لأعدّك من فقهاء أهل المدينة. هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تُغْني عنهم؟ !". قال: فلقيتُ عُبادةَ بنَ الصامت، فقلت: ألا تسمعُ إلى ما يقول أخوك أبو الدَّرداء، فأخبرتُه بالذي قال أبو الدرداء. قال: صدقَ أبو الدرداء، إن شئتَ لأحدّثنك بأول علمٍ يُرفع: الخشوع، يوشك أن تدخل مسجدَ الجامع فلا ترى فيه رجلا خاشعاً. قال: هذا حديث حسن غريب، وقد خرّجه النِّسائي من حديث جُبير بن نفير أيضاً عن عوف بن مالك الأشجعي من طرق صحيحة.

باب في كيفية رفع العلم

عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "إنَّ الله لا يَقْبِضُ العلم انتزاعاً ينْتَزِعهُ من النَّاس، ولكنْ يقْبضُ العلْمَ بقَبضِ العلماء؛ حتى إذا لم يَتْرُكْ عالماً اتَّخذَ النَّاسُ رؤوساً جُهَّالاً، فسُئلُوا، فأَفْتَوا بغير علم، فضلُّوا وأَضلُّوا".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ، وابن ماجه.

* * *

باب ثواب من دَعا إلى الهدى أو سنَّ سنةً حسنةً

عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: "مَنْ دَعا إلى هُدىً كان له من الأجر مثلُ أجورِ من تَبِعَهُ، لا يَنْقُصَ ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مِثْلُ آثام من تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذلك من آثامهم شيئاً".

رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذيُّ، وابن ماجه.

وظاهر هذا الحديث أنَّ الذي يُرفع إنما هو العملُ بالعلم، لا نفس العلم، وهذا بخلاف ما ظهر من حديث عبد الله بن عمر، فإنه صريحٌ في رفع العلم.

وعن جرير بن عبد الله، قال: جاء ناسٌ من الأعراب إلى رسول الله ﷺ عليهم الصُّوفُ، فرأى سوءَ حالهم قد أصابتهم حاجةٌ، فحثَّ النَّاسَ على الصَّدقة، فأبطؤوا عنه حتى رُؤِيَ ذلكَ في وجهه. ثمَّ إنَّ رجلاً من الأنصار جاء بصُرَّةٍ من وَرَقٍ، ثم جاء آخرُ، ثم تتابعوا حتى عُرفَ السرُّور في وجهه، فقال رسول الله ﷺ: "من سنَّ في الإسلام سنَّةً حسنةً فعُملَ بها بعده كُتبَ له مثْلُ أجر مَنْ عَمل بها، ولا يَنْقُصُ من أجورهم شيءٌ. ومن سنَّ في الإسلام سُنَّةً سيِّئةً، فعمَلَ بها بعده؛ كُتبَ عليه مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عمل بها، ولا يَنْقُصُ من أوزارهم شيءٌ".

رواه أحمد، ومسلم في كتاب العلم، والترمذيُّ، والنسائيُّ، وابن ماجه.

قال الشيخ رحمه الله: ولا تباعدَ فيهما، فإنه إذا ذهب العلمُ بموت العلماء، خلفهم الجهالُ، فأفتوا بالجهل، فَعُمِل به، فذهب العلمُ والعمل، وإن كانت المصاحفُ والكتبُ بأيدي الناس، كما اتفق لأهل الكتابَيْن من قَبْلنَا، ولذلك قال رسولُ الله ﷺ لزياد على ما نص عليه النسائي: "ثكلتك أمك زيادُ ! هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى؟" وذلك أنَّ علماءهم لما انقرضوا خلفهم جهَّالُهم، فحرَّفوا الكتاب، وجهلوا المعاني، فعملوا بالجهل، وأفتوا به، فارتفع العلمُ والعمل، وبقيت أشخاصُ الكتب لا تُغْني شيئاً. وقد تقدَّم الكلامُ على قوله: "من سنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة" في كتاب الزكاة.

باب تقليل الحديث حال الرواية وتبيانه

عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، قال: كان أبو هريرة يُحدِّثُ ويقول: اسمعي يا ربَّةَ الحُجْرة ! وعائشة تصلي، فلما قضت صلاتها قالت لعروة: ألا تسمع لهذا ومقالته آنفاً؟ إنما كان النبيّ ﷺ يُحدِّث حديثاً لو عدَّه العادُّ لأحصاه.

رواه البخاريُّ، ومسلم في الزهد.

ومن باب: تقليل[1] الحديث حال الرواية وتبيانه

وقد تقدم القول في تقارب الزمان، وفي الشح.

(قوله أبي هريرة: اسمعي يا ربَّة الحجرة) يعني عائشة — رضي الله عنها — كان ذلك منه ليسمعَها ما يرويه عن النبيّ ﷺ إما ليذكِّرها بما تعرفه، أو يفيدها بما لم تسمعه، فقد كان أبو هريرة — رضي الله عنه — يحضر مع النبيّ ﷺ في مواطن لم تكن تحضرها عائشةُ — رضي الله عنها-، بل: قد كان لأبي هريرة — رضي الله عنه — من الملازمة لرسول الله ﷺ كما تقدَّم في مناقبه ما لم يكن لغيره من الصحابة — رضي الله عنهم -، ثم قد اتفق له من الخصوصية التي أوجبت له الحفظَ ما لم يتفق لغيره، فكان عنده من الحديث ما لم يكنْ عند عائشة، لكن عائشة أنكرتْ عليه سرده للحديث والإكثار منه في المجلس الواحد؛ لذلك قالت: ما كان رسولُ الله ﷺ يسردُ الحديث سردكم، إنما كان يحدِّث حديثاً لو عدَّه العادُّ لأحصاه. وقد سلك هذا المسلك كثيرٌ من السلف؛ مخافة ما يكون في الإكثار من الآفات. روي عن عمر بن الخطاب أنَّه قال: أقِلُّوا الحديثَ عن

---

[1]— في نسخة ابن بطوطة تعليل بدل تقليل.

باب تعليم الجاهل

عن عياض بن حمار المجاشعيِّ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ ذات يوم في خطبته: "ألا إنَّ ربي أمرني أن أعلِّمكم ما جَهِلْتُم ممَّا علَّمني يومي هذا: كلُّ

رسول الله ﷺ. وقد عاب كثيرٌ من الصحابة على أبي هريرة الإكثارَ من الحديث حتى احتاج أبو هريرة إلى الاعتذار عن ذلك، والإخبار بموجب ذلك قال: إن ناساً يقولون: أكثر أبو هريرة، ولولا آيةٌ في كتاب الله ما حدثتُ حديثاً، ثم قال: إن إخواننا من الأنصار كان شَغَلَهم العملُ في أموالهم، وإن إخوانَنا من المهاجرين كان شغلهم الصَّفْق بالأسواق، وإني كنتُ ألزمُ رسولَ الله ﷺ لشَبَعِ بطني، أحضرُ ما لا يحضرون، وأحفظُ ما لا يحفظون[1]. ودَخَل مالكٌ على ابني أخته أبي بكر وإسماعيل بن أبي أويس، وهما يكتبان الحديثَ، فقال لهما: إن أردتما أن ينفعكما الله بهذا الأمر، فأقلاَّ منه، وتفقَّها. ولقد جاء عن شعبة أنه قال لكتبة الحديث: إن هذا الحديثَ يصدُّكم عن ذِكْر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون؟ ! قال أبو الحسن القابسي — رحمه الله -: يريدُ شعبةُ بقوله هذا عيبَ تكثير الروايات؛ لما قد دخل على المكثرين من اختلاط الأحاديث، وغير ذلك فيصيرون بالتكلف إلى أن يتقوَّلوا على الرسول ﷺ ما لم يقلْ.

قال الشيخ رحمه الله: ويظهرُ لي من قول شعبة أنه قصَد تحذيرَ من غلبتْ عليه شهوةُ كَتْب الحديث وروايته، حتى يحمله على التفريط في متأكّد المندوبات من الصلوات، والأذكار، والدعوات؛ حرصاً على الإكثار، وقضاءً للشهوات والأوطار.

---

[1]— رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم.

مالٍ نحلْتُه عبداً حلالٌ، وإنّي جعَلتُ عبادي كلَّهم حنفَاء، وإنَّهم أتتهم

قال الشيخ رحمه الله: هذه وصايا السَّلف وسِيَرُ أئمة الخلف قد نبذها أهلُ هذه الأزمان، وانتحلوا ضروباً من الهذيان، فترى الواحدَ منهم كحاطب ليل، وكجالب رجْل وخيل، فيأخذ عمن أقبل وأدبر من العوام، وممن لم يشعر بشيء قط من هذا الشأن، غير أنه قد وجد اسمه في طبق السماع على فلان، أو أجاز له فلان، وإن كان في ذلك الوقت في سنِّ من لا يفعلُ من الصبيان، ويسمُّون مثل ذلك بالسند العالي؛ وإن كان باتفاق السلف، وأهل العلم في أسفل سفال، وكلُّ ذلك قصد من كثير منهم إلى الإكثار، ولأن يقال: انفرد فلان بعالي الروايات والآثار. ومن ظهر منه أنه على تلك الحال فالأخذ عنه حرام وضلال، بل: الذي يجبُ الأخذُ عنه من اشتهر بالعلم، والإصابة، والصدق، والصيانة ممن قيَّد كتب الحديث المشهورة، والأمهات المذكورة التي مدارُ الأحاديث عليها، ومرجعُ أهل الإسلام إليها، فيعارض كتابَه بكتابه، ويقيِّد منه ما قيَّده، ويهملُ ما أهمله، فإن كان ذلك الكتابُ ممن شرط مصنِّفُه الصحةَ كمسلم والبخاري، أو ميّز بين الصحيح وغيره كالترمذي، وجَبَ التفقُّه في ذلك والعمل به، وإن لم يكن كذلك وَجَب التوقُّف إلى أن يعلمَ حال أولئك الرواة، إما بنفسه إن كانت له أهليةُ البحث في الرجال، وإما بتقليد مَن له أهليّةُ ذلك، فإذا حصل ذلك وَجَبَ التفقُّه والعمل، وهو المقصودُ الأول، وعليه المعوَّل. وكلُّ ما قبله طريقٌ موصلٌ إليه، ومُحوِّمٌ عليه. وإنَّ من علامات عدم التوفيق البقاء في الطريق من غير وصولٍ إلى المقصود على التَّحقيق.

الشياطينُ فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللْتُ لهم، وأمَرتْهم أن يُشرِكُوا بي ما لم أُنْزِلْ به سُلطاناً". وذكر الحديث، وسيأتي.

و(قوله تعالى[1]: "كل مال نحلته عبداً حلالٌ" معنى نحلته: أعطيته، والنِّحلة: العَطيَّة – كما تقدَّم – ويعني بها هنا: العطية بطريق شرعيٍّ، فكأنه قال: كل من ملّكته شيئاً بطريق شرعي قليلاً كان أو كثيراً، خطيراً أو حقيراً، فالانتفاعُ له به مباحٌ مطلقاً، لا يُمْنَعُ من شيءٍ منه، ولا يُزاحمُ عليه، والمال هنا: كلّ ما يتموَّل، ويُتملَّك من سائر الأشياء، وفائدةُ هذه القضية الكلية رَفْعُ توهّم من يتوهّم أن ما يُستلذُّ، ويُستطاب من رفيع الأطعمة، والملابس، والمناكح، والمساكن محرَّمٌ، أو مكروه، وإن كان ذلك من الكسب الجائز، كما قد ذهب إليه بعضُ غلاة المتزهِّدة. وسيأتي استيعابُ هذا المعنى في كتاب الزهد – إن شاء الله تعالى.

و(قوله: "وإني خلقتُ عبادي كلَّهم حنفاء") هو جمع حنيف، وهو: المائلُ عن الأديان كلِّها إلى فطرة الإسلام، وهذا نحو قوله ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة" وقد تقدَّم في كتاب: القَدَر.

و(قوله: "وإنهم أتتهم الشياطينُ فاجتالتهم عن دينهم") يعني: شياطين الإنس من الآباء والمعلِّمين بتعليمهم وتدريبهم، وشياطين الجن بوساوسهم. ومعنى اجتالتهم: أجالتهم، أي: صرفتهم عن مقتضى الفطرة الأصلية، كما قال: "حتى يكون أبواه هما اللذان يهوِّدانه، أو يُنَصِّرانه، أو يُمجِّسانه". وفي الرواية الأخرى: "حتى يُعبِّر عنه لسانُه" يعني بما يُلقي إليه الشيطانُ من الباطل والفساد المناقض لفطرة الإسلام.

---

[1]– أي: في الحديث القدسي.

باب إقرار النَّبيِّ ﷺ حجةٌ

عن محمَّد بن المنكدر، قال: رأيتُ جابرَ بنَ عبد الله يَحْلفُ بالله: أنَّ ابن صائد الدجالُ. فقلت له: أتحلف على ذلك؟ قال: إنِّي سمعت عمر يحلف علىً ذلك عند النبيِّ ﷺ فلم ينكره النبيُّ ﷺ.

ومن باب: إقرار النبيِّ ﷺ

إقرار النبيِّ ﷺ حجَّةٌ، ودليل على جواز ذلك الفعل إذا صدر ذلك الفعلُ من مسلم، ورآه النبيُّ ﷺ و لم يُنْكِرْ عليه.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

كتاب الأذكار والدعوات

باب الترغيب في ذكر الله تعالى

عن أبي هريرة، قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله: أنا عند ظَنِّ

كتاب الأذكار والدَّعوات

(قوله تعالى : « أنا عند ظنُ عبدي بي ») قيل: معناه ظنِ الإجابة عند الدعاء، وظنُّ القبول عند التوبة، وظن المغفرة عند الاستغفار، وظن قبول الأعمال عند فعلها على شروطها، تمسُّكاً بصادق وعده، وجزيل فضله. قال الشيخ رحمه الله: ويؤيِّد قولهُ ﷺ: « أدعُو الله وأنتم موقنون بالإجابة ». وكذلك ينبغي للتائب والمستغفر، وللعامل أن يجتهدَ في القيام بما عليه من ذلك، مُوقناً أن اللَّهَ تعالى يقبلُ عمله، ويغفرُ ذنبه، فإن الله تعالى قد وعد بقبول التوبة الصَّادقة، والأعمال الصَّالحة، فأمَّا لو عمل هذه الأعمال، وهو يعتقد، أو يظنُّ أنَّ اللهَ تعالى لا يقبلها، وأنها لا تنفعُه، فذلك هو القنوطُ من رحمة الله، واليأس من رَوْح الله، وهو من أعظم الكبائر، ومَن مات على ذلك وَصَلَ إلى ما ظنَّ منه، كما قد جاء في بعض ألفاظ هذا الحديث: « أنا عند ظنِّ عبدي بي، فليظنَّ عبدي بي ما شاءَ ». فأما ظنُّ المغفرة والرَّحمة مع الإصرار على المعصية، فذلك محضُ الجهل، والغرَّة، وهو يجرُّ إلى مذهب المرجئة، وقد قال ﷺ: « الكيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبعَ نفسَه هواها،

وتمنَّى على الله» والظن: تغليبُ أحد المجوَّزين بسبب يقتضي التغليب، فلو خلا عن السبب المغلِّب لم يكن ظنّاً بل غرَّةً وتمنياً، وقد تقدَّم في الجنائز الكلامُ على قوله: «لا يموتن أحدُكم إلا وهو يحسنُ الظنَّ بالله».

و(قوله: «وأنا معه حين يذكرني») أصلُ الذِّكْر: التنبهُ بالقلب للمذكور، والتيقظ له، ومنه قوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [1] أي: تذكّروها. وقوله ﷺ: «من نام عن صلاة، أو نسيها فليصلِّها إذا ذكرها». أي: إذا تذكرها بقلبه. وهو في القرآن كثير وسُميِّ القولُ باللسان ذِكْراً. لأنه دَلالةٌ على الذِّكْر القلبي، غير أنَّه قد كثر اسمُ الذكر على القولُ اللساني حتى صار هو السَّابق للفهم، وأصلٌ مع الحضور والمشاهدة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [2] وكما قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [3] أي: مطَّلعٌ عليكم، ومحيطٌ بكم، وقد ينجرُّ مع ذلك الحفظ والنصر. كما قيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ أي: أحفظكما ممن يريدُ كيدَكما.

وإذا تقرر هذا فيمكن أن يكون معنى: «وأنا معه إذا ذكرني» أن مَن ذكر اللهَ في نفسه مفرَّغة مما سواه رفع الله عن قلبه الغفلات والموانع، وصار كأنه يرى الله ويشاهده - وهي: الحالةُ العليا التي هي: أن تذكَر اللهَ كأنك تراه، فإن لم تصلْ إلى هذه الحالة، فلا أقلَّ من أن يذكره. وهو عالمٌ بأن اللهَ يسمعُه ويراه. ومَن كان هكذا كان اللهُ له أنيساً إذا ناجاه، ومجيباً إذا دعاه، وحافظاً له من كلِّ ما يتوقّعه ويخشاه، ورفيقاً به يوم يتوفَّاه، ومُحلاً له من الفردوس أعلاه.

و(قوله: «فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي») النفس: اسمٌ مشترك يطلق على نفس الحيوان، وهي المتوفاةُ بالموت والنوم، ويطلق ويراد به: الدَّم، واللهُ تعالى مُنزَّه

(1) سورة البقرة الآية 40
(2) سورة طه الآية 46
(3) سورة الحديد الآية 4

في ملأٍ؛ ذكرته في ملأ خيرٍ منهُم، .....

وإن تقرَّب مني شِبْراً تقربت منه ذراعاً، وإنْ تقرَّب إليَّ ذراعاً تقربت منه باعاً، وأنْ أتاني يمشي؛ أتيتُه هرولةً».

عن ذينك المعنيين، ويطلق ويُراد به ذات الشيء وحقيقته، كما يقال: رأيت زيداً نفسه عينه، أي: ذاته. وقد يطلق ويراد به الغيبُ كما قيل في قوله تعالى: ﴿**تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ**﴾ (1) أي: ما في غيبك.

والأليقُ بهذا الحديث أن يكون معناه: أن من ذَكَر اللهَ تعالى خاليا منفرداً بحيث لا يطلِّع أحدٌ من الخليقة على ذِكْره، جازاه اللهُ على ذلك بأن يذكره بما أعدَّ له من كرامته التي أخفاها عن خليقته، حتى لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعينٍ جزاءً بما كانوا يعملون. وقد قلنا: إنّ التسليم هو الطريقُ المستقيم.

و(قوله: «وإن ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملأ خيرٍ منهمش) يعني: أن من يذكره في ملأ من الناس ذكره اللَّه في ملأ من الملائكة، أي: أثنى عليه، ونوَّه باسمه في الملائكة، وأمر جبريلَ أن يُنادي بذكره في ملائكة السموات كما تقدَّم. وهو ظاهرٌ في تفضيل الملائكة على بني آدم، وهو أحدُ القولين للعلماء، وللمسألة غورٌ ليس هذا موضعٌ ذكره.

و(قوله: «وإن تقرَّب إليّ شبراً تقرَّبتُ إليه ذراعا... إلى قوله: أتيته هرولةً») هذه كلُّها أمثالٌ ضُربت لمن عمل عملاً من أعمال الطاعات، وقصد به التقرُّب إلى الله تعالى، يدلُّ على أنَّ اللَّهَ تعالى لا يضيعُ عملَ عامل وإن قلَّ، بل يقبله ويجعل له ثوابَه مضاعفاً. ولا يَفْهَمُ من هذا الحديث: الخُطَا: نقل الأقدام إلا من ساوى الخُمر في الأفهام. فإن قيل: مقتضى ظاهر هذا الخطاب: أنَّ مَن عمل حسنةً جُوزي بمثليها، فإن الذراعَ: شبران، والباع: ذراعان. وقد تقرَّر في الكتاب والسُّنة: أن أقلَّ ما يجازى على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعافٍ كثيرةٍ لا تُحْصَى، فكيف وَجَه

---

(1) اسورة لمائدة الآية 116

وفي رواية: «إنَّ الله يقول أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا دعاني».

وعنه؛ قال: كان رسولُ الله ﷺ يسير في طريق مكة فمرَّ على جبلٍ يقال له: جُمْدَانُ، فقال: «سيروا! هذا جُمْدَانُ؛ سبق المُفَرِّدون»، قالوا: وما المفرِّدون يا رسول الله؟! قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات».

الجمع؟ قلنا: هذا الحديثُ ما سيق لبيان مقدار الأجور، وعَدَد تضاعيفها، وإنما سيق لتحقيق أنَّ اللهَ تعالى لا يضيعُ عمل عاملٍ ـ قليلاً كان أو كثيراً ـ وأن اللهَ تعالى يُسْرِع إلى قبوله. وإلى مضاعفة الثواب عليه إسراع من جيء إليه بشيء فبادر لأخذه، وتبشبش له بشبشةَ من سُرَّ به. ووقع منه الموقع، ألا ترى قوله: «مَن أتاني يمشي أتيتهُ هرولة»، وفي لفظ آخر: «أسرعتُ إليه». ولا تتقدَّر الهرولةُ والإسراع بضعفي المشي، وأما عددُ الأضعاف، فيؤخذ من موضعٍ آخر من هذا الحديث. والله أعلم.

و(قوله: «هذا جُمْدَان») هو بضم الجيم وسكون الميم، وهو جبلٌ بين قُدَيْد وعُسفان من منازل أسلم.

و(قوله: «سبق المُفَرِّدون») قال القاضي: ضبطته عن متقني شيوخنا بفتح الفاد وكسر الراء. قال الهروي: قال أبو العباس عن ابن الأعرابي: فَرَد الرجل إذا نفقَّه، واعتزلَ النَّاس، وخلا بمراعاة الأمر والنهي. وقال الأزهريُّ: هم المتحلّون من الناس بذكر الله تعالى. وقد فسَّرهم النبيُّ ﷺ فقال: «هم الذاكرون اللَّه كثيراً والذاكرات». وقال في غير كتاب مسلم: «هم المُسْتهْتَرُون بذكر الله تعالى، يَضعُ عنهم الذكرُ أوزارهم فيردون يوم القيامة خفافاً»، وإنما ذكر النبيُّ ﷺ هذا القولَ عقيب قوله: «هذا جُمْدان»، لأنَّ جُمْدان جبل منفرد بنفسه هنالك، ليس بحذائه جبلٌ مثله، فكأنه تفرَّد هناك فذكره بهؤلاء المفرِّدين، والله أعلم. وهؤلاء القومُ سبقوا في الدنيا إلى الأحوال السَّنِيَّة، وفي الآخر إلى المنازل العلية.

و(قوله: «الذاكرون الله كثيراً وللذاكرات») هذه الكثرةُ المذكرةُ هنا هي المأمورُ

بها في قوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً ﴾ [1]، وهذا المساقُ يدُلُّ على أنَّ هذا الذكر الكثيرَ واجبٌ، ولذلك لم يكتف بالأمر حتى أكَّده بالمصدر، ولم يكتف بالمصدر حتى أكده بالصفة، ومثل هذا لا يكونُ في المندوب. وظهر أنه ذكرٌ كثيرٌ واجب، ولا يقول أحدٌ بوجوب الذِّكر باللسان دائماً. وعلى كلِّ حال، كما هو ظاهرُ هذا الأمر. فتعيَّن أن يكونَ ذكرَ القلب، كما قاله مجاهد. وقال ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ليس شيءٌ من الفرائض إلا وله حدٌّ ينتهي إليه إلا ذكْرُ الله، ولم يقلْ هو ولا غيره ـ فيما علمناه ـ أن ذكرَ الله باللسان يجبُ على الدوام، فلزِم أنه ذكرُ القلب. وإذا ثبتَ ذلك، فذكر القلبُ لله تعالى، إما على جهة الأيمان والتصديق بوجوده، وصفات كماله وأسمائه فهذا يجبُ استدامته بالقلب ذكراً أو حكماً في حال الغفلة؛ لأنه لا ينفكُّ عنه إلا بنقيضه، وهو الكفر. والذكر الذي ليس راجعاً إلى الإيمان: هو ذكرُ الله عند الأخذ في الأفعال. فيجبُ على كلِّ مكلَّفٌ ألا يقدمَ على فعْل من الأفعال، ولا قول من الأقوال ـ ظاهراً ولا باطناً ـ إلاَّ حتى يعرف حُكْمَ الله في ذلك الفعل؛ لإمكان أن يكونَ الشرعُ مَنَعَهُ منه، فإما على طريق الاجتهاد إن كان مجتهداً، أو على طريق التقليد إن كان غير مجتهد. ولا ينفكُّ المكلَّفُ عن فعْلِ أو قول دائماً، فَذِكْرُ الله يجبُ عليه دائماً. ولذلك قال بعضُ السلف: اذكرِ اللَّهَ عند همِّك إذا هممت، وحُكْمك إذا حكمت، وقَسْمك إذا قَسَمتَ، وما عدا هذين الذِّكْرَيْن لا يجبُ استدامتُه ولا كثرته. والله أعلم.

* * *

(1) سورة الاحزاب الآية 41

باب فضل مجالس الذكر والاستغفار

عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إن لله تبارك وتعالى ملائكةً سيَّارةً فُضْلاً يَتَبَّعُونَ مجالس الذكر؛ فإذا وجدوا مجلسا فيه ذكرٌ قعدوا معهم، وحَفَّ بعضُهم بعضاً بأجنحتهم حتى يملؤوا ما بينهم وبين السَّماء

ومن باب: فضل مجالس الذكر

(قوله: «إن لله ملائكةَ سيارةً فَضْلاً») بفتح الفاء وإسكان الضاد. روايةُ الشيوخ في مسلم والبخاري، أي: زيادة على كتَّاب الناس، وعند الهروي: فضلٌ - برفع اللام - على أنه خبرُ مبتدأ. ووقع عند بعضهم: فُضُلاً - بضم الفاء والضاد -. وكأنه تأوَّله على أنه جمع فاضل، ولا تساعده العربية، ولا المعنى. وعند بعضهم: فُضَلاء - بضم الفاء وفتح الضاد والمد والهمز - كظرفاء. والملائكة وأن كانوا كلَّهم كذلك، فليس هذا موضع ذكر ذلك، والصواب التقييد الأول.

و(قوله: «فإذا وجدوا مجلسَ ذكرٍ قعدوا معهم، وحفَّ بعضُهم بعضاً بأجنحتهم») هذه روايةُ السجزيِّ والسَّمرقندي، أي: يحدقون حولهم، ومصداقها في البخاري: «يحقُّونهم بأجنحتهم»، وفي كتاب ابن عيسى: وحطّ - بحاء وطاء مهملتين - ومعناه: أشار بعضهم لبعض بالنزول، ووقع عند العذريِّ: حظ: - بالظاء القادمة المعجمة - وعند بعضهم: بالساقطة، وليسا بشيءٍ، وهما تصحيف.

و(قوله: «سيَّارة») يعني: سائرين، كما قال في رواية أخرى: «سيَّاحين».

(وقوله: «فإذا وجدوا مجلس ذكر قعدوا معهم») يعني: مجالس العلم والتذكير. وهي المجالس التي يذكر فيها كلامُ الله، وسُنَّة رسوله، وأخبار السلف الصالحين، وكلام الأئمة الزهَّاد المتقدِّمين، المبرَّأة عن التصنُّع والبِدَع، والمنزَّهة عن المقاصد الرديَّة والطمع. وهذه المجالسُ قد انعدمت في هذا الزمان، وعُوِّض منها الكذب والبِدَع، ومزامير الشّيطان، نعوذُ بالله من حُضُورها، ونسأله العافية من شرورها.

الدنيا، فإذا تفرقوا عَرجُوا وصَعِدوا إلى السَّماء، قال : فيسألهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهو أعلم ـ : مّن أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عبادٍ لك في الأرض يُسَبِّحُونك، ويكبِّرونَك، ويهلِّلونك، ويَحْمَدونَك، ويسألونك. قال: وماذا يسألوني؟ قالوا : يسألونك جَنّتَك. قال : وهل رَأَوْا جنَّتي؟ قالوا : لا. أيْ رَبِّ! قال : فكيف لو رأوا جنَّتي؟! قالوا : ويستجيرونك.

وقوله: (« فيسألهم ـ وهو أعلم ـ: من أين جئتم؟ ») هذا السؤال من الله تعالى للملائكة، هو على جهة التّنبيه للملائكة على قولها: ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ** ﴾ [1] وإظهارٌ لتحقيق قوله: ﴿ **إِنِّي أَعلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ [2] وهو من نحو مباهاة الله تعالي الملائكة بأهل عرفة حين قال لهم: « ما أراد هؤلاء؟ أنظروا إلى عبادي جاؤوني شعثاً غبراً، أشهدكم أني قد غفرتُ لهم، وكذلك نُصَّ عليه في الحديث.

و(قوله: « ويمجدونك ») أي : يعظِّمونك بذكر صفات كمالك وجلالك. وقد تقدَّم: أنّ أصلُ المجد الكثرة، ومنه قولهم: في كلِّ شجرة نارٌ، واستمجد المرخُ والعفار.

و(قوله: « كيف لو رأوا جَنَّتي؟ ») هذا يدلُّ على أنَّ للمعاينة زيادةَ مريَّةٍ على العلم في التحقيق والوضوح؛ فإن هؤلاء القوم المتذكرين للجنة والنار كانوا عالمين بذلك، ومع ذلك: فإن اللهَ تعالى قال: « فكيف لو رأوها » يعني: لو رأوها لحصلَ من اليقين والتحقيق زيادةٌ على ما عندهم، ولتحصيل هذه الزيادة سأل موسى الرُّؤية، والخليل مشاهدة إحياء الموتى، وقد تقدَّم هذا المعنى.

وقول الملائكة: (« فيهم فلان عبدٌ خطَّاء، إنما مرَّ فجلس معهم ») إنما استبعدت الملائكةُ أن يدخلَ هذا مع أهل المجلس في المغفرة لأنه لم تكن عادتُه حضور مجالس الذِّكر، وإنما كانت عادته ملازمة الخطايا، فعرض له هذا المجلس، فجلسه، فدخل مع

---

(1) سورة البقرة الآية 30
(2) سورة البقرة الآية 30

قال : ومِمَّ يَسْتجيرونني؟ قالوا: من نارك يا رب! قال : وهل رأوا ناري؟ قالوا : لا. قال: فكيف لو رأوا ناري؟! قالوا: ويستغفرونك. قال: فيقول: قد غفرتُ لهم، وأعطيتُهم ما سألوا، وأجرتُهم ممَّا استجاروا. قال: يقولون: رَبِّ فيهم فلانٌ عبد خطَّاءٌ؛ إنما مرَّ فجلس معهم! قال: فيقول : وله غفرتُ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم».

* * *

أهله فيما قُسِم لهم من المغفرة والرحمة. فيستفاد منه الترغيب العظيم، في حضور مجالس الذِّكر، ومجالسة العلماء والصَّالحين، وملازمتهم.

و(قوله: «هم القومُ لا يشقَى بهم جليسُهم») هذه مبالغةٌ في إكرامهم، وزيادةٌ في إعلاء مكانتهم، ألا ترى: أنه أكرمَ جليسَهم بنحو ما أكرِمُوا به لأجلهم، وإن لم يشفعُوا فيه، ولا طَلَبُوا له شيئاً، وهذه حالة شريفة، ومنزلة منيفة، لا خيَّبنا اللهُ منها، وجعلنا من أهلها.

* * *

باب فضل إحصاء أسماء الله تعالى

عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مَنْ حَفِظَها دخل الجنَّة واللَّهُ وِتْر يحب الوتر».

وفي رواية: «وإنَّ للهِ تسعةً وتسعين اسماً مئة إلا واحداً؛ من أحصاها دخل الجنة».

* * *

ومن باب: فضل إحصاء أسماء الله تعالى

(قوله: «إن تسعةً وتسعين اسماً ـ مئة إلا واحداً ـ») الاسم في العرف العام: هو الكلمة الدالَّة على معنًى مفرد، وبهذا الاعتبار لا فرقَ بين الاسم والفعل والحرف، إذ كلُّ واحدٍ منها يصدقُ عليه ذلك الحدُّ، فلا فعل، ولا حرف في العرف العام، وإنما ذلك اصطلاحُ النحويين والمنطقيين، وليس ذلك من غرضنا. وإذا فهمتَ هذا فهمتَ غلط من قال: إن الاسم هو المسمَّى حقيقة، كما قالت طائفةٌ من جهَّال الحشوية؛ فإنهم صرَّحوا بذلك واعتقدوه حتى الزموا على ذلك أنَّ من قال: سمٌّ: ماتَ، ومن قال نار: احترقَ. وهؤلاء أخسُّ من أن يُشتغل بمخاطبتهم. وأما من قال من النحويين ومن المتكلِّمين: الاسم هو المسمَّى، فحاشاهم أن يُريدوا هذه الحماقة، وإنما أرادُوا: أنه هو من حيث أنه لا يدلُّ إلا عليه، ولا يُفيد إلا هو، فإن كان ذلك الاسم من الأسماء الدالَّة على ذات المسمَّى دُلَّ عليها من غير مزيد أمر آخر، وإن كانَ من الأسماء الدالَّة على معنىً زائدٍ: دلَّ على تلك الذات منسوبةً إلى ذلك الزائد خاصة دون غيره. وبيان ذلك: أنَّك إذا قلتَ: زيد ـ مثلاً ـ فهو يدلُّ على ذاتٍ مشخَّصة في الوجود من غير زيادة ولا نُقصان، فلو قلتَ ـ مثلاً ـ: العالم دلَّ هذا على تلك الذات منسوبةً إلى العلم، وكذلك لو قلت: العنيّ دلَّ ذلك على تلك الذات مع إضافة مالٍ إليها، وكذلك لو قلت: الفقير دلَّ على تلك الذات مع سلب المال عنها. وهذا جارٍ في كلِّ ما يُقال عليه: اسم بالعرف العام. ومن هنا صحَّ عقلاً أن تكثر الأسماءُ المختلفة على

ذلت واحدة، ولا تُوجب تعدُّداً فيها، ولا تكثيراً. وقد غَمُضَ فهمُ هذا، مع وضوحه، على بعض أئمة المتكلِّمين، وفرَّ منه هربا من لزوم تعدد في ذات إلا له حتى تأول هذا الحديث، بأن قال : أن الإسم فيه يراد به التسمية، ورأى أن هذا يخلصه من التكثره إلى غير مفرٍّ، وذلك أنَّ التسميةَ إنما هي وضع الاسم، أو ذكر الاسم. فإنه يُقال لمن سمَّى ابنَه عند ولادته بزيد؛ سمَّى يُسمِّي تسميةً، وكذلك نقولُ لمن ذكرَ اسم زيد لغيره. وعلى هذا فالتسمية هي نسبةُ الاسم إلى مسمَّاهُ، فإذا قلنا: إنَّ للَّه تعالي تسعةً وتسعين تسمية اقتضى ذلك: أن يكونَ له تسعةٌ وتسعون اسماً ينسبُها كلّها إليه، فبقي الإلزام بعد ذلك التكلُّف والتعسُّف، والحق ما ذكرناه، والمفهم الإله. وقد يقال: الاسم هو المسمَّى، ويعني به: أن هذه الكلمة التي هي الاسم قد يُطلق ويُراد به المسمَّى، كما قيل ذلك في قوله تعالى : ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى** ﴾ [1] أي: سبح ربَّك، فأُريد بالاسم المسمَّى. وهذا بحث لفظي لا ينبغي أن ينكرَ، ولا جرمَ قال به في هذه الآية وفيما يُشبهها جماعة من علماء اللسان وغيرهم. وإذا تقرَّرَ هذا فافهم أن أسماء الحقِّ سبحانه وإن تعدَّدت فلا تعدُّدَ في ذاته تعالى، ولا تركيبَ، لا عقلياً كترتيب المحدودات، ولا محسوساً كترتيب الجسمانيات، وإنما تعدَّدت أسماؤه تعالى بحسب الاعتبارات الزائدة على الذات. ثم هذه الأسماء من جهة دلالتها على أربعة أضرب؛ فمنها: ما يدلُّ على الذات مجرَّدة كاسم الله تعالى على قولِ من يقول: إنه علمٌ غير مشتق، وهو الخليل وغيره؛ لأنه يدلُّ على الوجود الحقِّ الموصوف بصفات الجلال والكمال دلالة مطلقة غير مقيدة بقيد؛ ولأنه أشهر أسمائه حتى تعرفَ كلُّ أسمائه به، فيقال: الرحمن: اسم الله، ولا يقال الله اسم الرحمن؛ ولأن العربَ عاملته معاملة الأسماء الأعلام في النِّداء، فجمعوا بينه وبين ياء النداء. ولو كان مشتقاً لكانت لامه زائدة، وحينئذ لا يُجمع بينه وبينها في النداء، كما لا تقول العربُ: يالحارث ولا يا لعبَّاس. ولاستيفاء المباحث علم الاشتقاق.

ومنها : ما يدلُّ على صفات الباري تعالى الثابتة له كالعالم والقادر، والسميع والبصير.

(1) سورة الأعلى الآية 1

ومنها : ما يدلُّ على إضافة أمر ما إليه، كالخالق، والرَّازق.

ومنها : ما يدلُّ على سلب شيءٍ عنه، كالقدُّوس، والسَّلام. وهذه الأقسام الأربعة لازمة منحصرة، دائرة بين النفي والإثبات، فاختبرْها تجدْها كذلك.

و(قوله : مئة إلا واحد) تأكيد للجملة الأولى، ليرفع به وهم متوهم في النطق أو الكتابة، لأن تسعة متقاربة لسبعة فيها، ومئة منصوبة بدل من تسعة. « من أحصاها دخل الجنة ») هذه الجملة خبر ثانٍ للمئة المذكورة في الجملة الأولى، غير أن هذه الجملة هي الفائدة المقصودةُ لعينها، والجملة الأولى مقصودة لها، لا أن مقصودَها حصر الأسماء فيما ذكر. وهذا كقول القائل: لزيد مئة دينار، أعدَّها للصدقة، لا يُفهم من هذا: أنه ليس له مال غير المئة دينار، وإنما يُفهم أن هذه المئة هي التي أعدَّها للصدقة لا غيرها. وقد دلَّ على أنَّ لله أسماءَ أُخر ما قدَّمناه من قوله ﷺ: « اللَّهُمَّ إنِّي أسألُك بكلِّ اسمٍ سَمَّيت به نفسَك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك » وقوله: « فأحمده بمحامدَ لا أقدر عليها، إلا أن يُلْهِمنيها الله ». وقد بحثَ الناس عن هذه الأسماء في الكتاب والسُّنة، فجمعُوها في كتبهم كالخطَّابي، والقُشيري، وغيرهما، فمن أرادَها وجدَها. وقد روى الترمذي حديث أبي هريرة هذا. وزادَ فيه ذكرَ الأسماء وتعديدَها إلى تسعة وتسعينَ، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفُه إلا من حديث صفوان بن صالح، وهو ثقة عند أهل الحديث.

والإحصاء في الكلام: على ثلاث مراتب؛ أولها: العدد، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَأَحْصَى كُلَّ شَيءٍ عَدَداً** ﴾. [1] والثانية: بمعنى الفهم، ومنه يُقال: رجلٌ ذو حَصَاةٍ أي: ذو لُبٍّ وفهم، ومنه سُمِّي العقل: حصاة، قال كعبُ بن سعد الغنوي:

وأَنَّ لِسانَ المَرْءِ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُ ... حَصَاةٌ عَلَى عَوْرَاتِهِ لَدَلِيلُ

والثالثة: بمعنى الإطاقة على العمل والقوَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿ **عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوه** ﴾ [1] أي: لن تُطيقوا العملَ بذلك، والمرجو من كرم الله تعالى أنَّ من حصلَ له

(1) سورة الجن الآية 28

إحصاءُ هذه الأسماء على إحدى هذه المراتب، مع صحَّة النيَّة، أن يُدخلَه الله الجنَّة. لكنَّ المرتبة الأُولى: هي مرتبة أصحاب اليمين، والثانية: للسابقين، والثالثة: للصِّدِّيقين، ونعني بإطاقتها حسن المراعاة لها، والمحافظة على حدودها، والاتصاف بقدر الممكن منها، كما أشارَ إليه الطوسيُّ في «المقصد الأسنى».

و(قوله: «والله وترٌ يحبُّ الوترَ») قد تقدَّم أن الوترَ: الفردُ، والشفع: الزَّوج، وأن معنى وحدانية الله تعالى: أنَّه واحدٌ في ذاته فلا انقسامَ له، وواحدٌ في إلهيته، فلا نظيرَ له، وواحدٌ في مُلكه ومِلكه فلا شريكَ له.

و(قوله: «يحبُّ الوتر») ظاهرُه: أن الوترَ هنا للجنس: لا معهودَ جرى ذكره يُحمل عليه، فيكون معناه على هذا: أنه يحبُّ كل وتر شرعه، وأمر به، كالمغرب، فرنَّها وترُ صلاة النهار، ووتر صلاة الليل، وكالصلوات الخمس، فإنها وتر. وكالكوتر في مِرَار الطَّهارة، وغسل الميِّت، ونحو هذا مما شُرع فيه الوترُ، ومعنى محبَّته لهذا النوع: أنه أمرَ به، وأثابَ عليه، ويصبحُ ذلك للعموم لما خلقَه وتراً من مخلوقاته كالسنوات السبع، والأرضينَ السبع، والذراري السَّبع، وكآدم الذي خلقَه من تراب، وعيسى الذي خلقه من غير أب، وهكذا كلُّ ما خلقه الله وتراً من مخلوقاته، ومعنى محبَّته لهذا[1] الوتر واحداً بعينه، فقيل: هو صلاة الوتر، وقيل: يوم الجمعة، وقيل: يوم عرفة، وقيل: آدم، وقيل غير ذلك. وقيل يحتمل أن يكون معناه منصرفاً إلى صفة من يعبد الله بالوحدانية والتفرُّد على سبيل الإخلاص والاختصاص.

قال الشيخ رحمه الله: وهذه الأقوال كلُّها متكافئة، وأشبَه ما تقدَّم: حملُه على العموم. وقد ظهرَ لي وجه، وأرجو أن يكونَ أولى بالمقصود، وهو أن الوترَ يُراد به التوحيد، فيكون معناه أن الله تعالى في ذاته وكماله، وأفعاله واحدٌ، ويحبُّ التوحيد، أي: يوحَّد ويُعتقدُ انفراده دون خلقه، فيلتئمُ أوَّلُ الحديث وآخرُه، وظاهرُه وباطنُه.

* * *

(1) النوع أنه خصصها بذلك لحِكم علمها وأمور قدرها. ويُحتمل أن يريد بذلك الوتر.

باب فضل قول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له

عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «من قال: لا إله إلا اللهُ وحدَّه، لا شريكَ له، له الملكُ، وله الحمدُ، وهو على كل شيءٍ قدير في يوم مئة مرة، كانت له عَدْلَ عَشْرِ رقابٍ، وكُتِبَ له بها مئة حسنةٍ، ومُحِيَتْ عنه مئةُ سيئةٍ. .....

ومن باب : فضل التهليل والتسبيح والتحميد

(قوله في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير؛ في يوم مئة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكُتبت له مئةُ حسنة، ومحيتْ عنه مئةُ سيئة») يعني: أنَّ من ثوابَ هذه الكلمات بمنزلة ثواب مَن أعتق عشر رقاب، وقد تقدَّم في العتق: أن من أعتقَ رقبةً واحدة أعتق اللهُ بكل عضو منها عضواً منه من النار، ثم يُزاد مع ذلك كَتْبُ مئة حسنة، ومَحْوُ مئة سيئة، يُجْمَعُ ذلك كله له، وكلُّ واحد من هذه الحسنات مضاعفةٌ بعشرٍ، كما قال تعالى: ﴿**مَن جَاءَ بِالحَسنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمثَالِهَا**﴾ (1)، وكما في حديث سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - المذكور بعد هذا وهذا الحديث وجميع ما في الباب من الأحاديث يدلُّ على: أن ذِكْرَ الله تعالى أفضلُ الأعمال كلِّها. وقد صرَّح بهذا المعنى في آخر هذا الحديث حين قال: «ولم يأت أحدٌ بأفضلَ مما جاء به إلا أحدٌ عمل أكثر من ذلك». وأنصُّ ما في هذا الباب ما خرَّجه مالكٌ عن أبي الدَّرداء قال: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والوَرِق، وخيرٌ لكم من أن تَلْقوا عدوَّكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى. قال: «ذِكْر الله»، وهذا لا يقوله أبو الدرداء من رأيه، ولا بنظره؛ فإنه لا يتوصَّل إليه برأيه، فلا يقوله إلا عن النبي ﷺ غير أنه سكت عن رَفعه للعِلْم بذلك عند مَن حدَّثه بذلك، وقد رواه الترمذي مرفوعاً، والله تعالى أعلم.

---

(1) سورة الأنعام الآية 160

وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحدٌ بأفضلَ مما جاء به إلا أحدٌ عمل أكثر من ذلك. ومن قال: سبحان الله وبحمده في يومْ مئة مرةٍ حُطَّت خطاياه ولو كانت مِثلَ رَبدِ البحر».

وعن أبي أيوبَ، عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قالَ لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، لهُ الملكُ، وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٍ عَشْرَ مراتٍ؛ كان كَمَنْ أَعْتَقَ أربعة أنفسٍ مِنْ ولد إسماعيلَ».

* * *

و(قوله: «وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي») يعني: أن الله تعالى يحفظه من الشيطان في ذلك اليوم فلا يقدرُ منه على زلّة، ولا وسوسة ببركة تلك الكلمات.

قال الشيخ رحمه الله: وهذه الأجور العظيمةُ، والعوائد الجمة إنما تحصل كاملة لمن قام بحقِّ هذه الكلمات، فأحضر معانيها بقلبه، وتأمَّلها بفهمه، واتَّضحت له معانيها، وخاض في بحار معرفتها، ورتع في رياض زهرتها، ووصل فيها إلى عين اليقين؛ فإن لم يكن، فإلى علم اليقين، وهذا هو الإحسانُ في الذِّكْر؛ فإنه من أعظم العبادات، وقد قال ﷺ فيما قدمناه في الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ثم لما كان الذاكرون في إدراكاتهم وفهومهم مختلفين كانت أجورهُم على ذلك بحسب ما أدركوا، وعلى هذا ينزل اختلافُ مقادير الأجور، والثواب المذكور في أحاديث الأذكار، فإنك تجدُ في بعضها ثواباً عظيماً مضاعفاً، وتجد تلك الأذكار بأعيانها في رواية أخرى أكثر أو أقلَّ، كما اتفق هنا في حديث أبي هريرة المتقدم، فإنَّ فيه ما ذكرناه من الثواب، وتجد تلك الأذكار بأعيانها وقد علقَّ عليها من ثواب عتق الرقاب أكثر مما علَّقه على حديث أبي هريرة، وذلك أنه قال في حديث أبي هريرة: «من قال ذلك في يوم مئة مرة كانت له عدل عشر رقاب»، وفي حديث أبي أيوب: «من قالها عشر مرات كانت له عدل أربع رقاب». وعلى هذا فمن قال ذلك مئة مرة كانت له عدل أربعين رقبة، وكذلك تجده في غير هذه الأذكار، فيرجع الاختلافُ الذي في الأجور لاختلاف أحوال الذَّاكرين، وبهذا يرتفعُ الاضطراب بين أحاديث هذا الباب، والله الموفِّق للصواب.

باب فضل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يصبح وحين يمسي: سبحان الله وبحمده مئة مرة، لم يأت أحدٌ يوم القيامة، بأفْضَلَ مِمَّا جاء به، إلا أحدٌ قال مثل ما قال، أو زاد عليه».

وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلي الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لأَنْ أقولَ: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحبُّ إليَّ مما طلعتْ عليه الشَّمْسُ».

و(قوله: «إلا أحد عمل أكثر من ذلك») أي: قال، فسمَّى القولَ عملاً، كما قد صرَّح به في الرواية الأخرى. والذكرُ من الأعمال التي لا تنفعُ إلا بالنيَّة والإخلاص.

و(قوله: «لأن أقولَ: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، أحبُّ إليَّ مما طلعتْ عليه الشمس») أي: من أن تكون له الدنيا بكلِّيتها، فيحتمل أن يكون هذا على جهة الإغياء على طريقة العرب في ذلك. ويحتمل أن يكون معنى ذلك: أن تلك الأذكارَ احبُّ إليه من أن تكون له الدنيا فينفقها في سبيل الله وفي أوجه البرِّ والخير، وإلاَّ فالدنيا من حيث هي دنيا لا تعدلُ عند الله جناحَ بعوضة، وكذلك هي عند أنبيائه، وأهل معرفته، فكيف تكون أحب إليه من ذكر أسماء الله وصفاته، التي يحصلُ بها ذلك الثواب العظيم، والحظ الجزيل؟.

و(وقوله: «الله أكبر كبيراً») نصب كبيراً على أنه مفعول بفعل مضمر أكبر تقديره: كبيرا، هذا قول بعض النحويين (وقوله: والحمد لله كثيرا نصب كثيرا على أنه نعتٌ لمصدر محذوفٍ. كأنه قال: والحمد لله حمداً كثيراً.

و(قوله: فهؤلاء لربي) أي: هؤلاء الكلمات هي حق الله تعالى؛ إذ هي أوصافُه، فما لي؟ أي: فما الذي أذكره لحقِّي وحظِّي؟ فدلَّه ﷺ على دعاءٍ يشملُ له مصالح الدنيا والاخرة، فقال: قل: اللهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، وارزقني، وعافني» أي: اغفر لي

وعن سعد بن أبي وقاص، قال: جاء أعرابيٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: عَلِّمْني كلاماً أقوله! قال: «قل: لا إلا إلا الله، وحده لا شريك له، الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، سبحانَ اللهِ ربِّ العالمين، لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم». قال: فهولاء لربِّي، فما لي؟ قال: قل: «اللهم اغفرْ لي، وارْحمني، واهْدِني، وارزقني». وزاد من حديث أبي مالكِ الأشجعيِّ: «وعافني»، ويجمع أصابعه إلى الإبهام. قال: «فإنَّ هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك».

وعن سعد بن أبي وقاصٍ، قال: كُنَّا عند رسول الله ﷺ فقال: «أيَعْجزُ أحدُكم أن يَكْسِبَ كلَّ يوم ألفَ حسنة؟»، فسأله سائلٌ منْ جلسائه: كيف يكسِبُ أحدُنا ألف حسنة؟! قال: «يُسَبِّحُ مئة تسبيحةٍ، فيُكْتَبُ له ألفُ حسنةٍ، أو يُحَطُّ عنه ألفُ خطيئةٍ».

* * *

ذنوبي السالفة، وارحمني بنعمك المتوالية، واهدني إلى السبيل الموصل إليك، وارزقني ما أستعين به على ذلك، ويغنيني عن غيرك، وعافني عما ينقض لي شيئاً أو ينقصه.

و(قوله: ويجمعُ بين أصابعه) أي: عند الكلمات المدعو بها عليك، تمكيناً لها في النفس، وضبطاً لها في الحفظ.

و(قوله: «فإن هؤلاء تجمع دنياك وآخرتك») أي: هذه الدعوات تجمعُ لك خيرات الدَّارين، وتكفيك شرورهما.

و(قوله: «يكتب اللَّهُ له ألف حسنةٍ أو يحطُّ) كذا وقع هذا اللفظُ في بعض النسخ بألف قبل الواو، وفي بعضها بإسقاط الألف، وهو صحيحٌ روايةً ومعنى: لأن اللَّهَ قد جمع ذلك كلَّه لقائل تلك الكلمات كما تقدم، ولو صحت روايةُ الألف لحملت على المذهب الكوفي في أن (أو) تكون بمعنى الواو.

* * *

باب يذكر الله تعالى بوقار وتعظيم
وفضل لا حول ولا قوة إلا بالله

عن أبي موسى، قال: كُنَّا مع النَّبيِّ ﷺ في سفرٍ - وفي روايةٍ: في غزاةٍ - فجعل النَّاسُ يجهرون بالتكبير.

وفي رواية: فجعل رجلٌ كلما علا ثَنِيَّةً نادى: لا إله إلا اللَّهُ والله أكبر، فقال النَّبيُّ ﷺ: «يا أيُّها النَّاسُ اربَعُوا على أَنْفُسِكُم؛ إِنَّكُم لستم تدعون أصَمَّ، ولا غائباً، إِنَّكُم تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم». قال: وأنا خَلْفَهُ؛ وأنا أقول: لا حول ولا قوَّة إلا بالله. فقال: «يا عبدَ اللَّهِ بنَ قيسٍ! ألا أدلُّك على كنز مِنْ كنوز الجنَّة؟»، فقلت: بلى يا رسول الله! قال: «قل: لا حول ولا قوَّة إلا بالله».

وفي روايةٍ «والذي تدعونه أقربُ إلى أحدِكم من عُنُقِ راحلةِ أحدِكمْ».

* * *

(قوله ﷺ: أيها الناسُ اربعوا على أنفسكم، إنكم لستم تدعون أصمَّ ولا غائباً») أي: ارفقوا. يقال: ربع الرجلُ يربع: إذا وقف وتحبَّس، ومنه قولهم: اربع على ضلعك، أي: ارفق بنفسك. وإنما قال: «لستم تدعون أصَمَّ ولا غائباً» لأنهم رفعوا أصواتهم كما ترفع لمن كان أصَمَّ أو غائباً. ثم قال: «تدعون سميعا قريبا» وهو معكم». ثم مثَّل لهم بما بين أيديهم فيما يُحسُّونه ويدركونه، فقال: «تدعونه أقربُ إلى أحدكم من عُنق راحلته؟» فهذه معيَّةٌ وقربٌ بالاطلاع والمشاهدة، لا بالمكان والزمان.

باب تجديد الاستغفار والتوبة في اليوم مئة مرة

عن الأغَرِّ المزني ـ وكانت له صُحْبَةٌ ـ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إنَّه لَيُغَانُّ على قلبي، وإنِّي لأستغفرُ الله في اليوم مئةَ مرةٍ».

(قوله: «إنه ليُغانُّ على قلبي وإني لأستغفرُ الله في اليوم مئة مرة») ليُغان: ليغطَّى، والغَيْنُ: التغطية، ومنه يُقال للغيم: الغين. لأنه يُغطِّي. ولا يُظنُّ أن أحداً قالَ إن قلب النبي ﷺ تأثَّر بسبب ذنب وقع منه بغيْن أو رَيْنٍ، أو طُبع عليه، فإنَّ من جوّز الصغائر على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يقلْ إنها إذا وقعت منهم أثّرت في قلوبهم كما تؤثِّر الذنوبُ في قلوب العُصاة، بل: هم مغفور لهم ومُكرَّمون، وغير مُؤاخذينَ بشيء من ذلك. فثبتَ بهذا أن ذلك الغينَ ليس هو بسبب ذنبٍ، ولكن اختلفوا في ذلك الغَيْن. فقالت طائفةٌ: إنه عبارة عن فتراتٍ وغفلات عن الذكر الذي كان دأبه، فكان يستغفرُ الله من تلك الغمرات. وقيل: كان ذلك بسبب ما اطَّلع عليه من أحوال أمَّته، وما يكون منها بعدَه، فكان يستغفرُ اللَّهَ لهم. وقيل: كان ذلك لما يشغله من النظر في أمور أمَّته ومصالحهم، ومحاربة عدوِّه عن عظيم مقامه، فكان يرى أن ذلك ـ وإن كان من أعظم الطاعات، وأفضل الأعمال ـ نزولٌ عن علوِّ درجاته ورفعة مقامه، فيستغفرُ ربَّه من ذلك. وقيل: كان ذلك حال خشية وإعظام لله تعالى. والاستغفارُ الذي صدرَ منه لم يكن لأجل ذلك الغيْن بل للقيام بالعبادة، ألا ترى قولَه في الحديث: «إنه ليُغانُ على قلبي، وإني لأستغفرُ اللهَ» فأخبرَ بأمرين مستأنفين ليس أحدُهما معلَّقاً على آخر. وقال بعضُ أرباب الإشارات: إن النبيَّ ﷺ كان دائمَ الترقي في المقامات، سريعَ التَّنقُّل في المنازلات، فكان إذا ترقَّى من مقام إلى غيره اطَّلع على المتنقل عنه، فظهرَ له: أنه نقصٌ بالنسبة إلى المتنقل إليه، فكان يستغفرُ الله من الأوَّل ويتوبُ منه. كما قال في الحديث. وقد أشار الجُنيد ـ رحمه الله ـ إلى هذا بقوله: حسناتُ الأبرار سيئات المُقرَّبين، والله تعالى أعلم.

وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: يا أيُّها النَّاس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرةٍ».

* * *

و(قوله: «يا أيها النَّاسُ! توبوا إلى الله») أمر على جهة الوجوب، كما قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [1]، وكما قال تعالى: ﴿تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾ [2]، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [3]. ولا خلافَ أنها واجبة على كلِّ من أذنب. وهي في اللغة: الرجوع. يُقال: تاب وثابَ وأثابَ وأناب، وآب، بمعنى: رجع. وهي في الشرع: الرجوعُ عما هو مذمومٌ في الشرع إلى ما هو محمود فيه. وسيأتي استيفاء الكلام فيها في الرقائق -إن شاء الله تعالى-.

و(قوله: «فإني أتوبُ إلى الله في اليوم مئة مرَّة») هذا يدلُّ على استدامة التوبة، وأن الإنسانَ مهما ذكرَ ذنبَه جدَّد التوبةَ؛ لأنه من حصول الذنب على يقين، ومن الخروج عن عقوبته على شكٍّ. فحقُّ التائب أن يجعلَ ذنبَه نُصب عينيه، وينوحَ دائماً عليه، حتى يتحقَّقَ أنه قد غُفر له ذنبُه، ولا يتحقَّقُ أمثالنا ذلك إلا بلقاء الله تعالى، فواجبٌ عليه ملازمةَ الخوف من الله تعالى، والرجوعَ إلى الله بالندم على ما فعلَ، وبالعزم على ألاَّ يعودَ إليه، والإقلاع عنه. ثم لو قدَّرنا أنه تَحَقَّقَ أنه غُفر له ذلك الذنب تعيَّنت عليه وظيفة الشكر، كما قال ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟» وإنَّمَا أخبرَ النبيُّ ﷺ بأنَّه يكرِّر توبتَه كلَّ يوم مع كونه مغفوراً له، ليُلحقَ به غيرُه نفسَه بطريق الأولى؛ لأن غيره يقول: إذا كانت حال من تحقَّق مغفرة ذنوبه هكذا، كانت حال من هو من ذلك في شك أحرى، وأولى. وكذلك القولُ في الاستغفار والتوبة يقتضي شيئاً يُتاب منه؛ إلا أن ذلك منقسمٌ بحسب حال من صدرَ منه ذلك الشيئ، فتوبة العوامَ من السيئات، وتوبة الخواصِّ من الغفلات، وتوبة خواصِّ الخواصِّ من الالتفات إلى الحسنات، وهكذا قاله بعضُ أرباب القلوب، وهو كلامٌ حسن في نفسه، بالغٌ في فنِّه.

* * *

---

(1) سورة النور الآية 31
(2) سورة التحريم الآية 8
(3) سورة الحجرات الآية 11

باب ليُحقِّق الدَّاعي طِلبته وليعزمْ في دعائه

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقولنَّ أحدُكم: اللهمَّ اغفر لي إن شئت! اللهم ارحمني إن شئت! لِيَعْزِم في الدعاء؛ فإنَّ الله صانعٌ ما شاء لا مكرَه له».

ونحوه عن أنسٍ.

* * *

ومن باب: قوله ليُحقِّقَ الداعي طِلْبَتَهُ وليعزمْ في دُعائه

(قوله: «لا يقولن أحدُكم: اللهم اغفر لي إن شئتَ») إنما نهي الرسول ﷺ عن هذا القول؛ لأنه يدلُّ على فتور الرغبة، وقلَّة التَّهَمُّم بالمطلوب. وكأن هذا القول يتضمَّنُ أن هذا المطلوب إنْ حصلَ، وإلا استغني عنه، ومن كان هذا حاله لم يُتحقَّقْ من حاله الافتقار والاضطرار الذي هو روح عبادة الدُّعاء، وكان ذلك دليلاً على قلَّة إكتراثه بذنوبه، وبرحمة ربه، وأيضاً فإنه لا يكون مُوقناً بالإجابة، وقد قال ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أنَّ اللهَ لا يستجيبُ دعاءً من قلب غافل لاهٍ». ثم إن النبيَّ ﷺ لم يكتف بالنهي عن ذلك حتى أمرَ بنقيضه فقال: «ليعزمْ في الدعاء» أي: ليجزمْ في طلبته، وليحقِّق رغبتَه ويتيقَّن الإجابة؛ فإنه إذا فعلَ ذلك دلَّ على علمه بعظيم قدر ما يطلبُ من المغفرة والرحمة، وعلى أنه مفتقرٌ لما يطلبُ، مضطرٌّ إليه، وقد وعدَ الله المُضْطرَّ بالإجابة بقوله: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ**﴾ (1).

و(قوله: «فإنَّ الله صانعٌ ما شاءَ لا مُكرهَ له») إظهارٌ لعدم فائدة تقييد الاستغفار والرحمة بالمشيئة؛ لأن الله تعالى لا يضطره إلي فعل شيءٍ دعاءٌ ولا غيرُه، بل يفعل ما يُريد ويحكمُ ما يشاء، ولذلك قيَّدَ الله تعالى الإجابةَ بالمشيئة في قوله: ﴿**فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ**﴾ (2) فلا معنى لاشتراط مشيئته فيما هذا سبيلُه، فأما اشتراطُها في الإيمان فقد تقدَّم القول فيه.

(1) سورة النمل الآية 62
(2) سورة الانعام الآية 41

باب في أكثر ما كان يدعو به النبي ﷺ

عن أنس، قال: كان أكثرُ دعوةٍ يدعو بها النَّبيُّ ﷺ يقول: «اللهم آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً، وقنا عذاب النَّار». قال: وكان أنسٌ إذا أراد أن يدعو بدعوةٍ دعا بها، فإذا أراد أن يدعوَ بدعاء، دعا بها فيه.

وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ عادَ رجلاً من المسلمين قد خَفَتَ فصار مثل الفَرْخ، فقال رسول الله ﷺ: «هل كنت تدعو بشيءٍ أو تسأله إياه؟! قال: نعم. كنتُ أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة، فعجِّله لي في الدنيا! فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله! لا تطيقه ـ أو: لا تستطيعه ـ أفلا قلت: اللهمّ آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً، وقنا عذاب النَّار».

وفي روايةٍ: فدعا الله له، فشفاه.

* * *

ومن باب: أكثر ما كانَ النبيُّ ﷺ يدعو به

إنما كان أكثرُ دعاء النبيِّ ﷺ بقوله: «اللهم ربنا اتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة» لأنها من الدعوات الجوامع التي تتضمن خيرَ الدنيا والاخرة، وذلك أنَّ حسنةً نكرة في سياق الطلب، فكانت عامَّة، فكأنه يقول: أعطني كلَّ حالة حسنة في الدنيا والاخرة. وقد اختلفت أقوال المفسرين في الآية اختلافاً يدلُّ على عدم التوقيف، وعلى قلة التأمَّل لموضع الكلمات. فقيل: الحسنة في الدنيا هي: العلم والعبادة، وفي الآخرة الجنة. وقيل: العافية والعاقبة. وقيل: المال وحسن المآل. وقيل: المرأة الصالحة والحور والعين. والصحيح: الحمل على العموم، والله أعلم.

و(قوله: إنه ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد خَفَتَ حتى صارَ مثل الفرخ) أي: ضَعُفَ ونحلَ في جسمه، وخفي كلامُه، وتشبيه له بالفرخ: يدلُّ على أنه تناثر أكثرُ شعره، ويُحتمل أن يكونَ شبَّهه به لضعفه، والأوَّل أوقع في التشبيه. ومعلومٌ أن مثلَ هذا المرض لا يبقى معه شعر ولا قوَّة.

باب ما يدعى به وما يتعوذ منه

عن أبي بكر الصِّديق، رضي الله عنه، أنَّه قال لرسول الله ﷺ: علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي - في روايةٍ: في بيتي - قال: «قل: اللهمَّ! إنِّي ظلمتُ نفسي ظلماً كبيراً». - وفي روايةٍ: «كثيراً» - ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك وارحمني؛ إنَّك أنت الغفور الرحيم».

و(قوله ﷺ: «سبحان الله! لا تُطيقه») يعني أن عذابَ الآخرة لا يُطيقه أحدٌ في الدنيا؛ لأن نشأة الدنيا ضعيفة لا تحتملُ العذابَ الشديدَ، والألمَ العظيمَ، بل اذا عَظُمَ عليه ذلك هلكَ ومات، فأما نشأة الآخرة فهي للبقاء، إما في نعيم، أو في عذاب، إذ لا موتَ كما قال في حقِّ الكفار: ﴿**كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ**﴾ (1). فنسأل الله العافية في الدنيا والآخرة. ثم إن النبيَّ ﷺ أرشدَه إلى أحسن ما يُقال؛ وهو قوله: «آتنا في الدُّنيا حسنة».

* * *

ومن باب: ما يُدْعَى به وما يتعوَّذ منه

(قول أبي بكر - رضي الله عنه -: علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي) إنما خصَّ الصلاة لإنها بالإجابة أجدر، وقد قال ﷺ: «أقربُ ما يكون العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ، فأكثروا الدعاء». وقد تقدَّم: أن الظلم: وَضعُ الشيء في غير موضعه، وظلمُ الإنسان لنفسه: هو تركُها مع هواها حتى يصدرَ عنها من المعاصي ما يوجبُ عقوبتها. وغفران الذنوب: هو سترها بالتوبة منها، أو بالعفو عنها.

و(قوله: «فاغفرْ لي مغفرةً من عندك») أي: تفضُّلاً من عندك، وإن لم أكن لها أهلاً، وإلا فالمغفرةُ، والرحمة، وكلُّ شيءٍ من عنده تعالى. وقد أكَّد ذلك قولُه: «وارحمني إنك أنت الغفورُ الرحيم» أي: لأنك الكثيرُ المغفرة والرحمة، لا لأني

---

(1) سورة النساء الآية 56

وعن عائشة، أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يدعو بهؤلاء الدعوات: «اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من فتنة النَّار، وعذاب النَّار، وفتنةِ القبر، وعذاب القبر، ومن شرِّ فتنة الغنى، ومن شرِّ فتنة الفقر، وأعوذ بك من فتنةِ المسيح الدَّجال، اللهُمَّ اغسل خطاياي بماء الثَّلج والبَرَدِ، ونقِّ قلبي من الخطايا كما نقَّيتَ الثوبَ الأبيضَ من الدَّنسِ، وباعِدْ بيني وبين خطاياىَ، كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللُهمَّ فإنِّي أعوذ بك من الكسل، والهَرَمِ، والمأثم، والمغرم».

أستحقّ ذلك. وقد استحبَّ بعضُ العلماء أن يُدعى بهذا الدعاء في الصلاة قبل التسليم، والصلاة كلُّها عند علمائنا محلٌّ للدعاء، غير أنه يُكره الدعاء في الركوع. وأقربه للإجابة: السجود، كما قلناه. وقد قدَّمنا: أنه يجوزُ أن يدعى في الصلاة بكل دعاء كان بألفاظ القرآن، أو بألفاظ السُّنَّة، أو غيرها خلافاً لمن منع ذلك إذا كان بألفاظ الناس، وهو أحمد بن حنبل وأبو حنيفة.

و(قوله: «اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار، وعذاب القبر») الفتنة هنا: هي ضلالُ أهل النار المفضي بهم إلى عذاب النار. وفتنةُ القبر: هي الضلالُ عن صواب إجابة الملكين فيه، وهما: منكر ونكير ـ كما تقدَّم ـ. وعذاب القبر: هو ضربُ مَن لم يوفّق للجواب بمطارق الحديد، وتعذيبه إلى يوم القيامة. وشرُّ فتنة الغنى: هي الحرصُ على الجمع للمال، وحبّه حتى يكتسبه من غير حلِّه، ويمنعه من واجبات إنفاقه وحقوقه. وشر فتنة الفقر: يعني به: الفقر المدقع الذي لا يصحبه صبر ولا ورع، حتى يتورَّط صاحبُه بسببه فيما لا يليقُ بأهل الأديان، ولا بأهل المروءات، حتي لا يبالي بسبب فاقته على أي حرام وثب، ولا في أي ركاكة تورَّط، وقيل: المرادُ به فقر النفس الذي لا يردّه ملك الدّنيا بحذافيرها. وليس في شيءٍ من هذه الأحاديث ما يدلُّ على أنَّ الغنى أفضلُ من الفقر، ولا أن الفقرَ أفضلُ من الغنى؛ لأن الغنى والفقر المذكورين هنا مذمومان باتفاق العقلاء. وقد تكلَّمنا على مسألة التفضيل فيما تقدَّم.

وعن أنس بن مالك، قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم! إنِّي أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والهرم، والبخل». ـ وفي روايةٍ: «وأرذل العمر وأعوذ بك من عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات».

وعن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ كان يتَعوذ من سوء القضاء، ومن دَرَك الشَّقاء، ومن شماتة الأعداء، ومن جَهْدِ البلاء. قال سفيان بن عيينة: أشكُّ أنِّي زدت واحدةً منها.

* * *

والكسل المتعوَّذ منه هو التثاقل عن الطاعات، وعن السعي في تحصل المصالح الدّينية والدُّنيوية، والعجز المتعوَّذ منه: هو عدمُ القدرة على تلك الأمور. والهرم المتعوَّذ منه: هو المعبَّر عنه في الحديث الآخر: بأرذل العمر، وهو: ضَعْف القوى، واختلال الحواس والعقل الذي يعودُ الكبير بسببه إلى أسوأ من حال الصغير، وهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نَنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (1)

و(قوله: كان رسولُ الله ﷺ يتعوَّذُ من سوء القضاء، ومن درك الشقاء) يروى بفتح الراء وبإسكانها، فبالفتح: الاسم، وبالإسكان: المصدر، وهما متقاربان، والمتوعوَّذ منه: أن يَلْحَقَه شقاءٌ في الدنيا يعميه، ويثقله، وفي الآخرة" يعذبه. وجهد البلاء: يروى بفتح الجيم وضمها، قال ابنُ دريد: هما لُغتان بمعنى واحد، وهو: التعب والمشقة، وقال غيره ـ وهو نفطويه ـ بالضم: وهو الوسع والطاقة، وبالفتح: المبالغة والغاية. وروي عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: جهدُ البلاء: قلَّة المال، وكثرة العيال. وشماتة الأعداء: هي ظفرهم به، أو فرحهم بما يلحقه من الضرر والمصائب. وقد جاء هذا الدُّعاء مسجعاً ـ كما ترى الآن ـ، ذلك السَّجع لم يكن متكلَّفاً، وإنما يُكره من ذلك ما كان مُتكلَّفاً ـ كما تقدَّم ـ. وإنما دعا النبيُّ ﷺ بهذه الدعوات، وتعوَّذ بهذه التعوذات إظهاراً للعبودية، وبياناً للمشروعية؛ ليُقْتَدى بدعواته ـ ويُتعوَّذ بتعويذاته ـ، والله أعلم.

* * *

---

(1) سورة يس الآية 68

باب ما يقول إذا نزل مَنْزِلاً وإذا أمسى

عن خولةَ بنت حكيمٍ السُلَميَّة، قالت : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من نزل مَنْزِلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامَّاتِ من شرِّ ما خلق: لم يَضُرَّه شيءٌ حتى يرتحلَ من منزله ذلك».

وفي رواية: قال عليه الصلاة والسلام: «إذا نزل أحدُكم مَنْزِلاً فليقل: أعوذ بكلمات الله التامَّات من شر ما خلق...» وذكره.

وعن أبي هريرة قال: جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله! ما لقيت من عقربٍ لدغتني البارحة! قال: «أَمَا لو قلت حينَ أمسيْتَ: أعوذُ بكلمات الله التامات من شر ما خلق؛ لم تَضُرَّك».

* * *

ومن باب: ما يقول إذا نزل منزلاً وعند النوم

(قوله: «إذا تزل أحدُكم مَنْزِلاً، فليقل: أعوذُ بكلمات الله التامات من شرِّ ما خَلَق») قيلَ معناه: الكاملات اللاتي لا يَلْحقها نقص، ولا عيب، كما يلحقُ كلام البشر. وقيل معناه: الشافية الكافية. وقيل: الكلمات ـ هنا هي: القرآنُ؛ فإن اللَّهَ تعالى قد أخبر عنه بأنه هُدى وشفاء. وهذا الأمرُ على جهة الإرشاد إلى ما يُدْفَعُ به الأذى. ولما كان ذلك استعاذة بصفاتَ الله تعالى، والتجاء إليه، كان ذلك من باب المندوب إليه، المرغَّب فيه. وعلى هذا فحقُّ المتعوِّذ بالله تعالى، وبأسمائه وصفاته أن يصدقَ اللهَ في التجائه إليه، ويتوكل في ذلك عليه، ويُحضر ذلك في قلبه، فمتى فعل ذلك وصل إلى منتهى طلبه، ومغفرة ذنبه.

(وقوله: «فإذا لا يضرُّه شيءٌ حتى يرتحلَ منه») هذا خبرٌ صحيح، وقولٌ صادق، علمنا صدقَه دليلاً وتجربة. فإني منذ سمعتُ هذا الخبر عملتُ عليه، فلم يضرَّني شيءٌ إلى أن تركته، فلدغتني عقربٌ بالمهدية ليلاً، فتفكرتُ في نفسي، فإذا بي قد نسيتُ أن أتعوَّذُ بتلك الكلمات، فقلت لنفسي ـ ذاماً لها وموبِّخاً ـ ما قاله ﷺ للرجل الملدوغ: «أما إنك لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامَّات من شر ما خلق، لم تضرك».

باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع وما بعد ذلك

عن البراء بن عازب : أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ : «إذا أخذْتَ مَضْجَعَكَ فتوضَّأ وضوءكَ للصَّلاة، ثم اضطجِعْ على شِقِّكَ الأيمنِ، ثم قل : اللهم إني أسلمتُ وجهي إليكَ، وفوضْتُ أمري إليكَ، وألجأت ظهري إليك؛ رغبةَ ورهبةً إليك، لا ملْجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت،

ومن باب : ما يقول عند النوم

(قوله : «إذا أخذتَ مضجعك، فتوضَّأ وضوءك للصَّلاة، ثم اضطجعْ على شقِّك الأيمن») هذا الأمرُ على جهة النَّدب؛ لأنَّ النومَ وفاة، وربما يكون موتاً، كما قال تعالى : ﴿ **اللهُ يَتوفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى** ﴾ [1]. ولما كان الموتُ كذلك نَدَب النبيُّ ﷺ النائمَ إلى أن يستعدَّ للموت بالطَّهارة، والاضطجاع على اليمين، على الهيئة التي يُوضَعُ عليها في قبره. وقيل: الحكمةُ في الاضطجاع على اليمين، أن يتعلَّق القلبُ إلى الجانب الأيمن، فلا يثقلُ النومُ، وفيه دليلٌ على : أنَّ النومَ على طهارة كاملة أفضل، ويتأكَّد الأمرُ في حقِّ الجُنُب، غير أن الشرعَ قد جعل وضوءَ الجنب عند النوم بدلاً من غُسله تخفيفاً عنه، وألا فذلك الأصل يقتضي : ألاَّ ينامَ حتى يغتسل. وقد تقدَّم القولُ في الأمر في حقِّ الجُنُب عند النوم والطهارة.

و(قوله : «قل: اللهم إني أسلمتُ وجهي إليك»)، وفي رواية : «نفسي» بدل : «وجهي») وكلاهما بمعنى : الذات والشَّخص. فكأنه قال : أسلمتُ ذاتي وشخصي. وقد قيل : إنَّ معنى الوجه : القصد، والعمل الصَّالح، ولذلك جاء في روايةٍ : «أسلمت

---

(1) سورة الزمر الآية 42

وبنبيك الذي أرسلت، واجعلهن من آخر كلامك فإنْ متَّ من ليلتك مُتَّ وأنت على الفطرة».

وفي روايةٍ: «وإن أصبحتَ أصبْتَ خيراً».

نفسي إليك، ووجهتُ وجهي إليك،» فجمع بينهما، فدلَّ ذلك على أنهما أمران مُتغايران كما قُلناه. ومعنى أسلمتُ: سلَّمت، واستسلمت، أي: سلَّمتُها لك؛ إذ لا قدرةَ لي على تدبيرها، ولا على جَلْب ما ينفعها، ولا على دَفْع ما يضرُّها، بل: أمْرها إليكَ مُسلَّمٌ تفعلُ فيها ما تريد، واستسلمتُ لما تفعلُ فيها، فلا اعتراضَ على ما تفعل، ولا مُعارضة.

و(قوله: «وفوضتُ أمري إليك») أي: توكَّلتُ عليك في أمري كلِّه؛ لتكفيني همَّه، وتتولَّى إصلاحَه.

و(قوله: «وألجْأتُ ظهري إليك») أي: أسندتُه إليك لتقوِّيه وتعينه على ما ينفعني؛ لأنَّ من استند إلى شيءٍ تقوَّى به، واستعان.

و(قوله: «رغبة ورهبة إليك») أي: طمعاً في رفدك وثوابك، وخوفاً منك، ومن أليم عقابك.

و(قوله: «فإن متَّ متَّ على الفطرة») أي: على دينِ الإسلام، كما قال في الحديث الآخر: «من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخل الجنة».

قال الشيخ رحمه الله: هكذا قال الشيوخ في هذا الحديث، وفيه نظر؛ لأنه: إذا كان قائل هذه الكلمات المقتضية للمعاني التي ذكرناها من التوحيد، والتسليم، والرضا إلى أن يموتَ على الفطرة، كما يموتُ من قال: لا إله إلا الله، ولم يخطر له شيء من تلك الأمور، فأين فائدة تلك الكلمات العظيمة، وتلك المقامات الشريفة؟. فالجواب: أن كُلاً منهما ـ وإن مات على فطرة الإسلام ـ فبين الفطرتين ما بين الحالتين، ففطرة الطائفة الأولى: فطرة المقرَّبين والصِّديقين، وفطرة الثانية: فطرة أصحاب اليمين.

و(قوله: «وإن أصبحتَ أصبتَ خيراً») أي: صلاحاً في ذلك وزيادة في أجرك، وأعمالك.

قال : فردَّدْتُهُنَّ لأَسْتَذْكِرَهُنَّ، فقلت: آمنت لرسولك الذي أرسلت، قال: «قل آمنت بنبيك الذي أرسلت».

وعنه؛ أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا أخذ مَضْجَعَهُ قال: «اللهم باسمك أحيا، وباسمك أموت»، وإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النُّشور».

و(قوله: «قل: آمنت بنبيِّك الذي أرسلَ») هذا حجَّة لمن لم يُجز نقل الحديث بالمعنى، وهو الصحيحُ من مذهب مالك، وقد ذكرنا الخلافَ فيه، ولا شكَّ في أن لفظ النبوة من النبأ، وهو الخبر، فالنبيُّ في العُرْف: هو المنبَّأ من جهة الله تعالى لأمر يقتضي تكليفاً، فإن أُمرَ بتبليغه إلى غيره فهو رسول، وإلا فهو نبيٌّ غيرُ رسول. وعلى هذا فكلُّ رسول نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً؛ لأنَّ الرسولَ والنبيَّ قد اشتركا في أمر عام وهو النبأ، وافترقا في أمر خاص وهو الرسالة. فإذا قلتَ: محمّد رسول الله، تضمَّن ذلك أنه نبيٌّ رسولٌ، فلما اجتمعا في النبيِّ ﷺ أرادَ أن يجمعَ بينهما في اللفظ حتى يُفْهَم من كل واحد منهما من حيث النطق ما وُضع له. وأيضاً فليخرجْ عما يُشبه تكرار اللفظ من غير فائدة؛ لأنه إذا قال: ورسولكَ، فقد فهم منه أنه أرسلَه، فإذا قال الذي أرسلتَ صار كالحشو الذي لا فائدة له، بخلاف نبيِّك الذي أرسلتَ، فإنهما لا تكرار فيهما لا مُحقَّقاً ولا مُتوهَّماً. والله تعالى أعلم.

و(قوله: «اللهم باسمك أحيا، وباسمكَ أموتُ») أي: بكَ يكون ذلك فالاسم هنا: هو المسمَّى، كقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [1]، أي: سبِّح ربَّك. هذا قول الشارحين.

قال الشيخ رحمه الله: وقد استفدتُ فيه من بعض مشايخنا معنى آخر وهو: أنه يحتملُ أنه يعني باسمك المُحيي المميت من أسمائه تعالى، ومعنى ذلك: أن الله تعالى إنما سمَّي نفسَه بأسمائه الحسنى لأن معانيها ثابتةٌ في حقِّه وواجبةٌ له، فكلُّ ما

---

(1) سورة الأعلى الآية 1

وعن عبد الله بن الحارث يحدث عن عبد الله بن عمر: أنَّه أمر رجلاً إذا أخذ مضجعه قال: «اللهُمَّ خَلَقْتَ نفسي وأنت توفَّاها، لك مماتُها ومحياها، أنْ أحْيَيْتَها فاحفَظْها، وإن أمتَّها فاغفرْ لها، اللهم! أسألك العافية». فقال له رجل: سمعت هذا من عمر؟ قال: مِنْ خيرٍ مِنْ عُمَرَ، مِنْ رسول الله ﷺ.

وعن أبي هريرة، قال: كانَ رسولُ الله ﷺ يأمرُنا إذا أخذنا مَضْجَعنا أنْ نقول: «اللهم! ربَّ السَّموات، وربَّ الأرض، وربَّ العرش العظيم، ربَّنا، وربَّ كلِّ شيء، فالقَ الحبِّ والنوى، ومنزلَ التوراة والإنجيل والفرقانَ؛ أعوذُ

ظهرَ في الوجود من الآثار إنما هي صادرة عن تلك المقتضيات، فكلُّ إحياء في الدنيا والآخرة: إنما هو صادرٌ عن قدرته على الإحياء، وكذلك القول في الإماتة، وفي الرحمة والملك، وغير ذلك من المعاني التي تدلُّ عليها أسماؤه، فكأنه قال: باسمك المحيي أحيا، وباسمك المميت أموت، وكذلك القول في سائر الأسماء الدَّالَّة على المعاني. وبسط ذلك يستدعي تطويلاً، وفيما ذكرناه تنبيه، يكتفي به النَّبيه.

و(قوله: «وإليك النشور») أي: المرجع بعد الإحياء. يقال: نشر الله الموتى فنُشروا، أي: أحياهم فحَيُوا، وخرجوا من قبورهم منتشرين، أي: جماعات في تفرقة، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ (1).

و(قوله: «لك مماتها ومحياها») أي: موتها وحياتها، أي: ذلك لك وحدكَ لا لغيرك.

و(قوله: «فالقَ الحَبِّ والنَّوى») أي: شاقَّ الحبَّة، فَيُخْرِجُ منها سنبلةً والنواة: فيخرجُ منها نخلةً، ومنه القَسَم المشهور عن عليٍّ: والذي فلقَ الحبَّة، وبرأ النَّسَمة، أي: شقَّها.

---

(1) سورة القمر الآية 7

بك من شرِّ كلِّ ذي شرٍّ أنت آخذٌ بناصيته، اللهم! أنت الأول فليس قبلك شيءٌ، وأنت الاخرُ فليس بعدكَ شيءٌ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيءٌ، وأنت الباطنُ فليس دونك شيءٌ؛ اقض عنا الدَّيْنَ، وأغْنِنَا من الفقر».

وعنه؛ قال: أَتَتْ فاطمة النَّبيَّ ﷺ تسأله خادماً فقال لها: «قولي: اللهم! ربَّ السَّواتِ السَّبع...» بمثل ما تقدم.

وفي روايةٍ: كان يأمرنا إذا أراد أحدُنا أن ينام أنْ يضطجع على شِقِّه الأيمنِ، ثم يقول: اللهم...» كما تقدَّم.

و(قول الرجل لابن عمر: سمعتَ من ابن عمر؟ فقال: من خيرٍ من ابن عمر) هكذا رواه السمرقندي بزيادة ابن في الموضعين، وهو وهم؛ لأن القائل: سمعتُ من خيرٍ من عمر، هو ابنُ عمر لا عمر، وكذلك رواية الجماعة، وهو الصحيحُ.

وأصلُ ربٍّ: اسم فاعل من ربَّ الشيءَ يربُّه: إذا أصلحَه، وقام عليه، ثم إنه يُقال: على السَّيِّد والمالك.

و(قوله: «أنت الأوَّل فليس قبلك شيء... الحديث إلى آخره») تضمَّن هذا الدعاء من أسماء الله تعالى ما تضمَّنه قوله تعالى: ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ**﴾ [1]. وقد اختلفت عبارات العلماء في ذلك، وأرشق عباراتهم في ذلك قول من قال: الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء، والظاهر بلا اقتراب، والباطن بلا احتجاب. وقيل: الأول بالإبداء، والآخر بالإفناء، والظاهر بالآيات، والباطن عن الإدراكات. وقيل: الأول: القديم، والآخر: الباقي، والظاهر: الغالب، والباطن: الخفيّ اللطيف، الرفيق بالخلق. وهذا القول يُناسب الحديث، وهو بمعناه.

و(قوله: «فليس فوقكَ شيء») أي: لا يقهرُك شيءٌ.

و(قوله: «فليس دونَك شيء») أي: لا شيءَ ألطف منك، ولا أرفق.

---

(1) سورة الحديد الآية 3

وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إذا أوى أحدُكم إلى فراشه فليأخُذْ داخلةَ إزارِه فَلْيَنْفُضْ بها فراشَه، وليسمِّ الله، فإنَّه لا يعلم ما خَلَفَه بعده على فراشه؛ فإذا أراد أن يضطجع فَلْيَضْطَجِعْ على شِقِّه الأيمنِ، وليقلْ: سبحانك ربي! لك وضعت جنبي، وبك أرفعه. إنْ أمسَكْتَ نفسي فاغفرْ لها، وإنْ أرسلتها فاحفظْها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

(وقوله: «إذا أوى أحدُكم إلى فراشه») أي: انضمَّ، قال الأزهري: آوى وأوى بمعنَى واحد، لازمٌ ومتعدٍّ، وفي الصحاح عن أبي زيد: آويته أنا إيواءَ وأوَيْتُه: إذا أنزلتُه بك. فعلتُ وأفعلتُ بمعنى. فأما أويتُ له، بمعنى رثيت له، فبالقصر لا غير. قال ذو الرُّمة:

..... وَلَوْ أَنِّي اسْتَأْوَيْتُه مَا أَوَى لِيَا [1]

و(قوله: فليأخذْ داخلةَ إزارِه فلينفضْ بها فراشَه، وليسمِّ اللّضهَ، فإنه لا يعلمُ ما خلفَه بعدَه على فراشه») داخلة الإزار: هي ما يلي الجسد من طَرَفيّ الإزار.

قال الشيخ رحمه الله: هذا الحديث يتضمَّن الإرشاد إلى مصلحتين: إحداهما معلومةٌ ظاهرة وهي: أن الإنسانَ إذا قام عن فراشه لا يدري ما دَبَّ عليه بعدَه من الحيوانات ذوات السُّموم، فينبغي له إذا أرادَ أن ينام عليه أن يتفقَّده، ويمسحَه، لإمكان أن يكونَ فيه شيءٌ يخفى من رطوبة أو غيرها، فهذه مصلحة ظاهرة. وأما اختصاص هذا النفض بداخلة الإزار فمصلحة لم تظهر لنا، بل: إنما ظهرتْ تلك للنبيِّ ﷺ بنور النُّبوة، وإنما الذي علينا نحن الامتثالُ. ويقع لي: أن النبيَّ ﷺ علم فيه خاصيَّة طبيَّة تنفعُ من ضرر بعض الحيوانات كما قد أمر بذلك في حقِّ العائن كما تقدَّم. والله تعالى أعلم. ويدلُّ على ذلك ما زاده الترمذيُّ في هذا الحديث: «فليأخذْ صَنِفَة إزاره، فلينفضْ بها فراشَه ثلاثاً» فحذا بها حذوَ تكرار الرُّقى.

---

(1) هذا عجز بيت، وصدره:
على أمْر من لم يَشْوِني ضَرُّ أمْره

وفي روايةٍ: ثُمَّ لْيَقُلْ: «باسمِكَ ربي وضعتُ جنبي فإنْ أحييتَ نَفسِي فارْحَمْها».

وعن ثابتٍ عن أنسٍ، أنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ إذا أوى إلى فراشه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا، وسقانا، وكفانا، وآوانا؛ فكم مِمَّنْ لا كافيَ له ولا مُؤْوِيَ».

* * *

و(قوله: «لكَ وضعتُ جنبي، وبك أرفعُه») كذا صحَّ: لك وضعت، باللام، لا بالباء، وبك أرفعه: روي بالباء وباللاَّم، فالباء للإستعانة. أي: بك أستعينُ على وضع جنبي ورفعه، فاللاَّم يحتمل أن يكونَ معناه: لك تقرَّبت بذلك. فإنَّ نومَه إنما كانَ ليستجمَّ به لما عليه من الوظائف؛ ولأنه كان يوحي إليه في نومه، ولأنه كان يُقتدى به، فصارَ نومُه عبادة، وأما يقظته فلا تخفى أنها كانت كلُّها عبادة، ويحتمل أن يكونَ معناه لك وضعتُ جنبي لتحفظَه، ولك رفعتهُ لترحمَه.

و(قوله: «فكم ممن لا كافيَ له، ولا مُؤوي») أي: كثير من الناس ممن أرادَ الله إهلاكَه، فلم يُطعمْه، ولم يسقه، ولم يكسه؛ إما لأنَّه أعدمَ هذه الأمورَ في حقِّه، وإما لأنه لم يُقْدِرْه على الانتفاع بها حتى هلكَ، هذا ظاهره. ويحتمل أن يكونَ معناه، فكم من أهل الجهل والكفر بالله تعالى لا يعرفُ أن له إلهاً يُطعمُه ويَسقيه، ويُؤويه، ولا يُقرُّ بذلك، فصارَ الإله في حقِّه وفي اعتقاده كأنه معدومٌ.

* * *

باب مجموعة أدعية كان النبي ﷺ يدعو بها

عن عائشة، قالت: كان رسولُ الله ﷺ يقول: «اللهم! إنِّي أعوذ بك من شرِّ ما عَمِلْتُ وما لم أَعْمَلْ».

وعن ابن عباسٍ، أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقول: «اللهم! لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصمتُ. اللهم! إنِّي أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت أن تُضِلَّني، أنت الحيُّ الذي لا يموت؛ والجن والإنس يموتون».

وعن أبي هريرة، أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا كان في سفرٍ فأسْحَرَ يقول: «سمَّع سامعٌ بحمد الله وحُسْنِ بلائه علينا،.....

ومن باب: مجموع أدعية كان النبيُّ ﷺ يدعو بها

(قوله: «اللهم أنِّي أعوذ بك من شرِّ ما عملتُ، وما لم أعمل») هذا كقوله في الحديث الآخر: «اللهم إني أعوذُ بك من كلِّ شر». غير أنه نبَّه في هذا على معنى ذائد، وهو أنه قد يعملُ الإنسانُ العملَ لا يقصد به إلا الخير، ويكون في باطن أمره شرٌّ لا يعلمه، فاستعاذ منه. ويؤيد هذا أنه قد روي في غير كتاب مسلم: «من شر ما علمت، وما لم أعلم»، ويحتمل أن يريدَ به ما عمل غيره، فيما يظن أنه يقتدي به فيه.

و(قوله: «وإليك أنبت») أي: تُبْت ورجعت.

و(قوله: «وبك خاصمتُ» أي بإعانتك وتعليمك وبكلامك جادلت المخالفين فيك حتى خصمتهم.

و(قوله: «والجن والإنس يموتون») إنما خصَّ هذين النوعين بالموت؛ وإن كان جميعُ الحيوان يموت؛ لأن هذين النوعين هما المكلَّفان المقصودان بالتبليغ، والله أعلم.

و(قوله: إذا كان في سفر فأسحر) أي: استيقظ في السحر، أو خرج في السحر. والسحر: آخر الليل.

ربَّنا صاحِبْنا، وأفضِلْ علينا؛ عائذاً بالله من النار».

وعن إبي موسى الأشعريِّ، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يدعو بهذا الدعاء: «اللهم! اغفرْ لي خطيئتي، وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به منِّي؛ اللهم! اغفر لي جدِّي، وهزلي، وخطئي، وعمدي - وكل ذلك عندي - اللهم! اغفر لي ما قدمتُ، وما أخرتُ، وما أسررتُ، وما أعلنت، وما أنت أعلم به منِّي، أنت المقدِّمُ وأنت المؤخِّرُ، وأنت على كلِّ شيءٍ قدير».

(وقوله: «سمَّع سامعٌ بحمد الله وحُسْن بلائه») وجدتُه في كتاب شيخنا أبي الصبر أيوب: سَمَّع بفتح السين والميم وتشديدها. قال القاضي: أي بلغ من سمع قولي. وقيَّده الخطابي: سَمِع سامع: بفتح السين وكسر الميم، وتخفيفها، وهكذا أذكرُ أني قرأته؛ أي: استمع سامع، وشاهد شاهد بحمدنا ربنا على نعمه.

قال الشيخ رحمه الله: وعلى هذين التقييدين والتفسيرين فهو خبرٌ بمعنى الأمر، أي: ليسمعْ سامع وليبلِّغ، وهذا نحو قوله: «تصدق رجل بديناره، ودرهمه» أي: ليتصدَّق. وجمع عليه ثيابه. إي: ليجمع، وقد تقدَّم القولُ في نحو هذا. وحسن بلائه بمعنى: ابتلائه، وقد تقدَّم: أن أصلَ الابتلاء: الاختبار، وقد يكون نعمة، وقد يكون نقمة.

و(قوله: «ربَّنا صاحِبْنَا») أي: بحفظك، وكفايتك، وهدايتك.

و(قوله: عائذاً بالله من النار)، هو منصوبٌ على الحال؛ أي: أقولُ ذلك في هذه الحال.

و(قوله: «اللهم اغفرْ لي جدِّي وهزلي، وخَطَئي وعمدي، وكلُّ ذلك عندي») قد تقدَّم القولُ في عصمة الأنبياء من الذنوب وفي معني ذنوبهم غير مرَّة، ونزيدُ هنا نكتتين:

إحداهما أنَّا وإن قلنا: إن الذنوب تقع منهم، غير أنهم يتوقعون وقوعها، وأنَّ ذلك ممكن، وكانوا يتخوفون من وقوع الممكن المتوقع، ويقدرونه واقعاً فيتعوَّذون منه،

وعن أبي هريرة، قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم! أصلحْ لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلحْ لي دنياىَ التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادةً لي في كلِّ خير، واجعل الموت راحةً لي منْ كلِّ شرٍّ».

وعلى هذا فيكون قوله: «وكلّ ذلك عندي» أي: ممكن الوقوع عندي. ودليل صحة ذلك أنهم مُكلَّفون باجتناب المعاصي كلِّها كما كلّفه غيرهم، فلولا صحةُ إمكان الوقوع لما صحَّ التكليف.

والثانية: أنّ هذه التعويذات، وهذه الدعوات والتضرعات، قيامٌ بحق وظيفة العبودية، واعتراف بحقِّ الربوبية، ليقتدي بهم مذنبو أممهم، ويسلكوا مناهجَ سبلهم، فتستجاب دعوتهم، وتقبل توبتهم، والله تعالى أعلم. وقد أطنب الناسُ في ذلك، وما ذكرناه خلاصته.

(وقوله: «أنت المقدِّم وأنت الموخِّر») أي: المقدِّم لمن شئتَ بالتوبة، والولاية، والطاعة، والمؤخر لمن شئت بضد ذلك. والأولى: أنه تعالى مقدِّم كلَّ مقدَّم في الدنيا والآخرة، ومؤخِّر كلَّ مؤخَّر في الدنيا والآخرة، وهذان الاسمان من أسماء الله تعالى المزدوجة كالأول والآخر، والمبدىء والمعيد، والقابض والباسط، والخافض والرافع، والضار والنافع، فهذه الأسماءُ لا تقال إلا مزدوجة، كما جاءت في الكتاب والسنَّة. هكذا قال بعضُ العلماء، ولم يجزْ أن يقالَ: يا خافض حتى يضم إليه: يا رافع.

و(قوله: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمةُ أمري») أي: رباطه وعماده. والأمر بمعنى الشأن. ومعنى هذا أن الدِّينَ إن فسد لم يصلحْ للإنسان دنيا ولا آخرة. وهذا دعاءٌ عظيم جَمَع خيرَ الدنيا والآخرة، والدين والدنيا، فحقٌّ على كلِّ سامع له أن يحفظَه، ويدعو به اناء الليل واناء النهار، لعلَّ الإنسان يوافقُ ساعةَ إجابة، فيحصل على خير الدنيا والآخرة.

وعن عبد الله بن مسعودٍ، عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللهم إنِّي أسألك الهدى، والتقى، والعفاف، والغنى».

وفي روايةٍ: «العفة» بدل «العفاف».

وعن زيد بن أرقمَ، قال: لا أقولُ لكم رلا كما كان رسول الله ﷺ يقول، كان يقول: «اللهم! إنِّي أعوذ بك من العجز والكسل، والجبْن والبُخْل، والهَرَم، وعذاب القبر. اللهم! آت نفسي تقواها وزكِّها أنت خَيْرُ مَنْ زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها. اللهم! إنَّي أعوذ بك من علم لا ينفعُ، ومن قلبٍ لا يخشعُ، ومن نفسٍ لا تشبعُ، ومن دعوةٍ لا يستجابُ لها».

وعن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقول: «لا إله إلا الله وحده، أعزَّ جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده».

وعن عبد الله بن عمر، قال: كان من دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم! إنَّي أعوذ بك من زوالِ نِعْمَتِك، وتحوُّلِ عافيتك، وفجأة نِقْمَتِك، وجميع سَخَطِك».

* * *

و(قوله: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى... الحديث») الهدى يعني: إلى الصراط المستقيم، وهو صراطُ الذين أنعم عليهم، والتقى: يعني الخوف من الله والحذر من مخالفته، ويعني بالعفاف: الصِّيانة من مطامع الدنيا، بالغنى: غِنى النفس.

و(قوله: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع») هو الذي لا يُعمل به، كما قال ﷺ «العلمُ الذي لا يعمل به كالكنز الذي لا يُنفق منه، أتعب صاحبُه نفسَه في جمعه، ثم لم يصلْ إلى نفعه».

و(قوله: «فلا شيء بعده») أي: لا شيء ينصر ولا يدفع غيره.

* * *

باب: ما يقال عند الصَّباح وعند المْساء

عن عبد الله بن مسعودٍ قال: كان نبيُّ الله ﷺ إذا أمسى قال: «أمسينا وأمسى الملكُ لله، والحمد لله، لا إله إلا اللَّهُ وحدَه، لا شريك له». قال: أُراه قال فيهم: «له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير، رب أسألك خيرَ ما في هذه الليلةِ وخيرَ ما بعدها، وأعوذ بك من شرِّ هذه الليلة وشرِّ ما بعدها، رب! أعوذ بك من الكسل وسوء الكِبرَ - وفي روايةٍ: «وفتنة الدنيا» - ربِّ! أعوذ بك من عذابٍ في النار وعذابٍ في القبر».

وإذا أصبح قال ذلك أيضاً: «أصبحنا وأصبح الملك لله».

* * *

(قوله: «من الكسل وسُوء الكِبْر») يُروى بفتح الباء وإسكانها، وبالفتح يعني به: الهرم. وقد قلنا: إن المرادَ بذلك: أرذل العمر. وبالإسكان: يعني بذلك: كبر النفس المذموم المحرَّم الذي تقدَّم ذكره.

* * *

باب كثرة ثواب الدعوات الجوامع
وما جاء في أن الدَّاعي يستحضر
معاني دعواته في قلبه

عن ابن عباسٍ، عن جويرية : أنَّ النبي ﷺ خرج من عندها بُكْرَةً حين صلَّى الصُّبْحَ وهي في مسجدها؛ ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال: «ما زلتِ على الحال التي فارقتك عليها؟»، قالت: نعم. قال النَّبيُّ ﷺ : «لقد قلتُ بعدك أربعَ كلماتٍ ثلاث مراتٍ لو وزنت بما قُلْتِ منذ اليوم لَوَزَنَتْهُنَّ: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومِدادَ كلماته».

(قوله : «لو وزنتْ بما قلتِ منذ اليوم لوزنتهن») أي : لرجحتْ عليهن في الثواب. وهو دليلٌ على أن الدعوات والأذكار الجوامع يحصلُ عليهن من الثواب أضعاف ما يحصل على ما ليست كذلك. ولذلك كان ﷺ يحبُّ الدعوات الجوامع.

و(قوله: «سبحان الله، وبحمده») هذا الكلامُ على اختصاره جملتان؛ إحداهما: جملة سبحان الله؛ فإنها واقعة موقع المصدر، والمصدر يدلُّ على صدره، فكأنه قال: سبحت الله التسبيحَ الكثير، أو التسبيح كلَّه، على قول مَن قال: إن سبحان الله: اسمُ علمٍ للتسبيح. وبحمده: مُتعلِّق بمحذوفٍ تقديره: وأثني عليه بحمده؛ أي: يذكر صفات كماله وجلاله، فهذه جملةٌ ثانية غير الجملة الأولى.

و(قوله: «مداد كلماته») هو بكسر الميم، وبألف بين الدالين، ويعني به: كلامه القديم المنزَّه عن الحروف، والأصوات، وعن الانقطاع، والتغييرات، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا

وفي روايةٍ: «سبحانَ اللهِ عَدَدَ خلقِه، سبحانَ اللهِ رِضا نفسِه. سبحان اللهِ زِنة عَرْشِه، سبحان اللهِ مِدادَ كلماتِه».

عن عليٍّ قال: قال لي رسولُ اللهِ ﷺ: «قل: اللهم! اهدني، وسدِّدْني، واذكر بالهدى هدايتك الطريق، والسدادِ سدادَ السهم».

* * *

﴿بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ [1]. وزنة عرشه؛ أي: وزنه الذي لا يعلمُ مقداره إلا الله. ورِضا نفسه: يعني أن رضاه عمن رضي عنه من النبيِّين والصَّالحين لا ينقطع ولا ينقضي. وإنما ذكر النبيُّ ﷺ هذه الأمورَ على جهة الإغياء، والكثرة التي لا تنحصر، وإنما ذكر النبيُّ ﷺ هذه الأمورَ على جهة الإغياء، والكثرة التي لا تنحصر، مُنبِّهاً على أنَّ الذاكرَ بهذه الكلمات ينبغي له أن يكون بحيث لو تمكَّن من تسبيح الله وتحميده وتعظيمه عَدَداً لا يتناهى ولا ينحصر لفعل ذلك، فحصل له من الثواب ما لا يدخلُ في حساب.

و(قوله: «واذكر بالهدى هدايتَك الطريق، والسدادِ سدادَ السهم») هذا الأمرُ منه ﷺ يدلُّ على أنَّ الذي ينبغي له أن يتهمَّ بدعائه فيستحضر معانيَ دعواته في قلبه، ويبالغ في ذِكْرها بلفظه بضرب من الأمثال، وتأكيد الأقوال، فإذا قال: اهدني الصراطَ المستقيم، وسدِّدني سدادَ السَّهم الصَّائب كان أبلغ وأهم من قوله: اهدني وسدِّدْني فقط، وهذا واضحٌ.

* * *

---

(1) سورة الكهف الآية 109

باب التسلي عند الفاقات بالأذكار وما يدعى به عند الكرب

عن عليٍّ بن أبي طالب: أنَّ فاطمة ـ رضي الله عنها ـ اشتكت ما تلقى من الرَّحى في يدها، وأتى النبيَّ ﷺ سبيٌ، فانطلقت، فلم تجده، ولقيت عائشة، فأخبرتها، فلما جاء النَّبيُّ ﷺ أخبرته عائشةُ بمجيء فاطمةَ إليها، فجاء النَّبيُّ ﷺ إلينا، وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا نقومُ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «على مكانكُما[1] خيراً ممَّا سألتما؟ إذا أخذتما مضاجعكما أنْ تكبِّرا الله

ومن باب: التسلي عند الفاقات بالأذكار

(قوله: إن فاطمة اشتكتْ ما تلقى من الرَّحى في يدها) يعني: من مشقَّة الطِّحن في الرَّحى. وفي غير كتاب مسلم: أنها جرَّت بالرحى حتى مجلت يدها، وقمَّت البيتَ حتى اغبرَّ شعرُها، وخبزتْ حتى تغيَّر وجهها. ففيه دليلٌ على: أنَّ المرأةَ وإن كانت شريفةً عليها أن تخدمَ بيتَ زوجها، وتقومَ بعمله الخاصِّ به، وبه قال بعضُ أهل العلم. وقيل: ليس عليها شيءٌ من ذلك سواءٌ كانت شريفة أو دنيئة، حكاه ابن خوازمنداد عن بعض أصحابنا. ومشهور مذهب مالك الفرق بين الشريفة فلا يلزمها، وبين مَن ليسَ كذلك فيلزمها. ومحملُ هذا الحديث على أنَّ فاطمة تبرَّعت بذلك، ولا خلافَ في استحباب ذلك لمن تبرع به لأنه معونةٌ للزوج، وهي مندوبٌ إليها، وقد تقدَّم هذا في النكاح. وفيه ما يدلُّ على ما كان عليه ذلك الصَّدرُ الصَّالح من شَظَف العيش وشدَّة الحال، وأنَّ الله تعالى حماهم الدُّنيا مع أنَّه مكَّنهم منها، وهي سُنَّةُ الله في الأنبياء والأولياء، كما قال ﷺ: «أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل».

و(قوله: فجاء وقد أخذنا مضاجعنا) كان هذا المجيءُ بالليل؛ لأنه قد جاء في بعض طرقه أنه قال: طَرَقهما ليلاً.

و(قوله: «على مكانكما») أي: اثبتا على مكانكما، والزماه. وقعود النبيِّ ﷺ بين ابنته وبين عليٍّ دليلٌ على جواز مثل ذلك، وأنه لا يُعابُ على مَن فعله إذا لم يؤدِّ ذلك إلى اطِّلاع على عورة، أو إلى شيءٍ ممنوع شرعاً.

---

(1) فقعد بيننا حتى وجدتُ برد قدمه على صدري وقال: «ألا أعلمكما».

أربعاً وثلاثين، وتسبحاه ثلاثاً وثلاتين، وتحمداه ثلاثا وثلاثين، فهو خير لكما».

زاد في رواية: قال عليٌّ: ما تركته منذ سمعتُه من النَّبيِّ ﷺ. قيل له: ولا ليلةَ صفِّين؟ قال: ولا ليلةَ صفِّين.

وعن ابن عباسٍ أنَّ النبي ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيمُ الحليمُ، لا إله إلا اللهُ ربُّ العرشِ العظيم، لا إله إلا اللهُ ربُّ السموات وربُّ الأرض، ربُّ العرش الكريمُ».

وفي رواية: (إذا حَزَبه أمرٌ) مكان (عند الكرب).

* * *

و(قوله: «ما ألفيتيه عندنا» أي: ما وجدت الخادمَ عندنا، ثم إنه أحالهما على التَّسبيح والتَّهليل والتكبير؛ ليكون ذلك عوضاً من الدُّعاء عند الكرب والحاجة، كما كانت عادتُه عند الكرب على ما يأتي في الحديث المذكور بعد هذا. ويمكنُ أن يكون من جهة أنه أحبَّ لابنته ما يحبُّ لنفسه، إذ كانت بضعةً منه، من إيثار الفقر، وتحمُّل شدَّته والصَّبر عليه، ترفيعاً لمنازلهم، وتعظيماً لأجورهم. وبهذين المعنيين، أو أحدهما، تكونُ تلك الأذكارُ خيراً لهما من خادم، أي: من التصريح بسؤال خادم، والله أعلم.

(وقوله: كان ﷺ يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم... الحديث») قال الطبريُّ: كان السلفُ يدعون بهذا الدعاء، ويسمُّونه: دعاء الكرب. فإن قيل: كيف يُسمَّى هذا دعاءً، وليس فيه من معنى الدعاء، شيءٌ. إنما هو تعظيمٌ لله تعالى، وثناءٌ عليه؟ فالجواب: إنَّ هذا يسمَّى دعاءً لوجهين:

أحدهما: أنه يُستفتحُ به الدعاء. ومن بعده يدعو. وقد ورد في بعض طرقه: «ثم يدعو».

وثانيهما: أن إبنَ عُيينة قال ـ وقد سُئل عن هذا ـ: أما علمت أنَّ اللَّهَ تعالى يقول: «إذا شغل عبدي ثناؤه عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين؟» وقد قال أمية بن أبي الصلت:

باب ما يقال عند صراخ الديكة ونهيق الحمير

عن أبي هريرة: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا سمعتم صياح الدِّيَكَةِ فاسألوا الله من فضله؛ فإنَّها رأت مَلَكاً، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشَّيطان؛ فإنها رأت شيطاناً».

إذا أثْنى عَلَيْكَ المرء يَوماً كَفَاهُ مِن تعرضه الثَّناءُ

قال الشيخ رحمه الله: وهذا الكلامُ حسن، وتتميمه أن ذلك إنما كان لنكتتين:

إحداهما: كرم المثنى عليه، فإنه إذا اكتفى بالثناء عن السُّؤال دل ذلك على سهولة البذل عليه، والمبالغة في كَرَم الحقِّ.

وثانيهما: أن المثني لما آثر الثناء الذي هو حقُّ المثنى عليه على حقِّ نفسه؛ الذي هو حاجته، بُودر إلى قضاء حاجته من غير إحواج إلى إظهار مذلَّة السؤال مجازاةً له على ذلك الإيثار، والله تعالى أعلم. ومما قد جاء منصوصاً عليه، وسُمِّي دعاءً وإن لم يكن فيه دعاء ولا طلب؛ ما أخرجه النسائي من حديث سعد ابن أبي وقاص. قال: قال رسولُ الله ﷺ: «دعوة ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت: لا إله إلا أنت، سبحانك إني كنت من الظالمين؛ فإنه لن يدعوَ بها مسلم في شيء إلا استجيب له». ومعنى (إذا حزبه أمر)؛ أي: أصابه ودهمه، وهو بالحاء المهملة وبالزاي، وبالباء المعجمة بواحدة.

(قوله: «إذا سمعتم صياحَ الدِّيَكَة فاسألوا الله من فضله، فإنها رأت مَلَكاً») هذا يدلُّ على أن اللهَ تعالى خَلَق للديكة إدراكاً تدركُ به الملائكةَ، كما خلق للحمير إدراكاً تدركَ به الشياطين. ويفيد أن كل نوع من الملائكة والشياطين موجودان، وهذا معلومٌ من الشرع قطعاً، والمنكر لشيءٍ منهما كافرٌ. وكأنه إنما أمر النبيُّ ﷺ بالدعاء عند صراخ الديكة لتؤمِّنَ الملائكة على ذلك الدعاء، فتتوافق الدعوتان، فيستجاب للداعي، والله أعلم.

وإنما أمر بالتعوُّذ من الشيطان عند نهيق الحمير، لأن الشيطانَ لما حضر يُخاف من شرِّه، فينبغي أن يُتَعوَّذ منه.

باب أحبُّ الكلام إلى الله تعالى

عن أبي ذرٍّ أنَّ رسولَ الله ﷺ سئلَ: أيُّ الكلام أفضل؟ قال: «ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده: سبحان الله وبحمده».

وفي روايةٍ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ له: «ألا أخبرك بأحبِّ الكلام إلى الله، قلتُ: أخبرني يا رسول الله! قال: «إن أحبَّ الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده».

* * *

(قوله ﷺ وقد سئل - أي الكلام أفضل؟ - فقال: «ما اصطفى اللهُ لملائكته، أو لعباده: سبحان الله وبحمده». وفي الرواية الأخرى: «إن أحبَّ الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده»).

قال الشيخ رحمه الله: هذا الحديثُ يعارضه قوله في حديث أبي هريرة المتقدم في فضل التهليل. (ولم يأت أحدٌ بأفضل مما جاء به رلا أحد عمل أكثر من ذلك). وقوله: («أفضلُ ما قلتُ أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله») . وقد تقدَّم في حديث سمرة ابن جندب قوله ﷺ: «أحبُّ الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت» فقد مضى هذا الحديث بأن الأربعةَ متساويةٌ في الأفضلية والأحبيَّة من غير مراعاة تقديم بعضها على بعضٍ، ولا تأخيره، وأن التسبيحَ وحده لا ينفردُ بالأفضلية، ولا التهليل وحده أيضاً ينفردُ بها. وإذا ثبت ذلك فحيث أطلق أن أحد هذه الأذكار الأربعة أفضل الكلام أو أحبّه إنما يُراد إذا انضمت إلى أخواتها الثلاث المذكورة في هذا الحديث. إما مجموعة في اللفظ، أو في القلب بالذكر؛ لأن اللفظَ إذ دلَّ على واحدٍ منهما بالمطابقة دلَّ على سائرها باللزوم. وبيان ذلك: أن معنى سبحان الله: البراءة له من كلِّ النقائص، والتنزيه عما لا يليق بجلاله، ومن جملتها تنزيهُه عن الشركاء والأنداد، وهذا معنى لا إله إلا الله. هذا مدلولُ اللفظ من جهة مطابقته. ولما وجب تنزيهُه عن صفات النقص لزم اتصافه

باب ما يقال عند الأكل والشرب
والدعاء للمسلم بظهر الغيب

عن أنس بن مالكٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله ليرضى عن العبد يأكلُ الأَكْلَة، فَيَحْمَدُهُ عليها، أو يشربُ الشَّربة فيحمَدُه عليها».

وعن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ عبدٍ مسلمٍ يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك: ولك بمثلٍ».

* * *

بصفات الكمال؛ إذ لا واسطة بينهما، وهي المعبَّر عنها بالحمد لله. ثم لما تنزَّه عن صفات النقص، واتصف بصفات الكمال وجبت له العظمةُ والجلال، وهو معنى: الله أكبر. فقد ظهر لك أن هذه الأربعة الأذكار متلازمة في المعنى، وأنها قد شملها لفظُ الأحبِّية، كما جاء في الحديث. فمن نطق بجمعيها فقد ذكر الله تعالى بأحب الكلام لدى الله، لفظاً ومعنى، ومن نطق بأحدهما فقد ذكر الله ببعض أحب الكلام نطقاً، وبجميعها معنىً من جهة اللزوم الذي ذكرناه. فتدبَّرْ هذه الطريقةَ، فإنها حسنةٌ، وبها يرتفعُ التعارضُ المتوهَّم بين تلك الأحاديث ـ والله تعالى أعلم ـ. ولم أجدْ في كلام المشايخ ما يقنع، وقد استخرت اللَّهَ فيما ذكرته.

(قوله: «إن الله ليرضى عن العبد يأكلُ الأكلة فيحمده عليها، أو يشربُ الشربة فيحمده عليها») قد تقدَّم أن الأكلة بفتح الهمزة: المرة الواحدة من الأكل، وبالضم: اللقمة، ويصبح هذا اللفظ هنا للتقييدين، وبالفتح وجدتُه مقيداً في كتاب شيخنا. والحمد هنا بمعنى الشكر، وقد قدَّمنا: أن الحمدَ يُوضَعُ موضعَ الشكر، ولا يُوضع الشكرُ موضعَ الحمد. وفيه دلالةٌ على أن شكر النعمة، وإن قلَّت، سَبَبُ نيل رضا الله تعالى الذي هو أشرفُ أحوال أهل الجنة. وسيأتي قولُ الله عز وجل لأهل الجنة حين يقولون: «أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خَلْقك، فيقول: ألاَ أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: ما هو؟ ألم تُبيِّض وجوهَنا، وتُدْخلنا الجنة، وتزحزحنا عن النار؟،

باب يستجاب للعبد ما لمْ يَعْجَلْ أو يدعو بإثم

عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «يُستجابُ لأحدكم ما لم يَعْجَلْ، فيقولُ: قد دعوت فلا يُستجابُ لي».

فيقول: أحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخطُ عليكم بعده أبداً». وإنما كان الشكرُ سَبَباً لذلك الإكرام العظيم؛ لأنه يتضمَّن معرفةَ المنعم، وانفراده بخلق تلك النعمة، وبإيصالها إلى المنعَم عليه، تفضُّلاً من المنعم، وكرماً، ومنَّة، وإن المنعَم عليه فقير محتاجٌ إلى تلك النعم، ولا غنى به عنها، فقد تضمَّن ذلك معرفة حق الله وفضله، وحق العبد وفاقته وفقره، فجعل اللهُ تعالى جزاءَ تلك المعرفة تلك الكرامة الشريفة.

و(قوله: «ما من عبدٍ مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال المَلَك: ولك بمثلٍ») المسلم هنا: هو الذي سلم المسلمون من لسانه ويده، الذي يحبُّ للناس ما يحبُّ لنفسه؛ لأنَّ هذا هو الذي يحملُه حالُه وشفقتُه على أخيه المسلم أن يدعوَ له بظهر الغيب، أي: في حال غيبته عنه، وإنما خصَّ حاله الغَيْبةَ بالذكر لبعدها عن الرياء، والأغراض المفسدة أو المنقصة؛ فإنه في حال الغَيْبة يتمحَّض الإخلاص، ويصحُّ قصد وجه الله تعالى بذلك، فيوافقه الملكُ في الدعاء، ويبشِّره على لسان رسوله ﷺ بإن له مثل ما دعا به لأخيه. والأخوَّة هنا: هي الأخوة الدينية، وقد تكون معها صداقةٌ ومعرفة، وقد لا يكون، وقد يتعيَّن، وقد لا يتعين، فإن الإنسانَ إذا دعا لإخوانه المسلمين حيث كانوا، وصَدَقَ اللَّهَ في دعائه، وأخلص فيه في حال الغَيْبة عنهم، أو عن بعضهم، قال الملكُ له ذلك القول، بل قد يكون ثوابُه أعظم؛ لأنه دعا بالخير، وقَصَده للإسلام، ولكل المسلمين، والله تعالى أعلم.

(قوله: «يُستجاب للمسلم ما لم يَدْعُ بإثم أو قطيعة رحم») يعني بالعبد: الصالح لقبول دعائه، فإن إجابةَ الدعاء لا بُدَّ لها من شروطٍ في الداعي، وفي الدعاء، وفي الشيء المدعو به. فمن شَرْط الداعي بأن يكون عالماً بأنه لا قادر على حاجته إلا الله تعالى، وأن الوسائطَ في قبضته، ومسخّرة بتسخيره، وأن يدعوَ بنيَّه صادقة، وحضور قلب، وأن يكون مجتنباً لأكل الحرام، كما قدَّمناه، وألاَّ يحلُّ من الدعاء

وعنه؛ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لا يزال يُستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحمٍ ما لم يستعجل». قيل: يا رسول الله! ما الاستعجال؟ قال: «يقول: قد دعوتُ، وقد دعوت؛ فلم أرَ يستجاب لي، فَيَسْتَحْسِرُ عند ذلك، ويَدَعُ الدُّعاء!».

* * *

فيتركه ويقول: قد دعوتُ فلم يُستجبْ لي كما قال في الحديث. ومن شروط المدعو فيه أن يكونَ من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعاً، كما قال: ما لم يَدْعُ بإثم أو قطيعة رحم، فيدخل في الإثم كلُّ ما يأثَمُ به من الذنوب، ويدخل في قطيعة الرحم جميعُ حقوق المسلمين، ومظالمهم. وقد بيَّنا أن الرحمَ ضربان: رحم الإسلام، ورحم القرابة. ويستحسر: يعني: ويملُّ. يقال: حسر البعير يحسُر، ويحسِر حسوراً: أعيا. واستحسر وتحسَّر مثله. وفائدة هذا: استدامةُ الدعاء، وترك اليأس من الإجابة، ودوام رجائهما، واستدامة الإلحاح في الدعاء؛ فإن الله يحبُّ الملحِّين عليه في الدعاء. وكيف لا؟ والدعاء مع العبادة وخلاصة العبودية. والقائل: قد دعوت، فلم أر يُستجاب لي، ويَتْرُك ـ قانطاً ـ من رحمة الله، وفي صورة الممتنِّ بدعائه على ربه، ثم إنه جاهل بالإجابة، فإنه يظنها إسعافه في عين ما طلب. فقد يعلم الله تعالى أن في عين ما طلب مفسدة، فيصرفه عنها، فتكون إجابته في الصرف، وقد يعلمُ اللَّهُ أن تأخيرَه إلى وقت آخر أصلح للداعي، وقد يؤخره لأنه سبحانه يحبُّ استماعَ دعائه، ودوام تضرُّعه، فتكثر أجوره حتى يكون ذلك أعظم وأفضل من عين المدعو به لو قضي له، وقد قال ﷺ: «ما من داع يدعو إلا كان بين إحدى ثلاث: إما أن يُستجاب له، وإما أن يُدَّخر له، وإما أن يُكفَّر عنه». ثم بعد هذا كله فإجابة الدعاء ـ وإن وردت في مواضع من الشرع مطلقة ـ فهي مقيَّدة بمشيئته، كما قال تعالى: ﴿**فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ**﴾ (1).

---

(1) سورة الأنعام الآية 41

باب الدعاء بصالح ما عُمل من الأعْمال

عن ابن عمر؛ عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «بينما ثلاثة نفرٍ ـ في روايةٍ: ممن كان قبلكم ـ يتمشون أخذهم الطوفان فأووا إلى غارٍ في جبل. فانحطت على فم غارهم صخرةٌ من الجبل، فانطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: أنظروا أعمالاً عملتموها صالحةً لله، فادعوا الله تعالى بها لعلَّه يَفْرُجُها عنكم! فقال أحدهم: اللهم! إنَّه كان لي والدان شيخان كبيران، وامرأتي، ولي صبيةٌ صغارٌ أرعى عليهم، فإذا أرَحْتُ عليهم، حلبتُ، فبدأت بوالديَّ، فسقيتهما قبل بَنِيَّ وإني نَأَى بي ذاتَ يوم الشَّجر فلم آتِ حتى أمسيتُ، فوجدتُهما قد ناما، فحلبتُ كما كنتُ أحلُبُ، فجئتُ بالحِلاب، فقمتُ عند رؤوسهما أكرهُ أنْ أوقظَهُما من نومهما، وأكره أن أسقيَ الصِّبيةَ

ومن باب: الدعاء بصالح ما عُمِل من الأعمال

غريب حديث الغار: الطوفان هنا: المطر الكثير. وأووا إلى غار: أي: انضمُّوا، وقد تقدَّم أنه يُمَدُّ ويُقْصَر. فانحطَّت: نزلت. فأطبقت عليهم: أي: صارت على باب الغار كالطبق وأرعى عليهِمَ: أي أرعى الماشية، واكتسب بها لأجل العيال والأبوين. ونأى بي الشجر: أي بَعُد عليه ابتغاء الشجر الذي رعاه بماشيته. والحلاب: إناء يُحلب فيه، وهو المحلب أيضاً، وقد يكون اللبن. ويتضاغون: يضجُّون من الجوع، والضُّغاء ممدود، مضموم الأول، صوت الذِّلَّة والفاقة. والدأب: الحال اللازمة، والعادة المتكررة. وافرج: افتح، والفُرجة بضم الفاء لأنه من السَّعة، فإذا كان بمعني الراحة قلت فيه: فَرْجة وفَرَجٌ، وفعلُ كلٍّ واحدٍ منهما فَرَجَ بالفتح والتخفيف، يَفْرُج بالضم لا غير. والغبوق: شرب العشيِّ، والصبوح: شرب الصباح، والجاشرية: عند انغلاق الفجر، يقال: جشر الصبح أي: انفلق. وبغيت: طلبت.

قبلهما، والصبيةُ يتضاغَوْنَ عند قدميَّ، فلم يزلْ ذلك دأبي ودأبُهم حتى طَلَعَ الفَجْرُ، فإن كنتَ تعلم أني فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك فافْرُجْ لنا فُرْجَة نرى منها السَّماء! فَفَرَجَ اللهُ منها فُرْجةً، فرأوا منها السَّماء. وقال الآخر: اللهم! إنِّي كانت لي ابنةُ عمٍّ أحببتُها كأشدِّ ما يحبُّ الرجالُ النساءَ. وطلبتُ إليها نفسها، فأبت حتى آتيها بمئة دينار، فتعبتُ حتى جمعتُ مئةَ دينار. ـ وفي روايةٍ: عشرين ومئةً ـ فجئتُها بها، فلمَّا وقعتُ بين رجليها قالت: يا عبد الله! اتق الله! ولا تَفُضَّ الخَاتَم إلا بحقه، فقمتُ عنها! فإنْ كنتَ تعلمُ أنِّي فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافْرُجْ لنا منها فرجةً، ففَرج لهم! وقال الاخر: اللهم! إنِّي كنت استأجرتُ أجيراً بِفَرَقِ أَرُزٍّ فلما قضى عمله قال: أعطني حقي فعرضْتُ عليه فَرَقَه فرغِبَ عنه، فلم أزلْ أزرعُه حتى جمعتُ منه بقراً ورعَاءها، فجاءني، فقال: اتق الله ولا تظلمني حقي! قلت: اذهب إلى تلك البقر ورعائها فخذها. فقال: اتق الله ولا تستهزىء بي! فقلت: إني لا أستهزىء بك، خذ ذلك البقر ورعاءَها! فأخذه، فذهب به. فإنْ كنتَ تعلم أنِّي فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك، فافْرُجْ لنا ما بقي، فَفَرَجَ الله ما بقي». ـ وفي روايةٍ: «وخرجوا يمشون» ـ.

* * *

و(قوله: لا تفض الخاتم إلا بحقه). الفضْ: الكسر والفتح، والخاتم: كناية عن الفرج وعذرة البكارة. وحقُّه: التزويج المشروع. والفَرَقُ: مكيال يسع ثلاثة آصع، ويقال: بفتح الراء، وهو الأفصح، وقال ابنُ دريد: ويقال بسكونها، وقد أنكره غيره، وفيه أبوابٌ من الفقه لا تخفى.

باب فضل الدوام على الذكر

عن حَنْظَلَة الأُسَيْدِيِّ ـ قال: وكان من كتَّاب رسول الله ﷺ ـ قال: لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة! قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يُذَكِّرُنا بالجنَّة والنار؛ كأنَّا رأيَ عينٍ، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عَافَسْنا الأزواج، والأولاد، والضَّيْعاتِ؛ نسينا كثيراً! قال أبو بكر: فوالله! إنا لَنَلْقَى مثل هذا.

قول حنطلة الأُسَيْدي: هو بتخفيف الياء منسوب إلى أُسَيْد، قَيْلٌ من بني تميم، ومن رواه الأسدي فقد أخطأ، وكان من كُتَّاب رسول الله ﷺ.

و(قوله: نافقَ حنظلة). إنكار منه على نفسه لما وجد منها في خلوتها خلاف ما يظهر منها بحضرة النبيِّ ﷺ، فخافَ أن يكون ذلك من أنواع النِّفاق، وأراد من نفسه أن يستديمَ تلك الحالة التي كان يجدُها عند موعظة النبي ﷺ ولا يشتغل عنها بشيء.

و(قوله: يُذكِّرنا بالجنَّة والنَّار، كأنَّا رأىَ عَيْنَ). الذي قرأته وقيَّدْته رأيَ عين منصوباً على المصدر، كأنه قال: كأنَّا نراها رأيَ عين. قال القاضي: ضبطناه بالضم أي: كأنَّا بحالِ من يراهما، ويصحُّ النصب على المصدر.

و(قوله: عافَسْنا الأزواجَ، والأولاد، والضَّيْعَات) الرواية الصحيحة المعروفة: عافسنا بالعين المهملة، وبالفاء والسين المهملة، ومعناه: عالجنا وحاولنا، في الصحاح: المعافسة: المعالجة، يعني أنهم إذا خرجوا من عند رسول الله ﷺ اشتغلوا بهذه الأمور، وتركوا تلك الحالة الشريفة التي كانوا يجدُونها عند سماع موعظة رسول الله ﷺ ومشاهدته. وروى الخطَّابيُّ هذا الحرفَ: عانسنا بالنون، وفسَّره بلاعبنا. ورواه القتيبي: عانشنا؛ بالنون والشين المعجمة، وفسَّره بعانقنا، والتقييد الأول أولى روايةً ومعنىً. وقد جاء مفسراً في الرواية الأخرى فقال: ضاحكت الصِّبيان، ولاعبتُ المرأة.

فانطلقتُ أنا وأبو بكرٍ حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلةُ يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك؟» قلت: يا رسول الله! نكون عندك تُذَكِّرُنا بالنَّار والجنة؛ كأنا رأى عين، فإذا خرجنا من عندك عافَسْنَا الأزواج، والأولاد، والضيعاتِ، نسينا كثيراً! فقال رسول الله ﷺ: «والذي

والضيعات: جمع ضيعة، وهي: ما يكون معاش الرجل منه من مال، أو حرفة، أو صناعة. وقد تقدَّم ذكرها.

و(قول أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: والله إنا لنلقى مثل هذا) ردٌّ على غلاة الصوفية الذين يزعمون دوام مثل تلك الحال، ولا يُعرِّجون بسببها على أهل ولا مال. ووجهُ الردِّ أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ أفضلُ الناس كلِّهم بعد رسول الله ﷺ إلى يوم القيامة، ومع ذلك فلم يدَّعِ خروجاً عن جبلَّة البشرية، ولا تعاطى من دوام الذِّكْر وعدم الفترة ما هو خاصَّة الملائكة. وقد ادَّعى قومٌ منهم دوامَ الأحوال، وهو بما ذكرناه شبه المحال، وإنما الذي يدومُ المقامات، لكنها تتفاوت فيها المنازلات. والمقام: ما يحصل للإنسان بسعيه وكسبه. والحالُ: ما يحصلُ له بهبة ربِّه. ولذلك قالوا: المقاماتُ مكاسب، والأحوالُ مواهب، ومَنْ طابَ وقته علا نعته، ومن صفا واردُه طابَ وِرْدُه. وعلى الجملة فسُنَّة الله في هذا العالم الإنساني جعلُ تمكينهم في تلوينهم، ومشاهدتهم في مكابدتهم. وسرُّ ذلك أن هذا العالم متوسِّط بين عالمي الملائكة والشياطين، فمكَّن الملائكةَ في الخير بحيث يفعلون ما يُؤمرون، ويُسبِّحون الليلَ والنهار لا يَفْتُرون، ومكَّن الشياطين في الشرِّ والإغواء بحيث لا يغفلون. وجعلَ هذا العالم الإنساني متلوِّناً فيُمكِّنه ويُلوِّنه، ويُفنيه ويُبقيه، ويَشهده ويَفقده، وإليه أشارَ صاحبُ الشفاعة بقوله: «ولكن يا حنظلة! ساعةً وساعة». وقال في حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ: «وعلى العاقل أن يكونَ له ساعات: ساعةٌ يناجي فيها ربَّه، وساعةٌ يُحاسبُ فيها نفسه، وساعة يُفكر فيها في صنع الله، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب». وهكذا الكمال، وما عداه تُرَّهاتٌ وخيال.

نفسي بيده! لو تدومون على ما تكونون عندي؛ وفي الذِّكر؛ لصافحتكم الملائكة على فُرُشِكُم، وفي طُرُقِكُم، ولكن يا حَنْظَلَة! ساعةً، وساعةً ـ ثلاث مرات ـ».

* * *

و(قوله: «لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة») هكذا صحَّت الرواية بالواو العاطفة للطَّرف الثاني على الأول، ويُفيد أنه وَقْف مصافحة الملائكة على حصول حالتين لنا: على حال مشاهدة الجنة والنار مع ذكر الله تعالى ودوام ذلك. فيعني ـ والله تعالى أعلم ـ أن التمكن: إنما هو أن يشاهد الأمور كلَّها بالله تعالى، فإذا شاهدَ الجنة مثلاً لم يحجبْه ما يُشاهدُ من نعيمها وحسنها من رؤية الله تعالى؛ بل: لا يلتفت إليها من حيث هي جنَّة؛ بل: من حيث هي أنها محل القرب من الله تعالى، ومحلُّ رؤيته، ومشاهدته، فيكون فرقه في جمعه، وعطاؤه في منعه، ومن كان كذلك ناسبَ الملائكة في معرفتها، فبادرت إلى إكرامه، ومشافهته، وإعظامه، ومُصافحته. والمسؤول من الكريم المتعال، أن يمنحنا من صفاء هذه الأحوال.

* * *

كتاب الرقائق

باب وجوب التوبة وفضلها

وقد تقدم قوله ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم مئة مرة».

وعن عبد الله ـ هو ابنُ مسعود ـ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ

كتاب الرقائق

ومن باب: وجوب التوبة وفضلها

قد تقدَّم القولُ في وجوب التوبة، وفي معناها اللغوي، وقد اختلفت عباراتُ العلماء والمشايخ فيها، فقائلٌ يقول: إنها الندم، وآخر يقول: إنها العزمُ على ألاَّ يعود، والآخر يقول: إنها الإقلاعُ عن الذنب، ورابع يجمع بين تلك الأمور الثلاثة، فيقول: إنها الندمُ على ذنبٍ وقع، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على ألاَّ يعود رليه، وهذا أكملُها؛ غير أنه مع ما فيه من التركيب المحذور في الحدود غير مانع، ولا جامع.

بيان الأول: أنه قد يندم، ويقلع، ويعزم، ولا يكون تائباً شرعاً، إذ قد يفعل ذلك شحّاً على ماله، أو لئلا يعيِّره الناسُ من ذلك. ولا تصحُّ التوبةُ الشرعية إلا بالنية، والإخلاص فإنها من أعظم العبادات الواجبات؛ ولذلك قال تعالى ﴿**تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً**﴾ (1).

---

(1) سورة التحريم الآية 8

وأما الثاني: فبيانُه أنه يخرجُ منه مَنْ زنى مثلاً، ثم قطع ذكره، فإنه لا يتأتى منه غير الندم على ما مضى من الزنى، وأما العزمُ والإقلاعُ فغير متصوَّرين منه، ومع ذلك فالتوبةُ من الزنى صحيحةٌ في حقِّه إجماعاً، وبهذا اغترَّ من قال: إنَّ النَّدمَ يكفي في حدِّ التوبة، وليس بصحيح؛ لأنه لو ندم ولم يقلع وعزم على العود لم يكن تائباً اتفاقاً. ولما فهم بعضُ المحققين هذا حدَّ التوبة بحدٍّ آخر، فقال: هي تركُ اختيار ذنبٍ سبق منك مثله حقيقة أو تقديراً لأجل الله تعالى وهذا أسدُّ العبارات وأجمعها. وبيان ذلك: أن التائبَ لا بُدَّ أن يكون تاركاً للذنب، غير أنَّ ذلك الذنبَ الماضي قد وقع، وفرغ منه، فلا يصحُّ تركه؛ إذ هو غير متمكن من عينه لا تركاً ولا فعلاً، وإنما هو متمكِّنٌ من مثله حقيقة، وهو زنىً آخر مثلاً، فلو جُبَّ لم تصحَّ منه حقيقةُ الزنى، بل: الذي يصحُّ منه أن يقدِّر أنه لو كان متمكناً من الزنى لتركه. فلو قدرَّنا مَن لم يقعْ منه ذنبٌ لم يصحَّ منه إلا اتقاء ما يمكن أن يقع، لا ترك مثل ما وقع، فيكون متّقياً لا تائباً، فتدبَّر هذا.

وقوله: لأجل الله تعالى؛ تحرُّزٌ من ترك ذلك لغير الله تعالى؛ إذ ذلك لا يكونُ تائباً اتفاقاً، فلا يكون فعله ذلك توبة، وهذا واضح. وإذ تقرَّر هذا، فاعلمْ أن الباعثَ على التوبة تنبيهٌ إلهي ينبِّه به من أراد سعادته لقبح الذنوب وضررها؛ فإنها سمومٌ مهلكةٌ تفوِّت على الإنسان سعادة الدنيا والآخرة، وتحجبه عن معرفه الله تعالى في الدنيا، وعن تقريبه وكرامته في الدار الآخرة. ومَن انكشف له هذا، وتفقَّد نفسَه وجَد نفسه مشحونةً بهذا السمِّ، ومملوءة بهذه الآفات، فلا شكَّ في أنَّ من حصل له علمُ ذلك انبعث منه خوفُ هجوم الهلاك، فتتعيَّن عليه المبادرةُ لطلب أمرٍ يدفع به عن نفسه ضرر ما يتوقعه، ويخافه. فحينئذ ينبعث منه الندم على ما فرَّط، وترك مثل ما سبق مخافة عقوبة الله تعالى، فيصدقُ عليه أنه تائب، فإن لم يكنْ كذلك كان مصرّاً على المعصية، ومُلازماً لأسباب الهلكة.

ثم اعلم بعد هذا: أن الذنوبَ إما كفر، وإمَّا غيره، فتوبةُ الكفر عند موته مقطوعٌ بقبولها، وما عداها فمقبولة إن شاء الله بوعده الصدق، وقوله الحق. وأعني بالقبول: الخلاص من ضرر الذنوب حتى يرجعَ كمن لم يعملْ ذنباً، كما قال ﷺ:

يقول: لَلَّهُ أشدُّ فرحاً بتوبة عبده المؤمنِ مِنْ رجلٍ في أرض دَوِّيَّة مَهْلِكَةٍ، معه راحلته، عليها طعامُه وشرابه، فنام، فاستيقظ وقد ذهبتْ، فطلبها حتى

«التائبُ من الذنب كمن لا ذنب له»، ثم إن الذنبَ الذي يُتاب منه إما حق الله تعالى، وإما حقّ لغيره. فحقُّ الله تعالى يكفي في التوبة منه الترك الذي ذكرناه، غير أن منها: ما لم يكتفِ الشرعُ منه بمجرد الترك، بل أضاف إلى ذلك في بعضها قضاءً كالصلاة والصوم، ومنها ما أضاف إليها كفارةً كالحنث في الأيمان والظهار وغير ذلك. فلا يرتفعُ ضَرَرُ ذلك الذنب إلا بتركه، وفعل ما أمره الله تعالى به من القضاء والكفَّارة. وأما حقوقُ الادميين، فلا بُدَّ من إيصالها إلى مستحقِّيها، فإن لم توصلْ إلى أربابها لم يتخلَّصْ من ضرر ذلك الذنب إلا بتركه وفعْل ما أمره الله به. ومن اجتهد في الخروج عن الحقوق فلم يقدر على الخروج منها فعفو الله مأمول، وفضلُه مبذول، وكم ضمن من التبعات، وكم بدَّل من السيئات بالحسنات. وتفصيلُ ما أجملناه موجودٌ في كتب مشايخ الإسلام ـ رحمهم الله ـ.

و(قوله: للهُ أشدُّ فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوِّيَّة مهلكة... الحديث») هذا مثلٌ قُصدَ به بيانُ سرعة قبول الله تعالى لتوبة عبده التائب فإنه يُقبلْ عليه بمغفرته ورحمته، ويعامله معاملة مَن يفرح به. ووجهُ هذا المثل: أن العاصيَ حصلَ بسبب معصيته في قبضة الشيطان وأَسْره، وقد أشرف على الهلاك. فإذا لطف اللَّه تعالى به، وأرشده للتوبة خرجَ من شُؤم تلك المعصية، وتخلَّص من أَسر الشيطان، ومن المهلكة التي أشرف عليها، فأقبل اللَّهُ تعالى عليه برحمته ومغفرته، وبادر إلى ذلك مبادرة هذا الذي قد انتهى به الفرح، واستفزَّه السرور إلى أن نطق بالمحال، ولم يشعرْ به لشدَّة سُروره وفَرحه، وإلا فالفرحُ الذي هو من صفاتنا محالٌ على الله تعالى؛ لإنه اهتزازٌ وطرب يجده الإنسانُ من نفسه عند ظفره بغرض يستكملُ به الإنسانُ نقصانَه، ويسدُّ به خلَّته، أو يدفع عن نفسه ضرراً، أو نقصاً. وكلُّ ذلك محالٌ على الله تعالى، فإنه الكاملُ بذاته، الغني بوجوده، الذي لا يلحقه نقص ولا قصور. لكن هذا الفرحَ عندنا له ثمرةٌ وفائدة، وهو الإقبالُ على الشيء المفروح به، وإحلاله المحلَّ الأعلى، وهذا هو الذي يصحُّ في حقِّه تعالى فعبَّر عن ثمرة الفرح بالفرح على طريقة العرب في تسميتها الشيءَ باسم ما جاوره، أو كان منه بسبب. وقد قدَّمنا أنَّ ذلك القانونَ جارٍ في كل ما أطلقه اللهُ تعالى على نفسه من الصفات التي لا تليقُ به، كالغضب، والرضا، والضحك وغير ذلك.

أدركَه العطشُ، ثم قال: أرجعُ إلى مكاني الذي كنتُ فيه فأنامُ حتى أموتَ، فوضعَ رأسَهُ على ساعده ليموتَ، فاستيقظ وعنده راحلتُه، وعليها زادُه، وطعامُه، وشرابُه، فاللَّهُ أشدُّ فرحاً بتوبة العبد المؤمن مِنْ هذا براحلته وزاده».

ومن حديث أنس: «فأخذ بخطامها فقال من شدة الفرح: اللهم! أنت عبدي وأنا ربُّك ـ أخْطأ من شدة الفرح ـ».

* * *

و(قوله: «دَوِّيَّة مهلكة») الروايةُ المشهورةُ بفتح الدال، وتشديد الواو المكسورة، وتشديد الياء مفتوحة، وهي: القفر والفلاة، وجمعها داوي. قال الخليل: الداوية: المفازة. وقال الهروي في خُطْبة الحجاج:

قَدْ لَفَّهَا اللَّيلُ بِعَصْلُبِيٍّ ... أرْوَعَ خَرَّاجٍ مِنَ الدَّاوِيِّ

قال: يعني الفلوات. الواحدة: داوية. في الصحاح: الدَّوُّ والدوِّيُّ: المفازة، وكذلك الدوِّيَّة، لأنها مفازةٌ مثلها فُنسبت إليها، قال: والدوُّ أيضاً موضع، وهو من أرض العرب. وربما قالوا: داوِيَّةٌ، فلبوا الواو الأولى الساكنة ألفاً لانفتاح ما قبلها، ولا يُقاسُ عليه.

و(قوله: «مَهلكة»). الرواية بفتح الميم واللام، أي: يهلك فيها، وقد قُيّد مُهلكة بضم الميم وكسر اللام، اسم فاعل، أي يهلك مَن يدخل فيها، وإنما سُمِّيت القفر المفازة من قولهم: فوز الرجل، إذا هلك. وقيل: بل على طريق التفاؤل، كما يقال للديغ: سليم.

و(قول الحارث بن سويد: حدثني عبد الله حديثين. أحدهما عن رسول الله ﷺ، والآخر عن نفسه). ثم حدَّث بالحديث الذي ذكرناه في التوبة. ولم يذكر مسلمٌ الحديثَ الأول الذي حدَّث به نفسه، وقد ذكر البخاريُّ والترمذيُّ وغيرهما، فقال: المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعدٌ تحت جبل يخافُ أن يقعَ عليه، والفاجر يرى ذنوبَه كذباب مرَّ على أنفه فقال به هكذا، فهذا هو الذي حدثه ابنُ مسعود عن نفسه، لا أنه رفعه للنبي ﷺ وهو صحيح المعنى، يشهدُ له ما في الوجود من خوف المؤمن، وتهاون الفاجر والمنافق.

باب ما يخاف من عقاب الله على المعاصي

عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لو يعلمُ المؤمنُ ما عند الله من العُقُوبة؛ ما طمعَ بجنته أحدٌ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرَّحمة؛ ماقَنط من جنته أحدٌ».

وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «قال رجلٌ ـ لم يعمل حسنةً قط ـ لأهله إذا مات فحرِّقوه، ثم اذرُوا نصفه في البرِّ ونصْفَه في البحر، فوالله! لئن قَدَر الله عليه ليعذبنَّه عذاباً لا يعذِّبُهُ أحداً من العالمين، فلما مات الرجل

(وقوله: «لو يعلمُ المؤمنُ ما عند الله من العقوبة ما طمعَ بجنَّته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحدش). يعني: لو علم ذلك، وحرَّد النظر إليه، ولم يلتفت إلى مقابله، وأما إذا نظر إلى مقابل كلٍّ واحد من الطرفين، فالكافر ييأس من رحمة الله تعالى، والمؤمن يرجو رحمة الله تعالى، ويخافُ عقابه، كما قال بعضهم: لو وُزِن خوفُ المؤمن ورجاؤه لاعتدلا.

و. قوله: «قال رجلٌ لم يعملْ خيراً قطُّ») هذه الروايةُ فيها توسُّعٌ في العبارة؛ لأنا نعلمُ قطعاً أنَّ هذا الرجلَ كان متديِّناً بدين حقّ، ومَن كان كذلك لا بدَّ أن يعملَ حسنة: صوماً، أو صلاة، أو نلفّظاً بخير، أو شيئاً من الخير الذي تقتضيه شريعتهُ، وإنما الرجلُ كان خطّاءً، كثير المعاصي، وقد نص على هذا المعنى في رواية أخرى في الأصل فقال: «أسرف رجل على نفسه فلما حضرته الوفاة...» وذكر الحديث.

و(قوله: «لئن قَدَر اللهُ عليه ليعذبَنَّه») الروايةُ التي لا يُعْرَفُ غيرُها قَدَر بتخفيف الدال، وظاهرُ هذا اللفظ أنه شكَ في كون الله تعالى يقدرُ على إحيائه وإعادته، ولذلك أمرَ أهلَه أن يحرقوه، ويسحقوه، ويذروا نصفه في البر ونصفه في البحر، فكأنه توقَّع إذا فُعِل به ذلك تعذَّرتْ إعادتُه. وقد أوضح هذا المعنى ما رواه بعضُ الرواة في غير كتاب مسلم قال: «فلعلِّي أُضِلُّ الله» أي: أغيبُ عنه. وهذا ظاهرٌ

فَعَلوا ما أمَرهم به. فأمر الله البرَّ فجمع ما فيه، وأمر البحر فجمع ما فيه، ثم قال: لم فعلت هذا؟ قال: من خشيتك يا رب! وأنت أعلم. فغفر الله له».

في شكِّ الرجل في علم الله تعالى، والأُولى ظاهرةٌ في شكِّه في أنه تعالى يقدرُ على إعادته. ولما كان هذا انقسم الناسُ في تأويل هذا الحديث قسمين: القسم الأول طائفة حملت ذلك على ظاهره، وقالوا: أن هذا الرجلَ جَهلَ صفتين من صفات الله تعالى وهما: العلم والقدرة، ومَن جهل ذلك لم يخرجّ من اسم الإيمان، بخلاف مَن جحدها، وإليه رجع أبو الحسن الأشعري، مع أنه قد كان تقدَّم له قولٌ آخر بأنه مكفّر. وهو مذهبُ الطبري.

قال الشيخ رحمه الله: وهذه الطائفةُ انصرفتْ عن معني الحديث إلى معنى آخر، اخْتلَفَ فيه المتكلمون، وهو تكفيرُ مَن اعترف بأنّ اللَّهَ قادرٌ بلا قدرة، وعالمٌ بلا علم، ومريدٌ بلا إرادة، فهل يُكفَّر أم لا يكفَّر؟ على اختلاف القولين المتقدَّمَيْن. ولا يختلف المسلمون في أن مَن جهلَ أو شكَّ في كون الباري تعالى عالماً به وقادراً على إعادته كافر، حلال الدم في الدنيا، مخلّد في النار في الآخرة؛ لأن ذلك معلومٌ من الشرع بالضرورة، وجَحْدُه أو الشك فيه تكذيبٌ للرسول ﷺ قطعاً. فمقتضى الحديث بظاهره أنَّ الرجلَ كافرٌ على مُقتضى شريعتنا. ولذلك قالت طائفةٌ: فلعلَّ شَرْعَ ذلك الرجل لم يكنْ فيه الحكمُ بتكفير مَن جَهلَ ذلك، أو شكَ فيه، والتكفيرُ حكمٌ من الأحكام الشرعية فيجوزُ أن تختلفَ الشرائع فيه، كما قال تعالى: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً**﴾ (1)

قال الشيخ رحمه الله: وهذا فيه نظرٌ؛ لأن هاتين القاعدتين من ضروريات الشرائع، إذ لا تصحُّ شريعةٌ مع الجهل، فإن اللَّهَ عالمٌ، قادر، مُريد، ولا مع الشكِّ فيها، فلا بدَّ أن تنصَّ الرسلُ لقومهم على هذه الصفات. مع أنَّ العقولَ تدلُّ عليها، فيكون العلمُ بذلك ضرورياً من كلِّ الشرائع، كما كان ذلك ضرورياً في شرعنا، فيكون

---

(1) سورة المائدة الآية 48

رواه البخاريُّ ومسلم.

جاحدُ ذلك والشاكُّ فيه مكذِّباً لرسوله، وتكذيبُ الرسل كفرٌ في كلِّ شرع بالضرورة. وقالت طائفةٌ ثالثة: يجوزُ أن تكونَ شريعةُ أولئك القوم أنَّ الكافر يُغْفَرُ له، فإنَّ هذا جائزٌ عقلاً، فلا يبعدُ أن يكون ذلك شرعاً مع القَطْع بأنَّ ذلك لا يصحُّ في شرعنا، ومَن شكَّ فيه فهو كافر.

قال الشيخ رحمه الله: وهذا يتطلَّبُ أيضاً أحاديثَ الشفاعة المتقدمة في الإيمان، فإنَّها تقتضي أنَّ أهلَ التوحيد المعذَّبين في النار إذا شَفَعَ فيهم أنبياؤهم، وشفع نبيُّنا ﷺ حتى لا يبقى أحدٌ من أمته في النار قال حينئذ نبيُّنا: «يا رب! ائذنْ لي فيمن قال لا إله إلا الله، فيقول الله له: ليس ذاك إليك، فحينئذ يقولُ الله: وعزَّتي وجلالي! لأخرجنَّ مَن قال لا إله إلا الله». وعمومات القرآن تدلُّ على أنَّ من مات كافراً، كائناً من كان، لا يخرج من النار، ولا تناله شفاعةُ شافع.

القسم الثاني: قالوا إنه لم يكنْ جاهلاً بصفةٍ من صفات الله تعالى، ولا شاكاً في شيء منها، وتأوَّلوا الحديثَ تأويلات:

أحدها: أن الرجلَ صَدَرَ عنه ما صَدَرَ حالةَ خوفٍ غالبٍ عليه، فغَلِط، فلميُؤاخذْ بقوله ذلك، كما لم يؤاخذِ القائلُ: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك».

وثانيها: أن هذا جارٍ على نحو ما قد جرى في كلام العرب البليغ ممَّا يُسمِّيه أهلُ النقد: تجاهل العارف، وسمَّاه ابنُ المعتز: مَزْج الشكَّ باليقين، وهو نحو قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [1]، وقوله: ﴿وَإِنَّا إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [2]، وكقول الشاعر:

أَيَا ظَبْيَةَ الوَعْساءِ بَيْنَ جَلاَجِلٍ ... وبَيْنَ النَّقا أأنتِ أَمْ أُمُّ سَالِمِ

وقد علم أنها هي. ومثله كثير.

---

(1) سورة طه الآية 44
(2) سورة سبأ الآية 24

وعن أبي سعيدٍ الخدري، عن النَّبيِّ ﷺ : «أنَّ رجلاً فيمن كان قبلكم رَاشَهُ الله مالاً وولداً، فقال لوالده: لَتَفْعَلُنَّ ما آمرُكم به، أو لأُوَلِّيَنَّ ميراثي غيرَكُم! إذا أنا متُّ فأحرقوني - وأكبر علمي أنه قال -: ثم أسحقوني،

وثالثها: أن «قدر» معناه: «ضيّق». يعني أن الله تعالى إن ناقشه الحساب وضيّقه عليه ليعذبنه أشد العذاب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [1] أي: ضيق عليه. وهذا التأويلُ حَسَن، لكنه يخصّ لفظ قدر، والتأويلُ الأول أولى لأنه يعمّ: (قدر) و(لعّلي أضل الله). ويشهد لكون هذا الحديث مُؤَوَّلاً، وليس على ظاهره قوله في آخر الحديث حين قال اللَّهُ له: «ما حَمَلَك على ما صنعت؟ فقال: خشيتُك يا رب». فلو كان جاهلاً بالله، أو بصفاته، لما خافه، ولما عمل شيئاً لله، والله تعالى أعلم.

و(قوله: «راشه الله مالاً») كذا الرواية الصحيحة، ومعناه: أكسبه الله مالاً. قال ابنُ الأعرابي: الرياش: المال. قال القتبي: أصلُه من الريش، كأن المعدمَ لا نهوضَ له مثل المقصوص من الطير. وعند الفاسي: رأسه بألف مهموزة وسين مهملة، وهو تصحيفٌ، ولا وَجْه له. وفي رواية: «رغسه الله مالاً وولداً» بغين معجمة وسين مهملة، أي: أعطاه اللَّه تعالى من ذلك كثيراً. قال أبو عبيد: يقال: رَغَسه الله يرغسه رغساً: إذا كان مالُه نامياً كثيراً، وكذلك هو في الحسب.

و(قوله: «فلم بيتهر») بالهاء رواية الشيوخ، وعند ابن ماهان: لم يبتر، بالهمزة، وكلاهما بمعنى واحد، والهمزة تبدل من الهاء، وكذلك ابتار وامتار بالباء والميم فإنها تبدل منها، وقد فسَّرها في الأصل فقال: لم يدَّخر. وهو تفسيرٌ صحيح، ويشهدُ له المعنى والمساق.

---

(1) سورة الطلاق الآية 7

واذروني في الرِّيح فـإنِّي لم أبْتَـهِـرْ عند الله خـيـراً، وإن الله يَقْـدِرُ عـليَّ أن يُعَـذِّبني! قال: فأخذ منهم ميثاقاً، ففعلوا ذلك به وربي! فقال الله: ما حملك على ما فعلت؟! قال: مخافتك! قال: فما تَلاَفَاهُ غيرُها».

وفي رواية: «رَغَسَهُ اللَّهُ مالاً وولداً»، وفيها: «لم يبتثر عند الله خيراً». فسَّرها قتادةُ: لم يدَّخِر.

وفي أخرى: «ما ابتأر».

وفي أخرى: «ما امتأر».

* * *

و(قوله: «فإنَّ اللَّهَ يقدرُ على أن يُعَذِّبني») وجدنا الروايات والنسخ تختلفُ في ضبط هذه الكلمات، وحاصلُه يرجع إلى تقييدين:

أحدهما: تشديد إنّ مكسورة ونصب الاسم المعظَّم بها، ويقدر مرفوعاً فعل مضارع، وهو خبر إنَّ، على أنَّ يعذِّبني متعلَّق به، وهذا خبرٌ محقِّق عن الرجل، أخبر به عن نفسه أن الله يقدر على تعذيبه، وهي روايةٌ صحيحة لقول من قال: لم يكن جاهلاً ولا شاكاً، وإنما كان خائفاً.

وثانيهما: تخفيف إن المكسورة، ورفع اسم الله تعالى بعدها، وجزم يقدرْ بها عليَّ مشددة الياء، ويعذِّبني مجزومٌ على جواب الشرط. وهذه الروايةُ مصحَّحةٌ لقول مَن قال: إن الرجلَ كان شاكّاً على ما ذكرناه. والأول أشبه ما اخترناه، والله تعالى أعلم.

ومعظمُ فوائد هذا الحديث أنَّ المسرفَ على نفسه لا يَيْأسُ من رحمة الله تعالى ومغفرته، وفيه ما يدلُّ على أنه كان من شرائع مَن قبلنا أنَّ للرجل أن يُورث ماله من يشاء من الناس، فنسخ ذلك شرعُنا.

* * *

باب في رجاء مغفرة الله تعالى وسعة رحمته

عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس أحدٌ أحَبَّ إليه المدحُ من الله عزَّ وجلَّ، من أجل ذلك مَدَحَ نفسه. وليس أحدٌ أغْيَرَ من الله، من أجل ذلك حرَّم الفواحش. وليس أحدٌ أحبَّ إليه العذرُ من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب، وأرسل الرسل » .

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله يَغَارُ، وإنَّ المومن يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمنُ ما حَرَّم عليه » .

ومن باب : رجاء مغفرة الله سبحانه وسعة رحمته

(قوله : « ليس أحدٌ أحبُّ إليه المدح من الله ») . القيدُ الصَّحيح رفع أحب على أنه خبر مقدَّم، ومبتدؤه المدح، والجملة خبر ليس. وقد قيَّده بعضُ الناس: أحبَّ بالنصب على أنه خبر ليس، وفيه بعد وتكلف. وقد وقع تقدم القول في محبة الله غير مرَّة، ومعناها هنا: أن اللهَ تعالى يثيبُ مادحيه بما لا يثبتُ أحدٌ من الخلق مادحَه.

و(قوله : « من أجل ذلك مَدَح نفسه ») أي: من أجل أن يثيبَ مادحيه مَدَح نفسه، لا أنه يهتزُّ للمدح ويرتاحُ له؛ فإنَّ ذلك من سمات فقرنا وحُدوثنا، وهو مُنَزَّهٌ عن ذلك كلِّه، وقد تقدَّم القولُ في غَيْرة الله تعالى في الحدود.

(وقوله : « وليس أحدٌ أحبُّ إليه العذر من الله تعالى ») أي: الاعتذار، يعني: التقدمة بالبيان والأعذار. ويحتمل أن يريدَ الاعتذار من عباده له من ذنوبهم إذا استغفروا منها.

و(قوله : « ما أحدٌ أصبر على أذى يسمعُه من الله ») الصبر في اللغة: حبس النفس على ما تكرهه، أو يشقُّ عليها، وذلك على الله تعالى محالٌ ، لكنه قد يكون معه الصفحُ عن الجاني، والحلم عليه، والرِّفق به، وكلُّ ذلك موجودٌ من الله تعالى، فحسنٌ أن يُطلق الله تعالى ذلك على نفسه، وقد سمَّى نفسه بالصبور كما جاء في الحديث.

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لَمْ تُذْنِبُوا لذهب الله بكم، ولجاء بقومٍ يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفرُ لهم».

وعن أبي أيوب: نحوه.

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلقَ كتب في كتابٍ على نفسه ـ فهو موضوع عنده ـ: إنَّ رحمتي تغلبُ غضبي».

و(قوله: «لو لم تذنبوا لذهب اللَّهُ بكم، ولجاء بقومٍ يذنبون، ويستغفرون الله فيغفر لهم») هذا خبرٌ من الله تعالى عن ممكن مقدورٍ الوقوع مع علم الله تعالى بأنه لا يقع، فحصلَ منه أنَّ اللَّهَ تعالى يعلمُ حالَ المقدَّر الوقوع، كما يعلمُ حالَ المحقَّق الوقوع، ونحو من هذا قول الله تعالى: ﴿**وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ**﴾ (1). وقد عبَّر بعض العلماء عن هذا بأن قال: إنَّ اللَّهَ تعالى يعلمُ ما كان وما يكون، وما لو كان كيف كان يكون. وحاصلُ هذا الحديث: أنَّ اللَّهَ تعالى سَبَق في عمله أنه يخلقُ مَن يعصيه فيتوب، فيغفر له، فلو قُدِّر ألاَّ عاصي يظهرُ في الوجود لذهب اللَّهُ تعالى بالطائعين إلى جنَّته، ولخلق من يعصيه فيغفر له، حتى يُوجِد ما سبق في عمله، ويُظْهِر من مغفرته ما تضمَّنه اسمُه الغفَّار، ففيه من الفوائد رجاءُ مغفرته والطماعية في سَعَة رحمته.

(وقوله: «لما قضى اللَّهُ الخَلْق كَتَب في كتاب عنده على نفسه») أي: لما أظهر قضاءه، وأبرز أمره لمن شاء، أظهر كتاباً في اللوح المحفوظ، أو فيما شاءه، فقضاه خبر حقّ، ووعد صدق: «إن رحمتي تغلب غضبي» أي: تسبقه وتزيد عليه. وقد تقدَّم القولُ في غضب الله ورضاه، وأنَّ ذينك يرجعان إلى إرادته، ورلى مُتعلَّقها من إيصال المنافع والألطاف إلى المرحوم، أو إيصال المضارّ والانتقام للمغضوب عليه، فيرجع غضبُه إذاً ورحمته إلى الأفعال، وهو المرادُ بهذا الحديث. وإذا ظهر هذا فمعنى غَلَبة الرحمة، أو سبقها على ما جاء في الرواية الأخرى: أن رِفْقَه بالخلق، وإنعامَه عليهم، ولُطفَه بهم، أكثر من انتقامه، وأخذه. كيف لا؟ وابتداؤه الخَلْق، وتكميله وإتقانه،

---

(1) سورة الانعام الآية 28

وعنه؛ عن النبي ﷺ قال: «إنَّ لله مئةَ رحمةٍ، أنزل منها رحمةً بين الجنِّ، والإنس، والبهائم، والهوامِّ، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطفُ الوحشُ على وَلَدِها، وأخَّرَ الله تسعاً وتسعين رحمة يرحمُ بها عبادَه يوم القيامة».

وترتيبه، وخلق أول نوع الإنسان في الجنة، كلُّ ذلك رحمتهُ السابقة، وكذلك ما رتّ على ذلك من النّعم والألطاف في الدنيا والآخرة، وكلُّ ذلك رحماتٌ متلاحقات، ولو بدأ بالانتقام لما كمل لهذا العالم نظام. ثم العجب أنَّ الانتقام به كملت الرحمة والإنعام، وذلك أن بانتقامه من الكافرين كملتْ رحمتُه على المؤمنين، وبذلك حصل صلاحُهم وإصلاحهم، وتمَّ لهم دينُهم وفلاحهُم، وظهر لهم قدرُ نعمة الله عليهم في صرف ذلك الانتقام عنهم، فقد ظهر أنَّ رحمته سبقتْ غَضَبَه، وإنعامَه غلبَ انتقامه.

(وقوله: «إن لله مئة رحمة أنزلَ منها رحمة») هذا نصٌّ في أنَّ الرحمةَ يُراد بها متعلَّقُ إرادة الحقِّ سُبحانه، لا نفس الإرادة، وأنها راجعةٌ إلى المنافع والنِّعم. ومقتضى هذا الحديث: أنَّ الله تعالى علم أنَّ أنواعَ النعم التي ينعمُ بها على خَلْقه مئة نوع، فأرسل منها فيهم في هذه الدَّار نوعاً واحداً، فيه انتظمت مصالحهم، وحصلت مرافقُهم، كما نبَّه عليها في بقيَّة الحديث، فإذا كان يوم القيامة كمَّل لعباده المومنين ما بقي في غلمه، وهو التسعةُ والتسعون، فكلمت الرحمة كلَّها للمومنين، وهو المشارُ إليه بقوله: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [1] وهو الذي صرَّح به النبيُّ ﷺ حيث قال لهم: «إنَّ في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعتْ، ولا خَطَر على قلب بشر، بَلْهَ ما أطْلَعَكُمْ عليه». وعند هذا يفهم معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ [2] فإنَّ رحيماً من أبنية المبالغة التي لا شيءَ أبلغُ منها، ويُفهم من هذا أنَّ الكافرين لا يبقى لهم في النار رحمة، ولا تنالهم نعمة، لا من جنس رحمات الدُّنيا، ولا من غيرها، إذ كَمُل كلّ ما علم الله من الرحمات للمؤمنين، ختم اللَّه لما بما ختم للمؤمنين، ووقانا أحوالَ الكافرين.

---

(1) السجدة 17

(1) الأحزاب 43

وعن سلمان، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله خلقَ يوم خلقَ السموات والأرض مئةَ رحمة، كلُّ رحمةٍ طباقَ ما بين السَّماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمةً فبها تعطفُ الوالدة على ولدها، والوحشُ والطير بعضها على بعض، وإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة.

وعن عمرَ بنِ الخطَّاب؛ قال: قَدِمَ على رسول الله ﷺ سَبْيٌ؛ فإذا امرأةٌ من السَّبي تبتغي؛ إذا وجدت صبيّاً في السَّبي أخذته، فألصقته ببطنها،

وما قلناه في هذا الحديث أولى من قول مَن قال: إنّ معنى قوله: «إنّ لله مئةَ رحمة» الإغياء والتكثير؛ لأنه لم تجْرِ عادتُهم بذلك في مئة، وإنما جرتْ بالسبعين، ولو جرتْ بذلك لكان ذلك مجازاً، وما ذكرناه حقيقة، فكان أولى، والله أعلم.

و(قوله: «إنَّ الله خَلَقَ - يوم خلق السَّموات والأرضَ - مئة رحمة» معنى خَلَق - هنا -: قدَّر، وهو أصلُ هذا اللفظ، كما قال زهير:

ولأَنْتَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ وَبَعْـ ـضُ القَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لا يَفْرِي

أي: يقدِّر. ويكون معناه: إنَّ اللَّهَ أظهر تقديرَه لتلك الرحمات، أي: علمه بها يوم أظهر تقديره لاختراع السموات. ويصحُّ أن يُقال: إنَّ معنى خلق: اخترع وأوجد يوم خلق السَّوات والأرض المئة الرحمة، فأرسل في هذا العالم نوعاً واحداً من تلك الأنواع، وادَّخر في الجنة سادرها ليوم القيامة.

و(قوله: «كل رحمة طباقَ بين السماء والأرض») إغياء وتكثير، وقد جاء هذا الإغياءُ بهذا النوع كثيراً في الشرع واللغة، وقد جاء في بعض ألفاظ رواة مسلم: «جعل اللهُ الرُّحم مئةَ جُزْء» روي بضم الراء وفتحها، وهو بمعنى الرحمة، واللفظ الذي ذكرناه هو الأصح والأوضح.

و(قوله: فإذا امرأةٌ من السَّبي تبتغي إذا وجدتْ صبياً أخذته) قال القاضي: كذا في جميع نسخ مسلم، ولرواته فيه وهم، وفي كتاب البخاري: تسعى، مكان تبتغي، وهو وَجْهُ الكلام وصوابُه.

وأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أَتَرَوْن هذه طارحةً ولدَها في النار؟» قلنا: لا والله! وهي تقدر على ألا تطرحه. فقال رسول الله ﷺ: «لَلَّهُ أرحمُ بعباده من هذه بولدها».

* * *

باب من عاد إلى الذنب فَلْيَعُدْ إلى الاستغفار

عن أبي هريرة، عن النَّبيّ ﷺ فيما يحكي عن ربِّه عزَّ وجلَّ، قال: «أذنبَ عبدٌ ذنباً، فقال: اللهم! اغفر لي ذنبي! فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم: أنَّ له ربّاً يغفرُ الذَّنب، ويأخذ بالذّنب، ثم عاد فأذنب،

قال الشيخ رحمه الله: ولا خفاءَ بحسن رواية تسعى، ووضوحها، لكن لرواية (تبتغي) وجهٌ واضح، فلا يُغلَّط الرواةُ كلُّهم، وذلك أن تبتغي معناه: تطلب ولدها، وحذف مفعوله للعلم به.

(قوله: «أذنبَ عبدٌ ذنباً فقال: اللَّهُمَّ اغفر لي ذنبي، فقال تباركَ وتعالى: أذنب عبدي ذنباً علمَ أنَّ له رباً يغفرُ الذنبَ ويأخذُ بالذنب») يدلُّ على عظيم فائدة الاستغفار، وعلى عظيم فضل الله وسعة رحمته، وحلمه وكرمه. ولا شكَّ في أن هذا الاستغفار ليس هو الذي ينطقُ به اللسان، بل الذي يثبتُ معناه في الجنان، فيحلُّ به عقد الإصرار، ويندمُ معه على ما سلفَ من الأوزار. فإذاً الاستغفار ترجمةُ التوبة، وعبارةٌ عنها، ولذلك قال: «خيارُكم كلُّ مُفْتَنٍ توَّابٍ». قيل: هو الذي يتكرَّر منه الذنب والتوبة، فكلَّما وقع في الذنب عادَ إلى التوبة. وأما من قال بلسانه: إستغفر الله، وقلبُه مصرٌّ على معصيته، فاستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار، وصغيرته لاحقة بالكبار إذا لا صغيرة مع رصرار، ولا كبيرة مع استغفار. وفائدة هذا الحديث أنَّ العودَ إلى الذنب، وإن كان أقبحَ من ابتدائه، لأنه انضاف إلى الذنب نقصُ التوبة، فالعودُ إلى التوبة أحسنُ من ابتدائها، لأنها: انضافَ إليها ملازمة الإلحاح بباب الكريم، وأنه لا غافرَ للذنوب سواه.

فقال: أيْ ربِّ! اغفرْ لي ذنبي! فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم: أنَّ له ربَّاً يغفر الذَّنب، ويأخذ بالذَّنب، ثم عاد فأذنب فقال: أيْ ربِّ! اغفر لي ذنبي! فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم: أنَّ له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب؛ اعملْ ما شئت فقد غفرت لك».

* * *

(وقوله: «اعملْ ما شئتَ فقد غفرتُ لك») قد تقدَّم القول فيه، ونزيد هنا نكتة، وهي: أن هذا الأمر يحتملُ أن يكون معناه الإكرام، فيكون من باب قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [1] وآخر الكلام خبر عن حالِ المُخاطَب؛ لأنه مغفور له ما سلفَ من ذنبه، ومحفوظ ـ إن شاء الله ـ فيما يستقبلُ من شأنه.

* * *

---

(1) سورة الحجر الآية 46

باب في قوله تعالى: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾

عن عبد الله بن مسعود، قال: جاء رجلٌ إلى النّبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله! إني عالجتُ امرأة في أقصى المدينة، وإنّي أصبتُ منها ما دون أن أمسَّها فأنا هذا فاقض فيَّ ما شئت؟ قال له عمر: لقد سترك الله لو سترت على

ومن باب: في قوله تعالى: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾

(قوله: «إني عالجتُ امرأة») أي: حاولتها لأصيبَ منها غرضاً وشهوة، وأقصى المدينة: ما بَعُد منها، يعني موضعاً خالياً عن الناس.

و(قوله: إني أصبتُ منها ما دونَ أن أمسَّها) أى: لم أجامعْها، وقد قال في رواية أخرى: إن الذي أصابَ منها قبلةً قبَّلها، وإياها عنى في الرواية الأخرى بقوله: أصبتُ حَداً، ويحتمل أن يكون معناه أصبت منها شيئاً ممنوعاً، لأن الحدَّ في أصله هو المنع، ويحتمل أنه ظنَّ أن في ذلك حدّاً فأطلق عليه ذلك. وهو الظاهرُ من قوله: أصبتُ حدّاً فأقمْ عليَّ كتابَ الله.

و(قوله: فانطلقَ فأتبعَه النبيُّ ﷺ رجلاً فدعاه، فتلا عليه هذه الآية: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ**﴾ [1]. إنما دعاه النبيُّ ﷺ بعد انصرافه عنه، لأن الله تعالى أنزل الآية بعد انصرافه بسبب سؤال الرجل المذكور كما جاء نصّاً في رواية أخرى: أن رجلاً أصابَ من امرأة قبلةً فأتى النبيَّ ﷺ فذكرَ ذلك له، قال: فنزلت الآية. فبيّن أن الآية نزلت بسبب ذلك الرجل. وإقامة الصلاة: القيام بفعلها على سُنتَّها والمثابرة عليها. وطرفا النهار: هما الصبح والعصر، وقيل: الظهر والعصر، وقيل: العشاء والمغرب. وزلفا من الليل: بفتح اللام على قراءة الجماعة، وهي السَّاعات المتقاربة، جمع زُلفة، وهي القربة والمنزلة، وقرأها يزيد بضم اللام، وابن محيصن: بسكونها. والمراد المغرب والعشاء، والله أعلم.

---

(1) سورة هود الآية 114

نفسك! قال: فلم يرد عليه النَّبيُّ ﷺ شيئاً، فقام الرَّجل فانطلق، فأتبعه النَّبيُّ ﷺ رجلاً دعاه، فتلا عليه هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ اَلصَّلَوةَ طَرَفَى اَلنَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اَلَّيْلِ إِنَّ اَلْحَسَنَتِ يُذْهِبْنَ اَلسَّيِّـَٔاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ فقال رجل من القوم: يا نبي الله! هذا له خاصةً؟ قال: «بل للنَّاس كافةً».

وعن أنس، قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أصبت حداً فأقمه عليَّ! قال: وحضرت الصلاة، فصلَّى مع رسول الله ﷺ، فلما قضى الصَّلاة قال: يا رسول الله! إني أصبت حداً فأقم فيّ كتاب الله! قال: «هل حضرت معنا الصلاة؟ قال: نعم. قال: «قد غفر لك».

وفي رواية: عن أبي أمامة قال: «أليس قد توضأت فأحسنت الوضوء؟ قال: بلى. قال: ثم شهدت الصلاة معنا؟ قال: نعم. قال: «فإنَّ الله قد غفر لك حدَّك!» أو قال: «ذنبك».

* * *

و(قوله: إن الحسنات يُذهبن السيئات) يعني: الصلوات الخمس، كما قد جاء مفسّراً عنه ﷺ. قاله الطبري، وقال مجاهد: هي: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله.

قلتُ: واللفظ بحكم عمومه صالح لما قالاه، ولزيادة عليه، كما قال ﷺ: «الصلوات الخمسُ، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان كفَّارة لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر». وقد تقدَّم القول في معنى هذا الحديث في الطهارة.

و(قوله: ذلك ذكرى للذاكرين) أي: تذكُّر لمن تذكَّر، واتِّعاظ لمن اتَّعظَ. وقيل: إن هذا الرجل هو عمرو بن غزيَّة، كان يبيعُ التمر، فقال لامرأة: في البيت تمرٌ أجودُ من هذا، فدخلت، فوثبَ عليها وقبَّلها ثم تركها نادماً، فجاء باكياً إلى النبي ﷺ فنزلت الآيةُ، فقال له: «هل حضرتَ معنا الصلاة؟» فقال: نعم. قال «غفر لك»، وقيل: إنها كانت صلاة العصر.

باب لا ييأسُ من قبول التوبة ولو قتل مئة نفسٍ

عن أبي سعيدٍ الخدريِّ، أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «كان فيمنْ كان قَبلَكم رجلٌ قتل تسعةً وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فَدُلَّ على راهبٍ، فأتاه، فقال: إنَّه قتل تسعةً وتسعين نفسا؛ فهل له من توبةٍ؟ فقال: لا. فقتله، فكمل به مئة! ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على رجلٍ

(قول الراهب لقاتل التسعة والتسعين إنه لا توبة له)، دليلٌ على: قلَّة علم ذلك الراهب، وعدم فطنته، حيث لم يُصبْ وجهَ الفتيا، ولا سلكَ طريق التحرُّز على نفسه، ممن صارَ القتل له عادة معتادة، فقد صار هذا مثل الأسد الذي لا يبُالي بمن يفترسُه، فكان حقُّه ألاَّ يشافهه بمنع التوبة مداراةً لدفع القتل عن نفسه، كما يُدارى الأسدُ الضاري، لكنه أعان على نفسه. فإنه لما آيسه من رحمة الله وتوبته قتله، بحكم سَبُعيته ويأسه من رحمة الله وتوبته عليه. ولما لطف الله به بقيَ في نفسه الرغبة في السؤال عن حاله. فما زالَ يبحثُ إلى أن ساقَه الله تعالى إلى هذا الرجل العالم الفاضل، فلما سألَه نطقَ بالحق والصواب، فقال له: ومن يحولُ بينكَ وبينها؟ مفتياً ومنكراً على من ينفيها عنه، ثم إنه أحالَه على ما ينفعه، وهو مفارقته لأرضه التي كانت غلبت عليه بحكم عادة أهلها الفاسدة، ولقومه الذين كانوا يُعينونه على ذلك، ويحملونه عليه. وبهذا يُعلم فضلُ العلم على العبادة، فإنَّ الأوَّلَ غلبت عليه الرهبانية، واغترَّ بوصف الناس له بالعلم، فأفتى بغير علم، فهلكَ في نفسه وأهلكَ غيرَه. والثاني كان مشتغلاً بالعلم ومعتنياً به، فوُفِّق للحقِّ، فأحياه الله في نفسه، وأحيا به النَّاسَ. قال القاضي: ومذهبُ أهل السنَّة والجماعة أن التوبة تُكفِّر القتل كسائر الذنوب، وهو قول كافّة العلماء. وما رُوي عن بعضهم من تشديد في الزجر وتورية في القول فإنما ذلكَ لئلا يجترىء الناس على الدماء. وقد اختلف في قوله

عالمٍ، فقال: إنَّه قتل مئة نفسٍ؛ فهل له من توْبة؟ قال: نعم! ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا، وكذا، فإنَّ بها أناساً يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنَّها أرضُ سوء! فانطلق حتى إذا نَصفَ الطريقَ أتاه ملكُ الموتِ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة، وملائكة

تعالى: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّم خَالِداً فِيهَا** ﴾ [1] فقيل معناه: إنْ جازاه. وقيل: الخلود: طول الإقامة لا التأبيد. وقيل: الآية في رجل بعينه قتلَ رجلاً له عليه دم بعد أخذ الدية ثم لرتدَّ. وقد تقدَّم القول على أن كلَّ ما دون الشرك يجوزُ أن يغفره الله تعالى، وأنه ليس من ذلك شيء كفراً قتلاً كان أو ترك صلاة أو غيرها، كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ** ﴾ [2]. ولقوله في حديث عبادة بن الصامت - رضي الله عنه -: «تبايعوني على ألاَّ تُشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، لا تزنوا، ولا تقتلوا النفسَ التي حرَّم الله إلا بالحق، فمن أصاب شيئاً من ذلك فعُوقب به فهو كفَّارة له، ومن أصابَ شيئاً من ذلك فستره الله عليه، فأمره إلى الله إن شاءَ عفا عنه، وإن شاء عذَّبه»، ولقوله ﷺ في حديث عبادة أيضاً: «خمسُ صلوات افترضَهُنَّ الله عز وجل على العباد، فمن جاءَ بهنَّ لم يضيع منهنَّ شيئاً كان عند الله عهد إن يغفر له، ومن لم يأت بهنَّ فليس له عند الله عهدٌ إن شاء غفرَ له وإنْ شاء عذَّبه». وهذه حجج صريحة تبيِّن فسادَ مذهب المكفرة بشيء من ذلك.

(وقوله: «نَصَفَ الطريق») أي: بلغ نصفَه، يقال: نصفَ الماءَ والشجرةَ وغيرَهما إذا بلغ نصف ذلك.

(وقوله: نأى بصدره) أي: نهضَ به مع ثقل ما أصابَه من الموت، وذلك دليلٌ على صحة توبته وصدق رغبته.

و(قوله: «فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمة وملائكةُ العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: إنه جاء تائباً مقبلاً بقلبه») . هذا نصٌّ صريح في أن الله تعالى أطلعَ ملائكة

---

(1) سورة النساء الآية 93

(2) سورة النساء الآية 48

العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله! وقالت ملائكة العذاب: إنَّه لم يعملْ خيراً قطُّ! فأتاهم ملك في صورة آدميٍّ؛ فجعلوه بينهم. فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له.

الرحمة على ما في قلبه من صحة قصده إلى التوبة وحرصه عليها، وأن ذلك خفي على ملائكة العذاب حتى قالت: إنه لم يعملْ خيراً قط. ولو اطَّلعت على ما في قلبه من التوبة، لما صحَّ لها أن تقولَ هذا، ولا تُنازعَ ملائكة الرحمة في قولها: إنه جاء تائباً مقبلاً بقلبه، بل شهدت بما في علمها، كما شهدَ الآخرون بما تحقَّقوه. لكنَّ شهادةَ ملائكة الرحمة على إثبات، وشهادةَ ملائكة العذاب على عدم علم، وشهادة الإثبات مقدَّمة. فلا جرمَ لمَّا تنازع الصنفان وخرجَ كلاهما عن الشهادة إلى الدعاوى، بعث الله إليهما ملكاً حاكماً يفصل بينهما، وصوَّره بصورة الآدميِّ، إخفاءً عن الملاذكة وتنويهاً ببني آدم، وأنَّ منهم من يصلحُ لأن يفصلَ بين الملائكة إذا تنازعوا.

و(قوله: «فاجعلوه بينهم») فيه حجَّة لمالك على قوله: إن المتخاصمَيْن إذا حكَّما بينهما رجلاً يصلح للتحكيم لزمهما ما يحكمُ به. وقد خالفَه في ذلك الشافعي.

و(قوله: «فقيسوا ما بين الأرضين فإلي أيتها كان أدنى فهو له»). دليل على أن الحاكم إذا تعارضتْ الأقوال عنده، وتعذَّرتْ الشهادات، وأمكنَه أن يستدلَّ بالقرائن على ترجيح بعض الدعاوي، نفذ الحكم بذلك، كما فعلَه سليمانُ عليه السلام حيث قال: ائتوني بالسِّكين أشقُّه بينهما.

تنبيه: قال القاضي: جعل الله قربه من القرية علامة للملَك عند اختلافهم مع عدمهم معرفة حقيقة باطنه التي أطَّلع الله عليها، ولو تحقَّقوا توبته لم يختلفوا ولم يحتاجوا للمقايسة.

قال الشيخ رحمه الله: وهذه منه عن قول ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله عر وجل. وهذا نص في أن ملائكة الرحمة علمت ما في قلبه، فلو علمت

فقاسوا، فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكةُ الرحمة». قال قتادة: قال الحسن: ذكر لنا: أنَّه لما أتاه الموتُ نأى بصدره، وزاد في أخرى: «فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقرَّبي».

* * *

ملائكة العذاب ما في قلبه لما تنازعوا، لأن الملائكة كلّهم، لا يخفى عليهم أن التوبة إذا صحَّت في القلب، وعُمل على مقتضاها بالجوارح بالقدر الممكن مقبولة بفضل الله تعالى ووعده الصادق، والأحسن ما ذكرناه إن شاء الله تعالى. وإنما جعلَ الله قربَ تلك الأرض سبباً مرجِّحاً لحجَّة ملائكة الرحمة، ومصدِّقاً لصحة التوبة، وفيه دليل على أن أعمال الظاهر عنوانٌ على الباطن.

و(قوله: «فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقرَّبي») . إنما كان ذلك لما حكم الحاكمُ بقياس الأرض. ويُفهم منه أنَّ الرجلَ كان أقربَ إلى الأرض التي خرجَ منها، فلو تركَ الله الأرضَ على حالها، لقبضته ملائكةُ العذاب، لكن غمرته الألطاف الإلهية، وسبقت له العناية الأزلية، فقرّبت البعيد، وألانت الحديد. ويُستفاد منه أن الذنوبَ وإن عظمت، فعفو الله أعظمُ منها، وأنَّ من ألهم صدقَ التوبة، فقد سُلك به طريق اللطف والقربة.

* * *

باب يهجر من ظهرت معصيته حتى تتحقق توبته وقبول الله تعالى للتوبة الصادقة وكيف تكون أحوال التائب

عن كعب بن مالك؛ يحدِّثُ حديثه عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك؛ وهو يريدُ الرُّوم، ونصارى العرب بالشَّام، قال كعبُ بن مالكٍ: لم أتخلفْ عن رسول الله ﷺ في غزوةٍ غزاها قطُّ إلا في غزوة تبوكَ؛ غير أنِّي قد تخلفْتُ في غروة بدرٍ. ولم يعاتِبْ أحداً تخلَّف عنه، إنَّما خرج رسولُ الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوِّهم على غير ميعادٍ، ولقد شهدْتُ مع رسولِ الله ﷺ ليلةَ العقبةِ حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبُّ أنَّ لي بها مشهد بدر، وإن كانتْ بدرٌ أذكرَ في النَّاس منها. وكان من خبري حين تخلَّفتُ عن رسول الله ﷺ في غروة تبوكَ: أنِّي لم أكن قطُّ أقوى ولا أيسرَ منِّي حين تخلفتُ عنه تلك الغزوة، والله! ما جمعتُ قبلها راحلتين قطُّ حتى جمعتُها في تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد؛ واستقبل سفراً بعيداً، ومفازاً، واستقبل عدوّاً كثيراً، فجلَّى للمسلمينَ أمرهم، ليتأهبوا أُهْبَةَ غزوهم، فأخبرهم بوجههم الذي

ومن باب: يُهْجَرُ من ظهرتْ معصيتُه حتى تتحقَّق توبتُه

العيرُ: الإبلُ التي عليها أحمالُها. وقد جلَّى للناس أمرهم أي: كشفه وأوضحه. يعني: أنه بيَّن لهم وَجْهَه.

يريدُ، والمسلمين مع رسول الله ﷺ كثيرٌ، ولا يجمعهم كتابُ حافظ (يريد بذلك الديوان) قال كعب : فَقَلَّ رجلٌ يريد أن يتغيب يظن أنَّ ذلك سيخفى له مالم يَنْزِلْ فيه وحيٌ من الله عز وجل، وغزا رسولُ الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثِّمارُ والظلال، فأنا إليها أَصْعَرُ، فتجهز رسولُ الله ﷺ والمسلمون معه، وطفِقْتُ أغدو لكي أتجهَّز معهم فأرجعُ ولم أقضِ شيئاً، وأقولُ في نفسي: أنا قادرٌ على ذلك إذا أردْتُ، فلم يزلْ ذلك يتمادى بي حتى استمرَّ بالناس الجِدُّ، فأصبحَ رسولُ الله ﷺ غادياً، والمسلمون معه، ولم أقض من جَهازي شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقضِ شيئاً. فلم يزل يتمادى بي حتى أسرعوا وتَفَارَط الغزو، فهَمَمْتُ أن أرحل فأدركَهُم - فيا ليتني فعلت - ثم لم يُقدَّرْ ذلك لي، فطُفِقْتُ إذا خرجت في النَّاس بعد خرج رسول الله ﷺ يَحْزُنُني أنِّي لا أرى لي أسوةً إلا رجلاً مغموصاً عليه في النِّفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذْكُرْني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوكاً، فقال - وهو جالس في القوم بتبوك -: « ما فعل كعب بن

و(قوله: فقلَّ رجلٌ يريدُ أن يتغيَّبَ يظنُّ أنَّ ذلك سيخفى له) كذا وقع هذا الكلامُ في سائر روايات مسلم، وفي نُسَخه، وسقط من الكلام (إلا) قبل (يظن) وبه يستقيمُ الكلام. وهي إيجابٌ بعدما تضمَّنه (قلَّ) من معنى النفي، لأن معنى قوله: قلَّ رجل بمعنى: ما رجل، فكأنه قال: ما رجل يريدُ أن يتغيَّبَ إلا ظنَّ أنَّ ذلك سيخفى له.

و(قوله: فأنا إليها أصعرُ) هو بالعين المهملة، ومعناه: أميلُ.

و(قوله: وتفارطَ الغزو) أي : تقدَّم الغزاةُ. والفرط والفارط: المتقدِّم. وجمعه: فُرَّاط. والأسوة: القدوة. والمغموص عليه: المعيبُ، المتَّهم، المحتقر.

مالك؟»، قال رجل من بني سَلِمَة: يا رسول الله! حبسه برداه والنظر في عِطْفيه! فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً فسكت رسول الله ﷺ، فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مُبَيِّضاً، يزول به السراب، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة». فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدَّق بصاع التَّمر حين لمزه المنافقون.

فقال كعبُ بن مالك: فلما بلغني أنَّ رسول الله ﷺ قد توجَّه قافلاً من

و(قوله: حَبَسه بُرْداه والنظرُ في عِطْفَيْه) البُرْدان: يعني به: الرداء والإزار، والرداء والقميص، وسمَّاهما بُرْدين، لأنَّ القميصَ والإزار، لأنَّ القميصَ والإزار قد يكونان من بُرود، والبرودُ: ثيابٌ من اليمن فيها خطوط. ويحتملُ أنَّ تسميتها بُرْدَيْن على طريقة: العمرين، والبكرين، والقمرين. والعِطْفُ: الجانب. وكأنَّ هذا القائلَ كان في نفسه حِقْدٌ، ولعلَّه كان منافقاً، فَنسبَ كعباً إلى الزهو والكبر، وكانت نسبةً باطلةً بدليل شهادة العدل الفاضل معاذ بن جبل، إذ قال: بئسَ ما قلت، والله يا رسول الله! ما عَلِمْنا عليه إلاَّ خيراً. فيه جوازُ الذّمِّ والتقبيح للمتكلِّم في حقِّ المسلم بالعيب والقبيح، ونصرة المسلم في حال غَيْبته، والرَّدّ عن عِرضه.

و(قوله: إذ رأى رجلاً مُبَيِّضاً يزولُ به السراب)، هو بكسر الياء: اسمُ فاعل، من: بيَّض فهو مُبيِّض؛ أي: أظهر بياضَ نفسه في السراب. ويزول: يتحرك ويضطرب. والسَّراب: ما يُرى نصفَ النهار كأنَّه ماء.

و(قوله: «كُنْ أبا خيثمة») هذه صيغةُ أمرٍ. ومعناها الخبر، أي: هو أبو خيثمة، وقيل معناها، لتوجدْ أبا خيثمة، واسمه عبد الله، وقيل: مالك بن قيس. ولمزه المنافقون: عابوه، واللمز: الطَّعن والعيب. وقافلاً: راجعاً. والبثُّ: أشدُّ الحزن. وطفقت: أخذت، وهي من أفعال المقاربة على ما تقدَّم. وأظلّ قادماً: أقبل، وهو رباعيٌّ. وزاح: ذهب وزال. وأجمعتُ صِدْقَهُ: عزمتُ عليه.

تبوكَ؛ حضرني بثِّي، فطفقت أتذكَّرُ الكذبَ، وأقول: بم أخرج من سخطه غداً! وأستعين على ذلك كلَّ ذي رأي من أهلي، فلما قيل لي: إنَّ رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادماً زاح عني الباطلُ حتى عرفتُ أنِّي لن أنجو منه بشيء أبداً، فأجمعتُ صِدْقَه، وصبَّح رسولُ الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفرٍ بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاء المخلَّفون، فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكَلَ سرائرَهُم رلى الله، حتى جئتُ فلما سلمتُ تبسم تبسُّم المغضَب! ثم قال: «تعالَ»، فجئت أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: «ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟» قال: قلت: يا رسول الله إنِّي والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أنِّي سأخرج من سخطه بعذرٍ، ولقد أُعْطِيْتُ جدلاً، ولكنِّي والله لقد علمتُ لئن حدثتُك اليومَ حديثَ كَذِبٍ ترضى به عنِّي ليوشِكَنَّ الله أن يُسْخِطَك عليّ، ولئنْ حدَّثتُك حديث صدقٍ تجدُ عليَّ فيه إنِّي لأرجو فيه عُقبى اللَّه. والله ما كان لي عذر. والله ما كنت قطُّ أقوى ولا أيسرَ منِّي حين تخلفتُ عنك قال رسول الله ﷺ: «أمَّا هذا فقد صدق فقم

و(قوله: وكان إذا قدم من سفرٍ بدأ بالمسجد فركع فيه) إنما كان يفعلٍ ذلك ليبدأ بتعظيم بيت الله قبل بيته، وليقوم بشكر نعمة الله تعالى عليه في سلامته، ويُسلِّم عليه الناس، وليسنَّ ذلك في شرعه. والجدل: الخصومة المحكمة. والظَّهر هنا: الإبلُ التي يُحْمَلُ على ظهورها. ومُرارة بن ربيعة، كذا وقع في كتاب مسلم، وذكره البخاري: ابن الربيع. وذكره أبو عمر بالوجهين، ونسبه مسلم فقال: العامري. والصواب: العَمْري، وكذا ذكره البخاريُّ، وابن إسحاق، وأبو عمر بن عبد البر، وهو منسوبٌ لعمرو بن عوف.

حتى يقضي الله فيك». فقمتُ، وثار رجالٌ من بني سَلِمَة، فاتَّبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبتَ ذنباً قبل هذا لقد عَجَزْتَ في ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المخلفون فقد كان كافيَك ذنبَك استغفارُ رسول الله ﷺ لك. قال: فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردتُ أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذِّب نفسي. قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك قال: قلت: من هما؟ قالوا: مُرارةُ بنُ ربيعةَ العامريُّ، وهلالُ بنُ أميَّةَ الواقفيُّ. قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً؛ فيهما أسوةٌ. قال: فمضيتُ حين ذكروهما لي. قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيُّها الثلاثةُ من بين من تخلَّف عنه، قال: فاجْتَنَبَنا النَّاس، وقال: تغيَّروا لنا حتى تنكرتْ لي في نفسي الأرضُ، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبِثْنا على ذلك خمسينَ ليلةَ. فأمَّا صاحباي فاستكانا، وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأمَّا أنا فكنتُ أشبَّ القوم وأجْلَدَهُم، فكنت أخرج فأشهدُ الصَّلاة، وأطوفُ في الأسواق، ولا يكلِّمني أحدٌ، وآتي رسولَ الله ﷺ فأسلمُ عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول

و(قوله: نهى رسولُ الله ﷺ عن كلامنا ـ أيها الثلاثةُ ـ) هو دليلٌ على وجوب هجران مَن ظَهرتْ معصيتُه، فلا يُسلَّم عليه إلا أن يُقْلِعَ وتظهرَ توبتُه. والثلاثةُ مرفوع على الصفة لـ(أي)، ويجوز نصبُه على الاختصاص، وحكى سيبويه: اللهم اغفر لنا أيتها العصابةَ. وتنكرت: تغيَّرت. واستكانا: سكنا، أي: خضعا وذلاً، وأشبّ القوم: أصغرهم. وأجلدهم: أقواهم. وأسارقهُ النظر: أي أنظر إليه بطَرْف خفيٍّ. وتسوَّرت الجدار أي: علوتُ سُوره. وأَنْشُدُك الله أي: أسألك بالله، ومنه النشيد، وهو: رفعُ الصوت بالشِّعر وغيره.

في نفسي: هل حرَّك شفتيه بردِّ السلام أم لا؟ ثمَّ أصلِّي قريباً منه وأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليَّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عنِّي، حتى إذا طال ذلك عليَّ من جفوة المسلمين مَشَيْتُ حتى تسوَّرتُ جدار حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي وأحب الناس إلي - فسلّمْت عليه، فوالله ما ردَّ عليّ السَّلام فقلت له: يا أبا قتادة! أَنْشُدُك بالله! هل تعلمنَّ أنِّي أحبُّ الله ورسوله؟ قال: فسكَتَ، فعُدْتُ فناشدته، فسكتَ، فعدْتُ فناشدْتُه، فقال: اللَّهُ ورسوله أعلم! ففاضت عيناي، وتولَّيْتُ حتى تسورتُ الجدار، فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نَبَطِيٌّ من نَبَط أهل الشام، ممَّن قَدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلُّ على كعب بن مالك؟ قال: فَطَفِقَ النَّاس يشيرون له إليَّ حتَّى جاءني، فدفع إليّ كتاباً من مَلِك غسَّان - وكنت كاتباً - فقرأته، فإذا فيه: أمَّا بعد! فإنَّه قد بلغنا أنَّ صاحبك قد جفاك، ولم يَجْعَلْكَ الله بدار هوان، ولا مضيعة، فالْحَقْ بنا نواسِكَ، قال: فقلت حين قرأتها: وهذه أيضاً من البلاء فتأمت بها التنُّور، فسجرتُها بها، حتى إذا مضت أربعون من

(وقول أبي قتادة: الله ورسوله أعلم) ظاهرُه: أنه أجابه عند إلحاحه عليه بالسُّؤال، فيكون قد كلَّمه. فيكون مخالفاً للنهي. وقد تُؤوِّل بأن أبا قتادة قال ذلك لنفسه مُخبراً عن اعتقاده، ولم يقصد كلامَه ولا إسماعه.

قال الشيخ رحمه الله: ويحتملُ أن يقال: إنَّ قتادة فهم أنَّ الكلامَ الذي نُهي عنه إنما هو الحديثُ معه والمباسطة، وإفادة المعاني، فأما مثل هذا الكلام الذي يقتضي الأبعاد والمنافرة، فلا - والله أعلم - ألا ترى أنه لم يردَّ عليه السلام، ولا التفت لحديثه والنَّبطي: واحد النَّبط، وهم العامرون لتلك الأراضي، وسمُّوا بذلك لأنهم ينبطون المياه؛ أي: يستخرجونها. وتأمَّتُ بها التنورَ فسجرتُها؛ أي: قصدتُ بالصحيفة التنور فرميتُها فيه، وأحرقتها، ويقال: تيمم بالياء وبالهمزة. والمَضيعَة: بفتح الميم وكسر الضاد، وسكونها: الضَّياع، وهو الإهمالُ، وترك المبالاة به حتى يضيع.

الخمسين واستلبثَ الوحيُ إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني، فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ يأتيني، فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ يأمرُك أن تعْتَزِلَ امرأتَك، قال: فقلت: أطلِّقها؛ أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتَزِلْها، فلا تقرَبَنَّها قال: فأرسل إلى صاحِبَيَّ بمثلِ ذلك، قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر قال: فجاءت امرأة هلال بن أميَّة رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله! إنَّ هلال بن أمية شيخٌ ضائعٌ ليس له خادمٌ؛ فهل تكره أن أخدُمَه؟ قال: «لا! ولكن لا يَقْرَبَنَّك»، فقالت: إنَّه والله! ما به حركةٌ إلى شيء، ووالله ما زالَ يبكي منذُ كانَ من أمره ما كانَ، إلى يومه هذا. قال: فقال لي بعضُ أهلي: لو استأذنتَ رسولَ الله ﷺ في امرأتكَ فقد أذنَ لامرأة هلال بن أميَّة أن تَخْدُمَه. قال: فقلت: لا أستأذنُ فيها رسولَ الله ﷺ، وما يُدريني ماذا يقولُ رسولُ الله ﷺ إذا استأذنتهُ فيها، وأنا رجلٌ شابٌّ. قال: فلبثتُ بذلك عشرَ لَيالٍ فكَمُلَ لنا خمسون ليلةً من حينَ نُهي عن كلامنا. قال: ثم صَلَّيْتُ صلاةَ الفجرِ صباحَ خمسينَ ليلةً على ظهر بيت من بُيوتنا، فبينا أنا جالسٌ على الحال التي ذكرَ الله عزَّ وجلَّ منَّا، قد ضاقتْ عليَّ نفسي، وضاقتْ عليَّ الأرضُ بما رَحُبَتْ، سمعتُ صوتَ صارخٍ أَوْفى على سَلْعٍ يقولُ بأعلى صوته: يا كعبَ بن مالكٍ أبشرْ، قال: فخررتُ

و(قوله: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضيَ اللَّهُ في هذا الأمر) هذا يدلُّ على أنّ: الحقي بأهلك ليس من ألفاظ الطلاق، لا من صرائحه، ولا من كناياته الظاهرة، وغايتُه: أن يكون مما يحتمل أن يُرادَ به الطلاق إذا نوى ذلك.

و(قوله: وضاقتْ عليَّ الأرضُ بما رحبت) أي: برُحْبها. وما مصدرية، والرحب -بضم الراء-: السعة. وأوفى: أطلَّ وأشرف. وسَلْع: -بفتح السين وسكون اللام-: جبل بالمدينة معروف.

ساجداً، وعرفتُ أن قد جاء فرجٌ. قال: فآذنَ رسولُ الله ﷺ النَّاسَ بتوبة الله علينا حين صَلَّى صلاةَ الفجر، فذهبَ النَّاسُ يُبَشِّرُوننا، فذهبَ قِبَلَ صاحبَيَّ مُبَشِّرونَ، وركضَ رجلٌ إليَّ فَرَساً، وسَعَى ساعٍ من أسلمَ قِبَلي، وأوفى الجبلَ فكانَ الصوتُ أسرعَ من الفَرَس، فلمّا جاءَني الذي سمعتُ صوتَه يُبَشِّرُني نزعتُ ثَوْبيَّ، فكسوتُهما إيَّاه ببشارته، والله ما أملكُ غيرَهما يومئذ، واستعرتُ ثوبين فلبستهما وانطلقتُ أتأمَّمُ رسولَ الله ﷺ، يَتَلَقَّاني النَّاسُ فَوْجاً، يُهَنِّئوني بالتوبة، ويقولون: لِتَهْنِئْكَ توبةُ الله عليكَ حتَّى دخلتُ المسجد، فإذا رسولُ الله ﷺ جالسٌ في المسجد وحولَه النَّاسُ، فقامَ طلحةُ بن عُبيد الله يُهرولُ حتى صافَحني، وهنَّأني، والله ما قامَ رجلٌ من المهاجرين غيرُه. فال: فكانَ كعبٌ لا ينساها لطلحةَ. قال كعبٌ: فلمَّا سلَّمتُ على رسول الله ﷺ قالَ وهو يَبْرُقُ وجهُه من السُّرور، ويقول: «أبشرْ بخيرِ يوم مرَّ عليكَ منذُ ولدتكَ أُمُّك». قال: فقلت: أمنْ عندكَ يا رسولَ الله أم من عند

و(قوله: فخررت ساجدا» هذه سجدةُ الشكر، وظاهرُ هذا أنَّها كانت معلومةً عندهم، معمولاً بها فيما بينهم، وقال بها الشافعي ومالك في أحد قولَيْه، ومشهورُ مذهبه الكراهة. وركضُ الفرس: إجراؤه الجري الشديد. وكِسْوَتُه للبشير ثوبيه مع كونه ليس له غيرهما دليلٌ على جواز مثل ذلك إذا ارتجى حصولَ ما يستبشرُ به، وهو دليلٌ على جواز إظهار الفرح بأمور الخير والدِّين، وجواز البَذْل والهِبات عندها، وقد نحر عمرُ لما حفظ سورة البقرة جزوراً.

و(قوله: فتلقَّاني الناسُ فوجاً يُهنئوني بالتوبة) أي: زمرة زمرة، وجماعة بعد جماعة. وفيه دليلٌ على جواز التَّهنئة بأمور الخير، بل على نُدْبتيها إذا كانت دينيَّة؛ فإنَّه إظهارُ السرور بما يُسَرُّ به أخوه المسلم، وإظهار المحبة، وتصفية القلب بالمودة.

و(قوله: فقام طلحةُ بن عبيد الله يهرولُ حتى صافحني وهنَّأني) دليلٌ لمن قال بجواز القيام للدَّاخل والمصافحة. وقد بيَّنَا الخلافَ في ذلك في الجهاد.

الله؟ فقالَ : «لا بل من عند الله». وكان رسولُ الله ﷺ إذا سُرَّ استنارَ وجهُه كان وجهَه قطعةُ قمرٍ. قال: وكنّا نعرفُ ذلك.

قال: فلمّا جلستُ بين يديْه، قلت: يا رسولَ الله إنَّ من تَوْبتي أن أنخلعَ من مالي صدقةً إلى الله، وإلى رسولِ ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «أمسكْ بعضَ مالكَ فهو خيرٌ لك». قال: فقلت: فإني أمسكُ سَهْمِيَ الذي بخيبَر، قال: وقلت: يا رسولَ الله! إنَّ اللَّهَ إنما نجَّاني بالصِّدق، وإنَّ من توبتي ألاَّ أُحَدِّثَ إلا صِدْقاً ما بقيتُ. قال: فوالله ما علمتُ أنَّ أحداً من المسلمينَ

و(قوله: وكان كعب لا ينساها لطلحة) أي: تلك القومة والبشاشة التي صدرتْ له منه. ومعناه: أن تلك الفعلة أكَّدت في قلبه محبَّته، وألزمته حُرْمته حتى عدَّها من الأيدي الجسيمة، والمنن العظيمة.

و(قوله: إنَّ من توبتي أن أنخلعَ من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله) أي: إنَّ من علامات صدق توبتي، أو من شكر توبتي أن أتصدق بمالي، أي أن عليَّ ذلك، فهي صيغة نَذْر والتزام، خرج مخرجَ الشكر وابتغاء الثَّواب. أقرَّ عليه النبيُّ ﷺ فكان ذلك جائزاً، ولم يدخلْ مخرجَ الشكر وابتغاء الثَّواب. أقرَّ عليه النبيُّ ﷺ فكان ذلك جائزاً، ولم يدخلْ في عموم النّذر المنهي عنه بقوله: «لا تنذروا» وقد بيَّنا ذلك فيما تقدَّم. وعلى مُقتضى هذا اللفظ فقد وجب عليه إخراجُ كلِّ ماله، لكن لما كان ذلك يُؤدي إلى أن يبقى فقيراً محتاجاً، وربما يُفضي به ذلك إلى سؤال الناس، وإلى الدخول في مفاسد، اكتفى الشرع منه ببعضه فقال: «أمسك عليك بعضَ مالك فهو خيرٌ لك» وهذا البعضُ الذي أمره بإمساكه هو الأكثرُ، والمتصدَّق به هو الأقل، كما قال في حديث سعد: «الثلث والثلث كثير» كما تقدم.

و(قوله: فما أعلمُ أحداً أبلاه اللهُ في صدْق الحديث أحسن مما أبلاني) أي: أنعم، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ**﴾ [1] أي: نعمة، ويقال في الخير والشر، ثلاثياً ورباعياً، وقد جمع بينهما زهير فقال:

---

(1) سورة البقرة الآية 49

أبلاه الله في صدْق الحديث منذُ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ أحسنَ مما أبلاني اللهُ به، والله ما تعمَّدتُ كذْبَةً منذ قلتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإنِّي لأرجو أن يحفظَني الله فيما بقيَ، قال: فأنزلَ الله تعالى: ﴿ **لَقَد تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ** ﴾ حتى بلغ ﴿ * **يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾. قال كعبٌ: والله ما أنعمَ الله عليَّ من نعمةٍ قطُّ بعدَ أن هداني الله للإسلام أعظمَ في نفسي من صدْقي رسولَ الله ﷺ ألاَّ أكونَ كذبتُه فأهلكَ كما هلكَ الذين كذبوا، إن اللهَ قالَ للّذين كَذَّبُوا حينَ أنزلَ الوحيَ شرَّ ما قالَ لأحد، وقال سبحانه: ﴿ **سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ**

..... وأبْلاَهُما خَيْرَ البَلاَءِ الذي يَبْلُو [1]

وأصله من الابتلاء، وهو الامتحان، والاختبار. ويُمتحن بالخير والشر كما قال تعالى: ﴿ **وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً** ﴾ [2] والعسرة: الشدة وسُوء الحال، وهو العسر أيضاً. وتزيغ: تميلُ وتذهب. ﴿ **ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ** ﴾ [3] أي: ألهمهم أسبابَ التوبة، وأعانهم عليها، ﴿ **لِيَتُوبُوا** ﴾، أي: ليقبلها منهم. وقيل: تاب عليهم قبل توبتهم، وليتوبوا: أي: ليدوموا عليها.

---

(1) هذا عجز بيت، وصدره:
جَزَى اللهُ بالإحسانِ ما فَعَلا بكم ...

(2) سورة الانبياء الآية 37

(3) سورة التوبة الآية 117

لَكُمْ لِتَرْضَوا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوَا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾. قال كعبٌ: كنَّا خُلِّفْنا أيُّها الثلاثةُ عن أمرِ أولئكَ الذين قبلَ منهم رسولُ الله ﷺ حينَ حلفوا له، فبايعَهم، واستغفرَ لهم، وأرجأ رسولُ الله ﷺ أمرَنا حتَّى قضَى الله فيه. فبذلكَ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ وليس الذي ذكرَ اللهُ مما خلَّفنا تَخَلُّفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفُه إيّانا، وإرجاؤه أمرَنا عمَّن حلفَ له، واعتذرَ إليه فقبلَ منه.

* * *

و(قوله: ما أنعم الله عليَّ من نعمة قطُّ بعد أن هَدَاني للإسلام أعظم في نفسي من صِدْقي رسول الله ﷺ ألا أكون كَذَبته فأهلك) كذا عند جميع رواة مسلم والبخاري: ألا أكون، وهي زائدة، وتقدير الكلام: أن أكون، وكما قال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ﴾ [1] معناه: أن تسجد. وقد رواه الأصيلي عن البخاري: إلا أن أكون كذبته، وليست بشيءٍ، والأولى الصواب. والرّجس: المستخبث، المستقذر، المذموم.

و(قوله: كنا خُلِّفْنا أيها الثلاثة) أي: أُخِّروا عن المنافقين، ولم يُقْضَ فيهم بشيءٍ، وقد بيَّن ذلك في بقية الحديث.

* * *

---

(1) سورة الاعراف الآية 12

باب تقبل التوبة ما لم تطلع الشمس من مغربها

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تابَ قبلَ طُلوعِ الشَّمس من مَغْرِبِها تاب الله عليه».

وعن أبي موسى، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَده باللَّيْل ليتوبَ مُسيءُ النَّار، ويَبْسُطُ يدَه بالنَّهار ليتوبَ مُسيءُ اللَّيلِ حتَّى تطلعَ الشَّمسُ من مَغْرِبِها».

* * *

ومن باب: من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب اللَّهُ عليه

يعني: أن التوبةَ تصحُّ وتقبل دائماً إلي الوقت الذي تطلعُ فيه الشمسُ من حيث تغرب، فإذا كان ذلك طبع على كلِّ قلب بما فيه، ولم تنفعْ توبةُ أحد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يأْتي بَعْضُ آيات رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نفساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ من قَبْلُ أَوَ كَسَبَتْ في إِيمَانِهَا خَيْراً**﴾ [1] وسرُّ ذلك وسَبَبُه: أنَّ ذلك هو أوَّلُ قيام الساعة؛ فإذا شُوهد ذلك، وعُوين حصل الإيمانُ الضروري، وارتفع الإيمانُ بالغيب الذي هو المكلَّفُ به، وسيأتي القولُ في تحقيق القولِ في طلوع الشمس من مغربها.

و(قوله: «إنَّ الله يَبْسُطُ يده بالليل ليتوب مسيءُ النهار، ويَبْسُطُ يده بالنهار ليتوب مسيءُ الليل») وقد تقدم الكلامُ على اليد المنسوبة لله تعالى غير مرَّة، وهذا الحديثُ أجري مجرى المثل الذي يُفهم منه دوامُ قبول التوبة، واستدامة اللُّطف والرَّحمة، وهذا تنزُّلٌ عن مقتضى: الغنيِّ، القوي، القاهر، إلى مقتضى: اللطيف الرؤوف، الغافر، وهو نحو قوله تعالى ﴿**مَّن ذَا الَّذي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً**﴾ [2]. وقوله ﷺ: «من يُقرض غير عدوم ولا ظلوم». فَمنْ لطيف لطْفه: أنه خاطَبَنا مخاطبة الأَخذ لنفسه، المحتاج. ومن عجائب كَرَمه: أنه استقرض منَّا ماله استقراض مَن احتاج. فنسأله بعظمته وجلاله. وبحقِّ محمد وآله، أن يُعاملَنا بلُطْفه وعفوه وإفضاله.

* * *

---

(1) سورة الأنعام الآية 158

(2) سورة البقرة الآية 245

كتاب الزهد

باب هوان الدُّنيا على الله تعالى

وأنَّها سجنُ المؤمن

عن جابرِ بنِ عبد الله أنَّ رسولَ الله ﷺ مرَّ بالسُّوق داخلاً من بعض العالية والناس كَنَفَتَيه، فمر بجدي أسكَّ مَيِّتٍ، فتناوله، فأخذ بأُذنه، ثم قال: «أيُّكم يحبُّ أنَّ هذا له بدرهم؟». فقالوا: ما نحبُّ أنَّه لنا بشيءٍ، وما

كتاب الزهد

ومن باب: هوان الدُّنيا

(قوله: والناس كَنَفَتَيْه) أي: بجنبتيه، ويُروى كتفيه: تثنية كتف، وهو منصوبٌ على الظرف، وهو خبرُ المبتدأ.

و(قوله: بِجَدي أَسَكَّ) أي: صغير الأذنين، ضيِّق صماخهما، وقيل: هو الذي لا يسمع.

نصنع به؟ قال: «أتحبون أنه لكم؟!»، قالوا: والله لو كان حيّاً كان عيباً فيه؛ لأنَّه أسَكُّ، فكيف وهو ميت؟! قال: «فوالله للدُّنيا أهونُ على الله من هذا عليكُم!».

(وقوله: «والله للدنيا أهونُ على الله من هذا عليكم») الدنيا: وأنها فُعْلى وألفها للتأنيث، وهي من الدُّنو بمعنى القرل، وهي صفةٌ لموصوف محذوف، كما قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ﴾ (1) غير أنه قد كثر استعمالها استعمال الأسماء، فاستغني عن موصوفها، كما جاء في هذا الحديث. والمرادُ: الدار الدَّنيا، أو الحياة الدُّنيا التي تقابلها الدَّار الأخرى، أو الحياة الأخرى، ومعنى هوان الدنيا على الله: أنَّ الله تعالى لم يجعلْها مقصودةً لنفسها؛ بل: جعلها طريقاً موصلةً إلى ما هو المقصودُ لنفسه، وأنه لم يجعلها دارَ إقامة، ولا جزاء، ورنما جعلها دارَ رحلةٍ وبلاء، وأنه مَلَّكها في الغالب الكفرةَ والجهَّالَ، وحماها الأنبياءَ، والأولياءَ، والأبدالَ. وقد أوضح النبيُّ ﷺ هذا المعنى فقال: «لو كانت الدُّنيا تعدلُ عند الله جناحَ بعوضة ما سقى الكافرَ منها شربةَ ماء»، وحسبك بها هواناً أن الله قد صغَّرها، وحقَّرها، وذمَّها، وأبغضها، وأبغضَ أهلها، ومُحبِّيها، ولم يرضَ لعاقلٍ فيها إلا بالتزوُّد منها، والتأهُّب للارتحال عنها ويكفيك من ذلك ما رواه أبو عيسى الترمذي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الدَّنيا ملعونة، ملعونٌ ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، أو عالم، أو متعلِّم» رواه من حديث أبي هريرة، وقال: حديث حسن غريب. ولا يُفْهَمُ من هذا الحديث إباحةُ لعن الدنيا وسبِّها مطلقاً؛ لما رويناه من حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تسبوا الدنيا فنعمت مطية المؤمن عليها يبلغ الخير وبها ينجو من الشر، إنه إذا قال العبدُ: لعن الله الدنيا، قالت الدنيا: لعن الله أعصانا لربِّه». خرجه الشريفُ أبو القاسم ريد بن عبد الله بن مسعود الهاشمي. وهذا يقتضي المنع من سبِّ الدنيا، ولَعْنها. ووجهُ الجمع بينهما: أن المباحَ لَعْنُه من الدنيا ما كان منها مُبْعداً عن الله، وشاغلاً عنه، كما قال بعضُ السلف: كلُّ ما شغلك عن الله تعالى من مال وولد فهو عليكَ مشؤوم، وهو الذي نبَّه اللهُ على ذمِّة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ

---

(1) سورة آل عمران الآية 185

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «الدُّنيا سجنُ المؤمن وجنَّة الكافر».

* * *

وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [1]، وأما ما كان من الدنيا يُقرِّبُ إلى الله تعالى، ويُعين عبادة الله تعالى فهو المحمود بكل لسان، والمحبوب لكل إنسان، فمثل هذا لا يسب، بل: يرغّب فيه، ويُحَبّ. وإليه الإشارةُ بالاستثناء حيث قال: «إلا ذكر الله، وما والاه، أو عالم، أو متعلم» وهو المصرَّحُ به في قوله: «فإنها نعمتْ مطيَّةُ المؤمن، عليهايبلغ الخير وبها ينجو من الشر» وبهذا يرتفعُ التعارضُ بين الحديثين، والله أعلم.

و(قوله: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر») إنما كانت الدُّنيا كذلك لأنَّ المومنَ فيها مقيدٌ بقيود التكاليف، فلا يقدر على حركةٍ ولا سكون إلا أن يفسحَ له الشرعُ، فيفكّ قيده، ويُمكِّنه من الفعل أو الترك، مع ما هو فيه من توالي أنواع البلايا والمحن والمكابدات من الهموم، والغموم، والأسقام، والآلام، ومكابدة الأنداد، والأضداد، والعيال، والأولاد. وعلى الجملة: «وأشدُّ الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل. يُبتلى الرجلُ بحسب دينه» كما قاله ﷺ. وأيُّ سجْنٍ أعظمُ من هذا؟ ثم هو في هذا السجن على غاية الخوف والوجل، إذ لا يدري بماذا يُختَم له من عمل. كيف وهو يتوقَّعُ أمراً لا شيءَ أعظمُ منه، ويخاف هلاكاً لا هلاكَ فوقه فلولا أنه يرتجي الخلاصَ من هذا السجن لهلك مكانه، لكنه لطف به، فهوّن عليه ذلك كلَّه بما وعد على صبره، وبما كُشف له من حميد عاقبة أمره. والكافر منفكٌّ عن تلك الحالات بالتكاليف، آمنٌ من تلك المخاويف، مقبلٌ على لذَّاته، منهمكٌ في شهواته، معتزٌ بمساعدة الأيام، يأكلُ ويتمتَّع كما تأكل الأنعام، وعن قريب يستيقظُ من هذه الأحلام، ويحصل في السجن الذي لا يُرام، فنسألُ اللَّهَ السلامةَ من أهوال يوم القيامة.

---

(1) سورة الحديد الآية 20

باب ما للعبد من ماله، وما الذي يبقى عليه في قبره

عن مطرِّف، عن أبيه، قال: أتيتُ النَّبيَّ ﷺ وهو يقرأ: ﴿ **ألهاكم التكاثر..** ﴾ قال: « يقول ابن آدم: مالي مالي! قال: وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أَكَلْتَ فأفْنَيْتَ، أو لَبِسْتَ، فأبليت أو تصدقَّتَ فأمْضَيْتَ ».

وعن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: « يقولُ العبد: مالي مالي! إنَّما له مِنْ ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لَبِسَ فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وما سوى ذلك فهو ذاهبٌ، وتاركُه للنَّاس ».

و(قوله: ﴿ **أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ** ﴾ [1] يعني: شغلكم الإكثارُ من الدنيا ومن الالتفات إليها عما هو الأولى بكم من الاستعداد للآخرة، وهذا الخطابُ للجمهور إذ جنسُ الإنسان على ذلك مفطور، كما قال تعالى: ﴿ **كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ** ﴾ [2] وكما قال: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ** ﴾ [3]

و(قوله: « يقول ابن آدم مالي مالي ») أي: يغترُّ بنسبة المال إليه وكونه في يديه، حتى ربما يعجب به وبفخر به، ولعلَّه ممن تعب هو في جمعه، ويصل غيره إلى نفعه، ثم أخبر بالأوجه التي ينتفعُ بالمال فيها، وافتتحَ الكلام بـ(إنما) التي هي للتحقيق والحصر فقال: « إنما له من ماله ثلاث » وذكر الحديث.

و(قوله: « أو أعطى فاقتني ») هكذا وقع هذا اللفظُ عند جمهورهم، وَوَجْهُه. أعطى الصدقة فاقتنى الثوابَ لنفسه، كما قال في الرواية الأخرى: « تصدقت فأمضيت »، وقد رواه ابن ماهان: « فأقنى » بمعنى: أكسب غيره، كما قال تعالى: ﴿ **أَغْنَى وَأَقْنَى** ﴾ [4].

---

(1) سورة التكاثر الآية 1
(2) سورة القيامة الآية 20 ـ 21
(3) سورة آل عمران الآية 14
(4) سورة النجم الآية 48

وعن أنسِ بن مالك قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَتْبُع الميِّتَ ثلاثةٌ؛ فيرجع اثنان، ويبقى واحدٌ؛ يتبعه أهلهُ، وماله، وعمله؛ فيرجع أهلُه ومالُه، ويبقى عملُه».

* * *

باب ما يحذر من بسْط الدنيا ومن التنافس

عن عمرو بنِ عوف ـ وهو حليف بني لؤى ـ وكان شهد بدراً مع رسول الله ﷺ: أنَّ رسول لله ﷺ بعث أبا عبيدةَ بنَ الجرَّاح إلي البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسولُ الله ﷺ هو صالَحَ أهل البحرين، وأمَّر عليهم العلاءَ بنَ الحضرميِّ، فقدم أبو عبيدةَ بمالٍ من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدةَ، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلما صلَّى رسولُ الله ﷺ انصرف، فتعرَّضوا له، فتبسَّم رسولُ الله ﷺ حين رآهم، ثم قال: «أظنُّكم سمعتم أنَّ أبا عبيدةَ قَدِمَ بشيءٍ من البحرين». فقالوا: أجل يا رسول الله! قال: «فابشروا وأمِّلوا ما يسرُّكم! فوالله! ما الفَقْرَ أخشى عليكم؛ ولكنِّي

و(قوله: فوافوا صلاةَ الفجر مع رسول الله ﷺ) أي: جاؤوا فاجتمعوا عند صلاة الصبح معه ليقسمَ بينهم ما جاء به أبو عبيدة؛ لأنهم أرهقتهم الحاجةُ والفاقةُ التي كانوا عليها، لا الحرص على الدنيا، ولا الرغبة فيها، ولذلك قال لهم رسول الله ﷺ: «أبشروا وأمِّلوا ما يسرُّكم»، وهذا تهوينٌ منه عليهم ما هم فيه من الشدة، وبشارةٌ لهم بتعجيل الفتح عليهم.

و(قوله: «واللَّه ما الفقرَ أخشى عليكم»)، الفقر منصوب على أنه مفعول مقدَّم بـ(أخشى)، ولا يجوزُ رفعه إلا على وجهٍ بعيد، وهو أن يُحذف ضمير المفعول، ونعامله معاملة الملفوظ، كما قال أمرؤ القيس:

أخشى عليكم أن تُبْسَط الدنيا عليكم، كما بُسِطَتْ على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلِكَكُم كما أهلكتهم».

وفي رواية: «وتُلهيَكُم كما ألهتْهُم (بدل) فتهلكَكُم».

وعن عبد الله بنِ عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إذا فتحت عليكم فارس والروم أيُّ قومٍ أنتم؟!»، قال عبد الرحمن ابن عوف:

..... فَثَوْباً نَسِيتُ، وثَوْباً أجُرّ[1]

فكأنه قال: فثوب نسيته، وثوب أجرُّه، وهي قليلةٌ بعيدة. وفيه ما يدلُّ على أن الفقرَ أقربُ للسلامة، والاتساعَ في الدنيا أقربُ للفتنة، فنسأل اللَّهَ الكفافَ والعفاف.

و(قوله: «فتنافسوها كما تنافسوها») أي: تتحاسدون فيها، فتختلفون وتتقاتلون فيهلك بعضُكم بعضاً، كما قد ظهر ووُجد. وقد سمَّى في هذا الحديث التحاسُدَ تنافساً توسُّعاً لقرب ما بينهما، وقد بيَّنا حقيقةَ كلِّ واحد منهما فيما تقدَّم، ومعنى تلهيكم: تشغلكم عن أمور دينكم، وعن الاستعداد لآخرتكم.

و(قوله: «إذا فتحت عليكم فارس والروم، أيُّ قوم أنتم؟») هذا استفهامٌ يشوبه إخبارٌ منه ﷺ عن أمر قبل وقوعه، وقع على نحو ما أخبر عنه، فكان ذلك من أدلة صحة نبوَّته ورسالته ﷺ. وكم له ﷺ منها وكم! ومعنى: «أيُّ قوم أنتم؟» أي: على أيِّ حالٍ تكونون؟ فكأنه قال: أتبقون على ما أنتم عليه؟ أو تتغيَّر بكم الحال؟ فقال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله تعالى أي نقول قولا مثل الذي أونا الله وكأن هذا إشارة إلى قول الله تعالى ﴿**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾[2]. وذلك أنه فهم رسولَ الله ﷺ خافَ عليهم الفتنةَ من بَسْط الدنيا عليهم، فأجابه بذلك، فكأنه قال:

---

(1) هذا عجز بيت، وصدره:

فلمَّا دنوت تَسَدَّيْتفها

(2) سورة آل عمران الآية 173

نقول كما أمرنا الله. قال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك؛ تتنافسون، ثُمَّ تتحاسدون ثُمَّ تتدابرون، ثم تتباعضون، أوْ نحو ذلك، ثم تنطلقون في مساكين المهاجرين فتجعلون بعضهم على رقابِ بعضٍ».

* * *

نستكفي الفتنَ والمحن بالله، ونقول كما أمرنا، وهذا إخبارٌ منهم عمَّا يقتضيه حالُهم في ذلك الوقت. فأخبرهم النبيُّ ﷺ بأنَّهم لا يبقون على تلك الحال، وأنها تتغيَّر بهم. وقال بعضُ الشارحين: لعلَّه يكون كما أمرنا الله، وهذا تقديرٌ غلطٌ للرواة، لا يُحتَاجُ رليه مع صحة المعنى الذي أبديناه، والله تعالى أعلم.

و(قوله: «أوْ غيرَ ذلك») هو بسكون الواو، وهي القاطعةُ، وغيرَ بالنصب على إضمار فعل، تقديره: أو تفعلون غير ذلك، ويجوز رفعه على تقدير: أو يكون غير ذلك.

و(قوله: «تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون») أي: تتسابقون إلي أخذ الدنيا، ثم تتحاسدون بعد الأخذ، ثم تتقاطعون، فيولي كلُّ واحد منكم دبرَه عن الاخر مُعْرِضاً عنه، ثم تثبتُ البغضاءُ في القلوب، وتتراكم حتى يكون عنها الخلافُ، والقتال، والهلاك، كما قد وُجِد.

و(قوله: «ثم تنطلقون في مساكين المهاجرين فتجعلون بعضَهم على رقاب بعض»)، وفي رواية السمرقندي: «فتحملون»، قال بعضُهم: لعل أصولَ هذا الكلام: «م تنطلقون في مساكين المهاجرين». قال القاضي: لا أدري ما الذي حمل هذا على تفسير الرواية مع عدم توجيه الكلام على ما قبله، واستقلاله بالمراد، لا سيما مع قوله بعد هذا: «فتحملون بعضهم على رقاب بعض». والأشبه: أن يكون الكلام على وجهه، وأراد أنَّ مساكين المهاجرين وضعفتهم ستُفتح عليهم إذ ذاك الدنيا، حتى يكونوا أمراء بعضهم على رقاب بعضٍ.

باب لا تنظرْ إلى من فضّل الله عليك في الدنيا وانظرْ إلى من فُضِّلتَ عليه

عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إذا نظر أحدُكم إلى من فُضِّل عليه في المال والخَلْقِ فلينظر إلى مَنْ هو أسفلَ منه ممَّن فُضِّل عليه».

وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى من هو أسْفَلَ منْكم ولا

قال الشيخ رحمه الله: والعجبُ من إنكار القاضي على هذا المتأوِّل، واختيارهُ هذا المعنى الذي لا يقبله مساقُ الحديث، ولا يشهدُ له معناه. وذلك أنَّ معنى الحديث: أنه أخبرهم أنهم تتغيَّر بهم الحال، وأنهم يصدرُ عنهم أو عن بعضهم أحوالٌ غير مرضية، تخالفُ حالهم التي كانوا عليها معه من التنَّافس والتَّباغض، وانطلاقهم في مساكين المهاجرين، فلا بدَّ أن يكون هذا الوصفُ غير مرضيٍّ كالأوصاف التي قبله، وأن تكون تلك الأوصافُ المتقدِّمة تُوجبُه، وحينئذٍ يلتئم الكلامُ أوله وآخره، ولا يصحُّ ذلك إلا بذلك التقدير الذي أنكر القاضي. فيكون معنى الحديث أنه إذا وقع التنافسُ، والتحاسد، والتباغض حملهم ذلك على أن يأخذَ القويُّ ما أفاءه اللَّهُ تعالى على المسكين؛ الذي لا يقدر على مدافعته، فيمنعه عنه ظلماً وهذا بمقتضى التنافس، والتَّحاسد، والتباغض، ويعضده رواية السمرقندي: «فيحملون بعضهم على رقاب بعضهم». أي بالقهر والغلبة، وأما ما اختاره القاضي فغيرُ ملائمٍ للحديث، فتدبَّره تجده كما أخبرتك، والله تعالى أعلم.

و(قوله: «انظروا إلى مَن هو أسفلَ منكم، ولا تنظروا إلى مَن هو فوقكم») أي: اعتبروا بمن فُضِّلتم عليه في المال، والخَلْق، والعافية، فيظهر عليكم ما أنعم اللَّهُ به عليكم فتشكرونه على ذلك، فتقومون بحقِّ النعمة. وذلك بخلاف ما إذا نظر إلى ما فضل عليه غَيْره من ذلك؛ فإنه يضمحل عنده ما أنعم اللَّهُ عليه به من النِّعم، ويحتقرها، فلا يحسبها نعَماً، فينسى حقَّ الله فيها، وربما حَمَله ذلك النظرُ إلى أن تمتدَّ عينُه إلى الدنيا فينافسَ أهلَها، ويتقطَّع لحسرة فَوْتِها، ويحسد أهلها، وذلك هو الهلاكُ في الدنيا والآخرة.

تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر ألاَّ تَزْدَرُوا نعمة الله عليكم».

* * *

باب في الابتلاء بالدنيا وكيف يُعمل فيها

عن أبي هريرة، أنَّه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ ثلاثةً في بني إسرائيل أبرصَ، وأقرعَ، وأعمى، فأراد الله أن يبتليَهُم، فبعث إليهم مَلَكاً، فأتى الأبرص فقال: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك؟ قال: لونٌ حسنٌ، وجلدٌ حسنٌ، ويذْهَبُ عنِّي الذي قد قَذِرَني النَّاسُ قال: فمسحه، فذهب عنه قَذَرُه، وأعطيَ لوناً حسناً، وجلداً حسناً، قال: فأيُّ المال أحبُّ إليك؟ قال: الإبل - أو قال: البقر (شك إسحق) - إلا أنَّ الأبرص أو الأقرع قال أحدهما: الإبل، وقال الآخر: البقر - قال: فأعطي ناقَةً عُشَرَاءَ، فقال: بارك اللهُ لك فيها قال: فأتى الأقرعَ فقال: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك؟ قال: شعرٌ حسنٌ، ويذهب عنِّي هذا الذي قَذِرني النَّاسُ قال: فمسحه، فذهب عنه. قال: وأعطى شعراً حسناً، قال: فأيُّ المال أحبُّ إليك؟ قال: البقر. فأعطي بقرةً حاملاً، فقال:

و(قوله: «فهو أجدرُ ألاَّ تزدروا نعمةَ الله عليكم») هو عائدٌ على مصدر: انظروا، وأجدر بمعنى أحقّ وأَوْجب، والازدراء: الاحتقار.

و(قوله: «ناقة عشراء») هي التي مضى لها من حَمْلها عشرةُ أشهر، وجمعها: عشار، وكانت أنفسَ أموال العرب لقرب ولادتها، ورجاء لبنها. وقال ابنُ جنِّي: هي التي أتى عليها بعد وضعها عشرةُ أشهر. في الصحاح: العِشار - بالكسر - جمع عشراء: وهي الناقةُ التي أتى عليها من يوم أُرسل عليها الفحل عشرة أشهر وزال عنها اسم المخاض، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع، وبعدما تضع أيضاً. يقال: ناقتان عشراوان، ونوق عِشار، وعشروات، يبدلون من همزة التأنيث واواً، وقد عشرت الناقةُ تعشيراً إذا صارت عشراء.

بارك الله لك فيها قال: فأتى الأعمى، فقال: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك؟ قال: أن يردَّ الله إليَّ بصري، فأبصرَ به النَّاسَ قال: فمسحه، فردَّ اللهُ إليه بصرَه قال: فأيُّ المال أحبُّ إليك؟ قال: الغنم. فأعطيَ شاةً والداً، فأُنْتِجَ هذان وَوَلَّد هذا. قال. فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم.

وقال: ثم إنَّه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجلٌ مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله، ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللونَ الحسن؛ والجلد الحسن والمال؛ بعيراً أتبلغ عليه في سفري فقال: الحقوقُ كثيرة فقال له: كأنِّي أعرفك؛ ألم تكن أبرص يَقْذَرُك الناس، فقيراً فأعطاك الله فقال: إنَّما ورثتُ هذا المال كابراً. عن كابر فقال: إنْ كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كُنْتَ.

قال: وأتى الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا، وردَّ عليه مثل ما ردَّ على هذا، فقال: إنْ كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.

و(قوله: «فأُنْتِج هذان، وولَّد هذا») أي: تولى نتاج ناقته وولادة شاته، ووقع هنا أُنتج رباعياً، والمعروف الثلاثي، وحكى الأخفش: نَتَجها، وأنتجها بمعنَى، وقد أشبعنا القولَ فيه فيما تقدَّم.

و(قوله: «انقطعت بيَ الحبالُ في سفري») الروايةُ المشهورة بالحاء المهملة والموحدة، والباء المعجمة ـ بواحدة تحتها ـ وبالألف، وهي: جمع حبل، وهو المستطيلُ من الرمل، وقيل: هي الأسبابُ التي يتوصَّل بها إلى البلاغ، وهذا أوقعُ التفسيرَين. ورواه ابنُ الحذَّاء: الحيل: جمع حيلة، ورواه بعضُهم كذلك غير أنه زاد الفاء، ووقع لبعض رواةِ البخاري: الجبال بالجيم، وفيه بُعْدٌ.

قال : وأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجلٌ مسكينٌ، وابنُ سبيلٍ؛ انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ ليَ اليومَ إلا بالله، ثمَّ بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاةً أتبلغ بها في سفري فقال: قد كنْتُ أعمى فردَّ الله إليَّ بصري، فخذْ ما شئتَ، ودعْ ما شئت، فوالله لا أَجْهَدُك اليوم شيئاً أخذته لله فقال: أمسكْ مالَكَ، فإنَّما ابتليتم، فقد رُضِيَ عنك وسُخِطَ على صاحِبَيْك!».

* * *

و(قوله: «والله لا أَجْهدكَ اليوم شيئاً أخذته لله») كذا لأكثر الرواة، ومعناه: لا أبلغ منك جهداً، ومشقة في منعك شيئاً أخذته للّه. قال صاحب «الأفعال»: جهدته وأجهدته: بلغت مشقته، وقيل: معنى لا أَجْهدك: لا أقلِّل لك فيما تأخذ، والجهدُ: ما يعيش به المقلُّ، ومنه: ﴿**وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ**﴾ [1] وعند ابن ماهان: لا أحمدك، بالحاء المهملة والميم، من الحمد، وكذا رواه البخاريُّ ومعناه: لا أحمدك في أخذ شيءٍ، أو إبقائه لطيب نفسي بما تأخذ، كما قال المرقِّش:

ليس على طول الحياة ندم [2] .....

أي: ليس على فوت الحياة ندم

و(قوله: «إنما ورثتُ هذا كابراً عن كابر») أي: كبيراً عن كبير، يعني: أنه ورث ذلك المالَ عن أجداده الكبراء، فحمله بخلُه على نسيان منَّة الله تعالى، وعلى جَحْد نعمه، وعلى الكذب، ثم أورثه ذلك سخطَ الله الدائم، وكلُّ ذلك بشؤم البخل. واعتبر بحال الأعمى لَمَّا اعترف بنعمة الله تعالى عليه، وشكره عليها، وسمحت نفسُه بها ثبتها اللهُ عليه، وشكر فِعْله، ورضى عنه، فحصل على الرَّتب الفاخرة، وجُمعتْ له نِعم الدنيا والآخرة.

---

(1) سورة البقرة الآية 79

(2) هذا صدر بيت، وعجزه:

ومن وراء المرء ما يَعْلَمْ

والمعنى: إن أمام الإنسان عاقبة عمله، أو أمامه الشيب والهرم والأمراض

باب الخمول في الدنيا والتقلل منها

عن عامرِ بن سعدٍ قال: كان سعدُ بنُ أبي وقاصٍ في إبله، فجاءه ابنُه عمر، فلما رآه سعدٌ قال: أعوذ بالله من شرِّ هذا الراكب! فنزل، فقال له: أنزلتَ في إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟ فضرب سعدٌ في صدره، فقال: اسكت سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله يحبُّ العبد التَّقيَّ، الغنيَّ، الخفيَّ».

وعن سعدِ بن أبي وقاصٍ يقول: والله إنِّي لأولُ رجلٍ من العرب رمى بسهمٍ في سبيل الله، ولقد كنَّا نَغْزُو مع رسول الله ﷺ ما لنا طعامٌ نأكلُه إلا

و(قوله ﷺ: «إن الله يحبُّ العبدَ التقي الغني الخفي») جمهورُ الرواة قيَّدوه الخفي - بالخاء المعجمة - من الخفاء. والتقيّ: المتقي لله تعالى، وقد بيَّنا التقوى فيما تقدم. والغنى: يعني به: من استغنى بالله، ورضي بما قَسَمَ اللَّهُ له، وقيل: يعني به غنى النفس. والخفي: يعني به الخامل الذي لا يريدُ العلوَّ فيها ولا الظهورَ في مناصبها، وهذا نحو ما قال في حديث آخر في صفة وليِّ الله: «وكان غامضاً في الناس» أي: لا يُعرف موضعه ولا يُؤْبَه له، وقد رواه الدولابي [1]. الحفي بالحاء المهملة، فقيل: معناه العالم، من قوله: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [2] وقيل: المتحفِّي بأهله، الوَصُول لهم بماله، السَّاعي في حوائجهم.

و(قوله: ما لنا طعام نأكلُه إلاَّ وَرَقُ الحُبْلَة، هذا السمر) كذا وقع عند عامة الرواة. وعند الطبري، والتميمي: وهذا السمر بواو، ووقع في البخاري: إلا الحبلة، وورق السمر، وكذلك ذكره أبو عبيد.

---

(1) هو الإمام الحافظ أبو بشر، محمد بن أحمد بن حماد الأنصاري الدولابي. والحديثُ في كتابه: الكنى والأسماء، توفي سنة (320 هـ)

(2) سورة الاعراف الآية 187

وَرَقُ الحُبْلَة؛ هذا السَّمُرُ؛ حتى إنَّ أحدَنا ليضعُ كما تضع الشاهُ، ثم أصبحتْ بنو أَسَدٍ تُعَزِّرُني على الدِّين، لقد خِبْتُ إِذاً وضلَّ عملي!.

* * *

الحُبلة بضم الحاء وسكون الباء: ثمر العضاه. وقال ابنُ الأعرابي: ثمر السمر شبه اللُّوبياء، ورواية البخاري: أحسنها؛ لأنه بيَّن فيها أنهم يأكلون ثمر العضاه، وورق الشجر السَّمُر.

و(قوله: ثم أصبحت بنو أسد تعزرني على الدين) هو بالزاي أولى وبالراء ثانية من التعزير، واختلف في معناه هنا، فقال الهروي: معناه: توقِّفني عليه، والتعزير: التوقيف على الأحكام، والفرائض. وقال الطبريُّ: أي: تقومني وتعلمني، ومنه تعزير السلطان؛ أي: تقويمه بالتأديب، وقال الحربي: التعزير بمعنى اللوم والعَتْب.

قال الشيخ رحمه الله: هذه أقوالُ الشارحين لهذه الكلمة، وفيها كلِّها بُعْدٌ عن معنى الحديث، والذي يظهر لي: أن الأليقَ بمعناه: أن التعزيرَ معناه الإعظام والإكبار، كما قال تعالي: ﴿ **وَتُعَزِّرُوهُ** ﴾[1]، أي: تعظموه وتبرّوه، فيكون معناه على هذا: أنه وصَفَ ما كانت حالتهم عليه في أول أمرهم من شدة الحال، وصُعُوبة العيش، والجهد مع النبيِّ ﷺ، ثم إنهم اتسعت عليهم الدنيا، وفتحت عليهم الفتوحات، وولُّوا الولايات، فعظَّمهم الناسُ لشهرة فَضْلهم، ودينهم، وكأنه كره تعظيم الناس له، وخصَّ بني أسد بالذكر لأنهم أفرطوا في تعظيمه، والله تعالى أعلم. وهذا الذي ذكرناه هو الذي صرَّح به عتبةُ بن غزوان في الحديث الآتي بعد هذا، حيث قال: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ سابعَ سبعة، وما لنا طعامٌ إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقُنا، فالتقطت بُردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك، فاتَّزرتُ بنصفها، واتَّزر سعدٌ بنصفها، فما أصبح منا اليوم أحدٌ إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار، وإنِّي أعوذُ بالله أن أكونَ في نفسي عظيماً، وعند الله صغيراً. فيحتمل أن يكون هذا هو

---

(1) سورة الفتح الآية 9

باب التزهيد في الدنيا والاجتزاء في الملبس والمطعم باليسير الخشن

عن خالدِ بن عُمير العدويِّ؛ قال: خطبنا عتبة بن غَزوان ـ وكان أميراً على البصرة ـ فحمِدَ الله وأثني عليه ثم قال: أمَّا بعدُ! فإنَّ الدنيا قد

الذي عنى به سعد بن أبي وقاص، والله تعالى أعلم. وأما ما فسَّرتْ به المشايخُ ذلك الكلامَ فيقتضي تفسيرُهم: أن بني أسد كانوا عتبوا عليه أموراً من الدين، وعابوها عليه، فرد عليهم قولهم. ويعضد هذا ما ذكره البخاري من حديث جابر بن سمرة، قال: شكا أهلُ الكوفة سعداً حتي ذكروا: أنه لا يحسنُ أن يصلي، فاستحضره عمرُ ـ رضي الله عنه ـ فقال: إنَّ هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلي، فقال: أما أنا فإني كنت أصلِّي بهم صلاةَ رسول الله ﷺ، وفيه: ولم يدعْ مسجداً إلا سأل عنه، ويثنون معروفاً، حتى دخل مسجداً لبني عبس، فقام رجلٌ منهم، يقال له: أسامة بن قتادة، فقال: أمَا إذ نشدتنا، فإن سعداً كان لا يسيرُ بالسرية، ولا يعدلُ في القضية... وذكر الحديث.

ومن باب: الزهد في الدنيا

(قوله: خطبنا عتبة بن غزوان ـ وكان أميراً على البصرة ـ) عتبة هذا ـ رضي الله عنه ـ مازنيٌّ، وحليف لبني نوفل، قديم الإسلام، أسلم سابع سبعة كما قال. وهاجر وشهد المشاهد مع رسول الله ﷺ بدراً والمشاهد كلها. أمَّره عمر ـ رضي الله عنه ـ على جيش، فتوجَّه إلى العراق، ففتح الأُبلَّة والبصرة ووليها، وبني مسجدَها الأعظم بالقصب، ثم أنه حجَّ فاستعْفى عمرَ عن ولاية البصرة، فلم يعفه فقال: اللهم لا تردَّني إليها، فسقط عن راحلته فمات سنة سبع عشرة، وهو منصرفٌ من مكة إلى البصرة، بموضع يقال له: معذر ببني سليم، قاله ابنُ سعد. ويقال: مات بالربذة، قاله المدائني.

آذَنَتْ بصَرْم، ووَلَّت حَذَّاءَ، ولم يبق منها إلا صُبابةٌ كصبابة الإناء يَتَصابُّها صَاحِبُها، وإنَّكم مُنْتَقلون منّها إلى دارٍ لا زوالَ لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتِكُم، فإنَّه قد ذُكِر لنا: أنَّ الحجر يُلقي من شفير جهنم، فيهوي فيها سبعين عاماً لا يُدْرِكُ لها قعراً، ووالله لتُملأنَّ! أفعجبتم؟ ولقد ذُكر لنا: أنَّ ما بين المصر اعين من مصاريع الجنَّة مسيرةُ أربعين سنةً، وليأتيَنَّ عليها يومٌ وهو كَظِيظٌ من الزِّحام، ولقد رَأَيْتُني سابعَ سبعةٍ مع رسول الله ﷺ ما لنا

و(قوله: إن الدنيا قد آذنت بِصَرْمٍ) أي: أشعرتْ وأعلمتْ بزوالٍ وانقطاع.

و(قوله: وولَّت حذَّاءَ) أي: سريعة خفيفة، ومنه قيل للقطاة: حذاء، أي: منقطعة الذنب قصيرته، ويقال: حمار أحذٌّ؛ إذا كان قصير الذنب، حكاه أبو عبيد، وهذا مثلٌ كأنه قال: إن الدنيا قد انقطعتْ مسرعة.

و(قوله: ولم يبق منها إلا صُبابة كصبابة الإناء يتصابُّها صاحبها) الصُّبابة: بضم الصاد: البقية اليسيرة، والصَّبابة ـ بالفتح ـ: رقة الشوق، ولطيف المحبة، ويتصابُّها: يروم صبَّها على قلَّة الماء وضَعْفه.

و(قوله: فانتقلوا بخير ما بحضرتكم) أي: ارتحلوا إلى الآخرة بخير ما يحضركم من أعمال البرِّ. جعل الخيرَ المتمكّن منه كالحاضر.

و(قوله: فإنه قد ذُكر لنا أن الحجر لَيُلْقى من شفير جهنم... الحديث إلى آخره) يعني: أنه ذُكر له عن رسول الله ﷺ ذلك؛ لأنَّ مثلَ هذا لا يُعْرَفُ إلا من جهة النبيِّ ﷺ فكأنه لم يسمعْه هو من النبيِّ ﷺ، سمعه من غيره، فسكت عنه إمانسياناً، وإما لأمرٍ يُسوِّغ له ذلك. ويحتملُ أن يكون سَمعه هو من النبيِّ ﷺ وسكت عن رفعه للعلم بذلك. وشفير جهنم: حَرْفُها الأعلى. وحرفُ كلِّ شيءٍ أعلاه وشفيره. ومنه: شفير العين. ومصراع الباب: ما بين عضادتيه، وجمعه مصاريع، وهو ما يسدُّه الغلق.

و(قوله: وهو كظيظٌ من الزِّحام) أي: ممتلىءٌ منه. يقال: كظَّه الشرابُ كظيظاً. وقَرِحَتْ أشداقُنا: أي: تقرَّحت؛ أي: انجرحت من خشونة الورق. والبردة:

طعامٌ إلا وَرَقُ الشَّجر؛ حتى قَرِحَتْ أشْدَاقُنَا، فالتقطتُ بُرْدَةً فَشَقَقْتُها بيني وبين سعد بن مالك، فاتزرْتُ بنصفها، واتَّزر سعدٌ بنصفها، فما أصبح اليومَ منَّا أحدٌ إلا أصبح أميراً على مِصْرٍ من الأمصار، وإنِّي أعوذ بالله أنْ أكون في نفسي عظيماً، وعند الله صغيراً، وإنَّها لم تكن نبوة قطُّ إلا تناسَخَتْ حتى يكون آخرُ عاقبتها مُلْكاً، فَستَخْبُرون، وتُجَرِّبُون الأمراء بَعْدَنا.

* * *

الشَّملة، والعرب تُسمِّي الكساءَ الذي يُلتحف بردة، والبُرد - بغير تاء -: نوعٌ من نوع ثياب اليمن الموشية.

و(قوله: وإنها لم تكن نبوة قطُّ إلا تناسخت، حتى يكون اخرُها ملكاً) يعني: أن زمانَ النبوَّة يكون الناسُ فيه يعملون بالشرع، ويقومون بالحق، ويزهدون في الدنيا، ويرغبون في الآخرة، ثم إنه بعد انقراضهم، وانقراض خلفائهم يتغيَّر الحالُ، وينعكسُ الأمر، ثم لا يزال الأمرُ في تناقص وإدبارٍ إلى ألا يبقى على الأرض مَن يقول: الله! الله! فيرتفع ما كان الصدرُ الأول عليه، وهذا هو المعبَّرُ عنه هنا: بالتَّناسخ؛ فإن النسخ: هو الرفعُ والإزالة. وهذا الحديثُ نحو قوله ﷺ: «ما من نبيٍّ بعثه اللَّهُ تعالى في أمَّةٍ قبلي إلا كان له من أمَّته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلفُ من بعدهم خلوفٌ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون... الحديث».

و(قوله: حتى يكون آخر عاقبتها ملكاً) يعني أنهم يعدلون عن سنن النبوة وخلفائهم إلى الإقبال على الدنيا وابتاع الهوى. وهذه أحوالُ أكثر الملوك، فأما من سَلَك سبيل الصدر الأول الذي هو زمانُ النبوة والخلافة من العدل، واتباع الحق، والإعراض عن الدنيا، فهو من خلفاء الأنبياء، وإن تأخَّر زمانه كعمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه إذ لم يكن بعد الخلفاء مَن سَلَك سبيلَهم، واقتدى بهم في غالب أحوالهم غيره - رضي الله عنه، لا جرم هو معدودٌ منهم، وداخلٌ في زمرتهم إن شاء الله تعالى.

باب ما الدُّنيا في الآخرة إلا كما يُجعل الإصبعُ في اليمِّ
وما جاء: أنَّ المؤمن فيه كخامةِ الزَّرع

وعن المستَوْرِد ـ أخي بني فهر ـ قال: قال رسول الله ﷺ: و«الله ما الدُّنيا في الآخرة إلا مثْلُ ما يَجْعَلُ أحدُكم إصْبَعَه هذه ـ وأشار يحيى بن يحيى بالسَّبابة ـ في اليمِّ فلينظرْ بم ترجع!».

وعن كعب بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المؤمنِ كَمَثَلِ الخامة من الزَّرع تُفيئُها الرِّيح، تَصْرعُها مرةً، وتَعْدِلُها أخرى حتى تَهيج ـ في

و(قوله: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدُكم إصبعه في اليم فلينظرْ بماذا ترجع») . اليمّ: البحر. وهذا مثلٌ لحقارة الدُّنيا وقلَّتها، وهو نحو قوله تعالى ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [1] أي: كلُّ شيء يُتَمتَّعُ به في الدنيا من أولها إلى آخرها قليل، إذا لا بقاءَ له ولا صفوَ فيه، وهذا بالنسبة إلى نفسها، وأما بالنسبة إلى الآخرة، فلا خَطَر، ولا قدر للدنيا، وهذا هو المقصودُ بتمثيل هذا الحديث حيث قال: «فلينظر بماذا يرجع». ووجه هذا التمثيل أن القدرَ الذي يتعلَّق بالإصبع من ماء البحر لا قَدْرَ له ولا خطر، وكذلك الدُّنيا بالنسبة إلى الآخرة.

و(قوله: «مثل المؤمن كخامة الزرع») الخامة هي: الغضَّة الرطبة من النبات. وأنشدوا:

إنَّما نَحْنُ مِثْلُ خَامَةِ زَرْعٍ فَمَتَى يَأْنِ يَأتِ مُحْتَصِدُهُ

وتُفيِّئُها الرياح: أي: تردُّها من جانب إلى جانب، وقد بيَّن ذلك بقوله: تصرعها مرَّة وتعدلها أخرى، وصوابه: نفيئها؛ بضم التاء وكسر الفاء، وتخفيف الياء والهمز؛ فإنه يقال: أفأت الشيء: رجعته. أوفاء هو في نفسه: رجع، ومن فتح الفاء

---

(1) سورة النساء الآية 77

رواية: حتى يأتيه أجله ـ. وَمَثَلُ الكافر كَمَثَلِ الأرزةِ المُجْذِبَةِ على أصلها، لا يُصيبُها شيءٌ حتى يكونَ انجعافُها مرةً واحدةً».

وفي روايةٍ: (المنافق) بدل (الكافر).

ونحوه؛ عن أبي هريرة. وهذا أتمُّ غير أنَّه قال: «ولا يزالُ المؤمن يُصيبه البلاءُ».

* * *

وشدد الياء فقد أخطأ لأنه أنما يقال: فيات الشجرة، يعني إذا ظهر فيئها لا غير. والأَرْزة: شجرةُ الصنوبر، وسُمِّيت بذلك لثبوتها، يقال: شجرة أرزة؛ أي: ثابتةٌ في الأرض، وقد أرزت تأرز، ويقال للناقة القوية: أرزة. والمُجْذِية على أصلها: القائمة الراسخة، وهذا مثلٌ للغالب من المؤمنين والغالب من الكافرين، وحكمةُ الله في ابتلاء المؤمنين في الدنيا أن يهديَهم فيها، ويُخلِّصهم من تبعاتها، وأن تُوَفَّر أجورُهم في الآخرة، وعكس ذلك في الكفار والمنافقين.

وفائدةُ هذا الحديث احتسابُ المصائب، والصبر عليها، وانتظار الثواب عليها، والخوف من عدم المصائب وبسط الدُّنيا.

* * *

باب شدَّة عيش النَّبيِّ ﷺ
وقوله: «اللهمَّ اجعل رزق آلِ محمدٍ كفافاً»

عن عائشة، قالتْ: ما شَبعَ آلُ محمَّدٍ ﷺ مفنْذُ قَدِم المدينة مِنْ طَعامِ بُرٍّ ثلاثَ ليالٍ تباعاً حتى قُبِض.

وفي روايةٍ: ما شبع آلُ محمدٍ ﷺ مِنْ خُبْزِ الشَّعير يومين متتابعين حتى قُبِض.

وفي روايةٍ: من خبز بُرٍّ إلاَّ وأحدُهما تمرٌ.

وعنها؛ قالت: لقد مات رسول الله ﷺ وما شبع مِنْ خبزٍ وزيتٍ في يومٍ واحدٍ مرتين.

وفي روايةٍ: توفِّي رسولُ الله ﷺ حين شبع النَّاس من الأسودين: التَّمر والماء.

وفي أخرى: (وقد شبعنا) بدل (حين شبع).

ومن باب: شدَّة عيش النبيِّ ﷺ

الرَّف: خشبة تُرفع عن الأرض يُلقى عليها ما يُرفع، قاله الحربي. وقال غيره: هي الغرفة. والشطر: النصف، وهو هنا نصف وَسْق شعير. والدَّقل: أردأ التمر، وقد أدقل النخل: إذا ردىء. وقيل: هو جنس من النخل له تمر، وهو حبٌّ كبير له نواة مُدوَّرة مقدار الجوزة يُشبه نوى التمر، فإذا يبسَ صار عليه مثل الليفة. وأحاديثُ هذا

وعنها؛ قالت: توفي رسول الله ﷺ وما في رَفِّي من شيءٍ يأكُلُه ذو كبدٍ إلا شطرُ شعيرٍ في رفٍّ لي، فأكلتُ منه حتى طالَ عليَّ، فكِلْته ففَنِيَ.

وعن عروة، عن عائشة، أنَّها كانت تقول: والله يا بن أختي إنْ كنَّا لَنَنْظُرُ إلى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال، ثلاثةَ أهلة في شهرين، وما أوقدتْ في أبيات رسول الله ﷺ نارٌ قال: قلت: يا خالة! فما كان يُعيِّشُكُم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء؛ إلا أنَّه قد كان لرسول الله ﷺ جيرانٌ من الأنصار، وكانت لهم منائحُ، فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيَسْقِينَاه.

وعن أبي هريرة، قال: والذي نفس أبي هريرة بيده ما أشبع رسولُ الله ﷺ أهلَه ثلاثة أيام تباعاً أو ثلاث ليالٍ، من خبزِ حِنْطَةٍ حتى فارق الدُّنيا، وفي روايةٍ: ما شبع. وقال: ثلاثة أيام (من غير شك).

وعن النعمانِ بن بشيرٍ، قال: ألستم في طعام وشرابٍ ما شئتم! لقد رأيتُ نبيَّكم ﷺ وما يجد من الدَّقَل ما يملأ به بَطْنَهُ.

وعنه؛ قال: ذكر عُمَرُ ما أصاب النَّاس من الدُّنيا فقال: لقد رأيت رسول الله ﷺ يَظَلُّ اليوم يلتوي، وما يجد دَقَلاً يملأ به بطْنَه.

الباب كلُّها، وإن اختلفت ألفاظها تدل على: أن النبيَّ ﷺ لم يكن يُديمُ الشِّبَع، ولا الترفُّه في العيش، لا هو ولا من حوته بيوتُه، ولا آله. بل: كانوا يأكلون ما خَشُنَ من المأكل العَلَق، ويقتصرون منه على ما يسدُّ الرَّمَق، مُعرضين عن متاع الدنيا، مؤثرين ما يبقى على ما يفنى، ثم لم يزل كذلك حالُهم مع إقبال الدنيا عليهم، واجتماعها بحذافيرها لديهم إلى أن وصلوا إلى ما طلبوا، وظفروا بما فيه رغبوا.

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ اجعل رزق آلِ محمدٍ قوتاً».

وفي روايةٍ: «كِفافاً».

* * *

و(قوله ﷺ: «اللهم اجعلْ رزقَ آل محمَّد قوتاً») أي: كفافاً، كما جاء في الرواية الأخرى، ويعني به: ما يقوتُ الأبدان ويكفُّ عن الحاجة والفاقة. وهذا الحديث حجة لمن قال: إنَّ الكفاف أفضلُ من الغنى والفقر، وقد تقدَّمت هذه المسألة في الزكاة. ووجه التمسُّك بهذا الحديث: أنَّ النبيَّ ﷺ إنما يدعو لنفسه بأفضل الأحوال، وأيضاً: فإنَّ الكفافَ حالة متوسطة بين الغنى والفقر، وقد قال ﷺ: «خيرُ الأمور أوساطها». وأيضاً: فإن هذه الحال سليمة من آفات الغنى، وآفات الفقر المُدقع، فكانت أفضل منها. ثم إن حالة صاحب الكفاف حالة الفقير إذ لا يترفَّه في طَيِّبات الدنيا، ولا في زهرتها، فكانت حاله إلى الفقر أقرب، فقد حصلَ له ما حصلَ للفقير من الثواب على الصبر، وكُفي مرارتَه وآفاته. لا يُقال: فقد كانت حالة رسول الله ﷺ الفقر الشديد المدقع، كما دلَّت عليه أحاديث هذا الباب وغيرُها، ألا ترى أنه يطوي الأيّام، ولا يشبعُ يومين متوالين، ويشدُّ على بطنه الحجرَ من الجوع والحجرين، ولم يكن له سوى ثوب واحد، فإذا غسلَه انتظره إلى أن يجفَّ، وربما خرجَ وفيه بقع الماء، ومماتَ ودرعُه مرهونةٌ في شعير لأهله، ولم يخلِّفْ ديناراً ولا درهماً، ولا شاةً، ولا بعيراً، ولا حالة في الفقر أشدُّ من هذه، وعلى هذا فلم يكن حالُه الكفاف، بل: الفقر. فلم يجبْه الله تعالى في الكفاف لعلمه: بأن الفقر أفضل له؛ لأنا نقول: إن النبيَّ ﷺ قد جُمعَ له حال الفقر والغنى والكفاف، فكانت أوَّل أحْواله الفقر مبالغة في مجاهدة النفس، وخطامها عن مألوفات عاداتها، فلما حصلت له مَلَكة ملكها، وتخلَّص له خلاصة سبكها، خيَّره الله تعالى في أن يجعلَ له جبالَ تهامة ذهباً تسيرُ معه حيث سار، فلم يلتفت إليها، وجاءته فتوحات الدنيا فلم يعرِّج عليها، بل صرفها وانصرفَ عنها، حتى قال: «ما لِيَ مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخُمُس مردود

باب سبق فقراء المهاجرين إلى الجنة، ومن الفقير السابق

عن أبي عبد الرَّحمن الحُبُليِّ؛ قال: سمعتُ عبدَ الله بنَ عمرو بنِ العاص ـ وسأله رجل ـ فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ ـ فقال له عبدُ الله: ألكَ امرأةٌ تأوي إليها؟ قال: نعم! قال: ألك مسكنٌ تسكنُه؟ قال: نعم! قال: فأنت من الأغنياء! قال: فإنَّ لي خادماً قال: فأنت من الملوك.

فيكم». وهذه حالة الغني الشاكر. ثم اقتصرَ من ذلك كلِّه على قدر ما يردّ ضروراته، وضرورات عياله، ويردُّ حاجتَهم، فاقتنى أرضَه بخيبَر، وكان يأخذُ منها قوتَ عياله، ويدَّخره لهم سنة، فاندفعَ عنه الفقر المدقعُ، وحصلَ الكفافُ الذي دعا به، ثم إنه لما احتُضِرَ، وقف تلك الأرض على أهله ليدومَ لهم ذلك الكفاف الذي ارتضاه لنفسه، ولتظهرَ إجابة دعوته حتى في أهله من بعده. وعلى ذلك المنهج نهجَ الخلفاء الراشدون على ما تدلُّ عليه سيرهم وأخبارهم. وعلى هذا فأهلُ الكفاف هم صَدْر كتيبة الفقراء الداخلينَ الجنَّة قبل الأغنياء بخمسمئة عام، لأنهم وسطهم، والوسطُ: العدل. وليسوا من الأغنياء كما قرَّرناه فاقتضى ذلك ما ذكرناه، والله تعالى أعلم.

و(قول الرجل لعبد الله بن عمرو: ألسنا من الفقراء؟) سؤال تقرير، وكأنه سأل شيئاً من الفيء الذي قال اللَّهُ تعالى فيه: ﴿**لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً**﴾ [1] وكأنَّ ذلك الرجلَ قال: ألسنا من الفقراء الذين يستحقُّون من الفيء سهماً بنصِّ القرآن؟ وكأنه أنجز له مع ذلك الالتفات إلى الفقراء المهاجرين، وتبجح به، فأجابه عبد الله بما يكسر ذلك منه، ويزيلُ آفة الالتفات إلى الأعمال بما يقتضي: أن الأحق باسم الفقر المهاجرين مَن كان متجرِّداً عن الأهل والمسكن، كما كان حالُ أهل الصُّفَّة في أول الأمر. وصار معني هذا الحديث إلى نحو قوله ﷺ: «ليس الشديدُ بالصُّرَعة» و«ليس المسكين بالطَّواف». فكأن عبد الله قال

---

(1) سورة الحشر 8

قال أبو عبد الرحمن: وجاء ثلاثة نفرٍ إلي عبد الله بن عمرو بن العاص وأنا عنده فقالوا: يا أبا محمد! إنَّا والله ما نقدر على شيء! لا نفقةٍ، ولا

له: ليس الفقير المهاجري الذي تكون له زوجة ومسكن، وإنما الفقيرُ المتجرِّد عن ذلك، ولم يردْ أن مَن كان فقيراً مهاجرياً، له زوجة ومسكن أنه لا يستحقُّ من الفيء شيئاً؛ لأن صاحبَ العيال الفقير أشدُّ فاقةً وبلاءً؛ ولأنه خلافُ ما وقع لهم، فإن النبيَّ ﷺ كان يُعْطيهم بحسب فاقتهم وحاجتهم، ويفضِّل في العطاء مَن له عيالٌ على مَن ليس كذلك، وكذلك فعل الخليفتان بَعْدَه، على ما هو المعلوم من حالهما. وإن حمل قول عبد الله على ظاهره لزمَ عليه: أنَّ مَن كان له زوجةٌ ومسكنٌ لا غير ذلك لم يُعدَّ من الفقراء المهاجرين الذين وصفهم الله تعالى، والذين يسبقون إلى الجنة، فيلزم ألا يكون أبو بكر، ولا عمر، ولا عثمان، ولا عليٍّ من الفقراء من السَّابقين إلى الجنة، وذلك باطلٌ قطعاً.

و(قوله: أنت من الملوك) لما أخبره أنَّ له خادماً على جهة الإغياء والمبالغة؛ لا أنه ألحقه بالملوك حقيقةً، ولا بالأغنياء، ولا سَلَبه ذلك اسم الفقراء؛ إذ لم يكن له غير ما ذكر، والله تعالى أعلم.

و(قوله: جاء ثلاثة نفر إلى عبد الله بن عمرو) هذه قضيةٌ أخرى غير القضية المتقدمة، وإنْ اتَّفق راوياهما، فإنهما من رواية أبي عبد الرحمن الحُبُلي عن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ لأن هؤلاء ثلاثةٌ وذلك واحدٌ، ولأن مقصودَه من هذا الحديث غيرُ مقصوده من الأول، وذلك أنَّ هؤلاء الثلاثة شكوا إليه شدَّةَ فاقتهم، وأنهم لا شيء لهم، فخيَّرهم بين الصَّبر على ما هُمْ فيه حتى يلقوا الله، فيحصلون على ما وَعَدهم اللهُ به على لسان نبيِّه ﷺ من السبق إلى الجنة قبل الناس كلِّهم، وبين أن يرفع أمرَهم إلى السلطان، فيدفع إليهم ما يُغْنيهم وبين أن يواسيهَم من ماله، فاختار القومُ البقاءَ على الحالة الأولى، والصبر على مَضَض الفقرَ وشدته. ويفهم من هذا الحديث أن مذهب عبد الله وهؤلاء الثلاثة أن الفقر المدقع، والتجرُّدَ عن المكتسبات كلِّها أفضل. وقد بيَّنا آنفا: أنَّ المسألةَ مسألةُ خلافٍ، وأن الكفافَ أفضلُ على ما ذكرناه انفاً.

دابة، ولا متاع! فقال لهم: ما شئتُم! إن شئتم رجعتم إلينا فأعطيناكم ما يَسَّرَ الله لكم، وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان، وإن شئتم صبرتم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً»، قالوا: فإنَّا نصبر، لا نسأل شيئاً.

* * *

و(قوله ﷺ: «إنَّ فقراءَ المهاجرين يسبقون الأغنياءَ يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً») هذا الحديثُ اختلفت ألفاظُ الرواة فيه عن النبيِّ ﷺ، فروى عبدُ الله ابن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ الحديث المتقدِّم. وروى الترمذي من حديث أبي سعيد الخدريِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «فقراءُ المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمئة عام». قال: هذا حديثٌ حسن غريب من هذا الوجه. ويروى أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يدخلُ الفقراءُ الجنةَ قبل أغنيائهم بخمسمئة عام، نصف يوم»، قال: هذا حديث حسن صحيح. وفي طريق أخرى: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، وهو خمسمئة عام»، وقال: حديث حسن صحيح، وروي أيضاً عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ أن رسولَ الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً». قال: هذا حديث حسن صحيح. فاختلفت هذه الأحاديثُ في أيِّ الفقراء هم السَّابقون، وفي مقدار المدَّة التي بها يسبقون، فهذان موضعان. ويرتفع الخلافُ عن الموضع الأول بأن يُرَدَّ مطلق حديث أبي هريرة إلى مقيَّد روايته الأخرى، ورواية جابر ـ رضي الله عنه ـ، فيعني بالفقراء: فقراء المسلمين، وحينئذٍ يكونُ حديثُ عبد الله بن عمرو، وحديث أبي سعيد مخصوصاً بفقراء المهاجرين، وحديث أبي هريرة وجابرٍ يعمُّ جميع فقراء قرون المسلمين، فيدخل الجنة فقراء كل قرن قبل أغنيائهم بالمقدار المذكور، وهذه طريقة حسنة. ونزيدُها وضوحاً بما قد صحَّ عنه ﷺ أنه قال: «أصحابُ الجنة محبوسون على قنطرةٍ بين الجنة والنار، يُسألون عن فضول أموالٍ كانت بأيديهم»، وهذا واضح. وأما الموضع الثاني فقد تقدَّم: أنَّ الخريفَ هو العام هنا، وأصلُ الخريف: فصلٌ من فصول

السنة، وهو الفصلُ الذي تُخترفُ فيه الثمار، أي: تُجتني، فسُمِّي العامُ بذلك. ويمكن الجمعُ بين الأربعين وحديث الخمسمئة عام بأنَّ سُبَّاق الفقراء يسبقون قبل سُبَّاق الأغنياء بأربعين عاماً، وغير سُبَّاق الأغنياء بخمسمئة عام؛ إذ في كلِّ صنف من الفريقين سُبَّاق، واللَّهُ أعلم.

وهذه الأحاديث: حُجَّة واضحةٌ على تفضيل الفقر على الغِنى، ويتقرَّر ذلك من وجهين:

أحدهما: أن النبيَّ ﷺ قال هذا لخبر كَسْر قلوب الفقراء، ويهوِّن عليهم ما يجدونه من مرارة الفقر، وشدائده؛ بمزيَّة تحصلُ لهم في الدار الآخرة على الأغنياء عِوَضاً لهم عما حرِموه من الدُّنيا، وصَبْرهم، ورضاهم بذلك.

وثانيهما: أنَّ السبقَ إلى الجنة ونعيمها أولى من التأخر عنها بالضَّرورة، فهو أفضل.

وثالثها: أنَّ السبق إلى الفوز من أهوال يوم القيامة، والصِّراط أولى من المقام في تلك الأهوال بالضرورة، فالسَّابقُ إلى ذلك أفضلُ بالضرورة. وحينئذٍ لا يلتفت لقول مَن قال: إنَّ السبق إلى الجنة لا يدلُّ على أفضلية السابق. وزخرف ذلك: بأنَّ النبي ﷺ أفضلُ الخليقة، ومع ذلك فدخوله الجنة متأخِّر عن دخول هؤلاء الفقراء لأنهم يدخلون قبله، وهو في أرض القيامة؛ تارة عند الميزان، وتارة عند الصِّراط، وتارة عند الحوض، كما قد أخبر عن ذلك فيما صحَّ عنه. وهذا قولٌ باطلٌ صَدَر عمن هو بما ذكرناه وبالنقل جاهل، فكأنه لم يسمعْ ما تقدَّم في كتاب الإيمان من قوله ﷺ: «أنا أوَّلُ من يقرعُ بابَ الجنة، فيقول الخازنُ: من أنت؟ فأقول: أنا محمد. فيقول لخازن: بك أُمِرْتُ لا أفتحُ لأحدٍ قبلك». وفي حديث أنه ﷺ قال: «أنا أول من يدخلُ الجنة، ومعي فقراءُ المهاجرين»، وعلى هذا فيدخل الجنة، ويتسلَّم ما أُعدَّ له فيها، ويُبوِّىء الفقراءَ منازلهم، ثم يرجع إلى أرض القيامة ليخلِّص أمته بمقتضى ما جعل اللَّهُ في قلبه من الحنوِّ على أمته، والشفقة عليهم، والرَّأفة بهم، فيلازمُهم في أوقاتِ شدائدهم،

ويسعى بمكنه في نجاتهم، فيحضرهم عند وزن أعمالهم، ويسقيهم عند ظمئهم، ويدعو لهم بالسلامة عند جَوَازهم، ويشفعُ لمن دخل النارَ منهم، وهو مع ذلك كلِّه في أعلى نعيم الجنة الذي هو غايةُ القُرْب من الحقِّ، والجاه الذي لم ينله أحدٌ غيره من الخلق، ولذَّة النظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه الحكيم بألطف خطاب وأكرم تكليم. كيف لا؟ وهو يسمعُ: «يا محمد! قُل يُسْمَعْ لك، سلْ تُعْطَ، اشفعْ تشفعْ. فيقول: أمتي! أمتي! أمتي! فيقال: انطلقِ الجنة من أمتك من لا حسابَ عليه من الباب الأيمن». وهذه حُظْوةٌ لا تتَّسع لها العبارات، ولا تحيطُ بها الإشارات حشرنا الله في زمرته، ولا خيَّبنا من شفاعته.

قال القاضي أبو الفضل: ويحتملُ أنَّ هؤلاء السابقين إلى الجنة يتنعَّمُون في أفنيتها وظلالها، ويتلذَّذون بما هم فيه إلى أن يدخل محمد ﷺ بعد تمام شفاعته، ثم يدخلونها معه على قدر منازلهم وسبقهم، والله تعالى أعلم.

قال القاضي أبو العباس المصنف:[1] وهذا لا يحتاجُ إلى تقديره؛ لأن الذي هو فيه من النعيم بما ذكرناه أعلى وأشرف مما هم فيه، فلا يكون سبقهم لأدْون النعيمين أشرف ممن سبق إلى أعظمها، وهذا واضح.

(1) ظهر لمخطوطة ابن بطوطة أن لا تقول هنا الشيخ وإنما القاضي ابو العباس المصنف ونحن نعلم أن القرطبي كان قاضيا أيضا.

باب كرامة من قنع بالكَفاف وتصدَّق بالفضل

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «بينا رجلٌ بفلاةٍ من الأرض، فسمع صوتاً في سحابة: اسقِ حديقةَ فلان، فتنحَّى ذلك السَّحابُ، فأفرغ ماءهُ في حرَّة، فإذا شَرْجَةٌ من تلك الشِّراج قد استوعبت ذلك الماءَ كلَّه، فتَتَبع الماءَ فإذا رجلٌ قائم في حديقته يُحَوِّلُ الماء بمِسْحَاته؛ فقال له: يا عبد الله! ما اسمك؟ قال: فلانٌ ـ للاسم الذي سمعَ في السَّحاب ـ فقال له: يا عبد الله! لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إنِّي سمعتُ صوتاً في السَّحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان؛ لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أمَّا إذ قُلتَ هذا. فإنِّي أنظر إلى ما يخرجُ منها فأتصدَّق بثلثه، وآكلُ أنا وعيالي ثلثاً، وأردُّ فيها ثُلُثَهُ».

وفي روايةٍ: «وأجعل ثلثه في المساكينِ، والسائلينَ، وابنِ السبيل».

* * *

ومن باب: كرامة من قنع بالكفاف، والاجتهاد في العبادة وفي التواضع

الفلاةُ من الأرض: هي القفر. والحديقة: البستان، وسُمِّيتْ بذلك لأنها أحْدَقَ بها حاجزٌ، قالوا: وأصلُه كلُّ ما أحاط به البناء. والحديقة أيضاً: القطعةُ من النخل. والحرَّة: أرضٌ ذات حجارةٍ سود؛ كأنها أحرقت بالنار. والشَّرْجة: مسيلُ الماء، وهي بفتح الشين، وسكون الراء، وتجمع: شِرَاج وشُرُوج. ومَن قال: شَرَجة ـ بفتح الراء ـ فقد أخطأ المعروفَ من اللغة. واستوعبت: جمعتْ. فتتبع الماء أي: تبعه.

و(قوله: تنحَّى ذلك السحاب)؛ أي: اعتمد وقصد. والنحو في أصله: هو القصد. وفي هذا الحديث دليلٌ على صحة القول بكرامات الأولياء، وأنَّ الوليَّ قد يكون له مال وضَيْعة، ولا يناقضُه قولُه ﷺ: «لا تتخذوا الضيعةَ فتركنوا إلى الدنيا»

باب الاجتهاد في العبادة والدوام على ذلك، ولن ينجيَ أحداً منكم عملُه

عن المغيرة بن شعبة: أنَّ النَّبي ﷺ صلى حتي انتفخت قدماه، فقيل له: أَتَكلَّفُ هذا وقد غَفَر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟».

وعن عائشة زوجِ النبي ﷺ أنَّها كانت تقول: قال رسول الله ﷺ: «سدِّدوا، وقاربوا، وأَبْشِرُوا؛ فإنَّه لن يُدْخِل الجنَّة أحداً عملُه». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدنيَ اللهُ برحمته، واعلموا: أنَّ أحبَّ العمل إلى الله أدومُه وإنْ قَلَّ».

ونحوه؛ عن أبي هريرة وقال: «برحمة وفضلٍ».

لما قدمنا من أن المقصودَ بالنهي إنما هو: مَن اتَّخذها مستكثراً، ومتنعماً، ومتمتعاً بزهرة الدُّنيا، لما يخاف عليه من الميل إلى الدنيا، والرُّكون إليها، وأما من اتخذها معاشاً يصونُ بها دينَه وعياله، فاتِّخاذُها بهذه النية من أفضل الأعمال. وهي من أفضل الأموال.

و(قولهم للنبي ﷺ: أتَكَلَّف هذا؟» أي: أتتكلف فعْله، وتتحمَّل مشقَّته؟ وهذا أخرجه منهم ظنٌّ أنه إنما يعبدُ اللهَ تعالى خوفاً من الذنوب، وطلبا للمغفرة، وهو الشكر على مغفرته للذنوب، وإيصاله نعَمه لمن لا يستحقُّ عليه منها شيئاً، فيتعيَّن الشكر على ذلك. ثم الشكر قد قلنا إنه اعتراف بالنعمة وقيام بالخدمة، فمن كثر عنه ذلك وتكرَّر سُمِّي الشكور؛ ولذلك قال الحليمُ الغفور: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[1].

(وقوله: «سدِّدوا وقاربوا وأَبْشِرُوا») أي: سدِّدوا في الأعمال؛ أي: اعملوها مُسدَّدة لا غُلُوَّ فيها ولا تقصير، وقارِبُوا في أزمانها بحيث لا يكون فيها قصر، ولا تطويل، وأبشروا على ذلك بالثواب الكثير والخير الجزيل.

---

(1) سورة سبأ 13

وعن جابر، قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «لا يُدْخِلُ أحداً منْكم عملُهُ الجنَّة، ولا يُجيرُه من النَّار، ولا أنا إلا برحمةٍ من الله».

* * *

باب التواضع

عن عياضِ بنِ حمارِ المجاشعيِّ ـ من حديثه الطويل ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: أنَّ الله أوحى إليَّ: أن تواضعوا حتى لا يَفْخَر أحدٌ على أحدٍ، ولا يَبْغِي أحدٌ على أحدٍ». وسيأتي.

* * *

و(قوله: «فأنه لن يُدْخِلَ الجنةَ أحداً عَمَلُه») أي: إنَّ أعمالَ العباد الصَّالحة ليست ممَّا تقتضي دخولَ الجنة؛ إذ ليستْ في أنفسها على صفات تقتضي ذلك، ولا يستحق المكلَّف على الله تعالى بسببها شيئاً؛ إذ لا منفعةً له فيها، ولا غرض؛ فإنه الغنيُّ بذاته؛ الذي لا يُسْتَغْنى عنه. وكأن هذا نصٌّ في الردِّ على أهلِ البدع والمعتزلة في قولهم في قاعدتي التحسين والتقبيح، والاستحقاق العقليين.

و(قولهم: ولا أنت؟) كأنَّهم وقع لهم: أنَّ النبيَّ ﷺ لعظيم معرفته بالله، وكثرة عباداته؛ أنه يُنجيه عمله، فردَّ النبيُّ ﷺ ذلك بأن قال: ولا أنا إلاَّ أن يتغمَّدني اللهُ برحمةٍ وفضل». فسوَّى بينَه وبينهم في ذلك المعنى، وأخبر أنه عن فضله ورحمته لا يُسْتَغْنى.

و(قوله: «إن الله أوحى إليَّ أن تواضَعُوا حتي لا يفخرَ أحدٌ على أحد») التواضعُ نقيض التكبر، والتكبُّر: هو الترفُّعُ على الغير، فالتواضع: هو الانخفاض للغير وحاصلُه أن المتكبر يرى لنفسه مزيَّةً على الغير تحملُه على احتقاره، والمتواضع لا يرى لنفسه مزيَّةً بل: يراها لغيره حيث يحمله ذلك على الانخفاض له مراعاة لحقه. ولا شك في أن الكبرَ مذمومٌ، فمنه كفرٌ وهو الكبر على الله وعلى أنبيائه، وما عداه من الكبائر والتواضعُ أيضاً منه: أعلى وأدنى، والأعلى: هو التواصعُ لله تعالى، ولكتابه ولرسوله. والأدنى: هو ما عداه، والله تعالى أعلم وقد تكلَّمنا على ذلك فيما تقدَّم.

* * *

كتاب ذكر الموت وما بعده

باب الأمر بحسن الظن بالله عند الموت وما جاء: أن كل عبد يبعث على ما مات عليه

عن جابرِ بن عبد الله، قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل وفاته بثلاثٍ يقول: «لا يموتَنَّ أحدُكم إلا وهو يحسن الظنَّ بالله».

رواه أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجاجه.

كتاب: ذكر الموت

(قوله ﷺ: «لا يموتنَّ أحدُكم إلا وهو يحسنُ الظنَّ بالله») أي: استصحبوا الأعمالَ الصالحة، والآدابَ الحسنة التي يَرْتجي العاملُ لها قبولها، ويحقِّقُ ظَّنه برحمة ربِّه عند فِعْلها، فإن رحمةَ الله قريبٌ من المحسنين، وعقابه مخوف على العصاة والمذنبين. وقد قلنا: إنَّ حُسْن الظنِّ بغير عملٍ غِرَّةٌ، كما قال ﷺ: «الكيِّس مَن دان نفسَه وعَمِل لما بعد الموت، والعاجزُ مَن أتبع نفسَه هواها وتمنَّى على الله» وهذا إنما

وعنه؛ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يبعث كلُّ عبد على ما مات عليه».

وعن عبد الله بن عمرو، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أراد الله بقومٍ عذاباً؛ أصابَ العذابُ من كان فيهم، ثم بُعِثُوا على نِيَّاتهم».

* * *

يكونُ في حالة الصِّحة والقوَّة على العمل، وأما في حال حضور الموت فليس ذلك الوقتُ وقتاً يقدر فيه على استئناف غير الفكْر في سَعَة رحمة الله تعالى، وعظيم فضله، وأنه: لا يتعاظمه ذنبٌ يغفره، وأنه الكريمُ الحليم، الغفورُ الشكور، المنعمُ الرَّحيم. ويُذكَّر بآيات الرُّخَص وأحاديثها لعلَّ ذلك يقعُ بقلبه، فيُحب الله تعالى، فيختم عليه بذلك، فيلقى اللهَ تعالى له وهو محبٌّ لله تعالى، فيحشر في زُمْرة المحبِّين بعد أن كان في زُمرة الخطَّائين، ويشهدُ قولُه: «يُبعَثُ كلُّ عبدٍ على ما مات عليه».

و(قوله: «إذا أراد الله بقوم عذاباً أصاب العذابُ من كان فيهم، ثم بُعِثوا على نيَّاتهم») يعني: إذا أراد اللهُ أَخْذَ قومٍ بما ظهر فيهم من المنكر، أهلك جميعهم بعذابٍ يُرْسِله على جميعهم؛ صالحهم وطالحهم، فأما تعذيبُ الصَّالح فترفيعٌ له في درجاته، وتكثيرٌ لثوابه، ثم يُحْشَرُ على نيَّته الصَّالحة، فتتم له الصفقةُ الرابحة. وأما تعذيبُ الطالح، فانتقامٌ منه، والمؤخَّر له أعظمُ مِنَ الواقع به، وهذا نحو مما قالته عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ: أنهلكُ وفينا الصَّالحون؟ قال: «نعم! إذا كثر الخبث».

باب إذا مات المرء عُرِض عليه مقعدُه
وما جاء في عذاب القبر

عن ابن عمر، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إنَّ أحدكم أذا مات عُرِض عليه مقعدُه بالغداة والعشيِّ، إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وإنْ كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة».

وفي روايةٍ: «هذا مقعدُك الذي تُبعَث إليه يوم القيامة».

ومن باب: مَن عُرِض مقعدُه عليه بعد الموت

(قوله: «إذا مات أحدُكم عُرض عليه مقعدُه بالغداة والعشيِّ») هذا منه ﷺ إخبارٌ عن غير الشهداء؛ فإنه قد تقدَّم أنَّ أَرْوَاحَهم في حواصل طيرٍ تسرحُ في الجنة، وتأكل من ثمارها. وغير الشهداء: إما مؤمن، وإما غير مومن. فغير المؤمن: هو الكافر. فهذا يرى مقعدَه من النار غُدوّاً وعشيًّا، وهذا هو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿ **اَلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ اَلسَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ اَلْعَذَابِ** ﴾[1]. وأما المؤمن: فإما ألا يدخل النار، أو يدخلها بذنوبه. فالأول يرى مقعدَه من الجنة لا يرى غيره رؤيةَ خوف، وأما المؤمنُ المؤاخَذُ بذنوبه فله مقعدان: مقعد في النار زمن تعذيبه، ومقعد في الجنة بعد إخراجه، فهذا يقتضي أن يُعْرَضا عليه بالغداة والعشيِّ، إلا إن قُلْنا: إنه أراد بأهل الجنة كلَّ من يدخلُها كيف كان، فلا يحتاج إلى ذلك التفسير، والله أعلم. وهذا الحديثُ وما في معناه يدلُّ على: أن الموتَ ليس بعَدمٍ، وإنما هو انتقالٌ من حالٍ إلى حالٍ، ومفارقة الرُّوح للبدن. ويجوز أن يكون هذا العرضُ على الروح وَحْدَه، ويجوزُ أن يكونَ عليه مع جزء من البدن، والله أعلمُ بحقيقة ذلك.

---

(1) سورة غافر: 46

وعن زيد بن ثابت؛ قال: بينما النَّبيُّ ﷺ في حائط لبني النَّجار على بغلة له؛ ونحن معه؛ إذ حَادَتْ به، فكَادَتْ تُلْقيه، وإذا أَقْبُرٌ ستَّةٌ، أو خمسَةٌ، أو أَرْبعةٌ (كذا كان يقول الجُرَيْري) فقال: «من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟»، فقال رجلٌ: أنا. قال: «فمتى مات هؤلاء؟» قال: ماتوا في الإشراك. فقال: «إنَّ هذه الأمَّة تُبْتَلى في قبورها، فلولا ألاَّ تدافنوا لدعوت الله أنْ يُسْمعَكُم من عذاب القبر الذي أسمع منه» ثُمَّ أقبل علينا بوجهه فقال: «تعوَّذوا بالله من عذاب النَّار» قالوا: نعوذ بالله من عذاب النَّار فقال: «تعوذوا بالله من عذاب القبر»، قالوا نعوذ بالله من عذاب القبر قال: «تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن» قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن قال: «تعوَّذوا بالله من فتنة الدَّجال». قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدَّجال.

والغداةُ والعشيّ: إنَّما هما بالنسبة إلى الحيِّ، لا بالنسبة إلى الميِّت؛ إذ لا يتصوَّر في حقِّه شيءٌ من ذلك.

و(قوله: «لولا ألاَّ تدافنوا لدعوتُ اللهَ أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه») قد تقدَّم القولُ على عذاب القبر، وأنه مما يجبُ الإيمانُ به، وقد صحَّ الإخبارُ عنه في الكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة. ولا يُلتفت لاستبعاد المبتدعة، فإن الإمكانات متسعة، والقدرة صالحة. وامتناعُ التدافن لو سمع عذاب القبر يحتملُ أن يكون سَبَبُه: غلبةُ الخوف عند سماعه؛ فيغلب الخوفُ على الحيِّ، فلا يقدرُ على قُرْب القبر للدفن، أو يهلك الحيُّ عند سماعه؛ إذ لا يُطاقُ سماعُ شيءٍ من عذاب الله في هذه الدار، بل: بنفس سماعه يهلك السامعُ؛ لضعف هذه القوى في هذه الدار. ألا تَرى أنه إذا سمع الناسُ صعقةَ الرَّعد القاصف، أو الزَّلازل الهائلة هلك كثيرٌ من الناس. أو أين صعقةَ الرعد من صيحة الذي تضربه الملائكةُ بمطارق الحديد؛ التي يسمعُها كلُّ مَن يليه إلا الثقلين؟ وقد قال ﷺ: «ولو سمعها إنسانٌ لصعق».

وعن أبي أيوبَ قال: خرج رسولُ الله ﷺ بعدما غربت الشمسَ فسَمِعَ ضَوْتاً. فقال: «يَهودُ تُعذَّبُ في قُبُورِها».

* * *

باب في سؤال الملكين للعبد حين يوضع في القبر وقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾

عن أنسِ بن مالكٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنَّه ليسمع قرع نعَالهم. قال: يأتيه ملكان، فيُقْعِدانه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ قال: فأمَّا المؤمن فيقول: أشهد أنَّه عبدُ الله ورسولُه. قال: فيقال له: انظر إلى مقعدك من النَّار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنَّة». قال نبي الله ﷺ: «فيراهما جميعاً». قال قتادة: وذُكِر لنا: أنَّه يفسح له في قبره سبعون ذرعاً، ويملأ عليه خَضِراً إلى يوم يبعثون.

و(قوله: «إنَّ العبدَ إذا وُضِع في قبره، وتولَّى عنه أصحابُه إنَّه ليسمعُ قَرْعَ نعالهم») هذا نصٌّ في أنَّ الميتَ يسمعُ، وقد تقدَّم الكلامُ في هذا، وفي إنكار عائشة ـ رضي الله عنها ـ إيَّاه على ابن عمر في كتاب الجنائز.

و(قوله: «فيقال له: انظرْ إلى مقعدك من النار») أي: لو لم تومن، ولم تَقُمْ بحجَّتك، قد أبدلك اللهُ تعالى به مقعداً من الجنة لما قمتَ بحجَّتك.

و(قوله: «فيراهما جميعاً») يدلُّ على أنَّ رؤيته لهما حقيقة بالعين، وعلى هذا فيحيا الميت في قبره حياةً محقَّقةً بحيث يرى، ويسمع، ويسأل، ويتكلم وعلى هذا تدلُّ أدلةُ الكتاب والسُّنَّة في غير ما موضع. والحكمةُ في أن اللهَ تعالى يُريه إيَّاهما ليعْلم قَدْرَ نعمةِ الله فيما صَرَف عنه من عذاب جهنم، وفيما أوصل إليه من كرامةِ الجنَّة.

وعن البراء بن عازب، عن النَّبيِّ ﷺ قال: ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا** ﴾، قال: نزلت في عذاب القبر، فيقال: من ربك؟ فيقول: ربيَ الله ونبيي محمدٌ ﷺ فذلك قوله تعالى: ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** ﴾.

وفي روايةٍ: أنَّه قول البراء، ولم يذكر: عن النبيِّ ﷺ.

* * *

و(قوله: «فيفسح له في قبره») أي: يُوسَّع له فيه سبعون ذراعاً فيحتمل البقاء على ظاهره، ويكون معناه: أنه تُرْفَعُ الموانع عن بصره، فيبصر مما يجاوره مقدار سبعين ذرعاً، حتى لا تناله ظلمةُ القبر، ولا ضيقه، متى ردَّ روحه فيه إليه. ويحتملُ أن يكونَ ذلك كلُّه استعارةً عن سعة رحمة الله تعالى له، وإكرامه إيَّاه. والأول أولى، والله تعالى أعلم.

و(قوله: «ويملأ عليه خَضِراً») أي: نعماً غضَّة ناعمة، وأصلهُ من خُضْرة الشجر، والخضر ـ بكسر الضاد ـ: اسمُ جنسٍ للنبات الرطب الأخضر.

و(قوله تعالى: ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** ﴾ [1] أي: يُثبِّتهم في هذه الدَّار على التَّوحيد والإيمان بالنبيِّ ﷺ حتى يُميتَهم عليه، وفي الآخرة عند المساءلة في القبر، كما فسرَّها النبيُّ ﷺ. فإن كان النبيُّ ﷺ قاله فهو المقصود، وإن كان من قول البراء، فهذا لا يقولهُ احدٌ من قبل نفسه ورأيه، فهو محمولٌ على أنَّ النبيَّ ﷺ قاله، وسكت البراءُ عن رفعه لعلم المخاطب بذلك، واللهُ تعالى أعلم. وقد قيل عن البراء أنه قال: هما سؤالُ القبر وسؤالُ القيامة، يعني: يُرْشَدُ المؤمنُ فيهما إلى الصَّواب، ويُصْرَفُ الكافرُ عن الجواب.

---

(1) سورة ابراهيم 27

باب في أرواح المؤمنين وأرواح الكافرين

عن أبي هريرة، قال: «إذا خرجت روح المؤمن تلقَّاها ملكان يُصْعِدانها». قال حماد: فَذَكَر من طيب ريحها، وذَكَر المِسْكَ قال: «ويقول أهل السماء: روحٌ طيبةٌ جاءت من قِبَلِ الأرض، صَلَّى اللهُ عَليكِ وعلى جسدٍ كُنْتِ تَعْمُرينه. فيُنْطَلق به إلى ربِّه عزَّ وجَلَّ ثُمَّ يقول: انطلقوا به إلى آخرِ الأَجَل. قال إنَّ الكافر إذا خرجت روحه - قال حماد: وذكر من نَتْنِها وذكر لعْناً - ويقول أهل السماء: روحٌ خبيثةٌ جاءت من قِبَل الأرض»، قال: «فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل». قال أبو هريرة: فردَّ رسولُ الله ﷺ رَيْطةً كانت عليه على أنفه هكذا.

* * *

و(قوله: ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ﴾ [1] أي: يخذلهم عند السُّؤال، قاله قتادة.

و(قوله: ﴿وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ [2] أي: لا حجر عليه فيما يفعل. فهدى من شاء، ومن شاء خذل.

و(قوله: «صلى الله عليكِ وعلى جسدٍ كنتِ تعمرينه») الصلاة هنا: بمعنى الرحمة، وهذا يدلُّ على: أنَّ الروحَ كالسَّاكن في المنزل، فهو عامره ومدبِّره. ويفيد أن الروح من قبيل الجواهر، وأنها داخلةٌ في الجسد، وقد تكلَّمنا على الأرواح.

و(قوله: «فينطلق له إلى ربِّه») أي: إلى كرامة ربِّه، أو إلى محلِّ إكرامِ ربِّه له. وآخر الأجل: هو يومُ القيامة. والرَّيطةُ: الملاءةُ التي ليست لِفْقَيْن [3].

---

(1) سورة ابراهيم 27

(2) سورة ابراهيم 27

(3) «اللِّفْقُ»: شقَّةٌ من شِقَّتَي المُلاءَة

باب ما جاء أن الميت ليسمع ما يقال

عن أنسِ بن مالكٍ، قال: كنَّا مع عمر بين مكَة والمدينة فرأينا الهلال، وكنتُ رجلاً جديدَ البصر، فرأيتُه وليس أحدٌ يزعم أنه رآه غيري، قال: فجعلتُ أقول لعمر: أما تراه؟ فجعل لا يراه. قال: يقول عمر: سأراه وأنا مستلقٍ على فراشي. ثم أنشأ يحدثنا عن أهل بدر فقال: إنَّ رسول الله كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول: «هذا مصرعُ فلانٍ غداً إن شاء الله». قال: فقال عمر: فوالذي بعثه بالحق ما أخطؤوا الحدود التي حدَّ رسولُ الله ﷺ. قال: فجُعلوا في بئرِ بعضُهم على بعضٍ، فانطلق رسولُ الله ﷺ حتى انتهى إليهم فقال: يا فلانَ ابنَ فلانٍ! ويا فلانَ ابنَ فلانٍ! هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقاً؟ فإنِّي وجدت ما وعدني ربي حقاً». قال عمر: يا رسول الله! كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها؟ قال: «ما أنتم بأسمع لما أقولُ منهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردُّوا عليَّ شيئاً!».

وعنه؛ أنَّ رسول الله ﷺ ترك قتلى بدرٍ ثلاثاً، فقام عليهم، فناداهم، فقال: «يا أبا جهلِ بنَ هشام! يا أميةَ بنْ خلف! يا عتبةَ بنَ ربيعة! يا شيبةَ بت ربيعة! أليس قد وجدتم ما وعد ربُّكم حقاً؟ فإنِّي قد وجدت ما وعدني ربِّي حقاً». فسَمِع عمرُ قول النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله! كيف يسمعون؟ وأنَّى يجيبون وقد جيَّفوا؟ قال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع مما أقول منهمذ ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا». ثم أَمَرَ بهم فسحِبُوا، فألْقُوا في قَليبِ بدرٍ.

و(قوله: كيف يسمعون، وأنَّى يُجيبون وقد جيَّفوا) هذا من عمر ـ رضي الله عنه ـ استبعادٌ على حُكْم ما جرتْ به العادة، فأجابه النبيُّ ﷺ بأنهم يسمعون كسمع

وعن أبي طلحة، طقال: لَمّا كان يومُ بدرٍ، وظهر عليهم نبيُّ الله ﷺ أمر ببضعة وعشرين. ـ وفي رواية: بأربعةٍ وعشرين رجلاً ـ من صناديدِ قريشٍ؛ فألْقوا في طَوِيٍّ من أطواء بدر.

* * *

باب في الحشر وكيفيته

عن عائشة، قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يُحْشَر النَّاس يوم القيامة حُفاةً، عُراةً، غُرْلاً». قلت: يا رسول الله! الرِّجال والنساء جميعاً؛ ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال ﷺ: «يا عائشة! إنَّ الأمر أشدُّ من أن ينظر بعضُهم إلى بعضٍ».

الأحياء. فيحوزُ أن يكونَ ذلك منهم دائماً. غير أنه منع الأحياء من إدراك ذلك من الميت. ويجوز أن يكون في بعض الأوقات. وقد تقدَّم استيفاءُ هذا المعنى في الجنائز. والرواية في جيِّفوا ـ بفتح الجيم والياء ـ مبنيٌّ للفاعل، ومعناه: أنتنوا، فصاروا جيفاً. وصناديدُ قريش: ساداتها؛ واحدهم صنديد. والطَّوِيُّ: البئر المطويّ، وقد سمَّاها في الرواية الأخرى قليباً، وهي البئرُ غير المطويَّة، وهي: الركيُّ أيضاً، وقد تسامَحَ من أطلقَ على القليب طويّاً.

* * *

ومن باب: الحشر وكيفيته

الحشر: الجمع. ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُم فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أحداً﴾[1] والغُرْل: جمع أغرْل، وهو الأقلف، والغُرْلة والقلفة: ما يقطعه الخاتن.

---

(1) سورة الكهف الآية 47

وعن ابن عباسٍ، قال: قام فينا رسولُ الله ﷺ بموعظةٍ فقال: «يا أيها النَّاس! إنَّكم تحشرون إلى الله حُفَاةً، غرْلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَعِلِينَ﴾، ألا وأنَّ أول النَّاس يُكْسَى يوم القيامة إبراهيمُ، ألا إنَّه سيُجَاء برجالٍ من أمَّتي، فيؤخذُ بهم ذاتَ الشَّمال، فأقول: يا ربِّ أصحابي! فيقال: إنَّك لا تدري ما أحدثوا ـ وفي رواية بعدك ـ: فأقول: كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قال: فيقال: إنَّهم لم يزالوا مُدْبِرينْ مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم».

و(قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [1] أي: يعيدُه على خلقته الأولى لا ينقص منها شيءٌ.

و(قوله: «ألا إن أول الناس يُكْسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام») هذا يدلُّ على: أنَّ الناسَ كلَّهم ـ الأنبياء وغيرهم ـ يُحشرون عراةً، كما قال في الحديث المتقدَّم؛ وأن أهلَ السَّعادة يكسون من ثياب الجنة، ولا شكَّ في أن من كُسِي من ثياب الجنة فقد لبس جبَّة تقيه مكارهَ الحشر وعرقَهُ، وحرَّ الشمس والنار، وغير ذلك، فظاهرُ عمومه يقتضي: أن إبراهيم يُكسى قبل نبيِّنا محمد ﷺ فيجوز أن يكونَ هذا من خصائص إبراهيم، كما قد خُصَّ موسى ـ عليه السلام ـ بأن النبيَّ ﷺ يجدُه متعلقاً بساق العرش، مع أن النبيَّ ﷺ أول من تنشق عنه الأرضُ، ولا يلزم من هذا أن يكونا أفضلَ منه مطلقاً، بل: هو أفضلُ مَن وافى القيامة، وسيد ولد آدم، كما دَلَلْنا عليه فيما تقدَّم، ويجوز أن يُراد بالناس مَن عداه من الناس، فلم يدخلْ تحت خطاب نفسه، واللَّهُ تعالى أعلم. وقد تقدَّم القولُ على قوله: «إنَّهم لم يزالوا مرتدين منذ فارقْتهُم».

---

(1) سورة الانبياء الآية 104

وعن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «يحشر النَّاس علَى ثلاث طَرائقَ راغبين، وراهبين، واثنان على بَعيرٍ، وثلاثةٌ على بعير، وأربعة على بعير، وعشرةٌ على بعير، وتَحشُرُ بقيتَهم النارُ، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمْسَوا».

* * *

و(قوله: «يُحشر الناسُ على ثلاث طرائقَ راغبين وراهبين») الطَّرائق: الأحوال المختلفة، والفِرَق المتفرِّقة، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً﴾ (2) أي: فِرَقاً مختلفة. قال القاضي: هذا الحشرُ هو في الدُّنيا قبل قيام السَّاعة، وهو آخر أشراطها، كما ذكره مسلمٌ بعد هذا في آيات السَّاعة، قال فيه: «وآخر ذلك نارٌ تخرجُ من قعر عدن ترحِّلُ الناس»، وفي رواية: «تطردُ الناسَ إلى محشرهم». وفي حديث آخر: «لا تقومُ الساعةُ حتى تحرجَ نارٌ من أرض الحجاز». ويدل على أنها قبل يوم القيامة قوله: «فتقيلُ معهم حيث قالوا، وتمسي معهم حيث أَمْسَوْا، وتصبحُ معهم حيث أصبحوا». قال: وفي بعض الروايات في غير مسلم: «فإذا سمعتم بها فاخرجوا إلى الشام» كأنه أمر بسبقها إليه قبل إزعاجها لهم. وقد قال الأزهريُّ في قوله: ﴿لأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ (2)، إن الحشرَ الأول إلى الشام، إجلاء بني النضير من بلادهم إلى الشام.

قال الشيخ رحمه الله: وعلى هذا فيكون معنى راغبين في لقاء الله وفي ثوابه، وهؤلاء هم المؤمنون الذين وُسِمُوا باسم الإيمان، وراهبين: أي: خائفين، يعني بهم الكفار الذي وُسِمُوا باسم الكفر؛ وذلك إذا ذُبع على قلبٍ بما فيه عند طلوع الشمس من مغربها، وإذا خرجت دابةُ الأرض فنفخت في وجوه الناس ما تسمُ في وجه المؤمن: مؤمن، وفي وجه الكافر: كافرٌ، على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

* * *

---

(1) سورة الجن الآية 11

(2) سورة الحشر الآية 2

باب دنو الشمس من الخلائق في المحشر وكونهم في العَرَقِ علىٰ قدر أعمالهم

عن سُلَيم بن عامرٍ، عن المقداد بن الأسود؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُدنى الشَّمسُ يومَ القيامةِ من الخلْق حتى تكونَ منْهم كمقدار ميلٍ» قال سليم بن عامر: فوالله! ما أدري ما يعني بالميل؛ أمسافةَ الأرض، أم الميلَ الذي تُكتَحل به العين. قال: «فيكون الناس على قدر أعمالهم في العَرق، فمنهم من يكون إلى كَعْبَيْه، ومنهم من يكون إلى رُكْبَتَيْه، ومنهم من يكون إلى حَقْوَيْهِ، ومنهم من يُلْجِمُه العرقُ إلجاماً» قال: وأشار رسولُ الله ﷺ بيده إلى فيه.

ومن باب: دنو الشمس من الخلائق يوم القيامة والمحاسبة

(قوله: «تُدنى الشمسُ يوم القيامة») أي: تقرب. والميل: اسمٌ مشتركٌ بين مسافة الأرض، والمِرْوَد الذي تكحل به العين. ولذلك أشكل المرادُ على سليم بن عامر، والأولى به هنا: مسافة الأرض؛ لأنها إذا كان بينها وبين الرؤوس مقدارُ المرود فهي متصلةٌ بالرؤوس لقلَّة مقدار المرود.

و(قوله: «ويكون الناسُ في العَرق على قدر أعمالهم، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبته، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً») وقد تقدَّم أنَّ الحقوين: الخصران وقيل هما طرفا الوركين، والأول المعروفُ. وهذا العرق إنما هو لشدَّة الضَّغط، وحرِّ الشمس التي على الرؤوس بحيث تغلي منها الهام[1]، وحرارة الأنفاس، وحرارة النار المحدقة بأرض المحشر؛ ولأنها تخرجْ

---

(1) جمع الهامة، وهي: الرأس.

وعن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إنَّ العَرَقَ يوم القيامة ليذهبُ في الأرض سبعين باعاً، وإنَّه ليبلغُ إلى أفواه النَّاس ـ أو إلى آذانهم ـ (يشك ثورٌ أيهما قال).

وعن ابن عمر عن النَّبيِّ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾ قال: «يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه».

* * *

منها أعناق تلتقطُ الناسَ من الموقف، فترشح رطوبةُ الأبدان من كل إنسان بحسب عمله، ثم يجمعُ عليه ما يرشحُ منه بعد أن يغوصَ عرقُهم في الأرض مقدار سبعين باعاً، أو ذراعاً، أو عاماً، على اختلاف الروايات. فإن قيل: فعلى هذا يكون الناسُ في مثل البحر من العَرق، فليزمُ أن يسبحَ الكلُّ فيها سبحاً واحداً، فكيف يكونون متفاضلين بعضهم إلى عقبيه، وبعضهم إلى فمه، وما بينهما. قلنا: يزولُ هذا الاستبعاد بأوجه؛ أقربها وجهان:

أحدهما: أن يَخْلُقَ اللَّهُ تعالى ارتفاعاً في الأرض التي تحت قدم كلِّ إنسان، بحسب عمله، فيرتفعُ عن الأرض بحسب ارتفاع ما تحته.

وثانيهما: يُحْشَرُ الناسُ جماعات في تفرقة، فيحشر كلُّ من يبلغ عرقُه إلى كعبيه في جهة، وكلُّ من يَبْلُغ حَقْويه في جهة، وهكذا. والقدرةُ صالحة لأن تُمْسكَ عرقَ كلِّ إنسان عليه بحسب عمله، فلا يتصل بغيره، وإن كان بإزائه، كما قد أمسك جرية البحر لموسى ـ عليه السلام ـ حيث طلب لقاء الخضر؛ ولبني إسرائيل حين اتبعهم فرعون، والله تعالى أعلمُ بالواقع من هذه الأوجه. والحاصل: أن هذا المقامَ مقامٌ هائل لا تفي بهوله العبارات، ولا تحيطُ به الأوهام ولا الإشارات، وأبلغُ ما نطق به في ذلك الناطقون: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [1].

---

(1) سورة ص الآيات 67 ـ 68

باب في المحاسبة ومن نوقش هلك

عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حُوسب يوم القيامة عذب». فقلت: أليس قال الله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾؟»

فقال: «ليس ذاك الحساب؛ إنما ذاك العرض من نُوقِشَ الحساب يوم القيامة عُذِّبَ».

وفي رواية: «من نوقش المحاسبة هلك».

و(قوله: «من حُوسِب يوم القيامة عُذِّب») يعني حسابَ مناقشةٍ ومطالبة، كما قال في اللفظ الآخر: «من نُوقِش المحاسبة». والمناقشة: الاستقصاءُ في المطالبة بالجليل والحقير، والصغير والكبير، وترك المسامحة في شيءٍ من ذلك. قال الهروي: يقال: انتقشت منه حقي؛ أي: استقصيته منه.

و(قوله: «عُذِّب») ظاهره: عذاب النار جزاءً عن سيئات ما أظهره حسابه. ويدلُّ على ذلك قوله «هلك» أى: بالعذاب في النار. ويجوز أن يكون عذاب بعض من يُناقش نفس المناقشة، وما يُلازمها من التَّوبيخ واللَّوم، ثم يغفر اللهُ تعالى، كما حكي أنَّ بعضَ الصَّالحين رُؤي في النوم بعد موته، فقيل له: ما فعل اللهُ بك؟ فقال حاسبوا فدققوا، ثُمَّ منوا فاعتصموا عائشة رضي الله عنها بقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾ [1] إنما حملها عليه أنها تمسكَّت بظاهر لفظ الحساب؛ لأنه يتناول القليل والكثير، ولو سمعتْ لفظ المناقشة لما وقع لها ذلك، والله تعالى أعلم.

و(قوله: «إنما ذلك العرض») يعني: أن الحسابَ المذكورَ في الآية إنما هو أن تُعرض أعمالُ المؤمن عليه، ويُوقف عليها تفصيلاً حتى يعرفَ منَّةَ الله تعالى عليه في سترها عليه في الدُّنيا، وفي عَفوه عنها في الآخرة، كما في حديث ابن عمر الآتي بعد هذا.

---

(1) سورة الانشقاق الآية 8

وعن أبي برزة الأسلمي؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسْأل عن أربعٍ عن عُمُرِه فيما أفناه، وعن جَسَده فيم أبلاه، وعن علْمِه ما عملَ به، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه».

و(قوله: «لا تزولُ قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع») عبد هنا: يُراد به العموم؛ لأنه تكرةٌ في سياق النفي، لكنه مخصّص بمن لا حسابَ عليه، وهم الزمرةُ السَّابقة إلى الجنة أولاً؛ الذين يقال للنبيِّ ﷺ فيهم: «أدخلِ الجنةَ من أمتك مَن لا حسابَ عليه من الباب الأيمن. وبقوله تعالى: ﴿**يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ**﴾ [1] ويؤيِّد هذا ما قد صحَّ في الحديث: أنه «يخرجُ من النار عُنُقٌ فيقول: وُكِّلت بكلِّ جبَّار» وكأنَّ المرادَ بهذا الحديث الأكثر من الناس، والله تعالى أعلم.

و(قوله: «عن عمره فيم أفناه، وعن جَسَده فيم أبلاه، وعن علْمه ما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه،») ظاهره: أنه يُسأل عن هذه الأربع مجملةً كما نطق بها، وليس كذلك؛ بل: يسأل عن آحاد كلِّ نوعٍ منها، فيسأل عن أزمانه من وقت تكليفه زماناً زماناً، وعمَّا عمل عملاً عملاً، وعن معلوماته وما عمل بها واحداً واحداً، وهكذا في سائرها تعييناً، وتعديداً، وتفصيلاً. والدليلُ على ذلك قولُه تعالى: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ**﴾ [2]. ﴿**وَقَالُوا: يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَبِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَهَا**﴾ [3] وقوله ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**﴾ [4]، ومثل هذا كثيرٌ في الشريعة، ومن تصفَّح ذلك حصلَ على العلم القطعي؛ واليقين الضروري من ذلك.

---

(1) سورة الرحمن الآية 41
(2) سورة الزلزلة الآية 87
(3) سورة الكهف الآية 49
(4) سورة الأنبياء الآية 47

وعن صفوانَ بن مُحْرِزٍ، قال: قال رجلٌ لابن عمر: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: «يُدْنى المؤمنُ من ربه يوم القيامة حتى يضعَ عليه كَنَفَهُ، فيقرُّره بذنوبه؛ فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أي رب! أعرف! قال: فإنِّي سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعْطى صحيفةَ حسناته. وأما الكفارُ والمنافقون؛ فينادى بهم على رؤوس الخلائق: الذين كَذبُو على الله!».

* * *

و(قوله: «يدنى المؤمن من ربِّه يوم القيامة») هذا إدناءُ تقريبٍ وإكرام، لا إدْناءَ مسافة ومكان. ويحتمل أن يكونَ من باب حَذْفِ المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، كما قال: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [1] أي: أهلها.

و(قوله: «حتى يضع عليه كَنَفه») أي: ستره، وجناحَ إكرامه ولُطفه، فيُخاطبه خطابَ الملاطفة، ويناجيه مناجاةَ المصلقاة والمحادثة، فيقول: هل تعرف؟ فيقول بلسان الفرح والاستبشار: ربِّ أعرف، فيقول اللَّهُ له مُمْتَنّاً عليه، ومُظْهراً فَضْلَه لديه: «فإني سترتُها عليك في الدنيا» أي: لم أفضحك بها بين الخلائق، ولم أطلعهم على شيءٍ منها. ويحتملُ أن يكونَ معنى ستره إياها: ترك المؤاخذة عليها؛ إذ لو واخذه بها لفضحت العقوبةُ الذنبَ، كما افتضحت ذنوبُ الأمم السَّالفة بسبب العقوبات التي وقعت بهم، فسارتْ بذنوبهم وعقوبتهم الرُّكبان، وعَلِمها كلُّ إنسان. وهل هذه الذنوبُ كبائر وصغائر، أو صغائر فقط؟ وهل كان تاب منها، أو لم يكن؟ هذه مباحثُ تطول، وقد أشرنا إلى نُكَتٍ منها فيما تقدَّم.

* * *

---

(1) سورة يوسف الآية 82

باب حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات
وصفة أهل الجنة وصفة أهل النار

وعن أنسٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «حُفَّت الجنَّةُ بالمكاره، وحفَّتِ النَّار بالشَّهوات».

وعن عياض بن حمار المجاشعي - وقد تقدَّم أولُ حديثه في العلم -: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله نظر إلى أهل الأرض فَمَقَتَهُمْ، عربَهُم

ومن باب قوله: حُفَّت الجنة بالمكاره
وحُفَّت النار بالشهوات

هذا من التمثيل الواقع موقعه، ومن الكلام البليغ الذي انتهي نهايته، وذلك أنه مثَّل المكارهَ بالحفاف، وهو الدَّاءُ بالشيء المحيط به؛ الذي لا يتوصَّل إلى ذلك الشيء إلا بعد أن يتخطَّى. وفائدةُ هذا التمثيل: أن الجنةَ لا تُنال إلا بقطع مفاوز المكاره، وبالصَّبر عليها، وأن النارَ لا يُنجى منها إلا بترك الشهوات، وفطام النفس عنها. وقد رُوي عنه ﷺ أنه مثَّل طريقَ الجنة، وطريق النار بتمثيل آخر، فقال: «طريقُ الجنة حَزَن بربوة، وطريق النار: سهل بسهوة». والحزن: هو الطريقُ الوعر المسلك، والرَّبوة: المكانُ المرتفع، وأراد به أعلى ما يكون من الرَّوابي. والسَّهوة: بالسين المهملة، وهي الموضعُ السَّهل الذي لا غلظ فيه، ولا وعورة. وهذا أيضاً تمثيلٌ حَسَن واقعٌ موقعه. وقد تقدَّم القولُ على أول حديث عياض في كتاب العلم.

و(قوله: «إن اللهَ نظر إلى أهلِ الأرض فمقتهم، عربَهم وعجمَهم، إلا بقايا من أهل الكتاب») نظر: بمعنى أبصر، والمقت: أشد البغض، وأراد بالعجم هنا: كل من لا يتكلم بكلام العرب، ويعني بذلك قبل بعث النبي ﷺ وذلك: أن كلا الفريقين كان يعبدُ غير الله، أو يشرك معه غيره، فكان الكلُّ ضُلاَّلاً عن الحق، خارجين عن مقتضى العقول والشرائع، فأبغضهم الله لذلك أشدَّ البغض، لكن لم يعاجلْهم

وعجمَهُم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتُك لأبتليَك وأبْتَلي بك، وأنزلتُ عليك كتاباً لا يغسله الماء؛ تقرؤه نائماً ويقظان؛

بالانتقام منهم حتى أعذر إليهم بأن أرسل إليهم رسولاً، وأنزل عليهم كتاباً قطعاً لمعاذيرهم، وإظهاراً للحجة عليهم. وإنما استثنى البقايا من أهل الكتاب؛ لأنهم كانوا متمسِّكين بالحق الذي جاءهم به نبيُّهم ويعني بذلك ـ والله أعلم ـ: مَن كان في ذلك الزمان مُتمسِّكاً بدين المسيح؛ لأن مَن كفر من اليهود بالمسيح لم يبقَ على دين موسى، ولا مُتمسِّكاً بما في التوراة، ولا دَخَل في دين عيسى، فلم يبق أحدٌ من اليهود متمسِّكاً بدين حقٍّ إلا من آمن بالمسيح، واتبع الحق الذي كان عليه، وأما من لم يؤمنْ به، فلا تنفعه يهوديته، ولا تمسُّكه بها؛ لأنه قد ترك أصلاً عظيماً ممَّا فيها، وهو العهدُ الذي أُخذ عليهم في الإيمان بعيسى ـ عليه السلام ـ؛ وكذلك نقول: كل مصراني بلغه أمر نبينا وشرعنا فلم يومن به لم تنفعه نصرانيته لأنَّه قد ترك ما أُخذ عليه من العهد في شرعه. ولذلك قال ﷺ: و«الذي نفسي بيده! لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة: يهوديٌّ، ولا نصراني، ثم يموت، ولم يومن بالذي أُرسلتُ به إلا كان من أصحاب النار».

و(قوله: «إنما بعثتُك لأبتليَك، وأبتليَ بك») أي: لأمتحنك بتبليغ الرسالة، والصَّبر على معاناة أهل الجاهلية، وأمتحن بك، مَن آمن بك واتَّبعك أثبِّتُه، ومَن كذَّبك وخالفك انتقمتُ منه وعاقبتُه.

و(قوله: «وأنزلت عليك كتاباً لا يغسلُه الماء») أي: يسَّرت تلاوتَه وحِفْظَه، فخفَّ على الألسنة، ووَعَتْهُ القلوب، فلو غُسلت المصاحفُ لما انغسل من الصدور، ولما ذَهَب من الوجود، ويشهدُ لذلك قولُه تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [1] وقوله: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾ [2] وفي الإسرائيليات: أنَّ موسى ـ عليه السلام ـ قال: يا رب! إنِّي أجدُ أمةً تكون أناجيلُها في صدورها فاجْعَلْهُم أمتي، قال: تلك أمة محمد.

---

(1) سورة الحجر الآية 9

(2) سورة القمر الآية 17

وإنَّ الله أمرني أن أُحَرِّقَ قريشاً فقلت: ربِّ! إذن يَثْلَغُوا رأسي فيدعوه خُبُزةً،

و(قوله : « تقرؤه نائماً ويقظان ») يحتملُ أن يريدَ بذلك: أنه يُوحى إليه القرآنُ في اليقظة والمنام، وقد تقدَّم أنَّ رؤيا الأنبياء وحي. ويحتمل أن يكون معنى نائم هنا: مضطجعاً، يعني في صلاة المريض، قالهما القاضي، وفيهما بُعْدٌ، وأشبه منها إن شاء الله أن الله يسَّره على لسان نبيِّه، وذكره، بحيث كان يقرؤه نائماً كما كان يقرؤه منتبهاً، لا يخلُّ منه بحرف، لا سيما وقد كان ﷺ تنام عيناه ولا ينام قلبه. وقد شاهَدْنا المديمين على تكرار القرآن يقرؤون منه الكثيرَ وهم نيامٌ، وذلك قبل استحكام غلبة النَّوم عليهم.

و(قوله: « إن الله أمرني أن أُحَرِّق قريشاً ») أي: أغيظهم بما أُسْمِعُهم من الحق الذي يخالفُ أهواءهم، وأُولُوا قلوبَهم بعيب آلهتهم، وتسفيه أحلام آبائهم، وقتالهم، ومغالبتهم حتى كأنِّي أُحرِّق قلوبهم بالنار. ولا يصحُّ أن يحملَ ذلك على حقيقته؛ لأن النبيَّ ﷺ لم يصحَّ عنه أنه حرَّق أحداً من قريش بالنار، بل قد نهى عن التعذيب بالنار، وقال: « لا يُعذِّب بالنار إلا الله ».

و(قوله : « فقلت إذن يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة ») الرواية الصحيحة المشهورة بالثاء المثلثة والعين المعجمة، ومعناه: يشدخوا. قاله الهروي. وقال شمر: الثلغ: فَضْخك الشيء الرطب باليابس. وقد رواه العذري: فقلعوا ـ بالقاف والعين المهملة ـ، ولا يصحُّ مع قوله: « فيدعوه خبزة » ومعنى هذا أنه شبَّه الرأسَ إذا شُدِخ بالخبزة إذا شُدِخَتْ لتُثْرَدَ.

قال الشيخ رحمه الله: وهذا الذي قاله النبيُّ من نحو ما قاله موسى ـ عليه السلام ـ حين أُمر بتبليغ الرسالة إلى فرعون فـ: ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ** ﴾ [1] فهذا صريحٌ في أنهما خافا غير الله، وحينئذٍ يُعارضه قولُه تعالى في صفة الرسل الذين يبلِّغون رسالات الله، ويخشونه، ولا يخشون أحداً إلا الله. وهذا نصٌّ في أنَّ الرسل لا

---

(1) سورة الشعراء الآيات 12 ـ 14

قال: اسْتَخْرِجْهُمْ كما اسْتَخْرَجوك ، واغْزُهُمْ نُغْزِكَ، وأنفقْ فسَنُنْفِقُ عليك وابعث جيشاً نبعثْ خمسةً مثله، وقاتلْ بمنْ أطَاعَكَ مَنْ عصاك، وقال: أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مُقْسِطٌ، مُتَصَدِّقٌ، مُوفَّقٌ، ورجُلٌ رَحِيمٌ رقيق القلب لكلِّ ذي قُرْبَى ومسلمٍ، وعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذو عيال. قال: وأهل النار خمسةٌ

تخشى إلا الله، وهطا هو المناسبُ لمعرفتهم بالله، وأنه ليس في الوجود فاعل، ولا خالق إلاَّ هو، وخصوصاً لأولي العزم مِنَ الرُّسل، وخصوصاً لمحمد وموسى ـ صلى الله عليهما ـ ويرتفعُ التعارض من وجهين:

أحدهما: أن ذلك الخوفَ كان منهما في بدايتهم قبل تمكُّنهم وإعلامهم بحميد عواقب أحوالهم، وقَبْل تأمينهم، فلما مُكِّنوا وأمنوا لم يخشوا إلا الله، ولذلك كان النبيُّ ﷺ في أول أمره يُحْرَس، وهو في منزله، فلما أنزل اللَّهُ تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** ﴾ (1) أخرج رأسَه إليهم فقال: «إذهبوا فقد عصمني ربي».

وثانيهما: على تسليم أن يكون ذلك منهم في غير بدايتهم، لكن ذلك الخوفَ هو الذي لا ينفك البشرُ عن فجأته، ووقوع بادرته، حتى إذا راجع الإنسانُ عقلَه، وتدبَّر أمرَه اضمحلَّ ذلك الخوفُ أيَّ اضمحلال، وحصل له مِن معرفة الله وخشيته ما يستحقرُ معه رسوخ الجبال، والله تعالى أعلم.

و(قوله: «استخرجهم كما استخرجوك») أي: أخرجهم كما أخرجوك. والسين والتاء زائدتان كما يقال: استجاب بمعنى أجاب. وقد رواه العذري: كما أخرجوك. وهذا يدلُّ على أنَّ هذا القولَ صَدَر عن النَّبيِّ ﷺ بالمدينة بعد الهجرة؛ فإن أهلَ مكة هم الذين أخرجوه من مكة حتى هاجر إلى المدينة.

و(قوله: «اغزهم نغزك» أي اعزم على غزوهم واشرع فيه نغزك على غزوهم، وننصرك عليهم.

و(قوله: «وابعثْ جيشاً نبعثْ خمسة مثله») هذا يدلُّ على أنَّ هذا كان قبل غزوة بدر؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ كان يومَ بدرٍ في ثلاثمئة من أصحابه ونيف، وقيل: ثلاثة

(1) سورة المائدة الآية 67

الضعيفُ الذي لا زَبر له، والذين هم فيكم تبعاً لا يَبْتغون أهلاً ولا مالاً» ـ

عشر، وقيل: سبعة عشر، فأمدَّه اللهُ تعالى بخمسة آلاف من الملائكة كما نطق القرآن به.

و(قوله: «أهل الجنة ثلاثة») أي: المتأهِّلون لدخولها، الصَّالحون له.

و(قوله: «ذو سلطان مُقْسطٌ، متصدِّقٌ، موفَّق») مقسط وما بعده مرفوعٌ على أنها صفاتٌ لذو، وهي بمعنى صاحب. والمقسط: العادل. والمتصدِّق: المعطي للصَّدقات. والموفَّق: المسدَّد لفعل الخيرات.

و(قوله: «رحيمٌ، رقيقُ القلب لكل ذي قربى ومسكين» رحيم: كثير الرحمة. والقربى: القرابة. ورقيق القلب: ليِّنة عند التذكُّر والموعظة، ويصحُّ أن يكون بمعنى الشَّفيق.

و(قوله: «وضعيف مُتضعَّف») يعني: ضعيفاً في أمور الدنيا، قوياً في أمر دينه، كما قال: «المؤمنُ القويُّ أحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير»[1]. وكما قد ذمَّ الضعف في أمور الدِّين، جعله من صفات أهل النار كما قال: «وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لازبر له». والزَّبْر هنا: العقل. قاله الهرويُّ. وفي الصَّحاح: يقال: ماله زَبر، أي: عقل وتماسُك.

قال الشيخ رحمه الله: وسُمِّي العقلُ زَبراً؛ لأن في أصله هو المنع والزجر. يقال: زبره يزبُره بالضم زَبراً؛ إذ انتهره ومنعه. ولما كان العقلُ هو المانع لمن اتَّصف به من المفاسد والزَّاجر عنها؛ سُمِّي بذلك. وقد قيل في الزَّبْر في هذا الحديث: أنه المالُ، وليس بشيء.

و(قوله: «الذين هم فيكم تبعا لا يَبْتَغُون أهلاً ولا مالاً») هذا تفسيرٌ من النبيِّ ﷺ لقوله أولاً: «الضعيف الذي لا زَبرَ له» فيعني بذلك: أن هؤلاء القوم ضعفاءُ العقول، فلا يسعون في تحصيل مصلحةٍ دنيوية، ولا فضليةٍ نفسية، ولا

---

(1) رواه الإمام أحمد، وابن ماجه.

وزاد هنا في رواية: «ويكون ذلك يا أبا عبد الله؟ قال: نعم؛ والله! لقد أدركتُهم في الجاهلية، وإنَّ الرجل ليرعى على الحيِّ ما به إلا وليدةٌ يطؤها ـ الخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دَقَّ الإخانة، ورجلٌ لايُصبح ولا يُمسي

دينيَّة، بل يُهْملون أنفسَهم إهمالَ الأنعام، ولا يُبالون بما يثبون عليه من الحلال والحرام، وهذه الأوصافُ الخبيثةُ الدنيئة هي أوصافُ هذه الطَّائفة المسمَّاة بالقلندرية[1].

و(قوله: قلت: ويكون ذلك يا أبا عبد الله؟ قال: نعم! والله لقد أدركتهُم في الجاهلية، وإن الرجلَ ليرعى على الحيِّ ما به إلا وليدتهم يطؤها) هذا القائلُ هو قتادة. وأبو عبد الله هو مُطرِّف بن الشخِّير الذي روى عن عِياض بن حمار. ويدلُّ هذا على أنَّ مُطرِّفاً أدركَ الجاهلية، وأنَّه صحابيٌّ، وإن لم يذكره أبو عمر في «الصَّحابة»، وكان حقُّه أن يذكره؛ لأن من شرطه أن يذكرَ من وُلد في زمن النبيِّ ﷺ ومطرِّف وُلد في زمانه ﷺ على ما قاله ابنُ قتيبة وغيرُه. والحيُّ: القبيل. والوليدةُ: الأمة، ووجدتُ مقيداً في أصل أبي الصبر، معتنى به، مصحَّحاً عليه: «إلا وليدتَهم» بفتح التاء، ووجهُه أنه استثناء من مستثنى محذوف، تقديره: ما به شيء أو حاجة إلا وليدتهم. ووقع في بعض النسخ: إلاَّ وليدة، غير مضاف.

و(قوله: «والخائن الذي لا يخفى له طمعٌ ـ وإن دقَّ ـ إلا خانه») الخائن: هو الذي يأخذُ مما اؤتمن عليه بغير إذن مالكه، ويخفى له ـ هنا ـ بمعنى يظهر كما قال[2].

خَفاهُنَّ مِنْ أنْفاقِهِنَّ كَأنَّما ... خَفاهُنَّ وَدْقٌ مِنْ عَشِيٍّ مُجَلِّبِ

أي: أظهرهن. وخفي من الأضداد. يقال: خفيت الشيء أي: أظهرته وسترته. قاله أبو عبيد.

---

(1) طريقة صوفية، أسَّسها قلندر يوسف العربي الإسباني.

(2) هو الشاعر: امرؤ القيس.

إلا وهو يخادِعُك عن أهلك ومالك ـ وذكر البخل والكذب ـ والشِّنْظِيرُ الفَحَّاشُ».

و(قوله: «وذكر البخل والكذب») هكذا الروايةُ المشهورةُ فيه بالواو الجامعة، وقد رواه ابن أبي جعفر عن الطبري بأو التي للشك. قال القاضي: ولعله الصواب. وبه تصحُّ القسمةُ؛ لأنه ذَكَر أنَّ أصحابَ النار خمسةٍ: الضعيف الذي وصف، والخائن الذي وصف، والرجل المخادع الذي وصف. قال: وذكر البخل والكذب، ثم ذكر الشِّنظير الفحَّاش، فرأى هذا القائلُ أن الرابعَ هو صاحبُ أحدِ الوصفَيْن، وقد يحتملُ أن يكونَ الرابعُ مَن جَمَعهما على رواية واو العطف، كما جمعها في الشّنظير الفحّاش. وكذلك قوله: «أهلُ الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدِّق موفَّق، ورجلٌ رحيم رقيقُ القلب لكل ذي قربى ومسكين، وعفيف متعفّف ذو عيال». قال: كذا قيَّدناه بخفض مسلم عطفاً على ما قبله، وفي رواية أخرى: «ومسلم عفيف» بالرفع وحذف الواو.

قلتُ: العفيفُ: الكثير العفَّة، وهي الانكفافُ عن الفواحش، وعمَّا لا يليق. والمتعفف: المتكلِّف للعفَّة. والشَّنظير: السَّيِّىء الخُلُق، في الصحاح: رجل شنظير وشنظيرة، أي سيِّىء الخلق. قالت امرأة من العرب:

شِنْظِيـــرَةٌ زَوَّ جَنِيـــهِ أَهْلِي
مَنْ حُمْقِهِ يَحْسَبُ رَأْسِي رِجْلِي
كَـــأَنَّهُ لَمْ يَرَ أُنْثَى قَـــبْلِي!!

وربما قالوا: شنذيرة ـ بالذال المعجمة ـ لقربها من الظاء لغة، أو لُثْغَة. والفحَّاش: الكثير الفحش. وقيل: الشِّنظير: هو الفحاش. قال صاحبُ «العين»: يقال: شَنْظَرَ بالقوم: شتم أعراضَهم. والشنظير: الفحاش من الرجال الغَلْق، وكذلك من الإبل.

وعن حارثةَ بن وهبٍ الخزاعيِّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأهل الجنَّة؟ كلُّ ضعيفٍ مُتَضَعَّفٍ، .....

و(قوله: «ألا أخبركم بأهلِ الجنَّة: كلُّ ضعيف مُتضعَّف») الصحيحُ في مُتَضَعَّف - فتح العين - على أنه اسم مفعول، وكذا وجدتُه في كتاب الشيخ أبي الصبر، ويعني بذلك: أنَّ الغالبَ على صفة أهل الجنة الضعيف عن نيل الدنيا، ومالها، وجاهها، ومناصبها، وإيثار الخمول والتواضع فيها، يلبسون زَرِيَّ الملابس، ولا يلتفتون إلى فاخر المراكب، ولا إلى صدور المجالس، علْماً منهم بأنهم على جادَّة سفر، وأن الدُّنيا ليست بمقرٍّ، فأحوالُهم أحوالُ المسافرين المرملين. فَهُمْ كما وصفهم النبيُّ ﷺ بقوله: «رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبرَّه»، والأشعث: المتلبِّد الشَّعر، والأغبر: الذي عَلَتْهُ غبرة الغبار. والأطمار: الثياب الرثة. ولا يُؤبه له: لا يُلتفت إليه. يُقال: فلان لا يُؤبه، ولا يُؤبه له؛ أي: لا يُبالي به. ابن السِّكيت: ما وَبِهت به، وما وبهت له؛ أي: ما فطنت له. وأنت تيْبَه بكسر التاء مثل تيجَلُ؛ أي: تُبالي. فإن قيل كيف تكون هذه أوصاف أهل الجنة، وكيف تُحمد هذه الأوصاف، وقد أمر الشرع بالنظافة والزينة في الجُمَع والأعياد والتطيب وملن النبي ﷺ يتطيب ويتنظف ويتزين للوفود وللجمع والأعياد. قلنا: لا تناقضَ بين هذا، وبين ما وصفَ به النبيُّ ﷺ أهلَ الجنة، فإنَّه ﷺ إنما وصفَ هؤلاء القوم بأغلب أحوالهم. وغالبُ أحوالهم: ملازمة الأسفار الشرعية من الحجِّ والجهاد، والسِّياحة في الأرض، والفرار بأديانهم من الفتن. ومع ذلك كله فيتنظفون النظافة الشرعية، ويتزيَّنون التزيُّن الشرعيَّ إذا حضرَ وقتُه، وأمكنَهم ذلك، ويحضرون جماعات المسلمين وجُمُعاتهم. فهم مع الناس كائنون، وعنهم بائنون، داخلون في غمارهم، ومستترون بخمولهم وأطمارهم، وقد توجَّهوا إلى الحقِّ، وأعرضوا عن الخلق. وعلى الجملة فمقصودُ هذا الحديث أنَّ أحْوالَ أهل الجنة على النقيض من أحوال أهل النَّار، ألا ترى أنه قابلَ صفات أهل الجنة وذكر نقائضها في أهل النَّار؛ فقال: وأهلُ النَّار كلُّ جوَّاظ، زنيم، متكبِّر، عُتُلٍّ. فالجوَّاظ: الجَمُوع المَنُوع. حكاه الهروي. وقال غيره: الكثير اللحم

لو أقسم على الله لأبرَّه. ألا أخبركم بأهل النار؟ كلُّ جوَّاظٍ، زنيمٍ، متكبرٍ».

وفي رواية: «عتل» ولم يذكر «زنيم».

المختال، يُقال: جاظ يجوظ جَوْظاً: إذا كان كذلك. وقال ابن دُريد: هو الجافي القلب. والعُتُلْ: قيل: الجافي الشديد الخصُومة. وقيل: هو الأكول الشَّروبُ الظلوم. والعَتْلُ: هو العُنف. ومنهُ سُمِّيت القِسيُّ الفارسية: عُتْلاً لشدَّتها والزنيم هنا: هو الذي يُعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها، وقيل: هو اللئيم. وأما الزنيم المذكورُ في الآية فقيل: إنه رجل بعينه له زَنَمةٌ كزَنَمة التَّيْس، وهي الغديرة المتعلِّقة بعنقه. وقيل: هو الوليد وكان له زنمة تحت أذنه، وقيل: هو المُلْصَقُ بالقوم وليس منهم، وقيل: هو الأخنسُ بن شَريق. وكان خليفاً مُلْحَقاً. والمُتكَبِّر: الموصوف بالكبر المستعمل له، وقد بيَّنا الكِبر فيما تقدَّم.

و(قوله: «ربَّ أشعثَ مدفوع بالأبواب») أصلُ ربِّ للتقليل وقد تأتي للتكثير. وقد جاءت كذلك في شعر أمرىء القيس كثيراً. قال:

فَيا رُبَّ مَكْرُوبٍ كَرَرْتُ وَراءَهُ وَعَانٍ فَكَكْتُ الغُلَّ عَنْهُ فَفَدَّانِي

وقال:

وَيا رُبَّ يَومٍ قَدْ لَهَوْتُ وَلَيْلَةٍ بِآنِسَةٍ كَأَنَّها خَطُّ تِمْثَالِ

ومثله كثير قصدَ به مدحَ نفسه، ولا يُتمدَّح بالقليل النادر، بل: بالكثير المتكرر. وتصلح ربَّ في هذا الحديث أن تُحمل على الكثير، فكأنه قال: كثير ممن يكون هذا حالُه لو أقسمَ على الله لأبرَّه.

و(قوله: «مدفوعٍ بالأبواب») أي: عن أبواب الملوك والكبراء، فلا يُسمع له قول، ولا تُقضى له حاجة؛ لكونه لا يُعرف. ورَثُ الهيئة؛ أي: زَرِيُّها بحيث تحتقره العينُ.

وعن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «رُبَّ أشْعَثَ مَدْفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبرَّهُ».

وعنه؛ عن النَّبيّ ﷺ قال: «يدخلُ الجنّة أقوامٌ أفئدتُهم مثلُ أفئدة الطَّير».

* * *

و(قوله: «لو أقسمَ على اللهِ لأبرَّه») قيل فيه: لو دعا لأجابَه.

قال الشيخ رحمه الله: وهذا عدولٌ عن أصل وضع الكلام من غير ضرورة. بل: هو على أصله، وقد دلَّ على هذا ما تقدَّم من حديث أم الرُّبَيِّع حيث قال أنس بن النضر: والله تُكسرُ ثنيَّة الرُّبَيِّع، ثم لما رضي الطالب بالدِّية. قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من عبادِ الله من لو أقسمَ على الله لأبرَّه».

و(قوله: «يدخلُ الجنَّة أقوامٌ أفتدتُهم مثلُ أفئدة الطير») يُحتمل أن يقال: إنما شبهها بها لضعفها ورقَّتها، كما قال في أهل اليمن: «هم أرقُّ قلوباً، وأضعفُ أفئدةً». ويحتمل أنه أرادَ بها أنها مثلها في الخوف والهيبة، والطير على الجملة أكثر الحيوانات خوفاً وحذراً، حتى قيل: أحذرُ من غراب. وقد غلبَ الخوفُ على كثير من السَّلفِ حتى انصدعتْ قلوبُهم فماتوا.

* * *

باب في صفة الجنة وما أعد الله فيها

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقولُ الله عزَّ وجلَّ: أعددت لعبادي الصَّالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذُنٌ سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر ذُخْراً، بَلْهَ ما أطْلَعكم الله عليه»، ثم قرأ: ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ**﴾.

وعنه؛ عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ في الجنَّة لشجرةً يسير الراكب في ظلِّها مئة عام لا يقطعها».

ومن باب: صفة الجنة وما أعدَّ الله فيها

(قوله: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر») «ذُخراً»: الرواية المشهورة بالدال المعجمة المضمومة، أي: مذخراً، وهو مصدر، يقال: ذخرت الشيء أذخره ذخراً، وادَّخرته أدَّخرَه ادِّخاراً بالإدغام هو افتعلت، ووقع في طريق الفارسي ذكراً بالكاف، ولبعضهم «ذخر» بغير تنوين، وليسا بشيءٍ. ومعنى هذا الكلام: أن الله تعالى ادخَّر في الجنة من النعيم، والخيرات، واللذات ما لم يطلع عليه أحدٌ من الخلق، لا بالإخبار عنه، ولا بالفكرة فيه. وقد تعرَّض بعضُ الناس لتعيينه، وهو تكلُّف ينفيه الخبرُ نفسه، إذ قد نفى علمه والشعور به عن كل أحدٍ. ويشهد له، ويحقِّقه قولُه: «بله ما أطلعكم الله عليه» أي: دَعْ ما أطلعكم عليه. يعني: أنَّ المعدَّ المذكور غير الذي أطلع عليه أحداً من الخَلْق. وبَلْه: اسمٌ من أسماء الأفعال بمعنى: دع. هذا هو المشهور فيها، وقيل: هي بمعنى غير، وهذا تفسير معنًى.

و(قوله: «إنَّ في الجنة لشجرةً يسيرُ الراكبُ الجوادَ المضمَّر السَّريعَ مئةَ عام لا يقطعُها») الرواية التي لا يعرف غيرها الراكبُ مرفوع، فاعل يسير، والجواد منصوب مفعول بيسير، والمضمَّر: نعته، وكذلك السَّريع، ومعناه: يُجْري الراكبُ فرسَه السريعَ الذي قد ضُمِّرَ هذه المدَّة فلا يقطُعها، وقيل: هي شجرةُ طوبى، والله تعالى أعلم. وقد تقدَّم القولُ في تضمير الخيل في كتاب الجهاد. ومعنى ظلّها: نعيمها وراحتها، من

ومن حديث أبي سعيد: «يسير الراكبُ الجوادَ المضمَّرَ السَّريعَ مئةَ عام...».

وعن سهل بن سعدٍ السَّاعدي، قال: شهدتُ مِنْ رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنَّة حتى انتهى، ثمَّ قال في آخر حديثه: «فيها مالا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَر على قلب بشرٍ». ثم اقترأ هذه الآية: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (1).

وعن أبي سعيدٍ الخدري، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إنَّ الله يقول لأهل الجنَّة: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك! فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب! وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك! فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب! وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

* * *

قولهم: عيش ظليل، وقيل: معنى ظلها: ذراها، وناحيتها، وكَنَفها، كما يقال: أنا في ظلِّك، أي: في كنفك، وحوطتك.

قال الشيخ رحمه الله: والذي أحوجَ إلى هذين التأويلين أن الظِّلَّ المتعارفَ عندنا إنما هو وقايةٌ عن حَرِّ الشمس وأذاها، وليس في الجنة شمس، وإنما هي أنوارٌ متوالية لا حرَّ فيها. ولا قرَّ، بل: لذَّات متوالية، ونِعَم متتابعة.

و(قوله: «أُحِلُّ عليكم رضواني») أي: أوجبُ لكم رضائي، فلا يزولُ عنكم أبداً دائماً لا انقطاعَ له بوجهٍ من الوجوه، وقد أكّد ذلك بقوله: «فلا أسخطُ عليكم بعده أبداً».

* * *

---

(1) سورة السجدة الآيات 16 و17

باب في غرفِ الجنَّة وتربتها وأسواقِها

عن سهلِ بن سعدٍ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ : «إنَّ أهل الجنَّة ليتراءون أهلَ الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكبَ الدريَّ الغابرَ من الأفق؛ من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم». قالوا : يا رسول الله!

ومن باب : غُرَف الجنة

(قوله : «إن أهل الجنة ليتراءون أهلَ الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكبَ الدُّرِّيَّ») يعني : أنَّ أهلَ السُّفل من الجنة ينظرون إلى مَن فوقهم على تفاوت منازلهم، كما ينظر مَنْ على الأرض درارِيَّ السماء على تفاوتِ منازلها، فيُقال : هذا منزلُ فلان، كما يُقال : هذا المشتري مثلاً، أو الزهرة، أو المريخ. وقد بيَّن ذلك بقوله : لتفاوت ما بينهما. وسُمِّي الكوكبُ دُرِّياً لبياضه وصفائه، وقيل : لأنه شُبِّه بالدرِّ في صفائه.

و(قوله : «الغابر من الأفق، من المشرق أو المغرب») الرواية المشهورة : الغابر بواحدة، ومعناه الذاهب والباقي على اختلاف المفسرين، وغبر من الأضداد. يقال : غبر إذا ذهب، وغبر إذا بقي، ويعني به : أن الكوكبَ حالةَ طلوعه وغُروبه بعيدٌ عن الأبصار فيظهر صغيراً لبعده، وقد بيَّنه بقوله : في الأفق من المشرق أو المغرب، والأفق : ناحية السماء، وهو بضم الهمزة والفاء وبسكونها، كما يقال : عُشْرٌ وعُشُر، وجمعه : آفاق وقد قيَّدنا تلك اللفظةَ على مَن يُوثق به : الغائر ـ بالهمز ـ : اسم فاعل من غار. وقد رُوي في غير مسلم الغارب بتقديم الراء، ويُروى : العازب بالعين المهملة والزاي؛ أي : البعيد، ومعانيها كلها متقاربة. ومن الأفق : رويناه بـ(من) التي لابتداء الغاية، وهي الظرفيَّة، وأما من المشرق، فلم يُرْوَ في كتاب مسلم إلا بـ(من). وقد رواه البخاري في المشرق بـ(في) وهي أوضح، فأما مَن رواهما بـ(من) في الموضعين فأوْجَهُ ما فيهما أن تكون الأولى لابتداء الغاية، والثانية بدل منها مُبيِّنة لها. وقيل : إنها في قوله من المشرق لانتهاء الغاية، وهو خروجٌ عن أصلها، وليس معروفاً عند أكثر النَّحويين.

تلك منازل الأنبياء؛ لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى! والذي نفسي بيده! رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين».

وعن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ لابن صائد: «ما ترابُ الجنة؟، قال: دَرْمكةٌ بيضاءُ مسكٌ يا أبا القاسم! قال: «صدقتْ!».

وعنه؛ أنَّ ابن صيَّادٍ سأل النَّبيَّ ﷺ عن تُربَة الجنّة؟ قال «دَرْمكَةٌ بيضاء مسْكٌ خَالصٌ».

و(قولهم: تلك منازلُ الأنبياء لا يبلغُها غيرهم؟ قال: «بلى! والذي نفسي بيده، رجالٌ امنوا بالله وصدَّقوا المرسلينش) كذا وقع هنا هذا الحرف. بلى؛ التي أصلها حرفُ جواب وتصديق، وليس هذا موضعُها؛ لأنهم لم يستفهموا، وإنما أخبروا أن تلك المنازل للأنبياء لا لغيرهم. فجوابُ هذا يقتضي: أن تكون (بلى) التي للإضراب عن الأول وإيجاب المعنى للثاني، فكأنه تُسومح فيها، فوضعتْ بلى موضع بل. ورجالٌ مرفوع بالابتداء المحذوف، تقديره: هم رجال. وفيه أيضاً توسُّعٌ؛ أي: تلك المنازل منازل رجال آمنوا بالله؛ أي: حقّ إيمانه، وصدَّقوا المرسلين؛ أي: حقّ تصديقهم، وإلا فكلُّ مَنْ يدخل الجنة آمَنَ بالله، وصدَّق رُسُله، ومع ذلك فَهُمْ متفاوتون في الدرجات، والمنازل، وهذا واضح.

و(قوله ﷺ لابن صياد: «ما تُربة الجنة») هذا نصٌّ في أنَّ النبيَّ ﷺ هو السَّائل لابن صياد عن تُرْبة الجنة، وفي الرواية الأخرى: أن ابنَ صياد هو الذي سألَ النَّبيَّ ﷺ عن ذلك، فهاتان روايتان، والواقع منهما إحداهما، والله أعلم. وكيفما كان فالخبرُ عن تُرْبة الجنة صدْق وصحيح؛ لأنه إن كان الجوابُ من النبيِّ ﷺ فهو حقٌّ، إذ الكذبُ عليه مُحال، وإنْ كان ابنُ صياد هو الذي قاله فقد علمنا صحةَ ذلك من جهة أنَّ النبيَّ ﷺ صَدَّقه في ذلك، ويكون ابنُ صيادٍ علم ذلك من جهة ما ألقاه إليه شيطانُه من الكلمات التي استرقَ سَمْعها؛ لأنَّ ابنَ صياد كان من الكهَّان على ما يأتي في حديثه. والدرمكة: دقيق الحوَّارى. شبَّه تربةَ الجنة به في حُسْن لونها، ونعيمها، وشبَّه رائحتَها بالمسك، وهذا تشبيهُ تقريبٍ، وأين الثريا من الثرى؟!.

وعن أنسٍ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إنَّ في الجنةِ لسُوقاً يأتونها كلَّ جُمُعَةٍ فَتَهُبُّ ريحُ الشَّمال، فتحثو في وجوهِهم وثيابِهم، فيزدادون حسناً وجمالاً، فيرْجعُون إلى أهْليهم، وقد ازدادوا حسناً، فيقول لهم أهْلوهم: والله لقد ازْدَدْتم بعدنا حسناً وجمالاً! فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً!».

* * *

و(قوله: «إن في الجنة لسوقاً يأتونها كلَّ جمعة») السوق: يُذكَّر ويُؤَنَّث، وسُمِّي سوقاً لقيام الناسِ فيها على ساق، وقيل: لسَوْق الناس بضائعهم إليها فيحتمل أن يكون سوقُ الجنة عبارة عن مجتمع أهل الجنة، ومحلّ تزاورهم، وسُمِّي سوقاً بالمعنى الأول، ويؤيِّد هذا أنَّ أهلَ الجنة لا يفقدون شيئاً حتى يحتاجوا إلى شرائه من السوق، ويحتمل أن يكون سوقاً مشتملاً على محاسن مشتهيات مستلذَّات تجمعُ هنالك مرتَّبة مُحسَّنة، كما تُجمع في الأسواق، حتى إذا جاء أهلُ الجنة فرأوها، فمن اشتهى شيئاً وصل إليه من غير مبايعة ولا مُعارضة، ونعيم الجنة وخيرها أعظم وأوسع من ذلك كلِّه، وخُصَّ يومُ الجمعة بذلك لفضيلته، ولما خصَّه اللَّهُ تعالى به من الأمور التي تقدَّم ذِكْرُها؛ ولأنه يومُ المزيد، أي: اليوم الذي يُوَفَّى لهم ما وُعِدوا به من الزيادة. وأيامُ الجنة تقديرية؛ إذ لا ليل هناك ولا نهار، وإنما هناك أنوار متواليةٌ لا ظلمةَ معها، على ما يأتي إن شاء الله عالى.

و(قوله: فتهبّ ريح الشَّمال فتحثو في وجوههم وثيابهم») ريحُ الشَّمال في الدنيا: هي التي تأتي من دُبُر القبلة من ناحية الشام، وهي التي تأتي بلاد العرب بالأمطار، فهي عندهم أحسنُ الأرياح، فلذلك سمِّي ريح الجنة بالشمال. وفي الشمال لغات. يقال: شمال، وشمال، وشمل، وشمول. حكاها صاحب «العين». ويقابلها: الجنوب، وقد سُمِّيت هذه الريحُ في حديثٍ آخر بالمثيرة؛ لأنها تثيرُ النعيم والطِّيب على أهل الجنة.

باب في الجنة أكلٌ وشربٌ ونكاحٌ حقيقةً ولا قدر فيها ولا نقص

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إنَّ أول زمرةٍ يدخلون الجنَّة ـ في رواية : من أمتي ـ على صورة القَمَرِ ليلة البدر، ثم الذين يلونَهُم على أشدِّ كوكبٍ دريٍّ في السماء إضاءةً» . ـ في روايةٍ : ثم هم بعد ذلك منازل ـ لا يبولون، ولا يتغوَّطون، ولا يَتْفلُون، ولا يمتخطون، أمشاطُهم الذهبُ ـ. في رواية : والفضة ـ ورشحهم المسكُ، ومجامرهم الأَلُوَّةُ، وأزواجُهم الحورُ العين.

و(قوله : «أول زمرج يدخلون الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر») الصورة، بمعنى الصفة، يعني : أنهم في إشراقٍ وجوههم على صفة القمر ليلةَ تمامه، وكماله، وهي ليلةُ أربعة عشر، وبذلك سُمِّي القمر بَدْراً في تلك الليلة، ومُقْتضى هذا أنَّ أبوابَ الجنة متفاوتةٌ بحسب درجاتهم.

و(قوله : «لا يبولون، ولا يتغوَّطون، ولا يتفلون، ولا يمتخطون») إنما لم تصدرْ هذه الفضلاتُ عن أهل الجنة؛ لأنها أقدارٌ مستخبثة، والجنة مُنزَّهةٌ عن مثل ذلك، ولَمَّا كانت أغذيةُ أهل الجنة في نهاية اللطافة، والاعتدال، لم يكن لها فضلةٌ تُستقذر، بل تُستطاب وتُستلذ، وهي التي عبَّر عنها بالمسك كما قال : «ورشحهم المسك» . وقد جاء في لفظ آخر : «لا يبولون، ولا يتغوَّطون، وإنما هو عَرَقٌ يجري من أعراضهم مثل المسك» يعني : من أبدانهم.

و(قوله : «أمشاطهم الذهب والفضة، ومجانرهم الأَلُوَّة») يقال هنا : أيُّ حاجة في الجنة للأمشاط، ولا تتلبد شعورهم ولا تتَّسخ، وأي حاجة للبخور وريحهم أطيبُ من المسك؟ ويُجاب عن ذلك : بأن نعيم أهل الجنة وكسوتهم ليس عن دَفْع ألم اعتراهم، فليس أكلُهم عن جوع، ولا شرابُهم عن ظمأ، ولا تطيُّبهم عن نتنٍ، وإنما هي

وفي رواية: «لكلٍّ واحدٍ منهم زوجتان يُرى مخُّ سوقهما من وراء

لذَّاتٌ متوالية، ونعَمٌ متتابعة. ألا ترى قوله تعالى لآدم: ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُا فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴾ [1]. وحكمةُ ذلك أن الله تعالى نعَّمهم في الجنة بنوع ما كانوا يتنعَّمون به في الدُّنيا، وزادهم على ذلك ما لا يعلمه إلا الله كما قدمناه. وقد تقدَّم الكلامُ في الألُوَّة وفي لغاتها، وأنها: العود الهنديُّ في كتاب الطب.

و(قوله: «وأزواجهم الحور العين») الحور: جمع حوراء. والحَورَ في العين: شدَّة بياضها في شدَّة سوادها. وهذا المعروفُ. قال أبو عمرو: الحَوَر أن تسودَّ العين كلُّها مثل أعين الظِّباء والبقر. وليس في بني آدم حَوَرٌ، وإنما قيل للنساء: حورُ العين لأنَّهن تشبهن بالظباء والبقر. قال الأصمعي: ما أدري ما الحَورَ في العين. والعِين: جمع عيناءُ، وهي: الواسعة العين. وفي الصحاح: رجل أعين: واسع العين، والجمع: عِين، وأصله فُعل بالضم، ومنه قيل لبقر الوحش: عِين، والثور أَعْيَن، والبقرة عيناء.

و(قوله: «لكلٍّ واحدٍ منهم زوجتان») [2] يعني: أن أدنى من في الجنة درجة له زوجتان، إذ ليس في الجنة أعزب، كما قال. وأما غَيْرُ هؤلاء فمن ارتفعت منزلته فزوجاتهم على قدر درجاتهم كما يأتي في قوله: «في الجنة دُرَّة طولها ستون ميلاً، في كلِّ زاوية منها أهلٌ للمومن ما يَرَوْن الآخرين». وبهذا يُعْلَم: أنَّ نوعَ النساء المشتمل على الحُور والآدميات في الجنة أكثر من نوع رجال بني آدم، ورجال بني آدم أكثر من نسائهم، وعن هذا قال ﷺ: «أقلُّ ساكني الجنة نساء، وأكثر ساكني جهنم النساء» يعني: نساء بني آدم هُنَّ أقلّ في الجنة وأكثر في النار.

و(قوله: «يُرى مخ ساقها من وراء اللحم») يعني: من شدَّة صفاء لحم الساقين، فكأنه يرى مخّ الساقين من وراء اللحم، كما يرى السِّلك في جوف الدُّرَّة الصافية.

---

(1) سورة طه الآيتان 118 ـ 119

(2) قف على مقدمة دليل الخيرات للجزولي فان فيه حديثاً ينزع الى هذا المعنى...

اللحم من الحُسنِ، لا اختلاف، ولا تباغض، قلوبهم قلبُ واحدٍ، يسبحون الله بكرة وعشياً».

وفي روايةٍ: «أخلاقُهم على خُلُقِ رجلٍ واحدٍ، على طول أبيهم».

وفي روايةٍ: «على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السَّماء».

و(قوله: «قلوبُهم قلبٌ واحد») أي: كقلبٍ واحدٍ، يعني: أنها مطهَّرة عن مذموم الأخلاق، مكملَّة بمحاسنها، فلا اختلافَ بينهم، ولا تباغض.

و(قوله: «يسبِّحون اللهَ بُكرة وعشياً») هذا التسبيحُ ليس عن تكليفٍ وإلزام؛ لأنَّ الجنة ليست محلَّ تكليف، وإنما هي محلُّ جزاء، وإنما هو عن تيسيرٍ وإلهام، كما قال في الرواية الأخرى: «يُلْهَمُون التسبيح، والتحميد، والتكبير، كما تلهمون النَّفَس». ووَجْه التَّشبيه: أنَّ تنفس الإنسان لا بُدَّ له منه، ولا كُلفة ولا مشقة عليه في فعْله. وآحادُ التنفيسات مكتسبةٌ للإنسان، وجُمْلتها ضرورية في حقه، إذ يتمكَّن من ضَبْط قليل الأنفاس، ولا يتمكَّن من جميعها، فكذلك يكون ذكْرُ الله تعالى على ألسنة أهل الجنة، وسرُّ ذلك: أنَّ قلوبَهم قد تنوَّرت بمعرفته، وأبصارهم قد تمتّعت برؤيته، وقد غمرتهم سوابغُ نعمته، وامتلأتْ أفئدتُهم بمحلته ومُخاللته. فألسنتهُم ملازمةٌ ذكره، ورهينة بشكرة؛ فإن مَن أحبَّ شيئاً أكثرَ من ذِكره، وقد تقدم: أنَّ أوقات الجنةِ من الأيام والساعات تقديريات.

و(قوله: «أخلاقهم على خُلُق رجل واحد») قد ذكر مسلمٌ اختلافَ الرواة في تقييد خُلُق؛ هل هو بفتح الخاء وسكون اللام، أو بضمها، وكذلك اختلفَ فيه رواةُ البخاري، والذي يناسبُ ما قبله الضم، فيكون معناه: أنَّ أخلاقَهم متساويةٌ في الحسن والكمال. كلُّهم كريمُ الخُلُق؛ إذ لا تباغضَ، ولا تحاسَد، ولا نقص، ويشهدُ له قولُه فيما تقدَّم: «قلوبُهم قلب واحد».

و(قوله: «على طول أبيهم آدم، أو على صورة أبيهم») استئنافُ خبر آخر عنهم، ويحتملُ أن يريدَ به الخَلْق، بالفتح والسكون، ويكون قوله «على طول أبيهم»

وقال أبو كُرَيْبٍ : يعلى خَلْقِ رَجُلٍ» .

وقال أبو هريرة ـ حين تذاكروا : ألرِّجال أكثر في الجنة أم النساء ؟ ـ فقال : «لكلِّ امرىء منهم زوجتان : اثنتان، يُرى مُخُّ سوقِهِمَا من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب» .

وعن جابرٍ، قال : سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول : «إنَّ أهل الجنَّة يأكلون فيها، ويشربون، ولا يَتْفِلون، ولا يبولون، ولا يتغوَّطون ولا يَمْتَخِطون» . قالوا : فما بَالُ الطَّعام؟ قال : «جُشَاءٌ، ورَشْحٌ كرشْحِ المِسْكِ . يلهمون التسبيح، والتحميد» . ـ وفي روايةٍ : والتكبير ـ كما يلهمون النَّفس» .

* * *

وما بعده مفسِّراً لذلك الخَلْق، والأولُ أولى لما ذكرناه، ولأنَّا إذا حملناه عليه استفدنا منه فائدتين، ومن الوجه الثاني فائدةً واحدةً، وحَمْل كلام الشَّارع والفصحاء على تكثير الفوائد أولى، كما قرَّرناه في الأصول .

و(قوله : «ستون ذراعاً في السماء») أي : في الارتفاع، وكلُّ ما علاك فهو سماء، ويعني بذلك : أنَّ الله تعالى أعاد أهلَ الجنة إلى خِلْقه أصلهم الذي هو آدم، وعلى صفته وطوله الذي خَلَقَه اللهُ عليه في الجنة، وكان طولُه فيها ستين ذراعاً في الارتفاع من ذراع نفسه، والله أعلم . ويحتمل أن يكون ذلك الذراعُ مقدراً بأذرعتنا المتعارفة عندنا . ثم لم يزلْ خَلْق ولده وطولهم ينقصُ، كما جاء في الرواية الأخرى .

باب في حُسْن صورة أهل الجنَّة وطولهم وشبابهم وثيابهم وأن كلَّ ما في الجنة دائم لا يفنى

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خَلَق الله آدم عَلَى صُورته، طوله ستُّون ذراعاً، فلما خلقه قال: اذْهَبْ فسَلِّمْ على أولئك النَّفر - وهم نَفَرٌ من الملائكة جلوس - فاستمع بما يُحيُّونَكَ. فإنَّها تحيَّتُكَ، وتحية ذُرِّيَّتكَ». قال: «فذهب، فقال: «فزادوه: ورحمةُ الله». قال: «وكلُّ من يدخل الجنة على صورة آدم، وطوله ستُّون ذراعا، فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن».

و(قوله: «خلق اللَّهُ آدمَ على صورته») هذا الضميرُ عائدٌ على أقرب مذكورٍ، وهو آدم، وهو أعمُّ، وهذا الأصلُ في عود الضمائر، ومعنى ذلك: أن الله تعالى أوجده على الهيئة التي خلقه عليها لم ينتقلْ في النشأة أحوالاً، ولا تردَّد في الأرحام أطواراً؛ إذ لم يخلقْه صغيراً فكبر، ولا ضعيفاً فقوي، بل خَلَقه رجلاً كاملاً سويّاً قويّاً، بخلاف سُنَّة الله في وَلَده. ويصحُّ أن يكون معناه للإخبار عن أنّ اللَّهَ تعالى خَلَقه يومَ خَلَقه على الصُّورة التي كان عليها بالأرض، وأنه لم يكنْ في الجنة على صورةٍ أُخْرى، ولا اختلفتْ صفاته، ولا صُورته، كما تختلفُ صورُ الملائكة والجنِّ، والله تعالي أعلم. ولو سَلَّمنا: أن الضميرَ عائدٌ على الله تعالى لصحَّ أن يقالَ هنا: إن الصورةَ بمعنى الصفة، وقد بيَّنَاه فيما تقدَّم. وقد ذكرنا في قوله: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر» فإن معناه على صفته من الإضاءة، لا على صُورته من الاستدارة.

و(قوله: «فلما خلقه اللَّهُ قال: اذهبْ فسلِّم على أولئك النَّفر، وهم نفرٌ من الملائكة جلوس») الكلامُ إلى آخره دليلٌ على تأكيد حُكْم السلام، فإنه مما شُرع وكُلِّف به آدم، ثم لم يُنْسَخْ في شريعةٍ من الشرائع، فإنه تعالى أخبره أنها تحيَّته وتحيَّة ذريته من بعده. ثم لم يزلْ ذلك معمولاً به في الأمم على اختلافُ شرائعها، إلى أن انتهى ذلك إلى نبيِّنا محمد ﷺ فَأُمِر به وبإفشائه، وجَعَله سبباً للمحبة الدينية،

وعن أبي سعيد الخدريِّ، وأبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ينادي مناد: إنّ لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسْقَموا أبداً، وإنَّ لكم أن تَحْيَوا فلا تَمُوتُوا أبداً، وإنَّ لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهْرَمُوا أبداً، وأنَّ لكم أن تَنْعمُوا فلا تَبْأسُوا أبداً، فذلك قوله: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وعن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَن يدخل الجنَّةَ يَنْعَمُ ولا ييأس، لا تَبْلَى ثيابُه، ولا يفْنى شبابه».

* * *

باب في خيام الجنة وما في الدنيا من أَنْهَار الجنة

عن أبي موسى الأشعري أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إنَّ في الجنَّة خَيْمةً من لُؤْلؤَةٍ مُجَوَّفةٍ؛ عرضها ستُّونَ ميلاً في كُلّ زاويةٍ منها أهْلٌ ما يَرونَ الآخرين، يطوف عليهم المؤمن».

ولدخول الجنة العليَّة، وهذا كلُّه يشهدُ لمن قال بوجوبه، وهو أحدُ القولين للعلماء، وقد تقدَّم القولُ في ذلك.

و(قوله: «سَيْحان وجيحان والنيل والفرات: كلٌّ من أنهار الجنة») هذه الأنهارُ الأربعةُ: أكبرُ أنهار الإسلام. فالنيل ببلاد مصر، والفرات بالعراق، وسيحان وجيحان ببلاد خراسان، ويقال: سيحون وجيحون. وظهر هذا الحديث: أن أصلَ هذه الأنهار ومادَّتها من الجنة، كما قدَّمناه في أحاديث الإسراء، وقد تقدَّم: أنَّ النيلَ والفراتَ يخرجان من أصل سدْرة المنتهى، وقد نصَّ عليه البخاريُّ. ويحتملُ أن يكونَ المراد: إنها تشبه أنهار الجنة في عذوبتها وبركاتها. وأبْعَدُ من هذا احتمالُ أن يكون المراد بذلك: أن الإيمانَ غمر بلاد هذه الأنهار، وفاض عليها، وأن غالبَ الأجسام المتغذية بهده المياه مصيرُها إلى الجنة.

وفي روايةٍ: قال: «الخيمة دُرّةٌ طولُها في السَّماء ستون ميلاً، في كل زاويةٍ منها أهل للمؤمن ما يرون الاخرين».

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيْحانُ، وجَيْحَانُ، والفُراتُ، والنِّيلُ كلّ من أنهار الجنة».

* * *

باب في صفة جهنَّم وحرِّها وأهوالها وبُعد قعرها أعاذنا الله منها

عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ، قال: قال رسول الله ﷺ «يؤتي بجهنَّم يومئذٍ لها سبعون ألف زمامٍ مع كلِّ زمامٍ سبعون ألف مَلكٍ يَجرُّونَها».

ومن باب: صفة جهنم أعاذنا الله منها

(قوله: «يُؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام، مع كلِّ زمام سبعون ألف ملكٍ يجرُّونها») قد تقدَّم: أنَّ جهنَّم اسمُ علمٍ لنار الآخرة، وكذلك: سقر، ولها أسماء كثيرةٌ ـ أعاذنا الله منها ـ. ويعني: أنها يُجاء بها من المحلِّ الذي خَلَقها اللَّهُ فيه، فَتُدار بأرض المحشر حتى لا يَبقى للجنَّة طريقٌ إلا الصراط، كما دلَّت عليه الأحاديث الصحيحة. والزمام: ما يُزَمَّ به الشيء؛ أي يُشَدُّ ويُربَط، وهذه الأزمَّةُ التي تُساق جهنَّمُ بها أيضاً تمنعُ من خروجها على أهلِ المحشر، فلا يخرجُ منها إلا الأعناق التي أُمرتْ بزَخذ مَن شاء اللَّه أخذه. وملائتها ـ كما وصفهم الله تعالى ـ: ﴿**غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [1]. وأما هذا العددُ المحْصورُ للملائكة فكأنَّه عَدَدُ رؤسائهم، وأما جُملتهم فالعبارةُ عنها ما قال اللهُ تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ**﴾ [2]

---

(1) سورة التحريم الآية 6

(2) سورة المدثر الآية 31

وعن أبي هريرة، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «نارُكم هذه؛ التي يوقد ابن آدم جزءٌ من سبعين جزءاً من حَرِّها».

وعنه؛ قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ إِذْ سَمع وجْبَةً، فقال النَّبيُّ ﷺ: «تَدْرُون ما هذا؟» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم! قال: «هذا حجرٌ رُمِيَ به في النار منذ سَبْعينَ خَرِيفاً فهو يهوي في النار الآن حين انتهى إلى قعرها».

* * *

و(قوله: «ناركم هذه التي يُوقِد ابنُ آدم جزء من سبعين جُزْءاً من نار جهنم») يعني: أنه لو جُمع كلُّ ما في الوجود من النار التي يُوقِدها بنو آدم لكانت جزءاً من أجزاء جهنم المذكورة. وبيانُه: أنه لو جُمع حطبُ الدنيا فوقد كلِّه حتى صار ناراً؛ لكان الجزءُ الواحدُ من أجزاء نار جهنم الذي هو من سبعين جزءاً أشد من حر نار الدنيا كما بينه في آخر الحديث.

و(قولهم: والله إن كانت لكافية)، إن: في مثل هذا الموضع مخففة من الثقيلة عند البصريين، وهذه اللام هي المفرقة بين إن النافية والمخففة من الثقيلة، وهي عند الكوفيين بمعنى ما، واللام بمعنى إلا، تقديره عندهم ما كانت إلا كافية. وعند البصريين: إنها كانت كافية. فأجابهم النبيُّ ﷺ بأنها كما فضلت عليها في المقدار والعدد بتسعة وستين جزءاً فُضِّلت عليها في شدة الحرِّ بتسعةٍ وتسعين ضعفاً.

و(قوله: إذ سمعَ وجبةً) أي: هدَّة، وهي صوت وقع الشيء الثقيل.

و(قوله: «أتدرون ما هذا؟») دليل على أنهم حين سمعوا الوجبة خرقَ الله لهم العادة، فسمعوا ما مُنعَه غيرهم، وإلا فالعادة تقتضي مشاركة غيرهم في سماع هذا الأمر العظيم، ففيه دليل على: أن النار قد خُلقت وأُعِدَّ فيها ما شاء الله مما يُعذب به من يشاء، وهو مذهبُ أهل السنة خلافاً للمبتدعة.

و(قوله: «ضرس الكافر، أو نابُ الكافر مثل أحد... الحديث») إنما عَظُم خلقُه ليعظمَ عذابُه ويتضاعَف. وهذا إنما هو في بعض الكفَّار بدليل: أنه قد جاءت أحاديثُ أُخر تدلُّ على: أن المتكبرين يُحشرون يوم القيامة أمثالَ الذرِّ في صور الرجال، يُساقون إلى سجن في جهنم يُسمَّى: «بُولَس» وقد تقدَّم قوله: «إنَّ أهونَ أهل النار

باب تعظيم جسد الكافر وتوزيع العذاب بحسب أعمال الأعضاء

عن أبي هريرة، قال: رسول الله ﷺ: «ضِرْسُ الكافِر - أو نَابُ الكَافِر - مثل أُحُد. وغِلَظُ جِلْده مَسِيرةُ ثَلاثٍ».

وفي رواية: قال: «ما بين منكبي الكافر في النَّار مسيرةُ ثلاثة أيامٍ للراكب المسرع».

وعن سَمُرَةَ بنِ جندب: أنَّ نبي الله ﷺ قال: «منْهم من تأخذه النَّار إلى كعْبيه، ومنهم مَن تأخذه إلى رُكْبتيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حُجْزَته، ومنهم من تأخذه إلى تَرْقُوته».

وفي روايةٍ: «حِقْوَيْه» مكان «حُجزَته».

* * *

عذاباً مَنْ في رجليه نعلان من نار تغلي منها دماغه، وهو أبو طالب». ولا شك في أن الكفار في عذاب جهنم متفاوتون كما قد عُلم من الكتاب والسنة، ولأنا تعلمُ على القطع والثبات أنه ليس عذاب من قتل الأنبياء والمسلمين، وفتكَ فيهم، وأفسدَ في الأرض وكفرَ مساوياً لعذاب من كفر فقط، وأحسنَ للأنبياء والمسلمين. وهذا البحث ينبني على أنَّ الكفَّار مخاطبون بفروع الشريعة، وقد ذكرنا ذلك في الأصول.

و(قوله: «فمنهم من تأخذُه النَّارُ إلى كعْبيه... الحديث») والحجزة: معقدُ السراويل، والإزار. والتَّرْقُوَة: بفتح التاء وضم القاف، وهي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق. وهذا الحديث أيضاً يدلُّ على: أنَّ أهلَ النار يتفاوتون فيها، ويصحُّ مثل هذا في الكفار كما قلناه في حديث أبي طالب، ويصحُّ أنْ يكونَ ذلك فيمن يُعذَّبُ من الموحِّدين إلا أن الله تعالى يميتهم إماتة، كما صحَّ في الحديث.

* * *

باب ذبح الموت وخلود أهل الجنة وأهل النار

عن أبي سعيدٍ الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجاءُ بالموت». ـ وفي رواية: «إذا دخل أهل الجنة الجنَّة، وأهلُ النار النار ـ يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة! هل تعرفون من هذا؟ فيشرئبون، فينظرون، فيقولون: نعم، هذا الموت! قال:

ومن باب: ذبح الموت

(قوله: «يُجاء بالموت يومَ القيامة كأنَّه كبشٌ أملح») قد تقدَّم الكلام على الأملح في الضحايا، وأنه الذي فيه بياض وسواد، والبياض أكثر، كما قاله الكسائي. وقيل: يحتمل أن تكون الحكمة في كون هذا الكبش أملح لأن البياض من جهة الجنة، والسواد من جهة النار.

قال الشيخ رحمه الله: ظاهر هذا الحديث مستحيل، وذلك أن العقلاء اتَّفقوا على: أن الموت: إما عَرَض مخصوص، وإما نفي الحياة، ولم يذهب أحد إلى أنه من قبيل الجواهر، وأيضاً: فإن المُدْرَك من الموت والحياة إنما هما أمران متضادان متعاقبان على الجواهر، كالحركة وكالسكون، وقد دلَّ على ذلك من جهة السمع قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [1]، فهذا يُبطل قول من قال من المعتزلة: إن الموت عدم الحياة؛ لأن العدم لا يُخلق، ولا يُوجب اختصاصاً للجواهر. واستيفاء المباحث العقلية في علم الكلام. وإذا تقرَّر ذلك استحالَ أن ينقلبَ الموتُ كبشاً؛ لأن ذلك انقلابُ الحقائق وهو محال. وقد تأوَّل الناس ذلك الخبر على وجهين:

أحدُهما: أن الله تعالى خلقَ صورة كبش خلق فيها الموت، فلما رآه أهلُ الجنة وأهلُ النار، وعرفوه، فعلَ الله فيه فعلاً يُشبه الذبح، أعدَمه عند ذلك الفعل حتى يأمنه

---

(1) سورة تبارك الآية 2

ويقال: يا أهل النار! هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون، وينظرون، فيقولون: نعم، هذا الموت. قال: فيؤمر به فيذبح، قال: ثم يقال: يا أهل الجنة! خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار! خلودٌ فلا موت». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وأشار بيده إلى الدنيا.

* * *

أهلُ الجنة، فيزدادوا سروراً إلى سرورهم، ويبأس منه أهلُ النار فيزدادوا حزناً إلى حزنهم، وعلى هذا يدلُّ باقي الحديث، ولا إحالة في شيء من ذلك، ولا بُعدَ.

والوجه الثاني: أنَّ المراد بالحديث تمثيلُ عدم الموت على جهة التشبيه والاستعارة، ووجهه: أنَّ الموتَ لما عُدمَ في حقِّ هؤلاء صار بمثابة الكبش الذي يُذبح فينعدم، فعبَّرَ عنه بذلك، وهذا فيه بُعْدٌ وتحميلٌ للكلام على ما لا يصلح له، والوجه المعني: الأول. والله أعلم. ويَشرئبُّون: يرفعون رؤوسهم ويتشوَّفون ليبصروا ما عُرض عليهم.

و(قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ...﴾ [1]، ومعنى أنذرهم: أعلمهم وحذَّرْهم، والنذارة: إعلام بالشر، والبشارة: إعلام بالخير ويوم الحسرة: يعني به زمنَ ذبح الموت إذا سمعوا: خلودٌ فلا موت. وقُضِيَ: بمعنى أُحكِم وتُمِّم. والأمرُ: يعني به خلود أهل النار فيها.

و(قوله: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [2] استئناف خبر عما كانوا عليه في الدنيا، لا تعلُّق له بما قبله، يدلُّ عليه قوله في الحديث: وأشار بيده إلى الدنيا، يعني أنهم كانوا كذلك في الدنيا، والله تعالى أعلم.

---

(1) سورة مريم الآية 39

(2) سورة مريم الآية 39

باب محاجَّة الجنَّة والنَّار

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: تحاجَّت النَّار والجنَّة، فقالت النار: أُوثِرْتُ بالمتكبرين والمتجبرين! وقالت الجنَّةُ: فما لي لا يدخلني إلا ضُعَفاءُ الناس وسَقَطُهُمْ وعَجَزُهم». - في رواية: «وغِرّتُهُمْ» بدل «وعَجَزُهم» - فقال الله للجنة: «أنت رحمتي أرحمُ بك من أشاء من عبادي! وقال للنار:

ومن باب: مُحاجَّة الجنّة والنَّار

(قوله: «تحاجَّت الجنة والنار، فقالت النار: أُوثرت بالمتكبِّرين... الحديث») ظاهر هذه المحاجَّة: أنها لسانُ مقال، فيكون خَزَنَةُ كل واحد منهما هم القائلون بذلك، ويجوز أن يخلقَ الله ذلك القول فيما شاء من أجزاء الجنة. وقد قلنا فيما تقدَّم: إنه لا يُشترط عقلاً في الأصوات المقطعَّة أن يكونَ محلُّها حيّاً، خلافاً لمن اشترط ذلك من المتكلِّمين. ولو سلَّمنا ذلك لكان من الممكن أن يخلقَ الله في بعض أجزاء الجنة والنار الجماديَّة حياة، بحيث يصدر ذلك القول عنه، والله تعالى أعلم. لا سيما، وقد قال بعضُ المفسِّرين في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [1] إن كل ما في الجنة حيّ. ويُحتمل أن يكونَ ذلك لسان حال فيكون ذلك عبارة عن حالتيهما. والأول أولى، والله تعالى أعلم.

و(قول الجنة: «ما لي لا يدخلُني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وعَجَزُهم»، وفي رواية: وغِرَّتُهم») الضعفاء: جمع ضعيف: يعني به الضعفاء في أمر الدنيا، ويحتمل أن يُريد به هنا الفقراء، وحملُه على الفقراء أولى من حمله على الأول؛ لأنه يكون معنى الضعفاء: معنى العجزة المذكورين بعد. وسقطهم - بفتح السين والقاف -: جمع ساقط وهو النازل القدر، وهو الذي عبَّر عنه بأنه لا يُؤبه له، وأصلُه من سقط المتاع: وهو رديئة. وعَجَزُهم، قال القاضي: هو بفتح العين والجيم جمع عاجز.

---

(1) سورة العنكبوت الآية 64

أنت عذابي أعذِّب بك من أشاء من عبادي، ولكلٍّ واحدةٍ منكما ملؤها! فأمَّا النار فلا تمتلىء، فيضع قدَمَهُ عليها، فتقول: قطِ، قطِ، فهنالك تمتلىء ويُزْوى بعضُها إلى بعضٍ».

وفي رواية: «فأما النَّار فلا تمتلىء حتى يضعَ الله تبارك وتعالى رجله، تقول: قط، قط، قط، فهنالك تمتلىء، ويزوى بعضُها إلى بعضٍ فلا يظلم الله من خلقه أحداً. وأما الجنَّة فإن الله ينشىء لها خلقاً».

قال الشيخ رحمه الله: ويلزمه على ذلك أن يكون بالتاء ككاتب وكتبة، وحاسب وحَسَبة، وسقوط التاء في مثل هذا الجمع نادرٌ، وإنما يُسقطونها إذا سلكوا بالجمع مسلكَ اسم الجنس، كما فعلوا ذلك في سقطهم، وصواب هذا اللفظ: أن يكون عُجَّزُهُم بضم العين وتشديد الجيم، كنحو: شاهد وشُهَّد، وكذلك أذكر أني قرأته: وغَرْثهم: بفتح الغين المعجمة والثاء المثلثة جمع غَرْثان، وهو الجيعان، والغرث: الجوع. وقد رواه الطبري: غِرَّتهم: بكسر الغين وبالتاء باثنتين فوقها، وتشديد الراء: أي غفلتهم، وأهل البَلَه منهم، كما قال في الحديث الآخر: «أكثر أهل الجنة البُلْه» يعني به: عامة أهل الإيمان الذين لم يتفطنوا للشُّبَه، ولم توسوس لهم الشياطين بشيء من ذلك، فهم صِحاحُ العقائد، ثابتو الإيمان، وهم أكثر المؤمنين، وأما العارفون والعلماء والحكماء، فهم الأقلُّ، وهم أصحابُ الدرجات العُلى والمنازل الرفيعة.

و(قوله: «وأما النار فلا تمتلىء فيضعُ قدمَه عليها»، وفي اللفظ الآخر: «حتى يضعَ ربُّ العزة فيها قدمَه»، وفي اللفظ الآخر: «حتى يضعَ اللهُ رجلَه») ولم يذكر لا فيها ولا عليها، وقد ضلَّ بظاهر هذا اللفظ من أذهبَ الله عقلَه، وأعدم فهمَه، وهم المجسِّمة المشبهة، فاعتقدوا: أن لله تعالى رجلاً من لحم وعصب تُشبه رجلنا، كما اعتقدوا في الله تعالى أنه جسمٌ يُشبه أجسامنا ذو وجهٍ وعينين، وجنب ويدٍ ورجل وهكذا... وهذا ارتكاب جهالة خالفوا بها العقول، وأدلة الشرع المنقول، وما كان سلفُ هذه الأمة عليه من التنزيه، عن المماثلة والتشبيه. وكيف يستقرُّ هذا المذهبُ

وعن أنسٍ، عن النبي ﷺ أنَّه قال: «لا تزال جهنَّم يُلقى فيها، وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوي بعضُها إلى بعض،

الفاسد في قلب من له أدنى فكرة، ومن العقل أقلُّ مَسَكة، فإن الأجسامَ من حيث هي كذلك متساوية في الأحكام العقلية، وما ثبتَ للشيءِ ثبت لمثله، وقد ثبت لهذه الأجسام الحدوثُ، قليزم عليه أن يكونَ الله تعالى حادثاً، وهو محالٌ باتفاق العقلاء والشرائع. ثم انظر غفلتهم وجهلَهم بكلام الله تعالى وبمعانيه، فكأنهم لم يسمعوا قوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [1]. ويلزم على قولهم: أن يكونَ كلُّ واحد منا مثلاً له تعالى من جهة الجسمية والحيوانية والجوارح، وغير ذلك من الأعضاء والأعصاب واللحم والجلود والشُّعور، وغير هذا، وكلُّ ذلك جهالات وضلالات، ولله سرٌّ في إبعاد بعض العباد ﴿ **وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾ [2]. وقد تأوَّل علماؤنا ذلك الحديث تأويلاتٍ. وأشبهُ ما فيها تأويلان:

أحدهما: أن النار تتغيَّظ، وتتهيجُ حَنَقاً على الكفَّار والمتكبِّرين والعصاة، كما قال تعالى: ﴿ **تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ** ﴾ [3]، وكما قال: ﴿ **يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ** ﴾ [4]، وكما قال في هذا الحديث: «لا تزالُ جهنم يُلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟»، وكما قال: «تخرجُ عنقٌ من النار فتقول: وُكلت بالجبارين والمتكبِّرين» فكأنها تعلو وتطغى حتى كأنها تجاوز الحد. وفي بعض الحديث: «أنها تكاد أن تلتقمَ أهلَ المحشر فيكسر الله سورتها، وحدّتها، وبردها، ويذلِّلها ذلَّ متكبرٍ وُطِيء بالقدم والرِّجْل»، فعبَّر عن تذليلها بذلك، ويشهد لذلك قوله ﷺ: «فيضع قدمه عليها»، وعلى هذا فيكون «فيها» في الرِّواية الأخرى بمعنى عليها. كما قال: ﴿ **وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ** ﴾ [5] أي: على جذوع النخل.

---

(1) سورة الشورى الآية 11
(2) سورة الرعد الآية 33
(3) سورة تبارك الآية 8
(4) سورة ق الآية 30
(5) سورة طه الآية 71

وتقول: قط قط بعزتك وكرمك! ولا يزال في الجنة فضل حتى يُنشِىءَ اللَّهُ لها خَلقاً، فيُسْكِنَهم فضلَ الجنة».

* * *

وثانيهما: أن القدمَ والرِّجْلَ عبارةٌ عمن تأخَّر دخوله في النار من أهلها، وهم جماعات كثيرة؛ لأن أهلَ النار يلقون فيها فَوْجاً بعد فوج، كما قال تعالى: ﴿ **كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا** ﴾ [1]، ويؤيده قولُه في هذا الحديث: «لا يزال يُلقى فيها» فالخزنةُ تنتظرُ أولئك المتأخِّرين، إذ قد علموهم بأسمائهم وأوصافهم، كما روي عن ابن مسعود أنه قال: ما في النار بيت، ولا سلسلة، ولا مقمع، ولا تابوت إلا وعليه اسمُ صاحبه، فكلُّ واحدٍ من الخزنة ينتظر صاحبَه الذي قد عرف اسمه وصفتَه، فإذا استوفى كلُّ واحدٍ منهم ما أُمِر به، وما ينتظره، ولم يبقَ منهم أحدٌ، قالت الخزنة: قطِ قطِ، أي: حسبنا، حسبنا. اكتفينا، اكتفينا. فحينئذ تنزوي جهنمُ على مَن فيها. أي: تجتمع، وتنطبق إذ لم يبق أحدٌ ينتظر، فعبَّر عن ذلك الجمع المنتظر بالرجل والقدم، كما عبرت العربُ عن جماعة الجراد بالرِّجل، فتقول جاء رجلٌ من جراد أي: جماعة منها. ويشهدُ بصحَّة هذا التأويل قولُه في آخر الحديث: «ولا يزالُ في الجنة فضلٌ حتى ينشىء الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة»، والله بمراد رسوله أعلم، والتسليم في المشكلات أسلم. وقد تقدَّم القولُ في قطَ الزمانية، وأنها مبنيةٌ على الضم مشدّدة ومخفَّفة، وأنها تُقال بفتح القاف وهو الأصلف فيها، ويقال بالضم إتباعاً. وأما قطْ بمعنى حسب فهي مبنيةٌ على السكون، وقد تُكسر، وتلحقها نونُ الوقاية إذا أُضيفت [2]، وتقال: بالدال، ويصحُّ فيها ما يصحُّ في الطاء.

---

(1) سورة تبارك الآية 8

(2) أي: إلى ياء المتكلم. قال الراجز:

امتلا الحوضُ وقال قطني ... سلاً رويداً قد ملأتَ بطني

انظر اللسان مادة (طط).

باب شهادة أركان الكافر عليه يوم القيامة وكيف يحشر

عن أبي هريرة، قال : قالوا : يا رسول الله! هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ قال: « هل تُضارُّون في رؤيَة الشَّمْس في الظهيرة ليست في سحابةٍ؟ »، قالوا: لا، قال: « فهل تضارُّون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة؟ » قالوا: لا، قال: « فوالذي نفسي بيده لا تضارُّون في رؤية ربِّكُم إلا كما تُضارُّون في رؤية أحدهما. قال: فيَلْقَى العَبْدَ فيقول: أي فُلْ! ألم أُكْرِمْكَ،

ومن باب: شهادة أركان الكافر عليه يوم القيامة

وقد تقدَّم القولُ على رؤية الله تعالى في كتاب الإيمان، وعلى قوله: تضارُّون.

(وقوله : « أي فلْ ») هو منادى مُرخَّم ، فكأنه قال: يا فلان، ولا يرخَّم في غير النداء إلا في ضرورة الشعر.

و(قوله : « ألم أكرمْك؟ ») أي : بما فضّلتك به على سائر الحيوانات، كما قال تعالى: ﴿ * وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (1).

و(قوله : « وأسوِّدْك ») أي: جعلتُك سيداً على قومك. والسؤدد: التقدُّم بالأوصاف الجميلة، والأفعال الحميدة.

و(قوله: « وأذَرْك ترأس وتَرْبَع؟ » أي: ألم أتركك تترأس على قومك؟ أي: تكون رئيساً عليهم. وتربع ـ بالموحدة ـ أي: تأخذ المرباع، أي: الربع فيما يحصلُ لقومك من الغنائم والكسب. وكانت عادتُهم: أن أمراءهم يأخذون من الغنائم الربع،

---

(1) سورة الاسراء الآية 70

وأُسَوِّدكَ، وأزوجك، وأسخِّر لك الخيل والإبل، وأَذَرْكَ تَرْأَسُ، وتَرْبَعُ! فيقول: بلى! فيقول: أفظَنَنْتَ أنك مُلاقيَّ؟ فيقول: لا! فيقول: فإنِّي أنساك كما نسيتني! ثم يلقى الثاني، فيقول له مثل ذلك ويقول هو مثل ذلك بعينه. ثم يلقى الثالث، فيقول مثل ذلك، فيقول: يا رب آمنت بك، وبكتابك، وبرسولك، وصلَّيتُ، وصمتُ، وتصدقتُ، ويثني بخيرٍ ما استطاع، قال: فيقول: ها هنا إذاً! ثم يقال له: الآن نبعث شاهداً عليك، فيكفر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ؟ فيُخْتَم على فيه، ويقال لِفَخِذِه: انطقي! فتنطق

ويسمُّونه المرباع. قال قطرب: المرباع: الربع. والمعشار: العشر، ولم يُسْمَعْ في غيرهما. ورواية الجمهور: تربع بالباء، وعند ابن ماهان: ترتع بتاء باثنتين من فوقها، ومعناه تتنعَّم.

و(قوله: «أفظننتَ أنك مُلاقِيَّ؟») أي: أعلمتَ؛ كقوله تعالى: ﴿ **فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا** ﴾ [1] أي: علموا.

و(قوله: «فإني أنساك كما نسيتني») أي: أتركك في العذاب كما تركتَ معرفتي وعبادتي.

و(قوله للثالث: «ها هنا إذاً؟») يعني: أها هنا تكذب وتقول غير الحق؟ وذلك أن هذا المنافقَ أنجاه كذبُه ونفاقُه في الدنيا من سفك دمه، واستباحة ماله، فاستصحب الكذبَ إلى الآخرة، حتى كذَبَ بين يدي الله تعالى.

و(قوله: «فيختم على فيه») أي: يُمْنَعُ من الكلام المكتسب له، وينطقُ لسانه، وسائر أركانه بكلام ضروريٍّ لا كَسْبَ له فيه، ولا قدرة على منعه، كما قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [2] فإذا شهدتْ عليه أركانُه بعمله خُلِّي بينه وبين الكلام المقدور له، فليوم جوارحَه الشاهدةَ عليه بقوله: «ويلكن فعنكنَّ كنت أناضل» أي: أدافعُ وأحتجُّ، والروايةُ المشهورة: «إذاً» التي

---

(1) سورة الكهف الآية 53

(1) سورة النور لآية 24

فخذُه، ولحمُه، وعظامُه بعمله، فذلك لِيُعْذِرَ من نفسه. وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط الله عليه».

وعن أنس بن مالكٍ قال: كنَّا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هل تدرون ممِّا أضحك؟»، قال: قلنا: الله ورسوله أعلم!. قال: «من مخاطبة العبد ربَّه يقول: يا رب! ألم تُجِرْني من الظُّلْم؟»، قال: «فيقول: بلى!»، قال: «فيقول: فإنِّي لا أجيز على نفسي إلا شاهداً منِّي»، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً». قال: «فيُخْتَم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي!»، قال: «فتنطق بأعماله». قال: «ثم يُخَلّى بَيْنه وبين الكلام». قال: «فيقول: بُعْداً لكُنَّ، وسُحْقاً فَنْكُنَّ كنت أناضِلُ».

وعن أنسٍ بن مالكٍ: أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله! كيف يُحشَر الكافرُ على وجهه يوم القيامة؟، قال: «أليس الذي أمشاه على رِجْلَيه في الدُّنيا قادراً على أنْ يمشيه على وجهه يوم القيامة؟!». قال قتادة: بلى وعزة ربِّنا!.

* * *

للتعليل. وقد رواها ابنُ الحذاء: «إذن» والأول أصحُّ وأشهر، وقد سقطت هذه اللفظةُ جملةً عند الصّدفي. واقتصر على: ها هنا. وقيل: معناها: هنا اثبتْ مكانك، كما تقولُ لمن تهدِّده: اثبتْ مكانك حتى أُريك، وما ذكرناه أولى وأسبه، والله تعالى أعلم.

و(قوله: «لِيُعْذِرَ من نفسه») بضم الياء وكسر الذال المعجمة: من أعذر، أي: بالغ في حُجَّة نفسه. يعني أنَّ المنافقَ قال ما قال من ادِّعاء فعْل الخيرات المتقدِّمة.

و(قوله في الرواية الأخرى: «ألم تُجِرْني من الظلم؟»... إلى آخر الكلام..) ليبالغَ في عُذر نفسه الذي يظنُّ أنه ينجيه، يقال: أعذر الرجلُ في الأمر، أي: بالغ فيه، وقد تقدم القولُ في أنَّ أقلَّ ساكني الجنة النساء الآدميات، وأنهن أكثرُ ساكني النار.

باب أكثر أهل الجنة وأكثر أهل النار

عن أسامةَ بنِ زيدٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «قمت على باب الجنَّة فإذا عامَّة من دخلها المساكينُ، وإذا أصحاب الجَدِّ محبوسون؛ إلا أصحاب النَّار فقد أمر بهم إلى النَّار. وقمت على باب النَّار فإذا عامَّةُ من دخلها النِّساء».

وعن أبي التَّيَّاح، قال: كان لمُطرِّف بنِ عبد الله امرأتان، فجَاء من عند إحداهُما، فقالت الأخرى: جئت من عند فلانة؟ فقال: جئت من عند عمران بن حصين، فحدثنا: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إنَّ أقلَّ ساكني الجنَّة النساءُ».

* * *

باب لكل مسلم فداء من النار من الكفار

عن أبي بردة، عن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يومُ القيامة دفع الله إلى كلِّ مسلمٍ يهودياً، أو نصرانياً، فيقول: هذا فكاكك من النَّار».

و(قوله: «إذا كان يوم القيامة دفع اللهُ إلى كلِّ كسلمٍ يهودياً، أو نصرانياً، فيقول: هذا فكاكُك من النار») يعني: مسلماً مذنباً، بدليل الرواية الأخيرة التي قال فيها: «يجيءُ يوم القيامة ناسٌ من المسلمين بذنوبٍ أمثال الجبال». ومعنى كونه فكاكاً للمسلم من النار، وأن اللهَ يغفرُ للمسلم ذنوبَه، ويضاعف للكافر العذاب بحسب جرائمه؛ لأنَّه تعالى لا يُؤاخِذُ أحداً بذنبِ أحد، كما قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (1).

---

(1) سورة الإسراء الآية 15

وفي أخرى: «لا يَمُوتُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ إلا أَدْخَلَ اللهُ مكَانَهُ النَّارَ يَهُودِياً ـ أو نصرانيّا ـ».

قال: فاستحلفه عمرُ بن عبد العزيز: بالله الذي لا إله إلا هو ـ ثلاث مرات ـ أنَّ أباه حدَّثه عن رسول الله ﷺ: قال: فحَلف له:

* * *

و(قوله في الرواية الأخرى: «فيغفرها لهم») أي يسقط المواخذة عنهم بها حق كأنهم لم يذنبوا. ومعنى قوله: «ويضعها على اليهود والنَّصارى» أي أنه يُضاعفُ عليهم عذابَ ذنوبهم حتى يكون عذابُهم بقدر جرمهم وجُرْم مذنبي المسلمين لو أُخذُوا بذلك، وله تعالى أن يضاعفَ لمن يشاءُ العذاب، ويُخفِّفه عمَّن يشاء، بحكم إرادته ومشيئته؛ إذ لا يُسْأَلُ عما يفعلُ وهم يُسْأَلُون. ولما كان خلاصُ المؤمن من ذنوبه عندما يُدْفَعُ له الكافرُ سُمِّي بذلك فكاكاً كما سُمِّي تخليصُ الرهن من يد المرتهن: فكاكاً.

وأما قوله في الرواية الأخرى: «لا يموت مسلم إلا أدخلَ اللَّهُ مكانَه النارَ يهودياً أو نصرانياً»، فيعني بذلك ـ واللَّهُ أعلم ـ أن المسلمَ المذنبَ لما كان يستحقُّ مكاناً من النار بسبب ذنوبه، وعفا اللَّهُ تعالى عنه، وبقي مكانُه خالياً منه أضاف اللَّهُ ذلك المكانَ إلى يهوديّ، أو نصراني ليعذَّب فيه، زيادةً على تعذيب مكانه الذي يستحقُّه بسبب كفره. ويشهدُ لذلك قولُ ﷺ في حديث أنس للمؤمن الذي ثبت عند السؤال في القبر: «فيقال له: أنظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك اللَّهُ به مقعداً من الجنة»، وقد تقدَّم الكلامُ عليه. وإنما احتاج علماؤنا لتأويل ألفاظ حديث أبي موسى المذكور في هذا الحديث لما عارضها من قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾[1]، ولقوله: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى**﴾[2] ولقوله: ﴿**وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى**﴾[3] ولقوله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾[4]

---

(1) سورة الإسراء الآية 15
(2) سورة النجم الآية 39
(3) سورة فاطر الآية 18
(4) سورة المدثر الآية 38

باب آخر من يخرجُ من النار وآخر من يدخل الجنة وما لأدنى أهل الجنة منزلة وما لأعلاهم

عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنِّي لأعْلَمُ آخر أهل النَّار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولاً الجنَّة: رجل يخرج من النَّار حَبْواً، فيقول له الله: اذهب فادخل الجنَّة! فيأتيها، فيخيَّل إليه أنَّها ملأى، فيرجع، فيقول: يا رب! وجدتُها ملأي! فيقول الله تعالى: اذهب فادخل الجنة! فإنَّ لك مثل الدنيا وعشرةَ أمثالها ـ أو: إنَّ لك عَشَرةَ أمثال الدنيا ـ قال: «فيقول: أتسخر بي ـ أو: أتضحك بي ـ وأنت الملك؟»، قال: لقد رأيتُ رسول الله ﷺ ضَحِك حتى بدتْ نواجذُه. قال: فكان يقال: ذاك أدنى أهل الجنة منزلاً.

ولقوله ﷺ: «ألا لا يجني جانٍ إلا على نفسه»، ومثله كثير. وعلى الجملة فهي قاعدةٌ معلومةٌ من الشرع لا يُختلفُ فيها.

و(قوله: «أتسخر مني وأنت المَلِك؟». وفي اللفظ الاخر: «أتستهزىء منِّي وأنت ربُّ العالمين؟») يُحتمل أن يكون هذا القولُ صَدَر من هذا الرجل عند غَلَبة الفَرَح عليه، واستحقاقه إيَّاه، فغلط كما غلط الذي قال: «اللهم أنت عبدي وأنا ربُّك». ويحتمل أن يكون معناه: أتجازيني على ما كان منِّي في الدنيا من الاستهزاء والسخرية بأعمالي وقلَّة احتفالي بها، فيكون هذا على جهة المقابلة، كما قال تعالى: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ﴾ [1]، و﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ﴾ [2]. وقد تقدَّم القولُ في ضحك الله تعالى، وأنه راجعٌ إلى الرضا.

---

(1) سورة البقرة الآية 15

(2) سورة آل عمران الآية 54

وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «آخرُ مَنْ يدخل الجنَّة رجلٌ هو يمشي مرةً، ويكبو مرةً، وتَسْفعُه النَّار مرةً، فإذا ما جاوزها التفت إليها، فقال: تبارك الذي نجَّاني منك! لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين! فترفع له شجرةٌ، فيقول: أي رب! أَدْنِني من هذه الشجرة، فَلأستظلَّ بظلِّها، وأَشْرَبَ من مائها، فيقول الله تعالى: يا ابن آدم! لعلِّي إن أعطيتكها سألتني غيرها! فيقول: لا يا رب! ويعاهده ألا يسأله غيرها، وربُّه يعذِرُه؛ لأنه يرى ما لا صَبْرَ له عليه، فيُدْنيه منها، فيستظلُّ بظلِّها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرةٌ هي أحسنُ من الأولى، فيقول: أي رب! أَدْنِني من هذه لأشرب من مائها، وأستظلَّ بظلِّها، لا أسألك غيرها! فيقول: يا بن آدم! ألم تعاهدني ألا تسألني غيرها؟! فيقول: لعلي إن أدنيتُك منها تسألني غيرها؟ فيعاهده ألا يسأله غيرها، وربُّه يعذِرُه؛ لأنه يرى ما لا صَبْرَ له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها ويشرب من مائها. ثم تُرفعَ له شجرةٌ عند باب الجنَّة أحسنُ من الأُولَيَيْنِ فيقول...» إلى: «فيدنيه منها، فإذا أدناه منها سمع أصواتَ أهل الجنَّة، فيقول: أي ربِّ إدخلنيها. فيقول يا ابن آدم ما يصريني منك؟ أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ فيقول: أي رب! أتستهزىء مني وأنت رب العالمين». فضحك ابن مسعود فقال: ألا تسألوني مِمَّ أضْحَك؟ فقال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ! فقالوا: مِمَّ تضحك يا رسول الله! قال: «مِنْ ضِحْكِ ربِّ العَالَمين. فيقول: إنِّي لا أستهزىء منك، ولكنِّي على ما أشاء قادر».

و(قوله: «يكبو مرة وتسعفه النارُ مرة») أي: يسقط، ويعثر بخطاطيف الصراط وعقباته، وتسفعه: أي: تحرقه، وتغيِّر لونه.

وعن المغيرة بن شعبة ـ رفعه ـ قال : « سأل موسى ـ عليه السلام ـ ربَّهُ، فقال : « يا رب! ما أدنى أهلِ الجنَّة منزلةً؟ قال : هو رجل يأتي بعدما يدخل أهل الجنَّة، الجنَّة، فيقال له : ادخل الجنة! فيقول : أي رب! كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟! فيقال له : أترضى أن يكون لك مثلُ مُلك مَلكٍ مِنْ ملوك الدنيا؟ فيقول : رضيتُ ربي! فيقول : لك ذلك ومثلُه معه، ومِثْلُه، ومِثْلُهُ، ومثله، ومثله، فقال في الخامسة : رضيتُ ربي! فيقول : هذا لك وعَشَرةُ أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك ولَذَّت عَيْنُكَ! فيقول : رضيت ربي! قال : رب! فأعْلاهُم منزلاً؟ قال : أولئك الذين أردت؛ غرستُ كرامتهم بيدي، وختمتُ عليها، فلم تر عينٌ، ولم تسمع أذنٌ، ولم يخطر على قلب بشرٍ» . قال : ومصداقه في كتاب الله عز وجلَّ : ﴿ **فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِن قُرَةِ أَعْيُنٍ...** ﴾ ، وقد روي موقوفا عن المغيرة قوله .

* * *

و(قوله الله تعالى : « ما يصريني منك؟ ») أي : ما يقطع طلبتك، وما بفصلها؟ يُقال : صريت ما بينهم صرياً؛ أي : فصلت، ويُقال : أختصمنا إلى الحاكم فصرَّى بيننا أي : قطع وفضل .

* * *

كتاب الفتن وأشراط السَّاعة

باب إقبال الفتن ونزولها
كمواقع القطر، ومن أين تجيء

عن زينبَ بنت جحشٍ ـ زوج النَّبيِّ ﷺ ـ قالت: خرج رسول الله ﷺ يوماً فَزِعاً مُحْمَرّاً وجْهُهُ يقول: «لاَ إله إلا الله، وَيْلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب!

كتاب الفتن والأشراط

(قوله ﷺ: «ويلٌ للعرب من شرّ قد اقترب») هذا تنبيه على الاختلاف والفتن والهرْج الواقع في العرب، وأولُّ ذلك قتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ ولذلك أخبر عنه بالقرب، ثم لم يزل كذلك إلى أن صارت العرب بين الأمم كالقصعة بين الأَكَلة، كما قال في الحديث الآخر: «أوشكَ أن تداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأَكَلَةُ على قصعتها». قال ذلك مخاطباً للعرب، ولهم خاطبَ أيضاً بقوله: «إني لأرى مواقعَ الفتن خلالَ بيوتكم كمواقعِ القطر».

فُتِح اليومَ من ردم يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه». وحلَّق بإِصْبَعَيْهِ: الإبهامِ والتي تليها.

و(قوله: «فُتح اليومَ من رَدْم يأجوجَ ومأجوجَ مثل هذه») الردم: هو السَّدُّ الذي بناه ذو القرنين على يأجوجَ ومأجوجَ، ويُهمزان ولا يُهمزان لغتان. وقرىء بهما، فمن همزَهما جعلَهما من أجيج النار، وهو ضوءها وحرارتها، وسموا بذلك لكثرتهم وشدتهم. وقيل: من الاجاج وهو الماء الشديد الملوحة، وقيل: هما اسمان أعجميان غير مشتقين. قال مقاتل: هم من ولد يافث بن نوح ـ عليه السلام ـ. الضحَّاك: من الترك. كعب: احتلمَ آدمُ ـ عليه السلام ـ فاختلط ماؤه بالتراب فَأَسفَ، فَخُلقوا من ذلك، وفيه نظر؛ لأن الأنبياء لا يحتلمون. وذكرَ الغزنويُّ في كتابه المسمَّى: بعيون المعاني: أن النبيَّ ﷺ قال: «يأجوج أمَّة لها أربعمئة أمير، وكذلك مأجوج، لا يموت أحدُهم حتى ينظرَ إلى ألف فارس من ولده. صنف منهم كالأرز طولهم مة وعشرون ذراعاً، وصنف يفترش أذنه ويلتحق بالأخرى لا يمرون بفيل ولا خنزير إلا أكلوه ويأكلون من مات منهم. مقدمتهم بالشام وساقتهم بخرسان، يشربون أنهار المشرق، وبحيرة طبرية، فيمنعهم الله من مكة والمدينة وبيت المقدس». وقال عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: وصنف منهم في طول شبر، لهم مخالبُ وأنيابُ السِّباع، وتداعي الحمام، وتسافد البهائم، وعواء الذئب، وشعورٌ تقيهم الحر والبرد، وآذان عظام، إحداها وبرة يُشتُّون فيها، والأخرى جلدة يصيِّفون فيها، يحفرون السَّدَّ حتى كادوا ينقبونه، فيعيده الله كما كان، حتى يقولوا: ننقبه غدا ـ إن شاء الله ـ فينقبون ويخرجون، ويتحصَّن الناس بالحصون، فيرمون إلى السماء، فُيردُّ إليهم السهم ملطَّخاً بالدم، ثم يُهلكهم الله بالنغف في رقابهم، يعني: الدود.

قال الشيخ رحمه الله: وسيأتي من أخبارهم الصحيحة ما يشهدُ بالصحة لأكثر هذين الحديثين.

و(قوله: «مثل هذه ـ وحلق بأصبعيه: الإبهام والتي تليها ـ») هذا إخبارٌ وتفسيرٌ من الصَّحابة التي شاهدتْ إشارةَ النَّبيِّ ﷺ. ثم إن الرواة بعدهم عبروا عن ذلك باصطلاح الحساب، فقال بعضُهم: وعقد سفيان بيده عشرة، وقال بعضُهم: وعقد وهيب بيده تسعين، وهذا تقريبٌ في العبارة. والحاصل: أن الذي فتحوا من السدِّ

قالت : فقلت : يا رسول الله ! أنَهْلِكُ وفينا الصالحون؟ قال : «نعم! إذا كثر الخَبَثُ».

وعن أسامة : أنَّ النَّبيَّ ﷺ أَشرَف على أُطُمٍ من آطامِ المْدينة ثم قال : «هل تَرَوْنَ ما أَرى؟ إنِّي لأرى مواقع الفِتَن خلال بُيُوتِكم كمواقع القَطْر».

وعن ابن عمر، أنَّه سمع رسول الله ﷺ وهو مستقبل المشرق يقول : «ألا إنَّ الفِتْنة ها هنا، من حيث يطلعُ قرنُ الشَّيطان».

قليل، وهفم مع ذلك لم يلهمهم اللهُ أن يقولوا : غداً نفتحه ـ إن شاء الله تعالى ـ فإذا قالوها خرجوا، والله أعلم.

و(قوله : أنهلك وفينا الصالحون؟ قال : «نعم! إذا كثر الخبث») رويناه بفتح الباء وهو اسمٌ للزنى. قال القاضي : العرب تسمي الزرنى خَبَثاً وخبيثة، ومنه في المُخْدَج : أنَّه وُجِدَ مع أَمَة يخبث بها؛ أي : يزني بها، وهو أحدُ التأويليين في قوله تعالى : ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ (1). وقيل : هو الفُسُوق والفجور، ويروى : الخَبْث، بسكون الباء، وهو مصدرٌ، يقال : خبث الرجل خبثاً، فهو خبيث، وأخبثه غيره : علَّمه الخبث. وقد تقدَّم : أن الله تعالى إذا أهلك قوماً مهلكاً واحداً بعثهم على نياتهم.

و(قوله : أشرف على أُطُم من آطام المدينة) أي : على حصنٍ من حصونها، وتُسمَّى أياً : الآجام، وقد تقدَّم ذلك. وأشرف : ارتفع.

و(قوله : «إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم») مواقع : جمع موقع، وهو : موضعُ سقوط الشيء، ووقوعه. وخلال : بمعنى بين، وهو خبرٌ عن أنه رأى مواضع الفتن، وعاينها، وقد نصَّ في الخبر الآتي بعد هذا على أنها تأتي من قبل المشرق، وقد وُجِد كلُّ ذلك كما أخبر عنه ﷺ، فكان ذلك من أدلة صحة نبوته ورسالته، ظهرت بعد وفاته. وقد تقدَّم القولُ في قرني الشيطان في كتاب الصلاة.

---

(1) سورة النور الآية 26

وعن سالم بن عبد الله، أنَّه قال: يا أهل العراق! ما أَسْأَلَكُم عن الصغيرة وأَرْكَبَكُم للكبيرة! سمعتُ أبي عبدَ الله بنَ عمرَ يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الفتنة تجيء مِنْ ها هنا - وأوْمَأ بيده نحو المشرق - من حيث يطلعُ قرنا الشيطان، وأنتم يضربُ بعضُكم رقابَ بعض، وإنما قَتَل موسى الذي قَتَلَ من آل فرعون خطأً فقال الله له: ﴿**وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً**﴾.

* * *

و(قول سالم لأهل العراق: إنما قَتَل موسى الذي قَتَل من آل فرعون خطأً... الكلام إلى آخره) تعظيمٌ لما أقدموا عليه من قتْل أخيار المسلمين وصدورهم، وتقبيحٌ عليهم، وتهديدٌ لهم. ووَجْهُ ذلك: أن الله تعالى عظَّم على موسى - عليه السلام - وهو صفيُّه وكليمه، عليه السلام - قَتْل كافرٍ لم يُنْهَ عن قتله، مع أنَّ قَتْلَه كان خطأً، وكرَّر عليه، وامتنَّ عليه بمغفرته له ذلك مراراً، فكيف يكون حالُ مَن سفك دماء خيار المسلمين من صُدور هذه الأمَّة من الصحابة والتابعين؟ كلُّ ذلك بمحض الهوى، والتجرؤ على استباحة الدماء، فهم الذين قتلوا الحسين، وسَبَوا نساءه وأولاده من غير توقُّف، ولا سؤال، وسألوا عن دم البراغيث ليرتفعَ عنهم الإشكال، فإنَّا لله وأنا إليه راجعون.

و(قوله: ﴿**فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ**﴾ [1] أي: من غمّ البحر، وقيل: غمّ الخوف والقود. ﴿**وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً**﴾ فتنة بعد فتنة؛ أي: محنة بعد محنة، وفتوناً: مصدر فتن، كخرج خروجاً، وقَعَد قعوداً. وقال قتادة: بلوناك بلاءً بعد بلاء، يعني: أنعمنا عليك بنعم كثيرة. وقد تقدَّم: أنَّ البلاءَ يكون بمعنى الابتلاء بالخير والشر. وكلُّ ذلك بمعنى الفتنة والمحنة؛ لأنها كلَّها بمعنى واحدٍ.

* * *

---

(1) سورة طه الآية 40

باب الفرار منْ الفتن وكسر السِّلاح فيها وما جاء أنَّ القاتل والمقتول في النَّار

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكون فتنٌ القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من السَّاعي، من تشرَّفَ لها تستشرفْه، ومن وجد فيها ملجأً فَلْيَعُذْ به».

وعن أبي بكرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّها ستكون فِتَنٌ، ألا ثُمَّ تكون فتن، القاعد فيها خير من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من السَّاعي إليها، ألا فإذا نزلت - أو وَقَعت -، فمن كان له إبلٌ فليلحقْ بإبله، ومن كانت له غنمٌ فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرضٌ فليلحق بأرضه». قال: فقال رجلٌ: يا رسول الله! أرأيت من لم يكن له إبلٌ، ولا غنمٌ ولا أرضٌ؟ قال: «فَلْيَعْمِدْ إلى سيفه، فيدقَّ على حدِّه بحجرٍ،.....

ومن باب: الفرار من الفتن وكسر السلاح فيها

(قوله: «من تشرَّفَ إليها تستشرفُه») أي: من تعاطاها، أو تشوَّف إليها صرعته وأهلكته، وهو مأخوذ من أشرف المريض على الهلاك رذا أشفى عليه، وقد روي: «من يتشرَّفْ إليها» على أنه فعل مضارع مجزوم بالشرط. والأول على أنه فعل ماضٍ بموضع جزم بالشرط.

و(قوله: «إنها ستكون فتن، ألا ثم تكون فتن... الحديث إلى آخره» كلُّه تضمَّن الإخبارَ عن وقوع فتن هائلة عظيمة بعدَه، والأمرُ بالكفِّ عنها والفِرار منها.

و(قوله: «يَعْمِدُ إلي سيفه فيدقُّ عليه بحجر») هذا محمول على ظاهره، وذلك أنه إذا فعلَ ذلك لم يكن له شيء يستعينُ به على الدخول فيها فيفرُّ منها، أو يسلمُ.

ثمَّ لْيَنْجُ إن استطاع النَّجاء. اللهم هل بلغت! اللهم هل بلغت! اللهم هل

و(قوله: ثم لينجُ إن استطاعَ النَّجَاءَ») أي: ليسرعْ وليفرَّ إن وجدَ إلى ذلك سبيلاً. وقد قال بظاهر هذه الأحاديث جماعة من السلف، فاجتنبوا جميعَ ما وقع بين الصحابة من الخلاف والقتال، منهم: أبو بَكْرة، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن مسلمة، وأُسامة بن زيد. فأما عبد الله بن عمر فندم على تخلُّه عن نصر عليٍّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وقال عند موته: ما آسى على شيء ما آسى على تركي قتالَ الفئة الباغية. يعني فئة معاوية. وأما محمد بن مَسْلَمَة فاتَّخذَ سيفاً من خشب، وقال: إن رسول الله ﷺ أمرَه بذلك وأقام بالرَّبَذَة. فمن هؤلاء من تمسَّك بمثل هذه الأحاديث، فانكفَّ. ومنهم من أشكلَ عليه الأمرُ فانكفَّ لذلك، كعبد الله بن عمر إلى أن اتَّضحَ له الحقُّ فندم. قال القاضي: ويتوجَّه في هذا الحديث الكلام في دماء الصحابة، وقتالهم. وللنَّاس في ذلك غلوٌّ وإسرافٌ، واضطراب من المقالات واختلاف. والذي عليه جماعةُ أهل السُّنَّة والحقِّ: حسنُ الظنِّ بهم، والإمساك عما شجرَ بينهم، وطلبُ أحسن التأويل لفعلهم، وأنهم مجتهدون غير قاصدين للمعصية، والمجاهرة بذلك، وطلب حبِّ الدنيا؛ بل: كلٌّ عملَ على شاكلته، وبحسب ما أدَّاه إليه اجتهادُه، لكن منهم المخطىء في اجتهاده ومنهم المصيب. وقد رفع الله الحرج عن المجتهد المخطئ في فروع الدِّين، وضعَّف الأجرَ للمصيب. وقد توقَّف الطبريُّ وغيره عن تعيين المحقِّ منهم، وعند الجمهور: أن عليًا وأشياعَه مُصيبون في ذبِّهم عن الإمامة، وقتالهم من نازعَهم فيها؛ إذ كان أحقَّ الناس بها وأفضلَ من على الأرض حينئذ. وغيرُه تأوَّل وجوبَ القيام بتغيير المنكر في طلب قَتَلَة عثمان الذين في عسكر عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ وأنهم لا يُعطونَ بيعةً، ولا يعقدونَ إمامةً حتى يقضوا ذلك، ولم يطلبُوا سوى ذلك، ولم يَرَ هو دفعَهم إذ الحكمُ فيهم إلى الإمام، وكانت الأمورُ لم يستقرَّ استقرارُها، ولا اجتمعت الكلمةُ بعدُ، وفيهم عدد ولهم شوكة ومَنَعَه. ولو أظهرَ تسليمَهم أولاً، أو القصاص لاضطربَ الأمرُ، وابتتَّ الحْبلُ. ومنهم جماعة لم يروا الدخولَ في شيءٍ من ذلك مُحتجِّين بنهي النبيِّ ﷺ عن التلبُّس بالفتن، والنهي عن قتال أهل الدعوة، كما احتجَّ به أبو بكرة ـ رضي الله عنه ـ في هذا الحديث على الأحنف، وعذروا الطائفتين بتأويلهم، ولم يروا إحداهما باغيةً فيقاتلوها.

بلغت!». قال: فقال رجل: يا رسول الله! أرأيت إن أُكْرِهْتُ حتى يُنْطَلَقَ بي إلى أحد الصَّفين - أو إحدى الفئتين - فضربني رجل بسيفه، أو يجيء سهمٌ فَيَقْتُلُني؟ قال: «يبوء بإثمه وإثمك ويكونُ من أصحابِ النَّار».

وعن الأحنف بن قيسٍ، قال: خَرَجْتُ وأنا أريدُ هذا الرَّجل، فلقيني أبو بكرةَ، فقال: أين تريد يا أحْنَفُ؟ قال: قلت: أريد نَصْر ابن عمِّ رسول الله ﷺ - يعني: عليّاً - قال: فقال لي: يا أحنفُ! ارجعْ، فإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتلُ والمقتولُ في النَّار!». قال: فقلت - أو قيل -: يا رسول الله! هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنَّه قد أراد قتل صاحبه».

و(قوله: أرأيتَ إن أُكرهتُ»... إلى قوله: «يبوءُ بإثمه وإثمك») إي: يرجع، والمباءة: المرجع، وقد تقدَّم ذلك، ويعني: أنه يبوءُ بإثمه فيما دخلَ فيه، وبإثمكَ بقتله إيَّاكَ، أو لإكراهه إياكَ على ما أكرهَك، وفيه: رفعُ الحرج عن المكره على مثل هذا. والمُكره هنا: هو الذي لا يملكُ من نفسه شيئاً، لقوله: أرأيتَ إن أُكرهتُ حتى يُنطلقَ بي، ولم يقلْ: أنه انطلق من قبل نفسه. ولم يختلفوا: أنَّ الإكراهَ على القتل لا يُعذر به أحد، وإنما يُعذر فيما تعلَّق بالقلب، أو ما لم يملك الإنسانُ نفسُه. واختلف في الإكراه على المعاصي التي بين الله تعالى وبينَ عبده، هل يُعذرُ المكره فيها في أحكام الدنيا والآخرة، أم لا؟ وفي المسألة أبحاث تُعرف في كتب الأصول.

و(قوله: «إذا تواجه المسلمان بسيفيْهما، فالقاتلُ والمقتولُ في النار») معناه: أنهما مُستحقَّان لذلك، أما القاتلُ فبالقتل الحرام، وأما المقتولُ فبالقصد الحرام، والمستحقُّ للشيء قد يُعفى عنه، وإن الله لا يغفرُ أن يُشركَ به، ويغفرُ ما دونَ ذلك لمن يشاء. فأما من اعتقدَ استحلالَ دم المسلم بغير سبب ولا تأويلٍ، فهو كافرٌ، وفي بعض ألفاظ هذا الحديث في الأم: «إذا المسلمان حملَ أحدُهما على أخيه السِّلاحَ

وعن أبي هريرة، قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده! لا تذهب الدُّنيا حتى يأتي على النَّاس يومٌ لا يَدْرِي القاتل فيما قَتَل، ولا المَقْتُولُ فيما قُتِلَ، قلت: فكيف ذلك؟ قال: « الهرْجُ! القاتل والمقتول في النَّار » .

* * *

فهما على جُرْفِ جهنَّم، فإذا قتلَ أحدُهما صاحبَه دخلاها جميعاً »، رواه الطبري والعذري: « وهما على جُرْفِ جهنَّم » كما ذكرناه بالجيم، وعند بعضهم: « حَرْف » بالحاء. وكلاهما متقارب في المعنى، والصورة. ورواه ابن ماهان: « في حَرٍّ » بالحاء المهملة والراء وغير فاء، مصدر حَرَّت النَّارُ تحِرُّ حرّاً وحرارةً.

و(قوله: لا تذهبُ الدُّنيا حتى يأتيَ على الناس يومٌ لا يدري القاتلُ فيما قَتَل، ولا المقتولُ فيما قتل ») يعني : بذلك الأهواء تغلبُ، والهَرْجُ والقتل يكثرُ ويُستسهل، حتى لا يُبالى به، فيكون قتلُ المسلم عند قاتله كقتل نملة، كما هو الحال الآن في أقصى المغرب، والهَرْجُ: هو كثرة الاختلاف والقتل، وهو ساكن الراء.

و(قوله هنا: « القاتلُ والمقتولُ في النار ») يُوضحُ أنَّ ذلك محمولٌ في هذا الحديث وفي حديث أبي بكرة على ما إذا كان القتال في طلب الدنيا، أو على مقتضى الأهواء، وليس في المتأوِّلين المسلمين، ولا فيمن قاتلَ الباغين.

* * *

باب لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، وحتى يكثر الهرج وجَعْل بأس هذه الأمة بينها

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم السَّاعةُ حتَّى تَقْتَتِل فئتان عظيمتان، تكون بينهما مَقْتَلَةٌ عظيمةٌ ودعواهُما واحدةٌ».

وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرْج» قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟ قال: «القتل! القتل!».

وعن ثوبانَ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله زوى لِي الأرضَ، فرأيتُ مشارقها ومغاربَها، وإنَّ أمَّتي سيبلغُ مُلْكُها ما زُوِي لي منها، .....

ومن باب: لا تقوم الساعة حتى تقتتلَ فئتان عظيمتان

يعني بهما فئة علي ومعاوية ـ رضي الله عنهما ـ والله تعالى أعلم.

و(قوله: «دعواهما واحدة») أي: دينُهما واحد، إذ الكلُّ مسلمون، يدعون بدعوة الإسلام عند الحرب، وهي: شهادة أن لا إلاه إلا الله وأن محمداً رسول الله.

و(قوله في تفسير الهرج: «القتل القتل») وحدتُه في كتاب الشيخ برفع اللام من القتل في اللفظين مُعتنىً به، مُصحَّحاً عليه، وهو مرفوعٌ على خبر مبتدأ محذوف، أي: هو القتل القتل. وأصلُ الهَرْج: الاختلاط. يقال: هَرَجَ القومُ إذا اختلطوا، وسُمِّي القتلُ بالهرج لأنه لا يكونُ غالباً إلا عن الاختلاط.

و(قوله: «وإن الله زوى لي الأرضَ فرأيتُ مشارقها ومغاربها») أي: جَمَعها لي حتى أبصرتُ ما تملكه أمتي من أقصى المشارق والمغارب منها. وظاهر هذا اللفظ يقتضي: أنَّ الله تعالى قوَّى إدراك بصره، ورَفَع عنه الموانع المعتادة، فأدرك البعيد من موضعه، كما أدرك بيت المقدس من مكة، وأخذ يخبرُهم عن آياته، وهو ينظرُ إليه،

وأُعْطِيْتُ الكنزين: الأحمر والأبيض، وإنِّي سألتُ ربِّي لأمتِّي ألا يُهلكها بِسَنَةٍ بعامةٍ، وألا يُسَلِّطَ عليهم عدوّاً من سوى أنفسِهم، فيستبيحَ بَيْضَتَهُم،

وكما قال: «إني لأبصرُ قصرَ المدائن الأبيض. ويحتملَ أن يكونَ مثَّلها الله له فرآها، والأول أولى.

و(قوله: «إن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها») هذا الخبر قد وجد مخبره كما قال ﷺ، وكان ذلك من دلائل نبوته، وذلك أن مُلْكَ أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى بحر طنجة الذي هو منتهى عمارة المغرب إلى أقصى المشرق مما وراء خراسان والنهر، وكثير من بلاد الهند والسند والصغد. ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال، ولذلك لم يذكر ﷺ أنه أريه ولا أخبر أن مُلْك أمته يبلغه.

و(قوله: «أعطيت الكنزين») يعني به: كنز كسرى، وهو مَلك الفرس، ومُلْك قيصر، وهو مَلك الروم، وقصورهما، وبلادهما، وقد دلَّ على ذلك قولُه ﷺ في الحديث الآخر حين أخْبَر عن هلاكهما، «لتنفقنَّ كنوزهما في سبيل الله»، وعبَّر بالأحمر عن كنز قيصر لأن الغالبَ عندهم كان الذهب، وبالأبيض عن كنز كسرى. لأنَّ الغالبَ كان عندهم الفضَّة والجوهر. وقد ظهر ذلك، ووُجد كذلك في زمان الفتوح في خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ فإنه سيق إليه تاجُ كسرى وحليتُه، وما كان في بيوت أمواله، وجميع ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها، وكذلك فَعَل الله بقيصر، لما فتحت بلاده.

و(قوله: وإني دعوتُ ربي لأمتي ألاَّ يهلكها بسنة بعامة») كذا صحت الروايةُ بالباء في (بعامة) وكأنها زائدة؛ لأن عامة صفة لسنة، فكأنه قال: بسنة عامة، ويعني بالسَّنَة: الجدب العام الذي يكونُ به الهلاكُ العام. ويُسمَّى الجدب والقحط: سَنة، ويجمع سنين، كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَٰتِ**﴾ [1] أي: بالجدب المتوالي. وبيضة المسلمين: معظمهم وجماعتهم، وفي

---

(1) سورة الأعراف الآية 130

وإنَّ ربي قال: يا محمد! إنِّي إذا قَضَيْتُ قضاءً فإنَّه لا يُرَدُّ، وإنِّي أعطيتُك لأمَّتك ألا أهلكَهُم بِسَنَةٍ بعامَّةٍ، وألا أسَلِّطَ عليهم عدواً من سِوَى أنفسِهم يَسْتَبِيحُ بيضتهم، ولو اجتمع عليهم مَنْ بأقطارها ـ أو قال: مَنْ بَيْنَ أقطارها ـ حتى يكون بعضُهم يُهْلكُ بَعضاً، ويَسْبِي بَعضُهم بعضاً».

الصحاح: بيضة كلِّ شيء: حوزته، وبيضة القوم: ساحتهم، وعلى هذا فيكون معنى الحديث: أن الله تعالى لا يُسلِّط العدوَّ على كافة المسلمين حتى يستبيحَ جميعَ ما حازوه من البلاد والأرض، ولو اجتمع عليهم كلُّ مَن بَيْن أقطار الأرض، وهي: جوانبها.

و(قوله: «حتى يكون بعضُهم يُهْلِك بعضاً، ويسبي بعضُهم بعضاً») ظاهرُ (حتي): الغاية، فيقتضي ظاهر هذا الكلام: أنه لا يُسلّط عليهم عدوّهم فيستبيحهم، إلا إذا كان منهم إهلاك بعضُهم لبعض. أو حاصل هذا أنه إذا كان من المسلمين ذلك تفرَّقت جماعتُهم، واشتغل بعضُهم ببعض عن جهاد العدو فقويت شوكةُ العدو، واستولي، كما شاهدناه في أزماننا هذه في المشرق والمغرب، وذلك أنَّه لما اختلف ملوك المشرق وتجادلوا استولوا كافر الترك على جميع عراف العجم ولما اختلف ملوكُ المغرب وتجادلوا استولت الإفراحُ على جميع بلاد الأندلس، والجزر القريبة منها، وها هم قد طمعوا في جميع بلاد الإسلام، فنسألُ اللَّهَ أن يتدارك المسلمين بالعفو، والنصر، واللطف. ولا يصحُّ أن يكون (حتى) هنا بمعنى كي لفساد المعنى، فتدبَّره.

و(قوله: «وسألتُه ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها») يعني: ألا يهلك جميعهم بطوفان كطوفان نوح ـ عليه السلام ـ حتى يغرقَ جميعهم، وهذا فيه بُعْدٌ، ولعلَّ هذا اللَّفظ كان بالعدو، فتصحَّف على بعض الرواة لقرب ما بينهما في اللفظ. ويدلُّ على صحة ذلك: أن هذا الحديثَ قد رواه عن النبيِّ ﷺ خبَّاب بن الأرتّ،

وعن سعد بن أبي وقاص، أنَّ رسول الله ﷺ أقبل ذات يومٍ من العالي. ـ في رواية: في طائفةٍ من أصحابه ـ حتى إذا مر بمسجد بني معاوية؛ دخل فركع فيه ركعتين، وصلينا معه، ودعا ربَّهُ طويلاً، ثم انصرف إلينا، فقال ﷺ: «سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني ثنتين، ومنعني واحدةً، سألت ربي ألا يُهلك أمَّتي بالسَّنَة، فأعطانيها، وسألتُهُ ألا يُهْلك أمتي بالغرق، فأعطانيها، وسألته: ألا يجعل بأسهم بينهم، فَمَنَعنيها».

* * *

وثوبان وغيرهما، وكلهم قال: بدل «الغرق» المذكور في هذا الحديث: «عدواً من غير أنفسهم»: والله تعالى أعلم.

و(قوله: «وسألته ألاَّ يجعل باسمهم بينهم فمنعنيها») البأس الحروب والفتن، وأصله من بئس يباس: إذا أصابه البؤس، وهو الضر، ويقال: بأساً وضراً.

و(قوله: «يا محمد! إني إذا قضيتُ قضاءً لا يُرَدّ») يُستفاد منه: أنه لا يُستجاب من الدعاء إلا ما وافقه القضاء، وحينئذٍ يشكل بما قد روي عنه ﷺ أنه قال: «لا يرد القضاءَ إلا الدعاء»، ويرتفعُ الإشكالُ بأن يقال: إن القضاء الذي لا يردُّه دُعاء. ولا غيره، هو الذي سَبَق علمُ الله بأنه لا بُدَّ من وقوعه. والقضاء الذي يرده الدعاء أو صلة الرحم، هو الذي أظهره الله بالكتابة في اللوح المحفوظ؛ الذي قال الله تعالى فيه: ﴿**يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَبِ**﴾ [1] وقد تقدَّم ذلك في كتاب القدر.

* * *

---

(1) سورة الرعد الآية 39

باب إخبار النبي ﷺ بما يكون إلى قيام الساعة

عن حذيفة قال: قام فينا رسولُ الله ﷺ مَقاماً ما ترك فيه شيئاً يكون في مَقامه ذلكَ إلى قيام الساعة إلا حدَّث به، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَه، ونَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ، قَدْ علمه أصحابي هؤلاء، وإنَّه ليكون منه الشيءُ قد نَسِيتُه، فأراهُ، فأذكُرَه كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عَرَفَه.

ومن باب: إخبار النبيِّ ﷺ بما يكون إلى قيام الساعة

(قول حذيفة ـ رضي الله عنه ـ: قام فينا رسولُ الله ﷺ مَقاماً ما ترك فيه شيئاً يكونُ في مَقامه ذلك إلى قيام الساعة رلا حدَّث به) هذا المجرورُ الذي هو (في مَقَامه) يجوزُ أن يتعلَّق بترك، والأليقُ أن يكونَ مُتعلِّقاً بحدَّث؛ لأنَّ الظاهرَ من الكلام: أنه أراد أنه ما ترك شيئاً يكون إلى قيام السَّاعة إلاَّ حدَّث به في ذلك المَقام، وهذا المقامُ المذكورُ في هذا الحديث هو اليومُ الذي أخبر عنه أبو زيد عمرو بن أَخْطب المذكور بَعْدُ، وبالحريِّ يتَّسع يوم للإخبار عمَّا ذكره. على أنه قد روى الترمذيُّ من حديث أبي سعيد الخدري قال: صلى بنا رسولُ الله ﷺ صلاةَ العصر بنهار ثم قام خطيباً، فلم يَدَعْ شيئاً يكونُ إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به، حَفظه من حفظه، ونسيه من نَسيه. فظاهرُ هذا أنَّ هذا المَقام كان من بَعْد العصر لا قَبْل ذلك. ويجوزُ أن يكون: كانت الخُطبةُ من بعد صلاة الصُّبح إلى غروب الشمس، كما في حديث أبي زيد. واقتصر أبو سعيد في الذِّكر على ما بعد العصر، وفيه بُعْدٌ، وعلى كلِّ تقديرٍ فعمومات هذه الأحاديث يُراد بها الخصوص؛ إذ لا يمكن أن يحدِّثَ في يوم واحد، بل: ولا في أيام، ولا في أعوام بجميع ما يَحدُث بعد النبيِّ ﷺ تفصيلاً؛ وإنما مقصودُ هذه العمومات الإخبارُ عن رؤوس الفتن والمحن ورؤسائها، كما قال حذيفةُ بعد هذا حين قال: لكنَّ رسولَ الله ﷺ قال وهو يُحدِّث مجلساً أنا فيه عن

وفي رواية: قال: أخبرني رسول الله ﷺ بما هو كائنٌ إلى أن تقوم السَّاعة، فما منه شيءٌ إلا قد سألتهُ إلا أنِّي لم أسْأَلهُ ما يُخْرِجُ أهْلَ المدينةِ من المدينة.

وعن أبي زيد - يعني: عمرو بنَ أخطبَ - قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ الفجر، وَصعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّى، ثم صَعِدَ، المنبر، فخطبنا حتى حضر العصر، ثم نزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غَربَت الشَّمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فأعلَمُنا أحفَظُنا.

* * *

الفتن، فقال رسول الله ﷺ وهو يعدّ الفتن: «منهن ثلاثٌ لا يَكَدْنَ يَذَرْنَ شيئاً، ومنهن كرياح الصَّيف، منها صغار ومنها كبار».

قال الشيخ رحمه الله: على أني أقولُ: إنَّ النبيَّ ﷺ كأن الله تعالى قد أعلمه بتفاضيل ما يجري بعده لأهل بيته وأصحابه، وبأعيان المنافقين، وبتفاصيل ما يقع في أمته من كبار الفتن، وصغارها، وأعيان أصحابها، وأسمائهم، وأنه بثَّ الكثيرَ من ذلك عند من يَصلُحُ لذلك من أصحابه كحذيفة - رضي الله عنه - قال: ما ترك رسولُ الله ﷺ من قائد فتنةٍ إلى أن تنقضيَ الدُّنيا يبلغ من معه ثلاثمئة فصاعداً، إلا قد سمَّاه لنا باسمه، واسم أبيه، وقبيلته. خرَّجه أبو داود. وبهذا يُعلم: أنَّ أصحابه كان عندهم من علْم الكوائن الحادثة إلى يوم القيامة العلم الكثير والحظِّ الوافر، لكن لم يشيعوها إذ ليستْ من أحاديث الأحكام، وما كان فيها شيءٌ من ذلك حدَّثوا به، ونقضوا عن عهدته. ولحذيفة في هذا الباب زيادةٌ مزيَّة. وخصوصيَّة لم تكنْ لغيره منهم؛ لأنه كان كثيرَ السؤال عن هذا الباب، كما دلَّت عليه أحاديثُه، وكما دلَّ عليه اختصاصُ عمر له بالسُّؤال عن ذلك دُون غيره. وأبو زيد المذكور في هذا الباب: هو عمرو بن أَخْطَب - بالخاء المعجمة - الأنصاري، من بني الحارث بن الخزرج. صَحِب

باب في الفتنة التي تموج موج البحر
وفي ثلاث فتن لا يَكَدْن يَذَرْن شيئاً

وقد تقدَّم في كتاب الإيمان حديثُ حذيفة في التي تموج موج البحر.

وعنه؛ أنَّه قال: والله إني لأعلم النَّاس بكلِّ فتنة هي كائنةٌ فيما بيني وبين السَّاعة! وما بي إلا أن يكون رسولُ الله ﷺ أسرَّ إليَّ في ذلك شيئاً لم يحدِّثهُ غيري، ولكنَّ رسول الله ﷺ قال وهو يحدث مجلساً ـ أنا فيه ـ

النبيَّ ﷺ وقال: غزوتُ معه ستَّ غزوات، أو سبعاً. وقد تقدم القولُ في حديث حذيفة في كتاب الإيمان.

و(قوله: ما بي إلا أن يكون رسولُ الله ﷺ أسرَّ إليَّ في ذلك شيئاً لم يُحدِّثْ به غيري) كذا وقع هذا اللفظ، وكذا صحَّ في الرواية، وما بي إلا أن يكونَ بـ(إلا) الإيجابية، و(أن) المصدرية. فقيل: الوجهُ إسقاطُ إلا لأنَّ مقصودَ الكلام: أنَّ حذيفةَ أخبر عن نفسه بأنه يعلم كلَّ فتنة تكونُ بين يدي الساعة. فيظنُّ سامعُ هذا القول: أنَّ رسولَ الله ﷺ أسرَّ إليه من ذلك بشيء لم يسرَّه إلى غيره، فنفى هذا الظن بذلك القول. ثم نبَّه على سَبب علْمه بذلك فقال: ولكن رسول الله ﷺ قال وهو يُحدِّثُ مجلساً أنا فيه عن الفتن، فيعني بذلك أنه سمع من النبيِّ ﷺ في ذلك المجلس مع الناس؛ لكنه حفظ ما لم يحفظ غيره، وضبط ما لم يضبط غيره. كما قال في الحديث المتقدِّم. وقيل: (إلا) ثابتةٌ في الرواية، فلا سبيلَ إلى تقدير إسقاطها، ومعنى الكلام مع ثبوتها: وما بي عذرٌ في الإعلام بجميعها، والحديث عنها، إلا ما أسرَّ إليَّ النبيُّ ﷺ ممَّا بم بحدثُ به غيري، فيكون في كلامه إشارةٌ إلى أنَّ النبيَّ ﷺ عهد إليه، وأسرَّ له ألاَّ يحدِّث بكلِّ ما يعلمه من الفتن، أو لا يذيعه إن رأى في ذلك مصلحة. وهذا أولى لما ذكرناه من ثبوت الرِّواية، ولأنَّ المعلومَ من حال حذيفة: أنَّ النبيَّ ﷺ خَصَّه من العلم بالفتن، وأسرَّ إليه منها بما لم يخصَّ به غيره، وأما ما لم

عن الفتن، فقال رسول الله ﷺ وهو يَعُدُّ الفتن: «منْهنَّ ثلاثٌ لا يكدن يَذَرن شيئاً، ومنهنَّ فتنٌ كرياح الصَّيف منها صغارٌ ومنها كبارٌ». قال حذيفة: فذهب أولئك الرَّهط كُلَّهم غيري.

وعن جندب، قال: جئت يوم الجَرَعة فإذا رجلٌ جالسٌ. فقلت: لَيُهْرَاقَنَّ اليوم ها هنا دماءٌ! فقال ذلك الرجل: كلا والله! قلت: بلى والله! قال: كلا والله! قلت: بلى والله! قال: كلا والله! إنَّه لحديث رسول الله ﷺ حدثنيه، قلت: بئس الجليس لي أنت منذ اليوم! تسمعني أخَالِفُكَ وقد سمعتَهُ من رسول الله ﷺ فلا تنهاني! ثم قلت: ما هذا الغَضَب؟ فأقبلت عليه أسأله، فإذا الرجل حذيفة.

* * *

يسرَّه إليه، ولا خصَّه به، فهو الذي يحدِّث به، كما جاء متَّصلاً بقوله: لكنَّ النبيَّ ﷺ قال وهو يُحدث مجلساً أنا فيهم عن الفتن. والله تعالى أعلم.

و(قول جندب: جئتُ يوم (الجَرَعَة) كذا هو بفتح الجيم والراء والعين المهملة، وهو موضعٌ بجهة الكوفة. ورُوي عن بعضهم بسكون الراء. وأصلُ الجَرَعَة: الرملُ الذي فيه سهولة. يقال: جَرَع وأجرع وجرعاء. وذلك اليوم: هو يومٌ خرج أهلُ الكوفة إلى سعيد بن العاص، وكان عثمان ولاَّه عليهم فردُّوه، وولَّى أبا موسى الأشعري، وسألوا عثمان توليته فأقره.

و(قوله: تسمعني أحَالفك) لأكثر الشيوخ بالحاء المهملة، من الحَلْف الذي هو اليمين، وقد رواه بعضُهم بالخاء المعجمة، وهي التي أذكرها، وكلاهما يصحُّ، فتأمل مَسَاقَةُ.

* * *

باب ما فتح من ردم يأجوج ومأجوج، ويغزو البيت جيشٌ فيُخْسَف به

عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «فُتِحَ اليَومَ من رَدْمِ يأجُوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه». وعقد وُهَيْبٌ بيده تسعين.

وعن أمِّ سلمةَ أمِّ المؤمنين، وسئلت عن الجيش الذي يخسف به، وكان ذلك في أيام ابن الزبير، فقالت: قال رسول الله ﷺ: «يَعُوذ بالبيت عَائذٌ،

ومن باب: ما فُتح من ردم يأجوج ومأجوج ويغزو البيت جيش فيخسف بهم

(قوله: وكان ذلك في أيام ابن الزُّبير) ذلك إشارةٌ إلى سؤال أم سلمة عن الجيش الذي يُخْسَفُ به، وسألها عن ذلك الحارث بن أبي ربيعة وعبد الله بن صفوان. هذا ظاهره. لكن قال أبو الوليد الكناني: هذا لا يصحُّ؛ لأنَّ أمَّ سلمة ماتت في أيام معاوية قبل موته بسنة، ولم تدركْ أيام ابن الربير. قال القاضي: وقد قيل: إنها ماتت أيامَ يريد بن معاوية في أولِّها، فعلى هذا يستقيمُ الخبرُ، فإنَّ عبدَ الله نازعَ يزيدَ لأول ما بلغته البيعة له عند موت معاوية، وداجاه شئياً، فوجد اليد يزيد أخاه عمرو بن الزبير ليجيئه به، أو يقاتله، فظفر به عبد الله بن الربير، ومات في سجنه، وصلبه. ذكر ذلك الطبريُّ وغيره، وذكر وفاة أم سلمة أيام يزيد أبو عمو بن عبد البَرِّ.

قال الشيخ رحمه الله: هذا الحديث رواه عن أمِّ سلمة عبدُ الله بن صفوان من طريق صحيحٍ في الأصل، وفيه أيضا عنه أنه رواه عن حفصةَ زوج النَّبيِّ ﷺ قال الدَّارقطني: والحديثُ عن أمِّ سلمة ومحفوظٌ عن حفصة، وعلى هذا فتكون كلُّ واحدةٍ منهما حدَّثَتْ به عن النبيِّ ﷺ فلا اضطرب.

و(قوله: «يعوذُ بالبيت عائذ فَيبْعَثُ إليه بعث، فإذا كانوا ببيداءَ من الأرض خُسف بهم») الذي أثار هذا الحديثَ في وقت عبد الله بن الزبير: أنَّ عبد الله بن

فَيُبْعَثُ إليه بعثٌ فإذا كانوا ببيداء من الأرض خُسِفَ بهم»، فقلت: يا رسول الله! فكيف بمن كان كارهاً؟ قال: «يخسف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيَّته». وقال أبو جعفر: هي بيداء المدينة. فقال له عبد العَزيز بن رُفَيْعٍ: إنما قالت ببيداء من الأرض قال: كلا والله إنَّها لبيداء المدينة.

وعن حفصة، أنَّها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَيَؤُمَّنَّ هذا البيت جيشٌ يغزونه حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض يُخْسَفُ بأوسطهم، وينادي أوَّلُهُم آخرَهم، ثُمَّ يُخْسَفُ بهم، فلا يبقى إلا الشريدُ الذي يخبر عنهم».

وعن عبد الله بن صفوان، عن أمِّ المومنين: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «سيعوذ بهذا البيت ـ يعني الكعبة ـ قومٌ ليس لهم مَنَعَةٌ، ولا عددٌ، ولا عُدَّة، يُبْعَثُ إليهم جيشٌ حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خُسِفَ بهم». قال يوسف بن مَاهَك، وأهل الشام يومئذ يسيرون إلى مكة فقال عبد الله بن صفوان: أما والله ما هو بهذا الجيش!.

الزبير لجأ إلي البيت عندما طالبه يزيدُ بن معاوية بأن يُبايعه، ففرَّ من المدينة إلى مكة، واستجار بالبيت، ووافقه على رأيه ذلك جماعةٌ على خلاف يزيد، فجهَّز يزيدُ جيشاً من أهل الشام إلى مكة، فحدَّث الناس أنَّ ذلك الجيش يُخْسَفُ به، وذكروا الحديث عن رسول الله ﷺ وحينئذٍ قال لهم عبد الله بن صفوان: أما والله! ما هو بهذا الجيش، كما قد ظهر أن ذلك الجيش لم يُخْسَفُ به[1]. ومَنَعة: بتحريك النون، جمع مانع، ككاتب وكَتَبة. وبالسكون: مصدر منع. والمُستبصر: البصيرُ بالأمور. والمجبور:

---

(1) البيداء: أرض ملساء لاشيئ فيها، وفي الصحاح: البيداء: المفازة. والجمع: بيد وهل هي بيداء المدينة أولاً؟ اختلف في ذلك أبو جعفر وعلد العزيز بن إفْيْع كما ذكر في الأصل. وليؤمن: لقصدن. والشريد: الطريد: عن أهله، ويعني به المنفرد عن ذلم الجيش الذي يُخْسَفُ به.

وعن عبد الله بن الزبير: أنَّ عائشة قالت: عَبِثَ رسولُ الله ﷺ في منامه فقلنا: يا رسول الله! صنعتَ شيئاً في منامك لم تكن تفعلُه فقال: «العجبُ أنَّ ناساً من أمتي يَؤُمُّون بالبَيْت برجلٍ من قريش قد لجأ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خُسِفَ بهم»، فقلنا: يا رسول الله إنَّ الطريق قد يجمع الناس. قال: «نَعَمْ، فيهم المستبصرُ، والمجبور، وابنُ السبيل، يهلكون مهلكاً واحداً، ويَصْدُرون مصادر شتَّى، يبعثُهم الله على نيَّاتهم».

* * *

المكرَه الذي لا حيلةَ له في ما يُحْمَلُ عليه، وهو من جبرت الرجل على الشيء يفعله، فهو مجبورٌ ثلاثياً، ويُقال: أجبرته، وهو الأصحُّ والأكثر، فهو مُجْبَر.

و(قوله: عَبَثَ رسولُ الله ﷺ في منامه) وجدته مقيداً بفتح الباء أي: أتى بكلمات كأنها مختلطة. يقال عَبَث الشيء، يعبثه: إذا خلطه، بفتح الباء في الماضي، وكسرها في المضارع، فأما عبِث بكسر الماضي وفتح المضارع فمعناه: لعب.

و(قوله: «إنَّ ناساً من أمتي يؤمُّون البيت برجل») أشْرَب يؤمّون معنى ينزلون، فعدَّاه بالباء، وهو ممَّا يتعدَّى بنفسه كما تقدَّم غير مرَّة.

و(قوله: «يهلكون مهلكاً واحداً، ويصدُرون مصادر شتى») المهلك: الهلاك. ويصدُرون: يرجعون، وأصل الصَّدر: الرجوع عن موضع الماء، وشتَّى: مختلفين بحسب نياتهم.

* * *

باب لا تقوم الساعة حتى يَحْسِرَ الفراتُ عن جبلٍ من ذهب، وحتى يَمْنَع أهلُ العراق ومصرَ والشامِ ما عليهم

عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لا تقوم الساعة حتى يَحْسِرَ الفراتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَب، يَقْتَتِلُ النَّاسُ عليه، فيُقْتَلُ من كُل مئة تسعةٌ وتسعون، ويقول كل رجلٌ منهم لعلِّي أكون أنا الذي أنجو.

في رواية: «فمن حضره فلا يأخُذْ منه شيئاً».

ومن باب الأمور التي لا تقوم الساعة حتى تكون

(وقوله: «يَحْسِرُ الفراتُ عن جبلٍ من ذهب») أي: يكشفُ. ومنه حسرت المرأةُ عن وجهها؛ أي: كشفت. والحاسرُ: الذي لا سلاحَ عليه، وكأن هذا إنما يكون إذا أخذت الأرض تقيء ما في جوفها، كما تقدَّم في كتاب الزكاة.

و(قوله: «فمن حضرَه فلا يأخذْ منه شيئاً») نهي على أصله من التحريم؛ لأنه ليس مُلكاً لأحد، وليس بمعدنٍ ولا رِكازٍ، فحقُّه أن يكون في بيت المال؛ ولأنه لا يُوصَل إليه إلا بقتل النفوس، فيحرم الإقدامُ على أخذه.

و(قوله: «منعت العراقُ درهمَها وقفيزها، ومنعت الشامُ مُدْيَها ودينارَها ومنعت مصر إرْدَبَّها») كذا الروايةُ المشهورة بغير إذا، فيكونُ ماضياً بمعنى الاستقبال، كما قال تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوه﴾ [1] أي: يأتي وكقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [2] يعني: إذ يقول. ومثله كثير، وقد رواه ابن ماهان: «إذا منعت» وهو أصلُ الكلام. غير أنه يحتاجُ إلى جواب إذا، ويحتمل ذلك وجهين:

---

(1) سورة النحل الآية 1

(2) سورة المائدة الآية 116

ونحوه؛ عن أبيٍّ، ولم يقل: «فمن حضره» إلى آخره

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنَعت العراقُ درْهَمَها وقَفيزها، ومَنَعت الشأم مُدْيَها ودينَارها، ومَنَعتْ مصْرُ إرْدَبَّها ودينارها، وعُدْتُم من حيث بَدَأْتُمْ». شَهدَ على ذلك لَحْم أبي هريرة ودَمُهُ.

* * *

أحدُهما: أن يكون الجواب: عدتُم من حيث بدأتم، وتكون الواو زائدة. كما قال امرؤ القيس:

فَلَمَّا أَجَزْنَا ساحَةَ الحَيِّ وَانْتَحَى[1] .....

أي: لما أجزنا انتحى، فزادَ الواو. ويحتمل أن يكون جواب إذا محذوفاً، تقديره: إذا كانت هذه الأمور جاءت الساعةُ، أو ذهبَ الدِّين. ونحو ذلك، والله أعلم. وتسمية النبيِّ ﷺ مكيالَ كلِّ قوم باسمه المعروف عندهم دليل علىٰ أنه كانَ يعرفُ كلامَ النَّاس؛ وإن بعدت أقطارُهم، واختلفت عباراتهم. وقد ثبت أنه كان يُخاطب كلَّ قوم بلغتهم في غير موضع، وهذا منه إخبارٌ بأنَّ أمورَ الدين وقواعدَه يُترك العمل بها لضعف القائم بها، أو لكثرة الفتن واشتغال الناس بها، وتفاقم أمر المسلمين، فلا يكون مَن يأخذ الزكاة ولا الجزية ممن وجبت عليه، فيتمنع من وجبَ عليه حقٌ من أدائه والله تعالى أعلم.

و(قوله: «وعُدتم من حيثُ بدأتم») أي: رجعتم على الحالة الأولى التي كنتم عليها من فساد الأمر، وافتراق الكلمة، وغلبة الأهواء، وذهاب الدِّين.

(وقوله: «شهد على ذلك لحم زبو هريرة ودمه») أي: صَدَق بهذا الحديث وشهدَ بصدقه كلُّ جزءٍ في أبي هريرة. ومعناه: بأن هذا الحديثَ حقٌ في نفسه، ولا بدَّ من وقوعه.

---

[1]- هذا صدر بيت، وعجزه:

بنا بَطْنُ حَبْتٍ ذي قِفافٍ عَقَنْقَلِ

باب لا تقوم السَّاعة حتى تُفتَح قُسْطَنْطِينيَّةُ، وتكون ملحمةٌ عظيمةٌ ويخرجُ الدجَّال ويقتلُه عيسى ابن مريم

عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ : «لا تقوم السَّاعة حتى ينزل الرُّوم بالأهماق، أو بدابق، فبخرج إليهم جيشٌ من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذٍ ، فإذا تصافُّوا قالت الرُّوم : خلوا بيننا وبين الذين سَبَوا منَّا نقاتلهم، فيقول المسلمون : لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا !

و(قوله : « تنزل الرومُ بالأعماق، أو بدابقَ ») الأعماق : جمع عُمق ـ بضم العين وفتحها ـ: وهي ما بعدَ من أطراف المفاوز . قال رؤبة :

وَقَاتِمِ الأعْماقِ خَاوِي المُخْتَرَقْ

ودابق : اسم بلد، والأغلب عليه التذكير والصرف؛ لأنه في الأصل : نهر . قال الراجز :

بِدَابِقٍ وَأَيْنَ مِنِّي دَابِقُ

وقد يُؤَنَّثُ ولا يُصرف، وهو بفتح الباء . وكذا وجدته مقيَّداً مصححاً في كتاب الشيخ، ويقال بالكسر فيما أحسب .

و(قول الروم : « خلُّوا بيننا وبينَ الذين سَبوَا منَّا ») الرواية الصحيحة بفتح السين والباء؛ أي : الذين أصابوا منا سبياً، وقد قيَّده بعضهم بضم السين والباء، وليس بشيء؛ لأنَّ قولَ المسلمين في جوابهم : لا والله ما نُخلِّي بينكم وبين إخواننا، يعنون : أنهم منهم في الأنساب والدِّين، فلو أنَّ الرومَ طلبوا مَن سُبيِ منهم لما قالوا لهم ذلك مطلقاً . والله تعالى أعلم .

---

(1) الشَّرَطان : نجمان .

فيُقاتلونهم، فينْهزم ثلثٌ لا يتوبُ الله عليهم أبداً، ويُقْتَلُ ثُلثُهم أفْضَلُ الشُّهداء عند الله، ويَفْتَتِحُ الثُّلثُ لا يُفْتَنُون أبداً، فيَفْتتحون قُسْطَنطينيَّةَ، فبَيْنا هم يَقسمون الغَنَائمِ قد عَلَّقوا سيوفهم بالزَّيتون إذ صاحَ فيهم الشَّيطان: أن المسيح قد خَلفكم في أهليكم، فيخرجون، وذلك بَاطلٌ. فإذا جاؤوا الشَّامَ خَرَجَ، فبَينما هُم يُعدُّون للقتَال، يسَوُّون الصُّفُوف إذا أُقيمت الصَّلاةُ، فيَنْزلُ عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ فأَمَّهُمْ فإذا رآه عَدُوُّ الله ذَابَ كما يذوبُ الملحُ في الماء، فلو تركَهُ لانْذَابَ حتى يَهْلِكْ. ولكنْ يَقْتلُهُ اللهُ بيده، فيُريهم دَمَهُ في حَرْبته».

وعن يُسَيْرِ بنِ جابرٍ، قال: هاجت ريحٌ حمراءُ بالكوفة، فجاء رجلٌ ليس له هِجِّيرَى إلا: يا عبد الله بن مسعود! جاءت الساعة! قال: فقعد،

و(قوله: «فينهزمُ ثلثٌ لا يتوبُ الله عليهم أبداً)؛ لأنهم فرُّوا من الزحف حيث لا يجوز لهم الفرار، فلا يتوبُ الله عليهم؛ أي لا يُلهمهم إيَّاها، ولا يُعينهم عليها؛ بل: يُصرُّون على ذنبهم ذلك، ولا يندمون عليه. ويجوز أن يكونَ معنى ذلك: أنه تعالى لا يقبلُ توبتهم وإن تابوا، ويكونون: هؤلاء ممَّن شاء الله ألاَّ تُقبلَ توبتُهم لعظيم جُرمهم.

و(قوله: «إنَّ المسيح قد خلفكم في أهليكم») كذا الرواية الجيدة مخفَّفة اللام بغير ألف. أي: بشرٍّ، يُقال: خلفكَ الرجلُ في أهلكَ بخير أو بشرٍّ، وقد تقدَّم قوله ﷺ: «من خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا». وقد رواه بعضُهم: خالفكم، والأول أجود، لأن خالفَ يتعدَّى بـ(إلى)، وخلفَ يتعدَّى بـ(في) وردُّ خَالَفَ إلى خَلَف يجوز. وقد تقدَّم القول في اسم المسيح في كتاب الإيمان، وسيأتي الكلام في الدَّجَّال.

(وقوله: هاجتْ ريحٌ حمراء) أي: شديدة، احمَّرت بها السحاب، ويبست لها الشجر، وانكشفت الأرضُ، فظهرت حمرتُها.

وَكان مُتكئاً فقال : إنَّ السَّاعة لا تَقُوم حتى لا يقسم ميراثٌ، ولا يُفْرَحَ بِغَنيمة، ثم قال بيده: هكذا، ونحَّاها نحو الشام. فقال: عدوٌّ يجمعون لأهل الإسلام ويجمع لهم أهل الإسلام. قلت: الرُّومَ تعني؟ قال: نعم، ويكون عند ذَاكُمُ القِتَالِ رِدّةٌ شَديدةٌ، فيشترِطُ المسلمون شُرْطةً للموت؛ لا تَرْجِع إلا غالبةً، فيَقْتتلون حتى يَحْجُز بينهم الليل، فيَفِيءُ هؤلاء وهؤلاء، كلّ غَيرُ غالبٍ، وتَفْنَى الشُّرْطةُ، ثُمّ يَشْتَرِطُ المسلمون شُرْطةً للموْتِ، لا ترجع إلا غَالبةً، يحجز بينهم اللَّيلُ، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كلٌّ غير غالبٍ وتفنى الشُّرطةُ. ثمَّ يشترط المسلمون شُرْطةً للموت لا ترجع إلا غالبةً فيقتتلون حتَّى يُمْسُوا فَيفيءُ هؤلاء، وهؤلاء كُلٌّ غيرُ غَالبٍ، وتفنى

و(قوله: فجاء رجلٌ ليس له هجِّيرى إلا يا عبدَ الله جاءت السَّاعةُ)كذا رويته هجيراً على وأن فعِّيلاً، وهو تقييدُ أبي الفتح الشَّاشي والتميمي، وقيَّدها العذريُّ هجِّير على وأن خِمِّير.

قال الشيخ رحمه الله: وكلاهما لغة صحيحة. قال الجوهري: الهِجِّير مثل الفِسِّيق: الدأب والعادة، وكذلك الهجيري والإهجيرى. يُقال : ما زال ذلك هجيراه، وأهجيراه، وإجريَّاه؛ أي: دأبُه وعادتُه. قال غيره: وهجِّيرى أفصحُها.

والشُّرطة: بضم الشين، وهي هنا: أوَّل طائفة من الجيش تُقاتل. ومنه الشَّرَطَان[1] لتقدُّمهما أوَّلَ الربيع، وقيل: إنهم سُمُّوا بذلك لعلامات تميَّزوا بها. والأشراط : العلامات. وهذا هو الأعرفُ. ويحجزُ بينَهم اللَّيلُ أي: يحولُ بينهم وبين القتال بسبب ظلمته، والحاجزُ: هو الفاصل بين شيئن. ويفيء هؤلاء؛ أي: يرجعُ. ونَهَدَ إليهم؛ أي: تقدَّم. ومنه سمِّي النَّهْدُ؛ لأنه متقدِّم في الصدر.

---

(1) الشَّرَطان : نجمان.

الشُّرطَةُ. فإذا كان اليومُ الرَّابع نَهَد إليْهِمْ بَقيّةُ أهلِ الإسلام، فَيَجْلُ اللهُ الدَّبْرةَ عليهم، فَيقتُلُون مَقْتَلةً ـ إمَّا قال: لم يُر مثْلُها وإمَّا قال: لا يرى مثْلُها حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم فما يخلفهم حتى يَخِرَّ ميِّتاً فيتعاد بنو الأب ـ كانوا مئة فلا يَجدُونَهُ بَقي منهمُ إلا الرَّجلُ الواحد فَبِأَيِّ غنيمية يُفْرَح؟ أوْ أيُّ ميراثٍ يُقاسَمُ؟ فبينما هم كذلك إذ سَمعُوا بِناسٍ هم أكثرُ من ذلك، فَجَاءهُم الصَّريخُ: أنّ الدَّجَّال قد خَلَفهُم في ذراريِّهم، فَيَرْفُضون ما في أيْديهم، ويُقْبلون، فيَبْعَثُونَ عَشَرةَ فَوارسَ طَليعةً. قال رسول الله ﷺ: «إنِّي لأعرفُ أسماءَهم، وأسماءَ آبائهم، وأَلْوَانَ خُيولهم، هُم خَيْرُ فوارسَ على ظهر الأرض يَوْمَئذٍ ـ أو من خيرِ فوارس على ظهر الأرض يومئذٍ ـ».

* * *

و(قوله: فيجعلُ الله الدَّبْرَة عليهم») كذا لكافَّتهم بالباء بواحدة وسُكونها، ورواه العذريُّ: الدائرة، ومعناهما متقارب. قال الأزهريُّ: الدائرة: الدَّوْلة تدور على الأعداء. والدَّبْرةُ: النصر والظفر، يقال: لمن الدَّبْرة؛ أي: الدولة. وعلى من الدَّبْرة؛ أي: الهزيمة. قاله الهروي.

و(قوله: حتى إن الطائر ليمرُّ بجَنَباتهم فما يَخْلُفُهم») كذا رواية الجماعة، وهي جمع جَنَبَة، وهي الجانب، ووقعَ لبعضهم: بجُثمانهم؛ أي: بأشخاصهم. والجثمان، والآل، والطَّلَل، والشخص، كلُّها بمعنى، فأما الجثة، فتُقال على الجالس والنائم.

و(قوله: «إذا سمعوا بناسٍ هم أكثرُ») بنون وسين مهملة، كذا للعذريّ، وكذا قرأتُه؛ وعند غيره: «ببأس» بباء بواحدة، و«أكبر» بباء بواحدة أيضاً، وهو الحرب الشديد، والأمر الهائل. قال بعض المشايخ: وهو الصواب. وتُصحِّحه رواية أبي داود: «إذا سمعوا بأمرٍ أكبر من ذلك»... ويُسير بن جابر: يُروى بالياء باثنتين من تحتها وبالبهمزة. والصريخ: الصارخ، أي: الصوت عند الأمر الهائل أو الصُّراخ، ويرفضون: يرمون ويتركون، والطليعة: هو الذي يتطلَّع الأمر ويستكشفُه.

باب تقوم السَّاعةُ والرُّوم أكثر النَّاس
وما يُفْتَحُ للمسلمين مع ذلك

عن موسى بن عليٍّ، عن أبيه، قال: قال المستوردُ القُرَشِيُّ عند عمرو بنِ العاص، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تقومُ السَّاعة والرُّوم أكثر النَّاس». فقال له عمرٌو: أبصر ما تقول قال: أقول ما سمعتُ من رسول الله ﷺ. قال: «لئن قُلتَ ذلكَ، إنَّ فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحْلَمُ الناس عند

و(قوله: «إني لأعرفُ أسماءَهم وأسماء آبائهم وألوانَ خيولهم») دليل على صحة ما قلناه من أنَّ النبيَّ ﷺ كان قد أُعلم بتفاصيل ما يجري بعدَه وأشخاص من يجري منه شيء له تعلُّقٌ بالأمة.

و(قوله: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس») هذا الحديث رواه مسلم من طريقين: أحدُهما لا تَعَقُّب فيه عليه، والآخر: فيه تَعَقُّبٌ. وهو الذي قال فيه: حدثني حرملةُ بن يحيى التُّجيبي، حدثنا عبد الله بن وَهْب، حدثني أبو شُرَيح؛ أنَّ عبدَ الكريم بن الحارث حدَّثه، أنَّ المستوردَ القرشيّ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول ذلك. قال الدارقطنيُّ: عبدُ الكريم لَمْ يُدركْ المستوردَ، والحديثُ مرسل.

قال الشيخ رحمه الله: هذا الحديث ذكرَه مسلمٌ مُرْدَفاً على الإسناد السليم الذي لا تعقُبَ فيه، وكأنَّ مسلماً تحقَّق ما قاله الدارقطنيُّ، ولذلك أردَفه على الإسناد الأوَّل الذي هو عمدتُه، وعلى شرطه. وهذا وغيره مما تقدَّم مثله يدلُّ على أنَّ القسمَ الثالثَ الذي ذكرَه مسلمٌ في أول كتابه أدخلَه في مسنده، والله أعلم.

وهذا الحديث قد صدَّقه الوجودُ، فإنهم اليومَ أكثرُ من في العالم غيرَ يأجوج ومأجوج؛ إذ قد عمروا من الشام إلى أقصى منقطع أرض الأندلس، وقد اتَّسع دينُ

فتنةٍ، وأَسْرَعُهُمْ إِفَاقةً بَعدَ مُصيبةٍ، وأَوْشَكُهم كَرَّةً بعد فَرَّةٍ، وخَيْرُهُم لِمسْكينٍ ويتيمٍ وضعيفٍ، وخَامسةٌ حَسنَةٌ جَميلةٌ: وأمنعُهُم من ظُلمِ المُلُوكِ».

في رواية: «وأجْبَرُ النَّاس عند مصيبةٍ».

وعن جابر بن سَمُرَة، عن نافعِ بن عُتْبَةَ ـ هو ابن أبي وقاص ـ قال كُنَّا مع رسول الله ﷺ في غزوةٍ قال: فأتى النَّبيَّ ﷺ قومٌ من قِبَلِ المغرب، عليهم ثِيابُ الصوف، فوافقوه عند أَكَمَةٍ، فإِنَّهُم لقيامٌ ورسولُ الله ﷺ قاعدٌ. قال:

النصارى اتساعاً عظيماً لم تتسعه أمةٌ من الأمم، وكلُّ ذلك بقضاء الله تعالى وقدره. ووصفُ عبد الله بن عمرو لهم بما وصفَهم به من تلك الأوصاف الجميلة إنما كانت غالبةً على الرُّوم الذين أدركَ هو زمانَهم، وأما ما في الوجود منهم اليوم فهم أنجسُ الخليقة، وأركسُهم، وهم موصوفون بنقيض تلك الأوصاف.

و(قوله: «وأجبرُ النَّاس عند مُصيبةٍ») كذا رواية الجمهور، وهو من جبرتُ العظمَ والرِّجلَ؛ إذا شددتُ مفاقرَه، وقد فُسِّر معنى هذه الرواية في الرواية الأخرى التي قال فيها: «وأسرعُهم إفامةً بعد مُصيبةٍ» ووقع لبعضهم: «أصبرُ النَّاس» بدل: «أجبرُ الناس». والأول أصحُّ وأحسن.

و(قوله: أتى النبيَّ ﷺ قومٌ من قبل المغرب ـ يعني: من قبل مغرب المدينة ـ عليهم ثيابُ الصوف) هذا لباسُ أهل البادية، والأَكَمَة: القطعة الغليظة من الرمل. واقفوه: وقفوا أمامَه، فوقَفَ لهم، أو استدعوا منه ذلك.

و(قوله: قالت لي نفسي: أتهم فقم بينهم) كذا الرواية المعروفة، وففي بعض الروايات: إذ قالت لي نفسي ائتهم ـ بزيادة إذ ـ ومعنى ائتهم: جئهم. ويغتالونه: يقتلونه غيلة؛ أي: خديعة. والنجيُّ: المناجي، وهو المتحدِّث في خلوة.

فقالت لي نفسي: ائتهم فقم بينهم وبينه لا يَغْتَالونَه. قال: ثم قلت لعلَّه نجيٌّ مَعَهُم، فَأَتَيْتُهُم، فَقُمْتُ بَيْنَهم وبينه قال: فَحفِظْتُ منه أربعَ كلماتٍ أعُدُّهُنَّ في يَدي. قال: «تغزون جَزيرة العَرَبِ فَيَفْتَحُها الله، ثُمَّ فَارسَ فَيفْتَحُها الله، ثم تَغزون الرُّوم فيفتحُها الله، ثمَّ تغزون الدَّجَّال فَيَفْتَحُها الله». قال: وقال نافع: يا جابر! لا نرى الدَّجال يخرج حتى تُفْتح الروم.

* * *

و(قوله: «تغزون فارسَ فيفتحها الله... الحديث إلى آخره») هذا الخطاب وإن كان لأولئك القوم الحاضرين فالمرادُ هم ومن كان على مثل حالهم من الصحابة والتابعين الذين فُتحت بهم تلك الأقاليم المذكورة، ومن يكون بعدَهم من أهل هذا الدِّين الذين يُقاتلون في سبيل الله إلى قيام الساعة. ويرجعُ معنى هذا الحديث إلى الحديث الآخر الذي قال فيه: «لا تزالُ طائفةٌ من أمتي يُقاتلون على الحقِّ ظاهرينَ لا يضرُّهم مَنْ خذلهم إلى قيام الساعة».

و(قوله: «ثم تغزون الدَّجَّال فيفتحها اللَّهُ») وقد وقع في بعض النسخ: فيفتحه بضمير المذكر، فيحتمل أنه يعني بذلك قتلَ الدَّجَّال نفسه الذي يكون على يدي عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ، كما تقدَّم وكما يأتي. ويحتمل أن يعودَ على ملكه. ووجدتُه في أصل الشيخ: فيفتحها اللَّهُ، بضمير المؤنث، فيعني بذلك مملكته أو أرضه التي يُغلب عليها.

وجزيرة العرب: أرضُهم التي نشؤوا فيها، وسُمِّيت جزيرة؛ لأنها مجزورة بالبحار والأنهار؛ أي: مقطوعة بها. والجَزْر: هو القطع. وقيل: لأنها جُزرت بالبحار التي أحدقت بها، وقد تقدَّم القول فيها في الجهاد.

* * *

باب الآيات العشر التي تكون قبل الساعة وبيان أولها

عن حُذَيفةَ بنِ أَسِيدٍ الغِفَاريِّ، قال: اطَّلَع النَّبيُّ ﷺ علينا ونحن نتذاكرُ. قال: «ما تذاكرون؟»، قالوا: نذكر الساعة. قال: «إنَّها لن تقوم حتى تروا قبلها عَشْرَ آيات»، فذكر الدُّخان، والدَّجَّالَ، والدَّابة، وطلوعَ الشَّمس من مغربها، ونزولَ عيسى ابن مريم، ويأجوجَ ومأجوجَ، وثلاثةَ

ومن باب: الآيات العشر التي تكونُ قبل قيام الساعة

حُذيفة بن أَسيد: هو بفتح الهمزة وكسر السين، يُكنَّى أبا سريحة، بفتح السين وكسر الراء، وهو غِفَاري. كان ممن بايعَ رسولَ الله ﷺ تحت الشجرة، يُعدُّ في الكوفيين وبالكوفة مات. وحديث حذيفة في العشر الآيات رواه سفيان بن عُيَيْنَة عن فرات القزَّاز عن أبي الطُّفَيْل عن حذيفةَ على نصٍّ ما ذكرناه في المختصر. والعشر الآيات فيه مجموعة غير مرتبة. وقد رواه شعبة عن فرات، فجاء بها مرتبةً مجموعةً. فكانت هذه الرواية بالذكر في المختصر أولى، لكن لم يُقدَّر ذلك، فلنذكرْ هذه الرواية هنا. قال حذيفةُ: كان رسول الله ﷺ في غُرْفةٍ ونحن أسفلَ منه، فأطَّلع إلينا، فقال: «ما تذكرون؟» قلنا: الساعةَ، قال: «إنَّ الساعةَ لا تكونُ حتى تكونَ عشرُ آيات: خَسْفٌ بالمشرق، وخَسفٌ بالمغرب، وخسفٌ في جزيرة العرب، والدُّخَانُ، والدَّجَّالُ، ودابةُ الأرض، ويأجوج ومزجوج، وطُلُوعُ الشمس من مغربها، ونارٌ تخرج من قعر عدن تَرْحَلُ النَّاسَ» قال شعبة: وحدثني عبدُ العزيز بن رُفيع عن أبي الطُّفَيْل عن أبي سَريحة مثلَ ذلك، لا يذكرُ النبيَّ ﷺ، وقال أحدُهما في العاشرة: ونزول عيسى ابن مريم. وقال الآخر: وريحٌ تُلقي النَّاسَ في البحر. وهذه الرواية مرتبة مُحسَّنة، فلنردَّ إليها الرواية التي لا ترتيبَ فيها. فأوَّل هذه الآيات: الخسوفات الثلاثة، وقد وقع بعضها. ذكر أبو الفرج الجوزي: أنها وقعت بعراق العجم زلازلُ وخسوفاتٌ هائلة، هلكَ بسببها خلقٌ كثير، وقد سمعنا ونحن بالأندلس: أن بلداً بشرقها خُسف به، وهلكَ كثير من أهله. وأما الدُّخان فهو الذي دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ**

خسوف: خسفٌ بالمشرق، وخسفٌ بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة العرب، وآخرُ ذلك نارٌ تخرج من اليمن، تطرد النَّاس إلى محشرهم».

﴿تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ [1] على ما ذهبَ إليه غير ابن مسعود، وهم جماعة من السلف، وهو مرويٌّ عن عليٍّ وابن عمر وأبي هريرة، وابن عباس، والحسن، وابن أبي مُليكة. وروى حذيفة عن النبيِّ ﷺ أنَّ من أشراط الساعة دخاناً يمكثُ في الأرض أربعين يوماً.

قال الشيخ رحمه الله: ويُؤيِّد هذا قوله تعالى في الآية: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [2] وقوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾[3] وهذا يُبعد قولَ من قال: إنه الدخان الذي يُعذَّب به الكُفَّار يوم القيامة، وهو مرويٌّ عز زيد بن علي. وسيأتي القول في حديث ابن مسعود في التفسير. وأما الدَّابَّة فهي التي قال الله فيها: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾[4] ذكرَ أهل التفسير: أنها خلق عظيم تخرج من صَدْعٍ من الصَّفا لا يفوتها أحد، تَسِمُ المومنَ فيُنير وجهُه، ويُكتب بين عينيه مؤمن، وتسمُ الكافرَ فيسودُّ وجهُه ويُكتب بين عينيه كافر. وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ: أن هذه الدابّة هي الجسَّاسة المذكورة في الحديث بعد هذا. وعن ابن عباس: أنها الثُّعبان الذي كان ببئر الكعبة، فاختطفتْه العُقابُ. وقد اختلف في صورتها، وفي أي موضع تخرجُ منه على أقوال كثيرة، وليس في شيءٍ من ذلك خبرٌ صحيح مرفوع. قال بعض المتأخرين من المفسرين: الأقربُ أن تكون هذه الدابة إنساناً متكلِّماً يُناظر أهلَ البدع والكفر، ويُجادلهم لينقطعوا، فيهلكُ من هلكَ عن بيِّنة ويحيى من حَيَّ عن بيِّنة [5].

---

(1) سورة الدخان الآية 10

(2) سورة الدخان الآية 12

(3) سورة الدخان الآية 15

(4) سورة النمل الآية 82

(5) يوجد عند الناشرين المحققين الاربعة هنا فاصل (قلت) وانما كان هذا عند هذا القائل بينما مخطوطة ابن بطوطة * لا تفصل بين سياق الكلام

وفي رواية: تقديم الخسوفات على الدخان وما بعده.

وعن عبد الله، قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أولَ الآيات خُروجاً: طلوعُ الشَّمسِ من مَغْرِبها، وخُرُوجُ الدَّابة على الناس ضُحىً؛ وأيُّهما ما كانتْ قبل صاحِبَتِها، فالأخرى على إثرها قريباً».

* * *

وإنما كان هذا عندَ هذا القائل الأقرب لقوله تعالى: ﴿ **تُكلِّمهم** ﴾ وعلى هذا فلا يكون في هذه الدَّابَّة آية خاصة خارقة للعادة، ولا تكون من جملة العشر الآيات المذكورة في الحديث؛ لأن وجودَ المناظرين والمحتجِّين على أهل البدع كثير، فلا آية خاصة، فلا ينبغي أن تُذكر مع العشر. وترتفع خصوصية وجودها، فإذا وقع القول ثمَّ: فيه العدول عن تسمية هذا الإنسان المناظر الفاضل العالم الذي يحتجُّ على أهل الأرض باسم الإنسان، أو بالعالم، أو بالإمام إلى أن يسمَّى بدابة، وهذا خروج عن عادة الفصحاء، وعن تعظيم العلماء، وليس ذلك دأب العقلاء، فالأولى ما قاله أهلُ التفسير. وأما كيفية صفتها وخلقتها، وبماذا تُكلِّمهم، فاللَّه أعلم بذلك.

و(قوله ذ: «آخر ذلك نارٌ تخرجُ من اليمن») وقال فيما تقدَّم: «من قعرِ عدن». وقال في رواية: من أرض الحجاز. قال القاضي: فلعلهما ناران تجتمعان لحشر الناس، أو يكون ابتداء خروجها من اليمن، وظهورها من الحجاز.

* * *

باب أمور تكون بين يدي الساعة

عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لا تقوم السَّاعة حتى تخرج نارٌ من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببُصرى».

رواه البخاريُّ ومسلم.

(وقوله: «تضيءُ أعناقَ الإبل ببصرى») أي: تكشف بضوئها أعناقَ الإبل ببصرى، وهي بالشام، فيعني ـ والله تعالى أعلم ـ أن هذه النَّار الخارجة من قعر عدن تمرُّ بأرض مقبلةً إلى الشام، فإذا قاربت الشام أضاءت ما بينها وبين بصرى حتى تُرى بسبب ضوئها أعناقُ الإبل. ويُقال: ضاوت النَّار وأضاءت لغتان. وبُصرى ـ بضم الباء ـ هي مدينة من مدن الشام، قيل: هي حَوْران. وقيل: قيسارية [1].

و(قوله: «إنَّ أوَّل الآيات خروجاً طلوعُ الشمس من مغربها، وخروجُ الدَّابَّة على الناس ضحًى») يعني ـ والله أعلم ـ أوَّل الآيات الكائنة في زمان ارتفاع التوبة والطبع على كلِّ قلبٍ بما فيه؛ لأن ما قبلَ طلوع الشمس من مغربها التوبة فيه مقبولة، وإيمانُ الكافر يصحُّ فيه، بدليل ما رواه أبو داود من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقومُ الساعةُ حتى تطلُعَ الشمسُ من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمن من عليها، فذلك حين لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبلُ أو كسبت في إيمانها خيراً». ومعنى قوله: «إذا طلعت ورآها الناس أمنَ مَنْ عليها» أي: حصلَ لجميع من على الأرض التصديق الضروري بأمور القيامة الذي لا يُكلَّف به ولا ينفع صاحبُه، لكون أمور الاخرة معاينةً، وإنما كانَ طلوعُ الشمس مَخْصوصاً بذلك؛لأنه أوَّلُ تغيير هذا العالم العلويّ الذي لم يُشاهد فيه تغيير منذ خلقَه الله تعالى، وإلى ذلك الوقت، وأما ما قبلَه من الآيات فقد شُوهد ما يقرب من نوعه، فإذا كان ذلك

---

(1) بصرى: مدينة أثرية في سهل حوران جنوب دمشق. أما قيسارية: فهي مدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، إلى الجنوب من مدينة حيفا بفلسطين.

وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «تبلغ المساكن إهاب ـ أو: يهاب ـ»، قال زهير: قلت لسهيل: وكم ذلك من المدينة؟ قال: كذا وكذا ميلاً.

وطُبِعَ على كلِّ قلبٍ بما فيه من كفرٍ أو إيمان أخرجَ الله الدَّابة مُعَرِّفةً لما في بواطن الناس من إيمان أو كفرٍ فتكلِّمهم بذلك، أي: تُعرِّف المؤمنَ من الكافر بالكلام، وتسمُ وجوه الفريقين بالنفح، فينتقش وصفه في جبهته مؤمنٌ أو كافر، حتى يتعارفَ الناس بذلك، فيقولُ المؤمنُ للكافر: بكم سلعتُك يا كافر؟ ويقول الكافر: بكذا يا مؤمن، ثم يبقى النَّاسُ على ذلك ما شاءَ الله، ثم يُرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحدٌ على وجه الأرض في قلبه مثقال ذرَّةٍ من إيمان إلا قبضته على ما جاء في حديث عبد الله بن عمرو الآتي بعد هذا وغيره. وقد تقدَّم في كتاب الإيمان حديث أبي هريرة الذي قال فيه: ثلاثٌ إذا خرجنَ لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تَكُنْ آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، ودابة الأرض، وذكر من جملة الثلاث: الدجَّال. ويلزم عليه أن يرتفعَ التكليف بالإيمان وبالتوبة عند خروجه. والأحاديث الآتية في صفة الدَّجَّال تدلُّ على خلاف ذلك على ما سنبينه، فدلَّ على أن ذكرَ الدَّجَّال مع الطلوع والدابة وَهْمٌ من بعض الرُّواة، والله تعالى أعلم.

وقد اختلفت الآثار والأقوال في أوَّل الآيات المذكورة، وما ذكرتُه أشبهها وأولاها ـ إن شاء الله تعالى ـ.

و(قوله: «تبلغ المساكنُ إهاب أو يهاب») فالأول لكسر الهمزة، والثاني بالياء المكسورة عند أكثرهم، وعند ابن عيسى: أو نِهاب، بالنون المكسورة، وهو موضع بينه وبين المدينة القدر الذي كَنَّى عنه سُهيل وبكذا كذا ميلاً. وقد تقدَّم: أنَّ من أهل اللِّسان من حملَ هذا على الأعداد المعطوفة التي أوَّلها أحدٌ وعشرون، وآخرُها تسعة وتسعون. وهذا إخبار منه ﷺ بأنَّ النَّاسَ يكثرون بالمدينة، ويتسعون في مساكنها وبنيانها، حتى يصلَ بنيانُهم ومساكنُهم إلى هذا الموضع، وقد كان ذلك ـ والله تعالى أعلم ـ في مدة بني أميَّة، ثم بعد ذلك تناقصَ أمرُها إلى أن أقفرت جهاتها كما تقدَّم.

وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تضْطَرِبُ آلِيَاتُ نساءِ دَوْسٍ حول ذي الخَلَصَة»، وكانت صنماً تعبدها دوسُ في الجاهلية بتَبَالةَ.

وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لا تقوم السَّاعةُ حتى يَمُرَّ الرَّجل بقبر الرَّجلِ فيقولُ يا ليتني مكانه!».

و(قوله: «حتى تضطربَ أَلِيَات نساد دَوْسٍ حولَ ذي الخَلَصَة») المعروف في ذي الخَلَصَة: الفتح في الخاء واللام، وهكذا قرأته ورويته في كتاب مسلم، وفي السيرة لابن إسحاق. قال القاضي: يُقال: بفتح الخاء واللام وضمهما، وبسكون اللام وجدتُه بخطِّي عن أبي بحرٍ في الأُمِّ. وتَبَالة، بفتح التاء والباء: موضع باليمن، وليس بتبالة التي يُضرب بها المثل الذي يُقال فيه: هو أهون على الحجَّاج من تبالة، تلك بالطائف. قال ابنُ إسحاق: وذو الخَلَصَة: بيت فيه صنمٌ يُسمَّى: ذا الخَلَصة لدوس، وخَثْعَم، وبجيلةَ، وكان يُسمَّى: الكعبة اليمانيَّة، بعث إليه رسولُ الله ﷺ جريرَ بن عبد الله فحرَّقه بالنار.

قال الشيخ رحمه الله: ومعني هذا الحديث أن دَوْساً يظهرُ فيها الارتدادُ عن دين الإسلام ويرجعون إلي ما كانوا عليه من عبادة الأوثان، كما قال في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ:«لا يذهبُ اللَّيلُ والنهار حتى تُعْبَدَ اللاَّتُ والعُزَّى»، وسيأتي في التفسير. وتضطربُ: تتحرَّك عند الطواف بذلك الصنم. والأَلِيَات: جمع أَلْيَة.

و(قوله: «لا تقومُ الساعة حتى يمرَّ الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانَه»، وفي الأخرى: «فيتمرَّغ عليه ويقول: يا ليتني كنتُ مكانَ صاحب هذا القبر») يعني: من شدة المحن وكثرة الفتن، والأنكاد اللاَّحقة للإنسان في نفسه وماله وولده، ولذلك قال: «ليس به الدِّين إلا البلاءُ»، وكأنَّ هذا إشارةٌ إلى أن كثرة الفتن والمشقات والأنكاد قد أذهبت الدِّين من أكثر النَّاس، أو قلَّلت الاعتناء به من الذي يتمسَّك بالدِّين عند هجوم الفتن، ولذلك عظمَ قدر العبادة في حالة الفتن حتى قد قال ﷺ: «العبادةُ في الهَرْج كهجرةٍ إليّ».

وفي رواية، قال: «والذي نفسي بيده! لا تذهب الدُّنيا حتى يمرَّ الرَّجل على القبر فيمترّغُ عليه، ويقول: يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر! وليس به الدِّين إلا البلاءُ».

وعنه؛ عن النبي ﷺ قال: «يُخَرِّبُ الكعبةَ ذو السُّوَيْقَتَين من الحبشة».

و(قوله: «يُخرِّبُ الكعبةَ ذو السُّويقتيْن من الحبشة»، وزادَ أبو داود في هذا الحديث: و«يُخرجُ كنزَها») السُّويقتان: تصغير الساقين، وإحداهما سويقة، وصغَّرهما لدقَّتهما ورقَّتهما، وهي صفة سوق الحبشة غالباً، وقد وصفَه النبيُّ ﷺ في حديث آخر بقوله: «كأنِّي به أسودَ أفْحَجَ، يقلعُها حجراً حجراً». والفحج: تباعد ما بين الساقين، ولا يُعارض هذا قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ**﴾ [1] لأن تخريب الكعبة على يدي هذا الحبشيِّ إنما يكون عند خراب الدنيا، ولعلَّ ذلك في الوقت الذي لا يبقى إلا شرار الخلق، فيكون حَرَماً آمناً مع بقاء الدِّين وأهله، فإذا ذهبوا ارتفعَ ذلك المعنى.

قال الشيخ رحمه الله: وتحقيق الجواب عن ذلك أنه لا يلزم من قوله تعالى: ﴿**أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمناً**﴾ أن يكونَ ذلك دائما في كلِّ الأوقات؛ بل: إذا حصلت له حرمةٌ وأمنٌ في وقت ما، فقد صدقَ اللفظ وصحَّ المعنى، ولا يُعارضه ارتفاع ذلك المعنى في وقت آخر. فإن قيل: فقد قال النبيُّ ﷺ: «إن الله أحلَّ لي مكَّة ساعةً من نهار، قم عادتْ حُرْمَتُها إلى يوم القيامة». قلنا: أما الحكم بالحرمة والأمن فلم يرتفع، ولا يرتفع إلى يوم القيامة إذ لم يُنْسَخ ذلك بالإجماع، وأما وقوعُ الخوف فيها وتركُ حرمتها فقد وُجد ذلك كثيراً، ويكفيك بعوثُ يزيد بن معاوية، وجيوشُ عبد الملك، وقتال الحجَّاج لعبد الله بن الزبير وغير ذلك مما جرى لها، وما فُعل فيها من إحراق الكعبة ورميها بحجارة المنجنيق.

---

(1) سورة العنكبوت الآية 69

وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لا تقوم السَّاعة حتى يخرج رجلٌ من قحطانَ يسوق الناس بعصاه».

وعنه؛ عن النَّبيِّ قال: «لا تذهب الأيام والليالي حتى يَمْلك رَجُلٌ يقال له: الجَهْجاهُ».

وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «تقاتلون بين يدي السَّاعة قوماً نعالُهم الشَّعْرُ، كأنَّ وجوهَهُم المجَانُ المُطْرقة، حُمْرُ الوُجوه، صِغَارُ الأعين».

وفي رواية: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالُهم الشَّعَر، ولا تقوم السَّاعة حتى تقاتلوا قوماً صِغَارَ الأَعْيُنِ ذُلْفَ الآنف».

و(قوله: «يخرجُ رجلٌ من قحطانَ يسوقُ النَّاس بعصاه») أي: يملكُهم ويتصرَّف فيهم كما يتصرَّف الراعي في الماشية، ولعلَّ هذا الرجلَ القحطانيَّ، هو الذي يُقال له الجهجاه، وأصلُ الجهجهة: الصِّياح بالسَّبُع ليكفَّ، يُقال: جَهْجَهْتُ بالسَّبع؛ أي: أجرتُه بالصِّياح، ويُقال: تَجَهْجَهْ عني، أي: انته.

و(قوله: «يُقاتلون بين يديْ الساعة قوماً نعالُهم الشعرُ كأنَّ وجوهَهم المَجَانُّ المُطْرقة») المَجان بفتح الميم: جمع مِجنّ - بكسر الميم - وهو الترس. والمُطرقة: التي أُلبست العقبَ طاقاً فوقَ أخرى، ومنه طارقتُ النَّعلَ إذا أطبقتُ طاقة فوق أخرى، ووجهُ التشبيه: أن وجوهَهم غالباً عراض الأعالي محدَّدة الأذقان صُلبة.

و(قوله: «نعالُهم الشَّعَر»، وفي رواية: «ينتعلون الشَّعَر») أي:: يصنعون من الشعر حبالاً، ويصنعون منه نعالاً، كما يصنعون منه ثياباً. ويشهدُ لهذا قوله في رواية أخرى: «يلبسون الشَّعَر، ويمشون في الشعر». هذا ظاهرُه، ويحتمل أن يُريد بذلك أن شعورَهم كثيفةٌ طويلةٌ، فهي إذا سدلوها كاللِّباس، وذواءبها لوصولها إلى أرجلهم كالنِّعال.

و(قوله: «ذُلْفُ الأُنُوف») ويروى: الآنف، فالأول جمع الكثرة كَفَلْس وفلوس، والثاني جمع قلَّة كأفلُس، ويجمع أيضاً آنافاً، وأنفُ كلِّ شيءٍ أوَّلُه. والذَّلَفُ في الإنسان بالذال المعجمة: صغر الأنف واستواء الأرنبة وقصرُها. وقيل: تطامن الأرنبة،

وفى أخرى: «حتى يُقَاتِلَ المسلمون التُّركَ قَوْماً وُجُوهُهُم كالمَجَانِّ المُطْرَقَة، يلْبَسُونَ الشَّعَر ويَمْشُونَ في الشَّعَر».

وعنه؛ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «سمِعْتُمْ بمدينة جَانبٌ منها في البَرِّ وجانبٌ منها في البحر». قالوا: نعم يا رسول الله! قال: «لا تقوم السَّاعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحاقَ فإذا جاؤوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاحٍ ولم

والأول أعرف وأشهر، تقول: رجل أَذلفُ بَيِّن الذَّلَف، وقد ذَلَفَ. والمرأة ذَلْفاء من نساء ذُلْف. ولا شكَّ في أن هذه الأوصاف هي أوصاف التُّرك غالباً، وقد سمَّاهم النبيُّ ﷺ في الرواية الأخرى، فقال: «يُقاتلُ المسلمون التُّرْكَ»، وهذا الخبر قد وقع على نحو ما أخبرَ، فقد قاتلَهم المسلمون في عراق العجم مع سلطان خوارزم - رحمه الله -، وكانَ الله قد نصرَه عليهم، ثم رجعتْ لهم الكرَّةُ فغلبوا على عراق العجم وغيره، وخرجَ منهم في هذا الوقت أمم لا يُحصيهم إلا الله ولا يردُّهم عن المسلمين إلا الله حتى كأنَّهم يأجوج ومأجوج، أو مقدِّمتهم. فنسأل الله تعالى أن يُهلكَهم ويُبَدِّدَ جمعَهم. ولما علم النبيُّ ﷺ عددَهم وكثرتَهم وحدَّة شوكتهم قال ﷺ: «اتركوا التُّركَ ما تركوكم». لكنا نرجو من فضل الله تعالى النَّصر عليهم والظفرَ بهم، وذلك لما رواه أبو داود من حديث عبد الله بن بُريدة عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ قال: «تُقاتلكم التُّركُ، قومٌ صغارُ الأعين»، قال: يعني: الترك. قال: «تسوقونهم ثلاث مرار حتى تُلْحقونهم بجزيرة العرب» فأما في السياقة الأولي فينجو من هربَ منهم، وأما في الثانية فينجو بعضٌ ويهلكُ بعض، وأما الثالثة فيُصطلمون[1].

و(قوله: «لا تقومُ الساعة حتى يغزوهَا سبعون ألفاً من بني إسحاق») هكذا صحَّت الرواية عند الجميع، وفي الأمهات. قال القاضي أبو الفضل: قال بعضهم: المعروف المحفوظ من بني إسماعيل، وهو الذي يدلُّ عليه الحديث وسياقه؛ لأنه إنما يعني به: العرب والمسلمين، بدليل الحديث الذي سمَّاها فيه في الأم، وأنها: القسطنطينية، وإن لم يصفْها بما وصفها به هنا.

---

(1) فيُصطلمون: من الاصطلام وهو الاستئصال والإبادة.

يَرْمُوا بسهمٍ، قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر؛ فيسقط أحدُ جانبيها». ـ قال ثور: لا أعلمه إلا قال الذي في البحر ـ «ثم يقولوا الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط جانبها الاخر، ثم يقولوا الثالثة: لا إله إلا الله ولله أكبر فيُفرجُ لهم، فَيَدْخُلُوهَا، فَيَغْنَمُوا، فبينما هم يقتسمون المغانم إذ جاءَهُمْ الصَّريخ فقال: إن الدَّجَّال قد خَرَجَ فيتركون كلَّ شيء، ويَرْجِعُون».

قال الشيخ رحمه الله: وهذا فيه بُعْدٌ من جهة اتفاق الرواة والأمهات على ابن إسحاق، فإذاً المعروف خلاف ما قال هذا القائل، ويُمكن أن يقال: إن الذي وقع في الرواية صحيح غير أنه أراد به العرب ونسبهم إلى عمِّهم، وأطبق عليهم ما يُطلق على ولد الأب، كما يُقال ذلك في الخال، حتى قد قيل: الخالُ أحدُ الأبوين ـ والله تعالى أعلم ـ. وأما قوله: إن هذه القرية هي القسطنطينية، فينبغي أن يُبحث عن صفتها؛ هل تُوافق ما وصفَه النبيُّ ﷺ في هذه المدينة أم لا وأما ما ذكره مسلم في الأم من حديث القسطنطينية فهو ما تقدَّم في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ الذي قال في أوله: «لا تقومُ الساعة حتي يَنزلَ الرومُ بالأعماق، أو بدابقَ» قال فيه: «فيُقاتلُهم المسلمون فينهزمُ ثلثُ، ويُقتل ثلث، ويفتح الثلث القسطنطينية، فبينما هم يقسمون الغنائم، قد علَّقوا سيوفَهم بالزيتون إذ صاحَ فيهم الشيطان: إن المسيحَ قد خلفَكم في أهليكم». وظاهر هذا يدلُّ على: أن القسطنطينية، إنما تُفتح بالقتال. وهذا الحديث يدلُّ على أنها تُفتح بالتهليل والتكبير، فقولُ بعضهم فيه بعد، والحاصل: أن القسطنطينية لابُدَّ من فتحها، وأن فتحها من أشراط الساعة على ما شهدت به أخبار كثيرة، منها: ما ذكرناه آنفا، ومنها: ما خرَّجه الترمذي من حديث معاذ بن جبل عن النبيِّ ﷺ قال: «الملحمةُ العظمى، وفتحُ القسطنطينية، وخروج الدَّجَّال في سبعة أشهر». قال :هذا الحديث حسن صحيح، وفيه وعن أنس بن مالك : أنَّ فتحَ القسطنطينية مع قيام الساعة. هكذا رواه موقوفاً. قال محمد[1]: هذا حديث غريب. والقسطنطينية: هي مدينة الروم تُفتح عند خروج الدَّجَّال، والقسطنطينية قد فُتحت [2] في زمان بعض أصحاب النبي ﷺ.

---

(1) المراد : محمد بن إسماعيل البخاري ـ رحمه الله ـ.

(2) ما كان في زمن بعض الصحابة محاولةٌ لفتحها، أما الفتح الفعلي فكان في زمن السلطان محمد الفاتح العثماني سنة 1453م.

وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لا تقوم السَّاعة حتى يقاتل المسلمون اليهودَ، فيقتلُهم المسلمون حتى يختبىء اليهوديُّ منْ وراء الحجر والشَّجر، فيقولُ الحجر أو الشجر؛ يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهوديٌّ خلفي، فتعال فاقْتُله! إلا الغَرْقَد فإنَّه من شجر اليهود».

وعنه؛ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لا تقوم السَّاعة حتى يُبْعَثَ دَجَّالُون كذَّابون. قريبٌ من ثلاثين كلُّهم يزعم: أنَّه رسولُ الله». وفي روايةٍ: «حتى يَنْبَعِثَ».

* * *

قال الشيخ رحمه الله: وعلى هذا فالفتحُ الذي يكون مقارناً لخروج الدَّجَّال هو الفتح المراد بهذه الأحاديث؛ لأنها اليوم بأيدي الروم ـ أمَّرهم الله تعالى ـ والله بتفاصيل هذه الوقائع أعلم.

و(قوله: «لا تقوم الساعة حتى يقاتلَ المسلمون اليهودَ، فيقتلَهم المسلمون») الحديث هذا إنما يكون ـ والله أعلم ـ بعد قتل الدَّجَّال؛ فإن اليهود هم أكثرُ أتباعه، وسيأتي منصوصاً عليه بعد هذا إن شاء الله تعالى.

و(قوله: «لا تقوم الساعة حتى يُبعثَ دجَّالون كذَّابون قريباً من ثلاثين») وقد تقدَّم القول في اشتقاق اسم الدَّجَّال؛ وأنه المموّه بالكذب. قال القاضي أبو الفضل: هذا الحديث قد ظهر، فلو عُدَّ من تنبَّأ من زمن النبيِّ ﷺ إلى الآن ممن اشتهر بذلك وعُرف واتَّبعه جماعة على ضلاله لوجد هذا العدد فيهكم ومن طالع في كتب الأخبار والتواريخ عرف صحة هذا، ولولا التطويل لسردنا منهم هذا العدد.

* * *

باب الخليفة الكائن في آخر الزمان وفيمن يهلك أُمَّة النبي ﷺ وتقتل عماراً الفئة الباغية وإخماد الفتنة الباغية ولتفنى كنوز كسرى في سبيل الله

عن أبي نضرةَ، قال: كُنَّا عند جابرِ بنِ عبد الله، فقال: يوشك أهل العراق ألا يُجْبى إليهم قفيزٌ ولا درهَمٌ، قلنا: من أين ذاك؟ قال: من قِبَلِ العجم يَمْنَعُون ذاك. ثم قال: يوشك أهل الشَّأمِ ألا يُجْبَى إليهم دينارٌ ولا مُدْيٌ. قلنا: من أين ذاك؟ قال: من قِبلِ الروم. ثم أَسْكَتَ هُنَيَّةَ، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر أُمَّتي خَليفةٌ يَحثي المالَ حَثْياً ولا يَعُدُّهُ عَدداً». قيل لأبي نضرة وأبي العلاء: أَتَريَان أنه عمر بن عبد العزيز. فقالا: لا.

ومن باب: الخليفة الكائن في آخر الزمان

(قوله: «يكون في آخر أُمَّتي خليفةٌ يحثي المال حَثْياً، ولا يعدُّه عداً») أي: يصبُّه صباً، يُقال: حتى يحثي حثياً، وحثا يحثو حثواً، وقد وقع الفعلان في الأم، والمصدر حثياً بفتح الحاء، وإسكان الثاء، وضُبط عن أبي بحر حِثياً: بكسر الثاء، وتشديد الياء، وليس بمعروف، وإنما نفى أبو نضرة أن يكون هذا الخليفة هو عمر بن عبد العزيز لقوله ﷺ: «في آخر أُمَّتي»، وذلك لا يصدق على زمن عمر بن عبد العزيز إلا بالتوسُّع البعيد؛ ولأنه لم يَصُبَّ المال كما جاء في هذا الحديث. وقد روى الترمذي وأبو داود أحاديث صحيحة في هذا الخليفة، وسمَّياه بالمهدي، فروى الترمذي عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تذهبُ الدنيا حتى يملكَ العربَ رجلٌ من أهل بيتي يُواطىء اسمُه اسمي»، قال: حديث حسن صحيح. وخرَّجه أبو داود، وزاد فيه: يملأُ الأرضَ قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يُهْلِكُ أُمَّتي هذا الحيُّ من

وجَوْراً». ومن حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «لو لم يبقَ من الدنيا إلا يومٌ لطوَّل الله ذلك اليومَ حتى يَلِيَ رجلٌ من أهل بيتي يُواطىء اسمه اسمي». قال: حديث حسن صحيح. ومن حديث أبي سعيد قال: خشينا أن يكون بعد نبيِّنا حدث، فسألناه، فقال، فقال: «إن في أمتي المهدي، يخرجُ، يعيشُ خمساً، أو سبعاً، أو تسعاً ـ زيدٌ الشَّاكُّ ـ» قال: قلنا: وما ذاك؟ قال: «سنين قال: فيجيء إليه الرجلُ فيقول: يا مَهدي أعطني؛ يا مَهدي أعطني، قال: فيحثي له في ثوبه ما استطاعَ أن يحملَه»، قال: هذا حديث حسن. وروى أبو داود من حديث أبي سعيد الخدريّ قال: قال رسول الله ﷺ: المهديُّ في أمتي: أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرضَ قسطاً وعدلاً، كما مُلئت جَوْراً وظُلماً، يملكُ سبع سنين». وروى أيضاً أبو داود عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ عن رسول الله ﷺ قال: «يكونُ اختلافٌ عند موت خليفة، فيخرج رجلٌ من أهل المدينة هارباً إلى مكة، فيأتيه ناسٌ من أهل مكة فيخرجونه وهو كارهٌ، فيُبايعونه بين الرُّكْن والمقام، ويُبعث إليه بعثٌ من أهل الشام فيُخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة، فإذا رأى النَّاسُ ذلك أتاه أبدالُ أهل الشام، وعصائب أهل العراق فيُبايعونه، ثم ينشأ رجلٌ من قريش أخواله كَلْبٌ، فبعث إليهم بعثاً فيظهرون عليهم وذلك بعث كلبٌ، والخيبةُ لمن لم يشهدْ غنيمة كَلْب، فيقسمُ المالَ، ويعملُ في الناس بسُنَّة نبيِّهم، ويُلقي الإسلامُ بجرانه إلى الأرض فيلبثُ سبع سنين ثم يُتوفَّى، ويُصلِّي عليه المسلمون»، وفي رواية: «تسع سنين». فهذه أخبار صحيحة ومشهورة عن النبيِّ ﷺ تدلُّ على خروج هذا الخليفة الصالح في آخر الزمان، وهو يُنتظر إذ لم يُسمع بمن كملت له جميع تلك الأوصاف التي تضمنتها تلك الأخبار، والله تعالى أعلم.

و(قوله: «يُهلك أمتي هذا الحيُّ من قريش»، وفي البخاري: «هلاك أمتي على يديْ أُغيلمة من قريش») الحي: القبيل، وأشار النبيُّ ﷺ إلى قبيل قريش، وهو يُريد بعضَهم، وهم الأُغيلمة المذكورون في حديث البخاري، كما أنه لم يردْ بالأمة جميعَ أمَّته من أولها إلى آخرها؛ بل: ممن كان موجوداً من أمَّته في ولاية أولئك الأُغيلمة،

قريش». قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «لو أنَّ النَّاس اعْتَزلوهم».

وعن أبي سعيد، قال: أخبرني من هو خيرٌ منِّي - أبو قتادة -: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ لعمار حين جَعَلَ يَحْفِرُ الخندق وجعل يَمْسَح رَأْسَهُ ويقول: «بُؤسَ ابن سُمَيَّة! تَقْتُلُكَ فِئَةٌ باغِيَةٌ».

وكان الهلاك الحاصل من خؤلاء لأمته في ذلك العصر إنما سببه أن هؤلاءالأغلبية لصغر أسنانهم لم يتحنَّكوا، ولا جرَّبوا الأمورَ، ولا لهم محافظةٌ على أمور الدِّين، وإنما تصرُّفُهم على مقتضى غلبة الأهواء، وحِدَّة الشباب.

و(قوله: «لو أنَّ االنَّاسَ اعتزلوهم») لو: معناها التمني؛ أي: ليت الناس اعتزلوهم، فيه دليل على إقرار أئمة الجَورْ، وترك الخروج عليهم، والإعراض عن هَنَات ومفاسدَ تصدرُ عنهم، وهذا ما أقاموا الصلاة، ولم يصدرْ منهم كفرٌ بُراح عندنا من الله فيه برهان، كما قدَّمناه في كتاب الأمامة.

وهؤلاء الأُغيلمة كان أبو هريرة - رضي الله عنه - يعرف أسماءهم، وأعيانَهم، ولذلك كان يقول: لو شئت قلت لكم: هم بنو فلان، وبنو فلان، لكنَّه سكتَ عن يقينهم مخافةَ ما يطرزُ من ذلك من المفاسد، وكأنَّهم - والله تعالى أعلم - يزيد بن معاوية، وعبيد الله بن زياد، ومن تنزَّل منزلتَهم من أحداث ملوك بني أمية، فقد صدرَ عنهم من قَتْلِ أهل بيت رسول الله ﷺ وسبيهم، وقتل خيار المهاجرين والأنصار بالمدينة، وبمكة وغيرها، وغيرُ خافٍ ما صدرَ عن الحجَّج وسليمان بن عبد الملك، وولده من سفك الدماء، وإتلاف الأموال، وإهلاك خيار الناس بالحجاز، والعراق، وغير ذلك.

وأغيلمة: تصغير غِلْمَة، على غير مُكَبَّرِه؛ فكأنهم قالوا: أغلمة ولمك يقولوه، كما قالوا: أُصَيْبية بتصغير صبية. وبعضهم يقول: غليمة على القياس، وقد تقدَّم القول في الغلام، وأنَّ أصلَه فيمن لم يحتلم، ثم قد يتوسع فيه، ويقال على الحديث السن - وإن كان قد احْتلم - وعلى هذا جاء في هذا الحديث.

و(قوله ﷺ لعمَّار بن ياسر ـ رضي الله عنه ـ : « تقتُلكَ فئةٌ باغيةٌ »، وفي لفظ آخر: « الفئة الباغية ») هذه شهادة من النبي ﷺ على فئة معاوية بالبغى، فإنَّهم هم الذين قتلوه؛ فإنه كان بعسكر عليٍّ بصفِّين، وأبلى في القتال بلاءً عظيماً، وحرَّض أصحابَ رسول الله ﷺ على قتال معاويةَ وأصحابه. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: شهدنا مع علي صفينٌ رأيت عمار بن ياسر لا يأخذُ في ناحية من أودية صفِّين إلا رأيتُ أصحاب محمّد يتبعونه كأنه عَلَمٌ لهم، قال، وسمعتُه يقول يومئذٍ لهاشم بن عتبة: يا هاشم! تقدم، الجَنَّةُ تحت الأبارقة، اليوم ألقى الأحبَّة، محمَّداً وحزبه، والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا شغفات هَجَر لعلمنا أنا على الحقِّ، وأنهم على الباطل، ثم قال:

نحنْ ضربناكُم على تنزيله
فاليومَ نضربُكم على تأويله
ضرباً يُزيلُ الهام عن مقيله
ويُذهل الخليلَ عن خليله
أو يُرجعُ الحقُّ إلى سبيله

قال: فلم أر أصحاب محمد قُتلوا في موطن ما قُتلوا يومئذ. وقال عبد الرحمن بن أبزى: شهدنا صفين مع عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ في ثمانمئة ممن بايع بيعةَ الرضوان، قُتل منهم ثلاثة وستون، ومنهم عمَّار بن ياسر. وروى الشعبيُّ عن الأحنف ابن قيس في خبر صفِّين قال: ثم حملَ عمَّار بن ياسر فحملَ عليه ابن جزء السكسكي، وأبو الغاذية الفزاري، فأما أبو الغاذية فطعنه، وأما ابن جزء فاحتزَّ رأسه، وكان سنُّه وقت قُتل نيِّفاً على تسعين سنة، وكانت صفِّين في ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين، ودفنه عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ في ثيابه، ولم يُغَسِّلْه كما فُعل بشهداء أُحد، ولما ثبت أنَّ أصحابَ معاوية قتلوا عَماراً صدق عليهم خبرُ رسول الله ﷺ عنهم أنهم البغاة. وأنَّ علياً ـ رضي الله عنه ـ هو الحقُّ. ووجه ذلك واضح، وهو أن علياً ـ رضي الله عنه ـ أحقُّ بالإمامة من كلِّ من كان على وجه الأرض في ذلك الوقت من غير نزاع من معاوية، ولا من غيره. وقد انعقدت بيعته بأهل الحَلِّ والعقد من أصحاب رسول الله ﷺ وأهل دار الهجرة، فوجبَ على أهل الشام والحجاز والعراق وغيرهم مبايعته، وحرمت عليهم

مخالفته، فامتنعوا عن بيعته، وعملوا على مخالفته، وكانوا ظالمين، وعن سبيل الحق ناكبين، فاستحقُّوا اسمَ البغي الذي شهدَ به عليهم النبيُّ ﷺ ولا يُنجيهم من هذا تأويلاتُهم الفاسدة، فإنَّها تحريفات عن سُنن الحق حائدة. نقل الأخباريون: أن معاوية تأوَّل الخبر تأويلين:

أحدُهما: أنه قال بموجب الخبر فقال: نحن الباغية لدم عثمان ـ رضي الله عنه ـ أي: الطالبة له.

وثانيهما: أنه قال: إنما قتلَه من أخرجَه للقتل، وعرَّضه له، وهذان التأويلان فاسدان.

أما بيان فساد الأول: فالبغي ـ وإن كان أصلُه الطلب ـ فقد غلبَ عرف استعماله في اللُّغة والشرع على التعدِّي والفساد، ولذلك قال اللغويون، أبو عبيد وغيره، البغي: التَّعدي. ويغى الرجلُ على الرجل: استطالَ عليه. وبغت السماء: اشتدَّ مطرُها. وبغى الجرُح: ورم وترامى إلى فساد، وبغى الوالي: ظلم. وكلُّ مجاوزة وإفراط على المقدار الذي هو حدُّ الشيء بغيٌ. وبرىء جرحه على بغي: وهو أن يبرأ وفيه شيءٌ من نَغَلٍ، وعلى هذا فقد صار الحال في البغي كالحال في الصلاة، والدَّابة، وغير ذلك من الأسماء العرفية التي إذا سمعها السامعُ سبق لفهمه المعنى العرفي المستعمل، لا الأصلي الذي قد صار كالمطَّرح، كما بيَّناه في الأصول. وإلى حمل اللفظ على ما قلناه صار عبد الله بن عمرو بن العاص وغيره يوم قُتل عمَّار، وأكثرُ أهل العصر، ورأوا: أن ذلك التأويل تحريف. سلَّمنا نفي العرف، وأن لفظ الباغية صالح للطلب وللتعدّي، لكن النبيِّ ﷺ ذكرَ الفئة الباغية غي هذا الحديث في مَعرض إظهار فضيلة عمَّار وذمِّ قاتليه، ولو كان المقصود البغي الذي هو مجرد الطلب لما أفاد شيئاً من ذلك، وقد أفادَهما بدليل مساق الحديث فتأمَّله بجميع طرقه تجدْه كذلك. وأيضاً فلو كان ذلك هو المقصود لكان تخصيص قتلة عمَّار بالبغي الذي هو الطلب ضائعاً، لا فائدة له؛ إذ على وأصحابه طالبون للحقِّ ولقتة عثمان، لو تفرغوا لذلك، وتمكَّنوا منه، وإنما منعَهم من ذلك معاوية وأصحابُه بما أبدوا من الخلاف، ومن الاستعجال مع قول عليٍّ لهم: ادخلوا فيما دخلَ فيه الناس، ونطلبُ قتلةَ عثمان، ونقيمُ عليهم كتاب الله. فلم يلتفتوا لهذا، ولا عرَّجوا عليه، ولكن سبقت الأقدار، وعظمت المصيبة بقتيل الدار.

وفي روايةٍ: «وَيْسَ ابنِ سمية! أو: يا وَيْسَ».

ونحوه؛ عن أم سلمة.

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد مات كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هَلَكَ قَيْصَرُ فلا قَيْصَرَ بعده، والذي نَفْسي بيده لتّنفَقَن

وأما فساد التأويل الثاني فواضح؛ لأنه عدل عمن وُجد القتل منه إلى من لا تصح نسبته إليه، إذ لم يُجبرْ عمَّار على الخروج؛ بل: هو خرجَ بنفسه وماله مجاهداً في سبيل الله، قاصداً لقتال من بغى على الإمام الحقِّ، وقد نقلنا ما صدرَ عنه في ذلك. وحاش معاوية عن مثل هذا التأويل، والعهدة على الناقل، بل قد حكى عن معاوية أنه قال عندما جاءه قاتل عمَّار برأسه: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «بَشِّروا قاتلَ ابن سُميَّة بالنَّار». فلما سمعَ القاتلُ ذلك قال: يئست البشارة، وبئست التحفة، وأنشد في ذلك شعراً، والله أعلم بحقيقة ما جرى من ذلك. وقد تقدَّم قول النبي ﷺ في الخوارج: «تقتلُهم أوْلَى الطائفتين بالحقِّ»، والقاتل لهم هو علي - رضي الله عنه - وأصحابه.

و(قوله: «بُؤْسَ ابن سُميَّة») هو منادى مضاف محذوف حرف النداء تقديره: يا بؤسَ ابن سميّة، وهي أمُّ عمَّار، والبأس والبؤس والبأساء: المكروه والضرر، وفي الرواية الأخرى: «يا ويسَ ابن سميَّة»، وفي البخاري: «يا ويح ابن سُميَّة»، وكلاهما بمعنى التفجُّع والترحُّم. والويل: بمعنى الهلكة، هذا هو الصحيح، وقد تقدَّم الخلاف فيهما.

و(قوله: «لقد مات كسرى فلا كسري بعدَه، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده») كذا جاء هذا الحديث في الأم، قد مات كسرى بلفظ الماضي المحقق بقد، وقد وقع هذا اللفظ في كتاب الترمذي من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - وعنه سعيد ابن المسيب، وعنه الزهري، وعنه سفيان، وبهذا السند رواه مسلم، غير أن الترمذي قال: «إذا هلكَ كسرى»، ولم يقل: «قد مات» وبين اللفظين بون عظيم، فلفظ مسلم يقتضي أن كسرى قد كان وقع موته، فأخبرَ عنه النبيُّ ﷺ، وعلى هذا يدُلُّ حديث أبي بكرة الذي خرَّجه البخاري قال: لما بلغَ رسولُ الله ﷺ أنَّ أهلَ فارسَ قد ملَّكوا

كُنُوزُهُما في سبيل الله!».

عليهم بنت كسرى، قال: «لن يُفلحَ قومٌ ولَّوا أمرَهم امرأة» يعني: أنه لما مات كسرى ولَّوا عليهم ابنته، وعلى هذا فلا يصح أن يُقال: مكان: «قد مات»: «إذا مات»، ولا «إذا هلك»؛ لأن إذا للمستقبل، ومات للماضي، وهما متناقضان، فلا يصح الجمع بينهما لاتحاد الراوي، واختلاف المعنى، إلا على تأويل بعيد، وهو أن يقدَّر أن أبا هريرة سمعَ الحديث من النبيِّ ﷺ مرتين، فسمع أولاً إذا هلك كسرى، وبعدَه: قد هلك كسرى، فيكون النبيُّ ﷺ قال الحديث الأول قبل موت كسرى؛ لأنه علم أنه يموتُ ويهلك، ويكون النبيُّ ﷺ أيضاً قال الحديث الثاني بعد موته، ويحتمل أن يُفرَّق بين الموت والهلاك، فيقال: إن موت كسرى كان قد وقع في حياة النبيِّ ﷺ فأُخبر عنه بذلك، وأما هلاك ملكه، فلم يقع ذلك إلا بعد موت النبيِّ ﷺ وموت أبي بكر، وإنما هلك ملكه في خلافة عمر رضي الله عنه على يدي سعد بن أبي وقَّاص وغيره من الأمراء الذين ولاَّهم عمرُ حربَ فارسَ، فهزموا جموعَه، وفتحوا بلاده، وانتقلوا كنوزَه إلي المدينة، وذخائرَه، وحلْيتَه، حتى تاجَه كما هو المعروف في كتب التواريخ. وكان موت كسرى وتمزيق ملكه بسبب دعوة النبيِّ ﷺ كما خرَّجه البخاريُّ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رسولَ الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة السهميِّ، فأمرَه أن يدفعَه إلى عظيم البحرين، فدفعَه عظيمُ البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزَّقه، فحسبتُ أن ابن المسيب قال: فدعا رسول الله ﷺ أن يُمزَّقُوا كلَّ مُمَزَّق، فعجَّل الله تعالى موته، ومَزَّق بعد ذلك ملكَه. وقد تقدَّم أن كلَّ ملك للفرس يُقال له كسرى، وكلَّ ملك للروم يُقال له قيصر، وكلَّ ملك للحبشة يُقال له: النجاشي. ويُقال كَسرى بفتح الكاف، وهو قول الأصمعي، والكسر لغيره.

و(قوله: «فلا كسرى بعده، ولا قيصرَ بعده»). قال القاضي: معناه عند أهل العلم: لا يكون كسرى بالعراق، ولا قيصر بالشام، فأعلم بانقضاء ملكهما، وزواله من هذين القطرين، فكان كما قال، وانقطع أمر كسرى بالكليّة، وتمزَّق ملكُه واضمحلَّ. وتخلَّى قيصرُ عن الشام، ورجعَ القهقرى إلى داخل بلاده، واحتوى المسلمون على ملكهما، وكنوزهما، وأنفقا في سبيل الله، كما أخبر عنه نبيُّنا محمد ﷺ.

وعن جابر بن سمرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَتَفْتَحَنَّ عِصَابَةٌ من المُسلمِينَ - أو من المؤمنين - كَنْزَ آلِ كِسرى الّذي في الأبْيَض»، وقد روى: (من المسلمين) ولم يشك.

* * *

و(قوله: «لتَفْتَحَنَّ عصابةٌ من المسلمين كنز آل كسرى») العصابة: الجماعة من الناس والطير والوحش، سَمُّوا بذلك؛ لأنهم يشدُّ بعضهم بعضاً، والعَصْب: هو الشدُّ. والعُصْبة: ما بين العشرين إلى الأربعين، وإنما أطلقَ النبيُّ ﷺ على المفتتحتين كنز كسرى: عصابة، وإن كانوا عساكر بالنسبة إلى عدد عدوهم وجيوشه، فإنهم كانوا بالنسبة إليهم قليلاً. ويحتمل أن يُريد بالعصابة الجماعة السابقة لفتح القصر الأبيض دون الجيش كله؛ فإن الله لما هزمَ الفرسَ وجيوشَهم العظيمة على يدي سعد بن أبي وقّاص - رضي الله عنه - وعسكره، وكان عدد من معه يوم فتح القادسيَّة ستة آلاف، أو سبعة آلاف على ما ذكره محمد بن جرير الطبري. فرَّ المنهزمة من الفرس إلى المدائن منزل كسرى، فتبعهم المسلمون إلى أن وصلوا إلى دجلة، وهي تقذف بالزَّبَد، فاقتحمها المسلمون فرساناً ورجَّالة، خائضين يتحدَّث بعضهم مع بعض، فلما رأى ذلك الفرسُ هالَهم ذلك، فتحففوا بما أمكنهم من المال والذخائر النفيسة، وفرّوا، ولم يبقَ فيها إلا من ثَقُل عن الفرار. ودخل المسلمون المدائنَ، وفيها القصرُ الأبيض الذي فيه إيوان كسرى، وأموالهُ، وذخائره النفيسة التي لم يُسمع بمثلها. قال أهل التاريخ. كان في البيت الأبيض ثلاثة آلاف ألف ألف ألف - ثلاث مرات - غير أن رستماً لما فرَّ منهزماً حملَ معه نصفَ ما كان في بيوت الأموال، وتركَ النصف الآخر، فملَّكه الله المسلمين، فأصابَ الفارس من فيء المدائن اثنا عشر ألفاً، ولما دُخل القصر الأبيض وجدوا فيه ملابس كسرى، وحلْيته، وبساطه الذي ما سُمع في العالمين بمثله، فجاؤوا بكلِّ ذلك إلى عمر - رضي الله عنه - فكان ذلك كلُّه مظهراً لصدق رسول الله ﷺ للعيان بحيث يضطر إليه كل إنسان.

* * *

باب ما ذكر من أنَّ ابن صياد: الدَّجالُ

عن أبي سعيد الخدري، قال: خرجنا حُجَّاجاً ـ أو عُمَّاراً ـ ومعَنا ابنُ صَائد. قال: فَنَزلنا مَنْزِلاً، فتفرَّق الناسُ وبَقيتُ أنا وهو، فاستوحشت منه وحشةً شديدةً مما يقال عليه. قال: وجاء بمتاعه، فوضعه مع متاعي، فقلتُ: إنَّ الحرَّ شديدٌ فلو وضعته تحت تلك الشجرة! قال: ففعل. قال: فرُفِعَتْ لنا غَنَمٌ، فانطلق، فجاء بعُسٍّ، فقال: اشرب أبا سعيد! فقلت: إنَّ الحر شديدٌ، واللبنُ حارٌ. ما بي إلا أنِّي أكره أنْ أشرَبَ عن يده ـ أو قال: آخذه عن يده ـ فقال: أبا سعيد! لقد هممتُ أن آخذ حبلاً، فأعلِّقَهُ بشَجَرة، ثم أَخْتَنِقُ مما يقول لي الناس! يا أبا سعيد! من خفي عليه حديثُ رسولِ الله ﷺ ما خفي عليكم معشر الأنصار ألستَ من أعلم الناس بحديث رسول الله ﷺ؟ أليس قد قال رسول الله ﷺ: «هو كافرٌ» وأنا مسلم؟ أو لَيس قد قال رسول الله ﷺ: «هو عقيم لا يولد له» وقد تركت ولدي بالمدينة؟ أو ليس قد قال

ومن باب: ما ذكر في ابن صيَّاد

ويُقال: ابن صائد، واسمه صاف، وكل ذلك في الحديث. قال الواقدي: نسبه في بني النجار، وقيل: هو من اليهود، وكانوا حلفاء بني النجار، وكانت حاله في صغره حالة الكُهَّان يصدق مرَّة، ويكذب مراراً، ثم إنه أسلمَ لما كبر، وظهرت منه علامة الخير من الحجِّ والجهاد مع المسلمين، ثم ظهرت منه أحوال، وسُمعت منه أقوالٌ، تُشعر بأنه الدَّجَّال، وبأنه كافر، كما يأتي في تفاصيل أحاديثه، فقيل: إنه تابَ ومات بالمدينة، ووُقف على عينه هناك، وقيل: بل فُقد في يوم الحَرَّة، ولم يُوقف عليه. وكان جابر وابن عمر ـ رضي الله عنهم ـ يحلفان أنه الدَّجَّال، لا يَشكَّان فيه. وعلى الجملة فأمره كلُّه مشكل على الأمة، وهو فتنةٌ ومحنة. وقد تقدَّم أن الأُطْمَ: هو الحصن، ويُجمع: آطام. ويروى أطم ابن مَغَالة، وبني مغالة، وكلاهما صحيح، وبنو مَغَالة بغين

رسول الله ﷺ : «لا يدخل المدينة ولا مكة» وقد أقبلت من المدينة وأنا أريد مكة. ـ وفي رواية: قد حججت ـ. قال أبو سعيد: حتى كِدْتُ أن أعذره! ثم قال: أما والله إني لأعرفه، وأعرف مولده، وأين هو الآن! قال: قلت له: تبّاً لك سائر اليوم.

وفي رواية: قال: وقيل له: أَيَسُرّك أنَّك ذاك الرَّجل؟ قال: فقال: لو عُرِضَ عَليَّ ما كَرِهْتُ.

معجمة. وفي حديث ابن حُميد، وفي حديث الحلواني: بني معاوية، والأول المعروف. وبنو مغالة: كل ما كان عن يمينك إذا وقفت آخرَ البلاط مستقبلَ مسجد النبيِّ ﷺ، وبنو جديلة ما كان عن يسارك، ومسجد النبيِّ ﷺ في بني مَغَالة، قاله الزبير. وقال بعضهم: بنو مَغَالة حيٌّ من قُضاعة، وبنو معاوية: هم بنو جديلة.

و(قوله: «فرفصه») رسول الله ﷺ ـ بالفاء والصاد المهملة ـ رواية الجماعة. قال بعض الشارحين: الرَّفْصُ: الضرب بالرجل، مثل الرفس.

قال الشيخ رحمه الله: وهذا ليس بمعروف عند أهل اللغة، وإنما رفس بالسين المهملة. يُقال: رفَسه يرفِسُه ويرفُسُه؛ إذا ضربه برجله. فأما رفص بالصاد: فهو من الرفصة، وهي النوبة من الماء تكون بين القوم، وهم يترافصون الماءَ، أي: يتناوبونه، وقد وقع عند الصدفي: فرفضه بضاد معجمة. قال القاضي: وهو وَهْمٌ.

قال الشيخ رحمه الله: ويحتمل أن يقال: ليس بوهم، ويكون معناه من الرفض، وهو الرمي، وكأنه أعرض عنه، ولم يلتفت إليه لما سمع منه ما سمع، فعل المغضب. وأبعد من هذه ما وقع في البخاري من رواية المروزي: فرقصه بالقاف والصاد المهملة، وفي حديث كتاب الأدب من البخاري، فَرَضَّه: بالضاد المعجمة من الرَّضِّ، وقال بعضهم فيه: فَرَضَّهُ: بالضاد المعجمة من الرَّضِّ، وقال بعضهم فيه: فرصَّه بالصاد المهملة؛ أي: ضغطه.

وعن عبد الله بن عمر، أنَّ عمر بن الخطاب انطلق مع رسول الله ﷺ في رهط قِبل ابن صَيَّاد حتى وَجَده يلعب مع الصِّبيان عند أُطُمِ بني مَغَالةَ؛ وقد قارب ابنُ صيَّادٍ يومئذٍ الحُلُمَ، فلم يشعر حتى ضرب رسول الله ﷺ ظهره بيده، ثم قال رسول الله ﷺ لابن صياد: «أتشهد أنِّي رسول الله؟»، فنظر إليه ابنُ صيَّادٍ، فقال: أشهد أنَّك رسولُ الأميين. فقال ابن صياد لرسول الله ﷺ: أتشهد أني رسولُ الله؟ فرفَضَهُ رسولُ الله ﷺ، وقال: «آمنتُ بالله وبرسله». ثم قال له رسول الله ﷺ: «ماذا ترى؟» قال ابن صياد: يأتيني صَادقٌ وكاذبٌ، فقال له رسول الله ﷺ: «خُلِّطَ عَلَيْكَ الأمر!»، ثم قال له

و(قوله: يأتيني صادقٌ وكاذب) يعني به: تابعه من الشيطان، كان تارة يصدقُ له، وتارة يكذبُ، وهذه حالة الكُهَّان.

و(قوله: خُلِّطَ عليكَ الأمر») أي: لبَس عليك تابعُك الجنيُّ حالَك.

و(قوله: ﷺ: «خبئت لك خبيئاً») رواية الجماعة خبيئاً بكسر الباء، وعند التميمي: خَبْأً بسكونها، وكلاهما بمعنى. في الصحاح: الخبءُ: ما خبىءَ، وكذلك: الخَبيئُ، وكلاهما مهموز. واختلف في هذا المُخبّأ ما هو، فالأكثر على أنه: أضمر له في نفسه: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ [1] وقال الداودي: وكانت في يده الدخان مكتوبة، وعلى هذا فيكون قوله الدُّخ يعني به الدُّخان. قالوا: هي لغة معروفة في الدُّخان، وأنشدوا:

عِنْدَ رِوَاقِ البَيْتِ يَغْشَى الدُّخَّا

وحكى هذه اللغة في الصحاح، ووجدته في كتاب الشيخ: الدخ: ساكن الخاء، ومصححاً عليه، أعني: الذي جاء في الحديث، وكأنه على الوقف، وأما الذي في الشعر فهو مشدَّد الخاء، وكذلك قرأته في الحديث فيما أعلم. وقيل: إنما أراد ابن

---

(1) سورة الدخان الآية 10

رسول الله ﷺ: «إني قَدْ خَبَّأْتُ لك خبيئاً». فقال ابن صَيَّاد: هو الدُّخُّ! فقال له رسول الله ﷺ: «اخْسَأْ! فلن تعدو قَدْرَكَ». فقال عمر بن الخطاب: ذَرْني يا رسول الله أضربْ عُنُقه! فقال له رسول الله ﷺ: «إن يَكُنْه فلن تُسَلَّط عليه! وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله!».

صياد أن يقولَ: الدُّخان فزجره النبيُّ ﷺ فقال: الدُّخ، وهذا فيه بعد. وقيل: الدُّخ: نبت موجود بين النخيل والبساتين خبَّأه له.

واخسأ: أجر للكلب، وبمن يُذمُّ ويُهان.

و(قوله: «لن تَعْدُوَ قَدْرَكَ») أي: لن تجاوزَ حالة الكُهَّان المتخرِّصين الكذَّابين، لا يليقُ بك إلا ذلك. وإنما اختبرَه النبيُّ ﷺ بذلك لينظرَ هل طريقتُه طريقة الكُهَّان، أو لا فظهرَ أنه كذلك. وأنَّ الشياطين تلعبُ به، وتُلَبِّسُ عليه.

و(قوله ﷺ لعمر ـ رضي الله عنه ـ: إن يَكُنْهُ، فلن تسلَّطَ عليه، وإن لم يَكُنْهُ فلا خيرَ لك في قتله») هذا يدلُّ على أن النبيَّ ﷺ لم يتَّضحْ له شيءٌ من أمر كونه هو الدَّجال أم لا. وليس هذا نقصاً في حقِّ النبيِّ ﷺ؛ لأنه لم يكنْ يعلمُ إلا ما علَّمه الله، وهذا مما لم يُعْلِمْه الله تعالى به، ولا هو مما تُرهِقُ إلى علمه حاجةٌ لا شرعية، ولا عاديَة، ولا مصلحيّة، ولعلَّ الله تعالى قد علم في إخفائه مصلحةً فأخفاه. والذي يجبُ الإيمان به: أنه لابُدَّ من خروج الدَّجَّال يدَّعي الإلهية، وأنه كذَّاب أعور، كما جاء في الأحاديث الصحيحة الكثيرة التي قد حَصَّلت لمن عاناها العلمَ القطعيَّ بذلك.

و(قوله: «وإن لم يكنْه، فلا خيرَ لك في قتله») أي: لأنه صبيٌّ حينئذٍ. وقيل: لأنه كان لقومه عهدٌ من النبيِّ ﷺ كما عاهدَ يهودَ المدينة، أو لأنه من حلفاء بني النجار كما تقدَّم. وهذا الضمير المتصل في يكنه هو خبرها، وقد وُضع موضعَ المنفصل، واسمُها مستتر فيها، ونحوه قول أبي الأسود الدُّؤلي:

وقال أيضاً: انطلقَ بعد ذلك رسولُ الله ﷺ وأُبيّ بن كعب إلى النَّخل التي فيها ابن صَيَّاد؛ حتى إذا دخل رسول الله ﷺ النخل طَفِقَ يَتَّقي بجذوع النخلَ، وهو يَخْتل أن يسمع من ابنِ صيَّاد شَيْئاً قبل أن يراه ابنُ صيَّاد، فرآه رسول الله ﷺ وهو مضطجع على فراشٍ في قَطِيفةٍ لَهُ فيها زَمْزَمَةٌ، فرأتْ أمُّ ابن صياد رسولَ الله ﷺ وهو يتقي بجذوع النخل، فقالت لابن صيَّاد: يا صَاف! ـ وهو اسم ابن صياد ـ هذا محمد! فَثَار ابنُ صيَّاد. فقال رسول الله ﷺ: «لو تَرَكَتْهُ بَيَّن». قال عبد الله: فقام رسولُ الله ﷺ في النَّاس فأثني

دَعِ الخَمْرَ تَشْرَبُها الغُوَاةُ فَإِنَّني ... رَأَيْتُ أَخاهَا مُغْنياً بمَكَانها
فَإِنْ لا يَكُنْها أوْ تَكُنْهُ فَإِنَّهُ ... أَخُوها غَذَتْهُ أُمُّهُ بِلِبَانِها

و(قوله: طَفِق يتقي) أي: أخذ وجعل، وقد تقدَّمَ أنها من أفعال المقاربة. ويتقي: يستتر بجذوع النخل؛ أي: يا هول النخل.

و(قوله: فثار ابن صياد) أي: وثب وثبة شديدة.

و(قوله ﷺ: «لو تركتْه بيَّنَ») أي: كان يُعبِّر عن حاله في نومه، هل هو الدَّجَّال، أم لا؟ وقد يُشكل هذا مع قوله: «رُفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظَ...» وبالإجماع على أن النائم غيرُ مؤاخذ بما يقوله في حال نومه، ولا بما يصدرُ عنه. ولا يُعوَّل على هذا الإشكال؛ لأن هذا ليس من باب المؤاخذة، ولا التكليف، وإنما هو من باب النظر في قرائن الأحوال؛ فإن النائم الغالب عليه أنه يتكلَّم في نوه بما يكون غالباً عليه في يقظته، ولعلَّ النبيَّ ﷺ كان ينتظرُ أن يظهرَ له منه في حال نومه ما يدلُّ على حاله دلالةً خاصَّة به، والله تعالى أعلم.

و(قوله: «إني لأُنذركم الدَّجَّال، وما من نبيٍّ إلا وقد أنذرَه قومَه، لقد أنذرَه نوحٌ قومَه») إنما كان هذا من الأنبياء لما علموا من عظيم فتنته، وشدَّة محنته، على ما يأتي تفصيلها في الأحاديث المذكورة بعد؛ ولأنهم لما لم يُعيَّن لواحد منهم زمان خروجه، توقَّعَ كلُّ واحد منهم خروجه في زمان أمته، فبالغ في التحذير. وفائدة هذا

على الله بما هو له أهلٌ، ثم ذكر الدجَّال فقال: «إنِّي لأنذركمُوه، ما من نبي إلا وقد أَنْذَرَهُ قَومَهُ، لقد أَنْذَرَه نُوحٌ قَومَهُ، ولكن أقُولُ لَكُم فِيه قولاً لم يقلْهُ نبي لقومه، إنَّه أعورُ، وإنَّ الله تبارك وتعالى ليس بأعور».

الإنذار الإيمان بوجوده، والعزم على معاداته ومخالفته، وإظهار تكذيبه، وصدق الالتجاء إلى الله تعالى في التَّعوُّذ من فتنته. وهذا مذهب أهل السُّنَّة، وعامَّة أهل الفقه والحديث، خلافاً لمن أنكر أمرَه وأبطلَه من الخوارج وبعض المعتزلة، وخلافاً للجُبَّائي من المعتزلة، ومن وافقنا على إثباته من الجهمية وغيرهم. لكن زعموا أن ما عنده مَخَارِقُ وحِيَلٌ، قال: لأنها لو كانت أموراً صحيحة لكان ذلك إلباساً للكاذب بالصادق، وحينئذ لا يكون فرقٌ بين النبيِّ والمتنبيء. وهذا هذيان لا يُلتفت إليه؛ فإن هذا إنما كان يلزُمُ لو أن الدَّجَّال يدَّعي النبوة، وليس كذلك؛ فإنه إنما ادعى الإلهية، وكذبُه في هذه الدعوى واضح للعقول؛ إذ أدلة حَدَثه ونقصه وفقره مدرك بأول الفطرة، بحيث لا يجهل من له أدنى فكرة. وقد زاد النبيُّ ﷺ هذا المعني إيضاحاً في هذا الحديث من ثلاثة أوجه: أحدها بقوله: «ولكن أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لامته، إنه أعور وإن الله ليس بأعور» وهذا تنبيه للعقول القاصرة أو الغافلة على أن من كان ناقصاً في ذاته، عاجزاً عن إزالة نقصه، لم يصلحْ لأن يكون إلهاً لعجزه وضعفه، ومن كان عاجزاً عن إزالة نقصه كان أعجزَ عن نفع غيره، وعن مَضَرَّته.

وثانيهما: قوله: «إنه مكتوبٌ بين عينيه كافر، يقرؤُه كلُّ مؤمن كاتبٌ وغير كاتب» وهذا أمر مشاهد للحسِّ يشهدُ بكذبه وكفره.

وثالثها: قوله: «تعلموا أنه لن يرى أحدٌ منكم ربَّه حتى يموتَ»، وهذا نص جليٌّ في أنَّ الله تعالى لا يُرى في هذه الدار، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ** ﴾ [1] أي: في الدنيا، ولقوله تعالى لموسى عليه السلام ـ: ﴿ **لَن تَرَانِي** ﴾ [2] أي في الدنيا. ولقوله: ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً..** ﴾ [3].

---

(1) الأنعام 103
(2) الأعراف 143
(3) الشورى 51

وقال بعضُ أصحابِ رسول الله ﷺ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ يوم حذَّر النَّاس الدَّجالَ: «إنَّه مكتوب بينْ عَيْنيْه: كَافرٌ؛ يقرؤه مَنْ كَرِه عَمَلَهُ ـ أو: يَقْرؤهُ كلُّ مؤمن ـ». وقال: تَعَلَّموا: أنَّه لن يَرى أحدُكم ربَّه حتى يموت».

وحاصل هذا: أن الصادقَ قد أخبرَ أن الله تعالى لا يراه أحدٌ في الدنيا، والدَّجَّال يراه الناسُ، فليس بإله، وهذا منه ﷺ نزول إلى غاية البيان بحيث لا يبقى معه ريبة لإنسان، وقد تقدَّم الخلاف في رؤية نبيِّنا محمد ﷺ: ربَّه في كتاب الإيمان، وقد قلنا: أنه لم يثبت في الباب قاطع يُعقد عليه. والأصل التمسك بما دلت هذه الأدلة عليه. وقد تأول بعض الناس قوله ﷺ: «مكتوبٌ بين عينيه كافر». وقال: معنى ذلك ما ثبت من سمات حدثه، وشواهد عجزه، وظهور نقصه. قال: ولو كان على ظاهره وحقيقته لاستوى في إدراك ذلك المؤمن والكافر، وهذا عدولٌ وتحريف عن حقيقة الحديث من غير مُوجب لذلك، وما ذكرَه من لزوم المساواة وتحريف عن حقيقة الحديث من غير مُوجب لذلك، وما ذكرَه من لزوم المساواة بين المؤمن والكافر في قراءة ذلك لا يلزم لوجهين:

أحدهما: أنَّ الله تعالى يمنعُ الكافرَ من إدراكه، لا سيما وذلك الزمان قد انخزقت فيه عوائد، فليكن هذا منها. وقد نصَّ على هذا في بعض طرقه فقال: «يقرؤه كلُّ مؤمن كاتبٍ وغير كاتب»، وقراءة غير الكاتب خارقة للعادة.

وثانيهما: أن المؤمنَ إنما يُدركه لتثبُته، ويقظته، ولسوء ظنِّه بالدَّجَّال، وتخوُّفه من فتنته، فهو في كل حال يستعيدُ النظر في أمره، ويستزيدُ بصيرةً في كذبه، فينظر في تفاصيل أحواله، فيقرأ سطورَ كفره. وضلاله، وبتبيُّن عينَ محاله. وأما الكافرُ فمصروفٌ عن ذلك كلِّه بغفلته وجهله، وكما انصرف عن إدراك نقص عوره، وشواهد عجزه، كذلك يُصرف عن فهم قراءة سطور كفره ورمزه.

وأما الفرق بين النبيِّ والمتنبِّيء فالمعجزة لا تظهرُ على يديْ المتنبِّيء؛ لأنه يلزمُ منه انقلاب دليل الصدق دليل الكذب، وهو محال، وللبحث فيها مجال في علم الكلام. وأما من قال: أن ما يأتي به الدجال حيل ومخارق، فهو معزول عن الحقائق؛ لأن ما أخبر به النبيُّ ﷺ من تلك الأمور حقائق لا يُحيل العقلُ شيئاً منها، فوجبَ

وعن أبي سعيد، وذكر بعض ما تضمنه هذا الحديث، قال فيه: فقال له رسول الله ﷺ: «ما ترى؟»، قال: عرشاً على الماء فقال ﷺ: «ترى عرش إبليس على البحر؟».

إبقاؤها على حقائقها، وسيأتي تفصيلها. والرواية في تعلَّموا بتشديد اللام بمعنى: اعلموا وتعلَّموا.

و(قول: «فرُفِعَت لنا غنمٌ») أي: أبصرناها على بعد، وكان الآل الذي هو السراب رفعها لهم؛ أي: أظهرَها. والعُسُّ: بضم العين: القدح الكبير.

و(قوله ابن صَيَّاد لأبي سعيد: أليس قد قال رسول الله ﷺ: «هو كافر» وأنا مسلم الخ...) هذا الحديث من أوله إلى اخره يدلُّ على أن هذه القصة اتفقت لأبي سعيد مع ابن صَيَّاد بعد أن كبر، وصارَ رجلاً ووُلد له، وبعد موت النبيِّ ﷺ، وأنَّ ابنَ صياد أسلم وحجَّ، وأنه حفظ الحديث عن رسول الله ﷺ، ولذلك ذكره ابنُ جرير وغيره في الصحابة، غير أنه قد ظهرت منه في هذا الحديث أمورٌ بعضها كفر، وذلك قوله: لو عُرِضَ عليَّ ما كرهتُ، فإن من يرضى لنفسه دعوى الإلهية، وحالة الدَّجَّال هو كافر، ولا يتصور في هذا خلاف، وبعضها يُشعر بأن الدَّجَّال، وهو قوله: والله إني لأعرفه، وأعرف مولدَه، وأين هو. زاد الترمذيُّ، وأين هو الساعة من الأرض، وأعرف والده. فإن هذا يقارب النَّصَّ في أنه هو، وما لبَّسَ به من أنه مسلمٌ فسيكفر، أو هو منافق كافر في الحال، وحجُّه وغيره مُحْبَط بكفره، أو لعلَّه كان ذلك منه نفاقاً. وأما كونُه لا يولد له، ولا يدخلُ مكَّة والمدينة، فيحتمل أن يكون ذلك منه إذا خرج على الناس، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك.

و(قول أبي سعيد الخدريَ له: تباً لك سائرَ اليوم)؛ أي: خساراً لك دائماً؛ لأن اليوم هنا يُراد به الزمان، وتبّاً: منصوب بفعل مضمر لا يُستعمل إظهاره، أي: لقيت تبّاً، أي: تباباً، أو صادفت، أو لقَّاه الله تباباً.

و(قول ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: لقين ابن صائد مرتين، فقلت لبعضهم: هل تُحدِّثون أنه هو؟) يعني: لبعض من كان معه، والذي قال: لا؛ والله هو ذلك

وعن ابن عمر، قال: لَقِيتُ ابن صَيَّاد مرتين، فقلت لبعضهم: هل تَحدَّثُون أنه هو؟ قال: لا والله! قال: قُلْتُ كَذَبْتَني، والله لقد أخبرني بعضكم: أنَّه لن يموتَ حتى يَكونَ أكْثَركُم مالاً وولداً، فكذلك هُو زَعموا اليوم! قال: فَتَحدَّثْنَا، ثم فارقْتُه. قال: فلقيتُه لَقْيَةً أُخرى وقد نَفرتْ عَيْنُهُ.

البعض الذي خاطبه وله قال ابن عمر: كذبتني، الأترى أنه خاطبه بقوله: لقد أخبرني بعضُكم، ولا يُتخيَّلُ أن الخطاب لابن صياد؛ لأنه لم يتكلم معه بهذه اللقيا، وإنما تكلَّم معه في اللُّقيَة الأخرى.

و(قوله: لقد أخبرني بعضُكم أنه لن يموتَ حتى يكونَ أكثركم مالاً وولداً، فكذلك هو زعموا اليوم) مثل هذا الخبر لا يُتوصَّل إليه رلا بالنقل، ولم يكن عندهم شيٌ يعتمدونه إلا الخبر عن رسول الله ﷺ فهو مرفوع بالمعنى لا باللفظ، فكأنه قال: أخبرني بعضُكم عن النبيِّ ﷺ.

و(قوله: فلقيته لُقيةً أخرى، وقد نفرتْ عينه) كذا وقع لأكثرهم والصواب الفتح في اللام من لقية؛ لأنه مصدر، ولم يحكه ثعلب إلا بالرفع. ونفرت: بالنون والفاء المفتوحين: رواية جماعة الشيوخ؛ أي: ورمت، وفي أصل القاضي التميمي: نقرت وفقئت معاً، فقلت: فقئت في الموضعين، وكتب على الأول بخطه: نقرت - بالنون والقاف -. ورواه أبو عبد الله المازُوريَ: نفرت بالفاء، وهي كلُّها متقاربة، وأشبهها الأولى، فإن عينه في ذلك الوقت لم تكن مفقوءة؛ إذ لو كان ذلك لكان من أعظم الأدلة على أنه الدَّجَّال، ولاستدلَّ بذلك من قال: إنه هو على من خالفه في ذلك، ولم يرد ذلك، غير أنه قد حكى أبو الفرج الجوزي في أنه: وُلد وهو أعور مختون مسرور، وهذا فيه نظر؛ لأن الظاهر من هذا الحديث أشهر مما ذكر. ويحتمل أن يكون ذلك الورم مبتدأ فقء عينه إن كان هو الدَّجَّال، والله أعلم. وكون ابن عمر لم يشعر بضربه لابن صيَّاد بالعصا حتى تكسَّرت، كان ذلك لشدة مَوْجِدَته عليه، وكأنه تحقَّق منه أته الدَّجَّال.

قال: فقلت: متى فعلت عينك ما أرى؟ قال: لا أدري! قال: قلت: لا تدري وهي في رأسك؟ قال: إن شاء الله خلقها في عَصَاك هذه. قال: فَنَخَر كأشدِّ نخير حمارٍ سَمِعْتُ. قال: فزعم بعضُ أصحابي: أنِّي ضربته بعصا كانت معي حتى تكسَّرتْ وأمَّا أنا فوالله ما شعرت! قال: وجاء حتى دخل على أمِّ المؤمنين فحدَّثَها، فقالت: ما تريد إليه؟ ألم تعلم أنه قد قال: «إنَّ أوَّلَ ما يبعثُه على النَّاس غَضَبٌ يَغْضَبُهُ».

وفي رواية أن ابن عمر لقي ابن صيَّاد في بعض طرق المدينة، فقال قولا أغضبه، فانتفخ حتى ملأ السِّكَّةَ، فذخل ابن عمر على حفصة وقد بلغها، فقالت له: يرحمك الله ما أردت من ابن صيَّاد؟ أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: إنما يخرج من غَضْبَةٍ يَغْضَبُهَا.

* * *

و(قوله: فنخرَ كأشدِّ نخيرِ حمارٍ سمعتُ) التخير: صوت الأنف. تقول منه: نَخَرَ يَنْخِرُ يَنْخُرُ نَخيراً.

و(قوله: فقال له قولاً أغضبَه) يعني: أن ابن عمر قال لابن صيَّاد قولاً غضب ابنُ صياد لأجله، فانتفخَ حتى ملأ السِّكَّة، وهي الطريق، وتُجمع سككاً، وهذا الانتفاخ محمولٌ على حقيقته وظاهره، ويكون هذا أمراً خارقاً للعادة في حقِّ ابن صيَّاد، ويكون من علامات أنه الدَّجَّال؛ لأن هذا موافق لما قالته حفصةُ ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ: «إنما يخرجُ من غضبة يَغضَبُها». وقد اجتمعت في أحاديث ابن عمر هذه قرائن كثيرة تفيد: أن ابن صيَّاد هو الدَّجَّال، ولذلك كان ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قد اعتقد ذلك وصمَّم عليه بحيث كان يحلفُ على ذلك، وكذلك جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهم ـ.

* * *

باب في صفة الدَّجال وما يجيء معه من الفتن

عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لأنا أعلم بما مع الدَّجال منه! معه نهران يجريان، أحدهما: رأيَ العَيْنِ ماءٌ أبيض، والآخر: رأْيَ العين نَارٌ تأجج،.....

ومن باب: صفة الدَّجال

(قوله: «لأنا أعلمُ بما مع الدجال منه») هذا جواب قسم محذوف؛ أي: والله لأنا أعلمُ. أي: أنَّ الدَّجَّال لا يعلمُ حقيقة ما معه من الجنة والنار، ولا من النهرين؛ أي: أنه يظنُّهما كما يراهما غيره فيظنُّ جنَّته جنَّةً وماءَه ماءً، وحقيقة الأمر على الخلاف من ذلك، فيكونُ قد لُبِّسَ عليه فيهما، والنبيُّ ﷺ قد علمَ حقيقة كلٍّ واحد منهما، ولذلك بيَّنه، فقال: «نارُه ماء بارد». وفي اللفظ الآخر: «فجنَّته نارٌ ونارُه جنَّةٌ»، وهذا الكلام رواه مسلم عن حذيفة من قول النبيِّ ﷺ في هذه الطريق، وقد رواه من طريق أخرى موقوفاً على حذيفة من قوله، وقد رواه أبو داود من حديث ربْعي بن خِراش قال: اجتمعَ حذيفةُ، وأبو مسعود، فقال حذيفة: لأنا أعلم بما مع الدجال منه.

و(قوله: «رأيَ العين») منصوب على الظرف؛ أي: حين رأى العين، أو في رأي العين، ويصحُّ أن يُقال فيه: إنه مصدرٌ صدرُه محذوف تقديره: تراه رأيَ العين. وكلُّ ما يظهره الله على يدي الدجال من الخوارق للعادة محَنٌ امتحنَ الله بها عبادَه، وابتلاء ابتلاهم به، ليتميَّزَ أهلُ التنزيه والتوحيد، بما يدلُّ عليه العقل السديد، من استحالة الإلهية على ذوي الأجسام، وإن أتوا على دعواهم بامتثال تلك الطوامِّ، أو ليغترَّ أهلُ الجهل باعتقاد التجسيم، حتى يوردَهم ذلك نارَ الجحيم. وفتنةُ الدجال من نحو فتنة أهل المحشر بالصورة الهائلة التي تأتيهم فتقولُ لهم: أنا ربُّكم، فيقولُ المؤمنون: نعوذ بالله منكَ، كما تقدَّم في الإيمان. ومقتضى روايتي حذيفة: أن معه نهرين وجنَّتيْن، وأنهما مختلفتان في المعنى واللفظ لأن النهر لا يُقال عليه جنَّة، ولا

فإمَّا أَدْرَكَنَّ أحدٌ فليأت النهر الذي يَراهُ ناراً، ولْيُغَمِّضْ، ثمّ ليُطَأطِىءْ رأْسَهُ فيشربَ منه، فإنَّه ماءٌ بارد. وإنَّ الدجَّال ممسوحُ العين، عليها ظَفَرةٌ غليظةٌ، مكتوبٌ بين عينيه: كافرٌ، يقْرؤُه كُلُّ مؤمن كاتبٍ، وغيرِ كاتبٍ».

وفي رواية: «الدجال أعورُ العين اليسرى، .....

الجنَّة يقال عليها نهر. هذا هو الظاهر. ويحتمل أن يُقال: إن ذَيْنِكَ النهرين في جنَّة ونار، فَحَسُنَ أن يُعبَّر بأحدهما عن الآخر.

و(قوله: «فإمَّا أدْرَكَنَّ ذلك أحدُكم») كذا الرواية عند جميع الشيوخ، والصواب: إسقاط النون، لأنه فعل ماض، وإنما تدخل هذه النون على الفعل المستقبل كقوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ (1)، و﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّي هُدًى﴾ (2) ونحوه كثير.

و(قوله: «الدَّجَّال ممسوح العين عليها ظَفَرةٌ غليظة») هي بالظاء المعجمة والفاء، وهما مفتوحان، وهي جلدة تغشِّي العينَ، إن لم تُقطعْ غشيت العين. ومعنى ممسوح العين؛ أي: مطموس ضوؤها وإدراكها، فلا يُبصر بها شيئاً.

و(قوله: «الدَّجَّال أعورُ العين اليسرى») الأعور: هو الذي أصابه في عينه عَوَرٌ، وهو العيب الذي يُذهب إدراكَها، وهكذا صحَّ في حديث حذيفة: «اليُسرى»، وقد صحَّ من حديث ابن عمر مرفوعاً أنه أعور عينه اليمنى، كأنها عنبةٌ طافية، ورواه الترمذي أيضاً وصحَّحه، وهذا اختلاف يصعب الجمع فيه بينهما. وقد تكلَّف القاضي أبو الفضل الجمعَ بينهما، فقال: جَمْعُ الروايتين عندي صحيح، وهو أنَّ كلَّ واحدة منهما عوراء من وجه ما؛ إذ العَوَر في كلِّ شيءٍ: العيبُ، والكلمةُ العوراء: هي المعيبة. فالواحدة عوراء بالحقيقة، وهي التي وُصفت في الحديث بأنها ليست جحراء، ولا ناتئة وممسوحة ومطموسة. وطافئة ـ على رواية الهمز ـ، والأخرى عوراء لعيبها اللازم لها لكونها جاحظة، أو كأنها كوكب، أو كأنها عِنَبة طافية ـ بغير

---

(1) الزخرف 41

(1) البقرة 38

جُفَالُ الشَّعر، معه جَنَّةٌ ونارٌ، فناره جنةٌ، وجنته نارٌ».

وعن النَّواس بن سمعان، قال: ذكرَ رسولُ الله ﷺ الدَّجال ذات غداة، فخَفَضَ فيه ورَفَعَ، حتى ظَنَنَّاه في طائفة النَّخل، فلما رُحْنَا إليه عَرَفَ ذلك فينا، فقال: ما شأنُكم؟ قلنا: يا رسول الله! ذكرتَ الدَّجالَ غداةَ فخفَّضْتَ فيه ورفَّعْتَ حتى ظَنَنَّاهُ في طائفةِ النَّخل. فقال: غيرُ الدَّجَّال أخوَفُني

همز ـ وكل واحدة منهما يصحُّ فيها الوصف بالعوز بحقيقة العرف والاستعمال، أو بمعني العوز الأصلي الذي هو العيب.

قال الشيخ رحمه الله: وحاصل كلامه: أنَّ كلَّ واحدة من عينيْ الدجال عوراء. إحداهما بما أصابَها حتى ذهبَ إدراكها، والثانية عوراء بأصل خلْقتها معيبة. لكن يُبعدُ هذا التأويل: أنَّ كلَّ واحدة من عينيْه قد جاء وصفها في الروايات، بمثل ما وُصفت به الأخرى من العَور، فتأمَّله، فإنَّ تتبع تلك الألفاظ يطولُ.

و(قوله: «جُفالُ الشَّعْر») أي: كثيره. قال ذو الرُّمّة يصف شعرَ امرأة:

وَأَسْوَدَ كالأساودِ مُسْبَكِرّاً[1] عَلَى المَتْنيْنِ مُنْسَدِلاً جُفَالا

وشعرُ الدَّجَّال مع كثرته جعد قَطَط، وهو الشديد الجعودة، الذي لا يمتدُّ إلا باليد، كشعور السُّودان. وفي القطط لغتان الفتح والكسر في الطاء الأولى.

و(قوله: «فخفضَ فيه ورفعَ») بتخفيف الفاء، أي: أكثر من الكلام فيه، فتارة يرفع صوته ليُسمعَ من بَعُدَ، وتارة يخفُضُ ليستريح من تعب الإعلان، وهذه حالة المكثر من الكلام. وقيل: معناه: فحقَّره وصغَّره كما قال: «هو أهون على الله من ذلك» وتارة عظَّمه، كما قال: «ليس بين يديْ الساعة خلقٌ أكبرُ من الدَّجَّال» والأول أسبق إلى الفهم. وقد رويت ذلك اللفظ: «فخفَّض فيه ورفَّع» مشدَّد الفاء، وهي للتضعيف والتكثير.

و(قوله: غيرَ الدَّجَّال أخوَفني عليكم») بنون الوقاية عند الجماعة، وهو وجه

---

(1) مُسْبَكِرّاً: منسدلاً مسترسلاً. والأساود: الحيَّات.

عليكم، إن يَخْرُجْ وأنا فيكم، فأنا حَجِيجُهُ دُونكُم، وإنْ يخرجْ ولَسْتُ فيكم فامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفسه، واللَّهُ خَلِيفتي على كلِّ مسلم.

الكلام، وقد روي عن أبي بحر: أخوفي ـ بغير نون ـ وهي قليلة حكاها ثابت، وقد وقع في الترمذي: «أخوف لي».

قال الشيخ رحمه الله: وهو وجه الكلام، وفيه اختصار؛ أي: غير الدَّجَّال أخوف لي عليكم من الدجال، فحُذِفَ للعلم به.

و(قوله: «إن يخرجْ وأنا فيكم، فأنا حجيجُه دونكم، وإن يخرجْ وَلَسْتُ فيكم، فامرؤٌ حجيجُ نفسه») هذا الكلام يدلُّ: هلى أنَّ النبيَّ ﷺ لم يتبين له وقتُ خروجه، غير أنه كان يتوقعُه، ويقُرِّبُه، وكذلك كان يُقرِّبُ أمره حتى يظنُّوا أنه في النَّخْل القريب منهم. وحجيجُه: محاجُّه؛ ومخاصِمُه، وقاطِعه بالحُجَّة بإظهار كذبه وإفساد قوله.

و(قوله: «فامرؤ حجيجُ نفسه») أي: ليحتجَّ كلُّ امريءٍ عن نفسه بما أعلمتُه من صفته، وبما يدلُّ العقلُ عليه من كذبه في دعوى الإلهية، وهو خبرٌ بمعنى الأمر، وفيه التنبيه على النظر عند المشكلات، والتمسُّك بالأدلة الواضحات.

و(قوله: «واللَّهُ خليفتي على كلِّ مسلم») هذا منه ﷺ تفويض إلى الله تعالى في كفاية كلِّ مسلمٍ من تلك الفتن العظيمة، وتوكُّلٌ عليه في ذلك. ولاشكَّ في أن من صحَّ إسلامه في ذلك الوقت. أنه يُكْفى تلك الفتن لصدق النبيِّ ﷺ في توكلِّه وصحته، لضمان الله تعالى كفاية من توكَّل عليه، لقوله: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ (1) أي: كافيه مشقة ما توكَّل عليه فيه، ومُوصلُه إلى ما يُصلحه منه، ومع هذا فقد أرشدَ النبيُّ ﷺ إلى ما يقرؤُه على الدَّجَّال، فيُؤمن من فتنته، وذلك عشر آيات من أول سورة الكهف، أو من آخرها، على اختلاف الرواية في ذلك. والاحتياط والحزم يقتضي: أن يقرأ عشراً من أوَّلها، وعشراً من آخرها. على أنه قد روى أبو داود من حديث النؤاس: «فليقرأ عليه فواتحَ سورة الكهف فإنها جِوارٌ لكم من فتنته».

---

(1) سورة الطلاق الآية 3

إنَّه شابٌ قَطَطٌ، عينُهُ طَافِئةٌ كأني أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ العُزَّى بن قَطَنٍ، فمن أدركَه منكم فليقرأ عليه فواتحَ سُورة الكَهْفِ، إنَّه خَارجٌ حَلَّةً بَين الشَّام والعِرَاقِ، .....

و(قوله: «عَنَبَةٌ طائفئةٌ») رويناه بالهمز، وصحَّحناه على من يُوثق بعلمه، وقد سمعناه بغير همز، وبالوجهين ذكره القاضي أبو الفضل، فقال: هو اسم فاعل من طُفئت النَّار، تطفأ؛ فهي طافئة، وانطفأت فهي منطفئة، وأطفأتها أنها: فهي مطفأة. فكأنَّ عينَه كانت تُنير كالسِّراج فانطفأت؛ أي: ذهب نورها. وهذا المعنى في هذه الرواية التي لم يذكر فيها عِنَبة واضح، ويبعد فيها ترك الهمز، وأما الرواية التي فيها: «كأنها عِنَبة طافية» فالأولى ترك الهمز، فإنه شبَّهها في استدارتها وبروزها كحبَّة العِنَب، وهو اسم فاعل من طفا يطفو: إذا علا ـ غير مهموز ـ فهي طافية، أي: قائمة جاحظة، كما جاء في بعض ألفاظ الحديث. وقد روى أبو داود من حديث عبادة بن الصامت عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إني قد حدَّثتكم عن الدَّجَّال حتى خشيتُ ألاَّ تغفلوا أن المسيحَ الدَّجَّال رجلٌ قصيرٌ أفحجُ جَعْدٌ أعورُ مطموسُ العين، ليست بناتئة، ولا جحراء» وهذا الحديث يقتضي: أن عينه ليست بالفاحشة النتوء والجحوظ، ولا غائرة حتى كأنها في جحر؛ بل: متوسطة بحيث يصدقُ عليها: أنها قائمة وجاحظة، والله تعالى أعلم. وقد زاد عبادة في هذا الحديث من أوصافه أنه قصيرٌ أفحج، والفحج: تباعد ما بين الساقين.

و(قوله: «إنه خارجٌ حَلَّةً بين الشام والعرا») رويته وقيَّدته بفتح الحاء المهملة، وتشديد اللام، وهي رواية السِّجْزي. وقيل معنى ذلك: قبالة وسمت. وفي كتاب العين: والحَلَّة: موضع حَزْن وضمور. وسقطت هذه الكلمة من رواية الغُذري. وروي عن ابن الحذَّاء: حَلُّه بضم اللام وهاء الضمير، أي: نزوله وحلوله، وكذا في كتاب التميميّ، وهكذا ذكره الحُمَيْديُّ ورواه الهَرويُّ في غريبه: خَلَّة: بالخاء المعجمة مفتوحة، وتشديد اللام، وفسَّره بأنه ما بين البلدتين، قال غيره: هو الطريق في الرمل، ويجمع: خلٌّ.

فَعاثَ يميناً وعاثَ شمالاً يا عبادَ الله! فاثْبُتوا». قلنا: يا رسولَ الله! وما لُبْثُهُ في الأرض؟ قال: «أربعونَ يوْماً، يومٌ كسَنَةٍ، ويومٌ كشهرٍ، ويومٌ كجُمُعَةٍ، وسائرُ أيَّامِهِ كأيَّامِكُم». . قلنا: يا رسول الله! فذلكَ اليومُ الذي كسنةٍ

قال الشيخ رحمه الله: وقد روى الترمذي من حديث أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال: حدثنا رسول الله ﷺ قال: «الدَّجَّال يخرجُ من أرضٍ بالمشرق يُقال لها: خراسان يتبعُه أفواجٌ كأن وجوهَهم المِجَانُّ المُطْرَقة». قال: وفي الباب عن أبي هريرة، وعائشة ـ رضي الله عنهما ـ. وهذا حديث حسن غريب. ووجه الجمع بين هذا وبين الذي قبله: أن مبتدأ خروج الدَّجَّال من خراسان، ثم يخرجُ إلى الحجاز فيما بين العراق والشام، والله تعالى أعلم.

و(قوله: «عاث يميناً وعاث شمالاً») ورويناه بالعين المهملة والثاء المثلثة مفتوحة غير منوَّنة على أنه فعل ماضٍ، وبكسرها وتنوينها على أنه فاعل. وهو بمعنى الفساد. يُقال: عثا في الأرض يعثو: أفسدَ، وكذلك عَثِيَ ـ بالكسر ـ يعثي. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (1).

و(قوله: «يا عبادَ الله اثبتوا») هذا من قول النبيِّ ﷺ يأمر من لقيَ الدَّجَّالَ أن يثبتَ ويصبرَ؛ فإن لُبْثَه في الأرض قليلٌ على ما يأتي، وأما مَن سمع به ولم يلقه، فلْيُبعدْ عنه، وليَفرَّ بنفسه، كما خرَّجه أبو داود من حديث عمران بن حُصَيْن ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سمعَ بالدَّجَّال فلينأ عنه، فوالله إنَّ الرَّجلَ ليأتيه. وهو يحسبُ أنه مؤمنٌ فيتَّبعُه مما يبعث به من الشبهات، أو لما يبعث به من الشبهات».

و(قوله: يا رسول الله! وما لُبْثُه في الأرض؟ قال: «أربعون يوماً، يومٌ كسنة، ويومٌ كشهرٍ، ويوم كجمعة، وسائرُ أيَّامه كأيَّامكم») ظاهر هذا: أن الله تعالى يخرقُ العادةَ في تلك الأيام، فيُبطىء بالشمس عن حركتها المعتادة في أول يوم من تلك

---

(1) سورة البقرة الآية 60

أتكفينا فيه صَلاةُ يوم؟ قال: «لا، اقْدُرُوا له قَدْرَهُ». قلنا: يا رسول الله! وما إِسْرَاعُهُ في الأرضِ؟ قال: «كالغيث اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيح، فيأتي على القوم، فيدعُوهم، فيؤمنونَ به ويَ«يَسْتَجيبُونَ له. فيأمرُ السَّماءَ فتُمطِرُ، والأرضَ فتُنْبِتُ، فتروحُ عليهم سارِحَتُهم أطولَ ما كانت ذُراً، وأسْبَغَهُ ضُروعاً، وأمدَّه

الأيام، حتى يكونَ أوَّلُ يوم كمقدار سنةٍ معتادة، ويبطىء بالشمس حتى يكونَ كمقدار شهرٍ، والثالث حتى يكونَ كمقدار جمعة، وهذا ممكنٌ، ولا سيما وذلك الزمان تنخرق فيه العوائدُ كثيراً، لا سيَّما على يدي الدَّجَّال. وقد تأوَّله أبو الحسين ابن المُنادي على ما حكاه أبو الفرج الجوزي فقال: المعنى: يهجمُ عليكم غمٌّ عظيم لشدة البلاء، وأيام البلاء طِوالٌ، ثم يتناقصُ ذلك الغمُّ في اليوم الثاني، ثم يتناقصُ في الثالث، ثم يُعتاد البلاء، كما يقول الرجل: اليوم عندي سنة، كما قال:

وَلَيْلُ المُحِبِّ بلاَ آخِر

قال أبو الفرج: وهذا التأويل يردُّه قولهم: أتكفينا فيه صلاة يوم وليلة؟ قال: «لا، اقدروا له قَدْرَه» والمعنى: قدِّروا الأوقات للصلاة، غير أن أبا الحسين بن المنادي قد طعن في صحة هذه اللفظات، أعني قولهم: أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «لا، أقدروا له قَدْرَه» فقال هذا عندنا من الدسائس التي كادنا بها ذوو الخلاف علينا قديماً، ولو كان ذلك صحيحاً لاشتهر على ألسنة الرواة، كحديث الدَّجَّال؛ فإنه قد رواه ابن عباس، وابن عمر، وجابر بن عبد الله، وحُذيفة، وعُبادة بن الصامت، وأُبيّ بن كعب، وسمرة بن جندب، وأبو هريرة، وأبو الدرداء، وأبو مسعود البدريّ، وأنس بن مالك، وعمران بن حُصَيْن، ومُعاذ بن جبل، ومُجَمِّع بن جارية ـ رضي الله عنهم ـ في آخرين، ولو كان ذلك لقوي اشتهاره، ولكان أعظمَ وأقطعَ من طلوع الشمس من مغربها.

قال الشيخ رحمه الله: هذه الألفاظ التي أنكرها هذا الرجل صحيحةٌ في حديث النَّوَّاس خرَّجها الترمذي من حديث النوَّاس، وذكرَ الحديث بطوله نحواً ممَّا خرَّجه مسلم، وقال في الحديث: حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر. وقد خرَّجه أبو داود، وأيضاً من حديث عبد الرحمن بن يزيد المذكور، وذكرَ طرفاً من الحديث ولم يذكرْه بطوله، فصحَّ الحديث

خَـوَاصِرَ، ثـم يأتي القـومَ فـيدعـوهـم فـيَـردُّونَ علَيْـه قَـوْلَهُ، فـينصرفُ عـنهـم فيُصْبِحُونَ مُمحلينَ، ليس بأيديهم شيءٌ مِنْ أمْوالهم، ويَمُرُّ بالخَربة، فيقولُ لها: أَخْرِجي كُنُوزَكِ فتَتْبعُهُ كُنوزُها كَيعَاسيب النَّحْل. ثم يدعو رجلاً ممتلئاً

عند هؤلاء الأئمة وانفراد الثقة بالحديث لا يخْرِمُ الثقة به؛ لأنه قد يسمعُ ما لا تسمعُه الجماعةُ في وقت لا يحضرُ غيره، وكم يُوجد من ذلك في الأحاديث، وقد رواه قاسم بن أَصْبَغ [1] من حديث جابر بن عبد الله على ما يأتي. وتطريق إدخال المخالفين الدسائسَ على أهل العلم والتحرُّز والثقة بعيدٌ لا يُلتفت إليه؛ لأنه يُؤدِّي إلى القدح في أخبار الآحاد، وإلى خرم الثقة بها، مع أن ما تضمَّنته هذه الألفاظ أمورٌ ممكنة الوقوع في زمان خرق العادات، كسائر ما جاء مما قد صحَّ وثبتَ من خوارق العادات التي تظهرُ على يدي الدَّجَّال مما تضمنه هذا الحديث وغيره، فلا معنى لتخصيص هذه الألفاظ بالإنكار، والكلُّ ظنون مستنده إلى أخبار العدول، والله أعلم بحقائق الأمور.

قال القاضي في قوله: «اقدروا له» هذا حكم مخصوص بذلك اليوم شرعَه لنا صاحبُ الشرع، ولو وُكِلْنا فيه لاجتهادنا لكانت الصلاة عند الأوقات المعروفة في غيره من الأيام.

و(قوله: «فتغدو عليهم سارحتهم أطولَ ما كانت ذُراً، وأسبغَه ضروعاً») تغدو: تبكر. والسارحة: المواشي التي تخرجُ للسرح، وهو الرعي، كالإبل والبقر والغنم. والذرا: جمع ذُروة، وهي الأسنمة، وأسبغه: أطوله ضروعاً لكثرة اللبن. وأمدَّه خواصر: لكثرة أكلها، وخِصْب مرعاها.

و(قوله: «فيصبحون مُمْحلينَ») وفي بعض الروايات: «آزلينَ». والمَحْلُ والأَزْل، والقحط، والجَدْب، كلُّها واحد، والله تعالى أعلم. ويعاسيب النحل: فُحولها، واحدها يعسوب، وقيل: أمراؤها. ووجه التشبيه: أن يَعَاسيبَ النحل يتبع كلَّ واحد منهم طائفةٌ من النحل، فتراها جماعاتٍ في تفرقة، فالكنوزُ تتبع الدَّجَّال كذلك.

---

(1) قاسم بن أصبغ: هو محدث الأندلس، سكن قرطبة ومات فيها (340 هـ).

شباباً، فيضربهُ بالسَّيف فيقطعُه جَزْلَتَيْن، رَمْيَةَ الغَرض، ثم يَدعوهُ فيُقْبل ويَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ، فبينما هو كذلك إذ بعثَ الله المسيحَ ابنَ مريمَ، فينزلُ عند المَنارةِ البيضاء شرقيَّ دمشقَ، بين مهرُودتَيْنِ، واضعاً كفَّيْه على

و(قوله: «فيقطعه جَزْلَتيْن رَمْيَةَ الغَرض») هو بفتح الجيم، وحكاه ابن دُريد بكسرها.

قال الشيخ رحمه الله: والأولى الفتح؛ لأن جَزْلتين هنا مصدر ملاقٍ في المعنى ليقطعَه، فكأنه قال: قطَعَه قطعتين، أو جزَله جَزْلَتيْن، وجزَلة: مصدر محدود بجزل جَزْلاً وجَزْلةَ. ويجوز الكسر على أنه اسم. يعني: قسمَه قطعتين وفرقتين، رَمْيَة الغَرَضِ: منصوب نصب المصدر، أي: كرمية الغرض في السُّرعة والإصابة. وقيل: جُعل بين القطعتين مثل رمية الغرض، وفيه بعد، والأول أشبه.

و(قوله: «بين مَهْرُودتين») الرواية الصحيحة بالدال المهملة، والتاء باثنتين من فوقها، وبعض المحدِّثين يقولها بالذال المعجمة، وحكى ابن الأنباريّ أنها تُقال بهما، والمعروف الأوَّل. في الصحاح: هَرَدْتُ الثوب: شققته، والهِرْدى على وزن فِعلى، بكسر الهاء: نبتٌ يُصبَغ به، وثوبٌ مهرودٌ، أي: صُبغ أصفر.

ولما كان هذا هو المعروف في اللغة، اختلفَ الشارحون لهذا اللفظ في هذا الحديث، فقيل: إن عيسى ـ عليه السلام ـ ينزلُ في شقتي ثوب، والشقة نصف الملاءة، أو في حلتين، مأخوذ من الهَرْد، وهو القطع والشق. وقال أكثرُهم في ثوبين مصبوغين بالصُّفرة، وكأنه الذي صُبغ بالهردى، وقد اجترأ القتبيُّ وخطَّأ النَّقَلة في هذا اللفظ، وقال: هو عندي خطأ من النَّقَلة وأراه قهرُوَّتَيْن، يقال: هريتُ العمامة؛ إذا لبستها صفراء، وكأن فعلت منه: هروت، وأنشدوا عليه:

رَأَيْتُكَ هَرَّبْتَ العِمَامَةَ بَعْدَمَا ... أَراكَ أَماناً حاسِراً لَمْ تُعْصَبِ

قال: إنما أرادَ أنَّك لبستَ العمامة صفراء كما يلبُسها السَّادة، وكان السَّيدُ يعتمُّ بعمامة صفراء، ولا يكون ذلك لغيره.

أجنحة مَلَكَيْن، إذا طأطأ رَأسَهُ قَطَرَ، وإذا رَفَعَهُ تحدَّرَ منْه جُمَانٌ كاللؤلؤ، فلا يَحِلُّ لكَافرٍ يَجِدُ ريحَ نَفَسِه إلا ماتَ، ونَفَسُه ينْتَهي حيثُ ينتهي طَرْفُهُ،

قال الشيخ رحمه الله: لقد صدق من قال في ابن قتيبة: هجومٌ ولأَجٌّ على ما لا يُحسن. وقد خطَّأ ابنَ قتيبة فيما خطىء فيه الثقاتُ وأهلُ التقييد والتثبُّت والعلم من وجهين:

أحدُهما: حكمُه بالخطأ وجرأته به على الأئمة الحفَّاظ الثقات العلماء، فكان حقَّه أن يتوقَّف؛ إذ لم يجد محملاً لتلك اللفظة على النحو المرويّ.

وثانيهما: إن ما استدلَّ به لا حجَّة فيه لوجهين قد أشار إليهما أبو بكر فيما حكاه الرمام أبو عبد الله عنه فقال: ما قاله خطأ؛ لأنَّ العربَ لا تقول: هروت الثوبَ، لكن هريت، ولا يُقال أيضاً هريت إلا في العمامة خاصَّةً، فليس له أن يقيس على العمامة؛ لأنَّ اللغةَ روايةٌ.

قال الشيخ رحمه الله: والأصحُّ: قول الأكثر، ويشهد له ما قد وقع في بعض الروايات بدل «مهرودتين»: «ممصَّرتين» والمُمصَّرة من الثياب هي المصبوغة بالصفرة - والله تعالى أعلم -.

و(قوله: «إذا طأطأ رأسَه قطرَ») أي: إذا خفض رأسَه سال منه ما يعني به العرق. وهذا نحو مما قال في الحديث الذي تقدَّم: «يقطرُ رأسُه ماءً، كأنَّما خرجَ من ديماس» يعني: الحمَّام.

و(قوله: «إذا رفعه تحدَّر منه جُمانٌ كاللؤلؤ») الجمان: ما استدار من اللؤلؤ والدُّر، ويُستعار لكل ما استدار من الحليِّ، قاله أبو الفرج الجوزي. شبَّه قطرات العرق بمستدير الجوهر، وهو تشبيه واقع.

و(قوله: «فلا يحلُّ لكافرٍ يجدُ ريحَ نَفَسِه إلا ماتَ») الرواية لا يَحلُّ بكسر الحاء، معناه: يحقُّ ويجبُ، وهو من نحو قوله تعالى: ﴿**وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ**﴾ [1] أي: واجب ذلك ولازم، وقيل معناه: لا يُمكن، وفي بعض الروايات

---

(1) سورة النساء الآية 158

فيطلبُه حتى يُدركَه بباب لُدٍّ، فيَقْتُلُه، ثم يأتي عيسى ابنَ مريمَ قومٌ قد عَصَمَهُمْ اللهُ منْهُ، فيمسحُ عن وجوههم، ويُحَدِّثُهم بدَرَجاتهم في الجنَّة. فبينما هو كذلك إذ أوحى اللهُ إلى عيسى: إنِّي قد أخرَجْتُ عِبَاداً لي لا يَدَانِ لأحَدٍ بقِتَالِهم، فَحَرِّزْ عِبَادِي إلى الطُّورِ. ويبعثُ اللهُ يأجوجَ ومأجوجَ - وهم

عن ابن الحذَّاء: فلا يحلُّ لكافر يجدُ نَفَس ريحه، ووجهُه بيِّن. وأما من رواه يَحُلُّ - بضم الحاء - فليس بشيءٍ، إلا أن يكون بعده: بكافر، بالباء، فيكون له وجه.

و(قوله: «ونَفَسُه ينتهي، حيث ينتهي طَرْفُه») نَفَسُه - بفتح الفاء -، وطرْفه - بسكون الراء -: وهو عينه، ويعني بذلك أنَّ اللهَ تعالى قوَّى نَفَسَ عيسى - عليه السلام، حتى يصلَ إلي المحل الذي يصلُ إليه إدراكُ بصره، فمعناه: أن الكفَّار لا يقربونه، وإنما يهلكون عند رؤيته ووصول نَفَسِه إليهم، تأييدٌ من الله له وعصمة، وإظهار كرامة ونعمة.

و(قوله: «فيمسحُ عن وجوههم») بعني التي بالنون، لا التي باللام؛ أي: يُزيل عن وجوههم بمسحه ما أصابَها من غبار سفر الغزو ووعثائه، مبالغةً في إكرامهم، وفي اللُّطف بهم، والتحفي بهم. وقيل: معناه يكشف ما تزل بهم من الخوف، والمشقَّات، والأَوْلى: الحقيقة، وهذا توسُّع.

و(قوله: «إني قد أخرجتُ عباداً لا يدان لأحد بقتالهم») أي: لا قدرةَ لأحد على قتال يأجوجَ ومأجوجَ، يُقال: لا يد لفلان بهذا الأمر؛ أي: لا قوة.

و(قوله: «فحرِّز عبادي إلى الطور») هذه الرواية الصحيحة بالزاي: أي ارتحل بهم إلى جبل يُحرزون فيه أنفسَهم. والطور: الجبل بالسريانية. ويحتمل أن يكون ذلك هو طور سَيْناء. وقد رواه بعضُهم: حوِّز بالواو، ولم تقع لنا هذه الرواية، ومعناها واضح، وهو بمعنى الأولى.

و(قوله: «ويبعث الله يأجوجَ ومأجوجَ، وهم من كل حَدَبٍ ينسلون») قد تقدَّم القول في يأجوج ومأجوج في أول كتاب الفتن. والحَدَب: النَّشَزُ من الأرض،

مِنْ كلِّ حَدَبٍ يَنْسلون ـ فيمُرُّ أوائلهُمْ على بُحَيْرة طَبَريَّةَ، فيشربونَ ما فيها، ويمرُّ آخرهُمْ، فيقولون: لقد كان بهذه مرةً مَاءٌ. ويُحْصَرُ نبيُّ الله عيسى وأصحابُه حتى يكونَ رأسُ الثَّوْرِ لأحدهم خيراً من مئةِ دينار لأَحَدكُم اليومَ. فيرغبُ نبيُّ الله عيسى وأصحابُه، فيُرسلُ الله عليهم النَّغَفَ في رِقَابِهم، فيُصبحونَ فَرْسَى، كموتِ نَفْسٍ واحدةٍ. ثم يَهْبِطُ نبيُّ الله عيسى وأصحابُه إلى الأرضِ، فلا يجدون في الأرض موْضع شِبْرٍ إلا ملأَهُ زَهَمُهُم وَنَتْنُهُم. فيرغبُ عيسى وأصحابُه إلى الله، فيُرسلُ الله طيراً كأَعْنَاق البُخْت، فتحملهم، فتَطْرَحُهُمْ حيث شاءَ الله. ثم يُرسلُ الله مطراً لا يَكُنُّ منه بَيْتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ، فيَغْسِلُ الأرض حتَّى يتركَها كالزَّلَفَة، ثم يُقالُ للأرضِ أنْبتي ثَمَرتَكِ، ورُدِّي بركَتَكِ، فيومئذ تأكلُ العِصابة مِن الرُّمانَةِ ويَسْتَظِلُّون

وهي الآكام والكَدَاء. وينسلون: من النَّسَلان، وهي مقاربة الخطو مع الإسراع، كمشي الذئب إذا بادَر، قاله القتبي. وقال الزجَّاج: ينسلون: يُسرعون. والنَّغَفُ ـ جمع نَغَفَة ـ، وهو بفتح النون والغين المعجمة، وهي دود يكون في أُنوف الإبل والغنم، وهي وإن كانت محتقرة فإتلافها شديد، ويقال للرجل الحقير: ما أنت إلا نَغَفَة.

و(قوله: «فيصبحون فَرْسَى») أي هلكى قتلى؛ من فرس الذئبُ الشاة إذا قتلها. والفريسة منه. والزَّهَم ـ بفتح الهاء ـ: النتن والرائحة الكريهة. وأصله: ما يعلقُ باليد من ريح اللحم. والبُخت: إبل غلاظ الأعناق، عِظامُ الأسنام.

و(قوله: «لا يَكُنُّ منه بيتُ مَدَر، ولا وَبَرٍ») أي: لا يستر من ذلك المطر لكثرته بيت مبنيٍّ بالطِّين، ولا بيتُ شعر ولا وبر.

و(قوله: «حتى يتركَها كالزَّلَفة») الرواية بفتح الزاي واللام، وقيَّدته بالفاء والقاف معاً، وكذلك روي عن الأسديِّ، وزاد فتح اللام وسكونها. فبالقاف: هي

بقحْفِها، ويُبارِكُ في الرِّسْلِ، حتى أنَّ اللِّقْحَةَ من الإبلِ لَتكفي الفِئامَ من النَّاس، واللِّقْحَةَ من البقرِ لَتكْفي القبيلةَ من النَّاس، واللَّقْحَةَ من الغَنَم لتكفي الفَخِذَ من النَّاس. فبينما هم كذلكَ إذ بعثَ اللهُ ريحاً طيِّبةً فتأخذُهم تحتَ آباطِهم فَتَقْبِضُ رُوحَ كلِّ مؤمنٍ وكُلِّ مسلمٍ، ويبقى شِرارُ النَّاسِ يَتَهارجُونَ فيها تَهارُجَ الحُمُرِ، فعليهم تقومُ السَّاعةُ».

الأرض الملساء التي لا شيءَ فيها، ومنه قوله: ﴿**فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً**﴾ [1]. وبالفاء: هي المَصْنَعة الممتلئة، والجمع زُلَف، ومنه قول الراجز:

مِن بعد ما كانتْ مِلاءً كالزُّلَفْ

وهي المصانع، والمعروف فيها فتح اللام. غير أن أبا زيد الأنصاري قال: يُقال للمرْآة: زَلَفَةٌ وزَلَقَةٌ بالقاف: الجماعة. والقحف: أعلى الجمجمة. وهي المحتوية على الدِّماغ. هذا أصلُه، واستعارة هنا للرُّمَّانة للشبه الذي بينهما. واللَّقْحَة ـ بفتح اللام ـ: التي تُحتلب من النوق. هذا أصلُها، وقد قيلت هنا على التي تُحتلب من البقر والغنم. والفئام: الجماعة من الناس، وهو بكسر الفاء. والفخذ: دون القبيلة، وفوق البطن. قال الزبير بن بكَّار: العربُ على ست طبقات: شَعْبٌ، وقبيلةٌ، وعَمارةٌ، وبَطْن، وفخذ، وفصيلة، وما بينهما من الآباء، فإنها يعرفها أهلُها. وسُمِّيت بالشعوب لأن القبائل تشعَّبت منها. وسُمِّيت القبائل بذلك لأن العمائر تقابلت عليها، فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطون تجمع الأفخاذ. قال ابن فارس: لا يُقال في فَخْذ النسب إلا بسكون الخاء، بخلاف الجارحة، تلك يقال بكسر الخاء وسكونها، وبكسر الفاء أيضاً. وجبل الخَمَر بفتح الميم، وهو جبلُ بيت المقدس. والخَمَر: الشجر المتلف، وأنقاب المدينة: طُرُقها وفِجاجُها. وفي كتاب العين: النُّقْبُ والنَّقْبُ: الطريق في رأس الجبل، والنَّقْب في الحائط وغيره: ثقب يخلص به إلى ما وراءه.

---

(1) سورة الكهف الآية 40

زاد في أخرى بعد قوله : «مَرَّةً ماءٌ» : «ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جَبَلِ الخَمَر - وهو جبلُ بيتِ المَقْدس - فيقولون : لقد قَتَلْنا مَنْ في الأرض، هَلُمّ فلنقتلْ مَنْ في السَّماء، فيرمُون بُنشَّابِهم إلى السَّماء، فيردُّ الله عليهم نُشَّابَهم مخضوبةً دماً» .

وعن أبي سعيد الخدري، قال : حدَّثنا رسولُ الله ﷺ يوماً حديثاً طويلاً عن الدجَّال، فكان فيما حدَّثنا قال : «يأتي - وهو مُحرَّمٌ عليه أن يدخل نقابَ المدينة - فينتهي إلى بعض السِّباخ التي تلي المدينةَ، فيخرجُ إليه يومئذٍ رجلٌ هو خيرُ النَّاس - أو من خَيْرِ النَّاس - فيقول له : أشهدُ أنَّك الدَّجَّالُ الذي حدَّثنا رسولُ الله ﷺ حديثَه، فيقول الدَّجَّال : أرأيتُم إنْ قتلتُ هذا ثمَّ أحْيَيْتُه، أتشكُّونَ في الأمر؟ فيقولون : لا . قال : فيقتلُه ثم يُحييه، فيقولُ حين يُحييه : والله ما كنتُ فيكَ قَطُّ بصيرةً منِّي الآنَ . قال فيُريدُ الدَّجَّال أن يقتلَه فلا يُسلَّطُ عليه» .

و(قوله : «يأتي الدَّجَّال وهو مُحرَّمٌ عليه أن يدخل المدينة ومكَّة») أي : هو ممنوع من دخول المدينة ومكة بالملائكة التي تحرسها على ما يأتي في حديث أنس المذكور بعد هذا .

و(قول الدَّجَّال : أرأيتم إن قتلتُ هذا ثم أحْيَيْتُه أتشكُّونَ في الأمر») أي : في دعواه الإلهية والربوبية، كما روى قاسم بن أصبَغ عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال : قال رسولُ الله ﷺ : «يخرجُ الدَّجَّال في خَفْقَةٍ من الدِّين وإدبارٍ من العلم، أربعون ليلةً يسيحُها في الأرض، يوم منها كالسنة، واليومُ منها كالشهر، واليوم منها كالجمعة، ثم سائر أيَّامه كأيَّامكم هذه، وله حمارٌ يركبُه، عرض ما بينَ أذنيْه أربعون ذراعاً، فيقولُ للناس أنا ربُّكم، وهو أعورُ، وإن ربَّكم ليس بأعور، ومكتوبٌ بين عينيه كافر، يقرؤه كلُّ مؤمن كاتبٍ، وغير كاتبٍ يردُ كلَّ ماءٍ ومَنْهل إلا مكة والمدينة،

وفي رواية، قال: «فيأمرُ به الدَّجَّال فيُشَبَّحُ، فيقولُ: خذوه وشُجُّوه،

وقامت الملائكةُ بأبوابها» فهذا نصٌّ في أنَّ الدَّجَّال إنما يَدَّعي الربوبيَّة لا البنوة، ولو ادَّعاها لما صدَّقه الله بإبداء خارق للعادة على يديْه، لاستحالة تصديق الكاذب على الله؛ لأنه يلزم منه تكذيب الباري تعالى، والكذبُ محال على الله تعالى قطعاً، عقلاً ونقلاً. فإن قيل: فيلزم مثل هذا في دعوى الربوبية، ووقوع الخارق مقروناً بدعوى المُدعي للإلهيّة، فيكون قد صدَّقه بذلك كما صدّق النبيَّ إذا جاءَ بمثل ذلك. فالجواب: أن اقترانَ الخارق بدعوة الرُّبوبيَّة مُحال أن يشهدَ بتصديقه في دعوى الإلهية لقيام الأدلة العقلية القطعيّة على استحالة الإلهيّة عليه، التي هي: حدثه، وافتقاره، ونقصه، فهذه الأدلة العقلية دلَّت على كذبه في دعوى الإلهية، فلم يبقَ معها دلالة للأدلة الاقترانية؛ لأن اقترانَ المعجزة بالتحدِّي في حق النبيِّ إنما دلَّ على صدقه من حيث تنزلت منزلة التصديق بالقول، أو منزلة قرائن الأحوال على اختلاف العلماء في ذلك. وذلك لا يحصلُ إلا إذا سلمت عما يشهد بنقيضها، ولم يسلمْ في حقِّ الدَّجَّال إذ المكذب لدعواه ملازم له عقلاً، فلا دلالة لذلك الاقتران على صدقه؛ إذ لا يمكنُ مع وجود ما يدلُّ على كذبه قطعاً أن نقول: إن تلك الخوارق التي ظهرت على يديْه تنزَّلت منزلة قول الله له: صدقتَ، كما أمكن ذلك في حقِّ النبيِّ الذي يسلم عمَّا يُكذِّبه. وحاصلُ هذا البحث: أن ما يدلُّ بذاته لا يُعارضه ما يدلُّ بغير عينه. ولتفصيل هذا علم الكلام. وبما ذكرناه يُعلم قطعا: أن إظهارَ هذه الخوارق على يدي الدَّجَّال لم يُقصد بها تصديقه، وإنما قُصد بها أمر آخر، وهذا ما أخبرنا به الصَّادق ﷺ أنها فتن ومحن امتحنَ الله بها عباده ليُمَحِّصَ الله الذين آمنوا ويمحَق الكافرين، وذلك على ما سبقَ به علمُه، ونفذَ به حكمه، لا يُسأل عما يفعل.

و(قوله: «فيأمرُ به الدَّجَّالُ فيُشَبَّحُ») أي: يُمدُّ، ومنه قولهم: الحِرْبَاء تَشَبَّحُ على الأعواد أي: تمتد. ومشهور الرواية هكذا، وقد روى السمرقنديُّ، وابن ما هان: فشجُّوه في رأسه بشِجاج، وليس هذا بشيءٍ؛ لأنه قد جاء بعدَه ما يُبعده ويبيِّن أن المرادُ خلافُ ذلك.

فيوسعُ ظَهْرُه وبطنُه ضرباً. قال: فيقولُ: أما تُومنُ بي؟ قال: فيقول: أنتَ المسيحُ الكذَّابُ. قال فيُؤمرُ به، فيؤشر بالمِئشَارِ من مَفْرِقِه حتى يُفرَّقَ بين رِجْلَيْه. قال: ثم يمشي الدَّجَّالُ بينَ القِطْعَتَيْنِ، ثم يقول له: قمْ، فيَستوي قائماً. قال: ثم يقولُ له: أتؤمنُ بي؟ فيقول: ما ازددتُ فيكَ إلا بصيرةً. قال: ثم يقول: يا أيُّها النَّاسُ إنه لا يَفْعلُ بعدي بأحدٍ من النَّاس. قال: فيأخذُه الدَّجَّال ليذبَحه، فيُجْعَلَ ما بينَ رَقَبَتِه إلى تَرْقُوتِه نُحاساً، فلا يستطيعُ إليه سَبيلاً. قال: فيأخذُ بيديْه ورجليْه فيَقْذِفُ به، فيَحْسِبُ النَّاسُ أنَّما قذفه إلى النَّار، وإنَّما أُلْقِيَ في الجنَّة». فقال رسول الله ﷺ: «هذا أعظمُ النَّاسِ شهادةً عندَ ربِّ العالمين».

و(قوله: «فيُؤمر به فيُوسَعُ ظهرُه وبطنُه ضرباً») أي: يَعمَّم جميعه حتى لا يُتركَ منه موضعٌ إلا يُضربُه، وهو مأخوذ من السِّعة والاتساع.

و(قوله: «فيؤمر به فيُؤشَرُ بالمِنْشَار») والرواية يؤشر بالياء. والمئشار بالهمز، وهو الصحيح المعروف، ويُقال بالنون فيهما، وهذا يدلُّ على: أن هذا الرجل المُكَذِّب للدَّجَّال نشرَه الدَّجَّالُ بالمنشار، وقد تقدَّم في حديث النوَّاس: أنه قطعه بالسِّيف جَزْلتين كرمية الغَرَض، فيحتمل أن يكونَ كلُّ واحدٍ منهما غير الآخر. ويحتمل أن يوكونَ جمعهما عليه، والأول أمكن وأظهر. والتَّرقُوة: بفتح التاء وضم القاف وتخفيف الواو: هي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق، وتجمع تراقي. ويقذفه: يرميه. ووقع في الأم: المسالح؛ وهم القوم الحاملون للسِّلاح، المستعدُّون للقتال، سُمُّوا بذلك لحملهم إيَّاها. قال القاضي في آخر هذا الحديث من رواية السَّمر قنديّ: قال أبو إسحاق ـ يعني ابن سفيان ـ: يقال: إن هذا الرجل هو الخَضِرُ ـ عليه السلام ـ، وكذلك قال معمر في جامعة بإثر هذا الحديث.

قال أبو إسحاق: إنَّ هذا الرجلَ هو الخَضِرُ.

وعن أبي قتادة، قال: كُنَّا نَمُرُّ على هشام بنِ عامرٍ، نأتي عمرانَ بنَ حصينٍ، فقال ذات يوم: إنَّكم لتجاوزوني إلى رجالٍ ما كانوا بأحضَرَ لرسولِ الله ﷺ منِّي، ولا أعلمَ بحديثه منِّي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما بين خلقِ آدم إلى قيام السَّاعةِ خَلْقٌ أكبرُ من الدَّجَّال».

وفي روايةٍ: «أَمْرٌ» بدل «خلق».

* * *

قال الشيخ رحمه الله: وقد تقدَّم القول في الخَضِر، وفي الخلاف في طول حياته في كتاب الأنبياء.

و(قوله: «ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خَلْقٌ أكبرُ من الدَّجَّال») ظاهر هذا كبر الخِلْقَة والجسم، وقد تقدَّم أنَّه يركبُ حماراً عَرْضُ ما بينَ أذنيْه أربعونَ ذراعاً، وهذا يقتضي أن يكون هذا الحمار أكبرَ حمار في الدنيا، فراكبُه ينبغي أن يكونَ أكبرَ إنسان في الدنيا، وكذا قال تميمٌ ـ رضي الله عنه ـ في خبر الجسَّاسة: فإذا أعظمُ إنسان رأيناه، وسيأتي، غير أنه قد تقدَّم من حديث أبي داود في وصف الدجال: «أنه قصير أفحج» وإنما يكونُ قصيراً بالنسبة إلى نوع الإنسان، فيقتضي ذلك أن يكون فيهم من هو أطول منذ، ولهذا قيل: إن وصفه بالأكبرية إنما يعني بذلك عِظَمَ فتنته، وكِبَرَ محنته؛ إذ ليس بين يدي السَّاعة أعظم ولا أكبر منها. ويحتمل أن يُريد به: أنه ينتفخ أحياناً حتى يكونَ في عين الناظر إليه أكبر من كلِّ نوع الإنسان، كما تقدَّم في شأن ابن صيَّاد أنه انتفخَ عن غضبه حتى ملأ الطريق. والله أعظم بحقيقة ذلك.

* * *

باب في هوان الدَّجال على الله تعالى وأنَّه لا يدخل مكة والمدينة ومن يتبعه من اليهود

وقد تقدم من حديث المغيرة، قوله ﷺ: «هو أهون على الله من ذلك».

عن أنسِ بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس من بلدٍ إلا سَيَطَؤهُ الدَّجال. إلا مكة والمدينة، وليس نقبٌ من أنقابها إلا عليه الملائكة

و(قوله: «إنهم يقولون إن معه الطعام والأنهار، هو أهون على الله من ذلك») أي: الدَجَّال على الله أهون أنْ يجعلَ ما يخلقه على بدنه من الخوارق مُضلاً للمؤمنين ومُشكِّكاً لهم، بل: ليزدادوا إيماناً مع أيمانهم، وليرتابَ الذين في قلوبهم مرض والكافرون، كما قال له الذي قتلَه ثم أحياه: ما كنتُ فيك قطُّ أشدَّ بصيرةً مني الآن. وقد تضمنَّت تلك الأحاديث المتقدَّمة أن عيسى ـ عليه السلام ـ ينزلُ ويقتلُ الدَّجَّالُ. وهو مذهب أهل السنة، والذي دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [1]، والأحاديث الكثيرةُ الصحيحة المنتشرة. وليس في العقل ما يُحيل ذلك ولا يردُّه، فيجب الإيمان به والتصديق بكل ذلك، ولا يُبالي بمن خالف في ذلك من المبتدعة، ولا حجَّة لهم في اعتمادهم في نفي ذلك على التمسُّك بقوله: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [2] وبما وردَ في السُّنة من أنه: لا نبيَّ بعدَه، ولا رسولَ، ولا بإجماع المسلمين على ذلك، ولا على أنَّ شرعنا لا يُنسخ، وهذا ثابت إلى يوم القيامة. لأنا نقولُ بموجب ذلك كلِّه؛ لأن عيسى ـ عليه السلام ـ إنما ينزلُ لقتل الدَّجَّال، ولإحياء شريعة محمد ﷺ وليعمل بأحكماها، وليُقيم العدلَ على مقتضاها، وليقهَر الكفَّارَ، وليُظهرَ للنصارى ضلالتهم، ويتبرَّا من إفكهم، فيقتلَ الخنزيرَ، ويكسرَ الصَّليب، ويضع الجزيةَ، ويأتمَّ بإمام هذه الأمَّة، كما تقدم في كتاب الإيمان.

---

(1) سورة النساء الآية 158

(2) سورة الأحزاب الآية 40

صافِّين تَحْرُسُها، فينزل بالسَّبخَة، فترجُفُ المدينة ثلاث رَجَفاتٍ يخرج إليه منها كل كافرٍ ومنافق».

وفى أخرى: «فيأتي سَبْخَةَ الجَرفِ فيضربُ رِواقَهُ»، وقال: «فيخرج إليه كلُّ منافقٍ ومنافقة».

وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «يَتْبَعُ الدَّجالَ من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة».

وعن أمِّ شَرِيْكٍ، أنَّها سمعتْ النَّبيَّ ﷺ يقول: لَيَفِرَّنَّ الناسُ من الدَّجال في الجبال». قالت أمُّ شَرِيْكٍ: يا رسول الله! فأين العرب يومئذٍ؟ قال: «هم قليل».

* * *

والحاصل: أنه لم يأت برسالة مستأنفة، ولا شريعة مبتدأة، وإنما يأتي عاضداً لهذه الشريعة، ومُلتزماً أحكامَها، غيرَ مُغيِّرٍ لشيءٍ منها، والمنفيُّ بالأدلة السابقة: إنما هو رسولٌ يزعمُ أنه قد جاء بشرع مبتدأ، أو برسالة مستأنفة، فمن ادَّعى ذلك كان كاذباً، كافراً قطعاً.

و(قوله: «يتبعُ الدَّجَّالَ من يهود أصبهانَ سبعون ألفاً عليهم الطَّيالسَة») هي جمع طَيْلَسان بفتح اللام، ولا تكسره العربُ في المشهور، وحكاه البكريُّ بكسر اللام، وهو الكساء. وهو أعجميٌّ مُعَرَّب، والهاء في جمعه للعجمة. ويدلُّ هذا على أنّ اليهودَ أكثرُ أتباعَ الدَّجَّال، ومن يعتقد التجسيم. والرواية المشهورة سبعون ألفاً وعند ابن ماهان: تسعون ألفاً.

* * *

باب حديث الجسَّاسة وما فيه من ذكر الدجال

عن فاطمة بنتِ قيس ـ وكانت من المهاجرين الأول ـ أَنَّها قالت : نكحتُ ابنَ المغيرةِ، وهو من خيار شباب قريش يومئذٍ، فأصيب في أوَّل

ومن باب : حديث الجسَّاسة

حديث فاطمة هذا في هذه الرواية مخالف للمشهور من حديثها في مواضع، فمنها : قولها فنكحتُ ابنَ المغيرة، فأصيب في أوَّل الجهاد مع رسول الله ﷺ فلما تأيَّمت خطَبني عبدُ الرحمن بن عوف. وظاهرُه أنها تأيَّمت عنه بقتله في الجهاد، وهو خلاف ما تقدَّم في كتاب الطلاق أنها بانت منه بتطليقة كانت بقيت لها من طلاقها، وكذلك قالت في الرواية الأخرى المذكورة في هذا الباب. قالت : طلَّقني بعلي ثلاثاً، فأذنَ لي النبيُّ ﷺ أن أعتدَّ في أهلي. وهذا هو المشهور عند العلماء على ما قاله القاضي أبو الوليد الكنانيّ وغيره. وقد رامَ القاضي أبو الفضل تأويلَ هذا فقال : لعلَّ قولَها : أُصيب في أوَل الجهاد مع النبيِّ ﷺ إنما أرادت به عدَّ فضائله وذكرَ مناقبه كما ابتدأت بالثناء عليه، وهو قولُها : من خير شباب قريش. قال : وإذا كانَ هذا لم يكن فيه معارضة.

ومنها : أنَّ ظاهرَ قولها : أنه قُتل مع رسول الله ﷺ في الجهاد في أوَّله. وقد اختلف في وقت وفاته، فقيل : مع عليِّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ باليمن إثرَ طلاقها، ذكرَ ذلك أبو عمر بن عبد البَرّ. وقيل : بل عاش إلى أيَّام عمرَ، وذكرت له معه قصة في شأن خالد بن الوليد، ذكر ذلك البخاري في التاريخ، وقد تقدَّم قولُ القاضي أبي الفضل، ولعلَّ قولها : أُصيب مع رسول الله ﷺ بغير القتال، إمَّا بجرح، أو بشيءٍ آخر، والله تعالى أعلم.

ومنها : أنها قالت : فلما كلَّمني رسولُ الله ﷺ قلت : أمري بيدك فأنكحْني من شئتَ، فقال : «انتقلي إلى أُمِّ شريك». فظاهرُ هذا أنَّه أمرَها بالانتقال إلى أُمِّ

الجهاد مع رسول الله ﷺ فلما تَأَيَّمتُ خطبني عبدُ الرحمن بنُ عوفٍ في نفرٍ من أصحاب محمد ﷺ، وخطبني رسولُ الله ﷺ على مولاهُ أسامةَ بن زيدٍ، وكنت قد حُدِّثْتُ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من أحبَّني فليحبَّ أسامة»، فلما كلَّمني رسولُ الله ﷺ قلت: أمري بيدكَ فأنكحني من شئت! فقال: «انتقلي إلى أمِّ شَرِيك». ـ وأمُّ شريكٍ امرأة غنيةٌ من الأنصار، عظيمةُ النَّفقة في سبيل الله، ينزل عليها الضيفان ـ فقلت: سأفعل. فقال: «لا

شريك، ثم إلى ابن أُمِّ مكتوم، إنما كان بعد انقضاء عدتها، وبعد أن خُطبت، وفوَّضت أمرَها للنبيِّ ﷺ وليس الأمرُ كذلك، وإنما كان ذلك في حال عِدَّتها لَمَّا خافت عورة منزلها، على المشهور، أو لإنها كانت تؤذي أحماءَها، على ما قاله سعيد بن المسيب كما تقدَّم.

ومنها: أنها نسبت أمَّ شريك إلى الأنصار، وليس بصحيح، وإنما قرشية من بني عامر بنِ لؤيّ، واسمها غُزَيّة، كذا وجدته مقيّداً في أصل يُعتمد عليه، وكُنيت بابنها شَريك، وقيل اسمها: غُزَيْلة، حكى هذا كلَّه أبو عمر.

ومنها: قوله: «ولكنْ انتقلي إلى ابن عمِّك عبد الله بن عمرو بن أم مكتوم وهو رجل من فهرٍ، فهر قريش، وهو من البطن الذي هي منه». قال القاضي أبو الفضل: والمعروف خلافُ هذا، وليس بابن عمِّها، بل: هي من مُحارب بن فهر، وهو من بني عامر بن لؤيّ، وليسا من بطن واحد، واختلف في اسم ابن أُمِّ مكتوم، والصحيح: عبدُ الله.

و(قولها: فلما تأيَّمتُ خطبني عبدُ الرحمن بن عوف في نفر) أي: فلما انقضت عِدَّتُها، وحلَّت للأزواج، وقد تقدَّم أنَّ الأيِّم: هي التي لا زوجَ لها.

و(قوله: أمري بيدِكَ فَأَنْكحني مَنْ شئت) دليل على صحة الوكالة في النكاح.

تفعلي! إنَّ أُمَّ شَريكٍ امرأةٌ كثيرة الضيفان، فإنِّي أكره أن يَسْقُطَ عَنْكِ خِمَارُكِ أو ينكشف الثوبُ عن ساقَيْكِ، فيرى القومُ منكِ ما تكرهين! ولكن انتقلي إلى ابن عمِّك عبدِ الله بن عمرو ابن أمِّ مكتوم». ـ وهو رجل من بني فهْرٍ، فهْرِ قريش، وهو من البطن الذي هي منه ـ فانتقلتُ إليه، فلمَّا انقضت عِدَّتي سمعتُ نداء المنادي ـ منادي رسول الله ﷺ ـ ينادي: الصلاةَ جامعةً، فخرجْتُ إلى المسجد، فصلَّيتُ مع رسول الله ﷺ، فكنتُ في صف النِّساءِ التي تلي ظهور القوم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاتَه جلس على المنبر وهو يضحكُ، فقال: «ليلزمْ كلُّ إنسانٍ مُصَلاَّهُ». ثم قال: «أتدرون لم جمعتكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: «إنِّي والله ما جمعتكم لرغبة، ولا لرهبة، ولكنْ جمعتكم لأن تميماً الداريَّ كان رجلاً نصرانياً، فجاء فبايع، وأسلم، وحدثني حديثاً وافق الذي كنتُ أحدِّثُكم عن مسيح الدَّجَّال. حدَّثني: أنَّه ركب في سفينةٍ بحرية، مع ثلاثين رجلاً من لخمٍ وجُذامَ، فلعب بهم الموجُ شهراً في البحر، ثم أَرْفَؤُوا إلى جزيرةٍ في البحر حتى مغرب الشَّمس، فجلسوا في أقْرُبِ السفينة، فدخلوا الجزيرة، فلقيتهم

و(قوله: «إنِّي أكرهُ أن يسقطَ عنك خِمَارُك، أو ينكشف الثوب عن ساقك») دليلٌ على: أن أطرافَ شعرِ الحُرَّة، وساقَيْها عورةٌ، فيجب عليها سترُها في الصلاة، وقد تقدَّم ذلك.

و(قوله: «ثم أرفؤوا إلى جزيرة في البحر») أي: لجؤوا إليها، ومرفأ السفينة: حيث ترسي. يُقال: أرفأتُ السفينةَ: إذا قرَّبتُها من الشَّط، وذلك الموضع مرفأ. وأرفأتُ إليه: لجأتُ إليه.

و(قوله: «فجلسوا في أَقْرُب السَّفينة») كذا الرواية المشهورة. قال الإمام: هي القواربُ الصغار يتصرف بها ركَّابُ السفينة، والواحدُ قارب، جاء ها هنا على غير

دابَّةٌ أهلبُ، كثيرُ الشَّعر، لا يدرون ما قُبُلُهُ من دُبُرِه من كثرة الشَّعَرِ، فقالوا: وَيْلَكِ ما أنت؟! قالت: أنا الجسَّاسةُ؟ قالوا: وما الجسَّاسةُ؟ قالت: أيُّها القوم! انطلقوا إلى هذا الرجل في الدَّير، فإنَّه إلى خبركم بالأشواق! فلما سمَّتْ لنا رجلاً فَرِقْنا منها أن تكون شيطانةً! قال: فانطلقنا سراعاً. حتى دخلنا الدَّير، فإذا فيه أعظمُ إنسانٍ رأيناه قطُّ خَلْقاً، وأشدُّه وثاقاً، مجموعةٌ يداه إلى عنقه، ما بين ركبته إلى كعبيه بالحديد. قلنا: ويلك ما أنت؟ قال:

قياس. وأنكرَ غيرُه هذا، وقال: لا يُجمع فاعل على أَفعل. قال: وإنما يقال: الأقْرَبُ فيها: أَقْرُبَات السَّفينة وأدانيها؛ كأنَّه ما قَرُبَ منها النزول، أو كأنَّه من القرب الذي هو الخاصرة، ويُؤيِّده أن ابنَ ما هان روى هذا الحرف فقال: في أُخْرِياتِ السفينة، وفي بعضها: في آخر السفينة.

قال الشيخ رحمه الله: ويشهد لما قاله الإمامُ ما رواه ابنُ أبي شَيبة في مصنفه: «فقعدوا في قواربِ السفينة» وهذا الجمعُ هو قياس قَارَب، ويُقال بفتح الراء وكسرها.

و(قوله: «فلقيتهم دابَّة أَهْلَبُ») أي: غليظة الشعر، والهَلَبُ: ما غَلُظَ من الشعر، ومنه المهلبة، وهو شعر الخنزير الذي يخرز به. وذكرَ أهلبَ حملاً على المعنى، وكأنه قال: حيوانٌ أهلبُ أو شخص، ولو راعى اللفظَ لقال هلباء، لأن قياس أهلب هلباء كأحمر وحمراء.

و(قوله: «ما أنت؟») اعتقدوا فيها أنها مما لا يعقلُ، فاستفهموا بـ«ما» ثم إنها بعد ذلك كلَّمتهم كلامَ مَنْ يعقل، وعند ذلك رهبوا أن تكون شيطانة؛ أي: خافوا من ذلك.

و(قوله: «أنا الجَسَّاسَة») بفتح الجيم وتشديد السين الأولى. قيل: سمَّت نفسَها بذلك لتجسُّسِها أخبارَ الدَّجَّال. من التجسُّس بالجيم، وهو الفحص عن الأخبار، والبحث عنها، ومنه الجاسوس. وقد روي عن عبد الله بن عمر، ـ رضي الله عنهما ـ أن هذه الدابَّة: هي دابَّةُ الأرض التي تخرجُ للناس في آخر الزمان فتكلِّمُهم.

قد قَدَرْتُمْ على خبري، فأخبروني ما أنتم؟! قالوا: نحن أناسٌ من العرب، ركبنا في سفيةٍ بحريَّة، فصادَفنا البحر حين اغتلم، فلعب بنا الموجُ شهراً، ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه، فجلسنا في أقْربها، فدخلنا الجزيرة، فَلقيتنا دابةٌ أهْلبُ كثيرُ الشَّعَر، لا يُدْرَى ما ما قُبُلُهُ من دُبُرِه من كثرة الشَّعَر،فقلنا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجسَّاسَةُ. قلنا: وما الجسَّاسَةُ؟ قالت: اعْمِدُوا إلى هذا الرَّجل في الدَّيْر؛ فإنَّه إلى خبركم بالأشواق، فأقبلنا إلَيْك سراعاً، وفَزِعْنا منها، ولم نأمنْ أن تكون شيطانةً! فقال: أخبروني عن نخل بَيْسانَ؟ قلنا: عن أيِّ شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها: هل يثمر؟ قلنا له: نعم. قال: أما إنه يوشكُ أن لا تُثْمِرَ. قال: أخبروني عن بحيرة الطَّبريَّة. قلنا: عن أيِّ شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماءٌ؟ قالوا: هي كثيرةُ الماء. قال: أمَا إنَّ ماءَها يوشكُ أن يذهب! قال: أخبروني عن عين زُغَرَ؟ قالوا: عن أيِّ شأنها تستخبر؟ قال: هل في العين ماءٌ؟ وهل يَزْرَعُ أهلُها بماء العين؟ قلنا له: نعم هي كثيرة الماء، وأهلُها يزرعون من مائها. قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة، ونزل يثربَ. قال: أقاتَلَهُ العربُ؟ قلنا: نعم.

و(قوله: «قد قَدَرْتُم على خبري») أي: أطَّلعتُم عليه، وقَدَرْتُم على الوصول إليه.

و(قوله: «صادَفْنا البحرَ قد اغتلمَ») أي: قد هاج، وجاوز حدَّه ومنه الغُلْمَةُ، وهي شِدَّة شهوة النِّكاح. وبَيْسان: بفتح الباء، ولا تُقال بالكسر. وزُغَرُ: بالزاي المضمومة، والغين المعجمة على وزن نُغَر، وهما معروفان بالشام. ونبيُّ الأميِّينَ: هو محمَّد ﷺ والأميون: العرب، لأن الغالب منهم لا يكتب كما قال ﷺ «إنَّا أُمَّةٌ أُميَّةٌ لا نكتبُ، ولا نَحْسبُ» فكأنَّهم لاقون على أصل ولادة الأُمِّ لهم، فُنسبَ الأُمِّيُّ إليها. هذا أولى ما قيل فيه. وقد تقدَّم القولُ في تسمية المدينة طيبة، وطابة، وأن كلَّ ذلك مأخوذٌ من الطِّيب.

قال: كيف صنع بهم؟ فأخبرناه: أنَّه قد ظهر على من يليه من العرب، وأطاعواه. قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم، قال: أَمَا إنَّ ذاكَ خيرٌ لهم أن يطيعوه، وإنِّي مُخْبِركم عنِّي. إني أنا المسيح، وإنِّي أوشك أن يُؤذنَ لي في الخروج، فأخرجَ فأسيرَ في الأرض، فلا أدع قريةً إلا هبطتها في أربعين ليلةً غير مكة وطيبةً، فهما مُحَرَّمَتان عليَّ كلتاهما، كلَّما أَرَدْتُ أنْ أدخلَ واحدةً، أو واحداً منهما، استقبلني مَلَكٌ بيده السيف صَلْتاً، يُصُدُّني عنها، وإنَّ على كل نَقْبٍ منها ملائكةً يحرسونها». قالت: قال رسول الله ﷺ: «وطعن بمخصرته في المنبر، (هذه طيبةُ! هذه طيبةُ! هذه طيبةُ!) يعني: المدينةَ، ألا هل كنتُ حدَّثتكم ذلك؟». فقال الناس: نعم. «فإنَّه أعجبني حديثُ تميم أنَّه وافق الذي كنتُ أحدِّثُكم عنه، وعن المدينة، ومكةَ! ألا إنَّه في بحر الشَّام، أو بحر اليمن، لا بل من قبل المشرق! ما هو من قبل المشرق! ما هو من قِبَل المشرق! ما هو؟» وأومأ بيده إلى المشرق قالتْ: فحفظتُ هذا من رسول الله ﷺ.

و(قوله: «استقبلني مَلَكٌ بيده السيفُ صَلْتاً») أي: مجرداً عن غِمْده. قال ابن السِّكيت: فيه لغتان، فتح الصاد وضمها. والمِخْصرة؛ بكسر الميم: عصاً، أو قضيب كانت تكون مع الملك إذا تكلَّم، وقد تقدَّم ذكرها.

و(قوله: «ألا إنَّه في بحر الشام، أو بحر اليمن، لا! بل من قبلَ المشرق، ما هو من قبل المشرق») ما هو هذا كلُّه كلامٌ ابتدىء على الظَّنِّ، ثم عرضَ الشكَ، أو قَصَدَ الإبهامَ، ثم بقي ذلك كلُّه، وأضرب عنه بالتحقيق، فقال: لا! بل من قِبَل المشرق، ثم أكَّد ذلك بما الزائدة، وبالتكرار اللَّفظي، فما فيه زائدة لا نافية. وهذا لا بُعْد فيه؛ لأن النبيَّ بشرٌ يظنُّ ويشكُّ، كما يسهو وينسى، إلا أنه لا يتمادى، ولا يُقرّ على شيءٍ من ذلك؛ بل يُرشد إلى التحقيق، ويُسلك به سواءَ الطريق. والحاصل من هذا: أنه ﷺ

وفي رواية: أنَّ الشعبي سأل فاطمةً بنتَ قيسٍ عن المطلَّقة ثلاثاً؛ أين تعتدُ؟ قالت: طلقني بعلي ثلاثاً، فأذن ليَ النَّبيُّ ﷺ أن أعْتدَّ في أهلي. قالت: فَنُودِي في النَّاس: الصلاةَ جامعةً! قالت: فانطلقت فيمن انطلق من النَّاس. قالت: فكنت في الصف المقدم من النساء وهو يلي المؤخر من الرجال. قالت: فسمعتُ النبي ﷺ وهو على المنبر يخطبُ. وذكره. وزاد فيه، قالت: وكأنما أنظر إلى النبيِّ ﷺ وأهوى بمِخصرته إلى الأرض، وقال: «هذه طيبةُ!» يعني: المدينة.

* * *

ظنَّ أن الدَّجَّال المذكور في بحر الشام؛ لأن تميماً إنما ركبَ في بحر الشام، ثم عرضَ له أنَّه في بحر اليمن؛ لأنه يتصلُ ببحر متصل ببحر اليمن، فيجوز ذلك. ثم أطلعه العليم الخبير على تحقيق ذلك فحقَّقَ، وأكَّدَ. وتاهت السفينة: صارت على غير اهتداء. والتيه: الحيرة. والرُّواق: سقف في مُقدَّم البيت، ويُجمع في القِلَّة: أروقة، وفي الكثرة: روقاً.

* * *

باب كيف يكون انقراض هذا الخلق
وتقريب الساعة وكم بين النفختين

عن عبد الله بن عمرو، وجاءه رجل فقال: ما هذا الحديث الذي تُحدِّث به؟ تقول: إنَّ الساعة تقوم إلى كذا وكذا. فقال: سبحان الله! ـ أو: لا إله إلا الله، أو كلمةً نحوهما ـ لقد هممتُ ألا أحدِّث أحداً شيئاً أبداً! إنَّما قلت: إنَّكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً، يُحرَّق البيتُ، ويكون، ويكونُ.... ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرجُ الدَّجَّالُ في أمتي، فيمكُثُ أربعين ـ لا أدري أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين عاماً ـ

ومن باب: كيف يكون انقراض هذا الخلق

(قوله: لقد هممت ألا أُحَدِّث أحداً شيئاً أبداً) إنما قال ذلك لأنهم نسبوا إليه ما لم يقل، فشقَّ ذلك عليه، ثم إنَّه لما علمَ أنه لا يجوز له ذلك، ذكرَ ما عنده من علم ذلك.

و(قوله: يُحرَّقُ البيتُ) قد كان ذلك في عهد ابن الزبير، وذلك أن يزيدَ بن معاوية وجَّه من الشام مسلمَ بن عُقبة المدنيّ في جيش عظيم لقتال ابن الزبير، فنزلَ بالمدينة، وقاتلَ أهلَها، وهزمَهم، وأباحها ثلاثة أيَّام، وهي وَقْعَةُ الحَرَّة، وقد قدَّمنا ذكرها. ثم سارَ يُريد مَكَّة، فمات بقُدَيْد، ووليَ الجيشَ الحُصَينُ بن نمير، وسارَ إلى مكَّة، فحاصرَ ابن الزبير، وأُحرقتِ الكعبةُ حتى انهدامَ جدارها، وسقط سقفها، وجاء الخبر بموت يزيد فرجعوا.

وقوله: «فيمكثُ أربعين» لا أدري أربعينَ يوماً، أو شهراً، أو سنةً) هذا الشكُّ من عبد الله بن عمرو، وقد ارتفع بالأخبار السابقة أنه أربعون يوماً على التفصيل المُتقدَّم.

« فيبعث الله عيسى ابنَ مريمُ كأنَّه عروةُ بنُ مسعودٍ، فيطلبُه فيُهْلكُهُ. ثم يمكث الناس سبع سنين. ليس بين اثنين عداوةٌ. ثمَّ يرسلُ الله ريحاً باردةً من قِبَل الشَّام، فلا يبقى على وجه الأرضِ أحدٌ في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من خيرٍ أو إيمانٍ إلا قَبَضته، حتى لو أنَّ أحدكم دخل في كَبِد جَبلٍ لدخَلَتْهُ عليه حتى تَقْبِضَهُ! ». قال: سمعتُها من رسول الله ﷺ، قال: « فيبقى شرارُ الناسِ في خِفة الطَّيرِ، وأحلام السِّباع، لا يعرفُون معروفاً، ولا ينكرُون مُنْكَراً، فيتمثلُ لهم الشَّيطانُ، فيقولُ: ألا تستجيبونَ؟! فيقولون: فما تأمرُنا؟ فيأمُرُهُم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌّ رِزْقُهُمْ، حَسَنٌ عَيْشُهم، ثم ينفَخ في الصُّورِ فلا يسمعُه أحدٌ إلا أصغى لِيتاً، ورَفَع لِيتاً ». قال: « وأوّل من يسمُعه رجلٌ يلوط حَوْضَ إبله ». قال: « فيَصْعقُ، ويَصْعَقُ الناسُ. ثم يرسل اللَّهُ ـ أو قال: يُنْزِلُ الله ـ مطراً كأنَّه الطَّلُّ ـ أو الظِّلُّ ـ (نُعْمان الشَّاكُّ) فتنْبُتُ منْهُ أجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهُ أُخْرَى، فإذا هُمْ قِيَامٌ ينظرون. ثم يقال: يا أيها

و(قوله: « لو أنَّ أحدَكم دخلَ في كَبِدِ جَبَل ») كذا صحيح الرواية، ووقع في بعض النسخ: « كبد رجل »، وهو مثل قُصد به الإغياء، وكبد الشيء: داخلهُ.

و(قوله: « ويبقى شرار الناس، في خِفَّة الطير، وأحلام السباع ») أي: هم في مسارعتهم، وخِفَّتهم إلى الشرور، وقضاء الشهوات، وغلبة الأهواء، كالطير لخِفَّة طيرانه، وهم في الإفساد والعدوان كالسِّباع العادية. والصُّور: قَرْنٌ يُنفخ فيه، كما جاء في الحديث. وأصغى: أمالَ، واللِّيت: صفحةُ العُنُق، وهو جانبه.

و(قوله: « كأنه الطَّلُّ، أو الظِّلُّ ») هذا شكّ، والأصحّ أنه الطَّلُّ بالطاء المهملة، لقوله في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: « ثم ينزلُ من السماء ماءٌ »، وفي حديث آخر: « كَمَنِيِّ الرجال ». وهلمُّوا أي: تعالوا وأقبلوا، وقد تقدَّم أن فيها لغتين، وقد روي هنا بالوجهين: هلمُّوا، وهلمَّ.

الناس! هَلُمَّ إلى ربِّكم! وقِفوهُم إنّهم مسوولونَ». قال: «ثم يقال: أَخْرِجُوا بَعْثَ النارِ. فيقال: مَنْ كَمْ؟ فيقال: من كلِّ ألف، تسعمئة وتسعةً وتسعين». قال: «فذاك يومَ يجعلُ الولدانَ شِيباً، وذلك يوم يُكْشَفُ عن ساقٍ».

و(قوله: «ثم يُقال أخرجوا بعثَ النَّار») قد تقدَّم في الإيمان: أن الذي يُقال له ذلك: آدم ـ عليه السلام ـ، والجمع بينهما بأنَّ المأمورَ أولاً: آدم، وهو يأمرُ الملائكةَ بالإخراج، ومعنى الإخراج هنا بتمييز بعضهم من بعض، وإلحاق كلِّ طائفة بما أُعدَّ لها من الجنَّة أو النَّار.

و(قوله: «فذلك يومٌ يجعلُ الولدانَ شيباً») الولدان: جمع وليد، وهو الصغير. يقال عليه: من حين الولادة إلى أن يرجعَ جَفْراً. وشِيباً: جمع أشيب؛ أي: يصيرُ الصغير أشيبَ لشدَّة أهوال ذلك اليوم. وقيل: هذا على التهويل والتمثيل، كما قال أبو تمام.

خُطُوبٌ تُشَيِّب رَأْسَ الوَلِيدِ

و(قوله: «وذلك يومَ يُكشفُ عن ساقٍ») معناه ومعنى ما في كتاب الله تعالى من ذلك واحد، وهو عبارة عن شدَّة الحال وصُعوبة الأمر، قاله ابن عبَّاس في الآية. يُقال: كشفت الحربُ عن ساقها. قال الشاعر.

قَدْ حَلَّتِ الحَرْبُ بِكُمْ فَجُدُّوا ... وكَشَفَتْ عَن ساقِها فَشُدُّوا

وقال آخر:

كَشَفَتْ لَكُمْ عَنْ سَاقِها ... وبَدا مِنَ الشَّرِّ الصُّرَاحُ

وأصلُه: أن المُجدَّ في الأمر يشدُّ إزارَه، ويرفعُه عن ساقه. قال قتادة: يُقال للواقع في أمر عظيم يحتاج إلى الجدِّ: قد كشفَ ساقَه. قال الشاعر:

في سَنَةٍ قَدْ كَشَفَتْ عَنْ سَاقِها ... حَمْراءُ تَبْرِي اللَّحْمَ عَنْ عُراقِها

عن عائشة، قالت: كانت الأعراب إذا قَدِمُوا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فنظر إلى أحدث إنسانٍ منهم فقال: «إنْ يعشْ هذا؛ لم يدْرِكْه الهَرَمُ؛ قامت عليكم ساعَتُكُم».

ومن حديث أنسٍ، قال: «إنَّ عُمَرَ هذا، لم يدْرِكْه الهرَمُ حتَّى تقوم الساعةُ»، قال أنس: ذلك الغلام من أترابي يومئذٍ.

وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ أنا والساعةُ كهاتين». قال: وضمَّ السَّبَّابة والوسطى.

قال الشيخ رحمه الله: وهذا المعنى بَيِّنٌ في هذا الحديث، فتأمَّلْ مَسَاقه، وعليه تُحمل الآية، ولا يُلتفت إلي غير ذلك مما قيل فيها.

و(قوله: «إن يعشْ هذا لم يُدْرِكْهُ الهَرَمُ، قامتْ عليكم ساعتُكم») هذه الرواية: رواية واضحة حسنة، وهي المُفَسِّرَةُ لكلِّ ما يردُ في هذا المعنى من الألفاظ المشكلة، كقوله في حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ: «حتى تقومَ الساعة»، وفي لفظ آخر: «القيامة»، فإنه يعني به: ساعة المخاطَبين وقيامَتَهم، كما تقدَّم في تفسير الراوي، لقوله: يعني بذلك: أن ينخرمَ ذلك القَرنُ.

و(قوله: «بُعِثتُ أنا والسَّاعةُ كهاتين» وضمَّ بين السَّبابة الوسطى) رويته: «أنا والسَّاعةُ» بالضم والفتح، فالضمُّ على العطف، والفتحُ على المفعول معه، والعامل بُعثت. وكهاتين: حال، أي: مقترنين، فعلى النصب يقع التشبيه بالضم، وعلى الرفع يحتمل هذا ويحتملُ أن يقع بالتفاوت الذي بين السَّبابة والوسطى فتأمَّله. ويدلُّ عليه قول قتادة في بعض رواياته: «كفضل إحداهُما على الأخرى»، وحاصلُه تقريب أمر الساعة التي هي القيامة، وسرعة مجيئها، وهذا كما قال: ﴿**فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا**﴾[1] قال الحسن: أوَّلُ أشراطها: محمّد ﷺ.

---

(1) سورة محمد الآية 18

وعن أبي هريرة ـ يَبْلُغُ به النَّبيَّ ﷺ ـ قال: «تقوم الساعةُ والرجلُ يحلُبُ اللِّقْحَةَ فَمَا يَصَلُ الإناءُ إلى فيه حتى تقومَ، والرجُلان يَتَبَايَعان الثوب، فما يتبايعانه حتى تقومَ، والرجلُ يَلِطُ في حَوْضِه، فما يَصْدُرُ حتى تقومَ».

وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون». قالوا: يا أبا هريرة! أربعون يوماً؟ قال: أَبَيْتُ! قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيتُ! قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيتُ!». .....

و(قوله: «تقومُ الساعةُ والرجل يَحْلُبُ اللِّقحة فما يصلُ الإناء إلى فيه حتى تقوم...الحديث») وقد تقدَّم أن اللِّقحة: الناقة ذات اللبن. ويلوطُ حوضَه، ويتلوَّط في حوضه؛ أي: يُصلحُه ويطيِّنُه، ويُروى: يلطُ حوضَه بمعناه، ويُقال: لاط حوضَه يلوطه وهي المعروفة، ويُقال: ألاطَ حوضَه يليطه: إذا طيَّنه. وحاصل هذا الحديث: أنَّ الساعةَ تقومُ بغتةً كما قال تعالى: ﴿**لاَ تَأتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً**﴾ (1).

و(قوله: «ما بين النفختين أربعون») يعني: نفختي الصعق والبعث، يُشير إلى قوله تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ**﴾ (2).

و(قول أبي هريرة: أبيتُ أبيتُ، لما سُئلَ عن الأربعين ما هي) يدل على: أنه كان عنده من ذلك علم وامتنعَ من بَثِّه؛ لأنه لا ترهقُ إليه حاجة، ولا يتعلَّق به عمل، ويحتملُ أن لا يكون عندَه علم من ذلك.

و(قوله: أبيتُ؛ أبيتُ) يعني أبيت أن أسألَ عن ذلك النبيَّ ﷺ، وفيه بُعد.

---

(1) سورة الأعراف الآية 181

(2) سورة الزمر الآية 68

ثم يُنْزِلُ اللهُ من السَّماء ماءً فَيَنْبُتُون كما يَنْبُتُ البقلُ»، قال: «وليس من الإنسان شيء إلا يَبْلى؛ إلا عَظْماً واحداً».

في روايةٍ: «لا تأكله الأرض أبداً وهو عَجْبُ الذَّنب، ومنه يُركَّبُ الخلقُ يوم القيامة».

وفي أخرى: «منه خُلِق، وفيه يُرَكَّبُ».

* * *

و(قوله: «ثم يُنزلُ الله من السماء ماءً») يعني به بعد نفخة الصَّعْق ينزل هذا الماء الذي هو كمنيّ الرجال، فتتكون فيه الأجسام بقدرة الله تعالى، وعن ذلك عبرَّ بقوله: فينبُتون كما ينبتُ البَقْل، فإذا تهيَّأت الأجسام، وكملت، نُفخ في الصور نفخة البعث، فخرجت الأرواحُ من المحال التي هي فيها. قال بعضُهم: فتأتي كلُّ روح إلى جسده فيُحييها الله تعالى، كلُّ ذلك في لحظة، بدليل قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ**﴾ (1).

،(قوله: «كلُّ ابن آدم تأكلُه الأرضُ») أي: تبليه، وتُصَيِّرهُ إلى أصله الذي هو التراب، هذا عموم مُخصَّص بقوله ﷺ: «حرَّم الله تعالى على الأرض أن تأكلَ أجسادَ الأنبياء»، وبقوله ﷺ: «المُؤذِّنُ المحتسبُ كالمُتشحِّط في دمه، وإن مات لم يُدوِّدْ في قبره». وظاهر هذا: أنَّ الأرضَ لا تأكلُ أجسادَ الشهداء، والمؤذنين المحتسبين، وقد شوهد هذا فيمن اذُلِعَ عليه من الشهداء، فوُجدوا كما دُفنوا بعد آماد طويلة، كما ذُكر في السِّيرَ وغيرها. وعَجْبُ الذَّنب: يُقال بالباء والميم، وهو، جزء لطيف في أسفل الصلب، وقيل هو رأس العُصْعُصَ، كما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب البعث من حديث أبي سعيد الخدري، وذكر الحديث: قيل يا رسول الله وماهو؟ قال:«مثل حبة خردل ومنه تنتشرون».

(وقوله: منه خُلق وفيه يُرَكَّب) أي أول ما خُلق من الإنسان هو: ثم إن الله تعالى يبقيه إلى أن يُركب الخلق منه تارة أخرى.

* * *

---

(1) سورة الزمر الآية 68

باب المبادرة بالعمل الصالح والفتن
وفضل العبادة في الهرج

عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «بادروا بالأعمال ستّاً: طُلُوعَ الشمس من مغربها، أو الدُّخانَ، أو الدجَّالَ، أو الدَّابَّةَ، أو خَاصّةَ أحدِكُم، أوْ أَمْرَ العامَّة».

وفي روايةٍ: «الدّجّالَ، والدُّخانَ، ودابَّة الأرضِ، وطلُوعَ الشمس من مغربها، وأمْرَ العامةِ، وخُوَيِّصَةَ أحدِكُمْ».

ومن باب: المبادرة بالعمل الصالح الموانع والفتن

(قوله: «بادرُوا») أي: سابقوا بالأعمال الصالحة، واغتنموا التَّمكُّنُ منها قبلَ أن يُحال بينكم وبينها بداهية من هذه الدواهي المذكورة، فيفوت العملُ للمانع، أو تعدمُ منفعته لعدم القبول، وقد تقدَّم القول على أكثر هذه الست.

و(قوله: «وخاصَّةُ أحدكم») يعني به: الموانع التي تخصُّه مما يمنعُه العملُ، كالمرض، والكِبَر، والفقرُ المُنْسي، والغنى المُطْغي، والعيال والأولاد، والهموم، والأنكاد، والفتن، والمحن، إلى غير ذلك مما لا يتمكَّن الإنسان مع شيءٍ منه من عمل صالح، ولا يسلمُ له. وهذا المعنى هو الذي فصَّلَه في حديث آخر حيث قال: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابَك قبل هَرَمك، وصحَّتك قبل سُقْمِكَ، وفراغَك قبل شُغْلِكَ، وغِناكَ قبل فَقْرِكَ، وحياتَك قبل مَوْتِك».

و(قوله: «وأمر العامَّة») يعني: الاشتغال بهم فيما لا يتوجَّه على الإنسان فرصة؛ فإنهم يُفسدون من يقصد إصلاحَهم، ويُهلكون من يريدُ حياتهم، لا سيما في مثل هذه الأزمان التي قد مَرِجَتْ فيها عهودهم، وخانت أماناتهم، وغلبت عليهم الجهالاتُ والأهواء، وأعانهم الظَّلَمة والسفهاء. وعلى هذا فعلى العامل بخويِّصَةِ

وعن مَعْقِلِ بن يَسارٍ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «العبادةُ في الهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ».

* * *

باب إغراء الشيطان بالفتن

عن جابرٍ، قال: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ الشَّيطان قَدْ أيس أنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ في جزيرة العرب، ولكنْ في التَّحريش بينهم».

نفسه، والإعراض عن أبناء جنسه، إلى حلول رمسه، أعاننا الله على ذلك بفضله وكرمه. وقد جاءت هذه الستة في إحدى الروايتين، معطوفةً بـ(أو) فيجوز أن تكونَ للتنويع، أي: اتقوا أن يصيبَكم أحدُ هذه الأنواع. ويصحُّ أن تكون بمعنى الواو، كما جاء في الرواية الأخرى.

و(قوله: «العبادةُ في الهَرْج كهجرةٍ إليَّ») قد تقدَّم أنَّ الهرجَ: الاختلاط والارتباك، ويُراد به هنا الفتن والقتل، واختلاط الناس بعضهم في بعض، فالمُتمسِّك بالعبادة في ذلك الوقت، والمنقطع إليها، المعتزلُ عن الناس، أجرهُ كأجر المُهَاجر إلى النبيِّ ﷺ؛ لأنه يناسبُه من حيث أن المهاجرَ قد فرَّ بدينه عمن يصدُّه عنه إلى الاعتصام بالنبيِّ ﷺ وكذلك هو المنقطع للعبادة فرَّ من النَّاس بدينه إلى الاعتصام بعبادة ربِّه، فهو على التحقيق قد هاجرَ إلى ربِّه، وفرَّ من جميع خلقه.

و(قوله: «إنَّ الشيطانَ قد يئسَ من أن يعبدَه المصلُّون في جزيرة العرب») يعني ـ والله أعلم ـ: أن المسلمينَ في جزيرة العرب ما أقاموا الصلاة فيها، وأظهروها، لم يظهرْ فيها طائفة يرتدُّون عن الإسلام إلى عبادة الطواغيت والأوثان، فإذا تركوا الصَّلاة، وذهبَ عنهم اسم المُصلِّين، فإذ ذلك يكونون شرارَ الخَلْق، وهذا إنما يتمُّ إذا قبضَ الله تعالى المؤمنينَ بالرِّيح الباردة المذكورة في حديث عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ: و«حينئذ يتمثَّلُ لهم الشيطانُ فيقولُ لهم: ألا تستحيونَ؟ فيقولون: فماذا تأمرُنا؟ فيأمرُهم بعبادة الأوثان، وحينئذ تضطربُ أَلْيَاتُ دَوْسٍ حول ذي الخَلَصَة، وتُعبد اللاَّت والعُزَّى». والله أعلم، وقد تقدَّم القول في جزيرة العرب.

وعنه؛ قال: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ عرش إبليس على البحر، فيبعثُ سراياه يفتنون النَّاسَ، فأعظمُهم عِنْدَه أعظمُهم فتنةً».

وفي أخرى: «إنّ إبليس يضعُ عرشَه على الماء، ثم يبعثُ سراياه، فأدناهم منه منزلةً أعظمُهم فِتْنة، يجيءُ أحدُهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا. فيقولُ: ما صنعتَ شيئاً! ثم يجيء أحدُهم، فيقولُ: ما تركتُه حتى فَرَّقْتُ بينه وبين امرأته! قال: فيُدْنِيه منه، ويقولُ: نِعْمَ أنت! قال الأعمش: أُراه قال: «فيلتزمُهُ».

* * *

و(قوله: «ولكن في التحريش بينهم») أي: في الخلاف، والشرور، والعداوة، والبَغْضاء بينهم حتى تكونَ من ذلك أمثال تلك الفتن العظيمة، والخطوب الجسيمة.

و(قوله: «إنَّ عرشَ إبليسَ على البحر») أي سريرُه، يفعلُ ذلك تكبُّراً على جنوده وأحزابه، وهذا هو العرش الذي رآه ابنُ صيَّاد، كما تقدَّم. وأصلُ العرش: الرفع. ومنه قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ﴾[1] منها ما هو مرفوع على ساق وهي الشجر، ومنها ما ليس كذلك، وهو النَّجم.

و(قوله: «فيُدنيه، ويلتزمهُ، ويقولُ: نعم أنتَ») كذا وجدته مقيَّداً في أصل الشيخ أبي الصبر؛ أي: يقربه منه، ويُعانقه، ويمدحه بـ(نِعْم) التي للمحمدة، وقد أُضمر فاعلها للعلم به من غير شرط، تقديرُه: نعم الحبيب، أو الوليُّ أنتَ. وهذا الإضمار شاذٌّ؛ لأنه لا يجوز إلا إذا فُسِّر بنكرة منصوبة على التمييز، كما هو المعروف في النحو، ومن قال: إن (نعم) هنا حرف جواب، فليس على صواب إذ ليس في الكلام سؤال يقتضيه، ولا معنى يُناسبه.

---

(1) سورة الأنعام الآية 141

باب في قوله عليه الصلاة والسلام: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم، وهلك المُتَنَطِّعُون» آخر الفتن

عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الذين من قبلكم شِبْراً بشبرٍ، وذراعاً بذراعٍ؛ حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لاتّبعتُمُوهم!»: قلنا: يا رسولَ الله! اَليهودُ والنَّصارى؟ قال: «فمن؟».

وعن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «هلك المُتَنَطِّعُونَ ـ قالها ثلاثاً ـ».

وعن أسامةَ بن زيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تركتُ بعدي فتنةً، هي أضرُّ على الرِّجال من النِّساء».

و(قوله: «لتتَّبِعُنَّ سُنَنَ الذين مِنْ قبلكم») يروى سُنن بضم السين وبفتحها، فبالضم: جمع سُنَّة، وهي: الطريقة المسلوكة، وبالفتح: هو اسم للطريق. والضَّبُّ: حِرْذَون الصحراء. والمُتنطعون: المتعمِّقون والغالون، وقد تقدَّم القول في هذا الحديث.

و(قوله: «إن الدنيا حلوة خَضِرة») أي: مستطابة في ذوقها، مُعْجبة في منظرها كالثمر المُسْتَحْلى، المعجب المَرْأى.

وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الدنيا حلوةٌ خَضِرةٌ. وإنّ الله مستخلِفُكُم فيها، فينظرُ كيف تعلمون؟ فاتقوا النَّار، واتَّقُوا النِّساء، فإنَّ فتنة بني إسرائيل كانت في النِّساء».

وعن عبد الله بنِ مسعودٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق».

* * *

و(قوله: «إن اللَّهَ مستخلَفكم فيها») أي: جعلكم فيها خلفاً ممن كان قبلكم؛ فإنها لم تصل إلى قوم إلا بعدَ ذهاب آخرين.

و(قوله: «فينظرُ كيف تعلمون») أي: يُبصر أعمالَكم فيجازي كُلاً بعمله، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرٌّ.

و(قوله: «فاتَّقُوا النَّارَ، واتَّقوا النِّساء») أي: احذروا الأعمال المقرِّبة من النار، واحذروا فتنةَ النساء، فإنهنَّ أوَّلُ فتنة بني إسرائيل، وفتنتهُنَّ على الرجال أشدُّ كلِّ فتنة، والمحنةُ بهنَّ أعظم كلِّ محنة؛ لأن النفوسَ مجبولةٌ على الميل إليهنَّ، وعلى اتِّباع أهوائهنَّ مع نقص عقولهنَّ، وفساد آرائهن، ومَن مَلَّكَ قِيادَهُ سفيةٌ ناقصٌ، فجَدُّه نَاكِصٌ.

* * *

كتاب التفسير

باب من فاتحة الكتاب

وقد تقدم في كتاب الصلاة من حديث أبي هريرة قوله تعالى: «قسمت الصَّلاة بيني وبين عبدي نصفين».

* * *

كتاب التفسسير

وهو مصدر فسَّر يفسِّر: إذا كشف المراد وبينَّه، وأصله من الفسر، وهو البيان. يقال: فسرت الشيء أفسر ـ بالكسر ـ فسراً. والتأويل: صَرْفُ الكلام إلى ما يوولُ إليه من المعنى، من آل إلى كذا: إذا رجع إليه. وقد حدَّه الفقهاءُ فقالوا: هو إبداءُ احتمالٍ في اللفظ معضود بدليل خارج عنه. فالتفسيرُ بيانُ اللفظ، كقوله: ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾[1] أي: لا شكَّ فيه، والتأويلُ: بيانُ المعنى، كقولهم: لا شكَّ فيه عند المؤمنين؛ أو لأنه حقٌّ في نفسه، فلا تقبلُ ذاته الشك، وإنما الشكُّ وصف الشاكِّ ونحو ذلك. وقد تقدم القول على قوله: «قسمت الصلاة» وفي الملائكة.

---

(1) سورة البقرة الآية 2

ومن سورة البقرة

عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: خُلِقَت الملائكةُ من نورٍ، وخُلِقَ الجانُّ من مارجٍ مِنْ نارٍ، وآدم مما وُصفَ لكُم».

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سُجَّداً وقولوا حِطّةٌ يُغْفَرْ لكم خطاياكُم، فبدّلوا، فدخلوا الباب يَزْحَفُون على أَسْتَاهِهِم، وقالوا: حَبَّةٌ في شَعَرَةٍ».

و(قوله: «خُلِقت الملائكةُ من نور») أي: من جواهر مضيئةٍ منيرة، فكانوا خَيْراً محضاً.

و(قوله: «وخلق الجان من مارج من نار») أي من شواظ ذي لهب، واتقاد، دخان، فكانوا شرا محضا، والخير فيهم قليل.

و(قوله: «وخُلق آدم مما تعلمون») أي: مما أعلمكم به، أي: من تراب صُيِّر طيناً، ثم فخاراً، كما أخبرنا به تعالى في غير موضع من كتابه. والفخار: الطين اليابس، وفي الخبر: «إن الله تعالى لما خلق آدم أمر من قَبَض قبضةً من جميع أجزاء تراب الأرض، فأخذ من حزنها وسهلها، وأحمرها وأسودها، فجاء ولده كذلك».

و(قوله: «ادخلوا الباب مسجداً، وقولوا حطّة») هذا الباب: هو الباب الثامن من بيت المقدس، قاله مجاهد. وقيل: باب القرية، وقال أبو علي: باب قرية فيها موسى ـ عليه السلام ـ. وسجَّداً: قال ابن عباس: منحنين ركوعاً. وقال غيره: خضوعاً وشكراً لتيسير الدخول. وحطة: يمعنى حطّ عنّا ذنوبنا، قاله الحسن. وقال ابنُ جبير: معناه الاستغفار. ثعلب: التوبة. قال الشاعر:

فَازَ بالحِطَّةِ الَّتِي جَعَلَ اللَّـ ـهُ بِهَا ذَنْبَ عَبْدِهِ مَغْفُورا

الكلبي: تعبّدوا بقولها كفَّارة. وهو مرفوعٌ على أنه خبرُ ابتداءٍ محذوف؛ أي: مسألتُنا وأمرُنا حطّة.

و(قوله: «فدخلوها يزحفون على استاههم») أي: ينجرّون على أليتاتهم فِعْل المُقْعَد الذي يمشي على أليته. يقال: زحف الصبي: إذا مشى كذلك، وزحف البعيرُ:

وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «نحن أحق بالشَّكِّ من إبراهيم؛ إذ قال: ربِّ أرني كيف تحيي الموتي؟ قال: أو لم تؤمن؟.....

إذا أعيا. وقالوا ـ مستهزئين ـ: «حبة في شَعَرةٍ»، وفي غير كتاب مسلم: «حنطة في شعر»، فعصوا، وتمردوا، واستهزؤوا، فعاقبهم بالرجز، وهو العذابُ بالهلاك. قال ابنُ زيد: كان طاعوناً أهلك منهم سبعين ألفاً.

و(قوله: «نحن أحقُّ بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى**﴾[1] اختلف العلماءُ قديماً وحديثاً في هذا السؤال، هل صَدَر عن شكٍّ وقع، أم لا؟ فهم فرقتان: المثبتة للشك، والنافية له. فالمثبتون: اختلافوا فيمن وقع له هذا الشكُّ، فمنهم مَن قال: إنما وَقَعَ الشكُّ لأمَّة إبراهيم، بدليل أول القصَّة، وهو قولُه: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ**...﴾ [2] فسأل إبراهيمُ ربَّه تعالى أن يُريَه وأمَّته كيفيةَ إحياءِ الموتى ليطمئنَّ قَلْبُه بظهور حُجَّته عليهم، وبإزالة الشَّكِّ عنهم. قاله الضَّحَّاكُ وابنُ إسحاق. ومنهم من قال: الشك من إبراهيم، لكن فيماذا اختلفوا فيه، فمنهم من قال: في الإحياء، حُكيَ عن ابن عباس أنه قال: دخل قلبَه بعضُ ما يدخل على القلوب. وهذا لا يصحُّ نقلُه، ولا معناه، لأنَّ اللهَ تعالى قد أخبر عنه في أول القصة بأنه قال للمحتجِّ عليهم: ﴿**رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾ وكيف يجوزُ على الأنبياء مثلُ هذا الشك، وهو كُفْرٌ؛ فإنَّ الأنبياءَ متَّفقون على الإيمان بالبعث. ومنهم مَن قال: وَقَعَ له الشكُّ في كونه خليلاً، أو في كونه مُجابَ الدعوة، فسأل اللهَ تعالى ودعاه بأن يُريَه إحياءَ الموتى حتى يطمئنَّ قلبُه بذلك. ومنهم مَن قال: وقع له شكٌّ في كيفية الإحياء، لا في أصل الإحياء. قال الحسن: رأى جيفةً نصفها في البر توزّعها السباع، ونصفها في البحر توزّعها دوابُّ الماء، فلما رأى تفرُّقها أحبَّ أن يرى انضمامها، فسأل ليطمئن قلبُه برؤية كيفية الجمع، كما رأى كيفيةَ التفريق. ويتنزل قولُ نبينا ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» على هذه الأقوال واحداً واحداً، بحسب ما يليقُ به. وأما النافون للشك فاختلفوا. فمنهم من قال: أرى من نفسه الشك، وما شك، ولكن

---

(1) سورة البقرة الآية 260

(2) سورة البقرة الآية 258

ليجابَ قيزداد قُرْبُه. قال القاضي: وهذا تكلُّفٌ في اللفظ والمعنى. ومنهم من قال: لم يشكَّ إبراهيم، وقولُ نبيِّنا محمد ﷺ: «نحن أحقُّ بالشك من إبراهيم» نفي للشكِّ عنه، لا إثبات له، فكأنه قال: نحن موقنون بالبعث وإحياء الموتى، فلو شكَّ إبراهيمُ لكنَّا نحن أولى بذلك منه، على طريق الأدب، وإكبار حال إبراهيم ـ عليه السلام ـ، لا على جهة أنه وقع شكٌّ لواحدٍ منهما. ومنهم مَن قال: إنما جاوب نبيّنا ﷺ بقوله: «نحن أحقُّ بالشك» مَن سَمعَه يقول: شكّ إبراهيم، ولم يشكّ نبيُّنا، فقال ذلك.

قال الشيخ رحمه الله: هذه جملةُ ما سمعناه من شيوخنا، ووَقَفْنا عليه في كتب أئمتنا، وكلُّها محتملٌ يرتفعُ به الإشكال، إلا ماحكي عن ابن عباس؛ فإنه قولٌ فاسد. وليس في الآية مايدلُّ على أنَّ إبراهيم شكَّ؛ بل: الذي تضمَّنته أنَّ إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ سأل أن يشاهدَ كيفيةَ جَمْع أجزاء الموتي بعد تفريقها، واتصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها، فأراد أن يترقَّى من علم اليقين إلى عَيْن اليقين بقوله: «أرني كيف» طلب مشاهدة الكيفية.

و(قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ تُؤْمِن**﴾ [1] استفهامُ تقرير، كقوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**﴾ [2] أي: قد عمرناكم.

و(قوله: ﴿**لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**﴾ [3] أي: بحصول الفرق بين المعلوم برهاناً، والمعلوم عياناً، فإذاً لم يكنْ في الآية ما يدلُّ على شكٍّ وقع لإبراهيم، ولا لنبيِّنا ﷺ وإنما صَدَرَ ذلك من نبيِّنا ﷺ على الفرض الذّهني، والتقدير الشرطي، فكأنه قال: لو شكَّ إبراهيمُ في إحياء الموتى لكنا نحن أحقُّ بالشك منه، ولام نشكّ نحن، فهو أولى واحقّ بألا يشك، وهذا هو البرهانُ المسمّى عند أئمتنا النظَّار: البرهان الشرطي المتصل، وأهل المنطق يسمُّونه بالقياس الاستثنائي الذي ينتج منه استثناء عين التالي، ونقيض المقدَّم، على ما هو معروف في موضعه.

---

(1) سورة البقرة الآية 260

(2) سورة فاطر الآية 37

(3) سورة البقرة الآية 260

قال: بلى! ولكن ليَطمئنَّ قَلبي. ويَرْحَمُ الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديد! ولو لَبِثْتُ في السِّجن طول لَبْثِ يوسفَ لأجبتُ الدَّاعي!».

و(قوله: «ولو لبثتُ في السجن طولَ لبث يوسف لأجبتُ الداعيش) يعني به: الداعي الذي دعاه إلى الخروج من السجن المذكور في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ...﴾ [1] يصف يوسف ـ عليه السلام ـ بالتثبُّت والصبر على المحنة، وأنه أقام في السجن والتَّضييق عليه مدَّة طويلة، والنفوس متشوِّقة إلي الخروج من الضيق، والحبس الطويل، لا سيما إذا بُشِّر بالتخلُّص، ودُعِي إليه. فمقتضى الطَّبع: المبادرة إلى أول دعوة، والانفلات بمرَّة، لكنه لَما جاءه الداعي لم يبادرْ لإجابته، ولا استخفَّه الفرح بالتخلُّص من محنته، لكنه سكن وثَبَت إلي أن ظهرتْ براءتُه، وعُلمت منزلته. ثم إنَّ نبيَّنا ﷺ تأدَّب معه غايةَ الأدب، واعترف له بأنه من التثبت والصَّبر في أعلى الرُّتَب، وحمده على ذلك، وقدَّر أنه: لو امْتُحن لذلك لبادرَ إلى التخلُّص من ذلك لأوَّل داع. هذا مع أنَّ النبيَّ ﷺ قد أُعطي من التثبُّت في الأمور، والصَّبر على المكاره الحظَّ الأوفرَ، والنصيبَ الأكبر، لكنه تواضع لله، وتأدَّب مع أخيه نبيِّ الله.

و(قوله: «ويرحم اللهُ لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديد»، وفي الرواية الأخرى: «يغفر اللَّهُ للوط» هذا تنبيهٌ على قول لوط لضيفه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [2] وهذا من النبيِّ ﷺ إشارة إلى أنَّ لوطاً لم يرضَ منه بذلك القول في ذلك الموطن؛ فإنه قد كان انتهى من كمال المعرفة بالله تعالى إلى حالٍ لا يليقُ به فيها أن يلتفتَ إلى غير الله تعالى في كفاية المحن، ودَفْع الشدائد، فلما ضَعف عمَّا كان ينبغي له عُوتب على ذلك، ونُسب إلى التَّقصير. والذي أصدر ذلك القولَ من لوط ضيقُ صدره بما لقي من قومه من التكذيب والأذى، وحياؤه من أضيافه عند هَمِّ قومه بالفاحشة، وأنه لم تكنْ له عشيرةٌ، ولا أصحابٌ آمنوا به حتى ينتصر بهم على قومه؛ فإنه لم يؤمنْ به أحدٌ ممن أرسل إليه غير ابنتيه، ولما أُهلك قومُه لم يَنْجُ منهم إلا هو وابنتاه. ومع هذه الأعذار كلِّها لم يُرْضَ منه بأن يصدر منه ذلك في حال

---

(1) سورة يوسف الآية 50

(2) سورة هود الآية 80

وعن البراء، قال: كانت الأنصارُ إذا حَجُّو فَرَجَعُوا لَمْ يَدْخُلوا البيوت إلاَّ من ظهورِها. قال: فجاء رجلٌ من الأنصار فدخل من بابه، فقيل له في ذلك، فنزلت هذه الآية: ﴿ **وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا** ﴾.

تمكّنه وتمكينه. وكان النبيُّ ﷺ أراد من لوطٌ أن يكون على مثل حال إبراهيم ـ عليه السلام ـ في شدائده، فإنه قال حين رمي بالمنجنيق، وهو في الهواء، وقال له جبريل ـ عليه السلام ـ: ألكَ حاجة؟ فقال: أمَّا إليك فلا. ونحو ذلك صَدَر عن نبيِّنا ﷺ حين كان في الغار، والكفار عند فم الغار، فقال لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وقد رأى جزعة: «لا تحزنْ إنَّ الله معنا». والحاصل أن لأهل المعرفة بالله تعالى من الأنبياء، والأولياء حالين: حال حضور ومراقبة، فتتوجه عليهم بحسبها المناقشة والمعاتبة، وحال غيبة وبشرية، فيجرون فيها على الأمور العادية. فتارة يناقشون، وأخرى يُسامَحون، فَضْلاً من الله ونعمة، ورفقاً بهم ورحمة، وقد تقدَّم بسطُ هذا المعنى.

و(قوله: «ولو لبثتُ في السجن لبث يوسف») أي: لو مكثت وأقمت. يقال: لبث يلبَث بالكسر في الماضي والفتح في المضارع لُبْثاً بضم اللام، وسكون الباء، ولُباثاً، وكلاهما على غير قياس؛ لأن المصدرَ من فَعِل بالكسر قياسه التحريك إذا لم يُعَدَّ مثل: تعب تعباً، وقد جاء في الشعر على القياس. قال جرير:

وَقَدْ أَكُونُ عَلَى الحاجاتِ ذَا لُبَثٍ ... وَأَحْوَذِياً إذا انْضَمَّ الذَّعَالِيبُ

فهو لا بث، ولبثٌ أيضاً، وقرىء: ﴿ **لَّبِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً** ﴾[1]

و(قوله: «كانت الأنصارُ إذا حجُّوا فرجعوا لم يدخلوا البيوت إلا من ظهورها») إنما كانوا يفعلون ذلك لأنهم كانوا إذا احرموا يكرهون أن يحولَ بينهم وبين السماء سقفٌ إلى أن ينقضيَ إحرامُهم، ويصلوا إلى منازلهم، فإذا دخلوا منازلَهم دخلوها من ظهورها. قاله الزُّهري. يعتقدون أن ذلك من البرِّ والقُرب، فنفى اللهُ ذلك لقوله: ﴿ **وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا** ﴾[2] ثم بيَّن ما يكون فيه البرُّ بقوله:

---

(1) سورة النبأ الآية 23
(2) سورة البقرة الآية 189

وعن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ **وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ** ﴾، قال: دخل قلوبَهُم منها شيءٌ لم يدخلْ قلوبَهُم من شيءٍ. قال النَّبيُّ ﷺ: «قولوا: سَمِعْنا وأَطَعْنا وسَلَّمْنا». قال: فألقى اللَّهُ الإيمانَ في قلوبهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ **لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا أَكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا** ﴾، قال: قد

﴿ **وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى** ﴾ [1] أي: برُّ من اتقى الله، وعمل بما أمره اللَّه به من طاعته. ويُستفاد منها: أن الطاعات والقربَ إنما يُتوصَّل إليها بالتوقيف الشَّرعي والتعريف، لا بالعقل والتخريف. فالبيوتُ على هذا محمولةٌ على حقائقها، وقد قال بعضُ العلماء: إن المراد بها إتيان الأمور من وجوهها، وهو بعيد. وأبعد من قول من قال: إن المراد بها إتيانُ النساء في فروجهن، لا في أدبارهن، والصحيحُ الأول، وأما القولان الآخران فيؤخذان من موضع اخر، لا من الآية.

و(قوله: ﴿ **لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [2] التكليف هو الأمر بما بشقّ عليه، وتكلفت الشيء: تجشّمته. حكاه الجوهري، والوسع: الطاقة والجِدَة. وهذا خبرٌ من الله تعالى أنه لا يأمرُنا إلا بما نطيقه ويمكننا إيقاعُه عادةً، وهو الذي لم يقعْ في الشريعة غيره، ويدلُّ على ذلك تصفحها. وقد حُكي الإجماعُ على ذلك. وإنما الخلافُ في جواز التكليف بما لا يمكننا إيقاعُه عقلاً، كالجمع بين الضدين، أو عادةً كالطيران في الهواء. والمشي على الماء، فمن مجوِّزٍ، ومن مانع، وقد بيَّنَّا ذلك في الأصول، واستيفاءُ الكلامِ عليها في عِلْم الكلام.

تنبيهٌ: الله تعالى بلطفه بنا، وإنعامه علينا، وإن كان قد كلَّفنا بما يشق علينا، ويثقلُ، كثبوت الواحد للعشرة، وهجرة الإنسان، وخروجه عن وطنه، ومفارقة أهله وولده وعادته، لكنه لم يكلِّفنا بالمشقات المثقلة، ولا بالأمور المؤلمة كما كُلِّف مَن قبلنا؛ إذ كلَّفهم بقتل أنفسهم، وقرض موضع البول من أبدانهم. بل سهَّل، ورفق بنا،

---

(1)سورة البقرة الآية 189

(2) سورة البقرة الآية 286

فعلت ﴿ رَبَّنَا ولاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾، قال قد فعلتُ ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَـٰفِرِينَ ﴾ قال: قد فعلتُ».

* * *

ووضع عنا الإصر والأغلال التي وضعها على مَن كان قبلنا، فله الحمدُ والمنَّة، والفضل والنعمة.

و(قوله: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا أَكْتَسَبَتْ ﴾ [1] دليلٌ على صحة إطلاق أئمتنا على أفعال العباد: كسباً، واكتساباً؛ ولذلك لم يطلقوا على ذلك: لا خلق، ولا خالق، خلافاً لمن أطلق ذلك من مجترئة المبتدعة. ومن أطلق من أئمتنا على العبد فاعل: فالمجاز المحض كما يعرف في الكلام.

و(قوله: ﴿ لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾[2] أي أعفُ عن إثم ما يقعُ منّا على هذين الوجهَيْن أو أحدهما، كقوله ﷺ: «رُفع عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه» أي: إثم ذلك، وهذا لم يختلفْ فيه: أنّ الإثم مرفوع، وإنما اختلف فيما يتعلَّق على ذلك من الأحكام؛ هل ذلك مرفوع لا يلزمُ منه شيءٌ، أو يلزم أحكام ذلك كلَّه؟ اختلف فيه. والصحيحُ أنَّ ذلك يختلفُ بحسب الوقائع؛ فقسمٌ: لا يسقط بالخطأ والنسيان باتفاق، كالغرامات والديات والصَّلوات. وقسم: يسقطُ باتفاق، كالقصاص، والنطق بكلمة الكفر ونحو ذلك. وقسم ثالث: يُختلف فيه، وصُورَه لا تنحصر، ويُعرف تفصيل ذلك في الفروع. والإصر: الثقل والمشقة الفادحة. وقول ابن عباس في هذا الحديث حكاية عن الله تعالى: «قد فعلت». وقول أبي هريرة في حديثه الذي تقدم في كتاب الإيمان؛ قال: «نعم» دليلٌ على أنهم كانوا ينقلون الحديث بالمعنى، وقد قرَّرنا في الأصول: أن ذلك جائزٌ من العالم بمواقع الألفاظ، وأن ذلك لا يجوزُ لمن بعد الصدر الأول لتغيُّر اللغات، وتباين الكلمات. والمولى: الولي. والناصر: المعين على العدو. والكافر: الجاحد.

---

(1) سورة البقرة الآية 286

(2) سورة البقرة الآية 286

ومن سورة آل عمران

عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ : أنَّ رجالاً من المنافقين، في عهد رسول الله ﷺ، كانوا إذا خرج النَّبيُّ ﷺ إلى الغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنه، وفَرحوا بمقعَدهم خلافَ رسول الله ﷺ، فإذا قَدمَ النَّبيُّ ﷺ اعتذروا له، وحلفوا، وأحبُّوا أن يُحْمَدوا بما لَمْ يَفعلوا. فَنزلت: ﴿ **لاَ تَحْسبَنَّ الَّذينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسِبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ** ﴾.

ومن سورة آل عمران

(وقوله: تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم) تخلّفوا: تأخروا. والمقعد: القعود. وحديث أبي سعيد هذا يدلُّ على : أنَّ قولَه تعالى: ﴿ **لا تحسبن...** ﴾ الآية نزلتْ في المنافقين، وحديث ابن عباس الذي بعده يدلُّ على أنها نزلتْ في أهل الكتاب، ولا بُعْدَ في ذلك؛ لإمكان نزولها على السببين؛ لاجتماعهما في زمانٍ واحد، فكانت جواباً للفريقين. واللهُ تعالى أعلم. والمفازة: الموضع الذي يفاز فيه من المكروه.

و(قوله: ﴿ **لاَ تَحْسِبَنَّ** ﴾ أي: لا تظنَّ. أي: لتعلموا إنهم غير فائزين من عذاب الله، لأنهم كتموا الحق، وزحبّفوا زن يُحمدوا به؛ أي: يُثنى عليهم بأنَّهم عليه. والذين فاعل لتحسبنَّ، ومفعولاها محذوفان؛ لدلالة « تحسبنهم » عليه، وهذا نحو قول الشاعر [1].

بأَيِّ كِتَابٍ أَمْ بأيَّةِ سُنَّةٍ ... تَرضى حُبَّهُمْ عاراً عَلَيَّ وتَحْسِبُ؟

اكتفى بذكر مفعولي الفعل الواحد عن ذكر مفعولي الثاني، وهذا أحسنُ ما قيل فيه.

و(قوله: واستحمدوا بذلك عنده) أي: طلبوا أن يُحمدوا.

---

(1) هو الكميت بن زيد الأسدي. انظر: خزانة الأب (9. 137).

عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف، قال: إنَّ مروانَ قال: اذهب يا رافع! ـ لبوّابه ـ إلى ابن عباس فقل: لئن كانَ كُلُّ امرىءٍ مِنَا فَرِحَ بما أَتَى، وَأَحبَّ أن يُحمَد بما لَمْ يفعَل، مُعذَّباً، لَنُعَذَّبَنَّ أجْمَعونَ! فقال ابن عبَّاس: ما لَكُمْ ولهذه الآية؟ إنما أنْزِلَتْ هذه الآية في أهل الكتاب، ثم تلا ابنُ عباس: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَٰقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ** ﴾ وتلا ﴿ **لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا** ﴾، وقال ابن عباس: سألهُم النَّبيُّ ﷺ عن شيءٍ فكَتموه إيَّاه، وأَخْبَرُوه بغيْره، فخرجوا قَدْ أَروْهُ أَنْ قد أخبروه بما سألهم عنه، واسْتَحْمَدوا بذلك إليه، وفَرِحُوا بما أَتوا من كِتْمانهم إيَّاه ما سألهم عنه.

وعن أنس بن مالك، قال: «يُقَالُ للكافرِ يومَ القيامة: أرأيتَ لَوْ كان لك ملءُ الأرض ذهباً، أكنت تقتدي به؟ فيقولُ: نعم. فيقال: كَذَبْتَ! لقد سئلت أيسرَ من ذلك»

و(قول مروان لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لئن كان كل امرىء منا فرح بما أتى، وأحبَّ أن يُحمد بما لم يفعل معذباً، لَنُعَذبن أجمعون) دليل على صحة القول بأنَّ للعموم صيغاً مخصوصة، وأن (الذين) منها، وهذا مقطوعٌ به من بعضهم، ذلك من القرآن والسنة.

* * *

ومن سورة النساء

عن عروة بن الزُّبير، أنَّه سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾،

ومن سورة النِّساء

(قوله : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِنَ النِّسَاءِ ﴾[1] خفتم: فزعتم وفَرقتم، وهو ضدُّ الأمن. ثم قد يكون الخوفُ منه معلومَ الوقوع وقد يكون مظنوناً، فلذلك اختلف العلماءُ في تفسير هذا الحديث، هل هو بمعنى العلم، أو بمعنى الظن، فقال بعضُهم: خفتم: علمتم، وقال آخرون: خفتم: ظننتم. وحقيقةُ الخوف ما ذكرناه أولاً. تقسطوا: تعدلوا. وقد تقدَّم: أن أقسطَ بمعنى عدل، وقسط: بمعنى جار. وقد تقدم أن اليتم في بني آدم من قِبَل فَقْد الأب، وفي غيرهم من قبل فَقْد الأم، وأن اليتيم إنما أصلُه أن يقال على مَن لم يبلغ، وقد أُطلق في هذه الآية على المحجور عليها ـ صغيرة كانت أو كبيرة ـ استصحاباً لإطلاق اسم اليتيم لبقاء الحَجْر عليها. وإنما قلنا: أن اليتيمةَ الكبيرة قد دخلتْ في الآية؛ لأنَّها قد أُبيح العقدُ عليها في الآية، ولا تنكح اليتيمةُ الصغيرةُ إذ لا إذنَ لها، فإذا بلغتْ جاز نكاحها لكن بإذنها، كما قال النبيُّ ﷺ فيما خرَّج الدارقطني، وغيره في بنت عثمان بن مظعون، وأنها يتيمة، ولا تنكح إلا بإذنها، وهذا مذهبُ الجمهور خلافاً لأبي حنيفة، فإنه قال: إذا بلغت لم تحتج إلى وليٍّ، بناءً على أصله في عدم اشتراط الولي في صحة النكاح ـ كما قدمناه في كتاب النكاح ـ.

و(قوله : ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾[2] قد تقدَّم أنَّ (ما) أصلُها لما لا يعقل، وقد تجيءُ بمعني الذي، فتطلق على مَن يعقل كما جاءت في هذه الآية؛ فإنها

---

(1) سورة النساء الآية 3

(2) سورة النساء الآية 3

قالت: يابنَ أُختي! هي اليتيمة تكون في حَجْرِ وَليِّها تُشاركُه في ماله، فيُعجبُه مالُها وجمالُها، فيريدُ وَليُّها أن يتزوَّجَها بغير أَنْ يُقْسطَ في صَدَاقها، فيُعْطِيها مثلَ ما يُعطِيها غيرهُ، فَنُهوا أنْ ينكحُوهن إلا أن يُقسطوا لَهُن،

فيها للنساء، وهنَّ يعقل، ولا يُلتفت لقول من قال: إن المرادَ بها ـ هنا ـ العقد؛ لقوله تعالي بعد ذلك (من النساء) مبيِّناً لمبهم (ما).

و(قوله: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾) قد فهم من هذا مَن بَعُدَ فهمه للكتاب والسنة، وأعرض عمَّا كان عليه سلفُ هذه الأمة، وقلَّ علمُه باللسان واللغة؛ أنه يجوزُ لنا أن ننكح تسعاً، ونجمع بينهُنَّ في عصمةٍ واحدة من هذه الآية، وزعم أن الواو جامعة، وعضَّد ذلك بأن النبيَّ ﷺ نكح تسعاً، وجمع بينهُنَّ في عصمة. والذي صار إلى هذه الجهالة: الرافضة، وطائفة من أهل الظاهر. فجعلوا مثنى وثلاث ورباع مثل اثنين، وثلاث، وأربع، وبينهما من الفرقان، ما بين الجماد والإنسان. فأنَّ أهلَ اللغة مُطبقُون على الفرق بينهما، ولا نعلمُ بينهم خلافاً في ذلك، وبيانُ الفرق: أن العربَ إذا قالت: جاءت الخيلُ مثنى مثنى إنما تعني بذلك: اثنين، اثنين. أي: جاءت مزدوجة. قال الجوهري: وكذلك جميع معدول العدد.

قال الشيخ رحمه الله: وعلى هذا جاء قولُه تعالى في وصف الملائكة: ﴿أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾[1] ويعلم على القطع والبتات: إنه لم يردْ هنا توزيع هذه الأعداد على الملائكة حتى يكونوا هم: أولى تسعة أجنحة يشتركون فيها، ولا أنه جمع كلّ واحد من آحاد الملائكة تسعة أجنحة. وتلزم هذه الفضائح مَن قال بالجمع في آية النكاح، إذ لا فرقَ بين هاتين الآيتين في هذا اللفظ في العدل، والعطف بالواو الجامعة، وإنما المواد: أنَّ اللَّهَ تعالى خلق الملائكة أصنافاً، فمنهم صنفٌ جَعَلَ لكلَ واحد منهم جناحين، ومنهم صنف جعل لكل واحد منهم ثلاثة، ومنهم صنف جعل لكل واحدٍ منهم أربعة، وكذلك آية النكاح معناها: أنَّ الله تعالى أباح لكلِّ واحدٍ منهم من الزوجات ما يقدرُ على العدول فيه، فمن يقدرُ على العدل في اثنين أُبيح له

---

(1) سورة فاطر الآية 1

ويَبْلُغُوا بهن أعلى سُنَّتهن من الصَّداق، وأمرُوا أن ينكحُوا ما طاب لهم من النساء سِوَاهُنَّ. قال عروةُ: قالت عائشةُ: ثمّ إنَّ النَّاس اسْتَفْتُوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهنّ، فأنزل الله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ

ذلك، ومن يقدرُ على العدل في أكثر أُبيح له ذلك، فإن خافَ ألاَّ يعدلَ فواحدة كما قال تعالى، وغايةُ الإباحة أربع؛ لأنه انتهى إليهن في العدد، ولقول النبيِّ ﷺ لغيلان بن أمية: «أمسكْ أربعاً، وفارق سائرهن» ولأنه لم يُسْمَعْ عن أحد من الصحابة، ولا التابعين: أنه جَمَع في عصمته بين أكثر من أربع، وما أُبيح للنبيِّ ﷺ من ذلك، فذلك من خصوصياته، بدليل: أنَّ أصحابَهُ قد علموا ذلك، وتحقَّقوه، فلو علموا أن ذلك مُسوَّغٌ لهم لاقتدوا به ذلك، فكانوا يجمعون بين تسع، فإنهم كانوا لا يعدلون عن الاقتداء به في جميع أفعاله، وأحواله، ويبادرون إلى ذلك مبادرة مَن عَلم: أنَّ التوفيقَ والفلاح، والحصول على خير الدنيا والآخرة في الاقتداء به، فلولا أنهم علموا خصوصيته بذلك لما امتنعوا منه. وما يروي الرافضةُ في ذلك عن علي، أو غيره من السَّلف، فغيرُ معروف عند أهل السُّنَّة، ولا مأخوذ عن أحد من علماء الأمة، وكيف لا؟ وقوله لغيلان قد بيَّن القدرَ المباح غاية البيان، وهو من الأحاديث المعروفة المشهورة عند كل أحد، بحيث لا يحتاج فيه إلى إقامة سند. وقد ذهب بعضُ أهل الظاهر إلى إباحة الجمع بين ثماني عشرة، تمسُّكاً بأن العدل في تلك الصِّيغ يفيدُ التكرار، لما لم يمكنه لذلك إنكار، لكنه لما حمل الواو على الجمع بين هذه الأعداد، وقَصَر كلّ صيغة من العدد المعدود على أقله، فجعل: مثنى بمعنى: اثنين واثنين، وثلاث: بمعنى ثلاث وثلاث، ورباع: بمعنى أربع وأربع. وهذا القائلُ أعور بأي عينيه شاء، فإن كل ما ذكرناه يُبطل دعواه، ونزيدُ هنا نكتةً تضمَّنها الكلام المتقدم، وهي أن قَصْره كلَّ صيغة على أقلّ ما تقتضيه بزعمه، تحكَّم بما لا يوافقه أهلُ اللسان عليه، ولا يرشدُ معنى الاثنين إليه؛ لأن مقصودَ الآية إباحةُ نكاح اثنين لمن أراد، ونكاح ثلاث لمن أراد، ونكاح أربع لمن أراد، وكلُّ واحد من آحاد كلِّ نوع من هذه الثلاثة لا ينحصرُ، فكلُّ اثنين، وثلاث، وأربع لا ينحصر، فقصره على بعض أعداد ما تضمّنه ذلك مخالفٌ لمقصود الآية، فتفهَّمْ ذلك؛ فإنه من لطيف الفهم. وللكلام في هذه الآية متّسع، وفيما ذكرناه تنبيهٌ ومقنع.

﴿فِيهِنَّ﴾، إلى قوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنْكِحُوهُنَّ﴾ قالت: والذي ذكرَ الله أنَّه يُتْلَى عليكم في الكتاب الآية الأولى الذي قال الله فيها ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا﴾، قالت: وقول الله في الآية الأخرى: ﴿وترْغَبُون أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾، رَغْبَة أحدكم عن يتيمته التي تكون في حَجْره، حين تكونُ قليلة المال والجمال، فَنَهُوا أن ينكحُوا ما رغِبُوا في مَالِها وجمالِها من يتامى النِّساءِ إلاَّ بالقِسْط من أَجْلِ رغبتهم عنْهنّ.

وفي رواية: قالت: أُنْزِلتْ في الرجلِ تكون له اليتيمة، وهو وليُّها ووارثُها، ولها مالٌ، ولَيس لَها أحدٌ يُخاصمُ دُونها فلا يُنْكِحُها لِمالها فَيَضُرُّ

وبعد أن فهمتَ أفرادَ تلك الكلمات، فاعلمْ أن العلماءَ اختلفوا في سبب نزول هذه الآية، وفي معناها. فذهبت عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلى ما ذكر في الأصل عنها، وحاصلُ الروايات المذكورة عنها: أنها نزلتْ في ولي اليتيمة التي لها مال، فأراد وليُّها أن يتزوَّجها، فَأُمِر بأن يوفيها صداق أمثالها، أو يكونَ لها مالٌ عنده بمشاركة أو غيرها، وهو لا حاجةَ له لتزويجها لنفسه، ويكره أن يزوّجها غيره مخافةَ أخذ مالها من عنده، فأمر اللَّهُ الأولياءَ بالقسط، وهو العدلُ، بحيث: إن تزوَّجها يَذَل لها مَهْرَ مثلها، وإن لم تكن له رغبة فيها زوجها من غيره، وأوصلها إلى مالها المشروع. وتكميل معنى الآية: أنّ اللَّهَ تعالى قال للأولياء: إن خفتم ألاَّ تقوموا بالعدل، فتزوَّجوا غيرهنّ ممن طاب لكم من النساء اثنين اثنتين إن شئتم، وثلاثاً ثلاثاً لمن شاء، وأربعاً أربعاً لمن شاء. هذا قولُ عائشة في الآية. وقال ابن عباس في معنى الآية: إنه قصر الرجال على أربع؛ لأجل أموال اليتامى. فنزلت جواباً لتحرُّجهم عن القيام بإصلاح أموال اليتامى. وفسَّر عكرمة قولَ ابن عباس هذا بالأَ تكثروا من النساء، فتحتاجوا إلى أَخْذْ أموال اليتامى. وقال السديُّ وقتادة: معنى الآية: إن خفتم الجَوْرَ في أموال اليتامى فخافوا مثله في النساء فإنهن كاليتامى في الضعف، فلا تنكحوا أكثر مما يمكنكم إمساكهن بالمعروف.

بها، ويُسيء صُحْبَتها. فقال ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ** ﴾. يقولُ: ما أَحْلَلْتُ لكُمْ. ودَعْ هَذه التي تَضُرُّ بها.

وفي أخرى: أنزلتْ في اليتيمة، تكونُ عند الرَّجُلِ فَتَشْرَكُه في ماله، فَيَرْغَبُ عَنها أن يتزوجها، ويكره أن يُزوِّجَها غيره فيَشْرَكُهُ في مالِه فيَعْضِلُها، فلا يَتزوَّجُها ولا يُزَوِّجها غَيْرَه.

قال الشيخ رحمه الله: وأقربُ هذه الأقوال وأصحُّها: قول عائشة ـ إن شاء الله تعالى ـ وقد اتفق كلّ من يعاني العلوم على: أن قولَه تعالى: ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ** ﴾ ليس له مفهوم؛ إذ قد أجمع المسلمون على: أن من لم يَخَفِ القسط في اليتامى له أن ينكحَ أكثر من واحدة: اثنتين، أو ثلاثاً، أو أربعاً، كمن خاف. فدلَّ ذلك على: أنَّ الآيةَ نزلتْ جواباً لمن خاف، وأن حُكْمها أعمُّ من ذلك، وفي الآية مباحثُ تُسِّكت الناقث [1]. والمعدولة عن أسماء العدد صفات، وقيل للعدل والتأنيث؛ لأن أسماءَ العدد مؤنثة، وقيل: لتكرار العدد في اللفظ، والمعنى: لأنه عدل عن لفظ اثنين إلى لفظ مثنى، وإلى معنى: اثنين اثنين، ومبدأُ العدل آحاد، ومنتهاه رُباع، ولم يُسْمَعْ فيما فوق ذلك إلا في عُشار في قول الكميت:

وَلَمْ يَسْتَرِيثُوكَ حَتَّى رَمَيْـ ـتَ فَوْقَ الرِّجالِ خِصالاً عُشارا

وتختلف صيغ المعدول عن العدد، فيقال: موحد وآحاد وأحد، ومثنى، وثنا، وثناي، ومثلّثٌ، وثلاثٌ، وثُلَّثٌ، ومَرْبَعٌ ورُباعٌ ورُبَعٌ، وقرأ النخعي: (ثلث) و(ربع).

---

(1) «الناقث»: نَقث حديثه: إذا خلطه كخلط الطعام. ونَقَث العظم: استخرج مُخَّه. ونَقَث عن الشيء: إذا حَفَر عنه.

وعنها؛ في قوله تعالى : ﴿ **وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأكُلْ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾، قالت : أُنزِلَتْ في وَالي اليتيم الذي يقومُ عليه ويُصلِحهُ، إذا كان مُحتاجاً أن يأكلَ منْهُ.

في أخرى: بقدر ماله بالمعروف.

و(قول عائشة في قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَاكُلْ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾[1] أنزلت في والي اليتيم فعلى هذا: المراد بها أولياء الأيتام، وهو قولُ الجمهور. وقال بعضُهم : المراد به اليتيم إن كان غنيا وسَع عليه وأعفّ من ماله، وإن كان فقيراً أنفق عليه بقدره، وهذا في غاية البُعْد؛ لأن اليتيم لا يخاطبُ بالتصرُّف في ماله لصغره، ولسفهه؛ ولأنه إنما يأكلُ من ماله بالمعروف على الحالين، فيضيعُ التّنويعُ والتقسيم المذكور في الآية وعلى قول الجمهور فالولي الغني لا يأخذ من مال يتيمه شيئاً، ولا يستحق على قيامه عليه أجراً دنوياً؛ بل: ثواباً أخروياً. وأما الفقير، فاختلف فيه، هل يأخذ من مال يتيمه شيئاً؛ أم لا؟ فذهب زيد بن أسلم إلى أنه : لا يأخذ منه شيئاً وإن كان فقيراً، وحكي ذاك عن ابن عباس بناءَ على أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَمَى ظُلْماً** ... الآية ﴾ [2] وقيل : بقوله : ﴿ **وَلاَ تَاكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَطِلِ** ﴾ [3].

قال الشيخ رحمه الله : وهذا لا يصح النسخ فيه لعدم شرطه؛ إذ الجمع ممكن؛ إذ الأخذ الذي أباحه اللَّهُ تعالى ليس ظلماً، ولا أَكْلَ مالٍ بالباطل، فلم تتناوله الآيتان. وهذا هو القولُ بالموجب. وذهب جمهورُ المجوِّزين إلى إباحة الأخذ، لكنهم اختلفوا في القَدْر المأخوذ، وفي قضاء المأخوذ، وفي وَجْه الأخذ، فروي عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: إن أكلتَ قضيت، وبه قال عبيدة السلماني، وأبو العالية، وهو أحدُ قولي ابن عباس وعكرمة. وقال مَنْ عدا هولاء: إنَّ له الأَخْذَ ولا قضاءَ عليه، لكنهم اختلفوا

---

(1) سورة النساء الآية 6

(2) سورة النساء الآية 10

(3) سورة البقرة الآية 188

وعن زيدِ بن ثابت، أنَّ النَّبيَّ ﷺ خرج إلى أُحُدٍ، فرَجَعَ ناسٌ ممَّن كان مَعَه، فكانَ أصحابُ النبيِّ ﷺ فيهم فرقتين. قال بعضهم: نَقْتُلُهُمْ. وقال بعضهم: لا. فنزلتْ: ﴿ * فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾.

وعن قيسِ بنِ عُبَادٍ، قال: قلنا لعمَّارٍ: أرأيتَ قِتالَكم؛ أرأياً رأيْتموهُ؟

في وَجْه الأخذ، فذهب عطاءٌ إلى أنه يأخذُ بقَدْر الحاجة، وقال الضحَّاك: يضارب بماله، ويأكل من ربحه؛ الحسن: يسدّ الجَوْعة، ويستر العورة. الشعبي: من التمر واللبن. وقد رُوي هذا عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فقال: يأكل، ويشرب، ويركب الظهر غير مضرٍّ بنَسْلٍ ولا ناهكٍ في الحلب. قال القاضي أبو بكر بن العربي: وعليه مذهبُ مالك.

قال الشيخ رحمه الله: والصحيح من هذه الأقوال ـ إن شاء الله ـ أن مالَ اليتيم إن كان كثيراً يحتاجُ إلى كثير قيامٍ عليه، بحيث يشغل الولي عن حاجاته ومهماته، فرض له فيه أجرة عمله، وإن كان قليلاً مما يُشغلُه عن حاجاته فلا يأكل منه شيئاً، غير أنه يستحبُّ له شربُ قليلِ اللبن، وأكل القليلِ من الطعام والتمر، غير مُضرٍّ به، ولا مُستكثر له؛ بل: ما جرتْ به العادةُ بالمسامحة فيه. وما ذكرته من الأجرة، ونيل القليل من الثمر واللبن كلّ واحد منهما معروف، فصلح حَمْل الآية على ذلك، والله أعلم.

و(قوله: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾[1] أي: فريقين مختلفين في قتلهم، ويعني بالمنافقين: عبد الله بن أُبيٍّ وأصحابه الذين خذلوا رسولَ الله ﷺ يومَ أُحُد، ورَجعُوا بعسكرهم، بعد أن خَرَجُوا معه إلى أحد، فلم يأمر اللَّهُ بقتلهم؛ لما علم من المفسدة الناشئة عن ذلك، وهي التي نصَّ عليها النبيُّ ﷺ حيث قال: «لئلا يتحدَّث الناسُ أنَّ محمداً يقتلُ أصحابه». ثم قال بعد هذا: ﴿ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ﴾[2] أي: بكسبهم، عن الزجَّاج. ابن عباس أي: ردَّهم إلى كفرهم. قتادة: أهلكم. السدِّيِّ: أضلّهم. وكلُّها قريب بعضه من بعض. وقيس بن عُبَاد: هو بضم العين وفتح الباء الموحدة وتخفيفها.

---

(1) سورة النساء الآية 88

(2) سورة النساء الآية 88

فإنَّ الرأيَ يُخطيئ ويصيبُ ـ أو عهداً عَهِدَه إليكم رسولُ الله ﷺ ؟ فقال: ما عَهِدَ إلينا رسول الله ﷺ شيئاً لم يَعْهَدهُ إلى الناس كافَّة. وقال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ مِنْ أمَّتي ـ أو في أمتي ـ اثنى عشر منافقاً لا يدخلون الجنَّة، ولا يجدون ريحها حتى يَلج الجَمَلُ في سَمِّ الخِيَاط، ثمانيةٌ منْهم تَكْفيكَهُمُ الدُّبَيْلة، سِراجٌ من نارٍ، يَظهرُ في أكتافهم حتّى يَنْجُمَ مِن صدورهمْ».

و(قوله عمَّار: ما عهد إلينا رسولُ الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلى الناس كافة) تكذيبٌ من عمَّار للشيعة فيما يدَّعونه، ويكذبون به على رسول الله ﷺ وعلى عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ في يوم غدير خُمّ وغيره. وقد تقدَّم هذا المعنى. والدُّبيلة: الداهية. يقال: دَبَلتهم الدُّبيلة؛ أي: أصابتهم الداهية، حكاها أبو عبيد. وصيغتها صيغة التصغير؛ يُراد به التكثير، كما يقال:

..... دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا الأَنامِلُ (1)

والأظهر: أنه اسمٌ سمِّي به مصغراً كما قالوا: كميت. وأراد به هنا الورم المهلك الذي يخرجُ بين الكتفين. والظاهر: أن المرادَ بالحديث: أن الله تعالى يهلك هؤلاء الثمانية من المنافقين بهذا الداء في الدنيا، ولذلك قال: «تكفيكهم الدُّبيلة» أي: يميتهم اللهُ بها.

و(قوله: «حتى ينجم من صدورهم») أي: تبلغ إلى قلوبهم، وتنفذ في صدورهم. والله أعلم. وسمّ الخياط: ثقب الإبرة. والسمُّ: الثقب في كلِّ شيءٍ، يقال: في فتح السين وضمها، وكذلك السمُّ القاتل، ويجمعان على سموم وسمام، ومسامّ الجسد: ثُقَبُه. والجمل: واحد الجمال، ودخول الجمل في ثقب الإبرة محال، والمعلق على المحال محال، فدخول المنافقين الجنة محال، وهذا من نحو قول العرب:

إذا شاب الغرابُ رجعت أهـ ـلي وصار القارُ كاللبن الحَليب

أي: شيب الغراب وبياض القار لا يكونان، فرجوعُه إلي أهله لا يكون.

---

(1) عجز بيت للبيد وصدره:

وكلُّ أناسٍ سوفَ تدخُلُ بينهم

وعن عائشة: ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوِ إِعْرَاضاً... ﴾ الآية، قالت: أنزلت في المرأة تكون عند الرجل، فَلَعَلّه أَلاَّ يستكثر منها، ويكونُ لها صحبةٌ وولَدٌ فتكره أن يفارقها، فتقول له: أنْتَ في حِلٍّ من شأني.

وعن سعيد بن جُبَيرٍ، قال: قلت لابن عباسٍ: أَلِمَن قَتَلَ مُؤمناً مُتعمِّداً مِنْ تَوْبة؟ قال: لا. فَتَلَوْت عليه هذه الآية التي في الفرقان: ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ إلى آخر

و(قوله: ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوِ إِعْرَاضاً ﴾ [1] البعل: الزوج. والنشوز: البغض. والإعراض: الميل عنها إلي غيرها. والجناح: الإثم والحرج. ويصَّالحا ـ بتشديد الصاد ـ أي: يتصالحا؛ أي: يعقدان بينهما صلحاً على ما يجوز كإسقاط مَهْر، أو قسْم، أو غير ذلك. وعن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ: يعطيها مالاً ليحوِّل قَسْمها. وقرأه الكوفيون: ﴿ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً ﴾ من أصلح، ويكون صلحاً مفعولاً، لا مصدراً. ويكون المعنى: أن يعقدا بينهما عقد صلح، أو يفعلا صلحاً.

(وقوله: ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾[2] أي: من النشوز، قال الزجَّاج. من الفُرقة: ابن عباس.

و(قول سعيد بن جبير لابن عباس: ألمن قَتَل مؤمناً متعمداً من توبة؟ قال لا... الحديث. هذا هو المشهور. عن ابن عباس وقد روي عنه: أن توبته تُقبل، وهذا هو قولُ أهل السُّنَّة، والذي دلَّ عليه الكتاب والسنة، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ. وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [3]، وكقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَيَزْنُونَ. وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَـٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً * إِلاَّ مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَـٰلِحاً

---

(1) سورة النساء الآية 128

(2) سورة النساء الآية 128

(3) سورة النساء الآية 48

الآية قال : هذه آيةٌ مكيَّةٌ نَسَخَتْها آيةٌ مَدَنية : ﴿ **وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ** ﴾.

فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾[1]، وكقوله : ﴿ **وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً** ﴾[2].

وأما السنة فكثيرة، كحديث عُلادة بن الصَّامت الذي قال فيه : « تبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله رلا بالحق، فمن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب به، فهو كفَّارة له، ومَن أصاب شيئاً من ذلك فَستَرهُ اللهُ عليه فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذَّبه ». وكحديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ في الذي قتل مئة نفس، وكحديث جابر في الذي قتل نفسه بقطعه براجمه، وقد تقدَّم كلُّ ذلك.

و(قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هذه آية مكية نسختها آيةٌ مدنية) قولٌ لا يليقُ بعلم ابن عباس، ولا بفهمه؛ لأنه إن أراد به حقيقةَ النسخ كان غير صحيح؛ لأنَّ الآية خبرٌ عن وقوع العذاب بمن فعل تلك الأمور المذكورة في الآية، والنسخ لا يدخل الأخبار، كما قرَّرنا في الأصول، سَلَّمنا أنه يدخلها النسخ، لكن الجمع بين الآيتين ممكن بحيث لا يبقى بينهما تعارض، وذلك بأن يُحملَ مطلقُ آية النساء على مقيّد آية الفرقان، فيكون معناها : فجزاؤه جهنّم إلا من تاب، لا سيما وقد اتَّحد الموجبُ وهو القتل، والموجَبُ وهو المتوعَّد بالعقاب، وقد قلنا في أصول الفقه : إن مثل هذه الصورة مُتفَّق عليها. وقد تأول جمهورُ العلماء آيةَ سورة النساء تأويلات.

إحداها : أن المتعمد المعنى فيها هو المستحلّ لقتل المسلم، ومن كان كذلك كان كافراً.

وثانيها : أن قوله : ﴿ **فجزاؤه جهنم** ﴾ لا يلزم منه دخوله في جهنم ولا بُدَّ؛ لأنَّ معناه : إن جازاه، وقد رُفع هذا التّقييد إلى النبي ﷺ.

---

(1) سورة الفرقان الآية 68 ـ 70

(2) سورة النساء الآية 110

وفي رواية : فنزلت : ﴿ **إِلاَّ مَنْ تَابَ** ﴾ .

وعن ابن عباس، قال : لقي ناسٌ من المسلمين رجلاً في غُنيْمةٍ له، فقال : السَّلام عليكم، فأَخذُوه فقتلوه، وأخذوا تلك الغُنَيْمَةَ، فنزلت : ﴿ **وَلاَ تَقُولُوا لمن أَلْقَى إِلَيْكُم السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً** ﴾ وقرأها ابن عباس : (السَّلام) .

قال الشيخ رحمه الله : وتحريرُ هذا القول؛ أنّ قوله : ﴿ **فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمَ** ﴾ هو خبرٌ عن استحْقاقه لذلك، لا عن وقوع ذلك، ويجوز العفو عن المستحق، وحاصلُه راجعٌ إلى القول بموجب الآية، فلا دلالةَ فيها .

وثالثها : أن الخلود ليس نصاً في التأبيد الذي لا انقطاعَ له، بل مقتضاه : تطويل الآماد، وتكرير الأزمان، ما لم يردْ معه من القرائن ما يقتضي التأبيدَ، كما ورد في وعيد الكفار، فيجورُ أن يدخلَ القاتلُ في جهنم، ويُعذَّبَ فيها ما شاء اللَّهُ من الأزمان، ثم يلحقه ما يلحق الموحِّدين من الشفاعة والغفران، والله تعالى أعلم .

و(قوله : ﴿ **وَلاَ تَقُولُوا لَمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ اَلسَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً** ﴾[1] هذه قراءةُ ابن عباس وجماعة من القراء، السلام بألف، يعنون به التحية، وقرأه جماعةٌ أخرى : السّلْم بغير ألف، يعنون بذلك : الصلح، والقراءاتان في السَّبع، وقرأ ابن وثاب : السِّلم ـ بكسر السين وسكون اللام ـ: وهي لغة في السلم، الذي هو الصلح .

و(قوله : ﴿ **تَبْتَغُونَ عَرَضَ اَلْحَيَوٰةِ اَلدُّنْيَا** ﴾ [2] أي : تريدون المال، وما يعرضُ من الأعراض الدنوية .

و(قوله : ﴿ **فَعِندَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ** ﴾ [3] أي : إن اتقيتم الله، وكففتم عمَّا ينهاكم عنه سلّمكم وغنَّمكم .

---

(1) سورة النساء الآية 94
(2) سورة النساء الآية 94
(3) سورة النساء الآية 94

وعن ابن عمر، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَثلُ المنافقِ كَمَثلِ الشّاةِ العائرةِ بين الْغَنَمين. تَعيرُ إلى هذه مرةً، وإلى هذه أخرى».

وفي رواية: «تَكِرُّ - بدل - تعير».

* * *

و(قوله: ﴿كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ [1] أي: قبل الهجرة حين كنتم تخفون الشهادة. وقيل: من قبل أن تعرفوا الشهادة. ﴿فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُم﴾ أي: بالإسلام، وباعزازكم بمحمد ﷺ ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾: من البيان، وتثبتُوا: من التثبُّت. والقراءتان في السبع، وتفيدان: وجوب التوقف والتبيّن عند إرادة الأفعال إلى أن يتَّضح الحقُّ، ويرتفع الإشكال.

و(قوله: «مثل المنافق كمثل الشاه العائرة بين الغنَميْن تعير إلى هذه مرة، وإلى هذه مرَّة») العائرة: المترددة، وتعير: ترجع وتكرُّ، وإنما ثنّى الغنم. وإن كانت اسم جنس؛ لأنه أراد قطعتين منها. وهذا الحديثُ مناسبٌ لقوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ [2].

* * *

---

(1) سورة النساء الآية 94

(2) سورة النساء الآية 143

ومن سورة العقود

عن طارق بن شهابٍ، قال: جاء رجلٌ من اليهود إلى عُمَرَ، فقال: يا أميرَ المؤمنين! آيةٌ في كتابكم تَقْرؤونَها؛ لَوْ عَلَيْنا نزلت مَعْشَرَ اليهود، لاتَّخَذْنَا ذلك اليومَ عيداً! قال: وأيُّ آيَة؟ قال: ﴿اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ اَلإِسْلاَمَ دِيناً﴾، فقال عُمَرُ: إنِّي لأعلَمُ

ومن سورة العقود[1]

(قوله تعالى: ﴿اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ اَلإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [2] يعني باليوم: يوم عرفة في حجة الوداع التي نزلت فيها هذه الآية، كما جاء في هذا الحديث من قول عمر ـ رضي الله عنه ـ وهذا أولى من قول مجاهد: هو يومُ فتح مكة. ودينكم؛ أي: شرائع دينكم؛ فإنها نزلتْ نجوماً، وآخر ما نزلَ فيها هذه الآية، ولم ينزل بعدها حُكْم. قاله ابنُ عباس. وقال القتبي: يعني برفع النسخ. قتادة: يعني أمر حجّكم؛ إذ لم يحجّ في تلك السَّنة مشرك، ولا طاف بالبيت عُرْيان، ووقف الناسُ كلُّهم بعرفة.

و(قوله: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾) أي: بإكمال الشرائع والأحكام، وإظهار دِيْنِ الإسلام. ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾؛ أي: أعلمتكم برضاي به لكم دِيْناً، فإنه تعالى لم يزلْ راضياً بالإسلام لنا ديناً، فلا يكون لاختصاص الرِّضا بذلك اليوم فائدة إن حَملناه على ظاهره، ويحتملُ أن يريد: ورضيتَ الإسلام لكم ديناً؛ قائماً بكماله لا أنسخ منه شيئاً، والله تعالى أعلم.

---

(1) هي سورة المائدة.
(2) سورة المائدة الآية 3

اليومَ الذي أنزلتْ فيه، والمكان الذي أنزلتْ فيه، نزلتْ على رسول الله ﷺ بعرفة في يوم جُمُعَة.

وعن ابن عمَر، قال: خطب عمرُ على منبر رسول الله ﷺ، فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه، ثم قال: أمَّا بَعْدُ! ألا وإن الخمر نزل تحْريمُها، يوم نزل، وهي من خمسة أشياء: من الحنطة، والشَّعير، والتَّمر، والزَّبيب، والعسل. والخمرُ ما خَامر العقلَ. وثلاثةُ أشياءَ وددْت ـ أيها النَّاسُ! ـ أنّ رسول الله ﷺ كان عَهدَ رلينا فيها: الجَدُّ، والكَلالَةُ، وأَبْوابٌ من أبْوابِ الرِّبا.

وفي روايةٍ: العنب ـ بدل الزبيب. وكان عهد إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه.

وعن ابن شهاب، قال: سمعتُ سعيدَ بنَ المسيَّب يقولُ: إنَّ البَحيرة التي يُمْنعُ دَرُّها للطّواغيت فلا يحلُبُها أحَدٌ من النَّاسِ، وَأما السائِبةَ التي

و(قول عمر ـ رضي الله عنه ـ: ألاَ وإن الخمرَ نزلَ تحريمُها يوم نزل، وهي من خمسة أشياء... الحديث) دليلٌ واضحٌ يقاربُ القطعَ بأن النبيذَ يُسمَّى خمراً، وأن اسمَ الخمر ليس مقصوراً على ما يعتصرُ من العنب، وأن الخمر كلّ ما خمر العقل؛ فإنَّ عمر ـ رضي الله عنه ـ قال بذلك، ونص عليه في معدن الفصاحة، وبين خيار أهل البلاغة، وهم مَن هم علماً وفضلاً، وقوَّة وعدلاً، ولا يخافون في الله لومةَ لائم، ولا يبالون في الحق باقتحام العظائم، فلو لم يكن ما قاله لسانُهم، ومعرفة ذلك شأنهم لبادروا بالإنكار، ولما وفجد منهم صحيحُ ذلك الإقرار. وقد تقدَّم القولُ على هذا الحديث في الأشربة، وفي الصلاة. وتقدَّم القولُ أيضاً في البحيرة، والسائبة في الكسوف.

كانوا يُسَيِّبونَها لآلهتهم، فلا يُحْمَلُ عَلَيْها شيءٌ. وقال ابنُ المسيِّب: قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ عمرو بنَ عامرٍ الخُزَاعيَّ يجرُّ قُصْبَهُ في النَّارِ، وكان أَوَّلُ مَن سَيَّب السَّوَائِب».

وفي روايةٍ: «عمرو بن لُحَيِّ بنِ قَمَعَةَ بن خِنْدِفَ، أخا بني كعبٍ هؤلاء».

وعن أبي هريرة، قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «لَوْ تَابَعَني من اليهود عشرةٌ لم بَبقَ على ظهرها يهوديٌّ إلا أسْلَم».

* * *

و(قوله ﷺ: «لو تابعني من اليهود عشرةٌ لم يبق على ظهرها يهودي إلا أسلم») يعني ـ والله تعالى أعلم ـ عشرة معيَّنين، وكأنهم كانوا رؤساءَ اليهود زعماءَهُمْ، وذوي رأيهم في ذلك الوقت، فلو أسلموا لتابعهم مَن دُونهم مِن أتباعهم، ولو كان ذلك لأضفَفَت [1] يهودُ المدينة وجهاتها على الدخول في الإسلام، وعليها إعادة الضمير في قوله: لم يبق على ظهرها.

* * *

---

(1) «أصفقت»: اجتمعت.

ومن سورة الأنعام

عن أبي هريرة، قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فقال: «خلق اللهُ التُّربةَ يومَ السَّبت، وخلقَ فيها الجبالَ يومَ الأحد، وخَلَقَ الشَّجر يوم الإثنين، وخلق المكروه يومَ الثُّلاثاء، وخَلَقَ النُّور يومَ الأربعاء، وبَثَّ فيها الدّوابَّ يومَ

ومن سورة الأنعام

(قوله أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أخذ رسولُ الله ﷺ بيدي فقال: «خلق اللهُ التربةَ يوم السَّبت... الحديث») ذكر هذا الحديث هنا؛ لأنه مُفصِّل لما أجمله قولُه تعالى: ﴿اَلْحَمْدُ لله اَلَّذي خَلَقَ اَلسَّمَـٰوَات وَالأَرْضَ وَجَعَلَ اَلظُّلُمَـٰت وَالنُّورَ﴾ [1]، والتربة: التراب؛ أي: الأرض، وكأنه خَلَقَ الترابَ يوم السبت غير مُنْعَقد ولا متجمِّد، ثم يوم الأحد جمَّده، وجعل منه الجبالَ أرسى بها الأرض، وكَمُلَ خَلْقُ الأرض بجبالها في يومين.

و(قوله: «وخَلَقَ الأشجار يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء») أي: ما يُكره مما يُهْلك أو يُؤلم كالسموم، والخشاش[2]، والحيوانات المضرّة. وقد ذكر هذا الحديثَ ثابتٌ في كتابه، وقال فيه: «وخلق التقن يوم الثلاثاء» بدل «المكروه» قال: والتِّقْن: ما يقومُ به المعاش، ويصلحُ به التدبير كالحديد وغيره من جواهر الأرض، وكلّ شيء يحصلُ به صلاحٌ: فهوتِقْن، ومنه: إتقان الشيء وإحكامه.

و(قوله: «والنور يوم الأربعاء») كذا الروايةُ الصَّحيحةُ المشهورة، وقد وقع في بعض نُسَخ مسلم: النون ـ بالنون ـ يعني به الحوت. وكذا جاء كتاب ثابتٍ في الأم، وفي رواية أخرى: «البحور» مكان «النور».

---

(1) سورة الأنعام الآية 1

(2) «الخِشاش»: حشرات الأرض وهوامّها. الواحدة: خِشاشة.

الخميس، وخلق آدم ـ عليه السلام ـ بَعْدَ العصرِ من يومِ الجمعَة في آخر الخلق، في آخر ساعةٍ من ساعات الجمعة، فيما بين العصرَ إلى الليل».

وعن أبي ذرٍّ؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ يوماً: «أتَدْرونَ أين تذهبُ هذه الشمس؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: «إنَّ هذه تجري حتى تنتهي إلى

قال الشيخ رحمه الله: وهذه الروايةُ ليست بشيءٍ؛ لأنَّ الأرضَ خُلقت بعد الماء، وعلى الماء، كما قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**﴾ [1] أي: قبل خلق السموات والأرض. إلا إن أراد بالبحور الأنهار التي خلق اللهُ تعالى في الأرض، فله وَجْهٌ، والصحيحُ رواية النور، ويعني به الأجسامَ النَّيرة كالشمس، والقمر، والكواكب، ويتضمَّن هذا أنه تعالى خلَق السَّموات يوم الأربعاء؛ لأنَّ هذه الكواكبَ في السموات، ونورها: ضوؤها الذي بين السماء والأرض، والله تعالى أعلم. وتحقيق هذا أنه لم يَذْكُرْ في هذا الحديث نصاً على خَلْق السَّموات، مع أنه ذكر فيه أيام الأسبوع كلَّها، وذكر ما خلق اللَّهُ تعالى فيها، فلو خَلَق السموات في يوم زائدٍ على أيام الأسبوع لكان خَلْق السموات والأرض في ثمانية أيام، وذلك خلافَ المنصوص عليه في القرآن، ولا صائر إليه. وقد رُوِي هذا الحديث في غير كتاب مسلم بروايات مختلفةٍ مضطربةٍ، وفي بعضها: أنه خَلَق الأرضَ يوم الأحد والاثنين، والجبال يوم الثلاثاء، والشجر والأنهار والعمران يوم الأربعاء، والسَّموات والشمس والقمر والنجوم والملائكة يوم الخميس، وآدم يوم الجمعة. فهذه أخبارٌ آحادٌ مضطربة فيما لا يقتضي عملاً، فلا يُعتمد على ما تَضمَّنته من ترتيب المخلوقات في تلك الأيام، والذي يُعتمد عليه في ذلك قولُه تعالى: ﴿**قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ**﴾ [2] الآيات. فلينظر فيها من أراد تحقيق ذلك، وفيها أبحاث طويلة ليس هذا موضعُ ذكرها.

---

(1) سورة هود الآية 7

(2) سورة فصلت الآية 8

مُستَقرِّها تحتَ العرشِ، فتخرُّ سَاجدةً، فَلا تزالُ كذلك حتى يقال لَها: إرتفعي، ارْجِعي، ارْجِعي من حيثُ جئتِ، فترجعُ، فتُصبحُ طَالِعةً مِن مَطْلِعِها ثم تجري حتى تنتهي إلى مُستَقَرِّها تحتَ العرش، فتخرُّ ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفِعي، ارجعي من حيثُ جئت، فترجعُ، فتصبح طالعةً من مَطْلِعِها، ثم تجري لا يستنكرُ الناسُ منها شيئاً حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش. فيقال لها: ارتَفِعِي، أصبحي طالعةً من مغربك فتصبحُ طالعةً من مغربها». فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون متى ذلكم؟ حين: ﴿ **لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً** ﴾

وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: منن جاء بالحسنة فلهُ عَشْر أمثالِها، وأزْيد. ومن جاء بالسيئة، فجزاؤه سيئةٌ مثلُها، أو أغفر. ومن تقرَّب مِنِّي شِبْراً؛ تقرَّبْتُ منه ذِراعاً، ومن تقرب منِّي ذراعاً تقرَّبتُ منه باعاً.

و(قوله: «إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها») قد كثرت أقوالُ الناس في معني مستقر الشمس، وأشبهُ ما يُقال فيه: إنه عبارةٌ عن انتهائها إلى أن تسامت جزءاً من العرش معلوماً بحيث تخضعُ عنده وتذل، وهو المعبَّر عنه بسجودها، وتستأذن في سيرها المعتاد لها من ذلك المحلّ متوقعةً ألاَّ يُؤذن لها في ذلك، وأن تُؤمر بالرجوع من حيثُ جاءت، وبأن تطلعَ من مغربها. فإن كانت الشمس ممن تعقل نسب ذلك كله إليها لأنه صدر عنها، وإن كانت مما لا يعقلُ فَعَل ذلك الملائكةُ الموكَّلون بها، واللهُ تعالى أعلم. وكلُّ ذلك مُمْكِن، وهذا القولُ موافقٌ لمعنى هذا الحديث، فتأمَّله.

ومَنْ أتاني يمشي؛ أتيته هَرْوَلةً، ومن لَقيني بِقِرابِ الأرض خَطِيئَةً لا يُشْرِكُ بي شَيْئاً؛ لقيته بمثلِها مَغْفِرَةً».

وفي روايةٍ: «أو أزيد» بزيادة ألف.

* * *

و(قوله يقول الله: «مَن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، وأَزيدُ») مفتوح الهمزة مكسور الزاي مضموم الدال على أنه فعلٌ مضارع، وكذا رويته. وقد روى هذا الحرفُ بالواو الجامعة، وبأو التي معناها أحد الشَّيئين، وهو إشارةٌ إلي معنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [1]. والحسنة تعمُّ الحسناتِ كلَّها، فأيُّ حسنة عملها المسلمُ ضُوعِفَ ثوابُها كذلك، ولا معني لقول من قصرها على بعض الحسنات دون بعض؛ فإنه تحكُّمٌ مخالفٌ للَّفظ العام، والكَرَم التام، وقد تقدَّم الكلامُ على قوله: «من أتاني يمشي أتيتُه هرولة» وأن ذلك تمثيل.

و(قوله: «ومن لقيني بِقراب الأرض خطيئة لقيته بمثلها مغفرة») قِراب الأرض: قدر ملئها، وهو بكسر القاف، وأصله الوعاء، ومنه قِراب السيف، وهو في هذا الحديث مثل.

* * *

---

(1) البقرة 261

ومن سورة الأعراف

عن ابن عباسٍ، قال : كانتْ امرأةٌ تطوفُ بالبيتِ وهي عُرْيَانة، فتقولُ : مَنْ يُعيرُني تِطْوَافاً ـ تَجْعلهُ على فَرْجِها ـ وتقول:

اليـومَ يَبْـدو بَـعْـضُـهُ أَو كُلُّهُ فَـمَـا بَدَا مِنْه فَلا أُحِـلُّهُ

فنزلتْ هذه الآية: ﴿ خُذُوا زِينَتَكُم... ﴾

* * *

ومن سورة الأعراف

(قوله: كانت المرأة تطوفُ بالبيت وهي عُرْيانة، فتقول : من يعيرني تطْوافاً، ـ تجعله على فرجها ـ») التِّطْواف: بكسر التاء: ثوب تطوفُ به، وقد تقدَّم أنَّ قريشاً كانت ابتدعتْ في الحجِّ أموراً، منها: أنه كان لا يطوفُ أحدٌ بالبيت إلا عُرْياناً إلا أن يكون أحمسياً، وهم من ولد كنانة، أو مَن أعاره تطوافاً أحمسيٌّ؛ فإن طافَ مَن لم يكنْ كذلك في ثيابه ألقاها، فلا ينتفعُ بها هو ولا غيره، وتُسمَّى تلك الثيابُ باللَّقى، حتى قال شاعر العرب:

كَـفَي حَـزَنـاً كَـوْني عَلَيْـهِ كَـأَنَّـهُ لَقى بَيْنَ أَيْدِي الطَّائفينَ حَـريمُ

وكـان هذا الحكمُ منهم هامّـا في الرجـال والنسـاء، ولذلك طافت هذه المرأةُ عُرْيانة، وأنشدت الشعرَ المذكورَ في الأصل. قال القاضي: وهذه المرأةُ هي: ضباعة بنت عامر بن قرط، فلما جاء الإسلامُ ستر اللَّهُ تعالى هذه العورات، ورفع هذه الآثام، فأنزل اللَّهُ تعالى : ﴿ يَبَنِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [1] وأذَّن مؤذنُ رسول الله ﷺ ألاَّ يطوف بالبيت عُرْيان. وفُهم من هذا الأمر وجوبُ ستر العورة للصلاة على خلافٍ فيه تقدَّم ذكرُه، وحَاصلُه: أنَّ الجمهورَ على أنها فرض، واختلف فيها عن مالك على ثلاثة أقوال: الوجوب مطلقاً، والسنة مطلقاً، والفرق، فتجبُ مع العمد، ولا تجبُ مع النِّسيان والعذر.

---

(1) سورة الاعراف الآية 31

ومن سورة الأنفال وبراءة

عن أنسِ بن مالكٍ، قال: قال أبو جهل: اللَّهم إن كان هذا هو الحَقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو آتينا بعذاب أليم. فَنَزَلَتْ: ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾.

ومن سورة الأنفال وبراءة

(قول أبي جهل: اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطرْ علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) غَلَبَ على أبي جهل جَهْلُه، فساء قولُه وعْلُه. أنظر كيف غلبتْ عليه جهالتُه وشقوتُه. فاستجيبتْ منه دعوته، فجدل صريعاً، وسفحب على وجهه إلي جهنم سحباً قصيفاً. حُكيَ أن ابن عباس لقيه رجلٌ من اليهود، فقال اليهودي: ممن أنت؟ قال: من قريش. قال: أنت من القوم الذين قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم؟ فهلاَّ عليهم أن يقولوا: أن كان هذا هو الحق من عندك فاهْدنا له، إن هؤلاء قوم يجهلون. قال ابن عبَّاس: وأنت يا إسرائيلي من القوم الذين لم تجفَّ أرجلهم من بلل البحر الذي أغرق فيه فرعون وقومه، وأنجى موسى وقومُه، حتى قالوا: اجعلْ لنا إلهاً كما لهم آلهة، فقال لهم موسى: إنكم قومٌ تجهلون، فأطرق اليهوديُّ مفحماً.

و(قوله: ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [1] أي: إكراماً لك، واحتراماً لوجودك بينهم؛ فإنك رحمةٌ عامَّة للعالمين، ونعمة خاصَّةٌ للمؤمنين، فلما نقله اللَّهُ عنهم أوقع عذابه بهم.

---

(1) سورة الانفال الآية 33

وعن عائشة، قالتْ: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقولُ: «لا يذهبُ الليلُ والنَّهارُ حتَّى تُعبَد اللاتُ والعُزَّى». فقلتُ: يا رسول الله! إنْ كنتُ لأظنُّ حينَ أَنْزَلَ اللهُ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾. أنَّ ذلك تامٌّ! قال: «إنَّه سيكون من ذلك ما شاء

و(قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [1] أي: وما كان اللهُ مهلكَ جميعهم، ومنهم من يستغفره. وقد اختلف في هذا الاستغفار، فقال ابنُ عباس: كانوا يقولون في الطّواف: غُفرانك، مجاهد: هو الإسلام، قتادة: لو استغفروا. السدي: في أصلابهم من يستغفره. الضحاك: فيهم من يصلي، ولم يهاجرْ بَعْدُ. وأولاها: قول ابن عباس؛ لأنَّ الاستغفار ـ وإن وقع من الفجار ـ يُدفَعُ به ضروبٌ من الشرور والأضرار.

و(قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [2] أي: مستحقُّون العذاب، لما ارتكبوا من القبائح والأسباب، لكن أخَّره عنهم حِلْمُ الحليم، وإن لكلِّ أمةٍ كتاباً.

و(قول عائشة: يا رسولَ الله! ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [3] إن كنتُ لأظن أن ذلك تامٌّ إلى يوم القيامة) كأنَّ عائشةَ فهمتْ من هذا أنَّ الأصنامَ لا تُعْبَدُ أبداً، وأنَّ دينَ الإسلام لا يزالُ ظاهراً غالباً على كلِّها إلى أن تقومَ الساعة، وهو على ذلك. فأجابها النبيُّ ﷺ بما يقتضي أنَّ ذلك يكون في أغلب البلدان، وفي أكثر الأزمان، لا أنَّ عبادةَ الأوثان تنقطعُ من الأرض، ولا أنَّ جميعَ الأديان تذهب بالكليَّة حتى لا يبقى إلا دينُ الإسلام، لأنه تعالى لم يقلْ: يمحو

---

(1) سورة الانفال الآية 33
(2) سورة الانفال الآية 34
(3) سورة التوبة الآية 33

اللهُ، ثم يبعثُ اللهُ ريحاً طيِّبَة فَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ كان في قَلْبِهِ مِثْقالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إيمانٍ، فيَبْقَى مَنْ لا خيرَ فيه، فيَرجِعُونَ إلى دِينِ آبائهم».

وعن سعيدِ بن جُبيرٍ، قال: قلتُ لابنِ عباسٍ: سُورة التوبة؟ قال: التَّوبةِ؟ بل هي الفاضحةُ، ما زالت تنزلُ: وَمِنْهُم، ومنهم، حتى ظنّوا أنَّها لا تبقى منّا أحداً إلا ذُكر فيها. قال: قلت: سورة الأنفال؟ قال: تلك سورةُ بدرٍ، قال: قلتُ: فالحشْرُ؟ قال: نزلتْ في بني النَّضير.

وقد تقدم في كتاب التوبة قصةُ الثلاثة الذين خلِّفوا.

وكذلك قصة: ﴿**وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُم مَات أَبداً**﴾ تقدمت في الجنائز.

وقد تقدمت قصة بدرٍ في الجهاد.

* * *

به الأديان كلها وإنما قال: ﴿**لِيُظْهِرَهُ على الدِّينِ كُلِّه**﴾ وقد أظهره على كلِّ الأديان، وأبقاه مع اتحاد [1] الأزمان، كيف لا، وقد امتدَّ الإسلامُ في معمور الأرض من مشرقها إلى أقصى مغربها حتى غلب أهلُه الأكاسرة، والقياصرة، والهرقلة، والتتابعة، والبلاد اليمنية، وكثيراً من البلاد الهندية، فغلبوا على متعبداتهم ومواضع قُرباتهم وصلواتهم، فلقد صدق اللَّهُ وعده، ونَصَر عبده، وهَزَم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده.

* * *

ومن سورة إبراهيم

عن البَراءِ بن عازب: ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ قال: نزلت في عذاب القبر.

وعن سَهْلِ بن سعدٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يومَ القيامة على أرض بيضاءَ، عفراءَ، كقُرْصَة النَّقِيِّ لَيْسَ فيها عَلَمٌ لأَحدٍ».

وعن عائشة، قالتْ: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ فأين يكون النَّاس يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: «على الصِّراط».

ومن سورة إبراهيم

(قوله: «يُحشر الناسُ يومَ القيامة على أرضٍ بيضاء عفراء») أي: تضربُ إلى الحُمْرة. والعُفْرة: بياضٌ ليس ناصعاً، بل يضربُ إلي الحُمرة، وكأنها تغيَّرتْ من لهب النار.

و(قوله: «كقُرْصَة النَّقِيِّ») القُرْصة: الخُبزة. النَّقي: ـ بفتح النون وكسر القاف ـ: هو الحوَّارى، وهو الدَّرمك، سُمِّي بذلك؛ لأنه ينقى ويصفّى من نُخالته، ومما يغيره.

و(قوله: «ليس فيها عَلَم لأحد») الرواية المشهورة بفتح العين المهملة واللام؛ أي: ليس فيها علامةٌ لأحد، ولا أثرٌ، أي: لم يكن فيها أحدٌ فيكون له أثر. قال ابنُ عباس: لم يُعْمَلْ عليها خطيئة. وقد وجدتُه في أصل الشيخ أبي الصبر أيوب: ليس بها علْمٌ لأحد: بالباء الموحدة وبكسر العين، وسكون اللام؛ أي: لم يتقدَّمْ بها لأحدٍ من الخلق علم. وهذا الحديثُ والذي بعده يدلُّ على: أن المرادَ بتبديل الأرض المذكورةِ في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ ﴾ [1] إنه تبديلُ ذاتِ بذات،

---

(1) سورة إبراهيم الآية 48

وعن أبي سعيد الخدريِّ، عن رسول الله ﷺ، أنَّه قال: تكون الأرضُ يوم القيامة خُبْزَةً واحدةً يكفؤها الجبَّارُ بيده كما يكفأ أحدُكم خُبْزته في السَّفر؟ نُزُلاً لأهل الجنة»، فأتى رجلٌ من اليهود، فقال: باركَ الرَّحمنُ عليك أبا القاسم! ألاَ أخبرك بنُزُلِ أهل الجنةِ؟ قال: «بلى». قال: تكون الأرضُ

فيُذهَبُ بهذه الأرض ويُؤتى بأرض أخرى، وهو قولُ جمهور العلماء، وقال الحسن: تُبدَّل صورتُها، ويُطهَّر دَنَسُها. وقال ابنُ عباس: تبدَّل آكامُ الأرض، ونجومُ السماء. ورُوي عن النبي ﷺ: «تُمَدُّ الأرضُ مدَّ الأديم». وأما تبديلُ السموات، فروي عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ: تبدل الأرضُ فضَّة والسماءُ ذهباً. كعب: الأرض ناراً والسماء جنة؛ أي: يزاد فيها. القاسم بن محمد: تُطوى السماءُ كطيّ السجل. ابن الشجريِّ: [1] تنشق، فلا تظل. ابن الأنباري: تختلف أحوالُها كالمهل، والدهان.

و(قوله ﷺ في جواب عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «على الصراط») ظاهره: الصراط الذي هو جسرٌ ممدودٌ على متن جهنم، كما قد قال في الحديث المتقدم: «هم في الظلمة دون الجسر» أي: على الجسر.

قال الشيخ رحمه الله: وهذا كله ممكنٌ، والقدرةُ صالحة، ومن الممكن أن يعدمَ اللهُ الأرضَ التي يخرجون منها، ويُوجدَ أرضاً أخرى، وهُم عليها، ولا يشعرون بذلك.

و(قوله: «تكون الأرضُ يوم القيامة خُبْزَةً واحدة») يعني: الأرض التي يخرجون منها يقلبُها اللهُ تعالى بقدرته، كما يقلبُ أحدُنا خبزَته. وهو تمثيلٌ لسرعة الانقلاب، وسهولته. ويكفؤها: مهموز، من كفأت الإناء: إذا قلبته، ووقع في بعض النسخ: «يتكفؤها كما يتكفؤ» بزيادة تاء. والمعنى واحد: وظاهره: أنَّ هذه الأرضَ تُقلب، فيعاد ما كان أسفلَها أعلاها. كما يُفعل بالخبزة، وهو تبديلٌ صحيح؛ لأنَّ الوجهَ الذي كان أسفل هو أرضٌ أخرى غير الوجه الذي كان أعلى، فهو تبديلٌ مُحقَّق، فيجوزُ أن يكونَ هذا هو التديلَ الذي أراد اللهُ تعالى في الآية المتقدِّمة، والله

---

(1) هو هبة الله بن علي بن الشجري، من أهل العلم باللغة والأدب وأحوال العرب، توفي سنة (542 هـ)

خُبْزَةً واحدةً ... (كما قال رسولُ الله ﷺ) فنظر إلينا رسولُ الله ﷺ، ثم ضَحِك حتى بدتْ نواجذُهُ. فقال: ألا أخبرك بإدامهم؟ قال: «بلى»، قال: إدامهم بَالاَمٌ ونُونٌ. قالوا: وما هذا؟ قال: ثَوْرٌ ونونٌ، يأكل من زيادة كَبِدِهما سبعون ألفاً.

* * *

تعالى أعلم. وعلى هذا فيكون قوله: «نزلاً لأهل الجنة» والنّزل: هو ما يُعَدُّ للضيف من طعام وشراب وكرامة، وهو بضم النون والزاي. وقد يُقال: النزل: على المنزل أيضاً، وعلى الإنزال. والنواجذ: يُراد بها الضواحك، وقد تقدَّم استيعابُ الكلام فيه.

و(قوله: ألا أخبرك بإدامهم؟) هذا قولُ اليهودي، لا قول النبيِّ ﷺ والنبي ﷺ هو القائلُ: «بلى»، يستخرج بذلك ما عند اليهودي من ذلك؛ ليظهر للحاضرين موافقةً اليهودي للنبيِّ ﷺ فيما كان يخبرهم عنه من إدام أهل الجنة، فقد جاء في حديثٍ آخر أن النبي ﷺ كان أخبر أصحابه بذلك، وأن اليهود سألوا النبيَّ ﷺ عن ذلك، كما تقدم في الطهارة من حديث ثوبان[1].

و(قوله: إدامهم بالام ونونٌ) هكذا الروايةُ الصَّحيحةُ التي لا يُروى غيرها. فأمَّا بالام فيعني به اليهودي: الثور الذي كان يأكلُ من أطراف الجنَّة، كما في حديث ثوبان، فكانت هذه كلمةً عبرانيةً تكلَّم بها اليهودي على لسانه، وقد قال بعضُ أئمتنا: إنَّ هذه الكلمةَ صَحَّفَهَا بعضُ الرواة، وإنَّما هي اللأى على وزن اللَّعا: وهو الثور الوحشيُّ، وهذا لا يُلتفت إليه؛ لأنَّه يخرمُ الثِّقة بالعدول العلماء؛ ولأنَّه لو كان كذلك لما أشكلتْ على أصحاب النبيِّ ﷺ ولا سألوه عنها، فإنَّهم يعرفون: أنَّ اللَّأى: الثور، والله أعلم. وأمَّا النون: فهو الحوت، وقد قدَّمنا في الصحاح: أنَّ النون: الحوت، ويجمع أنواناً ونيناناً. وذو النون: يونس ـ عليه السلام ـ. وزيادة الكبد: هي القطعة المتعلقة به المنفردة عنه.

---

(1) رواه مسلم (215)

ومن سورة الحجر

عن عبد الله بن عُمَر، قال: مررنا مع رسول الله ﷺ على الحِجْرِ، فقال لنا رسول الله ﷺ: «لا تَدخلوا مساكنَ الذين ظلموا أَنْفُسهم، إلاَّ أن تكونُوا باكينَ؛ حذراً أن يصيبكم مِثلُ ما أصابهم». ثُمَّ زجر، فأسرع.

ومن سورة الحجر

(قوله: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم») أي: خوفاً من أن تعاقبوا كما عوقبوا، لأن أكثر المخاطبين والموجودين في ذلك كالوقت كانوا ظالمين لأنفسهم إمَّا بالكفر، وإمَّا بالمعاصي، وإذا كان سببُ العقوبة موجوداً تعين الخوفُ من وجود العقوبة. فحقّ المارِّ بموضع المعاقين أن يُحدِّد النظر والاعتبار، ويكثر من الاستغفار، ويخاف من نقمة العزيز القهار، وألاَّ يبطل اللبثَ في تلك الدار.

و(قوله: ثم زجر فأسرع) أي: زَجَر ناقته فأسرع بها في المشي. وبُستفاد منه كراهةُ دخول أمثال تلك المواضع والمقابر؛ فإن كان ولابدَّ من دخولها فعلى الصفة التي أرشدَ إليها النبيُّ ﷺ من الاعتبار، والخوف، والإسراع، وقد قال ﷺ: «لا تدخلوا أرض بابلَ فإنها ملعونة». وأَمْرُه ﷺ بإراقة ما استقوا من بئر ثمود، وعلف العجين الذي عُجن به للدواب حُكْمٌ على ذلك الماء بالنجاسة؛ إذ ذاك هو حكمُ ما خالطته نجاسة، أو كان نَجساً، ولولا نجاستُه لما أتلف الطعامُ المحترمُ شرعاً من حيث أنه مالية، وإنه غذاءُ الأبدان وقوامها. وأمره لهم أن يستقوا من بئر الناقة دليلٌ على التبرُّك بآثار الأنبياء والصَّالحين، وإن تقادمت أعصارُهم، وخفيت آثارهم، كما أن في الأول دليلاً على بغض أهل الفساد، وذمّ ديارهم وآثارهم. هذا؛ وإن كان التحقيقُ أنّ الجمادات

وعنه؛ أنَّ الناسَ نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحِجْرِ - أرض ثَمُود - فاسْتَقَوا من آبارِها، وعَجَنُوا به العجين، فَأَمَرهُم رسولُ الله ﷺ أن يُهرِيقُوا ما اسْتَقَوا، ويَعْلِفُوا الإبلَ العَجِينَ، وَأَمرهم أنْ يسْتَقُوا مِنْ البِئرِ التي كانت تَرِدُها الناقةُ.

* * *

غيرُ مؤاخذات، لكن المقرون بالمحبوب محبوب، والمقرون بالمكروه المبغوض مبغوض، كما قال كثيرٌ:

أُحِبُّ بِحُبِّها السُّودانَ حتَّى أُحِبُّ لِحُبِّها سُودَ الكِلابِ

وقال آخر:

أَمُرُّ عَلَى الدِّيَارِ دِيَارِ سَلْمى أُقَبِّلَ ذا الجِدَارَ وذَا الجِدارا

وَمَا تِلْكَ الدِّيَارُ شَغَفْنَ قَلْبِي وَلكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيَارا

وفي أمره بعلف الإبل العجين دليلٌ على جواز حَمْل الرجل النجاسة إلى كلابه ليأكلوها، خلافاً لمن منع ذلك من أصحابنا، وقال: تُطلق الكلاب عليها ولا يحملها لهم.

* * *

ومن سورة الإسراء

قد تقدمت في كتاب الإيمان أحاديث الإسراء.

انظر هذه الأحاديث في التلخيص في كتاب الإيمان.

وعن عبد الله بن مسعودٍ قال: بينما أنا أمشي مع النَّبيِّ ﷺ في حَرْثٍ وهو متكىءٌ على عَسِيبٍ، إذ مرَّ بنفر من اليهود، فقال بعضُهم لبعضٍ: سَلُوه عن الروح، فقالوا: ما رابكم إليه؟ لا يستقبلكم بشيء تكرهونه! فقالوا: سلوه. فقام إليه بعضُهم فسأله عن الرُّوح. قال: فقمتُ مكاني، فلمَّا نزل الوحيُ قال: ﴿ **وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾.

وفي رواية: «وما أوتوا».

ومن سورة الإسراء

قد تقدم الكلامُ في الإسراء، وفي أحاديثه في كتاب الإيمان، وتقدم الكلامُ في الروح في كتاب الصلاة، وقد اختلف الناسُ في الروح التي سألت اليهودُ عنها النبيَّ ﷺ فقيل: هو عيسى ـ عليه السلام ـ، وقيل: هو جبريل ـ عليه السلام ـ، وقيل: هو روح الإنسان، وهذا الأخيرُ هو الأولى؛ لأن اليهودَ لا تُقرُّ بأن عيسى ـ عليه السلام ـ وُلد بغير أب، وجبريل عندها ملك معروف، فتعين الثالث، وهو الذي يناسبُ الإبهامَ في قوله حيث أجابهم بقوله: ﴿ **قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي** ﴾ [1] أي: هو أمرٌ عظيم، وشأنٌ كبيرٌ من أمر الله تعالى، مُبهماً له، وتاركاً تفصيلَه ليعرف الإنسانُ على القطع عجزَه عن علم حقيقةِ نفسه مع العلم بوجودها، وإذا كان الإنسان في معرفة نفسه هكذا، كان بعجزه عن إدراك حقيقةِ الحقِّ أولى.

---

(1) سورة الاسراء الآية 85

وعنه : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾، قال: كان نَفَرٌ من الإنس يعبدون نفراً من الجنِّ؛ فأسلم النفرُ من الجنّ واسْتَمسكَ الإنسُ بعبادَتهم، فنزلتْ.

و(قوله : فأسكت رسول الله ﷺ) بمعنى: سكت. يقال: سكت، وأسكت لغتان، وقيل معنى أسكت: أطرق ساكتاً.

و(قوله: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾[1] هي: نحو مما قال الخضر لموسى ـ عليه السلام ـ: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر. وقد تقدَّم معناه.

و(قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان نفرٌ من الإنس يعبدون نفراص من الجن، فاستمسك الرنسُ بعبادتهم فنزل: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ [2] هذا هو المشهورُ عن ابن عباس، وروي عنه أنها نزلتْ فيمن كان يعبد العُزير، وعيسى وأمه.

قال الشيخ رحمه الله: والآية بحكم عمومها متناولةٌ للفريقين؛ لأن (أولئك) إشارةٌ إلى الذين زعمتم من دونه، والمخاطب بـ: ﴿ قل ادعوا ﴾ كلّ من كان كذلك. والنفر من الإنس قيل: إنهم كانوا من خزاعة. وزعمتم: أدَّعيتم، ومعمولها محذوف تقديره: زعمتم أنَّهم آلهة غير الله. فلا يملكون: أي لا يستطيعون. والضر : هو قحط سبع سنين، والأحسن حمله على جنس الضرّ؛ فإنهم لا يملكون كشف شيء منه كائناً ما كان، ولا تحويلاً. ولا يملكون تحويل شيءٍ من أحوالهم، ولا تبديله بغيره. ويبتغون: يقصدون ويطلبون. وهذه الجملةُ هي خبرأولئك، والذين يدعون: نعت لأولئك. والوسيلة: القربة إلى الله تعالى. وأيُّهم أقرب؛ أي: كلّ واحد منهم يجتهدُ في التقرب إلى الله تعالى بعبادته، يريدُ بذلك أن يكون أقربَ إليه من كلِّ أحد. وهذا

---

(1) سورة الاسراء الآية 57

(2) سورة الاسراء الآية 57

وعن عائشة، في قوله عز وجل: ﴿ **ولاَ تَجْهَرْ بِصلاتِكَ ولاَ تُخافِتْ بِهَا** ﴾ قالت: أُنزِل هذا في الدعاء.

وقد تقدم في كتاب الصلاة قول ابن عباس، هذه الآية: إنها نزلتْ مخافة سبِّ المشركين للقرآن إذا قرىء جهراً.

* * *

المعنى: أمكن في حقِّ العزير وعيسى وأمِّه. وبهذا يتأكَّد القولُ الثاني لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

و(قوله: ﴿ **وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ** ﴾ [1] هكذا حالُ العارف بالله تعالى بين الرجاء والخوف، ولا بدَّ منهما للمؤمن، ولذلك قال بعضُ السلف: لو وُزِنَ رجاءُ المؤمن وخوفُه لاعتدلا؛ إلا أن الخوفَ أولى بالمسيء، لكن بحيث لا يقنطُ من رحمة الله، والرجاءُ أولى بالمحسن؛ لكن بحيث لا يغتر، فيكسلُ عن الاجتهاد في عبادة الله.

و(قوله: ﴿ **إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً** ﴾ [2] أي: شيئاً عظيماً يجبُ أن يحذرَه المومنُ، فهو محذورٌ للمؤمن العارف، ومتروكٌ للجاهل الآمن.

و(قوله: ﴿ **وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا** ﴾ [3] قد ذكر في الأصل اختلاف عائشة وابن عباس في سبب نزولها، وأيهما كان. فمقصودُ الآية التوسطُ في القراءة والدعاء، فلا يُفْرِط في الجهر، ولا يفرط في الإسراء، ولكن بين المخافتة والجهر، وخيرُ الأمور أوساطُها.

* * *

---

(1) سورة الإسراء الآية 57
(2) سورة الإسراء الآية 57
(3) سورة الإسراء الآية 110

ومن سورة الكهف

وعن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، أنَّه قال: «ليأتي الرجلُ العظيمُ السمينُ يومَ القيامة لا يزنُ جناحَ بعوضةٍ. اقرؤوا: ﴿فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْناً﴾.

وقد تقدمت قصة موسى مع الخضر في كتاب الأنبياء.

وعن أبي الدرداء، أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «مَن حَفِظَ عَشْرَ آياتٍ من أوَّل سورة الكهفِ، عُصِمَ من الدَّجَّال». ـ وفي روايةٍ: «من آخر سورة الكهف» ـ.

* * *

ومن سوره الكهف

(قوله: «ليأتي الرجلُ العظيمُ السَّمينُ يوم القيامة لا يزنُ عند الله جناحَ بعوضة») أي: لا قيمة له ولا قدر. إذ لا عملَ له يُوزن، فإن الأعمالَ هي التي تُوزن، أي: صحتها لا أشخاص العاملين، وقد قال ﷺ في عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «اتعجبون من حموشة ساقية؟! لهي أثقل في الميزان من أحد» أو كما قال. أي: الأعمالُ التي عَمِلَ بها أثقلُ في الميزان، لا أنَّ ساقيه تُوضعان في الميزان، ولا شخصه، كما قد ذهب إليه بعض المتكلمين على هذه الآية فقال: إنَّ الأشخاص تورن. ويُفهم من هذا الحديث أن السِّمنَ المكتسبَ للرجال مذمومٌ، وقد قال ﷺ: «إن أبغضَ الرجال إلى الله الحبرُ السَّمين» وقال في حديث عمران: «ويظهر فيهم السِّمن». وسبب ذلك: أن السمنَ المكتسبَ إنما هو من كثرة الأكل، والشرب، والدّعة، والراحة، والأمن، والاسترسال مع النفس على شهواتها.

وحاصلُ هذا الحديث يرجعُ رلى قوله في الحديث الآخر: «إن الله لا ينظرُ إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظرُ إلى قلوبكم وأعمالكم»[1]. وقد تقدَّم القولُ في حديث الخَضِر في كتاب الأنبياء، وعلى قراءة عشر آيات من أول سورة الكهف في كتاب الصلاة.

* * *

---

(1) رواه أحمد ومسلم، وابن ماجه.

ومن سورة مَرْيَم

عن خَبَّاب، قال: كان لي على العَاصِ بنِ وائلٍ دَيْنٌ؛ فأتيتُه أتقاضاه، فقال لي: لن أقضيك حتى تَكْفُرَ بمحمَّد! قال: فقلت له: لن أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث! قال: وإني لمبعوث من بعد الموت؟ فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مال وولد! قال: فنزلت هذه الآية: ﴿ **أَرَءَايْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا** ﴾ إلى قوله: ﴿ **وَيَأْتِينَا فَرْدًا** ﴾.

وفي روايةٍ: قال خبَّابٌ: كنت قَيْناً في الجاهلية، فعملت للعاص بن وائل عملاً، فأتيته... وذكره.

* * *

ومن سورة مريم

(قول خباب: كنت قيناً في الجاهلية) أي: حدَّاداً؛ وهذا أصلُ هذا اللفظ، وقد يقال: على كلِّ صانع، وقد تقدَّم ذلك.

و(قوله تعالى: ﴿ **أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا** ﴾ [1] أي. أنَظَر في اللوح المحفوظ فرأى أمنيته، أم أعطاه اللهُ موثقاً بذلك، وهذا توبيخٌ له على جهله وتحكّمه، ثم أنَّه تعالى نفى ذلك، وزَجَره عنه، وتوعَّده عليه بقوله: ﴿ **كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ** ﴾؛ أي: نكتب في ديوان أعماله، أونُريه ذلك مكتوباً عليه في القيامة. ﴿ **وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا** ﴾؛ أي: نزيده منه أضعافاً، من قولهم: مدَّ النهر، ومدَّه نهر آخر. ﴿ **وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ** ﴾ أي: نسلبه ما يقول بالموت. ويقول: بمعنى قال، يعني به: ماله أو ولده. وعبَّر عن الحال بالماضي لقربه، أو لتماديه على ذلك القول. وفرداً: وحيداً مسلُوباً، لا نصيرَ له ولا مُجير.

---

(1) سورة مريم الآية 78

ومن سورة الأنبياء

عن أبي هريرة، قال قال رسول الله ﷺ: «يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة ويطوي السَّماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك! أين ملوك الأرض؟».

وعن ابنْ عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي (بدل) «يقبض».

وفي رواية: «يأخذ»..

* * *

ومن سورة الأنبياء

(قوله: «يقبض الله تبارك وتعالي») في هذه الرواية، وفي الرواية الأخرى «يطوي»، وفي الثالثة: «يأخذ». هذا الاختلافُ يدلُّ على أنَّه نَقْلٌ بالمعنى، وأنَّ اللفظَ الذي قاله النبيُّ ﷺ لم يتعيَّن. وحاصلُ مدلولِ هذه الألفاظ: أنه تعالى يفعل في السَّموات والأرض فِعْلاً؛ وهو أنه يقبضُ مبسوطهما، ويطمس أنوارهما، فعبَّر عن ذلك بعباراتٍ مختلفة كالطيِّ والتكوير، وغير ذلك مما في معناه ممَّا جاء في الكتاب. وقد تقدَّم: أن اليدَ تُطلق في اللسان على القدرة والنعمة، والمراد بها هنا: القدرة، وكذلك الإصبع، وسيأتي تكميلُ هذا المعنى في الزّمر.

و(قوله تعالى: ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [1] اختلف المفسرون في السجل، فقال يزيد: هو اسمُ كاتب النبيِّ ﷺ. وقال ابن عباس: السجل بلغة الحبش: الرجل. وقد رَوَى ذلك أبو داود من حديث أبي الجوزاء عن ابن عباس قال: كان للنبيِّ ﷺ كاتبٌ يُسمَّى السجل[2]. وهو قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَاءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[3].

قال الشيخ رحمه الله: وفي اسناده مقال. وقال السُّدِّي: اسم ملك يكتب أعمال العباد، وقال مجاهد: هو الصَّحيفة. واللام بمعنى على، أي: على المكتوب،

---

(1) سورة الأنبياء الآية 104

(2) رواه أبو داود

(3) سورة الأنبياء الآية 104

ومن سورة الحج

عن قَيْسِ بن عُبَاد، قال: سمعتُ أبا ذَرٍّ يُقْسِم قَسَماً: إنّ ﴿ * هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ... ﴾ أنّها نزلت في الذين بَرزُوا يوم بدرٍ: حَمْزَةُ، وعليٌّ، وعُبَيْدَةُ بنُ الحارث، وَعُتْبَةُ، وشيبة ابنا ربيعةَ، والوليدُ بن عتبةَ.

* * *

وقيل: هي على أصلها، ويكون معناه: ليصير كتاباً. والمساجلة: المكاتبة، وأصله: منازعة الدلو. قال:

مَنْ يُسَاجِلْنِي يُسَاجِلْ مَاجِداً يَمْلأُ الدَّلْوَ إِلَى عَقْدِ الكَرَب [1]

ومن سورة الحج

(قوله: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ﴾ [2] إشارة إلي الفريقين اللذين ذكرهما أبو ذرّ، وهما: عليّ، وحمزة، وعبيدة، وهم المومنون؛ والفريق الآخر عتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة. التقيا يوم بدر في أول الحرب، فافتخر المشركون بدينهم، وانتسبوا إلى شركهم، وافتخر المسلمون بالإسلام، وانتسبوا إلى التوحيد. ولما خرج المشركون، ودعوا إلى البراز، خرج إليهم عوف ومعوّذ ابنا عفراء، وعبد الله بن رواحة الأنصاري، فلما انتسبوا لهم قالوا: أكفاء كرام، ولكنا نريد قومَنا، فخرج إليهم حمزةُ بن عبد المطلب، وعبيدةُ بن الحارث، وعليٌّ - رضي الله عنهم -، فأمَّا حمزة وعليّ فلم يُمْهِلا صاحبيهما، فقتلاهما، واختلف بين عبيدة وشيبة ضربتان، كلاهما أثبت صاحبه، وكرَّ حمزة وعليٌّ على شيبة، فقتلاه، واحمتلا صاحبيهما، فمات من جرحه ذلك بالصفراء عند رجوعه. وقال قتادة، هم: أهل الكتاب افتخروا بسبق دينهم وكتابهم، فقال المسلمون: كتابنا مهيمن على الكتب، ونبينا خاتم الأنبياء. وقال مقاتل: أهل الملل في دعوي الحق.

---

(1) «الكَرَب»: الحبلُ الصغير يصلُ حَبْلَ الدَّلْو بالخشبة المعترضة على الدَّلْو.

(2) سورة الحج الآية 19

ومن سورة النُّور

عن عائشةَ زوج النَّبيِّ ﷺ قالتْ : كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرجَ سَفَراً، أقْرعَ بين نسائه، فأيَّتهُنَّ خرج سَهْمُها، خرجَ بها رسول الله ﷺ . قالت : فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سَهْمي، فخرجتُ مع رسول الله ﷺ، وذلك بعدما أُنزِلَ الحجابُ، فأنا أُحْمَلُ في هَوْدَجِي، وأُنْزلُ

و(قوله : ﴿ **قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ** ﴾ [1] أي : أُعدِّت كما يُقطع من الثوب القميص والسراويل، كما قال تعالى : ﴿ **سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ** ﴾ [2] فَألْبِسُوا والله ثياباً. العريُ خيرٌ منها، كما أُطْعِمُوا طعاماً، وسُقُوا شراباً، الجوعُ والظمأُ خيرٌ منهما.

و(قوله : ﴿ **يُصْهَرُ بِهِ. مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ** ﴾ [3] أي : يقطع به، ويُنضج، ويُذاب.

ومن سورة النور

(قولها : كان رسولُ الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمُها خرج بها معه) دليل على : أنَّ للقرعة مدخلاً شرعياً في الحقوق المشتركة، وهو قولُ الكافَّة. قال أبو عبيدة : وقد عمل بها ثلاثة من الأنبياء : يونس وزكريا ومحمد ـ صلّى الله عليهم أجمعين ـ. قال ابنُ المنذر : واستعمالُها كالإجماع بين أهل العلم فيما يُقْسَمُ بين الشركاء. ولا معنى لقول مَن ردَّها. وحُكي عن أبي حنيفة إجازتها. قال : ولا تقسيم في القياس، ولكنا تركنا القياسَ للآثار.

---

(1) سورة الحج الآية 19
(2) سورة ابراهيم الآية 50
(3) سورة الحج الآية 20

فيه مَسيرَنا، حتى إذا فَرَغ رسولُ الله ﷺ من غزوه، وقَفَلَ، ودَنَوْنَا من المدينة، آذَنَ ليلةً بالرَّحيل. فقمتُ حين أذَّنُوا بالرحيل، فمشَيْتُ حتى جاوزتُ الجيشَ، فلمّا قضيتُ من شأني أقبلتُ إلى الرَّحلِ، فَلَمَسْتُ صدري فَإذا

قال الشيخ رحمه الله: ومقتضى هذا: أنه قَصَرها على المواضع التي وردتْ في الأحاديث دون تعديتها إلى غيرها، وهو قولُ مالك أيضاً والمغيرة وبعض أصحابنا. وحكى ابن المنذر عن أبي حنيفة ترك القول بها، وأنكرها بعضُ الكوفيين، وقال: هي كالأزلام. وبإيجازتها في المشكلات قال الشافعي. قال القاضي: وهو مشهورُ مذهبِ مالك.

وأما القرعة بين النساء إذا أراد سفراً، فقد اختلف العلماءُ في ذلك، فذهب مالكٌ في أحَد قوليه، والشافعي، وأبو حنيفة إلى: أنه لا يخرجُ منهن إلا من خرجتْ عليها القرعةُ؛ تمسُّكاً بظاهر هذا الحديث؛ فإنه كالنص في ذلك، وقال مالك أيضاً: إنَّ له أن يسافرَ بمن شاء منهن بغير قرعة، وإن القسمة هنا سقطتْ للضرورة؛ إذ قد تكون إحداهُنَّ أخفَّ محملاً، وأقلَّ مؤونة، وأصلحَ للسفر، والأخرى أصلح للمقام في بيته لسدِّ ضَيْعته، وللقيام بولده، وقد تكونُ أثقلَ جسماً، وأكثرَ مؤونة.

قال الشيخ رحمه الله: والذي يقعُ لي: أنَّ هذا ليس بخلافٍ في أصل القرعة في هذا، وإنما هذا الاختلاف أحوالِ النساء، فإذا كان فيهن مَن تصلح للسفر ومن لا تصلح تعيَّن من تصلح. ولا يمكن أن يقال: يجبُ أن يسافرَ بمن لا تصلح؛ لأن ذلك ضررٌ ومشقّة عليه، ولا ضررَ ولا ضرار. وإنما تدخل القرعة إذا كنّ كلهن صالحات للسفر، فحينئذٍ تتعيَّن القرعة؛ لأنه لو أخرجَ واحدةً منهن بغير قرعة لخيف أن يكونَ ذلك ميلاً إليها، ولكان للأخرى مطالبته بحقِّها؛ فإذا خرج بمن وقعتْ عليها القرعةُ انقطعتْ حُجَّةُ الأخرى، وارتفعتِ التهمةُ عنه، وطاب قلبُ مَن بقي منهن، والله تعالى أعلم.

و(قوله: آذان ليلةً بالرحيل) هو بالمدّ، وفتح الذال بمعني أَعْلم. والهودجُ: القبّةُ التي تكون فيها المرأة على ظهر البعير، وهو الخدر، ويُجمع: هوادج.

عِقْدي مِنْ جَزْع ظَفارٍ قد انقطع، فرجعتُ، فالتمستُ عِقدي فَحَبَسني ابتغاؤه، وأقبل الرَّهَطُ الذين كانوا يَرْحَلُون بي، فحملوا هودجي، فَرَحَلُوه على بعيري الذي كنت أركبُ، وهُم يحْسَبُون أنِّي فيه. قالتْ: وكانت النساءُ إذ ذاك خفافاً. لمْ يُهَبَّلْنَ ولم يَغشَهُنَّ اللحمُ، إنَّما يَأْكُلنَ العُلْقَةَ من

و(قولها: فإذا عقدي من جَزْع ظفار قد انقطع) قال ابنُ السكيت: الجَزْع - بفتح الجيم، وإسكان الزاي -: الخرز اليماني. وظَفار - بفتح الظاء -: قرية باليمن.

قال الشيخ: هكذا صحيحُ الرواية. ظفار كما قاله ابنُ السكيت، وفي الصحاح ظفار: مثل قطام: مدينة في اليمن. يقال: من دَخل ظفار حمَّر، وجَزْع ظفاريٌّ: منسوب إليها، وكذلك عودٌ ظفاريّ، وهو العودُ الذي يُتبخر به، وعلى هذا فمن قيَّده جزع أظفار بألف، فقد أخطأ، وبالوجه الصحيح رويته.

و(قولها: وكانت النساءُ إذ ذاك خِفافاً لم يُهبَّلن، ولم يغشهنَّ اللحم، وإنما يأكلن العلق) اختلف الرواةُ في تقييد هذا الحرف، فرواه العذريُّ بضم الياء وفتح الهاء وتشديد الباء على ما لم يُسمَّ فاعلُه: يُهَبَّلْن، ومن طريق الطبري: بفتح الياء وسكون الهاء وفتح الباء: يَهْبَلْن، والصواب: بضمها؛ لأن ماضيه فَعُلَ، وفي بعض الروايات عن ابن الحذاء: لم يُهَبِّلْن،بضم الياء، وفتح الهاء، وكسر الباء مُشدَّدة، وهذه الروايةُ هي المعروفةُ في اللغة. وقال في الصِّحاح: هبَّله اللحم: إذا كثر عليه، وركب بعضُه على بعض. وأهبلهُ أيضاً، يقال: رجل مهبّل. قال أبو كبير:

.... فَشَبَّ غَيْرَ مهَبَّلِ[1]

قال: وقالت عائشةُ في حديث الإفك: والنساء يومئذ لم يهبلهن اللحم. والعلق: جميع علقة، وهو القليلُ من الطعام، وكأنَّه الذي يمسكُ الرَّمق، ويعلق النفس للازدياد منه. أي: يشوقها إليه.

---

(1) هذا جزء من عجز بيت، والبيت بتمامه:

مِمَّنْ حَمَلْنَ بِه وَهُنَّ عَوَاقِدٌ حُبُكَ النِّطاقِ فَشَبَّ غَيْرَ مُهَبَّلِ

الطعام، فلم يستنكر القومُ ثِقَلَ الهَوْدجِ حين رَحَلوه، ورفعُوه، وكنتُ جاريةً حديثة السنِّ، فبعثُوا الجَمَلَ وساروا، ووجدتُ عِقْدي، بَعْدَما استمرّ الجيش، فجئتُ منازلَهم وليس بها داع ولا مجيبٌ، فتيمَّمتُ منزلي الذي كنتُ فيه، وظننتُ أنَّ القوم سيفقدوني، فيرجعونَ إليّ. فبَيْنا أنا جالسةٌ في منزلي غَلَبَتْني عيني فنمتُ. وكان صفوان بنُ المُعطَّلِ السُّلَمِيُّ، ثُمَّ الذَّكْوانيُّ، قَدْ عَرَّسَ من وراء الجيش، فادَّلج، فأصبحَ عند منزلي، فرأى سَوَادَ إنسانٍ نائمٍ، فأتاني فعرفني حين رآني، وقدْ كان يراني قَبْلَ أن يُضْرَبَ الحجابُ عليَّ، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني، فخمَّرتُ وجهي بجلبابي. ووالله ما يُكلِّمُني كَلِمَةً، ولا سَمِعْتُ منه كَلِمَةً غير استرجاعه، حتى أناخ راحلتهُ، فوطىء على يدها فَرَكِبْتُهَا، فانطلق يقُود بي الرَّاحلَةَ، حتى أَتَيْنا الجيشَ بعدما نزلوا مُوغِرينَ في نَحْرِ الظَّهيرة، فهلك مَنْ هَلَكَ في

و(قولها: فتيمَّمتُ منزلي الذي كنتُ فيه) أي: قصدته. وقد تقدم أنَّ التيمُّمَ في الأصل هو القصدُ. والتعريسُ: النزولُ من آخر الليل. وقال أبو زيد: هو النزولُ في أيّ وقت كان، وأدلج: سار من أوَّل الليل، وأدّلج ـ مُشدَّداً ـ سار من آخره. وقيل: هما لغتان، والأول المعروف.

و(قولها: فخمَّرتُ وجهي بجلبابي) أي: غطَّيتُه بثوبي.

(وقولها: بعدما نزلوا مُوغِرين في نحو الظهيرة) الرواية الصحيحة بالغين المعجمة، والراء المهملة من الوغْرة، بسكون الغين، وهي: شدَّة الحرِّ، ومنه قيل: في صدره على وغْر: بالتسكين، أي: ضغن وعداوة، تقول: وغر صدره عليَّ، يوغر، وغراً، فهو واغرُ الصدر عليه، وقد أوغرتُ صدره على فلان. وقد رواه مسلم من حديث يعقوب بن إبراهيم: موعزين، بالعين المهملة والزاي، ويمكن أن يقال فيه: هو من وعزت إليه، أي: تقدَّمت. يقال وعزت إليه وعزاً، مخففاً، ويقال: وعَّزت إليه توعيزاً، بالتشديد، والرواية الأولى أصحُّ وأولى. والظهيرة: شدَّة الحرِّ، وهي الهاجرة.

شأْني، وكان الذي تولي كِبْرَهُ عبد الله بن أُبَيٍّ ابنِ سَلُول، فقدمنا المدينةَ. فاشتكيتُ حين قدمنا المدينةَ شهراً، والنَّاس يُفيضُونَ في قولِ أَهْلِ الإفك، ولا أشعر بشيءٍ من ذلك. وهو يَريبُني في وجعْي أنِّي لا أعرفُ من رسول الله ﷺ اللُّطفَ الذي كنتُ أرى منه حين أشتكي، إنما يدخلُ رسولُ الله ﷺ فيُسَلِّمُ. ثم يقول: كَيْفَ تِيْكُمْ؟ فَذَاك يَرِيبُني، ولا أشعر بالشرِّ، حتى خرجتُ بعدما نَقِهْتُ، وخَرجَتْ مَعِي أُمُّ مِسْطَح قِبَلَ المَنَاصِع، وهو مُتَبَرَّزُنا، ولا نخرجُ إلا ليلاً إلى ليلٍ، وذلك قَبْلَ أن نتَّخِذَ الكُنُفَ قريباً من بيوتنا،

ونَحرُها: صدرها؛ أي: أوّلها. وقد صحَّفه بعضُهم فقال: مُوعِرين بالعين المهملة، والراء، ولا يُلتفت إليه.

و(قولها: فهلك مَن هَلَك في شأنني) أي: بقول البهتان والقذف. وكبر الشيء: معظمه. والناس يفيضون: أى: يخوضون فيه، ويكثرون القول. ويريبني: من الرِّيبة، وهي اسمٌ للتهمة والشك. تقول: رابني فلان: إذا رأيتَ منه ما يريبك، وهُذيل تقول: أرابني فلان. قال الهذلي:

يَا قَوْمْ! مَا لِي وَأَبا ذُؤَيْبِ كَأَنَّنِي أَرَيْتُهُ بِرَيْبِ

وأراب الرجل: صار ذا ريبة، فهو مريب، حكاه الجوهريُّ، وقال غيره: يقال: أرابني الأمر: يريبني: إذا توهَّمته، وشككت فيه، فإذا استيقنته قلت: رابني منه كذا، يريبني، وقال الفراء: هما بمعنى واحدٍ في الشَّكِّ.

و(قولها: بعدما نَقِهت من مرضي) هو بفتح القاف؛ أي: أفقت، فأما بكسر القاف فهو بمعنى فهمت الحديث. والمناصع: مواضع معروفة. والمتبرَّز: بفتح الراء: هو موضعُ التبرُّز، وهو الخروجُ إلى البراز، وهو الفضاءُ من الأرض التي مَن خرج إليها فقد برز، أي ظهر، وكني به ـ هنا ـ عن الخروج للحَدَث. والكُنُف: جمع كنيف، وهو الموضعُ المتَّخذ للتخلِّي، وأصلُ الكنيف: الساتر. والمرط: الكساء.

وأَمْـرُنا أَمْـرُ العـرب الأُول في التَّنزُّه، وكُنَّا نَتَـأَذَّى بالكُنف أن نتَّـخـذها عنْد بُيُـوتنا. فانطلقتُ أنا وأُمُّ مِسْطَح، وهي بنتُ أبي رُهْم بـنِ المُطَّلب بن عـبـد مناف، وأُمُّها ابنةُ صَخْرِ بن عامرٍ، خالةُ أبي بكرٍ الصديق، وابْنُها مِسْطَحُ بنُ أُثَاثَة بنِ عَبَّاد بنِ المطَّلب، فأقبلتُ أنَا وبنتُ أبي رُهْمٍ قِبَل بَيْتي حين فرغْنا من شأننا، فَعَثَرتْ أُمُّ مسطح في مِرْطها، فقالت: تَعِسَ مِسْطَح! فقلتُ لَها: بِئسَ ما قُلْت! أَتَسُبِّينَ رجلاً قَدْ شَهِدَ بَدْراً؟ قالت: أيْ هَنْتَاهُ! أو لَمْ تَسْمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددتُ مَرَضاً إلى مَرَضي. فلما رجعتُ إلى بيتي، فدخل عَليَّ رسولُ الله ﷺ، فسلَّم، ثُم قالَ: «كَيفَ تيكُم؟»، قلتُ: أَتَأْذَنُ لِي أن آتي أبَويَّ؟ قالتْ: وأنا حينئذٍ أُريدُ أن أتيقَّن الخبرَ من قِبَلهمَا. فأذنَ لي رسولُ الله ﷺ، فجئتُ أَبويَّ، فقُلتُ لأمِّي: يا أمَّتَاه! مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ فقالت: يا بنية! هوِّني علَيْك! فوالله! لَقَلَّما كانتْ امرأة قطُّ وَضيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحبُّها، ولها ضَرَائرُ إلا كثَّرْنَ عَلَيْها. قالتْ: قلتُ: سبحان الله! وقد تحدّث الناسُ بهذا؟ قالتْ. فبَكيْتُ

و(قولها: تَعِس مسطح) هو بكسر العين، معناه: انتكس، وسقط على وجهه، دعتْ عليه لما قال. والمِسطح: عودٌ من أعواد الحنَّاء، وهو ـ هنا ـ لقبٌ لهذا الرجل، واسمه: عوف بن أثاثة بن عبد المطلب بن عبد مناف.

و(قولها: يا هَنتَاه) أي: يا امرأة. ويقال للرجل: يا هناه، ولا يُستعملان إلا في النداء، وهما في الأصل عبارةٌ عن كلِّ نكرة، وقد تقدم الكلامُ عليها، ونونها مُخفَّفةٌ، وحكى الهرويُّ عن بعضهم تشديد النون، فأنكره الأزهري.

و(قولها: فوالله لقلما كانت امرأةٌ وضيئة قطّ عند رجل يحبُّها، ولها ضرائر إلا كثَّرن عليها) وضيئة: فَعيلة من الوضاءة، وهي الحُسْن والنَّظافة. أي: جميلة، وكانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ كذلك. والضرائر: الضَّرات. وكثَّرن؛ أي: بالقول والأذى، تُهوِّن عليها ما سمعت.

تلْكَ الليلةَ حتى أصبحتُ لا يرقأ لي دمْعٌ، ولا أكْتَحِلُ بنوْمٍ، ثُمّ أصبحتُ أبْكي. ودَعَا رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب وأسامةَ بنَ زيدٍ حيْنَ استلْبَثَ الوحْيُ يستشيرهُما في فراق أهْله. قالَتْ: فأمّا أسامة بن زيد فأشار عَلى رسول الله ﷺ بالذي يعلمُ من بَراءة أهله، وبالذي يعلمُ في نفسه لَهُمْ من الوُدِّ، فقال: يا رسول الله! هُم أهْلُكَ، وَلا نعلمُ إلا خَيْراً. وأمَّا عليُّ بنُ أبي طالبٍ فقال: لَمْ يُضَيِّقِ اللهُ علَيْكَ! والنساءُ سواها كثيرٌ! وإن تسأل الجاريةَ تصدُقْكَ! قالتْ: فدعا رسولُ الله ﷺ بريرَة فقال: «أيْ بَريرةُ! هل رأيت من شيءٍ يَريبُك من عائشةَ؟»، قالتْ له بريرة: والذي بَعَثَكَ بالحق! إنْ رأيتُ عَلَيْها أمراً قطُّ أَغْمصُهُ عليها، أكثرَ من أنَّها جاريَةٌ حديثةُ السنِّ، تَنَامُ عن عجيْنِ أهْلِها، فَتَأْتي الدَّاجنُ فتأكُلُه. قالتْ: فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فاسْتَعْذَرَ من عبدِ الله بن أُبَيٍّ بنِ سلول. قالتْ: فقالَ رسولُ الله ﷺ

و(قولها: لا يرقأ لي دمع) أي: لا ينقطع، وهو مهموز. يقال: رقأ الدمُ يرقأ: إذا انقطع، ومنه قولهم: «لا تسبوا الإبل، فإن فيها رَقُوءَ الدم» بفتح الراء والهمز. واستلبث الوحيَ؛ أي: استبطأه، فيكون الوحيُ منصوباً على المفعول، ويصحُّ رفعُه على أن يكون استلبث بمعنى لبث، كما قال: استجاب بمعنى أجاب، وهو كثير.

و(قولها: أهْلَكَ، ولا نعلمُ إلا خيراً) منصوب على أنه مفعول بفعل مضمر؛ أي: أمسكْ أهلكَ، أو الزمْ. هكذا وقع في نسخة بالنصب، وغي رواية: هم أهلُك، على الابتداء والخبر؛ أي: العفائف واللائقاتُ بك. وأغمصُه: أعيبُه، من الغَمص، وهو العيب والدَّاجن: الشاة المقيمة في البيت. ويُقال على الحمام أيضاً. ودجنَ: إذا أقام.

و(قولها: فاستعذرَ من عبد الله بن أُبيٍّ) أي: طلبَ من يقبلُ عذرَه، كما قال: «مَنْ يعذرُني من رجل قد بلغَ أذاه في أهلي» أي: من يقبل عذري في حقِّه وعقوبته. فقال سعد: أنا أعذرُك منه، أي: أقبلُ عذرَك فيه.

وهو على المنبرِ: «يا معشر المسلمين! منْ يَعْذِرُني من رجل قد بلغ أذاهُ في أهلِ بَيْتي؟ فـواللهِ! ما علمتُ على أَهْلي إلاَّ خَـيْـراً! ولَقَـدْ ذَكَـروا رجُـلاً مـا علمتُ عليه ألاَّ خيراً! وما كانَ يدخلُ على أهْلي إلا مَعي». فقامَ سعدُ بنُ معاذٍ الأنصاريُّ فقال: أنا أعْذِرُكَ منه يا رسول الله! إنْ كَانَ من الأَوْسِ ضَرَبْنا عُنُقَه! وإنْ كانَ من إخْواننا الخَزرجِ أَمَرْتنا فَفَعَلْنا أَمْرَكَ! قالتْ: فقام سعدُ بن عُبادة ـ وهو سيِّدُ الخَزْرَج، وكانَ رَجُلاً صالحاً، ولكن اجْتَهَلَتْهُ الحميَّةُ ـ فقال لسعد بن معاذٍ: كَذَبْتَ! لَعَنْرُ الله لا تَقْتُلُهُ، ولا تقْدِرُ عَلَى قَتْله! فقامَ أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ ـ وهو ابنُ عَمِّ سعد بن معاذٍ ـ فقَال لسعد بن عُبَادةَ: كذَبْتَ! لَعمرُ الله لنَقْتُلَنَّه! فإنّك منافقٌ تجادلُ عن المنافقينَ! فثار الحيَّانِ الأوسُ والخزرج حتى

و(قولها: ولكن اجتهلته الحميَّةُ) كذا رواية الجَلوديّ، وعند ابن ماهان: احتملته، أي: حملته، والمعنى واحد، وهو أنَّ الحميَّة حملته على الغضب حتى صدرَ عنه خلق الجاهلية. وبينَ السعدين ما بين الكلمتين، والله يؤتي فضلَه من يشاء. وثار الحيَّان: تواثبَ القبيلان؛ الأوس والخزرج.

و(قوله: «فإنه قد بلغني كذا وكذا») هو كناية عما رُميت به من الإفك، وهذا يدلُّ على أن: كذا وكذا يُكنى بها عن الأحوال، كما يُكنى بها عن الأعداد، وقد تقدَّم.

و(قوله: «إن كنت ألممت بذنبٍ فاستغفري اللَّهَ وتوبي إليه») من الإلمام، وهو النزول النادر غير المتكرر، كما قال:

مَتَى تَأتنا تُلْمِم بِنَا فِي دارنا [1] .....

أي: متى يقع منك هذا النادر؟ وهو أصلُ اللمم.

---

(1) هذا صدر بيت وعجزه:

تجـدْ حَطَبـاً جَـزْلاً ونـاراً تَأجَّـجـا

هَمُّوا أن يَقْتَتِلُوا، ورسولُ الله قائمٌ على المنبر، فلَمْ يَزَلْ رسولُ الله ﷺ يُخفِّضُهُمْ حتى سَكتُوا وسَكَتَ، قالت: وبَكَيْتُ يومي ذلك، لا يرقأ لي دمعٌ، ولا أكْتحِلُ بنَوم. ثم بَكَيْتُ لَيْلَتي المُقْبِلَة، لا يرْفأ لي دَمْعٌ، ولا أكْتَحِلُ بَنَومٍ. وأبواي يَظُنَّان أن البكاء فالقٌ كبدي فبينما هما جالسان عندي، وأنا أبْكي، استأذَنتْ عليَّ امرأة من الأنصارِ فأذِنْتُ لها، فجلستْ تَبْكي. قالتْ فبَيْنا نحنُ على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ، ثم جلسَ. قالت: وَلَمْ يجلسْ عندي مُنْذ قِيل لي ما قيل، وقد لَبِثَ شَهْراً لا يُوحى إليه في شأني بشيءٍ. قالتْ: فتشهَّد رسولُ الله ﷺ حين جلسَ، ثم قال: «أما بعد! يا عائشةُ! فإنَّه قَد بلَغَني عَنْكِ كذا وكذا. فإن كنت بريئةً فسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وإن كنتِ أَلْمْتِ بذنبٍ، فاستغفري الله وتُوبي إليه، فإنَّ العبدَ إذا اعترفَ بذَنْبٍ ثم تابَ، تابَ الله عليه!» قالتْ: فلمّا قضى رسولُ الله ﷺ مَقَالَتهُ، قَلَصَ دَمْعِي، حتى ما أُحِسُّ منه قطرةً.

و(قوله: «فإنَّ العبدَ إذا اعترفَ بذنبه ثم تابَ تابَ الله عليه») دليل على: أنَّ مجرَّدَ الاعتراف لا يُعني عن التوبة، بل إذا اعترفَ به متَّنصلاً نادماً. وقد تقدَّم القول في التوبة في كتابها.

و(قولها: فلما قضى رسولُ الله ﷺ مقالتَه قَلَصَ دمعي حتي ما أحسُّ منه قطرةً) أي: انقبض وارتفع، وإنما كان ذلك؛ لأن الحزن والموجدة، قد انتهت نهايتها، وبلغت غايتَها، ومهما انتهى الأمر إلى ذلك جفَّ الدمع لفرط حرارة المصيبة، كما قال الشاعر:

عَيْنَيَّ سُحَّا ولا تَشُحَّا ... جَلَّ مُصابي عَنِ الدَّوَاءِ

إنَّ الأسَى وَالبُكَا جَميعا ... ضِدَّانَ كالدَّاءِ والدَّواءِ

فقلت لأبي: أجبْ عَنِّي رسولَ الله ﷺ فيما قال! فقال: والله ما أدري ما أقولُ لرسولِ الله ﷺ! فقلت لأمِّي: أجيبي عَني رسولَ الله ﷺ! فقالت: والله ما أدري ما أقولُ لرسولِ الله ﷺ! ـ ،أنا جاريةٌ حديثةُ السنِّ، لا أقرأ كثيراً من القرآن ـ: إنِّي والله! لَقَدْ عَرفْتُ أنَّكُم قَدْ سَمعْتُم بهذا حتى استقرّ في نُفُوسِكُمْ وصَدَّقْتُم به، فإنْ قلتُ لَكُم إنِّي بريئةٌ ـ والله يعلمُ أنِّي بريئةٌ لاتُصدقُونَني بذلك، لئن اعترفت لكم بأمره والله يعلم أني بريئة، وإني والله! ما أجدُ لي ولكُم مَثَلاً إلاَّ كَمَا قالَ أبُو يوسُف: ﴿فَصَبرٌ جَمِيلٌ والله اَلْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾، قالتْ: ثم تحوّلتُ، فأَطجعت على فراشي. قالتْ: وأنا والله حينئذٍ أعلمُ أني بريئةٌ، وأن الله مبرِّئي ببَراءتِي، ولكنْ والله ما كُنْتُ أظنُّ أن يُنْزلَ في شَأْني وَحْيٌ يُتْلى. ولَشَأني كان أحقرَ في نَفْسِي مِن أَنْ يتكلم اللهُ عزّ وجلَّ فيَّ بأمرٍ يُتْلى، ولكنِّي كُنْتُ أرْجُو أنْ يَرَى رَسُولُ

و(قولها: ولشأني كان في نفسي أحقر من أن يتكلم اللهُ فيَّ بأمر يُتلى) دليلٌ على: أن الذين يتعيَّن على أهل الفصل، والعلم، والعبادة، والمنزلة: احتقار أنفسهم، وترك الالتفات إلي أعمالهم، ولا إلى أحوالهم، وتجريد النظر إلى لطف الله، ومنَّته، وعفوه، ورحمته، وكرمه، ومغفرته. وقد اغتَّر كثيرٌ من الجهّال بالأعمال فلاحظوا أنفسَهم بعين استحقاق الكرامات، وإجابة الدَّعوات، وزعموا أنَّهم ممن يُتبرَّك بلقائهم، ويُغتنم صالحُ دعائهم، وأنهم يجب احترامُهم وتعظيمُهم، فيُتمسَّح بأثوابهم، وتُقَبَّل أيديهم، ويرون أنَّ لهم من المكانة عند الله بحيثُ ينتقم لهم ممن تنقَّصَهم في الحال، وأن يُؤخَذَ من أساء الأدب عليهم من غير أمهال، وهذه كلُّها نتائجُ الجهل العميم، والعقل غير المستقيم؛ فإن ذلك إنما يصدرُ من جاهلٍ مُعْجَب بنفسه، غافل عن جُرْمه وذنبه، مُغَترٍّ بإمهال الله ـ عز وجل ـ له عن أخذه، ولقد غلب أمثالُ هؤلاء الأندال في هذه الأزمان فاستتبعوا العوامّ، وعظمت بسببهم على أهل الدِّين المصائبُ والطوامّ، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وهذه نفثاتُ مصدور، وإلى الله عاقبة الأمور.

الله ﷺ في النَّوم رُؤيَا يُبَرِّئني اللهُ بها. قالتْ: فوالله! ما رَام رسولُ الله ﷺ مَجلسَهُ، ولا خَرَجَ من أهْل البيت أحدٌ؛ حتى أَنْزَل اللهُ عزَّ وجلّ على نبيِّه ﷺ، فأَخَذَهُ ما كانَ يأْخُذُهُ من البُرحَاء عند الوحي، حتى إنَّه ليتَحدَّر منه مثلُ الجُمَان من العَرق في اليوم الشَّاتي، من ثقَل القول الذي أُنزلَ عَلَيْه. قالَتْ: فلَمَّا سُرِّي عن رسول الله ﷺ وهو يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّل كلمةٍ تكلَّم بها أنْ قال: «أبشري! يا عائشة! أمَّا الله فقد برأك»، فقالتْ لي أمِّي: قومي إليه! فقلتُ: ولله لا أقوم إليه! ولا أحْمَدُ إلا اللَّهَ هو الذي أنزل بَراءَتي! قالتْ: فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ فأنزل الله عز وجلّ هؤلاء الآيات بَراءتي. قالتْ: فقال أبو بكر ـ وكان يُنفق على مسْطح لِقرابَته منه وفَقْره ـ: والله! لا أُنْفقُ عليْه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة. فأنزل الله عز وجل: ﴿**وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى**﴾ إلى قوله: ﴿**أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ**﴾.

و(قولها: فما رام رسولُ الله ﷺ مجلسَه) أي: ما برحه، ولا قام عنه. يقال: رامه يريمه ريماً؛ أي: برحه ولازمه، ويقال: رمت فلاناً، ورمت من عند فلان. قال الأعشى:

أبانا فَلاَ رِمْتَ مِنْ عِنْدِنا ... فَإِنَّا بِخَيْرٍ إِذا لَمْ تَرِمْ

وأما رام: بمعنى: طلب. فيقال منه: رام يروم روماً. والبرحاء على فعلاء: شدة الحمى وغيرها، وهو البَرَح أيضاً. يقال: لقيتُ منه بَرَحاً بارحاً، ولقيت منه البُرحين والبِرحين ـ بضم الباء وكسرها ـ أي: الشدائد، والدواهي. وسُرِّي عن رسول الله ﷺ أي: انكشف ما كان به، وزال عنه، وهو بالتشديد مبني لما لم يُسَمَّ فاعلُه.

و(قوله تعالى: ﴿**وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ...**﴾[1] أي: لا

---

(1) سورة النور الآية 22

قال عبد الله بن المبارك: هذه أَرْجَى آيةٍ في كتاب اللَّه ـ فقال أبو بكر: والله ! إنِّي لأُحِبُّ أنْ يَغْفِر الله لي، فرَجَع إلى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ التي كان ينفق عليه، وقال: لا أنْزِعُها منه أبداً.

قالتْ عائشة: وكان رسولُ الله ﷺ سَأل زينب بنت جحش زَوْجَ النَّبيِّ ﷺ عن أمْرِي: «مَا عَلِمْتِ؟ ـ أو: ما رأيتِ ـ؟»، فقالتْ: يا رسولَ الله! أَحمِي سَمْعِي وبَصَرِي. واللَّه! ما علمتُ إلا خيراً. قالتْ عائشة: وهي التي كانَت تُساميني من أزواج النبي ﷺ فعَصَمَها الله بالورع، وطَفِقَت أُختُها حَمْنَة بنتُ جَحشٍ تُحاربَ لَها، فهَلَكتْ فيمن هَلَك.

قال الزُّهري: فهذا ما انتهى إلينا.

يحلف. يقال: آلى يؤلي، وائتلى يأتلي: بمعنى واحد، والفضلُ هنا: المال والسَّعة في العيش والرزق.

و(قولها: تساميني) أي: تعاندني، وتضاهيني في الجمال والمكانه عند رسول الله ﷺ، من السمو، وهو الارتفاع.

و(قول زينب: أحمي سمعي وبصري) أي: أمنعهما من عقوبة الله تعالى بالكفّ عن قول: سمعت، أو رأيت. أي: لم أرَ ولم أسمع، وما علمتُ إلا خيراً، فعصمها اللَّهُ مَنَ الهلاك بما رَزَقَها من التثبُّت، والدِّين، والورع، مع أنها كانت تُناصبها، وتنافسها في المرتبة، فكان كما قال من لا يجوزُ عليه الخطأ ولا الكذب: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ** ﴾ (1).

و(قولها: وطفقتْ أختُها حمنة بنت جحش تحاربُ لها، فهلكت فيمن هلك) أي: حُدَّت جدَّ القذف فيمن حُدَّ.

---

(1) سورة الطلاق الآيات 2 ـ 3

زاد في رواية: قال عروة: كانتْ عائشةُ تكرَهُ أن يُسبَّ حَسَّانُ عندها وتقولُ: إنه قال:

فَـإِنَّ أبِي وَوَالِـدَهُ وعِـرْضِـي لِعـرْضِ مُـحَـمَّـدٍ مِنْكُم وِقَـادُ

وفي أخرى: قالتْ: لما ذُكِرَ مَن شأني الذي ذُكِرَ، وما عَلِمْتُ به، قام رسولُ الله ﷺ خطيباً فَتَشهَّدَ، فَحَمد الله وأثنى عليه بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثمّ قال: «أَمَّا بَعْدُ: أشيروا عليَّ في أُنَاس أَبَنُوا أَهْلِي، وايم الله! ما عَلِمت عَلى أَهْلِي من سوءٍ قَطُّ، وأَبنُوهُم. بَمَنْ، والله! مَا علمتُ عليه من سوءٍ قطُّ، ولا دَخل بيتي قَطُّ إلاَّ وأنا حاضِرٌ ولا غِبْتُ في سَفَرٍ إلاَّ غابَ مَعِي». وساقَ الحديثَ بقصته. وفيه: ولقَدْ دخل رسولُ الله ﷺ بَيْتي فسأل جاريتي، فقالتْ: والله!

و(قوله: أسقطوا لها به) كذا عند الجلودي. أي: كلّموها بسقط من القول. يقال: أسقط الرجل: إذا قال كلاماً رديئاً سقط فيه. وعلى هذا فيكون الضمير في (به) عائداً على القول. أي: أسقطوا لها بالقول. وقيل معناه: صرَّحوا لها بالفحش، ولذلك لما سمعته بريرة أعظمتْ ذلك، وأنكرته، وقالت: سُبحان الله! والله ما علمتُ عليها إلا ما يعلم الصائغُ على تِبْر الذهب الأحمر. وقد وقعتْ هذه الكلمة التي هي: سبحان الله، في هذا الحديث على نحو ما جاءت في قوله: ﴿**سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ**﴾ [1] والمقصودُ بذكرها في هذه المواضع إعظامُ نسبة السوء إلى عائشة ـ رضي الله عنها ـ وتحقيق براءتها، وكأن المتكلِّمَ بها يريدُ أن يقول: التنزيه والبراءة لله من أن يجريَ ذلك على مثل عائشة، وأن يوقعَه في الوجود، والله تعالى أعلم.

و(قوله: «أشيروا عليَّ في أناسٍ أَبَنُوا أهلي») أي: اتَّهموهم، وقذفوهم بالفاحشة، ويقال: رجل مأبون: أي: معروفٌ بخَلَّة من السوء؛ أي: مُتَّهم. ويقال: أَبَنَه ـ بالفتح ـ في الماضي، يأبِنَه ـ بالضم والكسر ـ في المضارع.

---

(1) سورة النور الآية 16

ما علمتُ عَلَيها عيْباً، إلاَّ أنها كانت ترقدُ حتى تدخل الشاةُ فتأكلَ عَجينَها ـ أو قالتْ: خَميرها ـ فانتهَرَها بعضُ أصحابه، فقال: أصدُقي رسولَ الله ﷺ! حتى أسقطوا لها به. فقالتْ: سُبحانَ الله! والله ما عَلِمْتُ عَلَيْهَا إلاَّ ما يعلمُ الصائغ على تِبْر الذَّهب الأحمر! وقد بلغَ الأمر ذلك الرجلَ الذي قيل له. فقالَ: سبحانَ الله! والله! ما كشفتُ عن كَنَف أُنْثى قَطُّ! قالت عائشةُ: وقُتِلَ شهيداً في سبيل الله. وكان الذين تكلَّموا به: مِسْطَحٌ، وحمنَةُ، وحسَّانُ، وأمَّا المنافق عبدُ الله بنُ أُبيَّ فهُوَ الذي كان يَسْتَوشيه، ويجمعهُ، وهو الذي تولى كِبره، وحمنةُ.

و(قول صفوان ـ رضي الله عنه ـ: واللَّه ما كشفتُ عن كنف أنثى قطّ) هو بفتح النون، وهو الثوبُ هنا، وأصله السَّاتر، وهو كنايةٌ عن الجِماع. أقسم أنه ما جامع امرأةً قط. وكأنه لم يكنْ له أربٌ في النساء، والله تعالى أعلم.

و(قوله: وكان الذين تكلَّموا به: مسطح وحَمْنَة، وحسان)، وقد ذكرنا الخلافَ في حسان في باب فضائله، هل صرَّح بالقذف أم لا؟ وهل حُدَّ أم لا؟ والصحيح: أنه حُدَّ بما رواه أبو داود عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: لما نزل عُذري قام النبيُّ ﷺ فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل أَمَر بالرجلين والمرأة فضُربوا حدَّهم وسمَّاهم: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحَمْنَةُ بنت جحش. وفي كتاب الطحاوي: ثمانين ثمانين. وأما حمنة ومسطح، فحُدَّا، ولم يُسْمَعْ بحدٍّ لعبد الله بن أبيٍّ، والظاهر من الأخبار والأحاديث: أنه لم يُحدَّ. وإنما لم يُحَدَّ عدو الله؛ لأن اللَّه قد أعدَّ له في الآخرة عذاباً عظيماً؛ لكان نقصاً من عذابه في الأخرى، وتخفيفاً عنه، وقد أشار اللهُ تعالى إلى هذا بقوله: ﴿ **وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [1]. مع أنَّ اللهُ تعالى قد شهد ببراءة عائشة ـ رضي الله عنها ـ وبكذب كلِّ مَن رماها، فقد

---

(1) سورة النور الآية 11

حصلت فائدةُ الحدِّ؛ إذ مقصودُه إظهارُ كذب القاذف وبراءة المقذوف، كما قال تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللهِ هُمُ الكَذِبُونَ﴾[1]. وإنما حُدَّ هؤلاء المسلمون ليكفِّرعنهم إثمُ ما صدر عنهم من القذف، حتى لا يبقى عليهم تبعةٌ من ذلك في الآخرة. وقد قال النبي ﷺ في الحدود إنها كفارة لمن أقيمت عليه كما تقدم في حديث عبادة بن الصامت. ويحتمل أن يقال: إنما ترك حدَّ ابن أبيٍّ استئلافاً لقومه، واحتراماً لابنه، وإطفاءً لثائرة الفتنة المتوقَّعة من ذلك، وقد كانت ظهرت مباديها من سعد بن عبادة، ومن قومه كما تقدَّم. ومعنى يستوشيه: يطلبه، ويبحث عنه، ويشنِّعه. يقال: فلان يستوشي فرسه: يعقبه؛ أي: يطلب ما عنده من الجري، ويستخرجه.

وحديث الإفك هذا فيه أحكامٌ كثيرة، لو تُتُبِّعتْ لطال الأمر وأفضى إلى الملال، ومَن تفقَّدها من أهل الفطنة وجدها.

ووقعتْ هذه القضية في غزوة المريسيع، وهو ما في ناحية قديد مما يلي الساحل. أغار النبيُّ ﷺ على بني المصطلق وهم غارُّون؛ أي: غافلون، وأنعامهم تُسقى على الماء، فقتل المقاتلةَ، وأسر. وكانت هذه الغزوةُ في شعبان سنة ست من الهجرة. هذا أشهرُ الأقوال عند أهل السِّير. وعلى هذا ينشأ بحثٌ يلزمُ منه وَهْمُ بعضِ النقلة؛ فإنه قد تقدَّم في هذا الحديث أنَّ سعدَ بن معاذ هو الذي راجَعَ سعدَ بن عُبادة حتى سَرَى أمرُهما، ولم يختلفْ أحدٌ من الرواة في أنَّ سعدَ بن معاذٍ ـ رضي الله عنه ـ مات في منصرف رسول الله ﷺ من بني قريظة، بعد أن حَكَم بحكم الله، وذلك سنة أربع، ولم يدرك فزوة المريسيم. هذا قولُ أهلِ النَّقْل.

قال الشيخ رحمه الله: فعلى هذا يكونُ ذكرُ سعد بن معاذ في هذا الحديث وهماً وغلطا، وكذلك قال أبو عمر بن عبد البر. قال: وإنما تَراجَعَ في ذلك سعد بن عبادة وأسيد بن حضير، وكذلك ذَكَر ابنُ إسحاق عن الزهري عن عبيد الله بن عبد

(1) سورة النور الآية 13

وعن جابر، أنَّ جاريةً لعبد الله بن أُبيّ يقال لها: مُسَيْكَةٌ، وأُخرى يقالُ لها: أُميمَةُ، فكان يريدهما على الزِّنى، فشَكَتا ذلك إلى النَّبيِّ ﷺ. فأنزل الله: ﴿وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَـتِكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

* * *

الله، وهو الصَّحيح. قال القاضي أبو الفضل: قال ابنُ عقبة: إن غزوة المريسيع كانت سنة أربع في سنة غروة الخندق، وقد ذكر البخاريُّ اختلافَ ابنِ إسحاق وابن عقبة في ذلك. قال: وقد وجدتُ الطبريَّ ذَكَر ذلك عن الواقدي: أنَّ المريسيعَ سنة خمس، قال: وكانت الخندقُ وقريظةُ بعدها. قال: ووجدتُ القاضي إسماعيل قال: اختلفوا في ذلك، والأولى: أن تكونَ المريسيعُ قبلها.

قال الشيخ رحمه الله: فعلى هذا يستقيمُ ما رواه مسلم والبخاري من ذِكْر سعد بن معاذ، ولا يكون ذكرُه وهماً، والله تعالى أعلم.

و(قول جابر: إن عبد الله بن أبي كانت له جاريتان: مسيكة وأميمة)، يريدُهما على الزنى. رَوَى غيرُه: أنهم كن ستّاً. قال: معاذة، ومسيكة، وأروى، وقتيلة، وعمرة، ونبيهة، فكان يحملهن على الزنى، ويأخذُ منهن أجورهُنَّ. والفتيات: جمع فتاة، والفتيان: جمع فتى. وهم المماليكُ. والبِغاء: الزنى.

و(قوله: ﴿إِنَ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾ [1] أي: عفافاً، ولا دليلَ خطاب لهذا الشرط، ولا يجوزُ إكراههن عليه بوجه، سواء أردن تحصُّناً، أم لا يُردْن، وإنما علَّق النهي على الإكراه على إرادة التحصُّن لأنَّ الإكراه لا يُتصوَّر إلاَّ مع ذلك، فأما إذا رغبتْ في الزنى فلا إكراهَ يُتصوَّر.

و(قوله: ﴿وَمَن يُكْرِههُنَّ فَإِنَّ الله مِنْ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [2] لمن تاب من ذلك. وكان الحسنُ يقول: غفورٌ لهن والله، لا لمكرههن، مستدلاً على ذلك بإضافة الإكراه إليهن.

---

(1) سورة النور الآية 33

(2) سورة النور الآية 33

ومن سورة الفرقان

عن ابن عباسٍ، قال: نزلتْ هذه الآية بمكة: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ﴾، إلى قوله: ﴿مُهاناً﴾ فقال المشركون: وما يُغْنِي عَنَا الإسلامُ

ومن سورة الفرقان

(قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ...﴾ الآيتين[1]. هذه الآيةُ معطوفةٌ على ما قبلها من الأوصاف التي وصف بها عباد الرحمن، وهو من باب عطف الصِّفات بعضها على بعض، وكذلك ما بعد هذه الآية من الآيات معطوفٌ بعضها على بعض، والكلُّ معطوفٌ على قوله: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾ إلى أن قال: ﴿أُولَـٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا...﴾ إلى قوله: ﴿وَمُقَاماً﴾[2]. وهذه الجملةُ هي خبرُ المبتدأ الذي هو: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ﴾[3] وما بين المبتدأ والخبر أوصافٌ لهم، وما تعلَّق بها. وقد تضمنت هذه الآيةُ مدحَ مَن لم تقعْ منه هذه الفراحشُ الثلاث؛ التي هي: الشِّرك بالله، والقتل العدوان، والزنى، وذمّ من وقعتْ منه، ومضاعفة العذاب عليه، وهي محمولةٌ على ظاهرها عند الجمهور، وعليه فيكون معنى قوله: ﴿إِلا بِالْحَقِّ﴾ أي: بأمر موجب للقتل شرعاً، وذلك الأمرُ هو المذكورُ في قوله ﷺ: «ولا يحلُّ دمُ امرىءٍ مسلم إلا بأحدى ثلاث: زنى بعد إحصان، أو كفر بعد إيمان، أو قتل نفس بغير نفس». وقد صَرَف هذه الآية عن ظاهرها بعضُ أهلِ المعاني فقال: لا يليقُ بمن أضافهم الرحمنُ إليه إضافةَ الاختصاص، ووصفهم بما ذكرهم من صفاتِ المعرفة والتشريف، وقوع هذه الأمور القبيحة منهم حتى يُمْدَحُو بنفيها؛ لأنَّهم أعلى

---

(1) سورة الفرقان الآيات 68-69

(2) سورة الفرقان الآيات 75-76

(3) سورة الفرقان الآية 63

وقد عَدَلْنَا بالله، وقَتلنا النفسَ التي حرَّم اللهُ، وأَتَيْنا الفواحشَ فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَلِحاً... ﴾ إلى آخر الآية.

قال: فأمَّا مَن دَخَلَ في الإسلام وعَقَلَهُ، ثم قَتَلَ، فلا توبة له.

* * *

وأشرف. فقال: معناها: لا يدعون الهوى إلهاً، ولا يذلُّون أنفسهم بالمعاصي فيكون قَتْلاً لها. ومعنى: ﴿إلا بالحق﴾ أي: إلا بسكين الصبر، وسيبف المجاهدة، ولا ينظرون إلى نساء ليست لهم بمحرم بشهوة، فيكون سِفاحاً، بل: بالضَّرورة، فيكون كالنِّكاح مُباحاً.

قال الشيخ رحمه الله: وهذا كلامٌ رائق، غير أنَّه عند السَّبر مائق، وهي نبعة باطنية، ونزعةٌ باطليّة، وإنما يصحُّ تشريفُ عبادِ الرَّحمن باختصاص الإضافة بعدَ أن تحلوا بتلك الصِّفات الحميدة، وتخلوا عن نقائض ذلك من الأوصاف الذَّميمة، قبدأ في صَدْر هذه الآيان بصفات التحلِّي تشريفاً لها، ثم أعقبها بصفات التخلِّي تقعيداً لها. والله تعالى أعلم. وقد تقدَّم القولُ على: ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ﴾ وعلى قول ابن عباس في سورة النساء. وفي هذه الآية دليلٌ على: أنَّ الكفار مُخاطَبُون بالفروع. وقد استوفينا ذلك في الأصول، وفي الآية مباحثُ تطول.

* * *

ومن سورة الشعراء

عن أبي هريرة، قال: لَمَّا نَزَلَتْ هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فاجْتَمعُوا، فعمَّ وخصّ، فقال: «يا بني كعْب بنِ لُؤيّ! أنقذُوا أنفسكم من النَّار! يا بني مُرّةَ بن كَعْب! أنقذُوا أنفسكم من النار! يا بني عَبْدِ شمسٍ! أنقذوا أنفسَكم من النار! يا بني هاشم! أنقذوا أنفسَكم من النار! يا بني عبد المطلب! أنقذُوا أنفسكم من النار! يا فاطمةُ! أنقذي نفسك من النار! فإني لا أملكُ لكم من الله شيئاً، غير أنّ لَكُم رَحِماً سَأَبُلُّها ببلالها».

ومن سورة الشعراء

(قوله: «فإني لا أملكُ لكم من الله شيئاً») أي: لا أقدرُ على دَفْع عذابه عن أحد، ولا على جَلْب ثوابِ لأحد، أي: فلا ينفعُ القربُ في الأنساب مع العبد في الأسباب.

و(قوله: «غير أن لكم رحماً سأبلُّها ببلالها») أي: سأبلُّها الصلة التي تليقُ بها، فَصِلَةُ المؤمن: إكرامُه، ومَبَرَّته. وصلةُ الكافر: إرشادُه ونصيحتُه، وقد تقدَّم القولُ في تفصيل صلة الأرحام.

(وقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[1] «ورهطك منهم المخلصين») ظاهر هذا: أنَّ هذا كان قرآناً يُتلى، وأنه نُسِخ؛ إذ لم يثبت نقلُه في المصحف، ولا تواتر، ويلزم على ثبوته إشكال، وهو أنَّه كان يلزمُ عليه ألا ينذرَ إلا مَن آمنَ من عشيرته؛ فإنَّ المؤمنين هم الذين يُوصَفُون بالإخلاص في دِينْ الإسلام، وفي حُبِّ النبيِّ ﷺ لا المشركون لأنهم ليسوا على شيءٍ من ذلك، والنبيُّ ﷺ دعا عشيرته كلَّهم ـ مؤمنهم وكافرهم ـ وأنذر جميعهم، فلم يثبتْ ذلك نقلاً ولا معنىً، فالحمد لله الذي رَفَع عنا الإسكالَ والعناء. وسفح الجبل: جانبه، وهو بالسين.

---

(1) سورة الشعراء الآية 214

وعن عائشة، قالت: لما نزلتْ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قامَ رسولُ الله ﷺ على الصَّفا فقال: «يا فاطمةُ بنتَ محمد! يا صفيّةُ بنتَ عبد المطلب! يا بني عبد المطلب لا أملكُ لَكُم من الله شيئاً، سَلُوني مَنْ مَالِي مَا شِئْتُم».

وعن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ورَهْطَكَ منهم المخْلَصين. خرج رسولُ الله ﷺ حتى صَعِدَ الصَفَّا، فهَتَفَ: يَاصَبَاحَاه!» فقالوا: مَنْ هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. فاجتمعوا إليه. فقال: «يا بَني فلانٍ! يا بني فلانٍ! يابني فلانٍ! يا بني عَبْدِ مناف! يا بني عبد المطلب!»، فاجتمعُوا إليه فقال: «أَرأَيتكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ بِسَفْح هذا الجَبَلِ أكنتُم مُصَدِّقيَّ؟»، قالوا: ما جرَّبْنَا عليك كَذباً. قال: «فإني نَذيرٌ لُكمْ بَيْنَ يَدي عذابٍ شديد».

قال: فقال أبو لهب: تبّاً لك! أمَا جَمَعْتَنا إلاَّ لِهَذا؟ ثم قام. فنزلتْ هذه السورة. ﴿تَبَّت يَدَا أَبِي لَهَب وتَبَّ﴾، وقد تبَّ. هكذا قرأه الأعمش إلى آخر السورة.

* * *

و(قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾[1] أي: قد خسرت، والتَّباب: الخُسران، ونَسب التباب لليد، والمراد صاحب اليد؛ لأنَّ البدَ أصلٌ في الأعمال. ولهب: فيها لغتان؛ السكون في الهاء وفتحها. واسم أبي لهب: عبد العزَّى ولُقِّب بأبي لهب لإشراق وجنتيه؛ كأنهما كانتا تلتهبان ناراً.

---

(1) سورة المسد الآية 1

قال الشيخ رحمه الله: وأولى من ذلك كلِّه أنَّ اللهُ تعالى أجرى عليه هذا اللقبَ لعلمه بمآل أمره، وأنه من أهل النار، كما أجرى على أبي جهْل لقب الجهل، وسَلَبه أبا الحكم، وحُكي في قول مصيب: لكا أمرىء من اسمه نصيب، ألا يقتضي العجب من قوله ﴿ **سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ** ﴾[1].

و(قوله: ﴿ **وَتَبَّ** ﴾[2] معطوفٌ على الأوَّل، وكلاهما بمعنى الدعاء، وقيل: الأول: دعاء، والثاني: إخبار بإيجابة الدُّعاء فيه، ويُؤيِّده قراءةُ ابن مسعود، وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ: (وقد تب). وقيل: كلاهما خبر، فالأول: خسرت يداه مُرادَه من الرسول ﷺ؛ إذ كان مراده قتله، وإخفاء كلمته. وتبَّ: هو بما أصابه من العذاب، وقيل: تبَّ في نفسه، وتبّ في والده وكسبه؛ إذ لم يُغنيا عنه شيئاً، ولا جرَّ له نفعاً.

و(قوله: ﴿ **حَمَّالَةَ الْحَطَبِ** ﴾[3] الجمهورُ: على رفع حمالة على الصفة أو البدل، أو على أنه خبرُ ابتداءٍ محذوف، وقرأه عاصم بالنصب على الذَّمِّ، ويجوزُ أن يكون حالاً، وسُمّيت بذلك؛ لأنها كانت تُلْقي الشوكَ في طريق النَّبيِّ ﷺ لتؤذيه، قاله الضحَّاك. وقيل: لأنها كانت نقَّالةً للحديث نمَّامة. فكانت تشعلُ نارَ العداوة، كما تُشْعَلُ النارُ في الحطب. قال الشاعر:

إنَّ بَنِـي الأَدْرَمِ حَمَّالُـوا الحَطَـبْ هُمُ الوُشَاةُ فِي الرِّضَا وَفي الغَضَبْ

وقال قتادة: لأنَّ مصيرَها إلى النار كالحَطب. يُقال: فلان يحتطبُ على ظهره، أي: يجني على نفسه.

و(قوله: ﴿ **فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَسَدٍ** ﴾[4] الجيد: العُنُق، وجمعه: أجياد. والمسد ـ هنا ـ: الليف، وسُمِّي الليفُ مَسَداً لأنَّه يُمْسَدُ منه المسد، وهو: الحبل؛ أي: يُفْتَل. قال الشاعر:

---

(1) سورة المسد الآية 3
(2) سورة المسد الآية 2
(3) سورة المسد الآية 4
(4) سورة المسد الآية 5

ومن سورة : أَلَم السجدة

عن أبيٍّ بن كعب، في قوله: ﴿ **وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ قال: مصائبُ الدُّنيا، والرُّومُ، والبطشة، أو الدخان ـ شعبة الشاكُّ ـ رواه مسلم.

* * *

أضعُوذُ باللهِ مِنْ لَيْلٍ يُقَرِّبُني إلَى مَضاجِعِهِ كَالدَّلْوِ بالمَسَدِ

أي: الحبل المفتول، وأصلُ المسد: الفتل. يقال: دابة ممسودة. أي: شديدة الأسر، أي: يُجْعَلُ في عنقها حبل من نار مفتول، ولعلَّه السلسلة التي قال الله تعالى: ﴿ **فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً** ﴾ [1]، والله تعالى أعلم.

ومن سورة ألَم تنزيل السجدة والأحزاب

(قول الله تعالى: ﴿ **وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [2] فسَّرها أُبيٌّ بالأربعة التي ذكرَ، مصائب الدنيا: رزاياها من الأمراض والآلام، وذهاب الأموال والأهلين، ونحو ذلك. والروم: يعني بها قوله تعالى: ﴿ **الم * غُلِبَتِ الرُّومُ...** ﴾ [3]. والدخان يعني به قوله تعالى: ﴿ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ** ﴾ [4]. وقد تقدَّم الخلاف فيه. والبطشة الكبرى: هي ما أوقع الله تعالى بقريش يوم بدرٍ من الأسر والقتل، وقال مجاهد: الأدنى: عذاب القبر، والأكبر: عذاب الآخرة. وقال جعفر الصَّادق: الأدنى غلاء الأسعار، والأكبر خروج المهدي بالسيف. وقال أبو سليمان الدَّاراني: الأدنى: الهَوان، والأكبر: الخذلان.

---

(1) سورة الحاقة الآية 32

(2) سورة السجدة الآية 21

3) سورة الروم الآيات 1 ـ 2

(4) سورة الدخان الآية 10

ومن سورة الأحزاب

عن عائشة، في قوله تعالى : ﴿ **إِذْ جَاءُوكُم مِنْ فَوقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ** ﴾ قالت : كان ذلك يومَ الخندق .

* * *

و(قوله : ﴿ **لعلَّهم يرجعون** ﴾) أي : لكي يرجعوا عن غيِّهم . قاله الفرَّاء، وعلى مذهب سيبويه : ليصلوا إلى حال يُرجى لهم ذلك .

وقوله : ﴿ **إِذْ جَاءُوكُم مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ** ﴾[1] كان ذلك في غزوة الخندق الذي حفره المسلمون حولَ المدينة برأي سلمانَ، وتسمَّى غزوة الأحزاب؛ لأن الكفَّار تحزَّبوا أحزاباً وتجمَّعوا جموعاً حتى اجتمع في عددهم خمسة عشر ألفاً من أهل نجد وتهامة، ومن حولهم أو نحوهم، وحاصروا المسلمينَ في المدينة شهراً، ولم يكن بينهم قتال إلا الرمي بالنَّبْل والحَصى، ونقضتْ قريظةُ ما كان بينهم وبينَ رسول الله ﷺ من العهد، وحينئذ جاء المسلمين عدوُّهم من فوقهم ومن أسفلَ منهم . وزاغت الأبصارُ : يعني مالت عن سَنَن القصد فعلَ المرعوب . وقال قتادةُ : شخصت . وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ، أي : قاربت الخروج من الضِّيق والرَّوْع وشدَّة البلاء والجَهْد، وكان وقتَ بلاءٍ وتمحيص، ولذلك نجم في كثير من الناس النفاق، وظهرَ منهم الشقاق .

و(قوله : ﴿ **وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا** ﴾ [2] أي : تشكُون في الوعد بالنصر، يُخبر عن المنافقين . أو يكون معناه : أنهم خافوا من أن يُخذلوا في ذلك الوقت؛ فإنَّ وقتَ وقوع النصر الموعود غيرَ مُعيَّن . وهذا أحسنُ من الأول، ويُؤيِّده قوله تعالى : ﴿ **هَنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً** ﴾ [3] امتُحنوا بالصبر على الحصار وشدَّة الجوع، وزُلزلوا بالخوف من أن يخذلَهم الله في ذلك الوقت، ويديلُ عدوَّهم عليهم، كما فعلَ يومَ أُحد . وقد تقدَّم الخلاف في غزوة الخندق متى كانت .

---

1) سورة الأحزاب الآية 10

(2) سورة الأحزاب الآية 10

(3) سورة الأحزاب الآية 11

ومن سورة تنزيل

عن عبد الله بن مسْعود، قال: جاء رجلٌ من أهل الكتاب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم! إنَّ الله يُمْسِكُ السموات على إصْبَعٍ، والأرَضين على أصبعٍ، والشجرَ والثَّرى على أصبع.

ومن سورة تنزيل [1]

(قول اليهوديّ: إن الله يُمسكُ السموات على أُصبع... الحديث إلى آخره). هذا كلُّه قول اليهودي، لا قولَ النبي ﷺ، والغالب على اليهود أنهم يعتقدون الجسميّة، وأن اللهَ تعالى شخص ذو جوارح، كما تعتقده غلاة الحشويَّة في هذه الملَّة. وضحْكُ النبي ﷺ منه إنما هو تعجُّبٌ من جهله، ألا ترى أنه قرأ عند ذلك: ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ** ﴾[2] أي: ما عرفوه حقَّ معرفته، ولا عظَّموه حقَّ تعظيمه. وهذه الرواية هي الرواية الصحيحة المُحقَّقة. فأما رواية من زاد في هذا اللفظ (تصديقاً له) فليست بشيءٍ؛ لأنها من قول الراوي، وهي باطلة؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لا يُصدِّقُ الكاذبَ، ولا المحال، وهذه الأوصاف في حقِّ الله تعالى مُحال، بدليل ما قدَّمناه غيرَ مرَّة. وحاصلُه أنه لو كان تعالى ذايد وأصابع وجوارح على نحو ما هو المعروف عندنا لكان كواحدٍ منا، ويجبُ له من الافتقار والحدَث والنقص والعجز ما يجبُ لنا، وحينئذ تستحيل عليه الإلهيَّة، ولو جازت الإلهيّة لمن كان على هذه الأوصاف لجاز أن يكون كلُّ واحد منا إلهاً، ولصحَّت الإلهيَّة للدَّجَّال ولصدقَ في دعواه إياها، وكل ذلك كذبٌ ومُحال، والمفضي إليه كذبٌ ومحال، فقول اليهوديّ كذبٌ ومُحالٌ، ولذلك أنزلَ الله تعالى في الرد عليه: ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ** ﴾. وإنما تعجَّبَ النبيُّ ﷺ من جهله، فوَهِمَ الراوي وظنَّ أن ذلك التعجُّبَ تصديقٌ، وليس كذلك، فإن قيل: فقد صَحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن قلوبَ بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن»،

---

(1) هي سورة الزمر.

(2) سورة الزمر الآية 67

فقد أخبر بأن له أصابع. فالجواب: أنه إذا جاءنا مثل هذا في كلام الصَّادق تأوَّلْناه، أو توقَّفْنا فيه إلى أن يتبيَّن وجهُه، مع القطع باستحالة ظاهره، لضرورة صدق من دلَّت المعجزة على صدقه. فأما إذا جاءَنا مثل هذا على لسان من يجوز عليه الكذب، بل: من أخبرنا الصَّادق عن نوعه بالكذب والتحريف كذَّبناه، وقلَّحناه. ثم لو سلَّمنا أن النبيَّ ﷺ صدَّقه، وقال له: صَدَقْتَ لما كان تصديقاً له في المعنى، بل: في النقل، أي في نقل ذلك عن كتابه أو عن نبيِّه، وحينئذ نقطعُ بإن ظاهرَه غير مراد. ثم هل نتوقَّفُ في تَعيين تأويلٍ ونسلِّم، أو نُبدي تأويلاً له وجه في اللِّسان وصحة في العقل على الرأيين اللذين لأئمتنا وقد تقدَّما. وقد قلنا: إن الأصبع يصحُّ أن يرادَ به القدرة على الشيء ويساره تقليبه، كما يقولُ من استسْهلَ شيئاً واستخفَّه مخاطباً لمن استثقَلَه: أنا أحملُه على أصبعي أو أرفعه بأصبعي وأمسكه بخنصري. وكما يقول من طاعَ بحمل شيء: أنا أحملُه على عيني وأرفُعه على رأسي. يعني به: الطواعية. وما أشبه ذلك مما في معناه، وهو كثير، ولما كان ذلك معروفاً عند العقلاء، متداولاً بينهم، خُوطبوا بذلك جرياً على منهاجهم، وتوسُّعاً معلوماً عندهم. وعلى هذا فيمكن حملُ الحديث وما في معناه على نحو من هذا. وبيان ذلك: أنَّ السموات والأرض، وهذه الموجودات عظيمة أقدارها في ادراكنا، وكبيرٌ خلقها في حقِّنا، فقد يسبقُ الوهم الغالب على الإنسان. أن خلقَها وإمساكَها على الله تعالى كبير، وتكلُّفها عسيرٌ، فنفى النبيُّ ﷺ هذا الوهم بهذا الحديث، وبيَّنه على طريق التمثيل بما تعارفناه، فكأنَّه قال: خَلَقَ بيده المذكورات العظيمة، وإمساكُها في قدرة الله تعالى كالشيء الحقير الذي تجعلونه بين أصابعكم، وتهزُّونه بين أيديكم، وتتصرفون فيه كيف شئتم، ولهذا أشارَ بقوله: «ثم يقبضُ أصابعَه ويبسطَها»، وبقوله: «ثم يهزُّهنَّ» أي: هن في قدرته كالحبَّة مثلاً في حقِّ أحدنا؛ أي: لا يُبالي بإمساكها، ولا بهزِّها، ولا تحريكها، ولا القبض والبسط عليها، ولا يجدُ في ذلك صعوبةً، ولا مشقَّةً، ومن لا يُقنعه هذا التفهيم، فليس له إلا سلامةُ التسليم، والله بحقائق الأمور عليم.

وفي رواية: «ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ، ثم يقول: أنا المَلِكُ! أنا المَلِكُ»، قال: فرأيت رسول الله ﷺ يضحك حتى بدت نواجذه.

وفي أخرى: تصديقاً له وتعجباً لما قال، ثم قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾».

و(قوله تعالى: «أنا المَلِكُ») أي: الحقيق بالمُلْك والمَلْك؛ إذ لو اجتمع ملوكُ الدنيا من أولها إلى آخرها، وجميع المخلوقات لما استطاعوا على إمساك مقدار ذرَّة من الأرضين، ولا من السموات، وهذا معنى قوله: أنا المَلِكُ في حديث اليهوديّ. فأما قوله: «أنا المَلِكُ» في حديث ابن عمر، فمقصوده إظهار انفراده تعالى بالملك عند انقطاع دعاوى المُدَّعين، وانتساب المنتسبين، إذ قد ذهبَ كلُّ مَلِكٍ ومُلْكَه، وكلُّ جبار ومُتكبِّر وملكَه، وانقطعت نسَبُهم، ودعاويهم، وهو نحو قوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[1]. والإمساك المذكور في حديث اليهوديّ خلاف الطَّيِّ والقبض الذي في حديث ابن عمر؛ فإن ذلك الإمساك هو استدامةُ وجود السموات والأرض إلى يوم يطويها ويقبضها ويُبَدِّلُها، كما قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾[2]. وقد بيَّنَّا القبض والطيَّ في الأنعام.

و(قوله في حديث ابن عمر: «ثم يطوي الأرضَ بشماله») كذا جاء في هذه الرواية بإطلاق لفظ الشمال على يد الله تعالى، ولا يكادُ يوجد في غير هذه الرواية، وإنما الذي اشتهر في الأحاديث: «وبيده الأخرى» كما جاء في حديث أبي موسى الأشعري المتقدم، وقد تحرَّز النبيُّ ﷺ من إطلاق لفظ الشمال على الله تعالى فقال: «وكِلتا يديْه يمينٌ»، لئلا يُتَوهَم نقص في صفة الله تعالى، فإن الشمال في حقنا

---

(1) سورة غافر الآية 16
(2) سورة فاطر الآية 41

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقبضُ الله الأرضَ يوم القيامة، ويَطْوي السَّماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملكُ! أين ملوكُ الأرض؟».

وعن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله السموات يوم القيامة. ثم يأخُذُهُنَّ بيده اليُمْنَى! ثم يقول: أنا الملك! أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول: أنا الملكُ! أينَ الجبارونَ؟ أين المتكبرون؟».

وعن عبد الله بن مِقْسَم: أنَّه نظر إلى عبد الله بن عمر كيف يحكي رسولَ الله ﷺ قال: «يأخذ الله سمواته وأراضيه بيديه، فيقول: أنا اللهُ! - ويقبضُ أصابعَهُ ويَبْسُطُها - أنا الملكُ!»، حتى نظرتُ إلى المنبر يتحركُ من أسفل شيءٍ منه حتى إنِّي لأقول: أساقطٌ هو برسولِ الله ﷺ؟.

* * *

أضعف من السمين وأنقص، كما تقدَّم، فنفى النبيُّ ﷺ عن الله ذلك، لكنه جاء في هذا الحديث كما ترى على المقابلة المتعارفة في حقوقنا، والله تعالى أعلم.

و(قوله: «ويقبض أصابعَه ويبسطُها») ظاهرُه: أنه خبر عن الله تعالى، ووجهُه ما ذكرناه، وقال بعضُ علمائنا: هو خبر عمل فعلَه النبيُّ ﷺ فإنه قبضَ أصابعَه وبسطهَا، فيخفُّ الإشكال، ويكون ذلك إشارة بالحواسِّ إلى المعاني، والله تعالى أعلم.

و(قوله في المنبر: أنه تحرَّك من أسفل شيءٍ منه) أي: أنه تحرك من أسفله إلى أعلاه، أو تحرَّكَ الأسفلُ بتحريك الأعلى. وظاهرُ حركة المنبر أنها: إنما كانت لحركة رسول الله ﷺ، ويحتملُ أن تكونَ حركة المنبر مُساعدةً لحركة النبيِّ ﷺ كرامةً وزيادةً في دلالة صدقه، كحنين الجِذْع، وتسبيح الحصى وما أشبه ذلك.

* * *

ومن سورة حَم السجدة

عن ابنِ مسعودٍ، قال: اجتَمَعَ عند البيتِ ثلاثةُ نَفَرٍ: قُرشيَّان، وثَقفيٌّ. ـ أو: ثَقفيّان، وقُرَشِيٌّ ـ قليلٌ فِقْهُ قلوبهم، كثيرٌ شَحْمُ بُطُونهمْ. فقال أحَدُهُم: أترونَ اللهَ يَسْمَعُ ما نقولُ؟ وقال الآخرُ: يسمعُ إن جَهَرْنا، ولا يسمعْ إن أَخفيْنا. وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا، فهو يسمع إذا أخفينا. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَٰرُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ﴾

* * *

ومن سورة حم السجدة

(قوله: قليلٌ فقهُ قلوبهم) أي: فقههم قليل، أو معدوم. وكثير شحم بطونهم: أي: هم سمان، إذ ليس لهم هَمٌّ في عبادة، ولا حظٌّ من صوم، ولا مُجاهدةٌ. وإنما همُّهم أن يأكلوا أكلَ الأنعام، من غير مبالاة باكتساب الآثام. وفيه تنبيهٌ على سبب قلّة فهمهم، فإن البِطْنةَ تُذهبُ بالفطنة.

و(قوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَٰرُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ﴾ [1] أي: ما كنتم تتقون شهادة تلك الجوارح، فتستتروا عنها بالامتناع عن المعاصي، قاله مجاهد. قال قتادة: وما كنتم تظنون ذلك.

و(قوله: ﴿وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [2] أي: شككتم في ذلك لجهلكم.

و(قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ [3] أي: وذلك ظنكم الواقع بكم اللازم لكم، فهي جملة ابتداءية، وأرداكم: خبر ثانٍ، قاله الزجّاج، وقال

---

(1) سورة فصلت الآية 22
(2) سورة فصلت الآية 22
(3) سورة فصلت الآية 23

ومن سورة الدخان

عن مسروقٍ، قال: جاء إلى عبد الله رجلٌ فقال: تَركتُ في المسجد رجلاً يُفَسِّر القرآن برأيه، يفسِّر هذه الآية: ﴿ **يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ** ﴾. قال: يأتي الناسَ يومَ القيامة دُخانٌ فيأخذُ بأنفاسهم حتى يأخذَهُم منه كهيئة الزُّكام. فقال عبد الله: مَنْ علم علماً فَلْيَقُلْ به. ومَنْ لم يعلمْ فليقلْ: اللهُ أعلمُ. فإن من فقْه الرَّجُل أن يقول لِمَا لا علْمَ له به: اللهُ أَعْلَمُ. إنَّما كان هذا: أن قُريشاً لما اسْتَعْصَتْ على النَّبيِّ ﷺ دَعَا عليهم بسنينَ كسنِّي

غيره: حال" أي: قد أرادكم؛ أي أهلككم. مقاتل: أغواكم وقيل: هو خبر المبتدأ الأوَّل، وظنكم بيان ذلك.

و(قوله: ﴿ **فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الخَاسِرِين** ﴾)، أي: صرتم خاسرين في صفقتكم، مغبونين في بيعكم.

* * *

ومن سورة الدخان

قد تقدَّم ذكر من خالفَ ابن مسعود في تفسيره للدُّخان المذكور في هذه الآية فيما تقدَّم، وما أنكره يُروى فيه حديث مرفوع من حديث أبي سعيد الخدريِّ ـ رضي الله عنه ـ على نحو ما ذكر وزاد: «فيدخلُ الدُّخانُ جوفَ الكافر والمنافق حتى ينتفخَ». واستعصت: بمعنى: عصت بترك إجابة النبيِّ ﷺ.

و(قوله: تصعَّبت عليه) أي: أبت الدخول في الإسلام.

وسبع يوسف هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ** ﴾[1]. وقد تقدَّم أن الجدبَ والقحط يُقال عليه: سَنَة، ويُجمع: سنين.

---

(1) سورة يوسف الآية 48

يوسفَ، فأصابهم قحطٌ وجَهْدٌ؛ حتى جعلَ الرجلُ ينظر إلى السماء فيرى بينَه وبينها كهيئة الدُّخَان من الجهْد، وحتى أكلوا العظام، فأتى النَّبيَّ ﷺ رجلٌ - في رواية أبي سفيان: فقال: يا محمَّد! إنَّك جئت تأمر بطاعة الله وبصلة الرَّحم، وإنَّ قومك قد هلكوا فادع الله لهم - وفي الرواية الأولى:

و(قوله: حتى جعل الرَّجلُ ينظر إلى السماء فيرى بينها وبينه كهيئة الدخان من الجَهْد) لا شكَّ في أن تسمية هذا دخاناً تَجوُّزٌ، وحقيقة الدخان ما ذكر في حديث أبي سعيد، والذي حملَ عبدَ الله بنَ مسعود على هذا الإنكار قوله: ﴿ **رَبَّنَا أَكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ** ﴾[1]، وقوله: ﴿ **إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ** ﴾[2]، ولذلك قال: أفيكشف عذابُ الآخرة؟ وهذا لا دليلَ فيه على نفي ما قاله ذلك القائل؛ لأنَّ حديثَ أبي سعيد إنما دلَّ على: أن ذلك الدخان يكون من أشراط الساعة قبل أن تقومَ القيامةُ، فيجوز انكشافُه كما تنكشف فتنُ الدَّجَّال ويأجوج وماجوج، وأما الذي لا ينكشفُ فعذاب الكافر بعد الموت، فلا معارضة بين الآية والحديث، والشأن في صحة الحديث.

و(قوله: استغفرِ الله لمُضَرَ) كذا صحَّ في كتاب مسلم من الاستغفار، ووقع في كتاب البخاري: استسقِ اللهُ لمُضَرَ، من الاستسقاء، وهو مناسب للحال التي كانوا عليها من القحط، غير أن الذي يُبعده إنكار النبيِّ ﷺ على القائل بقوله لمضر: فإنَّ طلبَ السُّقيا لهم لا يُنكر، ورنما الذي يُنكر طلب الاستغفار لهم. وقد فسَّر البطشةَ بأنها يومُ بدر. وأما اللِّزام: فهو المذكور بقوله تعالى: ﴿ **فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً** ﴾[3]، وقد اختلف فيه فقيل: هو العذاب الدائم، وأنشدوا:

فإما ينجوا من خسْف أرضٍ ... فقد لقيا حتوفَهما لِزاما

وقال اخر:

ولم أجـــزعْ مِن الموت اللِّزام

---

(1) سورة الدخان الآية 12

(2) سورة الدخان الآية 15

(3) سورة الفرقان الآية 77

فقال: يا رسولَ الله! استغفر الله لمُضر فإنَّهم قد هلكوا. فقال: «لمضر؟ إنَّك لجَريء!». قال: فدعا اللهُ لهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾. قال: فمُطِروا، فلما أصابتْهُم الرفاهيةُ، قال: عادوا إلى ما كانوا عليه. قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾، قال: يَعْني: يومَ بدْرٍ.

وفي روايةٍ: قال: أفيُكْشَفُ عذابُ الآخرة؟ قال: وقد مضت آيةُ الدُّخَان، والبطشةُ، واللِّزام، وآيةُ الرُّوم. في أخرى: والقمر.

* * *

وقال أُبيّ: هو القتل بالسيف يوم بدر، وإليه نحا ابنُ مسعود، وهو قول أكثر النَّاس، وعلى هذا فتكون البطشةُ واللِّزام شيئاً واحداً. وقال القرطبيُّ وأبو عُبيدة: هو الهلاكُ والموت. وأما الروم؛ فقد روى الترمذي من حديث نيار بن مُكَرَّم الأسْلميّ قال: لما نزلت: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ الآيتين [1] فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يُحبُّون ظهور الروم على فارس؛ لأنهم وإيَّاهم أهلُ كتاب، وكانت قريش يُحبُّون ظهور فارس على الروم؛ لأنهم وإيَّاهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان، ولما نزلت هذه الآية خرجَ أبو بكر يصيح في نواحي مكة بالآية، فقال كبراء المشركين: ألا نراهنُك على ذلك؟ قال: بلى. وذلك قبل تحريم الرِّهان، فارتهنَ أبو بكر والمشركون، وأقبضوا الرِّهانَ، وقالوا لأبي بكر: كم تجعلُ البِضعَ؟ البضعُ ثلاث سنين إلى تسع، قسِّم بيننا وبينَك وسطاً ننتهي إليه، فسمُّوا بينهم ست سنين، فمضت الستُّ سنين قبل أن يظهروا، فأخذَ المشركون رهن أبي بكر، ولما دخلت السنة السابعةُ ظهرت الرومُ على فارس، فعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ستِّ سنينَ، لأن الله تعالى قال: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾. قال: وأسلم بعد ذلك ناسٌ كثير. قال: هذا حديث حسن صحيح، وسيأتي القول في انشقاق القمر في سورته.

---

(1) سورة الروم الآيات 1 ـ 2

ومن سورة الحجرات

عن أنسِ بن مالك، لَمَّا نزلت هذه الآية: ﴿ **لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتُكُم** ﴾ إلى آخر الآية، جلس ثابتٌ في بيته وقال: أنا من أهل النَّار، واحتبس عن النَّبيِّ ﷺ، فسأل النَّبيُّ ﷺ سعدَ بنَ معاذٍ. فقال: «يا أبا عمرو! ما شأن ثابت؟

ومن سورة الحجرات

ثابت هذا هو ثابت بن قيس بن شمَّاس بن مالك الخزرجيّ، يُكنى أبا محمد بابنه، وقيل: أبا عبد الرحمن، قُتل له يوم الحرّة ثلاثةٌ من الولد: محمد ويحيى وعبد الله، وكان خطيباً بليغاً معروفاً لذلك، كان يُقال له: خطيبَ رسول الله ﷺ كما يُقال لحسان: شاعر رسول الله ﷺ. ولما قدمَ وفدُ بني تميم على رسول الله ﷺ وطلبوا المفاخرةَ، قام خطيبُهم فافتخرَ في خطبته. ثم قام ثابتُ بن قيس فخطبَ خطبةً بليغةً جَزْلةً فغلبَهم، وقام شاعرُهم وهو الأقرعُ بن حابس فأنشد:

أَتَيْناكَ كيما يعرفَ الناسُ فَضْلَنا ... إذا خَالفُونَا عِنْد ذِكْرِ المَكارِمِ

وإنا رؤوسُ النَّاسِ مِنْ كُلِّ مَعْشَرٍ ... وَأَنْ لَيْسَ فِي أَرْضِ الحِجازِ كَدارِمِ

فقام حسان فقال:

بني دارمٍ لا تَفْخَرُوا إنَّ فَخْرَكُمْ ... يَعُودُ وَبالاً عِنْدَ ذِكْرِ المَكَارِمِ

هُبِلْتُمْ عَلَيْنَا تَفْخَرُونَ وَأَنْتُمُ ... لَنا خَوَلٌ من بين ظِئْرٍ وخَادِمِ

فقالوا: خطيبُهم أخطبُ من خطيبنا، وشاعرهم أشعرُ من شاعرنا، فارتفعت أصواتُهم فأنزلَ الله تعالى: ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ** ﴾ [1] ولما نزلت جلسَ ثابتٌ في بيته، فكان كما ذكرَ في الأصل. وقال عطاء الخراساني: حدثتني ابنة ثابت بن قيس. قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ...** ﴾ [2]، دخل أبوها بيتَه، وأغلق عليه بابَه، ففقدَه النبيُّ ﷺ، فأرسلَ إليه يسأله: ما خبره؟ فقال: أنا رجلٌ شديدُ الصوت أخافُ أن يكون حَبِطَ عملي. فقال النبيُّ ﷺ: «ليستَ منهم، بل تعيشُ بخير، وتموتُ بخير». قال:

---

(1) سورة الحجرات الآية 2

(2) سورة الحجرات الآية 2

أشْتكَى؟» قال سعدٌ: إنه لجَاري، وما علمتُ له بشكوى. قال: فأتاهُ سعدٌ، فذكرَ لَهُ قولَ رسولِ الله ﷺ، فقال ثابت: أنْزِلتْ هذه الآية، ولقد علمتم أنِّي من أَرْفَعكم صَوْتاً على رسول الله ﷺ، فأنا من أهلِ النَّار! فذكر ذلك سعدٌ للنَّبيِّ ﷺ. فقال رسولُ الله ﷺ: «بَلْ هو من أهل الجنة».

وفي روايةٍ: قال: فكُنَّا نراهُ يَمْشِي بينَ أظْهُرِنا رجلٌ من أهْلِ الجنة.

* * *

ثم أنزل الله ﴿إِنَّ اللهَ لاَيُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [1] فأغلقَ بابَه وطَفقَ يبكي، ففقدَه النبيُّ ﷺ فأرسل إليه: ما خبره؟ فقال: يا رسول الله! إنب أحب الجَمالَ وأحبُّ أن أسودَ قومي، فقال: «لستُ منهم بل تعيش حميداً، وتُقتل شهيداً وتدخلُ الجنة». قالت: فلما كانن يوم اليمامة خرجَ مع خالد إلى مُسيلمة، فلما التقوا انكشفوا، فقال ثابت وسالم مولى أبي حذيفة: ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ ثم حفرَ كلُّ واحد منهما له حفرةً، فثبتَا، وقاتلا حتى قُتلا. وعلى ثابت يومئذ درعٌ له نفيسة، فمرَّ به رجل من المسلمين فأخذَها، فبينا رجلٌ من المسلمين نائم أتاه ثابت في منامه فقال له: أوصيك بوصية وإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه. إني لما قتلت مربي رجل من المسلمين فأخذَ درعي، ومنزلُه في أقصى الناس، وعند خبائه فرسٌ يَسْتَنُّ في طِوَله، وقد كفأ على الدِّرع برمةً، وفوق البرمة رَحْلٌ، فأت خالداً فمرْه أن يبعثَ إلى درعي، فيأخذَها، وإذا قدمتَ المدينة على خليفة رسول الله ﷺ يعني أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ فقل له: إن عليَّ من الدَّيْن كذا وكذا، وفلان من رقيقي عتيقٌ وفلانٌ. فأتى الرَّجلُ خالداً فأخبره، فبعث إلى الدرع، فأُتي بها، وحدَّث أبا بكر برؤياه فأجازَ وصيَّتَه. قال: ولا نَعْلَمُ أحداً أُجيزت وصيته بعد موته غير ثابت.

و(قوله: ﴿وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَولِ﴾ [2] أي: لا تخاطبوه يا محمد ويا أحمد! ولكن: يانبيَّ الله، أو يارسولَ الله. توقيراً له ﷺ.

و(قوله: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ [3] أي: من أجل أن تحبط؛ أي: تَبْطُلَ. فإما أصل الأعمال أن كان ذلك عن كفر، ورما ثوابها إن كان عن معصية.

---

(1) سورة لقمان الآية 18

(2) سورة الحجرات الآية 2

(3) سورة الحجرات الآية 2

ومن سورة قٓ

عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلاَّ وَقَدْ وُكِّلَ به قرينُه من الجنِّ». قالوا: وإيَّاك يا رسولَ الله قال: «وإيَّايَ. إلا أنَّ اللهَ أعَانني عليه فأسلَم، فلا يأمُرُني إلا بخير».

وفي رواية: «وقد وُكِّلَ به قرينُه من الجِنِّ، وقرينُه من الملائكة».

ومن سورة قٓ

اختلف فيه، فقال ابن عباس: هو اسم لله عز وجل، وقال قتادة: اسم للقرآن، وقال الضحَّاك: اسم الجبل المحيط بالأرض، وهو من زبر جدة خضراء، وعروق الجبال منها، وقال عطاء: هو قوة قلب نبيِّنا محمد ﷺ. وعلى تلك الأوجه: هو قسمٌ، وعُطِفَ ﴿وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ﴾ عليه. والقرين: فعيل بمعنى المقارن الملازم الذي لا يُفارق، وأصلُه من القَرَن: وهو الحبلُ الذي يُجمعُ به بين شيئين فيتلا زمان بسببه، كما قال الشاعر:

وَابْنُ اللَّبُونِ إِذَا مَا لُزَّ فِي قَرَنٍ ... لمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ البَزْلِ القَنَاعِيسِ

وقد تقدَّم أن الشيطان وزنه فَيْعَال، من شطن؛ أي: بَعُدَ عن الخير، أو من شاط إذا احتدَّ واحترق، وإنه إنما يقال على المارد من الجِنِّ، وهو الكثير الشر الشديد الضُّرِّ.

و(قوله: «إلا أنَّ اللَّهَ أعانني عليه فأسلم»). جمهور الرواة يقولون فأسلمَ بفتح الميم، ويُريدون أن الشيطان صارَ مسلماً. وكان سفيان بن عُيينة يقول: فأسْلَمُ بضم الميم، والمعنى فأسلمُ أنا من شرِّه، وكان يُنكر القول الأول، ويقول: الشيطان لا يُسلمُ.

قال الشيخ رحمه الله: وهذا له موقع، غير أنه يُبعده قوله: «فلا يأمرُني إلا بخير»، فحينئذ يزول عنه اسم الشيطان ويصيرُ مسلماً، ويكون هذا مؤيداً لرواية

وعن عائشة، أنَّ رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلا. قالت: فغِرْتُ عليه، فرأى ما أصنعُ. فقال: «مالك يا عائشة؟ أَغِرْتِ؟!»، فقلتُ: وما لي لا يغار مثلي على مثلك؟ فقال رسول الله ﷺ: «أَقَدْ جاءَكِ شيطانُك؟»، قالت: يا رسول الله! أومَعيَ شيطانٌ؟ قال: «نَعَمْ»، قلتُ: ومع كلِّ إنسانٍ؟ قال: «نَعَمْ». قلتُ: ومعكَ يا رسول الله؟ قال: «نَعَمْ! ولكن ربِّي أعانني عليه حتى أسلَم».

* * *

الجمهور. فالذي لأجله فرَّ سفيانُ من إسلام الشيطان، يلزمه في كونه لا يأمرهُ إلا بخير. وقد رُوي هذا الحديث في مسند أحمد بن حنبل بلفظ آخر، وقال: «لا يأمرني إلا بخير». وأما لفظ حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ فهو في الوجه الأول واضح، فإنها قالت فيه: «ولكنْ ربِّي أعانني عليه حتى أسلمَ». والظاهر منه: أنَّ الشيطان هو الذي أسلمَ مع أنه يحتملُ أنْ يكونَ حتى: بمعنى كي، ويكونُ فيه راجع إلى النبيِّ ﷺ أي: أعانني كي أسلَم منه، والله تعالى أعلم.

* * *

ومن سورة القمر

عن عبد الله بن مسعودٍ، قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنَى إذ انفلق القمرُ فِلْقَتَيْن. فكانت فِلْقَةٌ وراء الجبلِ، وفِلْقةٌ دُونَه. فقال لنا رسولُ الله ﷺ: «اشهَدُوا!».

وفي رواية: فَسَتَر الجبلُ فلقةً، وكانت فلقةٌ فوق الجبل.

وعن ابن عمر مثل ذلك. رواه مسلم والترمذيُّ

ومن سورة القمر

(قوله: انفلقَ القمرُ) أي: انشقَّ نصفين، أي: وقع ذلك الانشقاق على حقيقته، ووُجد ذلك بمكة بمنى، بعد أن سألت قريش رسولَ الله ﷺ آيةً، فأراهم انشقاقَه، على نحو ما ذُكر. ثم إنَّ عبدَ الله بن مسعود أوضح كيفية هذا الإنشقاق حتى لم يتركْ لقائل مقالاً، فقال: وكانت فلقَةً وراءَ الجبل، وفلقَةً دونه. وفي رواية: فستر الجبلُ فِلْقَةً، وكانت فِلْقَةً فوق الجبلِ، ونحو ذلك. قال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ وقد روى هذا الحديثَ جماعةٌ كثيرة من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ. منهم: عبد الله بن مسعود، وأنس، وابن عبَّاس، وابن عمر، وحذيفة، وعليّ، وجُبير بن مطعم، وغيرهم. وروى ذلك عن الصحابة أمثالهم من التابعين، ثم كذلك ينقُله الجمُّ الغفير، والعددُ الكثير إلى أن انتهى ذلك إلينا، وفاضتْ أنوارُه علينا، وانضاف إلى ذلك ما جاءَ من ذلك في القرآن المتواتر عند كلِّ إنسان، فقد حصلَ بهذه المعجزة العلمُ اليقينُ، الذي لا يشكُّ فيه أحدٌ من العاقلين. وقد استبعدَ هذا كثير من الملحدة، وبعض أهل الملَّة من حيث إنه لو كان كذلك للزمَ مشاركة جميع أهل الأرض في إدراك ذلك.

وعن أنسٍ، أنَّ أهل مكةَ سألوا رسولَ الله ﷺ أنْ يُريَهُم آية فَأَراهُم انْشِقاقَ القَمَرِ مرتين.

وفي رواية: انشق القمر فرقتين.

* * *

والجواب: إن هذا إنما كان يلزم، لو استوى أهلُ الأرض في إدراك مطالعه في وقت واحد، وليس الأمرُ كذلك. فإنه يطلعُ على قوم قبلَ طلوعه على آخرين، فقد يكون الكسوفُ عند قوم، ولا يكون عند آخرين، وأيضاً: إنما كان يلزمُ ذلك لو طال زمانُ الانشقاق، وتوفَّرت الدواعي على الاعتناء بالنظر إليه، ولم يكن شيء من ذلك، وإنما كان ذلك في في زمن قصير شاهدَه من نُبِّه له. وذلك أنَّ أهلَ مكة طلبوا من النبيِّ ﷺ انشقاق القمر فخرجَ بهم إلى منى، فأراهم انشقاق القمر. فلما أراهم اللَّهُ ذلك قال: «اشهدوا». فقالت قريش: هذا سحرٌ. فقال بعضُهم لبعض: إن كان محمّد سحرنا، فما يبلغ سحرُه إلى الآفاق، فابعثوا إلى أهل الآفاق، فبعثوا إلى آفاق مكَّة، فأخبروهم أنهم عاينوا ذلك. هكذا نقلُ النَّقَلَةُ. وكم من نجمٍ يَنْقضُّ وصاعقةٍ تنزلُ! وهو سمائيٌّ يختص بمشاهدته بعض الناس دون بعضٍ، ثم إنها كانت آية ليلية، وعادة الناس في الليل كونهم في بيوتهم نائمين، ومُعرضين عن الالتفات إلى السماء إلا الآحاد منهم، وقد يكون منهم من شاهدَ ذلك، فظنَّه سحاباً حائلاً، أو خيالاً حائلاً، وعلى الجملة فالموانعُ من ذلك لا تنحصرُ، ولا تنضبطُ، والذي يحسمُ مادَّة الخلاف بين أهل ملَّتنا أن نقول: لا بعدَ في أن يكونَ الله تعالى خرقَ العادةَ في ذلك الوقت، فصرفَ جميعَ أهل الأرض عن الالتفات إلى القمر في تلك الساعة لتختصَّ مشاهدة تلك الآية بأهل مكة كما اختصُّوا بأكثر مشاهدة آياته؛ كحنين الجذع، وتسبيح الحَصى، وكلام الشجر، إلى غير ذلك من الخوارق التي شاهدوها، ونقلوها إلى غيرهم، كما قَد نقلنا ذلك في كتابنا المسمى: بكتاب «الإعلام بما في دين النَّصارى من الفساد والأوهام». وإثبات نبوة نبينا محمد ﷺ. وهذا الكلام خاص

للمنكر للانشقاق من أهل الإسلام، وأما الملاحدة فالكلام معهم في إبطال أصولهم الفاسدة. وقد تأوَّل من أنكر وقوعَ انشقاق القمر من الإسلاميين قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [1] بمعنى ينشقُّ في القيامة، وممن حُكي عنه هذا التأويل: الحسن البصريّ. وتأول غيره؛ انشقَّ: تحقَّق الأمرُ ووضحَ، وقال آخر: انشقَّ الظلامُ عنه بطلوعه.

وقال الشيخ رحمه الله: وهذه تحريفات لا تأويلات. والحسن البصري أعلمُ وأفضلُ من أن يذهبَ إلى شيءٍ من ذلك، لا سيما مع شهرة القضية، وكثرة الرواة لها، واستفاضتها، وعلمه هو بالأخيار، وسلوكه طريق الصحابة والأخيار، وقد أدركَ منهم جملةً صالحةً، وحصلت له بهم صفقةٌ رابحة.

و(قراءة رسول الله ﷺ ﴿فَهَلْ مَن مُّدَّكِرٍ﴾ [1] بالدال وعليها الجماعة، ومدكَّر: اسم فاعل من إذ ذكر؛ أي: تذكر، أدغمت الذال في الدال.

و(قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [2] أي: للحفظ، فليس شيءٌ من الكتب يُحفظ كحفظ القرآن. والمُدَكِّر: المتَّعظ. وقيل: المزدجر. وقيل: المتحفَّظ.

* * *

(1) سورة القمر الآية 1
(2) سورة القمر الآية 15
(3) سورة القمر الآية 17

ومن سورة الحديد والحشر

عن ابن مسعود، قال: ما كان بين إسلامنا وبينَ أن عاتَبَنا اللهُ بهذه الآية: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءامَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ** ﴾ إلا أربعُ سنين.

ومن سورة الحديد والحشر

(قوله: لم يكن بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربعَ سنين). قال الخليل: العتاب مخاطبة الإدلال، ومذاكرة المَوْجِدة، تقولُ: عاتبتُه معاتبةً. قال الشاعر:

أُعاتِبُ ذا المَوَدَّة مَنْ صَديقٍ ... إذَا مَا رايَني مِنْهُ اجْتِنَابُ

إذَا ذَهَبَ العِتَابُ فَلَيْسَ وِدٌّ ... وَيَبْقَى الوِدُّ ما بَقِيَ العِتَابُ

و(قوله: ﴿ **أَلَمْ يَانِ لِلَّذِينَ ءامَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ** ﴾ [1] أي: ألم يحِنْ، قال الشاعر:

أَلَمْ يَأْنِ لِي يَا قَلْبُ أن أتركَ الجهلا [2]

وماضيه: أني ياني، فأما «آن» الممدود فمضارعة يئين. وأنشد ابن السكيت:

أَلَمَّا يَأْنِ لي أَنْ تَجَلَّى عَمَايَتِي ... وَأَفْصِمُ عَنْ لَيْلَى بَلَى قد أَنى لِيا

فجمعَ بين اللغتين. وأن تخشع: أي تذلّ وتَلين لذكر الله وتعظيمه. وقيل معناه: تجزع من خشية الله، وقيل: الذكر هنا: القرآن، وفيه بعد، لأن قولَه: ﴿ **وما نزل من الحقِّ** ﴾ هو القرآن فيكون تكراراً.

---

(1) سورة الحديد الآية 16

(2) هذا صدر بيت، وعجزه:

وأنْ يُحْدِثَ الشيبُ المنير لنا عقلا

وعن عائشة، قالت لعروة: يابن أختي! أُمِرُوا أن يستغفروا لأصحاب النَّبيِّ ﷺ. فسَبُّوهم. وقد تقدم.

* * *

و(قوله. ﴿ **فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ** ﴾ [1] أي: رأوا الموتَ بعيداً، يعني أنهم لطول أملهم لا يرونَ الموت يقع بهم، فقست قلوبُهم؛ أي: جفيت وغلظت، فلم يفهموا دلالةً، ولا صدَّقوا رسالة. ﴿ **وكثيرٌ منهم فاسقون** ﴾؛ أي: خارجون عن مقتضى العقل من التوحيد، وعن مقتضى الرسالة من التصديق. وفائدة هذه الآية: أنه لما رسخَ الإيمان في قلوبهم أرشدَهم إلى الازدياد في أحوالهم، والمراقبة في أعمالهم، وحذَّرهم عن جفوة أهل الكتاب بأبلغ خطاب وألطف عتاب.

و(قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أُمروا أن يستغفروا لأصحاب محمد ﷺ فسبُّوهم) أشارت عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلى قوله: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ** ﴾ [2]. فسبُّوهم. تريد عائشة بهذا أن التابعين حقُّهم الواجب عليهم أن يُحبُّوا أصحابَ رسول الله ﷺ وأن يُعظِّمُوهم، ويستغفروا لهم، وكذلك كلُّ من يجيء بعد التابعين إلى يوم القيامة، ويحرمُ عليهم أن يسبُّوهم، أو يَسبُّوا أحداً منهم، كما قد صرَّح بذلك بعضُ بني أمية، وإيَّاهم عنت بقولها، ولقد أحسن مالك ـ رحمه الله ـ في فهم هذه الآية فقال: من سبَّ أصحابَ رسول الله ﷺ فلا حقَّ له في الفيء، واستدلَّ بالآية. ووجهُه: أنه رأى هذه الآية معطوفة عل قوله: ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ [3]، أن هده الية معطوفة على قوله: ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ** ﴾[4] فظهر له: أن المهاجرينَ والأنصار استحقُّوا الفيءَ بأنهم مهاجرين، وأنصار ممن غير قيد زائد على ذلك، وأنَّ من جاء بعدَهم قُيِّدوا بقيد: ﴿ **يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ** ﴾ [5] فإن لم يُوجد هذا

---

(1) سورة الحديد الآية 16
(2) سورة الحشر الآية 10
(3) سورة الحشر الآية 9
(4) سورة الحشر الآية 8
(5) سورة الحشر الآية 10

ومن سورة المنافقين

عن جابرِ بن عبد الله، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من يَصْعَدُ الثَّنيَّة، ثَنيَّةَ المُرَارِ فإنَّه يُحَطُّ عنه ما حُطَّ عن بني إسرائيل».

القيد لم يجز الإعطاء لعدم تمام الموجب. وقد فهمَ عمر ـ رضي الله عنه ـ أن قوله: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ** ﴾ يعمُّ كلَّ من يأتي إلى يوم القيامة، وأنها معطوفة على ما قبلَها، فوقفَ الأرضَ المَغنومة المُفتتحة في زمانه على من يأتي بعد إلى يوم القيامة، وخصَّص بهذه الآية الأرض من جملة الغنيمة التي قال الله فيها: ﴿ * **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ** ﴾ [1] وقد تقدَّم الكلام على هذا في الجهاد.

* * *

ومن سورة المنافقين

(قوله: «مَنْ يَتسَوَّرْ ثنيَّة المُرار») يتسور: يعلو. وتسوَّرْتُ الجدارَ: علوتُه، وفي الرواية الأخرى: «من يصعد» وهذا واضح، والثنيَّةُ: الطريق في الجبل. والمُرار ـ بضم الميم ـ: وهي ثنية معروفة وعرة المرتقى، فحثَّ النبيُّ ﷺ على صعودِها، ولعلَّ ذلك للحراسة.

و(قوله: «حطَّ عنه ما حُطَّ عن بني إسرائيل») أي: غُفرت خطاياه كما وُعدَ بنو إسرائيل حين قيل لهم: ﴿ **وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ** ﴾[2] يعني بذلك: أن من صَعدَ تلك الثنية غُفرت خطاياه كما كانت خطايا بني إسرائيل تُحَطُّ وتغفر لو فعلوا ما أُمروا به من الدخول، وقول الحِطَّة، لكنهم لم يفعلوا ما أُمروا به بل تمرَّدوا واستهزؤوا فدخلوا يزحفون على أسْتاههم، وقالوا حنطة في شعرة، وقد لا يبعد أن يكون بعضهم دخل على نحو ما أُمرَ به فغُفر له، غير أنه لم يُنقل ذلك إلينا.

---

(1) سورة الأنفال الآية 41

(2) سورة البقرة الآية 58

قال : فكان أولَ من صَعِدَها خَيْلُنا خَيْلُ بني الخزرج، ثم تتامَّ النَّاسُ، فقال رسولُ الله ﷺ : « وكلُّكمْ مغفورٌ له، إلا صاحبَ الجَمَلِ الأحمر » . فأتيناه فقلنا له : تعالَ، يستغفر لك رسولُ الله ﷺ، فقال : والله! لأنْ أجد ضالَّتي أحَبُّ إليَّ من أن يستغفرَ لي صاحبُكُم! قال : وكان رجلٌ يَنشدُ ضالّة له .

وعن زيدِ بن أرقم، قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في سَفَرٍ، أصاب الناسَ فيه شدةٌ، فقال عبدُ الله بن أُبيٍّ لأصحابه . ﴿ **لاَ تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا** ﴾ من حَوْله . ـ قال زهير : وهي في قراءة عبد الله ـ، وقال : ﴿ **لئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ** ﴾، قال : فأتيتُ النَّبيَّ ﷺ فأخبرتُه بذلك، فأرسلَ إلى عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ، فسَأله، فاجتهدَ يمينَهُ ما

و(قوله ﷺ : « كلُّكم مغفورٌ له إلا صاحبَ الجمل ») لما صَعِدوا كما أُمروا أُنجزَ الجمل أُنجز لهم مابه وعدوا، فإن الله تعالى لايخلف الميعاد ولا رسوله . وقيل : إن صاحب الجمل هو الجَدُّ بن قيس المنافق . وينشدُ ضالَّته : يطلبُها، ونشدتُ الضالَّة : طلبتها، وأنشدتها : عرَّفتها .

و(قوله : حتى يَنْفَضُّو) أي : يتفرقوا . و(من حَوْلِه) : في قراءة عبد الله، ولم يثبتْ في شيءٍ من المصاحف المتفق عليها، ويُمكن أن تكون زيادة بيان من جهة ابن مسعود .

و(قوله : ﴿ **لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ** ﴾ [1] يعني المنافق بالأعز : نفسُه وعشيرته، وبالأذل : النبيّ ﷺ والمومنين، جهلَ فقال، وحيث وجبَ أن يَسْكن حالَ غَلَبَتْ عليه شقوتُه، فانعكست فطنته، فظنَّ الأرضَ سماءَ، والسَّرابَ ماءَ، فنبَّهَه ولدُ نطفته، على

---

(1) سورة المنافقون الآية 8

فعل. فقال: كَذَبَ زيدٌ رسول الله ﷺ. قال: فوقَعَ في نفسي ممَّا قالوه شِدَّةٌ، حتى أنزل اللهُ تصديقي: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾.

قال: ثم دعاهُم النَّبي ﷺ ليستغفرَ لهم. قال: فلووا رؤوسهم، وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ وقال: كانوا رِجالاً أجْمَلَ شيءٍ.

* * *

قيح غلطته، فقال له: أنت والله الأذلُّ، ورسولُ الله الأعزُّ، فأنزلَ الله تصديقَه في كتابه لعلَّهم يسمعون: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (1). ثم أنَّ النبيَّ ﷺ تلطَّف بهم على مقتضى خُلقه الكريم، وحمله العظيم، ودعاهم للاستغفار، فأبت الشقوة إلا التَّمادي على الجهل والاستكبار، فلوَّوا رؤوسَهم معرضين، وصدُّوا مُستكبرين، فقُوبلوا ﴿لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. حشرنا الله مع المومنين، وجنَّبنا أحوالَ المنافقين بفضله وكرمه.

و(قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ (2) يعني: أنهم أشباحٌ بلا أرواح، وأجسامٌ بلا أحلام، فصورُهم مُعْجِبَةٌ، وبواطنُهم قبيحةٌ خَرِبة، ومُسَنَّدة إلى الجُدُر؛ شبَّههم بالجذوع المُسْندة الممالة إلي جدار، كما قال الشاعر:

قَدْ مَضَيْنا بَعْدَهُمْ نَتْبَعُهُمْ ... فَرَأَيْنَاهُمْ قِيَاماً كَالخُشُبْ

وهو جمع خَشَبة. يُقال: خُشْبَةٌ وخُشب بضمّهما، ويقال: خَشَبٌ بفتحهما وقد قُرِيء بهما.

---

(1) سورة المنافقون الآية 8

(2) سورة المنافقون الآية 4

باب من أخبار المنافقين

عن أبي الطُّفيل، قال: كان بين رجلٍ من أهل العَقَبة وبين حذيفة بَعْضُ ما يكون بينَ النَّاس فقال: أنْشُدُكَ اللهَ! كمْ كانَ أصحاب العَقَبة؟ قال: فقال له القومُ: أَخْبِرْهُ إذ سَألك. قال: كُنّا نُخْبَرُ أنّهم أربعةَ عَشَرَ، فإن كنتَ منهم

(قول أبي الطُّفَيْل: كان بين رجلٍ من أهل العقبة وبين حذيفةَ بعضُ ما يكون بين الناس) ليست هذه العقبةُ عقبةَ بيعة الأنصار لرسول الله ﷺ في أوَّل الإسلام، ومن ظنَّ ذلك فقد جهل، وإنما هي عقبةٌ بطريق تبوك، وقف له فيها قومٌ من المنافقين ليقتلوه، كما قد رواه أحمد بن حنبل من طريق أبي الطّفيل هذا، قال: لما أقبلَ رسولُ الله ﷺ من غزوة تبوك أمر منادياً يُنادي: أنَّ رسولَ الله ﷺ أخذَ العقبةَ، فلا يأخذْها أحدٌ، فبينما رسولُ الله ﷺ يقودُه حذيفةُ، ويسوقُه عمَّار - رضي الله عنهما - إذ أقبل رَهْطٌ مُتلثِّمون على الرَّواحل، غسوا عمارا وهو يسوق برسول الله ﷺ، وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل، فقال رسولُ الله ﷺ لحذيفة: «قد، قد» حتى هبط رسولُ الله ﷺ، فلما هبط نزل، ورجع عمَّار، فقال: «هل عرفت القوم» فقال: عرفت هامة الرواحل، والقوم مُتلثِّمون، فقال: «هل تدري ما أرادوا؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ فيطرحوه. وذكر أبو الطفيل، في تلك الغزاة: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال للنَّاس؛ وذكر له: أن في الماء قلَّة فأمر رسولُ الله ﷺ منادياً يُنادي: ألاَّ يرد الماء أحد قبل رسول الله ﷺ، فورده رسولُ الله ﷺ، فوجد رهطاً قد وردوا قبله، فلعنهم رسول الله ﷺ. وعنى أبو الطفيل بقوله: بعض ما يكون بين الناس: الملاحاة والمعاتبة التي تقع غالباً بين الناس.

و(قوله: أنشدك الله) أي: أسألك بالله، والقائلُ: أنشدك بالله؛ هو الرجل الذي لاحاه حذيفةُ - رضي الله عنه - والقائلُ: كنَّا نخبر أنهم أربعة عشر، فإن كنت فيهم فالقومُ خمسة عشر: هو حذيفة، والمخاطبُ بذلك القول: هو الرجلُ المعاتب السَّائلُ له بأنشدك الله، وظاهرُ كلام حذيفة: أنه ما شكَّ فيه، لكنه ستر ذلك إبقاءً عليه. وهؤلاء الأربعة عشر، أو الخمسة عشر هم الذين سبقوا إلى الماء، فلعنهم النبيُّ

فَقدْ كانَ القومُ خمسةَ عشرَ. وأشهدُ باللهِ! أنَّ اثنَي عَشَرَ منهم حَرْبٌ لِلّهِ ولرسولِه في الحياة الدُّنْيَا ويوم يقومُ الأشهادُ. وعَذَرَ ثلاثةً قالوا: ما سمعنا مُنَاديَ رسولِ اللهِ ﷺ، ولا عَلِمْنا بما أراد القومُ. وقد كان في حرَّةٍ فمشى فقال: إن الماءَ قليلٌ. فلا يسبقني إليه أحدٌ» فوجَدَ قوْماً قد سبقُوه، فَلَعَنَهُم يومئذٍ.

وعن أنس بن مالك، قال: كان منَّا رجلٌ من بني النَّجَّار. قد قرأ البقرةَ وآلَ عِمْرانَ، وكان يكتبُ لرسول الله ﷺ، فانطلق هارباً حتَّى لحَق بأهل الكتاب. قال: فرفعوه. قالوا: هذا قد كانَ يكتبُ لمحمَّد، فأُعْجبوا به، فما لَبِثَ أنْ قَصَمَ اللهُ عُنُقَهُ فيهم، فَحفروا له، فَوَارَوْه، فأصبحت الأرضُ قد نبذتْه على وجْهِهَا، ثُمّ عادُوا فحفروا لَه، فَوَارَوْه، فأصبحتِ الأرضُ قد نبذتْهُ على وَجْهِهَا، فتركُوه منبوذاً.

وعن جابرٍ، أنَّ رسول الله ﷺ قَدِمَ من سَفَرٍ، فلَمَّا كانَ قُرْبَ المدينة هَاجَتْ ريحٌ تكاد أن تَدْفِنَ الراكبَ، فزعم أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «بُعِثَتْ

ﷺ؛ غير أنه قَبِلَ عُذْرَ ثلاثةٍ منهم لما اعتذروا له بأنهم ما سمعوا المنادي، وما عملوا بما أراد من كان معهم من المنافقين؛ فإنهم أرادوا مخالفةَ رسول الله ﷺ وأن يسبقوا إلى الماء، ويُحتمل أن يُريدَ بهم الرّهط الذين عرضوا لرسول الله ﷺ بالعقبة ليقتلوه، والله تعالى أعلم.

و(قوله: فما لبث أن قصم اللهُ عُنُقه) أي: ما طال مقامُه حتى أهلكه الله. ووارَوْه: غَطُّوه. ونَبَذَتْهُ: ألقته، وأخرجته. ومنبوذاً: مطروحاً على وَجْه الأرض. وإنما أظهر اللهُ تلك الآية في هذا المرتدّ ليوضِّح حُجَّةَ نبيِّه ﷺ لليهوديِّ عياناً، وليقيمَ لهم على ضلالة من خالفَ ودينَه بُرهاناً، وليزدادَ الذين آمنوا يقيناً وإيماناً.

و(قوله: هاجتْ ريحٌ تكاد أن تدفنَ الراكب) أي: هبَّتْ ريحٌ شديدةٌ تحملُ معها الترابَ والرَّمل لشدَّتها، حتى لو عارضها راكبٌ على بعيره لدفنته بما تلقى عليه

هذه الريحُ لموتِ مُنَافِقٍ»، قال: فقدم المدينةَ فإذا منافِقٌ عظيمٌ من المنافقينَ قد ماتَ.

وعن إياس قال: حدثني أبي، قال: عُدنَا مع رسول الله ﷺ رجلاً مَوْعُوكاً. قال: فوضعتُ يَدي عليه فقلتُ: واللهِ ما رأيتُ كاليوم رجلاً أشدَّ حَرّاً. فقال نَبِيُّ الله ﷺ: «ألا أخبرُكُمْ بأشدَّ حرّاً منهُ يومَ القيامةِ؟ هذَيْنِكَ الرّجُلَيْنِ الرّاكبينِ المُقَفِّيَيْن». لرَجُلَيْنِ حينئذٍ من أصحابه.

* * *

من التراب والرمل. وكأنَّ هذه الريحَ إنما هاجتْ عند موت ذلك المنافق العظيم ليُعذَّب بها، أو جَعَلها الله علامةً لنبيِّه ﷺ على موت ذلك المنافق، وأنه مات على النفاق - والله تعالى أعلم -.

و(قوله: «ألا أخبركم بأشدّ حراً منه يوم القيامة؟ هذينك الرجلين الرَّاكبين المقفِّيين») الروايةُ يخفض هذينك على البدل من أشدّ، وهو بدل المعرفة من النكرة، وما بعد هذينك نعوتٌ له. ومعنى المقفِّيين: المولِيان أقفيتهما.

و(قوله لرجلين حينئذ من أصحابه) إنما نسبهما الراوي لأصحاب النبيِّ ﷺ؛ لأنهما كانا في غمارهم، ودخلا بحكم ظاهرهما في دينهم، والعليم الخَبير يعلم ما تجنُّهُ الصُّدور، وما يختلجُ في الضمير، فأعلم اللَّهُ تعالى نبيَّه ﷺ بخبث بواطنهما، وبسوء عاقبتهما، فارتفع اسمُ الصُّحبة، وصدق اسم العداوة والبغضاء.

* * *

ومن سورة التحريم

عن عبد الله بن عباسٍ، قال: حدَّثني عُمرُ بنُ الخطَّاب، قال: لَمَّا اعتزل رسولُ الله ﷺ نساءَه قال: دخلتُ المسجدَ، فإذا النَّاسُ يَنْكُتُونَ بالحَصى، ويقولون: طلَّق رسولُ الله ﷺ نساءَه، وذلك قبل أن يؤمر بالحجاب. قال عمر: فقلت: لأعلَمَنَّ ذلك اليومَ. قال: فدخلتُ على عائشة، فقلتُ: يابنة أبي بكر! أَقدْ بلغ من شأنكِ أن تؤذي رسولَ الله ﷺ! فقالت: ما لي ومالك يابن الخطاب! عليك بعَيْبَتك! قال: فدخلتُ على حفصة بنت عُمَرَ. فقلت لها: يا حفصة! قد بلغ من شأنك أن تؤذي رسولَ الله ﷺ! والله لقد علمتِ أنَّ رسول الله ﷺ لا يُحبُّك! ولولا أنا لطلَّقكِ رسولُ الله ﷺ! فبكتْ أشدَّ البكاء! فقلت لها أين رسول الله ﷺ؟ قالت: هو في خزانته في المشْرُبَة فَدَخَلْتُ، فإذا أنا برباحٍ غلامِ رسول الله ﷺ قاعداً على أُسْكُفَّةِ المشْرُبَة، مُدَلٍّ

ومن سورة التحريم

حديثُ ابن عباس هذا قد تقدَّم في الإيلاء، لكن بطريقٍ غير هذا. وألفاظٍ تخالف هذا. فلذلك كرَّرناه في المختصر.

(قوله: فإذا الناسُ ينكتُون بالحصى) أي: يخطّون بها في الأرض، فِعْل المهتّم بالشيء، المتفكّر فيه.

و(قولها: يا بن الخطاب عليك بعَيْبَتكَ) أي: بخاصَّتك وأهل بيتك، ومنه قوله ﷺ: «الأنصارُ كرشي وعيبتي». وقد تقدَّم. والمشرُبة: الغرفة، تُقال: بفتح الراء وضمها. والأُسكفة بضم الهمزة والكاف: عتبةُ الباب السُّفلى. والنقير من الخشب، وهو الذي يُنْقَرُ فيه مثل الدرج ليرقى عليه.

رِجلَيْهِ على نَقِيرٍ من خَشَبٍ ـ وهو جذع يَرْقى عليه رسول الله ﷺ وينحدرُ ـ فناديتُ، يا رباح! استأذنْ لي عندك على رسول الله ﷺ، فنظر رباحُ إلى الغرفة، ثم نظر إليَّ فلم يقل شيئاً، قلت: يا رباح! استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ ـ فنظر رباح إلى الغرفة، ثم نظر إليَّ فلم يقل شيئاً، ثم رفعتُ صوتي فقلت: يا رباح! استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ، فإنِّي أظن: أنَّ رسول الله ﷺ ظنَّ أنِّي جئتُ من أجل حفصة، والله! لئن أمرني رسولُ الله ﷺ بضرب عنقها لأضربنَّ عُنُقَها ورفعت صوتي، فأومأ إليّ: أن أرقَهْ. فدخلتُ على رسول الله ﷺ وهو مضطجعٌ على حصيرٍ، فجلستُ، فأدنى عليه إزارَه، وليس عليه غيره، وإذا الحصيرُ قد أثر في جنبه، فنظرتُ ببصري في خزانة رسول الله ﷺ، فإذا أنا بقبضةٍ من شعير نحو الصَّاع، ومثلها قَرَظاً في ناحية الغرفة، وإذا أَفيقٌ مُعَلَّقٌ. قال: فابْتَدَرْت عيناي! قال: «ما يبكيك يابن الخطاب؟»، قلت: يا نبيَّ الله! ومالي لا أبكي وهذا الحصيرُ قد أثّر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثِّمار والأنهار، وأنت رسولُ الله وصفوتُه، وهذه خزانتك! فقال: «يابن الخطاب! ألا ترضى أن تكون لنا الآخرةُ ولهم الدُّنيَا؟»، قلت: بلى! قال: ودخلتُ عليه حين دخلتُ وأنا أرى في وجهه الغضب. فقلت: يا رسول

و(قوله: يا رباحُ! استأذنْ لي عندكَ) أي: بحضرتك وقربك، أي: لا تُؤخِّره، وسكوت رباح ونظره لعمرَ احترامٌ لحضرة النبيِّ ﷺ فكأنّه كان يسمعُه. والقَرَظ: شجر يُدبغ به. والأَفْيقُ: الجلد قبل الدِّباغ. وابتدرتْ عيناىَ، يعني: بالدُّموع. أي: غلبَه البكاءُ فلم يملكُه.

الله! ما يَشُقُّ عليك من شأن النساء؟ فإن كُنت طلَّقْتَهُنَّ، فإنَّ الله معك، وملائكته، وجبريلَ، وميكائيلَ، وأنا، وأبو بكر، والمؤمنون معك! وقلَّما تكلمتُ، ـ وأحمد الله ـ بكلام إلا رجوتُ أن يكون اللَّهُ يصدِّق قولي الذي أقول. ونزلت هذه الآية؛ آية التخيير: ﴿ **عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ** ﴾، ﴿ **وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ** ﴾ ـ وكانت عائشةُ بنتُ أبي بكر، وحفصةُ تظَاهران على سائر نساء النبيِّ ﷺ فقلتُ: يا رسول الله! أَطَلَّقتَهنَّ؟ قال: «لا». قلت: يا رسول الله! إني دخلت المسجدَ والمسلمون ينكتون بالحصى؛ يقولون: طلَّقَ رسولُ الله ﷺ نساءَه! فأَنْزِلُ فأخبرَهُم أنك لم تُطلِّقْهُنَّ؟ قال: «نعم إن شئتَ!»، فلم أزل أحدِّثُه حتَّى تَحَسَّرَ الغضبُ عن وجهه، وحتى كَشَر، فضحك، وكان من أحسن الناس ثَغْراً! ثم نزل نبيُّ الله ﷺ، فنزلت أَتَشَبَّثُ بالجِذْع، ونزل رسول الله ﷺ كأنَّما يمشي على الأرض ما يمسُّه

و(قوله: فإن طلَّقْتَهُنَّ فإنَّ الله معك) أي: بالمعونة على مرادك من الطلاق، وعلى أنْ يُبدلَك خيراً منهنَّ، كما قال الله تعالى في الآية. ومعية الملائكة هي موافقتُهم له على مراده، ونصرهُ على أضداده، والله تعالى أعلم.

و(قوله: قلَّ ما تكلَّمتُ ـ وأحمدُ الله ـ بكلام إلا رجوتُ أن يكونَ الله يُصدِّق الذي أقول) قد شهدَ له بهذا النبيُّ ﷺ حيث قال: «إنَّ الله جعلَ الحقَّ على لسان عمرَ وقلبه».

و(قوله: فلم أزل أُحدِّثه حتى تحسَّر الغضبُ عن وجهه) أي: انكشفَ الغضبُ. وكشرَ: كشفَ عن أسنانه ليضحكَ، فضحكَ، وقد سبق القول على ما في هذا الحديث مما يُحتاج إلى التنبيه عليه في النكاح والإيلاء.

بيده. فقلتُ: يا رسولَ الله! إنما كنتَ في الغرفة تسعةً وعشرين. قال: «إنَّ الشهر يكون تسعاً وعشرين». فقمتُ على باب المسجد، فناديت بأعلى صوتي: لم يُطلِّقْ رسولُ الله ﷺ نساءَه! ونزلت هذه الآية: ﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾ فكنتُ أنا أستنبط ذلكَ الأمر، فأنزل الله عز وجل آية التخيير.

* * *

و(قوله: ونزلت هذه الآية: ﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ**﴾[1]. ظاهر هذا أن هذه الآية نزلتْ بسبب هذه القضية لأجل استنباط عمر - رضي الله - ما استنبطَ فيما وقع له فيها ووافقه اللهُ تعالى على ما وقعَ له، فأُنزلَ القرآنُ على نحو ذلك. والاستنباط: الاستخراج، وقد تقدَّم. وأذاعوا به: أفشوه، يقال: ذاعَ الحديثُ يذيعُ ذَيعاً وذُيوعاً، أي: انتشرَ، وأذاعه غيرُه إذا أفشاه، ويقال: ذاع به بمعناه. وأولو الأمر: العلماء في قول قتادة وغيره. وفي الآية من الفقه وجوبُ الرجوع إلى أقوال العلماء على من لا يُحسنُ فهمَ الأحكام واستنباطَها. قال الحسن: هي في الضعفاء أُمروا أن يستخرجوا العلمَ من الفقهاء والعلماء. وقال قتادة: نزلت هذه الآية في المنافقين كانوا يشيعون ما يهمُّ به رسول الله ﷺ من أمن من أرادَ تأمينَه، وإغراء من أرادَ غزوه؛ إرادة الإفساد.

* * *

---

(1) سورة النساء الآية 83

ومن سورة الجن

عن ابن عباسٍ، قال: ما قرأ رسولُ الله ﷺ على الجنِّ وما رآهم. انطلق رسولُ الله ﷺ في طائفة من أصْحَابه عامدين إلى سوق عُكَاظٍ، وقد حِيْلَ بينَ الشياطين وبين خَبَرِ السّماء. وأُرْسِلت عليهم الشُّهب، فرجعت الشياطينُ إلى قَوْمِهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء. وأرسلت عليهم الشهب. قالوا: ما ذاك إلا من شيءٍ حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما الذي حال بيننا وبين خبر السماء؟ فانطلقوا يضربونَ مشارق الأرضِ ومغاربَها، فمرّ النفرُ الذين أَخَذُوا نحو تِهامَةَ ـ وهو بنخلٍ عامدين إلى سوق عُكَاظٍ، وهو يُصلِّي بأصحابه صلاة الفجرِ ـ فلمّا سمعوا القرآن استمعوا له، وقالوا: هذا الذي حال بَيْنَنا وبين خبر السَّماء، فرجعُوا إلى قومهم فقالوا: ﴿ **يا قَوْمَنا! إنَّا سَمِعْنا قُرآناً عَجباً يَهْدي إلى الرُّشْدِ فآمَنّا به، ولَنْ نُشْرِكَ بربِّنَا أحداً** ﴾. فأنزل اللهُ عز وجل على نبيه محمدٍ ﷺ: ﴿ **قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ** ﴾.

ومن سورة الجن

(قول ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ: ما قرأ رسولُ الله ﷺ على الجنِّ ولا رآهم) يعني: لم يقصدْهم بالقراءة عليهم، وإنما قرأ النبيُّ ﷺ في الصلاة لأصحابه؛ لكن لما تفرَّقت الشياطينُ في الأرض يطلبون السبب الحائلَ بينهم وبين ما كانوا يَسترقونَ من السمع صادفَ هذا النَّفرُ من الجنِّ المبيَّ ﷺ بسوق عُكاظ، وهو يُصلِّي بأصحابه فاستمعوا له، فقالوا ما أخبر الله به عنهم: ﴿ **قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَاناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَا بِهِ. وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً** ﴾[1]، وقيل:

---

(1) سورة الجن الآيات 1 ـ 2

وعن علقمة، قال: سألتُ ابنَ مسعودٍ: هل شهدَ أحدٌ منكمْ مع رسول الله ﷺ ليلةَ الجنّ قال: لا. ولكنَّا كنَّا مع رسول الله ﷺ ذات ليلةٍ، ففقدنَاه؛ فالتمسناه في الأودية والشِّعاب، فقلنا: اسْتُطِيرَ ـ أو: اغتِيل ـ قال: فبتنا بشَرِّ لَيلَةٍ باتَ بها قومٌ! فلما أصْبَحْنا إذا هو جاءٍ من قِبَلِ حِرَاءٍ. قال: فقُلْنَا: يا رسول الله! فقدنَاكَ، فطلبنَاكَ، فلم نجدك، فبِتْنا بشَرِّ ليلةٍ باتَ بها قوم! فقال: «أَتَانِي دَاعِي الجنِّ، فذهبتُ مَعَهُ، فقرأتُ عليهم القرآن». قال: فانْطلقَ بنا

كان عدد هؤلاء النفر اثني عشرة، وقيل: تسعة. وقيل: سبعة، وعلى هذا فالنبيُّ ﷺ ما علمَ باستماع الجنِّ ولا رآهم، ولا كلَّمهم، وإنما أوحى الله تعالى إليه فعلمَ ذلك لما أنزلَ عليه القرآنَ بذلك، وهذا بخلاف حديث ابن مسعود، فإن مقتضاه: أن النبيَّ ﷺ خرجَ بعبد الله بن مسعود معه، فجاءَه داعي الجنِّ، فانطلقَ النبيُّ ﷺ نحو حراء، فقرأ عليهم القرآن، فآمنوا وأسلمُوا. في هذه قضية أخرى، وجن آخرون. والحاصل من الكتاب والسنة: العلم القطعي بأن الجن والشياطين موجودود، متعبّدون بالأحكام الشرعية على النحو الذي يليق بخلقتهم وأحوالهم، وأن نبينا محمد ﷺ رسول الى الإنس والجن أجمعين، فمن دخل في دينه، وآمن به، فهو من المومنين ومعهم في الدنيا والآخرة. والجنة مستقر المومنين. ومن كذبه وصدّ هنه فهو الشيطان المبعد عن المومنين في الدنيا والآخرة، والنار مسقر الكافربن أبد الآبدين. وظاهر هذا الحديث يقتضي أن رجم الشياطين بالنجوم. إنما صدر عند بعث النبي ﷺ، وكذلك روى الترميذي عن ابن عباس رضي الله عنهما فال: كان الجنّ يصعدون الى السماء يستمعون الوحي، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعا. فلما بعث رسول الله ﷺ منعوا مقاعدهم، فيذكروا ذلك لإبليس ولم تكن النجوم يرمي بها قبل ذلك. وذكر نحو ما تقدم لمسلم. وقد تقدم في آخر كتاب الطب من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنها كانت يُرمى بها في الجاهلية. وقد اختلف الناس ذلك الاختلافهذين الحديثين. فيذهب طائفة منهم الجاحط الى أن الرجم لم يكن قبل مبعث النبي ﷺ. وقالت طائفة منهم الغزالي: وكان يُرمي بها.

فَأرانا آثارهم وآثارَ نيرانهم، وسألوه الزّادَ، فقال: «لَكُم كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسم الله عليه يقعُ في أيديكُم أَوْفَر ما يكونُ لحْماً، وكُلُّ بعَرة عَلَفٌ لِدَوَابِّكَمْ». فقال رسولُ الله ﷺ: «فلا تَسْتَنْجُوا بهما فإنَّهُما طعامُ إخوانِكُم».

وعن ابن مسعودٍ، قال آذَنتِ النَّبيَّ ﷺ بِهِمْ شَجَرَةٌ. رواه مسلم.

* * *

و(قوله: وسألوه الزَّادَ) أي: ما يحلُّ لهم من الزَّاد ولدوابِّهم، فأجابهم بقوله: «لكم كلُّ عظم، وكلُّ بَعْرة لعلف دَوابِّكم» أي: هذان محلَّل لكم. ويحتمل أن يكونوا سألوه أن يدعوَ لهم بالبركة في أرزاقهم، وفي علف دَوابِّهم، ويدلُّ على هذا قولُه: «يقع في يديكم أوفرَ ما يكونُ لحماً». وفي كتاب مسلم، قال رسول الله ﷺ «دعوات الله الايمروا بعظم إلا وجدوه أوفر ما كان واسمنه» أي: بالنسبة إلى تغذِّيهم ونَيْلهم. وهل نَيْلُهم من ذلك شمٌّ، أو لحسٌ؟ كلُّ ذلك ممكن، وقد قيل بكل واحدٍ منهما.

و(قوله: «ذكرَ اسمَ الله عليه») أي: على تذكيته، ويحتمل على أكله، والأول أولى، وقد تقدَّم القول في الاستنجاء بالعظام والرَّوْث في الطهارة.

و(قوله: آذنتْ النبيَّ ﷺ ليلة الجن بهم شجرة) أي: أعلمته بهم، وظاهره: أن الله تعالى خلق فيها نطقاً فهمه النبيُّ ﷺ كما خلق في الذراع المسمومة نطقاً.

* * *

ومن سورة المدثر

عن سلمة، قال: سألتُ جابرَ بن عبد الله، أيُّ القرآن أُنزِلَ قبلُ؟ قال: يا أيها المدثر، قلت: أو اقرأ؟ قال جابر: أُحدِّثكم ما حدّثنا رسول الله ﷺ. قال: «جَاوَرْتُ بحِرَاءٍ شهراً، فلمّا قضيتُ جِوَارِي نزلتُ فاسْتَبْطَنْتُ بَطْنَ الوادي، فُنوديتُ، فنظرتُ أمامي، وخلفي، وعن يميني، وعن شمالي، فلم أرَ أحداً، ثم نوديتُ، فرفعتُ رأسي، فإذا هو على العرشِ في الهواء - يعني: جبريلَ عليه السلام - فأخذتني رَجْفةٌ شديدةٌ، فأتيتُ حديجةَ، فقلتُ: دثِّروني، دثِّروني، فصبُّوا عليَّ ماءَ، فأنزل الله عزّ وجلْ: ﴿ **يَأَيُّهَا الْمُدَّثِرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّر** ﴾.

ومن سورة المدثر

قد تقدم القولُ فيما أُنزل من القرآن أوّلاً، في حديث عائشة - رضي الله عنها - وتبيَّن هناك أنَّ الأخذ بحديثها أولى؛ لأنَّها زادتْ على جابر بذكر ما سكت عنه من حديث لقاء جبريل النبيَّ في الغار، وإلقائه إليه: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ** ﴾ [1] على ما ذكرتْهُ عائشة، وقد دلَّ على هذا أنَّ حديثَ جابر قال فيه: «فرفعتُ رأسي، فإذا المَلَكُ الذي جاءني بحراء». قد تقدَّمَ القولُ على «فجُئِثْتُ» في الإيمان. والمدثر: المدثر في ثيابه.

و(قوله: ﴿ **وثِيَابَكَ فَطَهِّرْ** ﴾ [2] حُجَّةٌ لمن قال بوجوب غسل النجاسة، إذ الأصل حَمْلُ الثياب والطهارة على الحقيقة اللغوية، ويحتملُ أن يكونَ ذلك كنايةً عن طهارة القلب عن مذموم الأخلاق، كما قال الشاعر:

ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طَهارَي نَقِيَّة [3] .....

---

(1) سورة العلق الآية 1

(2) سورة المدثر الآية 4

(3) هذا ثدر بيت، وعجزه:

وَأَوْجُـهُـهُمْ لِيْضُ المَسَـافِـر غُـرَّانُ

وفي رواية : « فبينا أنا أمشي إذ سمعتُ صَوْتاً من السَّماء. فرفعتُ رأسي، فإذا المَلَكُ الذي جاءني بحِراء جالساً على كرسيٍّ بين السَّماء والأرضِ، فجُئِثْتُ منه فَرَقاً! فرجعتُ، فقلتُ: زمِّلوني.... الحديث ».

وفي أخرى : « فَجُئِثْتُ منه فَرَقاً حتى هَوَيْتُ إلى الأرض ».

رواه أحمد والبخاريّ ومسلم والترمذيّ.

* * *

ومن سورة القيامة

عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **لاَ تُحَرِّكَ به لَسَانَكَ** ﴾، قال : كان النَّبيُّ ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي؛ كان مما يُحرّك به لسانَه وشفتَيْه فيشتدُّ عليه، فكان ذلك يُعْرَفُ منه، فأنزل الله ﴿ **لاَ تُحَرِّكْ به لسَانَكَ لَتَعْجَلَ به** ﴾، أَخْذَه : ﴿ **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ** ﴾ إنَّ علينا أن نجمَعه في صَدْرِكَ، وقرآنه فتقرأُهُ : ﴿ **فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ** ﴾ قال : أنزلنا فاسْتَمِعْ له : ﴿ **إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** ﴾ أن نبيّنه بلسانك، فكان إذا أتاه جبريلُ أَطْرَقَ، فإذا ذهبَ قَرأَه كما وَعَدَهُ اللهُ.

رواه البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ والنسائي.

* * *

والرُّجْز: الأوثان، سمَّاها بذلك لاستحقاق عابديها الزِّجز، وهو العذاب. كقوله: ﴿ **وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ** ﴾ [1] واهجر: اترك. ولربك فاصبر: أي على ما تلقاه من الأذى، والتكذيب عند الإنذار.

(1) سورة الاعراف الآية 134

ومن سورة الأخدود

عن صهيب، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «كان ملك فيمن كان قَبْلَكم، وكان له ساحرٌ، فلما كَبِرَ قال للملك: إنِّي قد كَبِرْت، فابعث إليَّ غلاماً أعَلِّمُهُ السِّحرَ، فبعثَ إليه غلاماً يعلِّمُه، فكان في طريقه ـ إذا سلك ـ راهبٌ، فقعدَ إليه، وسمع كلامَه، فأعْجَبَه، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب، وقعد إليه، فإذا أتى الساحرَ ضَرَبَه، فشكا ذلك إلى الرَّاهب، فقال: إذا خَشيْتَ الساحرَ فقُلْ: حَبَسَنِيْ أهلي، وإذا خَشيْتَ أهْلَكَ فقُلْ: حَبَسني السَّاحرُ، فبينما هو كذلك؛ إذ أتى على دابةٍ عظيمةٍ قد حَبَسَت النَّاسَ. فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل، أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً، فقال: اللهم! إنْ كانَ الرَّاهب أحبَّ إليك من السَّاحرِ فاقتلْ هذه الدابةَ، حتى يمضي الناسُ! فرماها، فقتَلها، ومضى الناسُ، فأتى الراهبَ، فأخبره، فقال له الراهب: أيْ بُنيَّ! أنت اليوم أفضلُ مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنَّك ستبتلى، فإن

ومن سورة الأخدود

(قول الراهب للغلام: «إذا خشيتَ الساحرَ فقُلْ: حَبَسَني أهلي») دليلٌ على: إجازة الكذب لمصلحة الدِّين، ووَجْهُ التمسُّك بهذا أن نبيَّنا ﷺ ذكر هذا الحديث كلَّه في معرض الثناء على الرَّاهب والغُلام عل جهة الاستحسان لما صَدَر عنهما، فلو كان شيءٌ مما صَدَر عنهما من أفعالهما مُحَرَّماً، أو غير جائز في شرعه لبيَّنه لأمَّته ولاستثناه من جُملة ما صَدَر عنهما، ولم يفعل ذلك. فكلُّ ما أخبر به عنهما حُجَّةٌ، ومسوغ الفعل.

فإن قيل: كيف يجوزُ في شرعنا ما فعل الغلامُ من دلالته على الراهب للقتل، ومن إرشاده إلى كيفية قتل نفسه؟ فالجوابُ من وجهين:

ابتليت فلا تدلَّ عليَّ. وكان الغلام يبرىء الأَكْمَه، والأَبْرَص، ويداوي النَّاس من سائر الأواء، فسمع جليسٌ للملك كان قد عَميَ، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ها هنا لك أجمعُ إن أنت شفَيْتَني! فال: إني لا اشفِي أحداً، إنما يشفي الله! فإن آمنت بالله دعوتُ الله فشفاك! فآمن بالله، فشفاه اللهُ، فأتى الملكَ، فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له المَلكُ: من ردّ عليك بَصَرَك؟ فال: ربي! فال: ولك ربٌ غيري؟ قال: ربِّي وربُّك الله! فأخذه، فلم يزل يُعذِّبُه حتى دلَّ على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أيْ بنيَّ! قد بلغ من سحْرِكَ ما تُبْرِىءُ الأكمهَ، والأبرصَ، وتفعل، وتفعل! قال: إنِّي لا أَشْفِي أحداً، إنَّما يَشْفِي اللهُ! فأخذه فلم يزل يعذِّبُهُ حتى دلَّ على الراهب، فجيء بالرَّاهب، فقيل له: ارجع عن دينك! فأبى، فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في مَفْرِقِ رأسِه، فشقَّه حتى وقع شِقَّاه، ثم جيء بجليسِ الملك، فقيل له: ارجع

أحدهما: أنَّ الغلامَ غير مكلَّف؛ لأنه لم يبلغ الحلم، ولو سلم أنه مكلّف لكان العذرُ عن ذلك أنه لم يعلمْ أن الراهبَ يُقتل، فلا يلزم من دلالته عليه قتله. وعن معونته على قتل نفسه: أنه لما غلب على ظنِّه أنه مقتولٌ ولا بُدَّ، أو علم بما جعل اللَّهُ في قلبه، أرشدهم إلى طريقٍ يظهر اللَّهُ بها كرامته، وصحة الدِّين الذي كانا عليه، ليُسْلِمَ الناس، وليدينوا دينَ الحقِّ عند مشاهدة ذلك كما كان. وقد أسلم عثمانُ ـ رضي الله عنه ـ نفسَه عند علْمه بأنه يُقتل ـ ولابدَّ ـ بما أخبر النبيُّ ﷺ كما بيَّنَّاه.

وهذا الحديثُ كلَّه إنما ذكره النبيُّ ﷺ لأصحابه ليصبروا على ما يلقون من الأذى، والآلام، والمشقَّات التي كانوا عليها؛ ليتأسوا بمثل هذا الغلام في صبره، وتصلُّبه في الحقِّ، وتمسُّكه به، وبذله نفسه في حق اظهار دعوته، ودخول الناس في الدِّين مع صِغَر سنه، وعظيم صبره. وكذلك الرَّاهب صبر على التمسُّك بالحق حتى نشر بالمنشار، وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى، ورسخ الإيمانُ في قلوبهم صبروا على الطَّرح في النار، ولم يرجعوا عن دينهم. وهذا كلُّه فوق ما كان يُفعل بمن آمن من أصحاب النبيِّ ﷺ فإنه لم يكن فيهم مَن فُعِل به شيءٌ من ذلك؛ لكفاية الله

عن دينك! فأبى، فوضع المنشار في مَفْرِق رأسه، فشقَّه به حتى وقع شِقَّاه. ثم جيء بالغلام، فقيل له: ارجع عن دينك! فأبى، فدفعه إلى نَفَرٍ من أصحَابه، فقَال: اذهبوا به إلى جبلِ كذا وكذا، فاصْعَدوا به الجبلَ، فإذا بلغتُم به ذرْوَتَه،فإن رجع عن دينه وإلاَّ فاطْرحُوه! فذهبوا به فصَعِدُوا به الجبلَ، فقال: اللهمُ اكْفنيهم بما شئتَ! فرجفَ بهم الجبلُ، فسقطُوا، وجاء يمشي إلى الملك فقال له: الملكُ: ما فعل أصحابُك فقال: كفانيُهمُ الله! فدفعه إلى نَفَرٍ من أصحابه، فقال: اذهبوا به، فاحملوه على قُرْقُورٍ، فتوسَّطُوا

تعالى لهم؛ ولأنَّه تعالى أراد إعزازَ دينه، وإظهار كلمته. على أنِّي أقولُ: إنَّ محمداً ﷺ أقوى الأنبياء في الله، وأصحابه أقوى أصحاب الأنبياء في الله تعالى، فقد امتحن كثيرٌ منهم بالقتل، وبالصلب، وبالتعذيب الشديد، ولم يلتفت إلى شيءٍ من ذلك، وتكفيك فصَّةُ عاصم وخُبيب وأصحابهما، وما لقي أصحابُه من الحروب، والمحن، والأسر، والحرق، وغير ذلك، فلقد بذلوا في الله نفوسَهم، وأموالَهم، وفارقوا ديارهم وأولادهم، حتى أظهروا دينَ الله، ووفَّوا لما عاهدوا عليه الله، فجازاهم اللَّهُ أفضلَ الجزاء، ووفَّاهم من أجر مَن دخل في الإسلام بسببهم أفضلَ الإجزاء.

وقد تقدَّم أن المنشار يُقال بالنون وبالياء المهموزة، وهي الأفصحُ، وقد تسهل همزتها. والدابَّة العظيمة. كانت أسداً، كما جاء في حديث آخر. والقرقُور -بضم القافين-: هو السفينةُ الكبيرة. قاله الهروي، وقد أنكر هذا عليه. وقيل: إن السُّفُنَ الكبارَ لا تُستعملُ في مثله.

قال الشيخ رحمه الله: وهذا إنكارٌ ينبغي أن يُنكر، فلعلَّ هذا الملكَ قَصَدَ إلى أعظم السفن حتى يتوسَّط البحرَ بهذا الغلام ليلقوه في أبعده عنه، أو لعلَّه جعل معه في السَّفينة من يملؤها أو يملؤها، والمرجعُ فيه إلي أهل اللغة. وقد قال ابنُ دُريد في «الجمهرة»؛: القرقور: ضربٌ من السفن، عربي معروف، والمعروف عند الناس فيه استعمالُه فيما صَغُر منها، وخفَّ للتصرُّف فيه.

و(قوله: فرجف بهم الجبل») أي: تحرَّك، وتزلزل بهم. وخدّ الأخدود؛ أي: حَفَر في الأرض شقاً مستطيلاً عظيماً، ويُجمع: أخاديد.

به البحرَ، فإن رَجَعَ عن دينه وإلاَّ فاطرحوه! فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئتَ! فانكفأتْ بهم السفينةُ، فغَرِقُوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال الملكُ: ما فعل أصحابُكَ؟ فال: كفانيهم الله! فقال للملك: إنَّكَ لستَ بقاتلي حتى تفعل ما آمُرُكَ به. قال: وما هو: قال: تجمعُ الناسَ في صعيدٍ واحدٍ وتَصلُبني على جذعٍ، ثم خُذْ سَهماً من كِنَانَتي، ثم ضَعِ السَّهَمَ في كَبِدِ القوسِ ثم قل: باسم اللهِ ربِّ الغلام! ثم ارمني فإنك إنْ فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جدع، ثم أخذها سهما من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس ثم رماه، فوقع السَّهمُ في صُدْغه، فوضعَ يده في صُدْغه في موضع السَّهمِ، فمات، فقال الناسُ: ؛ آمنا بربِّ الغلام! آمنا بربِّ الغلام! فأتى الملكُ، فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر! قد والله نزلَ بك حذرك! قد آمن الناس! فأمر بالأخدود بأفواه السِّكك. فخُدَّتْ، وأضْرَمَ النيرانَ. وقال: مَنْ لم يرجع عن دينه فأحْمُوهُ فيها! أو قيل له: اقتحِمْ. ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبيٌّ لها، فتقاعستْ أن تقعَ فيها. فقال لها الغلام: يا أمَّه! اصْبِري، فإنّك على الحق!».

رواه أحمد ومسلم، والترمذيّ والنسائي في الكبرى.

* * *

و(قوله: «فَاحْمُوه فيها، أو قيل: اقتحم») هذا شكٌّ من بعض الرواة، فَأحْمُوه فيها، معناه: أَلْقوه فيها، وأدْخلوه إيَّاها. يقال: أحميت الحديد والشيء في النار: إذا أدخلته فيها. قال القاضي أبو الفضل: واقتحمْ: ادخلْ على كره ومشقة.

و(قوله: «فتقاعستْ») أي: تأخرَّت وامتنعت، وقد أظهر اللَّهُ لهذا المَلك الجبَّار الظالم من الآيات والبيِّنات ما يدلُّ على القطع والثبات أن الراهبَ والغلامَ على الدِّين الحقِّ، والمنهج الصِّدْق، لكنْ من حُرِم التوفيق، استدبر الطَّريق. وفي هذا الحديث إثباتُ كرامات الأولياء، وقد تقدَّم القولُ فيها.

ومن سورة الشمس وضحاها

عن عبد الله بن زَمْعَةَ قال: خطبَ رسولُ ﷺ، فذكر الناقةَ، وذكر الذي عَقَرَها، فقال: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ انبعثَ بها رجلٌ عزيزٌ عارمٌ منيعٌ في رَهْطه؛ مثل أبي زمعة» ثم ذكر النساءَ، فوعظ فيهنَّ، ثم قال: «إلامَ يجلدُ أحدُكم امرأتَه!».

وفي رواية: «جَلْدَ العبد، ولعلَّه يُضَاجعُها من آخر يومه». ثم وعظَهُم في ضحكهم من الضَّرْطَة. فقال: «إلامَ يضحكُ أحدُكم مما يَفْعَلُ؟».

رواه أحمد والبخاريّ ومسلم والترمذيّ وابن ماجه.

* * *

ومن سورة الشمس وضحاها

(قوله ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ أي: قام مُسْرِعاً، وضميرُ المونثُ عائدٌ على ثمود، وهي مؤنثةٌ؛ لأنها قُصد بها قصد قبيلة؛ ولذلك مع التعريف لم تُصرف. والعزيز: القليل المثل، ويكون بمعنى: الغالب. والعارم: الجبَّار الصَّعب على من يرومه، والممتنع بسلطانه وعشيرته. وأبو زمعة هذا يحتملُ أن يكون هو الذي قال فيه أبو عمر: أنه بلويٌّ صحابي، ممن بايع تحت الشَّجرة، وتوفي بإفريقية في غزاة معاوية بن خديج الأولى، ودُفن بالبلويَّة بالقيروان.

قال الشيخ رحمه الله: فإن كان هو هذا؛ فإنه شبَّهه بعاقر الناقة في أنه عزيزٌ في قومه، ومنيعٌ على مَن يريده من أهل الكفر. ويُحتملُ أن يريدَ به غيره ممن يسمَّى بأبي زمعة قاله ابنُ إسحاق وغيره.

و(قوله: «إلام يَجْلدُ أحدُكم امرأتَه جَلْدَ العبد؟») هذا إنكارٌ على من يجلدُ زوجتَه ويُكْثر من ذلك حتى يعاملَها معاملةَ الأَمَة، ثم بعد ذلك باليسير يرجعُ إلى مُضاجعتها، وإلى قضاء شهوته منها، فلا تُطاوعه، ولا تتحسَّنُ له، وقد تبغضه، وقد يكون هو يحبُّها، فيفسد حاله، ويتفاقم أمرُهما، وتزول الرحمةُ والمودَّةُ التي جعلها

ومن سورة الليل

عن عَلْقَمةَ، قال: قَدمْنَا الشامَ، فأتانا أبو الدرداء، فقال: أفيكُم أحدٌ يقرأ عليَّ قراءة عبد الله؟ فقلت: نعم، أنا! قال: فكيف سمعتَ عبدَ الله يقرأ هذه الآية: ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى** ﴾ ؟قال: سمعتُه يقرأُ: والليلِ إذا يَغْشَى، والذكرِ والأنثى قال: وأنا والله! هكذا سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقرؤُها، ولكن هؤلاء يُريدون أن أقرأ: ﴿ **وَمَا خَلَقَ** ﴾ فلا أتابِعُهُم!.

رواه أحمد، والبخاريُّ ومسلم والترمذي.

* * *

اللَّهُ تعالى بين الأزواج، ويحصل نقيضُها، فنبَّه ﷺ بهذا اللَّفظ الوجيز على ما يطرأ من ذلك من المفاسد.

و(قوله: ثم وَعَظَهم في ضحكهم من الضَّرطة) أي: نَهاهم وزجرهم عن ذلك؛ لأنه فعْلٌ عاديٌّ يستوي فيه الناسُ كلُّهم؛ وإن كان ممَّا يُستقبح، فحقُّ الإنسان أن يستترَ به؛ فإن غلبه بحيث يسمعه أحدٌ فلا يضحك منه، فأنه يتأذَّى الفاعلُ بذلك، ويخجل منه، وأذى المسلم حرام، فالضحكُ من الضَّرطة حرام.

ومن سورة والليل إذا يغشى

قراءة عبد الله بن مسعود، وأبي الدَّرداء ـ رضي الله عنهما ـ و(الذكر والأنثى) ليستْ قرآناً، هكذا بإجماع الصَّحابة والمسلمين بَعْدَهم واتفاق المصاحف على خلافها، وأنَّ القراءةَ المتواترة: ﴿ **وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى** ﴾ وبقي عبدُ الله وأبو الدرداء على ما سمعاه، وأبَيا أن يقرآ على قراءة الجماعة. وعليهما في ذلك إشكالٌ، وعلى قراءتهما يكون الذكر. هو آدم، والأنثى: حواء، وهم المُقسَم بهما، وعلى قراءة الجماعة: المُقْسَم به: ما خلق، وهو بمعنى الذي، ويعني به الخالق. وقد قيل: يعني بذلك المصدر، فكأنَّه قال: وخَلْق الذكرِ والأنثى، وعلى هذا فيكون الذكرُ والأنثى يُراد به النوعُ كلُّه، والله تعالى أعلم.

ومن سورة الضحي

عن جندب بن سُفيان، قال: أبطأ جبريلُ عن رسول الله ﷺ، فقال المشركون: قد وُدِّع محمّد، فأنزل الله عز وجل: ﴿ **وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى** ﴾.

رواه مسلم في الجهاد.

وعنه؛ قال: اشتكى رسولُ الله ﷺ، فلم يَقُمْ ليلتين، أو ثلاثاً، فجاءته امرأةٌ فقالتْ: يا محمّد! إنِّي لأَرجو أن يكونَ شيطانُك قد تركَكَ! ولم أره

ومن سورة والضحى

(قوله: أبطأ جبريلُ ـ عليه السلام ـ عن رسول الله ﷺ، فقال المشركون: قد وُدِّع محمد) هذا إنما كان بمكة في أول الإسلام، وذلك أنَّ المشركين سألوا رسولَ الله ﷺ عن الخضر، وذي القرنين، والروح، فوعدهم بالجواب إلى غد، ولم يستثنِ، فأبطأ عليه جبريلُ. قيل: اثنتي عشرة ليلة، وقيل أكثر من ذلك، حتى ضاق صَدْرُ النبيِّ ﷺ، وقال المشركون ذلك القول، فعند ذلك نزل عليه جبريلُ ـ عليه السلام ـ بهذه السورة، وبجواب ما سألوا عنه، وقال له: ﴿ **وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ** ﴾ [1]، قاله ابنُ إسحاق وغيره.

و(قول جندب في الرواية الأخرى: إنها نزلت جواباً لمن قالت: تركه شيطانُه). لا يعارضُ بما قاله ابن إسحاق؛ إذ يجوز أن تكون نزلتْ جواباً لذينك الشيئين، وجواباً لمن قال ذلك كائناً مَن كان. وقد تقدَّم أنَّ الضحى: صَدْرُ النهار. وسجى: أقبل ظلامه. وما ودَّعك ـ مشدداً ـ: هي القراءةُ المتواترة. أي: ما تركك تَرْكَ مردّع. وقراءة ابن أبي عبلة: وَدَعك ـ مخففاً ـ على الأصل المرفوض كما قدَّمناه، وذلك أنَّ العربَ أماتت ماضيه واسم فاعله، وصيغة مفاضلته، استغناء عنه بـ(ترك)، وقد نُطِقَ بذلك قليلاً. والقلى: البغض.

---

(1) سورة الكهف الآيات 23 ـ 24

قَربَكَ منذ ليلتين أو ثلاث! قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿ **وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى** ﴾.

رواه البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ.

* * *

ومن سورة اقرأ باسم ربك

عن أبي هريرة، قال: قال أبو جهلٍ: هل يُعفِّر محمدٌ وَجْهَه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللات والعزّى! لئنْ رأيتُه يفعل ذلك لأَطأَنّ على رَقَبته أو لأعفرنَّ وَجْهَه بالتُّراب! قال: فأتى رسول الله ﷺ، وهو يُصَلِّي. زعم ليَطأ على رقبته. قال: فما فجئهم منه إلا وهو يَنْكِصُ على عقبيه ويتَّقِي بيديه! قال: فقيل له: مَالَك؟ فقال: إنَّ بيني وبينه لخندقاً من

ومن سورة اقرأ

تَعْفيرُ الوجه: تَتْرِيْبُه. وينكصُ على عقبيه: يرجع القهقري وراءه.

و(قوله تعالى: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ** ﴾ [1] أي: ذكر اسم ربك بالتوحيد والتعظيم. والباء صلة. قاله أبو عبيدة، وقيل عنه: الاسم صلة. أي: بعونه وتوفيقه، وأشبه منهما أن يقال: إنَّ معناه: ابْتَدِىء القراءة ببركة اسم ربِّك وعَونثه، وخلق: أي: آدم ـ عليه السلام ـ من تُراب. وخَلَقَ الإنسانَ من عَلَق: يعني ولده، والعَلَق: الدم. جمع علقة، وسُمِّيت بذلك لتعلُّقها بما مرَّت عليه، وأنشدوا:

تَرَكْناهُ يَخِرُّ على يديه ... يَمُجُّ عَلَيْهِما عَلَقَ الوتينِ

واقرأ الثاني: توكيدٌ للأول لفظي، ولذلك حَسُنَ الوقفُ عليه. وربك الأكرم، وهو مرفوعٌ بالابتداء، وخبره: علَّم الإنسان ما لم يَعْلَمْ؛ قيل: آدم ـ عليه السلام ـ علَّمه الأسماء كلَّها. وقال قتادة: هي للجنس، أي: الخطّ.

---

(1) سورة العلق الآية 1

نارٍ، وهولاً وأجنحةً! فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا منِّي لاختطفتهُ الملائكةُ عُضْواً عُضْواً». قال: فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: لا تدري في حديث أبي هريرة، أو شيءٌ بلغه: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى﴾ إلى ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾. يعني أبا جهل ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهَ يَرَى * كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ﴾ إلى قوله

قال الشيخ رحمه الله: (ما) لإبهامها للعموم؛ إذ اللَّهُ تعالى علَّم كلَّ واحدٍ من نوعِ الإنسان ما لم يكن يَعْلم، لكن الامتنان إنما يحصلُ بالعلوم النافعةِ لا غير، فهي المقصودةُ بهذا العموم، والله أعلم.

وقد تقدَّم: أن أول ما نزل من القرآن من أول هذه السُّورة إلى آخر هذه الآية، ثم بعد آمادٍ نزل قولُه: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾ [1] فهذا نمطٌ آخرُ افتتحَ الكلام به، ولذلك قال أبو حاتم: إن «كلاَّ» هنا بمعنى ألاَ التي للاستفتاح. وقال الفرّاء: إنها تكذيبٌ للمشركين. وقول أبي حاتم أولى. والإنسانُ هنا: أبو جهل. و(ليطغى) أي: تكبَّر وارتفع حتى تجاوز المقدارَ والحدِّ. و(أن رآه استغنى) أي: من أجل استغنائه بماله، وشدّته، وعشيرته، وعلى هذا فالضميرُ عائدٌ إلى أبي جهل، أعني: الضَّمير في (رآه). وقيل: هو عائدٌ على محمد ﷺ؛ أي: أنَّ أبا جهل طَغَى، وتجاوزَ الحدَّ في حَسَده لمحمد ﷺ، من أن استغنى محمدٌ ﷺ بربه، وبما منحه من فَضْله عن كلِّ أحدٍ من جميع خَلْقه.

و(قوله: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [2] أي: الرُّجوع إليه يوم القيامة، فيجازي كُلاً بفعله.

و(قوله: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى﴾ [3] يعني به: أبا جهل، نهى رسولَ الله * عن أن يُصَلِّي، وقال ما ذكره في الحديث. و(أرأيت) هذه فيها معني التعجب، فكأنَّه قال: اعجب من هذا الجاهل الضَّعيف العقل، كيف ينهي عن عبادة الله تعالى مثلَ محمد ﷺ.

---

(1) سورة العلق الآية 6
(2) سورة العلق الآية 8
(3) سورة العلق الآيات 9-10

﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلاَّ لا تُطِعْهُ ﴾ وقال : وأمره بما أمره.

في روايةٍ : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ يعني : قومه.

رواه أحمد ومسلم والنسائي في الكبرى.

و(قوله : ﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴾[1] قيل: هو خطابٌ لأبي جهل، وهو خطابُ توبيخ له، واحتجاج عليه، فكأنه قال: أخبرني أيها المنّاع لمحمد من العبادة إن كان محمد على الهدى، أو أمر بالتقوى، فصددته عن ذلك، ألم تعلم اللَّهَ يراك، وهو قدير على أَخْذك ومعاقبتك؟! وقيل: جوابه محذوف، تقديره: ألست تستحقُ من الله النكالَ والعقاب؟ ثم أَخَذَ بعد هذا في تهديده ووعيده، فقال: (كلا)! أي: ويلٌ له وهلاك.

و(قوله : ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾[2] هذا قسمٌ من الله تعالى على تعذيبه، وإهلاكه إن لم يُؤْمن. ومعنى: ﴿ لنسفعاً ﴾: لنأخذن، ولنجذبن. والناصية: شعر مقدم الرأس، وهذا الوعيدُ مثل قوله تعالى: ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ ﴾[3] ثم وصف ناصيته بأنها كاذبة خاطئة، والمقصود: صاحبها.

و(قوله: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾[4] أي: إذا أخذناه، فلينتصرْ بأهل مجلسه إن صحَّ له ذلك. والنادي: المجلس، وأراد به أهلَ ناديه، ويقال عليهم: النَّدي.

(وقوله : ﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾[5] أي: لتعذيبه، وهم خزنةُ النَّار الموكَّلون بتعذيب الكفَّار، وهم الملائكةُ الذين قال الله فيهم: ﴿ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[6] وسُمُّوا زبانيةً من الزَّبن، وهو الدفعُ؛ لشدَّة دَفْعهم وبطشهم. قال الشاعر:

..... زَبانِيَةٌ غُلْبٌ عِظامٌ كُلُومُها[7]

---

(1) سورة العلق الآيات 11-12
(2) سورة العلق الآية 15
(3) سورة الرحمن الآية 41
(4) سورة العلق الآية 17
(5) سورة العلق الآية 18
(6) سورة التحريم الآية 6
(7) هذا هجز بيتٍ، وصدره:
مَطَاهِيمُ في القُصْوَى مَطَاعِينُ في الوَغَى

ومن سورة النصر

عن عبد الله بن عُتْبَة، قال: قال لي ابنُ عباس: تعلمُ آخرَ سورةٍ من القرآن نزلت جميعاً؟ قلتُ: نعم: ﴿ **إذا جَاءَ نَصرُ اللهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ قال: صدقت.

وفي روايةٍ: تعلم أيّ سورةٍ ولم يقل: آخر. رواه مسلم.

وعن عائشة. قالت: كان رسولُ الله ﷺ يكثر من قول «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه». فقلت: يا رسول الله! أراك تكثر من

و(قوله: ﴿ **كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ** ﴾[1] تأكيدُ زجرٍ لأبي جهل، ونهي لمحمد ﷺ عن طاعته في ترك الصَّلاة، وفيما يأمرُ به، وينهى عنه. و﴿ **اسجدْ واقترب** ﴾ أي: صَلِّ لله، وتقرَّب إليه بعبادته، وأفعال البرِّ، وقد تكلَّمنا على سجود القرآن في كتاب الصلاة.

ومن سورة النَّصر

(نصرُ الله): عَوْنُه على إظهار نبيِّه ﷺ على قُريش وغيرهم. و(الفتح): فتح مكة كما فسَّره النبيُّ ﷺ في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ ولا يُلتفت لما قيل في ذلك ممَّا يُخالفُه. والأفواج: الزّمر. يعني. زمرة بعد زمرة، وهذا كان بعد فتح مكة، فإنَّ أهلَ مكةَ كانوا عظماءَ العرب وقادتَهم، ومكة بيت الله تعالى، فتوقفت العربُ في إسلامها على أهل مكة ينظرون ما يفعلون، فلما فتح اللَّهُ تعالى مكةَ على نبيِّه ﷺ وأسلم أهلُها، أصفقت العربُ على الدخول في الإسلام، وهَجَرت الأوثان، وعطَّلت الأزلام، وحَصَل التَّمام، وكَمُل الإنعام، فوجبَ الشُّكرُ لهذا المنعم الكريم، واستغفار هذا المولي الرحيم، لا سيما وقد أفصحَ خطاباً: ﴿ **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّه كَانَ تَوَّاباً** ﴾[2] أي: قُلْ يا محمدا سبحان اللهَ وبحمده، واستغفر اللهَ، وأتوبُ إليه. فكان

---

(1) سورة العلق الآية 19

(2) سورة النصر الآية 3

قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر اللهَ وأتوب إليه؟»، فقال: «خبَّرَني ربِّي: أنِّي سأرى علامةً في أمَّتي، فإذا رأيتُها أكثرتُ من قول: سبحانَ اللَّه وبحمده! أستغفرُ الله وأتوبُ إليه! فقد رأيتُها: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾، فتح مكة. ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً...﴾ إلى آخرها [النصر]

رواه البخاري ومسلم

* * *

ﷺ يُكْثر من قول ذلك شُكراً لله تعالى، وامتثالاً لما أُمر به هنالك. وقد تقدَّم: أنَّ عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهم ـ فَهِما من هذه السُّورة: أنَّ الله تعالى نَعَى لنبيِّنا محمد ﷺ نفسه، وكذلك فهمه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ. وقال ابنُ عمر ـ رضي الله عنهما ـ: نزلتْ هذه السُّورةُ بمنى في حَجَّة الوداع، ثم نزلتْ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ (1) فعاش بعدها النبيُّ ﷺ ثمانين يوماً، ثم نزلتْ آيةُ الكلالة، فعاش بعدها خمسين يوماً، ثم نزل: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ (2) فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً، ثم نزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرجعُونَ فيه إِلَى اللهِ﴾ (3) فعاش بعدها أحداً وعشرين يوماً. وقال مقاتل: سبعة أيام (إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً) على النَّادمين ـ وإن كثروا ـ ومحَّاءَ ذنوبَ الخطَّائين إذا استغفروا.

نسأل اللهَ العظيمَ الكريمَ أن يُلهِمُنا النَّدمَ الذي هو أعظمُ أركان التوبة، وأن يمحوَ ذنوبنا، ويُلْهِمنا الاستغفارَ الموجبَ لذلك إن شاء الله تعالى.

* * *

---

(1) سورة المائدة الآية 3

(2) سورة التوبة الآية 128

(3) سورة البقرة الآية 281

تم هذا التأليف

وهو كتاب المفهم لما أشكل

من صحيح مسلم، وهو آخر الأجزاء

والحمد لله أولاً وأخيراً

1876